



دور الأزهر الشريف في ترسيخ القيم والتعایش السلمي بين الواقع والمأمول

إعداد

محمد رجب محمد مصطفى

إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

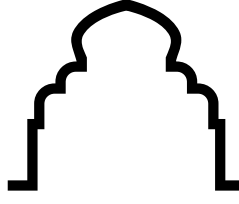


الإهداء



أهدي هذا العمل المتواضع إلى نور الكون وسر جماله ، إلى من رفع الله ﷻ قدره ،
وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره .
أهديه إلى صاحب اللواء ، المكرم في رحلة الإسراء ، إلى تاج الرسل وخاتم الأنبياء .
أهديه إلى أعظم مخلوق في الوجود ، سيد كل والد ومولود ، زينة البرايا ، المخصوص
بالمناجى والعطايا ، نور الحياة والقلوب ، المصطفى المكين عند علام الغيوب .
أهديه إلى سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، فسلام عليك يا سيدي يا حبيب القلوب
والأرواح ، هذا العمل من فيض علمك اقتبسناه ، ومن معين هديك ارتشفناه ، نشهد لك
أنك قد بلغت وأديت ، ونحن في جميل هديك نتنعم ، وفي أنوار علمك نسير . وأسأل الله
العلي الأعلى أن يجعل له بسرك القبول ، والنفع لعباده .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كما
تحب وترضى ... آمين .



مُكَلِّمَاتُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، المنفرد باسمه الأسمى، الذي ليس دونه منتهى، ولا وراءه مرمى، وسع كل شيء رحمة وعلما، وأسبغ على أوليائه نعمًا عظمى، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله المصطفى، أشرف الخلق عربا وعجمًا، وأزكاهم أما وأبا، زكاه ربه روحا وجسما، وحاشاه عيبا ووصما، وآتاه حكمة وحكما، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله كما تحب وترضى .

أما بعد .

إنه مما لا يستطيع أحد إنكاره، أن الأزهر الشريف مدرسة اختارها الله تعالى لنشر علوم دينه، وحفظ تراث شريعته، تلك الرسالة الخاتمة التي ختم بها وحيه إلى عباده، وقد قام الأزهر الشريف في عمره المديد عبر القرون والعصور بأداء تلك الأمانة، وتبليغ هذه الرسالة، وذلك لأنه الوريث الأعظم لهدي النبي ﷺ تمثل هذا في التعليم والتعلم وتخريج عشرات الآلاف من العلماء، الذين انتشروا في أرجاء المعمورة شرقا وغربا، لنشر رسالة الإسلام وعلومه، ورفع لواء الهدى والإيمان، يدلون الخلق على الحق سبحانه وتعالى، ويأخذون بأيدي عباده إليه وإلى صراطه المستقيم ومنهاجه القويم .

لذلك اختاره الله ﷻ وكتب له البقاء عبر هذا الزمن الطويل من عمره المبارك، فازداد مع تقدم الزمان عزة وشرفا، وقام عبر هذه القرون بدوره الفعال في تكوين شخصية المسلم عامة، و شخصية المصري خاصة، فأحيا النفوس من غفلة البعد عن الله تعالى بأنوار القرب منه ﷻ، وأسس في النفوس القيم السامية، والأخلاق الكريمة التي تسمو بنفس الفرد وحياة المجتمع كله، وهذا الدور للأزهر لا ينكر ولا يدفع، فقد كان الأزهر الشريف منبع الهدى والحكمة والتنوير والتعليم

والتوعية، وكل هذا قد انعكس على حياة المسلمين في كل أرجاء الدنيا، خاصة وأن الأزهر الشريف ومناهجه قد أثرت في الموفدين إليه من الشرق والغرب ليتعلموا علومه وأخلاقه، فأنارت أنواره الدنيا وبددت ظلمات الجهالة، وأعطى علماءه القدوة الحسنة والمثل الأعلى للعامة والخاصة، من أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، مما أثر عبر هذا الزمان الطويل في أخلاق المسلمين ومعاملاتهم وقيمهم تأثيرا كبيرا، كانت نتائجه كل خلق كريم، وسلوك حميد، وحياة مطمئنة، والتعايش السلمي، وتأسيس المجتمع الذي يكفل الحقوق لأفراده بفضل الله تعالى أولا، ثم بهمة العلماء الذين رفعوا لواء الحق وضمان الحقوق، والتصدي للظلم والاستبداد في مراحل مصر التاريخية جميعها .

لهذا كان الأزهر وعلماءه سببا عظيما في التغيير والتأثير قديما وحديثا، وفي النهوض بالقيم وتغيير الواقع إلى أحسن حال كما هو مراد الله تعالى ورسوله ﷺ منا .

ويأتي هذا البحث في هذه القضية : ((دور الأزهر في ترسيخ القيم والتعايش السلمي بين الواقع والمأمول))، حاولت فيه ربط الواقع الذي نعيشه في عصرنا، وما آل إليه أمر القيم والأخلاق من تدهور، وذلك نتيجة غياب دور الأزهر وتأثيره في المجتمع، وبين دوره قديما، لما كانت تتطلع إليه العيون والأبصار، وتعلق به وبعلمائه الأجلاء الأئمة والقلوب، لنحاول التعرف على دوره المأمول الذي طال انتظاره وتشوقت إليه القلوب والنفوس، فالزمن يفرض رجوع دور الأزهر في حياة الناس، لأنه لما غاب دوره اختلفت الحياة، وتبدلت إلى صورة غريبة على طبيعة المصريين خاصة والعالم الإسلامي عامة.

ولما كانت القيم الإنسانية يصعب حصرها، لأنها تتعدد بتعدد أحوال الإنسان واختلاف طبيعته من حال إلى حال، ومن بيئة إلى أخرى، ومن شخص لآخر، عمدت إلى ذكر أصول تلك القيم وأسسها، التي تجدها مشتركة بين المجتمعات الإنسانية ولا يختلف عليها أحد، فاستقصيت على قدر استطاعتي، وما توافر لدي من الوقت بعضا منها كالقيم العقائدية، والقيم الاجتماعية، والعلمية، والسياسية، والإعلامية، وقد تشترك القيمة الواحدة بين نوع وآخر من هذه الأنواع، فتجد مثلا قيما يصح أن نضيفها على أنها اجتماعية، كما يصح تصنيفها على أنها من القيم السياسية، فأوردتها تحت أحد التصنيفين مكتفيا بهذا مستطردا ذكر قيمتها وأهميتها، شارحا لما تشتمل عليه من معان مشتركة بين التصنيفين .

وحاولت ذكر منهج الأزهر الشريف في ترسيخ هذه القيم، وهو المنهج الإسلامي، فمنهج الأزهر هو منهج الإسلام وميراث النبي ﷺ، وذكرت الأمثلة من حياة علمائه ﷺ في ترسيخ هذه القيم بتطبيقها عملياً، وترسيخها بالأفعال مع الأقوال على قدر ما وصلت إليه من أخبارهم ﷺ .
فما أحوجنا إلى عودة الأزهر الشريف بعلمائه ومنهجه وسماحته ووسطيته وعلو همته ورقى فكره إلى الحياة ! .

والله أسأل أن يعين المخلصين ليعودوا بالأزهر الشريف ودوره في الحياة ويوفقهم ويسر لهم ويهيئ لهم أمر رشدهم، فهي أمانة عظيمة، ورسالة كبيرة، هم أهل لها بتوفيق الله وعونه .

فإن كنت قد أحسنت فتوفيق الله تعالى وفضله، وما كان من زلل وخطأ فمن نفسي و الشيطان، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ويرضى به عنا، إنه ولي التوفيق والهادي إلى الصراط المستقيم .

وصلّى الله على سیرنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد رجب محمد مصطفى علي الأزهرى
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية
مديرية أوقاف سوهاج

الأزهر الشريف
بين
الماضي والحاضر

﴿ الأزهر عظمة الاسم بين الدلالة والواقع ﴾

((الأزهر)) : اسم قد سبقت حكمة الله تعالى واختياره له، ليكون اسماً لهذا المسجد الشريف وليكون اسماً على مسمى، فهو دال على النور الذي أزهر وأراد الله تعالى أن يخرج منه إلى أرجاء الأرض، ليبدد ظلمات الجهالة، وليحافظ به على أصول الدين وفروعه ! بل وإنك لتتعجب من موافقة الاسم لحال المسمى فهو اسم بمجموع معانيه دال على النور والبياض والصفاء :

((الأزهر)) هو: المستنير . والزهر و الزهرة : البياض النير . وهو أحسن الألوان . (١)
و((الأزهر)) : النير ويسمى القمر . و((الأزهران)) : الشمس والقمر . ورجل أزهر : أي أبيض مشرق الوجه . (٢) والأزهر من الرجال : الأبيض العتيق البياض النير الحسن وهو أحسن البياض كأن له بريقاً ونوراً يزهر كما يزهر النجم والسراج . (٣)
قال الأزهري : وإذا نعتته بالفعل اللازم قلت زهر يزهر زهراً وزهرت النار زهوراً : أضاءت . (٤)

وسمي ((الأزهر)) لأنه كان محاطاً بقصور زاهرة، ولأنه كان أكبر الجوامع على الإطلاق فخامة ورواء، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه سمي باسم فاطمة الزهراء عليها السلام التي ينتسب إليها الفاطميون، ويقال : إنه كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه . (٥)

وفي هذا الاسم الشريف تتجلى حقيقة دلالاته على المسمى فعلاً، فهو الأزهر الأنور الذي نور الدنيا شرقاً وغرباً بنور العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ .



^١ - ((النهاية في غريب الأثر)) (٢ / ٣٢٢) .

^٢ - ((مختار الصحاح)) (١ / ١١٦) .

^٣ - ((لسان العرب)) (٤ / ٣٣٢) .

^٤ - ((لسان العرب)) (٤ / ٣٣٣) .

^٥ - ((الأزهر في ألف عام)) للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي (٢ / ٤٠٧) .

﴿ الأزهر الوريث الأعظم للمهدي النبوي ﴾

لقد جرت سنة الله تعالى في خلقه وكونه بالفضل، ففضل ليال على ليال، وشهورا على شهور، وأياما على أيام، ومواضع على مواضع، وخلقنا على خلق، فهذه إرادته سبحانه وحكمته في خلقه وعباده، واختار الله تعالى أفضل البقاع والمواضع، فجعل أفضلها بيته الحرام، ثم حرم نبيه ﷺ، ثم المسجد الأقصى، تلك المواضع المباركة عبادة وعلمًا وتعليمًا وثوابًا، فخصها بفضله ومضاعفة ثوابه لعباده، وبقية مساجد الأرض هي في الثواب والفضل سواء، إلا أن الله ﷻ قد خص بعضها بميزات عظيمة، ومناقب شريفة كريمة، ضمت إلى جانب كونها مواضع للعبادة ولثوابه ﷻ فضل تعليم الناس الخير وشرائع الدين، ومنهج الصراط المستقيم، وهذه صفة لازمت الإسلام منذ ظهوره وبزوغ نوره، الذي بدد ظلمات الشرك والجهالة، وهذا في الحقيقة أسس لرسالات السماء إلى العباد، وعلى رأسها هذا الدين الكامل، والسبيل المستقيم الواضح ((الإسلام))، الذي وقف المنصفون أمامه وأمام رسوله ﷺ وشريعته موقف الإجلال والإعظام، خاصة وأنه قد أكرم بهذه الشريعة وعلومها نبي عظيم شريف كريم، أعجز الله به وبعلمه سائر الخلق سلفًا وخلفًا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكان وجه الإعجاز فيه كونه ﷺ أميًا لا يدري ما القراءة ولا الكتابة قال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت آية: ٤٨].

أراد الله أميًا ليعرفنا أنه أكبر من كل علوم البشر وثقافتهم وعلومهم البشرية، لأنه مستمد لعلومه من رب الأرض والسموات ﷻ الذي أحاط بكل شيء علمًا، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء آية: ١١٣] فهو الأمي الذي أعجز العالمين بعلومه، واستمد العلم منه سر الحقائق العلمية في زماننا وقبله ولا يزال إلى يوم القيامة، فكملة بأميته في حين أنها صفة نقص فيمن سواه ﷻ، فبعث معلمًا، وأعلن هذا عن نفسه لتقتدي به أمته، عن عبد الله بن عمرو ؓ قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَعْضِ حُجْرِهِ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِحَلَقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ وَالْآخَرَى يَتَعَلَّمُونَ

وَيَعْلَمُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((كُلُّ عَلَى خَيْرٍ هَؤُلَاءِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ وَهَؤُلَاءِ يَتَعْلَمُونَ وَيَعْلَمُونَ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا)) . فَجَلَسَ مَعَهُمْ .^(١)

فعمل ﷺ بكل جهده على أن يخرج لنا أمة متعلمة معلمة، تحمل مشاعل العلم إلى كل المعمورة شرقا وغربا، وكانت تربيته ﷺ لأصحابه ﷺ على حب العلم والاهتمام به، والعمل على تسليمه لمن بعدهم ليكون أمانة الزمان، ينقلها عدول كل زمن إلى من بعدهم، ولا يدلك على هذا أكثر من الآيات الكثيرة التي جاءت بها شريعة الإسلام وسنة النبي ﷺ، فأما الكتاب فهو زاهر بالآيات التي تحض على العلم ومدح العلماء، بل ويكفيك من هذا أن أول ما نزل به هذا الوحي الكريم أمر الله تعالى بمفتاح العلم والفهم، فقال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة العلق آية: ١ - ٥] وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ ﴾ [سورة الزمر آية: ٩]، وقال ﷺ: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ أَلَرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [سورة الفرقان آية: ٥٩] ولن يكون العبد خبيرا بالله تعالى إلا بالعلم، وما ينتج عنه، وما يلزمه من التعقل والتفكر والتدبر في الملك والملكوت، حتى يأتي بأمر الله بتحصيل العلم الذي يؤدي إلى معرفته ﷺ كما قال تعالى في غير آية من القرآن فقال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة القصص آية: ٦٠] ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة محمد آية: ٢٤] وغير هذه الآيات الكثيرة التي جاءت في الذكر الحكيم في فضل العلم والتعلم والعلماء، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت آية: ٤٣]

وكذلك السنة التي جاء فيها مئات الأحاديث عنه ﷺ من الأمر بالتعليم وطلب العلم وحرصه ﷺ على النهوض بالأمة في مجال العلم بكل اتجاهاته ومناهجه، وتعليم مفاتيحه من القراءة والكتابة حتى جعل فداء الأسرى تعليم كل أسير منهم لعشرة من المسلمين الأميين، وكانت تربيته الشريفة لأصحابه ﷺ خاصة لأنهم ورثته، ونقله علمه لمن جاء من بعده، ولأتمته عامة إلى يوم الدين على حب العلم وأهله، والأمر بطلبه حتى جعل شرف العلم سابقا على كل شرف، وجعل العلم سبيلا إلى رضا الرحمن ﷻ وإلى دار كرامته، وفتح بهذا ميدان التنافس في الخيرات، عن أبي هريرة ﷺ

^١ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) في ((المقدمة)) باب ((فضل العلماء والحث على طلب العلم)) حديث (٢٢٩) ، والدارمي في ((سننه)) في ((المقدمة)) باب ((في فضل العلم والعالم)) حديث (٣٤٩) ، والطيالسي في ((مسنده)) (١ / ٢٩٨) حديث (٢٢٥١) ، وذكره البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (١ / ٣٢) وقال عقبه : ((هذا إسناد فيه بكر وداود وعبد الرحمن وهم ضعفاء رواه أبو داود الطيالسي والحرث بن أبي أسامة في مسنده بهما من طريق عبد الرحمن الأفريقي به)) .

قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما من رجل يسئلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)) . (١)

وحصر الخير كله، خير الدنيا والآخرة في العلم وأهله، فكان لهم به الشرف على سائر الناس عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : ((عَلَيْكُمْ بهذا العلم قبل أن يُقْبَضَ وَقَبْضُهُ أَنْ يُرْفَعَ)) . وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ هَكَذَا ثُمَّ قَالَ : ((الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْأَجْرِ وَلَا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ)) . (٢)

حتى صار طلب العلم وحب أهله وطلابه كالطبيعة في قلوب ونفوس الصحابة رضي الله عنهم، عن عامر بن إبراهيم قال : كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا رأى طلبة العلم قال : مَرَحَبًا بِطَلَبَةِ الْعِلْمِ . وكان يقول إن رسول الله ﷺ أَوْصَى بِكُمْ . (٣)

وهكذا يشهد التاريخ أن الإسلام قد أسس للمدارس العلمية التي تعمل على نشر العلم وتعليم الناس الخير، لأن هذا من لوازم الرسالة والدين الذي أكرم الله تعالى به هذه الأمة ! .

﴿ الأزهر الشريف المبلغ العظيم لعلوم النبوة ﴾

ولذلك على التحقيق كان الأزهر الشريف امتداداً لهذه المدرسة الأولى، والورث الذي ورث الهدى النبوي وحافظ عليه أصولاً وفروعاً، وإن كان قد تأخر حقبة من الزمان إلا أنه أدهش التاريخ والعلماء في أدائه لهذه الأمانة، وتبليغه هذه الرسالة، بما ورثه علماؤه الأوائل عن أسلافهم ممن شرف الله تعالى بهم مصر من طبقات العلماء منذ عهد الصحابة الذين قاموا على التدريس بمسجد مصر الأول مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وأخذت الأجيال تتوارث هذه العلوم حتى انصبت كلها في تلك المدرسة العظيمة والقلعة العلمية الحصينة ((الأزهر الشريف)) .

^١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)) باب ((فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)) حديث (٢٦٩٩) .

^٢ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) في ((المقدمة)) باب ((فضل العلماء والحث على طلب العلم)) حديث (٢٢٨) وتعقبه البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (١ / ٣١) وقال : هذا إسناد فيه علي بن زيد بن جدعان والجمهور على تضعيفه . وأخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٨ / ٢٢٠) حديث (٧٨٧٥) وضعفه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١ / ١٢٢) وقال : فيه معاوية بن يحيى قال ابن معين هالك ليس بشيء .

^٣ - أخرجه الدارمي في ((سننه)) في ((المقدمة)) باب ((في فضل العلم والعالم)) رقم (٣٤٨) .

﴿ الأزهر الشريف وريث دار الأرقم ﴾

ويخطئ من يظن أن بداية المدرسة الأزهرية هي لحظة إعادة الظاهر يببرس الجمعة للجامع الأزهر، أو لحظة بناء الجامع الأزهر في عهد الفاطميين، إن البداية الحقيقية لهذه المدرسة هي ((دار الأرقم بن أبي الأرقم)) إنها أزهر مكة، وشيخه رسول الله ﷺ وطلابه الصحابة رضي الله عنهم، ومنته الذي يدرس فيه هو القرآن الكريم بشرح النبي الأمين ﷺ، ثم كانت المدينة المنورة وكان أزهرها مسجد سيدنا رسول الله ﷺ بشيخه وطلابه ومنته كما في مكة، ثم انتقل النبي ﷺ إلى جوار ربه، و قد أعد مجموعة من طلاب مدرسته ليكونوا شيوخا بعده، وكان أزهر المدينة هو مسجد النبي ﷺ يتلى فيه متن القرآن مصحوبا بالمنهج النبوي في فهم النص واستخراج معانيه، مما أثمر عقولا عبقرية صار كل عقل منها مشتملا على منهج علمي اجتهادي متكامل في فهم الشريعة، وإدراك مقاصدها، كعقلية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أو زيد بن ثابت رضي الله عنه، أو غيرهم من تلامذة الأئمة الذين صاروا شيوخ الزمان وحق للزمان أن يفخر بهم .

ثم فتحت مصر وكان أزهرها هو مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفيه كان يتلى القرآن بشرح النبي ﷺ وخواشي الصحابة الأجلاء، كعبد الله بن عمرو رضي الله عنه وأضرابه، وتقريرات التابعين النبلاء الأجلاء، وقد ازدهرت المدرسة العلمية في هذا العصر في مصر، حيث كان بمصر من الفقهاء والعلماء (١) الكثير .

ونستطيع أن نقول : إن أقدم الجامعات الإسلامية هي الحلقات العلمية التي كانت تنعقد في مسجد رسول الله ﷺ في عهد صاحب الرسالة العظمى بعد هجرته إلى المدينة المنورة، وفي مختلف العصور الإسلامية حتى العصر الحديث . وقد قامت الحلقات العلمية في المسجد الحرام بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة النبوية، وتصدرها كبار الصحابة رضي الله عنهم ثم التابعون من بعدهم، ثم تابعوا التابعين، واستمرت هذه الحلقات تؤدي رسالتها في خدمة الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي وشباب المسلمين في مختلف العصور حتى العصر الحديث، وكانت هذه الحلقات تشكل ثاني جامعة إسلامية كبرى .

(١) - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) للدكتور / رشوان أبو زيد ص (١٥) .

ثم بعد أن بنيت الفسطاط وبني فيها جامع الفتح الذي سمي ((تاج الجوامع))، أو جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه، لم يلبث أن قامت فيه حلقات علمية كبيرة . (١)

هكذا انتقلت وامتدت سلسلة العلم الشريف من مكة إلى المدينة، ثم إلى مصر بعد الفتح ، حيث حل بها المئات من الصحابة رضي الله عنهم، ومنهم الفقهاء والعلماء، فنشروا ميراث النبي صلى الله عليه وسلم والعلم الشريف، فكانت بمثابة اللبنة الأساس لهذه المدرسة العظيمة، وكيف لا؟! وقد أسسها أصحابه رضي الله عنهم.

وقد أكرم الله تعالى مصر بالكثير منهم، مما كان السبب في عناية المؤلفين بحصر أعدادهم، و ذكر تراجعهم، قال السيوطي رحمه الله : قد ألف الإمام محمد بن الربيع الجيزي في ذلك كتابا في مجلد ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا، وقد فاته مثل ما ذكر أو أكثر، وقد ألفت في ذلك تأليفا لطيفا استوعبت فيه ما ذكره (٢)، وزدت عليه ما فاته من ((تاريخ ابن عبد الحكم))، و ((تاريخ ابن يونس))، و ((طبقات ابن سعد))، و ((تجريد الذهبي))، وغيرها فزدت في العدة على ثلاثمائة. (٣)

وقد نمت الحركة العلمية في الفسطاط، وكثرت الحلقات في مسجد عمرو رضي الله عنه الذي كان مركزا علميا لنشر الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة، وكبرت هذه الحركة العلمية واتسعت و نمت و ازدهرت، وأمَّ هذا المسجد الجامع كثير من العلماء الأعلام والأئمة المجتهدين - من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين -، ممن أفادوا العالم الإسلامي، وأدوا له خدمة صادقة في ميادين الدين والشريعة واللغة والعلوم، وأشهر هؤلاء عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وعبد الله بن هبة، ثم الليث بن سعد، وقد كان للإمام محمد بن إدريس الشافعي بمسجد عمرو زاوية يدرس فيها مذهبه ونشروا علمه علماء كالربيع بن سليمان، والمازني، والبويطي، وغيرهم . (٤)

وكان منهم أعلام كبار : منهم عبد الله بن وهب، يفوق بتصنيفه جماعة من الفقهاء المصنفين، وله من تصنيفه نحو مائة جزء، ومنهم عبد الله بن هبة، له منزلة في الفقه والحديث والأخبار، و منهم أشهب، وابن القاسم ، وعبد الله بن الحكم، وأسد بن موسى، ومحمد بن عبد الحكم،

١ - ((الأزهر في ألف عام)) للأستاذ أحمد محمد عوف (٢ / ٤٠٣)

٢ - وهو كتاب ((در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة)) .

٣ - ((حسن الخاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)) (١ / ١٦٦) .

٤ - ((الأزهر في ألف عام)) (١ / ١٨) .

والزني والربيع المؤذن، وأحمد بن سلامة الطحاوي، وكل واحد منهم قد برع في مذهبه، ونجم على أهل عصره، ولكل واحد منهم من الكتب المصنفة ما يعجز عن نظيرها أهل الدنيا، ومنهم سعيد بن عفير، ويحيى بن عثمان، وابن قديد، ومحمد بن يوسف الكندي والميسري، وابن أبي خيثمة، وكل واحد منهم قد فاق أهل عصره وبرز عليهم في الفقه والعلم والأخبار وأيام الناس والافتنان في سائر العلوم . (١)

وهكذا كان حجر أساس التعليم في مصر في أقدم جامعة وجامع فيه مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي بني بعد فتح الصحابة لمصر سنة (٢١) هـ، وأخذت الأجيال تتلقى علومهم خلفا عن سلف باتصال أسانيدهم إلى رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، حتى أذن الله للأزهر أن تشرق شمسُه ويزرغ نوره، فكان الوريث الشرعي الأكبر في مصر بل وفي العالم لأجل هذه المرجعية الكريمة من العلماء عبر الزمان . وكان - مسجد عمرو - المعهد الشامل لبث العلوم في مصر، قال عياض في ((المدارك)) : قال القنازعي : دخلت مسجد عمرو بالفسطاط وفيه من المجالس المالكية في الفقه والحديث نحو من عشرين حلقة . (٢) واستمرت - مدرسة جامع عمرو - في أداء رسالتها الإسلامية من روحية ومادية حتى قام الجامع الأزهر سنة (٣٦١) هـ فأسهم معها في أداء هذه الرسالة بقوة وعزم وإيمان، وظلا معا ينشران أضواء الثقافة الإسلامية عدة قرون ، ثم حدثت أحداث قعدت بجامع الفسطاط عن أداء رسالته الثقافية، فانفرد الجامع الأزهر بالزعامة العلمية عبر القرون وظل مصدر علم ومنار هداية ومنبع كرامة وعزة حتى الآن . (٣)

﴿ الأزهر والفاطميون ﴾

وعلى الرغم من أن الأزهر كان قد أسس في بداية أمره لغرض مذهبي، كما هو معروف تاريخيا، إذ أسسه الفاطميون الشيعة لنشر مذهبهم وحمل الناس عليه، وبذلوا في سبيل هذا كل غال وثمين : وبعد أن استقر سلطان المعز وتم بناء المعقل الذي أقامه للدعوة، أفرغ جهده في إحكام دولته وتنظيمها، ووفق في ذلك أكثر التوفيق، وقطع المعز الفاطمي كل علاقة بينه وبين

١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (١٥) - ((فضائل مصر الخروسة)) لابن الكندي ص

(٥)

٢ - ((أليس الصبح بقريب)) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ص (٥٢) .

٣ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) للدكتور محمد البهي ص (٧) .

الخليفة العباسي، وقضى على كل صلة روحية له في مصر، فقصر التدريس في الأزهر على المذهب الفاطمي في الفقه، وتعاليم الفقه، وتعاليم الشيعة في الدين والفلسفة والتوحيد، واستجلب لهذه الدراسة أكابر العلماء وفطاحل الفقهاء في عصره، وكان عددهم ثلاثين عالماً، أجزل لهم العطاء وبنى لهم منازل فخمة ألحقت بالأزهر فيما بعد وصارت من أروقته، وشرعوا يدرسون ويتفقهون في مذاهب الفاطميين وتعاليمهم، ويهدمون بذلك المذاهب الأخرى التي كانت شائعة في بغداد مقر الخلافة وسائر البلاد الإسلامية، وكانت هذه النخبة الممتازة من الأساتذة وعلى رأسها كبير العلماء أبو يعقوب قاضي الخندق، سببا من الأسباب التي جعلت الأزهر يصبح قبلة كل طالب من أقاصي الأرض بعد أن ذاع صيته في الآفاق . (١) وبقي أهل السنة على العادة القديمة في مجالس العلم بجامع الفسطاط، وداموا على ذلك إلى أن بنى صلاح الدين مدرستين : الأولى للمالكية سنة (٥٦٦ هـ) ، والثانية : للشافعية ، وتابعه من جاء بعده . (٢)

أما فكرة الدراسة بالأزهر . فقد كانت حدثا ترتب على فكرة الدعوة المذهبية، وغلب الحدث العارض شيئا فشيئا على صفته الأولى، حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعي الخالد . ففي سنة (٣٦٥) هـ - (٩٧٥) م في أواخر عهد المعز لدين الله، جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان بالجامع الأزهر، وقرأ مختصر أبيه في فقه الشيعة، في جمع حافل من العلماء والكبراء، و أثبت أسماء الحاضرين، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر . (٣) وتوالى أبناء النعمان وهم من المغرب ، على التدريس بالأزهر ، ودرس بالأزهر أيضا كتاب في الفقه الشيعي ألفه يعقوب بن كلس وزير المعز لدين الله والعزيز بالله ، وجعله أساسا لدروسه في شهر رمضان ، وكان يقرؤه بنفسه على العامة والخاصة، ويجلس في حلقاته الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة . وكان ابن كلس أول من فكر في اتخاذ الأزهر معهدا علميا للدراسة إذ استأذن العزيز بالله في تعيين جماعة من الفقهاء للتدريس بالأزهر . ولقد أسهم الأزهر في عهدي المعز لدين الله والعزيز بالله بنصيب كبير في الحركة العلمية، إذ كانت تعقد به حلقات لدراسة الدين واللغة والأدب والقراءات والنحو والمنطق والفلك . (٤)

١ - ((الأزهر في ألف عام)) (١ / ٣٣) .

٢ - ((أليس الصبح بقريب)) ص (٥٢) .

٣ - ((الأزهر أثر وثقافة)) للأستاذة سعاد ماهر ص (١٠) .

٤ - ((الأزهر في ١٢ عام)) للدكتور محمد عبد الله ماضي ص (١٦) .

وهكذا أسس الفاطميون الأزهر، وجعلوا له عظيم الرعاية وأعلنوه مسجدا رسميا للدولة جامعا وجامعة دراسية، بل وعظموا مكانته عند العامة ليعظم في نفوسهم : وبجانب ما كان يؤديه الأزهر من خدمات دينية وعلمية في العهد الفاطمي كان كذلك مركزا لتصريف بعض نواحي الحياة الرسمية في الدولة ، فكانت تعقد به الاجتماعات الهامة لكتابة صيغ الاتفاقات الرسمية، كما كان مركزا للاحتفالات الرسمية، كالاحتفال بمولد النبي الكريم ﷺ، والاحتفال بيوم عاشوراء، و أيام الوقود . (١)

وكانت له فوق ذلك أهمية رسمية خاصة ففيه كان جلوس قاضي القضاة في أيام معينة، وفيه كان مركز المحتسب العام، وفيه كان يعقد كثير من المجالس الخلافية والقضائية . (٢)

وغير عجيب أن تكون المساجد مقرا للجامعات الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى العصر الحديث، فإن الإسلام لم يقصر رسالة المسجد على أداء الصلوات فحسب، ولكنه جعل لها أهدافا رئيسية سامية، حيث أعدها لتكون مقامات ذكر وصلاة، ومواطن تلاوة وتدبر، ومعاهد علم وتهذيب، وندوات رأي ومشورة، ومجالس صلح أو قضاء، وملتقى تعاون وتكافل، ولقد أدت المساجد رسالتها خير أداء فالتفت حولها القلوب، وتلاقت فيها الأرواح، وانبعثت منها تيارات الثقافة والحضارة والعمران، والتزم الخلفاء الراشدون ومن تلاهم أن يؤموا الناس في الصلوات، وأن يلقوا فيهم الخطب الهامة سواء كانت تتعلق بشيء من العبادات أم بشيء من السياسة العامة للدولة، وإذا حزب أمر هام أعلنوا أن ((الصلاة جامعة)) فيجتمع المسلمون بالمسجد لأداء الصلاة ثم يستشير الخليفة ذوي الرأي والتجربة منهم فيما جد من أحداث، ثم يعلن رأيه للجميع فيلتزم به الجميع، وبهذا كانت المساجد الإسلامية تؤدي دور المجالس النيابية الآن . (٣)

ولما تقرر من معرفة أثر المسجد في نفوس المسلمين عند الفاطميين وعامة المسلمين أخذوا في استخدام الأزهر للتأثير على الناس، بنشر مذهبهم الشيعي بين بعض المصريين، لكنهم بالرغم مما بذلوه لم يستطيعوا التأثير على كافة المجتمع المصري يومئذ : ولا يمكننا أن نقدر مقدار النجاح في

١ - المصدر السابق . ص (١٧) . وأيام الوقود هي ليلة مستهل رجب ، ليلة نصفه ، وليلة مسهل شعبان ، وليلة نصفه .

ينظر : ((الأزهر تاريخه وتطوره)) ص (٢٨) .

٢ - ((الأزهر أثر وثقافة)) ص (١١) .

٣ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) ص (٨) .

شيوع المذهب الإسماعيلي (١) بمصر، وقدر الذين انتحلوه من خاصة الأمة، إلا أنا نعلم أن أثره في العامة كان قليلا جدا، لما يروى من أخبار نفورهم من مظاهر الإسماعيلية ومن عقائدهم، ويظهر أن بيئة الفقهاء لم تقبله، ووسموه بميسم الكفر والإلحاد فنفر الجمهور منه، وزاد نفرتهم السرية التي كانت تحيط بالدعوة، فزاد ذلك في تأييد اعتقادهم أنه خارج عن الدين فتوارثوه عن أئمتهم وعن علمائهم، وهذه العبودية التي فرضها الفاطميون على العلماء بنشر تعاليمهم وحدها، وتأييد مذهبهم الفاطمي في الفقه ومحاجتهم الناس، أثرت أثرا بليغا في تطور التشريع الإسلامي، فقد سار التشريع في هذا العهد في دور التقليد وعدم الاجتهاد، فإن الجو لا يساعد العلماء على الابتكار والتجديد. (٢)

﴿ كرامة الأزهر الأولي ﴾

إن من الحقائق التي لا تنكر أن الفاطميين هم أول من أسس للحركة العلمية في الأزهر الشريف، بما أسسوه من حلقات العلم ومدارسته، وقد قامت حلق العلم فيه على النظام الآتي :

(١) - بعض الحلقات كان يجتمع فيها من رغبوا في الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم وشرحه، و ضمت هذه الحلقات من اتصفوا بالتقوى والورع وعنوا بتفهم كتاب الله ﷻ .

(٢) - وبعض الحلقات كان يجتمع فيها الطلاب حول المدرسين، يملون عليهم المسائل العلمية، و يجيبون على أسئلتهم، ويتقبلون مناقشتهم .

(٣) - والبعض الثالث من الحلقات كان لمحاضرات تلقى في أيام الاثنين والثلاثاء، وأغلب ما تكون هذه الحلقات للمثقفين، وكانت تعقبها مناقشات في موضوع المحاضرة من فقه أو حديث أو تفسير .

(٤) - وبعض الدروس كان يعقد للنساء اللاتي أقبلن لتفهم بعض مسائل الدين . (٣)

وإن المستقرئ لتاريخ إنشاء الأزهر الشريف في بداية تأسيسه على يد الدولة الفاطمية يعلم أنهم قد بنوه لنشر المذهب الشيعي في دولتهم، وحمل الناس على اتباع مذهبهم واعتناق

^١ () - (الإسماعيلية) : فرقة من الشيعة المغالين ، هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه . ينظر : (مقالات

الإسلاميين) ص (٢٧) ، و (التفسير والمفسرون) (٣ / ٥٥) .

^٢ () - (الأزهر في ألف عام) (١ / ٣٨) .

^٣ () - (الأزهر في ١٢ عام) ص (١٦) .

معتقداتهم . والشيعية فرقة من الفرق الإسلامية التي اتخذت هذا المصطلح اسما لها، ولقبا على أتباعها .

قال في القاموس: و((شيعية الرجل)) بالكسر : أتباعه وأنصاره، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا عليه السلام وأهل بيته عليه السلام حتى صار اسما لهم خاصا . (١) وقال المناوي في ((التعاريف)) : الشيعة الذين بايعوا عليا عليه السلام وقالوا : إنه الإمام بعد المصطفى صلى الله عليه وآله، وإن الإمامة حق لأولاده عليه السلام . وأصل الشيعة من يتقوى بهم الإنسان . (٢) وهي في وضعها لا تطلق إلا على أنصار الرجل وأتباعه فيقال : فلان من شيعة فلان . أي ممن يهوى هواه . وفلان شايع فلانا . أي : تابعه ونصره . قال الزبيدي : كل قوم اجتمعوا على أمر فهم الشيعة، وكل من عاون إنسانا وتحزب له فهو شيعة له، وأصله من ((المشايعة)) وهي : المتابعة والمطاوعة . (٣)

قال ابن خلدون : اعلم أن الشيعة لغة هم : الصاحب والأتباع . ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه عليه السلام، ومذهبهم جميعا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وإن عليا عليه السلام هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهاذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع، أو مطعون في طريقه عن تأويلاتهم الفاسدة . (٤)

فلم يكن استعمال هذه اللفظة في العصر الأول من الإسلام إلا في معناه الأصلي والحقيقي هذا، كما لم يكن استعمالها إلا لأحزاب سياسية وفئات متعارضة في بعض المسائل التي تتعلق بالحكم والحكام، وقد شاع استعمالها عند اختلاف معاوية مع علي عليه السلام بعد شهادة عثمان عليه السلام، فكان يقال عن أنصار علي عليه السلام وأتباعه شيعة علي ، وهؤلاء كانوا يرون عليا عليه السلام الخليفة الراشد الرابع والأحق بالخلافة من معاوية عليه السلام وغيره، وكانوا يشايعونه ويناصرونه في حروبه مع معاوية عليه السلام، كما كان شيعة معاوية يرون الأمر بالعكس للجوء قتلة عثمان بن عفان عليه السلام إلى معسكر علي عليه السلام . (٥) وكان يومئذ شيعة الإمام علي عليه السلام من جلة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وهكذا مع الإمام الحسن

١ - ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (١ / ٩٤٩) .

٢ - ((التعاريف)) للمناوي ص (٤٤٣) .

٣ - ((تاج العروس)) للزبيدي (٥ / ٤٠٥) .

٤ - ((الدولة الفاطمية)) للدكتور علي محمد الصلابي ص (١٤)

٥ - ((الشيعة والتشيع فرق وتاريخ)) للأستاذ إحسان إلهي ظهير ص (١٣) .

والإمام الحسين عليه السلام، ولبثوا حقبة من الزمان على أنه مذهب يناصر آل البيت ويرفع لواء محبتهم إلى أن تغيرت المبادئ وانقلبت إلى ما يشبه الحزب السياسي، وبدأ دخول الحاقدين على الإسلام والمريدين للإسلام هدمًا، فظهرت عقيدة كثير ممن كان يتستر بحب آل البيت في عهد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وتغير اسمهم من الشيعة إلى الرافضة أو الروافض، وهذا أولى الأسماء بهم على التحقيق، قال الأصمعي: سموا بذلك لتركهم زيد بن علي، كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابرأ من الشيخين - أبي بكر وعمر - عليه السلام نقاتل معك. فأبى وقال: كانا وزيرني جدي فلا أبرأ منهما. فرفضوه فسموا رافضة. (١)

وكان ذلك عندما خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام على هشام بن عبد الملك، كان في جيشه من يشتم أبا بكر وعمر عليه السلام فمنعهم فرفضوه، ولم يبق معه إلا مائتا فارس، فقال لهم: رفضتموني؟ قالوا: نعم. فبقي عليهم هذا الاسم. وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائة. (٢)

وبدأ التشيع يحمل الأفكار الأجنبية المدسوسة، كما بدأ يحصل فيه التفرق الكثير وصار مأوى وملجأ لكل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارًا يضعون وراءه كلما شاءت أهواؤهم، فاليهود ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، وقال الشيعة: إن النار محرمة على كل شيعة إلا قليلًا. كما قال اليهود: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [سورة البقرة آية: ٨٠] والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم: إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليه. وقالوا: إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الإمام، وإن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي. وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والجوس من قبل الإسلام، وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية، وما في نفوسهم إلا الكره للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم. (٣)

١ - ((الدولة الفاطمية)) ص (١٤) .

٢ - السابق ص (١٥) .

٣ - ((الشيعة والتشيع فرق وتاريخ)) ص (١٨٦) .

وكانت الدولة الفاطمية أبرز كيان شيعي قديما ظهر في صورة دولة منظمة ذات نظم سياسية وعسكرية واقتصادية، ويذكر التاريخ أن أول خليفة لهم هو عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩١٠ - ٩٣٤ م) في القيروان والشمال الإفريقي، وإليه ينسب المؤرخون تسمية دولته باسم : ((دولة العبيديين)) كابن كثير والذهبي وغيرهما، تنزيها لذكر اسم السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أن ينسب إليها هؤلاء . وقد كانت مصر محط نظر الحكام الفاطميين يأملون في الوصول إليها حتى تمكنوا من هذا في عهد خليفتهم الرابع المعز لدين الله وهو معد بن إسماعيل المنصور (٣١٩ - ٣٦٥ هـ) . وبموت كافور الإخشيدي في سنة (٣٥٥) هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة وجمع الأموال الجزيلة، واختار جوهر الصقلي قائدا لتلك الجيوش التي كانت تزيد على مائة ألف، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر، وفي جمادى الآخرة سنة (٣٥٨) هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة خادمه جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين، وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر سنة (٣٦١) هـ ليكون منبرا من منابر العبيديين الروافض في بث معتقداتهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة .^(١)

وكان أهم سبب في سقوط هذه الدولة الرافضية سوء عقيدتها وما انطوت عليه قلوبهم ونفوسهم من سب ولعن وتحقير للصحابة عليهم السلام وسب لأمهات المؤمنين، وعقائد الحلول والاتحاد و تأليه الإمام علي عليه السلام وآل البيت، وقولهم بتناسخ الأرواح، وأن لكل شيء ظاهر وباطن، وأن عليا يكون في السحاب والشمس والقمر الخ ما اعتقدوه من عقائد فاسدة وباطلة .

وكانت إرادة الله تعالى بسقوط الدولة الفاطمية، وبقاء الأزهر ودوره العلمي، وانبثاق الظلام عنه ليكون كما أراد الله تعالى أزها منبرا معلما، فتحول من المذهب الشيعي الرافضي الباطني الذي له ما له من اعتقادات تهدم الدين، إلى نشر مذهب أهل السنة ونصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الأبرار عليهم السلام، واحترام الصحب الكرام وأمهات المؤمنين، والتحرر من عقائد الباطنية

^١ - ((الدولة الفاطمية)) . ص (٦٩) بتصرف يسير .

الضالة من الحلول والاتحاد والرجعة، وتأليه الأئمة وغيرها من عقائدهم، فسبقت إرادة الله تعالى، وغلبت على إرادة الفاطميين الذين أرادوه منارة هدم للدين بباطلهم الذي يدعون إليه . فأراد الله سبحانه منارة هدى ورشد، وموضعاً مباركاً فيه نور الوحي وميراث النبوة، فكان هذا بمثابة الكرامة للأزهر من الله تعالى، وكيف لا؟! وقد صار قبلة العلماء ومجمع أولياء الله تعالى!، ثم كانت له الكرامة الثانية بعد هذا في ظل الدولة الأيوبية والمماليك كما سيأتي بيانه .

﴿ الأزهر والدولة الأيوبية ﴾

لما قامت الدولة الأيوبية السنية المذهب على أنقاض الدولة الفاطمية الشيعية، قضت على كل أثر للشيعية، وكان الأزهر هدفاً أساسياً للحملة على التشيع باعتباره ركن الشيعة الركين، فأبطل صلاح الدين صلاة الجمعة فيه، معتمداً على مذهب الشافعية في بطلان صلاة الجمعة في مسجدين في بلد واحد (١) وظلت صلاة الجمعة معطلة بالأزهر نحو مائة عام، حيث أعيدت إليه في عهد الظاهر بيبرس، وكان تعطيل صلاة الجمعة بالأزهر إيذاناً بإهمال شأنه، فقلت مكانته التي كانت له أيام الفاطميين، وركدت في جنباته الحياة العلمية التي عهدناها في العهد الفاطمي . (٢)

وبالرغم : أن قطع خطبة الجمعة من الجامع الأزهر في العصر الأيوبي لم يبطل صفته الجامعية فقد لبث محتفظاً بصفته كمعهد للدرس والقراءة، ومع أنه لم يكن يحظى في ذلك العصر بكثير من هيئته العلمية القديمة، فنراه مقصد علماء بارزين مثل عبد اللطيف البغدادي الذي وفد على مصر سنة (٥٨٩) هـ أيام الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين، وتولى التدريس بالأزهر بضعة أعوام حتى وفاة الملك العزيز في سنة (٥٩٥) هـ . (٣)

وفي عهد الدولة الأيوبية أنشئت عدة مدارس تنافس الأزهر في رسالته العلمية، فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار مسجد عمرو، ومدرسة أخرى للمالكية، وعرفت باسم ((دار الغزل))، ثم عرفت بالمدرسة ((القمحية))، ثم بنى مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم ((المدرسة السيوفية))، كما بنى مدرستين أخرتين لفقهاء المذهب الشافعي خاصة، وهو المذهب

١ - وكان الذي أفتى بهذا القاضي القضاة الشافعي صدر الدين عبد الملك بن درباس فتوى بأنه لا يجوز إقامة الجمعة في بلد واحد في مكانين فأبطل إقامتها بالأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي . ينظر ((الأزهر تاريخه وتطوره)) ص (٤٢) .

٢ - ((الأزهر في ١٢ عام)) ص (١٧) .

٣ - ((الأزهر أثر وثقافة)) ص (١١) .

الذي كان عليه أكثر أفراد البيت الأيوبي نفسه، وكانت مدرسة منها بجوار الإمام الشافعي، و الأخرى بجوار المشهد الحسيني، ويحصى المقريري المدارس التي بنيت في القاهرة وحدها بثمانى عشرة مدرسة . (١) ثم توالى إنشاء المدارس في مصر والقاهرة على أيدي السلاطين والأمراء والكبراء، وكثر عددها في القرنين السابع والثامن كثرة ظاهرة، وكان إنشاؤها يجري في الغالب على قاعدة التخصص، فبعضها ينشأ للشافعية، والبعض الآخر للحنفية أو للمالكية أو الحنبلية، و ينشأ البعض لتدريس الفقه أو الحديث أو علوم القرآن، وقليل منها ينشأ على قاعدة التعميم كالمدرسة ((الصالحية)) التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين سنة (٦٤١) هـ، ورتب فيها دروسا للطلاب من المذاهب الأربعة . (٢)

وقد أثر تأسيس هذه المدارس على الجامع الأزهر من ناحيتين :

((الأولى)) : أنه كان من المتعذر أن يساير الأزهر النظم الجديدة، حتى لقد أصبح في المرتبة الثانية من الأهمية في عهد صلاح الدين وخلفائه .

((الثانية)) : كانت المناهج الدراسية في الأزهر عندما استعاد مكانته في عهد المماليك تشبه نظام المدارس الجديدة أكثر ما تشبه نظام الدراسة في العصر الفاطمي .

وكانت هذه المدارس في العهد الأيوبي تعنى بتدريس العلوم النقلية كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب، كما كانت تعنى أيضا بتدريس العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم التجويد والفلك والرياضيات، وكان بعض العلوم كعلم النجوم والتاريخ الطبيعي والرياضيات العالية تدرس لبعض الطلاب على أيدي أساتذة أخصائيين في منازلهم الخاصة، أما الطب فكان يدرس في المستشفيات . (٣)

وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن أثر كبير في سير الدراسة بالجامع الأزهر، فقد نافسته منافسة شديدة واجتذبت إليها الطلاب من كل صوب كما اجتذبت إليها أعلام الأساتذة، وكانت تمتاز على الأزهر بمجديتها ووفرة أوقافها واستثمارها برعاية السلاطين والكبراء من منشيئها ومن ينتمون إليهم، ومن ثم كان الأزهر في هذه المدة الطويلة يمر بفترة ركود بيد أنه كان يضم من الطلاب دائما العدد الجم نظرا لاتساع مجال الدراسة فيه وتنوعها، إذ

١ - ((الأزهر في ألف عام)) ص (٨٤) .

٢ - ((الأزهر أثر وثقافة)) ص (١٠) .

٣ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) . ص (٤٠) .

كان مفتوحا للطلاب من كل مذهب، وتدرس به سائر العلوم الدينية واللغوية، وهو ما لم يكن ميسورا في مدارس أنشئت على قاعدة التخصص . ومن جهة أخرى فقد كان الأزهر مقصد الطلاب الغرباء من كل صوب وكان يقطن في أرواقه عدد كبير منهم .^(١)

﴿ الكرامة الثانية للأزهر الشريف ﴾

أمعن الأيوبيون في خطتهم تجاه الأزهر، وعملوا على أن يصرفوا الناس عنه، فأغروا علماءه بترك التدريس فيه ليدرسوا في مدارسهم التي أسسوها وأغدقوا عليها الأموال لتنافس الأزهر وترزعزع مكانته العلمية، ولقد تولى التدريس في مدارس الأيوبيين جميعها علماء الأزهر، وبذلك تعتبر هذه المدارس امتدادا للحركة العلمية التي حمل لواءها الأزهر .^(٢)

وبالرغم من قيام هذه المدارس في مصر منذ عهد صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري وتوالي إنشاء المدارس في مصر على أيدي السلاطين والأمراء والكبراء، وكثرة عددها في القرنين السابع والثامن الهجريين كثرة ظاهرة، وبالرغم من منافسة هذه المدارس للجامع الأزهر، إلا أن الجامع الأزهر ظل موقفا للثقافة الدينية والعربية في مصر وعنصرا هاما من عناصر الحركة الفكرية ونلاحظ أنه حين سقطت الدولة الفاطمية نجا الأزهر من الخنة، وظل الأزهر الذي قام بقيام الدولة الفاطمية متجدد العطاء غير متعثر بما يعترضه من المنافسة والصعاب .^(٣)

وهذه هي الخنة الثانية التي مرت بالأزهر، وهي عزله ومحاوله تهيمشه لكونه أسس على يد الفاطميين ومذهبهم ومعتقداتهم، وكانت هذه المرحلة - مرحلة تأسيسه - هي محتته الأولى، فكانت الكرامة الأولى من الله له بزوال دولة الفاطميين، والكرامة الثانية ببقائه واجتيازه عصر الركود والتهيمش في ظل الدولة الأيوبية .

أليس عجيبا أن تنهار الدولة الفاطمية بكل مدارسها وأشكالها ويبقى الأزهر رغم محاولات تهيمشه في العصر الأيوبي؟! بل أليس عجيبا أن تقاوم هذه المدرسة محاولات الإبادة التامة

^١ - ((الأزهر أثر وثقافة)) ص (١١) .

^٢ - ((الأزهر في ١٢ عام)) ص (١٥) .

^٣ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٢٢ - ٢٣) .

باعتبارها أثرا من آثار الفاطميين، لتعود ليس فقط كيانا ضعيفا هزيلا في دولة سنية، بل لتعود أقوى كيان سني في الدولة الجديدة ؟! . (١)

«الأزهر في عصر المماليك»

انتعش الأزهر في العهد المملوكي بعد النكسة التي أصابته على يد الأيوبيين، وعادت إليه مرة أخرى مكانته العلمية، ليكون حفيظا على لغة القرآن وعلوم الشريعة، وكان الظاهر بيبرس أكثر سلاطين المماليك عناية بالأزهر ورعاية له، فأمر بإعادة خطبة الجمعة إليه بعد أن كانت قد قطعت عنه منذ أيام صلاح الدين . (٢)

ولقد قيض الله تعالى رجلا محبا للأزهر الشريف كان رجوع عهد الأزهر على يديه وعودة أهميته وقيمته في قلوب الناس، وهو الأمير عز الدين أيدير الحلبي : في سنة (٦٦٥) هـ فجدده الأمير عز الدين أيدير الحلبي بسبب أنه كان مجاورا له بالسكنى، وكانت داره مكان الأقبغاوية المجعلولة مكتبة الأزهر الآن، فراعى حرمة الجوار وانتزع له أشياء كانت مغصوبة، وأحاط أموره حتى جعل له شيئا صالحا مع ما تبرع به له من المال الجزيل، وأطلق له من السلطان جملة من المال، وشرع في عمارته فعمر الواهي من أركانه وجدرانه، وأصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه، حتى عاد حرما بعد أن كان باليا، واستجد به مقصورة حسنة وترك آثارا صالحة، وكان عمل فيه الأمير بيلبك الخازن دار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي، ومحدثا يسمع الحديث النبوي، ووقف على ذلك الأوقاف الدرارة، ورتب به سبعة لقراءة القرآن ومدرسا، وأقيمت فيه الجمعة يومئذ، وحضر فيه الأمراء والكبراء والعلماء، وكان يوما مشهودا، وبعد الفراغ من الجمعة قام الأمير عز الدين إلى داره ومعه الأمراء، فقدم لهم موائد الطعام، وكان قد أخذ فتاوى من العلماء بجواز الجمعة فيه، وهذا أول افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة بعد انقطاعها منه في عصر الدولة الأيوبية . (٣)

وفي عهد المماليك البحرية كان للسلطان بيبرس المملوكي أثره في العناية بالجامع الأزهر الشريف، فقام بتعميره وعمل له منبرا جديدا، ولما أتم تجديده قام بالاحتفال بهذا العمل في رحاب

١ - المرجع السابق . ص (٢٢) .

٢ - ((الأزهر في ١٢ عام)) . ص (١٦) .

٣ - ((الأزهر في ألف عام)) (١ / ٩٥) .

الأزهر ليجدد شبابه بعد الفترة الطويلة التي مرت به . (١) وكان الأمير عز الدين أيدير الحلبي قد : تحدث مع الملك الظاهر بيبرس في شأن إصلاحه، فأنفق في سبيل هذا الإصلاح الأموال ووقف عليه بعض الأوقاف . (٢) وفي سنة (٧٦١ هـ) أحب الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري عندما سكن بجوار الأزهر، أن يؤثر فيه أثرا صالحا فأنشأ فيه مما أسداه إليه درسا لفقه الحنفية، يلقي في المحراب الكبير، ووقف على هذا الدرس أوقاف كثيرة .

على هذا النحو سار الأزهر في عناية المماليك . (٣) ومنذ ذلك الحين غدا الأزهر مسجدا ومعهدا للعلم، يؤمه الناس من كل حدب وصوب كما كان أيام الفاطميين . (٤) وعادت إليه حلقات الدروس التي ازدهرت بعلوم الفقه والتفسير والحديث، وعمر بمجالس الوعظ، وجعل لكل قراءة من القراءات السبع مدرسا خاصا ، ودرس فيه بعض الطلاب الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية، وتردد على حلقاته للاستفادة كبار رجال الدولة، وعين له إماما يصلى بالناس ويخطب فيهم خطبة الجمعة، كما عين له مشرفا يتولى الإشراف على مختلف شئونه وكان كبار رجال الدولة يرعون كافة شئونه الإدارية والمالية والتعميرية . وبلغ عدد طلاب الأزهر حينذاك (٧٥٠) طالبا من أبناء الريف المصري، ومن الفرس والزنوج ومن شمال إفريقيا، وخصص لكل جنسية من هؤلاء رواق يقيمون به . وعادت للأزهر في عهد المماليك مكانته كمركز لأعمال الدولة الرسمية، ففيه كانت تتلى المنشورات العامة وقوانين الدولة، وشغل علماء الأزهر في ذلك العهد وظائف كبرى كالقضاء، كما حملوا مسئولياتهم في الهداية والتوجيه، وكان لهم أثرهم في توجيه سياسة الدولة العليا . وسمح للمرأة في هذا العهد أيضا بأن تدرس بالأزهر .

من كل هذا تبدو مكانة الأزهر في العهد المملوكي، فقد كان مسجدا للعبادة وجامعة عليا للدراسات الإسلامية والعربية، ومركزا لأعمال الدولة الرسمية، كما كان مثابة للشعب وأمنا يلتمس فيه الهداية، ويفزع إليه المظلوم طالبا حسر الظلم عنه، كما كان يأوي إليه الفقراء والحجاج والمتصوفة وغيرهم . (٥)

١ - ((الأزهر في ألف عام)) ص (٣٨) .

٢ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) . ص (٤٢) .

٣ - ((الأزهر في ألف عام)) (١ / ١٠٢) .

٤ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) ص (٤٤) .

٥ - ((الأزهر في ١٢ عام)) ص (١٦) .

﴿ الكرامة الثالثة للأزهر الشريف ﴾

ومع عودة الأزهر إلى مكانته، رجع مشهد التحدي له مرة أخرى بإنشاء مدارس علمية جديدة تنازعه دوره، خاصة بعد إصلاحه وعمارتته بعد زلزال (٧٠٢) هـ : فلقد جاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فأنشأ بالجامع الحاكمي دروساً أربعة لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، ودرسا لإقراء الحديث النبوي، وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة، فرتب في تدريس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي، وفي تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي، وفي تدريس المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي، وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجواني، وفي درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثي، وفي درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان، وفي درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي، وفي التصدير لإفادة العلوم علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي، وفي مشيخة الميعاد والمسجد عيسى بن الخشاب، وأنشئت به مكتبة جليلة وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم، وعدة قراء يتناولون قراءته، ومعلما يقرئ أيتام المسلمين كتاب الله ﷻ، وأوقفت على ذلك الأوقاف الدارة بناحية الجيزة والصعيد والإسكندرية . (١)

وبالرغم من قيام المدارس في مصر منذ عهد صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري وتوالى إنشاء المدارس في مصر على أيدي السلاطين والأمراء والكبراء، وكثرة عددها في القرنين السابع والثامن الهجريين كثرة ظاهرة، وبالرغم من منافسة هذه المدارس للجامع الأزهر إلا أن الجامع الأزهر ظل مؤثلاً للثقافة الدينية والعربية في مصر، وعنصراً هاماً من عناصر الحركة الفكرية . (٢)

ألا وإن هذا مما يعد كرامة شرف الله بها الأزهر وأيده بها، ليثبت أنه اختيار الله لحمل رسالة العلم والهدى، ونشر نور النبوة ليصبح بحق الوريث الحمدي الأعظم لنور النبوة وعلوم الوحي الشريف، فقد تلاشت كل هذه المدارس المحيطة به في مصر في القاهرة وفي أقاليمها المتعددة وربوعها المختلفة، وبقي هو كما أراد الله ﷻ .

١ - ((الأزهر في ألف عام)) (١ / ١٠٢ - ١٠٣) .

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٢٢ - ٢٣) .

فقد كان في القاهرة ((المدرسة الصالحة))، و((السنانية)) بالصنادقية، و((الطيرسية))، و((الأقبغاوية))، و((الصرغمشتية))، و((المحمودية))، و((العينية))، و((الأشرفية))، و((الجوهريّة))، و((البرقوقية))، و((البردبكية))، و((السيوفية))، و((الخشابية))، و((مدرسة محمد بك أبي الذهب))، وقد ذهبت كل هذه المدارس وبقي الأزهر، ومن المدارس خارج القاهرة مدارس الإسكندرية، والمنصورة، وفوة، وأبي صير، ودمنهو، ورشيد، وطهطا، وجرجا، وأسيوط، وفرشوط، والفيوم، وغيرها . ومن المساجد التي كانت تقام بها حلقات العلم جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه، وجامع أحمد بن طولون، وجامع الفكهاني، والمشهد الحسيني، وجامع الماس، ومسجد شيخون بالصليبة، وجامع الغوري، وجامع محرم، وجامع اسكندر، وجامع مرزة جورجي، ومسجد عثمان كتحدا، وجامع الحفني، وكل هذه الجوامع كان يدرس بها العلم بالقاهرة ثم توقفت الدراسة في سائر هذه الجوامع وبقي الأزهر . ومن الجوامع التي كانت نشطة في التعليم خارج القاهرة مسجد السيد أحمد البدوي بطنطا، والجامع الكبير باخلة، وجامع المتبولي بدمياط، وجامع البدري بدمياط وجامع زغلول برشيد، وجامع الحلبي برشيد، وجامع إبراهيم الدسوقي بدسوق، وغيرها ، وكل هذه الجوامع توقفت فيها الدراسة وبقي الأزهر . لقد انهارت مدارس العلم خارج مصر وبقي الأزهر، وانهارت مدارس العلم داخل مصر وبقي الأزهر الشريف، ألم أقل لك إن سرا إلهيا يحيط بهذا المكان ويكتب له الخلود ؟! . (١)

وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع، أي منذ عفت معاهد بغداد وقرطبة كعبة الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامي عامة، ومنذ القرن الثامن الهجري تبوأ الأزهر في مصر و في العالم الإسلامي نوعا من الزعامة الفكرية والثقافية، وفي أنباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع في ظل دولة المماليك برعاية خاصة، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ، ويشغلون وظائف القضاء العليا، ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد، وكان هذا النفوذ يصل أحيانا إلى التأثير في سياسة الدولة العليا، وأحيانا في مصائر العرش والسلطان . وربما كانت هذه الفترة في الواقع هي عصر الأزهر الذهبي من حيث الإنتاج العلمي الممتاز، ومن حيث تبوؤه مركز الزعامة والنفوذ . (٢)

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٢٣ - ٢٤) .

^٢ - ((الأزهر أثر وثقافة)) ص (١١) .

﴿ دور الأزهر في الحفاظ على تراث الأمة ﴾

وفي هذه الفترة كان العالم الإسلامي يواجه فترة من أخرج الفترات التاريخية التي ألت به، فبغداد كانت تعاني من حرائق التتار لحضارتها، والمسلمون كانوا يقتلون في بلاد الأندلس وينحسر حكمهم، وأصدق وصف لهذه الحقبة ما ورد في كتاب ((جامعة الأزهر)) الذي صدر عنها حيث جاء فيه : ((وفي أوائل القرن السابع الهجري نهض الأزهر بمهمة تاريخية جلييلة حيثما استطاع أن يحتفظ بتراث الحضارة الإسلامية والعربية، بينما عصفت بهذا التراث رياح المغول في الشرق، فقضت على معاهد العلم في بغداد، كما قضت على منابع الثقافة العربية والإسلامية في الأندلس)) . وفتحت مصر صدرها للعلماء والطلاب الذين نزحوا إليها من الشرق ومن الغرب فرارا من الظلم والوحشية، وغدا الأزهر الملاذ الحاني لهؤلاء العلماء والطلاب، وأخذ يتبوأ مركز الزعامة الفكرية والثقافية في مصر والعالم الإسلامي، وأصبح مسرحا لنشاط جمهرة من أبرز العلماء أمثال : عبد الرحمن بن خلدون، وعبد اللطيف البغدادي، وابن الفارض، وابن خلكان، والحافظ ابن حجر العسقلاني، والقلقشندي، والمقريزي، وغيرهم . فكان الأزهر رحبا عند استقبال هؤلاء العلماء المهاجرين إليه من كل صوب، فنهض متحملا على عاتقه مهمة الحفاظ على التراث الإسلامي، وإبقاء شعلة المعرفة الإسلامية تبرق لجيوش المسلمين بالنصر على أعدائهم . (١)

وفي هذا الجو العلمي المزدهر استقطب الأزهر العلماء المصريين من سائر المدارس والمساجد في أنحاء مصر، الذين أخذوا يتطلعون إلى شرف التدريس والدراسة في الأزهر، كذلك أصبح الأزهر مقصدا للعلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وسرعان ما انتقل الأزهر من الزعامة الفكرية والعلمية لمصر إلى الزعامة في أرجاء العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، بل وفي بعض أصقاع شتى من أوروبا . (٢)

١ - ((الأزهر في ألف عام)) ص (٧٢ - ٧٣) .

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٢٤) .

﴿ الأزهر الشريف في ظلال العثمانيين ﴾

اتسم العهد العثماني بالانحطاط في شتى نواحي الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية، فخدمت جذوة النشاط الفكري، وبخاصة عندما حُمل قادة الفكر ونقلت الذخائر النفيسة من الكتب إلى القسطنطينية، حيث عز على العثمانيين أن تكون لمصر تلك المكانة المرموقة، وهي تلك الولاية التابعة لهم، ومن ثم عملوا على تجريدها من كل مظاهر القوة والزعامة، وقد أصاب الأزهر الركود الذي خيم على كل مظاهر الحياة في البلاد، ولكنه صمد للمحنة واستطاع بماضيه وبما له من هبة أن يقاوم جبروت الغزاة ويغالب لغتهم، ويحفظ علوم الدين ولغة القرآن من الضياع، واستطاعت مصر بفضل الأزهر أن تحمي التراث الإسلامي والعربي مدى ثلاثة قرون . وفي هذا العهد انصرف الأزهر عن دراسة العلوم الرياضية والعقلية، وقالت آراء بتحريمها، وجمد الفكر عند علوم السلف، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الأزهر منارة الحائر في ظلمة هذا العهد، يقصده طلاب العلم من كل فج لينهلوا من علومه، وكان من بينهم التركستاني والهندي والزيلي والسناري والشامي والمغربي والعجمي واليميني، ودرست بالأزهر آنذاك مذاهب الفقه الأربعة، و كان لكل مذهب شيخه، وكانت مشيخة الأزهر للشافعية في معظم الأحوال، وكان لقب ((شيخ الإسلام)) يطلق في هذا العهد على كبير القضاة الأربعة، وهم : قاضي الشافعية، وقاضي الحنفية، وقاضي المالكية، وقاضي الحنابلة . وألغي في عهد السلطان سليم نظام القضاة الأربعة، وعين لمصر قاضيا تركيا، وجعل له نوابا من المذاهب الأربعة .

وأما وظيفة شيخ الأزهر فقد أنشئت في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وأسندت أول مشيخة للأزهر للشيخ محمد عبد الله الخرشبي، وأصبح هذا المنصب وقفًا على أكابر العلماء، وذكرت بعض المصادر أن أول شيخ للأزهر كان الشيخ محمد البرماوي المتوفي سنة ١٦٩٤ م .

(١)

ولم يكن للأزهر شيخ منذ أن أنشئت إلى القرن العاشر - الهجري -، وإنما كان يتولاه الملوك و الأمراء الذين كانوا يهتمون بشأنه ويكرمونه أهلًا، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري جعل للأزهر شيخ، ومما يجمل ذكره أن شيخ الأزهر كان بمثابة شيخ الإسلام في دار الخلافة،

^١ - ((الأزهر في ١٢ عام)) ص (١٧ - ١٨) .

فكان يقوم بشيء من الأزهري، ويرعى أمور أهله ويفصل في قضاياهم ويضبط مرتباتهم، ويمثلهم لدى الحكومة، ومنوط به إقامة شعائر الدين في أنحاء القطر قاطبة . (١)

لكن العثمانيين يقال : أنهم عينوا الشيخ إبراهيم بن محمد البرماوي كأول من عين عام ١٦٩٤ م شيخا للأزهري، وكان قبل عهد الشيخ الخرشي . لكن لا توجد أية مصادر تنبئنا أن مشيخة الأزهري كانت تسبق عهد الشيخ الخرشي . (٢) وإذا كنا لم نوفق إلى العثور على أسماء العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهري قبل أواخر القرن الحادي عشر لنقص الوقائع والمراجع، و ذلك لأن العصر التركي هو أكثر العصور في تاريخ مصر الإسلامية غموضا واضطرابا وأقلها في الوثائق والمراجع . (٣) لكن ما عليه إجماع تاريخي أن : أول من تولى المشيخة – كما قال الجبرتي – هو الإمام محمد بن عبد الله الخرشي المالكي ، وقد توفي سنة (١١٠١ هـ) . (٤)

وجدير بالذكر أن الغزو العثماني لمصر قد أثر على كل ملامح الحياة المصرية بعد أن : خضعت مصر للحكم العثماني خضوعا تاما عام (٩٢٣ هـ)، واستمرت ولاية عثمانية إلى أن وضع محمد علي يده عليها عام (١٢٢٠ هـ)، وكان يتولى الحكم فيها الوالي التركي ومساعدوه ويسنده الجيش والمماليك . (٥) وفي عهد العثمانيين رغم المذابح التي قاموا بها في القاهرة، إلا أنهم لم يتقدموا إلى اللاجئين بحمي الأزهري الشريف بأي سوء إجلال له وتقديسا لحريته . (٦) إلا ما كان تحت ستار الاستعانة بالعلماء في القسطنطينية، وهو في حقيقته نفي لهم : لقد نفي العثمانيون العلماء إلى القسطنطينية، وانتزعوا الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية، ومازال منها بقية كبيرة في مكتبات استانبول، ومنها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجري المصريين مثل المقرئزي، والسيوطي، والسخاوي، وابن إياس، مما ينذر وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمي . (٧)

١ - ((الأزهري في ألف عام)) (١ / ١٢٩) .

٢ - ((الأزهري في ألف عام)) ص (٥٥) .

٣ - ((الأزهري أثر وثقافة)) ص (٣٢) .

٤ - ((الأزهري في ألف عام)) (١ / ١٢٩ - ١٣٠) .

٥ - ((الأزهري في ألف عام)) (١ / ١١٥) .

٦ - ((الأزهري في ألف عام)) ص (٥٤ - ٥٥) .

٧ - ((الأزهري في ألف عام)) (١ / ١١٨) .

وإذا كان الأزهر قد انطوى على نفسه في العصر العثماني وقلت آثاره العلمية، فقد استطاع بما كان يتمتع به علماءه من نفوذ في نفوس العامة والخاصة أن يحمل ولاية العثمانيين على احترامه والرجوع إليه في مهام الأمور، فحاول بعضهم استغلال نفوذ علمائه في تهدئة ثائرة الشعب كلما حدث اضطراب أو قامت ثورة داخلية، وظلت مصر بفضل الأزهر ملاذا لطلاب العلوم الإسلامية من كافة أرجاء العالم الإسلامي . (١)

وبمجيء العثمانيين إلى مصر (٩٢٣ هـ - ١٥١٧) ضاع استقلالها وانفصمت عرى الوحدة التي كانت قائمة بينها وبين الشام، وسقطت تبعية الحجاز لمصر بعد أن تحول شريف مكة وأميرها بولائه نحو الدولة العثمانية، وانتقل مركز الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى استانبول . (٢)

أما السلطان سليم فاتح مصر فقد حرص على أن يظهر احترامه للجامع الأزهر . (٣) ولما فتح السلطان سليم مصر أقام فيها قرابة ثمانية شهور، اختار فيها كل غال وثمين من الكتب وأهل العلوم والحرف ليسافروا إلى عاصمته . وفي هذه الشهور الثمانية التي قضاها السلطان سليم في مصر كان يؤدي صلاة الجمعة في الأزهر ويغدق عليه الأموال . (٤) وانتهج العثمانيون نهج الاحترام مع الأزهر وعلمائه ، والتوقير العظيم لهم .

ففي نظام الدولة العثمانية كان المفتي الأعظم وسائر العلماء يجلسون عن يمين السلطان ويجلس الوزراء والأمراء عن يساره، ويقف القادة العسكريون على أقدامهم، ولا يؤذن لأحدهم بالجلوس في حضرة السلطان إلا إذا احتاج إليه السلطان أو الصدر الأعظم في مشورة عسكرية . وهكذا كانت مجالس علماء الأزهر في الديوان العالي بمصر يجلسون عن يمين والي مصر الباشا العثماني، بينما يجلس الأمراء عن يساره، ويقف القادة العسكريون منتصبين إلى أن يسمح لهم أو لأحدهم بالجلوس . حكى مفتي إسلامبول شمس الدين أحمد بن كمال باشا كيفية تحوله من العسكريين إلى العلماء في عهد السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٨ هـ) فذكر أن سبب ذلك هو ما رآه من تكريم السلطان والدولة للعلماء وجلوسهم في مجالس أعلى من مجالس الأمراء، ثم قال في نهاية حديثه : ((إن العلماء معظمون بعلمهم، فلو تأخر أحدهم عن مجلسه تواضعا لم يرض بذلك السلطان والصدر الأعظم والوزراء، كما جاء في قانون الدولة العثمانية : إن العلماء

١ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) ص (٤٩) .

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٢٤) .

٣ - ((تاريخ المدارس في مصر الإسلامية)) . للأستاذ سعيد عبد الفتاح عاشور . ص (٥١) .

٤ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) . ص (٤٩) .

مهما حدث منهم من مخالفات لا يقتلون، وإن حدث منهم ظلم ينفون ..)). وفي مصر كان علماء الأزهر لا يذكرون إلا مسبوقين بلقب ((ساداتنا)) ، فيقال : ((ساداتنا العلماء))، كما كان طلبة العلم المجاورون في الأزهر لا يذكرون إلا مسبوقين بلقب ((السادة))، فيقال : ((السادة المجاورون بالجامع الأزهر)) . وقد جاء هذان اللقبان في الفرمانات والرسائل الرسمية ، كما دونا في السجلات الأميرية والشرعية . (١)

﴿ الكرامة الرابعة للأزهر الشريف ﴾

انحنت مصر للعثمانيين، وانحنى العثمانيون للأزهر الشريف، وفقدت مصر زعامتها، ولم يفقد الأزهر زعامته، صدقني إنها معجزة إلهية تلوح من بين جدران هذا المكان، تنهار دولة الفاطميين ويبقى هو سنيا خالصا، زعيما للعالم الإسلامي لأنه في مصر البلد التي تحتضن الخلفاء العباسيين آنذاك وتأخذ من ذلك زعامتها للشرق، وعليه فقد كانت مصر آنذاك زعيمة لعالم المسلمين إداريا وعلميا، وتسقط مصر في أيدي العثمانيين، وتفقد زعامتها للشرق وتصبح دار الخلافة تركيا لكن يبقى الأزهر زعيما . (٢)

وقد نبغ في هذا العصر عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء، منهم : الشهاب الخفاجي المتوفي سنة (١٠٦٩ هـ) والبديعي المتوفي عام (١٠٧٣ هـ) وعبد القادر البغدادي المتوفي عام (١٠٩٣ هـ) صاحب ((خزنة الأدب)) ، والسيد مرتضى الزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ) مؤلف ((تاج العروس)) ، والصبان المتوفي عام (١٢٠٦ هـ) ، ومنهم المحيي (١٠٦١ - ١١١١ هـ) مؤلف ((خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)) ، والشعراني المتصوف المتوفي عام (٩٧٣ هـ) ، وعبد الله الشبراوي المتوفي عام (١١٧٢ هـ)، وسواهم، وهؤلاء كانوا من غير شك ممن أفادوا من الأزهر وتأثروا به . (٣)

٤ - ((دور الأزهر السياسي في العهد العثماني)) . للدكتور عبد الجواد صابر إسماعيل . ص (١٤ - ١٥) .

١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٢٥) .

٢ - ((الأزهر في ألف عام)) . (١ / ١٢٦) .

﴿ الأزهر في عهد محمد علي ﴾

محمد علي هو مؤسس الدولة المصرية الحديثة في شتى المجالات، ففي هذا الزمن كان الواقع قد تغير، فتغير وجه الأرض بسبب ثورة الاتصالات والمواصلات بمراحلها المختلفة . (١)

بدأ محمد علي التعليم الموازي، فترك الأزهر على حاله وأنشأ - موازيا له - تعليما سماه التعليم المدني، وأرسل البعثات إلى أوروبا، فحدث بعد ذلك ما أسميناه بازدواجية التعليم، وأصبح هناك من يدري الشرع ويطلع على التراث، ومن يستطيع أن يتعامل معه، وهناك أيضا من أصحاب العلوم والفنون من لا يستطيع أن يتعامل مع هذا التراث، وسمي الأول بالسلفي، والآخر بالعصري، وأصبحت هناك معركة ما كنا نود أن تكون، بين ما أسموه بالأصالة والمعاصرة، حتى أطلق عليها بعضهم ((المعركة بين الطربوش والعمامة)) على سبيل الرمز، وظل هذا التحالف في ازدياد إلى عصر الخديوي إسماعيل . (٢)

وإذا ذكرت حسنات محمد علي كان من أجل أعماله توجيهه جزءا كبيرا من جهوده إلى إحياء العلوم والآداب في مصر، وذلك بنشر المدارس على اختلاف درجاتها، وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا، وقد اتبع في هذا السبيل تلك الفكرة التي اتبعها في إنشاء الجيش والأسطول، ذلك أنه اقتبس النظم الأوروبية الحديثة في نشر لواء العلم والعرفان، فأسس المدارس الحديثة، وأخذ من الحضارة الأوروبية خير ما أنتجته العلوم والقرائح، فنهض بالأفكار والعلوم في مصر نهضة كبرى كانت أساس تقدم مصر العلمي الحديث . وعني محمد علي بنشر التعليم على اختلاف درجاته من عال وثانوي وابتدائي، ويتبين من مقارنة تاريخ المنشآت العلمية أنه عنى أولا بتأسيس المدارس العالية وإيفاد البعثات، ثم وجه نظره إلى التعليم الابتدائي، ونعم ما فعل، لأن الأمم إنما تنهض أولا بالتعليم العالي الذي هو أساس النهضة العلمية، وقد أراد بادئ الأمر أن يكون طبقة من المتعلمين تعلموا عاليا يستعين بهم في القيام بأعمال الحكومة والعمران في البلاد، وفي نشر التعليم بين طبقات الشعب، وهذا هو التدبير الذي برهنت التجارب على أنه خير ما تنهض به الأمم، وقد ساعد على تكوين طبقة تعلمت تعليما عاليا قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية أن الأزهر كفل إمداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة

٣ - ((التجربة المصرية)) للدكتور على جمعة ص (١٢) .

٢ - المرجع السابق . ص (١٩ - ٢٠)

قسطا يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية في مصر أو في أوروبا، فكان الأزهر خير عضد للتعليم العالي . (١)

ولما بدأت النهضة العلمية في مستهل العصر الحديث لم تجد لها منبعاً إلا في رحاب الأزهر، لقد كان معظم المبعوثين من مصر إلى أوروبا من رجال الأزهر، وكان البارزون من أبناء الأزهر هم الذين وضعوا أسس النهضة الثقافية الحديثة في مصر . (٢) فالشخصيات الكبرى التي شكلت فكر مصر الحديث إما أزهريون أو تلاميذ لعلماء الأزهر، فحسن العطار، ورفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده من علماء الأزهر الشريف، بل حتى الطرف الآخر من المفكرين الذي شذوا عن الرؤية الدينية المتكاملة بشكل أو بآخر كانوا إما ممن تخرج من الأزهر أو تتلمذ على يد بعض علمائه .

وإذا نظرنا في مجمل ما تقدم لاحظنا أن الأزهر انفرد عن غيره من المدارس العلمية بمصر بتنوع العلوم التي تدرس فيه، وانفرد عن غيره بعلميته، وانفرد عن غيره ببقائه رغم الخطوب، وازدياد نشاطه على مر العصور . (٣)

﴿ مكانة الأزهر العالمية ﴾

لقد علمت فيما سبق أن الأزهر الشريف اختيار من الله تعالى له، لحفظ ذلك الموروث العظيم من هدي النبي ﷺ، وأنه قلعة الاسلام الحصينة التي حافظت على الهوية الاسلامية وعلى ذلك التراث الزاخر من تراث سلفنا الصالح ﷺ، وهذه حكمة الله تعالى التي ظهرت في رعاية الله تعالى لهذا الصرح العظيم، لا أقول حفاظاً على بنيانه، بل بالحفاظ على منهجه وعلومه، وأبى الله تعالى إلا أن يكون منهجه هو منهج النبوة وإحياء السنة، فخلصه بحكمته من موروث الرافضة وعقائدهم الباطلة، وأعزه بقدرته فقيض له الأعلام من العلماء ليشعلوا شعلة الهداية فيه حتى أضحى الشمس التي بددت ظلمات الباطل والجهالة، وما زال ولن يزال يسير في أداء رسالته كما اقتضت حكمة الله تعالى وإرادته لهذا المعهد الرباني، فلقد شرفه الله بأن يكون قطعة من أرض الكنانة المصونة في أرضه، وشرف كنانته مصر به فهما متلازمان مشرفان، وهذه إرادة الله ليكون

١ - ((عصر محمد علي)) . لعبد الرحمن الرافعي ص (٣٩٦ - ٣٩٧) .

٢ - ((تاريخ المدارس في مصر الإسلامية)) ص (٥١) .

٣ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٢٥ - ٢٦) .

أزهر مصر ولتكون مصر الأزهر، ليكون كلا من مصر والأزهر كنانة الإسلام، ومستودع أسهمه التي لا تخطئ في نحر كل من كاد للإسلام وأهله من جيوش الأعداء له من البشر ومن الفكر . و من درر القول في هذا المعنى ما قاله الأستاذ والأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي :

((الأزهر)) : هذه الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة ((الهرم))، وفي كلتا اللفظتين يكمن سر خفي من أسرار التاريخ، التي تجعل الكلمات ميراثا عقليا للأمة، ينسى مادة اللغة فيها، ولا يبقى منها إلا مادة النفس، إذ تكون هذه الكلمات تعبيرا عن شيء ثابت، ثبات الفكرة التي لا تتغير، مستقر في الروح القومية استقراره في الزمن، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بمادته دون ما يشاركه في هذه المادة، فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زمانا لا حجرا، وفنا لا جسما، والمكان في الأزهر يغيب فيه معنى المكان، وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة توجد في المنظور غير المنظور . وعندي أن الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيرا جديدا للحديث : ((مصر كنانة الله في أرضه)) . (١) فعلمناؤه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله، يرمي بها من أراد دينه بالسوء، فيمسكها للهيبة، ويرمي بها للنصر . (٢)

نعم إنها مصر التي يقول عنها ابن زولاق : بلد الحكمة والعلم، ومنها خرج الحكماء الذين عمروا الدنيا بكلامهم وحكمتهم وتدبيرهم . (٣) ثم شرع ابن زولاق في ذكر بعض حكماء وعلماء مصر قديما ثم قال : فهؤلاء حكماء الأرض وعلمائهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، وبها ولدوا، وفي الأرض نشروا علومهم، لا ببغداد، ولا بالكوفة، ولا بالبصرة . وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأول طلبة العلم وأصحاب العلم الدقيق، لتكون أذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء ودقة الفطنة، فما أكسبت أحدا منهم بلادة، ولا انقطع له خاطر، وإنما أدرك جالينوس يسيرا من كثير . (٤)

١ - ذكره السخاوي في ((المقاصد الحسنة)) ص (٦٠٩) وقال عقبه : لم أره بهذا اللفظ في مصر ولكن عند أبي محمد الحسن بن زولاق في فضائل مصر له حديثا بمعناه ولفظه (مصر خزائن الأرض كلها من يردّها بسوء قصمه الله) وعزاه المقرئ في الخطط لبعض الكتب الإلهية .

٢ - مقال : ((تجديد الإسلام رسالة الأزهر في القرن العشرين)) نقلا عن هذا الرابط : http://lahodod.blogspot.com/2010/06/blog-post_1144.html .

٣ - ((فضائل مصر)) لابن زولاق ص (١٥) .

٤ - المرجع السابق ص (٢٠) .

بل نرجوا ألا يجانبنا التوفيق إذا زعمنا أن ممارسة الإسلام نفسه بلغت على يديها درجة من الرصانة والاستواء، جعلت من أزهرها قلعة للإسلام وكعبة للإسلاميات، ومنذ وقت مبكر في تاريخ الحضارة الإسلامية كان واضحاً أنها تتقدم بثقة لتكون من طليعة سدنة الإسلام وحفظة تراثه والقوامين عليه . (١)

يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور : ثم أصبحت مصر بعد انحلال الخلافة العباسية وخراب بغداد على أيدي التتار سنة (٦٥٦) هـ عاصمة الشرق الأوسط ومقل الأمة الإسلامية، ومشوى علومها، فأتمها العلماء من بلاد الإسلام التي منيت بغزو التتار، ورغبهم فيها ما وجده السابقون إليها من حسن الإقامة ورحب الصدر، واعتبار نزول القاهرة مساوياً لأبنائها الشادين فيها، فقطنها مثل ابن الحاجب، وعز الدين بن عبد السلام، وابن منظور صاحب ((لسان العرب))، و الفيروزآبادي صاحب ((القاموس)) والتيفاشي صاحب كتاب ((خواص الأحجار))، وظهر في مصر أئمة من العلماء في جميع الفنون، مثل شهاب الدين القرافي، وتقي الدين بن دقيق العيد. وعظم اشتهاار مصر بعد سقوط الدولة العباسية، وكان الجامع الأزهر يومئذ قد شرفه الله بأن صار مقر علوم أهل السنة، بهمة الملك الصالح صلاح الدين الأيوبي، إذ أقام القضاء المصري على مذهب الشافعي، وأزال قضاة الإسماعيلية والإمامية الذين استأثروا بالقضاء من عهد ظهور الدولة الفاطمية من سنة (٣٦٥) هـ إلى أن قلص ظلهم صلاح الدين سنة (٥٦٤) هـ . وأصبح الأزهر مقصداً لطلبة العلم من بلاد الإسلام، وبنيت المدارس لإيواء الطلبة الوافدين من غير أهل القاهرة . (٢)

فالأزهر الشريف هو المؤسسة الإسلامية والأكاديمية العالمية العربية والعتيقة التي أعطت لمصر وللشعب المصري العريق مكانة مرموقة عربياً وإسلامياً ودولياً على مر التاريخ والأزمنة والعصور، لجدير بها أن تضع له مكانة في تحديد مصيرها الآني والمستقبلي .

وظلت هذه المنارة الإسلامية العتيقة العتيقة عبر التاريخ، تشد الأنظار إليها من كل صوب وحذب، وكيف لا؟!، وعمر الأزهر الشريف المديد الذي ظل المركز الأمين والآمن للإسلام وللфكر الإسلامي الناصع عبر القرون والدهور، وتعاقب الأجيال جيلاً بعد جيل، حامياً للعلم، مدافعاً عن الحق والفكر والأوطان، وصمام أمان للدين الحنيف، من تبديل المبدلين وتجاوز

١ - ((شخصية مصر)) . للدكتور / جمال حمدان ص (١٣٨) .

٢ - ((أليس الصبح بقريب)) ص (٥٦ - ٥٧) .

المتجاوزين، وتحريف المحرفين، وتهور المتهورين، حارساً أميناً على الدعوة الإسلامية ونشرها بالموعظة والحكمة والقول الحسن، باعثاً للطمأنينة في نفوس المصريين والعرب والمسلمين في العالم، يتباهون به وبسيرته العلمية العطرة لأنه قبله الإسلام والمسلمين العلمية . (١)

واستمر الأزهر عبر القرون معطاء، متجدد العطاء لمن ورد معينه الصافي، ونهل منه العلوم و المعارف، ومن مظاهر اختيار الله له في أداء هذه الرسالة الإلهية والسنة النبوية أنه بقي كما شاء له ربه، ودرست وعفت تلك المدارس التي هي خارج مصر، كمدارس بغداد والشام وقرطبة، كما لحقتها تلك المدارس التي في الداخل، فكان له السبق في الحفاظ على علوم الإسلام، والحفاظ على هوية المسلمين، كما هو واضح في الحفاظ على اللغة العربية وعلومها، وعلى الأخلاق والقيم الإسلامية، وعمل بدور كبير ومؤثر في ترسيخ القيم الانسانية، ونشر نور العلوم شرقاً وغرباً، ولم تتفق كلمة كما اتفقت كلمة الحق شرقاً وغرباً على عظمة الأزهر الشريف الذي صار الملجأ للمسلمين في العالم في أمور دينهم وشريعتهم وعلومها . بما يمكننا أن نقول : لو كان الأزهر مجرد معهد علمي يجلس في ساحاته كوكبة من الأساتذة تحيط بهم ثلة من التلاميذ، لكان في بلدان العالم مشرقه ومغربيه ما يماثله ويضاهيه، وربما يفوقه أو يزيد عليه، ولو كان الأزهر مجرد خزانة للتراث أو وعاء له لكان في مكتبات العالم - المغمورة والمشهورة - ما يضارعه أو يدانيه كثرة وشهرة، و لو كان الأزهر مجرد اسم ذائع أو شهرة رائجة لكان في مقدور كثيرين اصطناع مثل ذلك، أو ما هو أكثر منه، إذا.. فما الذي جعل للأزهر هذه القامة السامقة والقيمة الشاهقة، التي لم تزد علي مر السنين إلا ارتفاعاً وشمخاً ؟!

إنه استمسك الأزهر بميزان الاعتدال وتجسيده الفعال للوسطية الإسلامية، تلك الوسطية التي تمثل نسيج الإسلام الساري في أوامره ونواهيه، وقيمه ومقاصده، تلك الوسطية التي كتب الله تعالى - بواسطتها - للإسلام الخلود والبقاء والشهادة علي البشرية جمعاء، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [سورة البقرة آية: ١٤٣] (٢)

ولم يتفق لمدرسة علمية في تاريخ الاسلام من اتساع دائرة التأثير وطول المدة الزمنية التي قامت فيها بحمل أعباء الدين والعلم، وامتداد الأثر العلمي الرشيد على مدار رقعة جغرافية مترامية وشاسعة وممتدة من المشارق إلى المغرب، كما اتفق للأزهر الشريف صانه الله . فلقد ظل

١ - مقال : ((الأزهر هو الملاذ الآمن)) أ.د / مرزوق أولاد عبد الله .

٢ - مقالة : ((الأزهر .. ووسطية الإسلام)) للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل القوصي .

الأزهر الشريف على مدى قرون وهو يتبوأ المكانة العلمية السامية، ويحظى بالتقدير والاحترام من المشاركة والمغاربة، ويشهد له أبناء المدارس العلمية المناظرة له في الأقطار المختلفة بالسبق والتقدم والجلالة، وتأتي إليه الوفود والبعوث من سائر الأعراق والأجناس والشعوب، فيحصلون من العلم والنظر والفهم واتساع الأفق ومتانة الديانة وقوة الشخصية ما ينعكس على أمهم وشعوبهم، فلا يجدون في نتيجته ومآله إلا العمران والنماء والصلة بالمولى سبحانه، وحسن القيام بأمانة الدين، فاستقر له في وجدان الشعوب العرفان بالجميل، وثبتت له المرجعية الكبرى في شئون العلم والتعليم، وتعاقبت الأجيال على الوفود إليه دون غيره . (١)

وقد أعد الأزهر نفسه فكريا لهذا الدور العالمي الرفيع، وذلك بإدراك متبصر للرحمة الإنسانية العامة التي تتمثل في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء آية: ١٠٧] تلك الرحمة التي غفل عنها غلاظ العقول والأفتدة، فأصبح الإسلام علي أيديهم قرينا للعدوانية لصيقا بالإرهاب، رديفا للشكلية والجمود والتصحر والتحجر، وأضحى علي الأزهر أن يزيل عن صورة الإسلام تلك الأفهام الصدئة حتي تبدو تلك الصورة، وكما أراد لها الباري الحكيم رحمة ورأفة وقياما بالقسط وإحقاقا للحق . كما أعد الأزهر نفسه علميا لهذا الدور العالمي الشامخ، وذلك حين اضطلع بمسئولية الحفاظ علي التراث الإسلامي الزاخر، وبمسئولية الجمع الرصين الدقيق بين النقل والعقل، وبوقوفه الحازم أمام محاولات العبث بأصول الإسلام وثوابته، ممسكا في ذلك كله بميزان الاعتدال ومعيار التوازن سواء بين الاتجاهات الاعتقادية، أو المذاهب الفقهية، أو إزاء مستجدات الوقائع ونوازل الأحداث، بيد أننا ينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن هذا الدور العالمي للأزهر ليس إرثا مجانيا تتعاقب عليه الأجيال، أو لافئة صماء نتيه بها فخرا واختيالا بل هو جهد دائم ومثابرة يقظة، وهو فوق ذلك مسئولية شرعية دينية تحتاج من الأزهرين جميعا أذنا واعية، وعقولا مفتوحة، وإدراكا لواقع المسلمين الحضاري الراهن المثقل بالمصاعب والمخاوف بالمخاطر . (٢)

وإذا كانت مصر هبة النيل، فالأزهر هبة الإسلام، والدور الأصيل الموغل عبر الأعصار والأمصار يجاوز ثلثي عمر الدعوة الإسلامية - ألف وسبعون عاما من الزمان - للأزهر الشريف،

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في صناعة ثقافة العالم)) للدكتور أسامة السيد محمود الأزهرى . ص (٩) .

^٢ - مقال : ((الأزهر وعالمية الإسلام)) للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل القوصي . من المقالات المنشورة للرابطة العالمية لخريجي الأزهر .

في خدمة العلوم الإسلامية بتجرد وموضوعية، ونفع المسلمين تعليمياً وإرشاداً، وتميزت الثقافة الأزهرية بالتنوع الفكري، ومعالجة المذهبية، ومداداة التشدد والمغالاة وتصحيح مفاهيم مغلوطة، وتحقيق الأمن الثقافي، والتحرر من ازدواجية الثقافة . (١)

وعليه فالأزهر الشريف ليس فقط أبنية وجدراننا، وليس رجالا وأشخاصا، وليس فقط موقفا تاريخيا عابرا، ولا هو فقط مؤلفات وحلقات ودروس، ولا هو أنشطة وأحداث، ولا هو فتاوى وآراء، بل الأزهر الشريف في الحقيقة شيء آخر أعمق من ذلك كله، ويحرك ذلك كله، وتتجلى آثاره في ذلك كله، الأزهر الشريف في حقيقته منهج معتمد ومنضبط في فهم الدين، ووعاء حافظ وأمين ومستوعب للعلوم والمعارف، مع مناهج فهمها وتحليلها، يقوم على تاريخ العلماء الذين درسوا وحصلوا الآلات العلمية مع العمق في تبصيرهم بمقاصد الشرع الشريف، والأمانة في توريث المنهج النبوي، مصحوبا بكيفية فهم الواقع وتكييفه، وإتقان تنزيل الأحكام الشرعية على مواضعها، كل ذلك مع تجربة بشرية تعليمية طويلة الأمد، فازدادت صقلا وإحكاما، وقد ترتب على هذا المنهج ثمرات ونتائج، فبرز المنهج التعليمي المعتمد، وبرزت المؤلفات الأزهرية المتقنة، وبرزت المواقف التاريخية الجيدة، إلى آخر تلك النتائج المترتبة على هذا المنهج الرصين . (٢)

ولقد ظلّ الجامع الأزهر الشريف يخدم الدين الإسلامي، ويحمل أمانة الدعوة إلى الله تعالى، على مدى ألف سنة من الزمان أو يزيد، بمنهجية كتب الله تعالى لها القبول، وتلقّتها الأمة بالإقرار، حتى غدا الأزهر - بفضل الله تعالى - عين الأمة التي تُبصر بها، ولسانها الذي تعبّر به، وضميرها الذي تحيا به، وأخذ الناس في شتى الأقطار ينظرون إلى علمائه على أنهم ورثة النبوة على الحقيقة، لا يشك في ذلك أحد . (٣) وهو مفخرة المفاخر حظا ، لأنه روح الحضارة الإسلامية ودرعها الواقى ، وبحسبنا أنه كان موئل العربية وملاذها الأمين . (٤)

١ - مقال : ((إياكم والأزهر هبة الإسلام)) أ.د / أحمد محمود كريمة .

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٦) .

٣ - مقال : ((الأزهر الشريف ومنهجية الدعوة)) للأستاذ / حمد الله الصفتي .

٤ - ((الأزهر في ألف عام)) (٢ / ٤٠٦) .

﴿ دور الأزهر في حفظ العلوم الإسلامية والعربية ﴾

حفظ الأزهر الشريف العتيد على مدى عمره المديد العامر بإرادة الله للقرآن لغته، وللسنة مكانتها، وللعلوم الإسلامية جلالها، وللتشريع الإسلامي استمراره وتطوره من خلال بحوث أعلامه وعلمائه وطلابه المستنيرة بهدى الله وتعاليم رسوله ﷺ، وبعقليته المؤمنة الفذة المتزنة الآمنة، وبمخزونه الشرعي الوافر الضارب في جنبات أعماق التاريخ المصري والعربي والإسلامي والإنساني منذ نشأته، محفوظ بحفظ الله له، محمى بعلمائه وبرجالاته الأعلام على مر العصور والأزمان . العلوم الشرعية فيه فيض من بحر متلاطم الأمواج لا ساحل له، علماؤه الأجلاء جبال راسيات أو رواس، أخلاقهم كالرواسي الشامخات، مثابرتهم وتحملهم عنت الجهد والمشقة في التحصيل العلمي الشرعي لا متناهية، والتفاني في أداء رسالتهم الدعوية لا ملل فيه، بالرغم من الظروف المعيشية العصيبة، لأنهم وهبوا أنفسهم لخدمة أهداف الإسلام والأمة العالية، أملهم في الله كبير، تعلق قلوبهم بأزهرهم عقيدة راسخة لا علاقة لها بشرط ومشروط، يبذلون النفس والنفيس من أجله، جنود مجندة في السر والعلانية، لا يكلون ولا يملون، صفاتهم مكتسبة من صفات أزهرهم، كالعمر المديد، والشموخ والعزة والإباء والصخر العتيد الذي تحطمت وستتحطم فوقه كل المحاولات الخسيسية والمؤامرات الدنيئة للنيل منه . صمودهم كصموده، وطول نفسهم كطول نفسه، وثباتهم كثباته . أقسموا على الله لتبقى راية الأزهر خفاقة في الأفق و فوق العالمين ليل نهار، ضوؤه لن يخفت، توهجه لن يطفأ أو ينطفئ، رسالته الخالدة لن تحد، كبرياؤه لن يهان، لن يطأطئ الرأس إلا إلى بارئه وخالقه ، لن يجحد عن رسالته تجاه أمته وتجاه العالمين مبشراً ونذيراً، سيحمي أمته كل أمته، وسيوحد أهدافها، وسيعلى رايتها بالرغم من كيد الكائدين، وتآمر المتآمرين، سيبقى الحارس الأوحد الأمين على أمته المصرية، وعلى أمم العالمين العربية والإسلامية، ودوره المستمد من الشرعية الإسلامية ومن الأمة ومن ديننا الحنيف ومن معتنقيه ومن تاريخه الضارب في غابر الأزمان والسنين في تصريف شئءون الأمة والمؤمنين ليس له بديل ولا نظير. (١)

١ - مقال : ((الأزهر هو الملاذ الآمن)) .

وعملوا على تجديد العلوم وتقريبها إلى أذهان العامة والخاصة والعمل على توسعة أفهامهم ومدارك عقولهم وتفكيرهم : وقد قام علماء الأزهر بهذه المهمة خير قيام، وقادوا الأمة في أشد المواقف وأصعب الظروف، وخرجوا بها إلى بر الأمان، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

وكان العالم الأزهرى يتشكل ويتكون بطريقة علمية منهجية حيث تتوازن عنده علوم المعقول والمنقول، ويتدرب على فهم عبارات العلماء ويجري ذهنه على مسالك أهل العلم في الفهم والتحليل، ويلزم شيخه ملازمة تامة، فيجري بذلك توريث للملكات والمداخل ومناهج الفهم، قال إبراهيم الهلباوي رحمه الله في مذكراته : وأعتقد أن الدراسة في الأزهر في ذلك الوقت هي أحسن الدراسات وأنفعها على الإطلاق، ففيها تطلق الحرية في المذاهب والكتب والأساتذة، وتلك أمثل الطرق لتكوين الإنسان وتنمية عقله، وتوسيع ثقافته، وقد اتضح أنها طريقة أكبر جامعات أوربا، وأنها الوسيلة للتكوين الحقيقي والتربية الاستقلالية، وكذلك كان طلبة الأزهر في ذلك الحين، فهم يحسنون فهم ما يتلقونه، ويقبلون الرأي على كل وجهه، ويناقشون أساتذتهم ويقنعون ويقنعون .^(١)

ومن خلال استقراء منهج الأزهر الشريف في التدريس والبحث والفتوى عبر القرون الممتدة، يتبين لنا أنه يقوم على ثلاثة أركان رئيسة، تمثل بدورها المعالم الواضحة للشخصية الأزهرية:

((الركن الأول)) : العقيدة السنية ((عقيدة السلف الصالح)) وهي العقيدة الصافية التي لم يداخلها تشويش المعتزلة أو القدرية أو الجبرية أو الجسمة أو غيرهم من الفرق المخطئة، وهي العقيدة السنية الصحيحة التي نظر لها في التصنيف والتقعيد أئمة أهل السنة والجماعة: كأبي الحسن الأشعري، وأبي منصور الماتريدي، وأبي جعفر الطحاوي رحمهم الله. وهي عقيدة جماهير المسلمين، بخلاف أهل البدع أو من تأثر بهم من العوام .

((الركن الثاني)) : فقه أهل السنة ((المذاهب الأربعة)) : ويقصد بذلك اتباع مناهج البحث التي أصلها الأئمة الأربعة في الفقه والفتوى والتدريس، تلك المناهج التي بقيت واستمرت وانتشرت منذ القرون الخيرية الأولى وحتى يومنا هذا، حتى صارت هذه المناهج الأربعة : ((الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي)) عيوناً ترى بها الأمة أحكام الشريعة الغراء، وتصدر من خلالها الرأي فيما يُقبل أو يُردُّ. وقد تم تأسيس هذه المذاهب الفقهية الأربعة والاعتماد عليها

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في صناعة ثقافة العالم)) . ص (١٤) .

بالأزهر الشريف من المنطلق الأصلي للأزهر وهو أنه سُنيّ يتبع منهج أهل السنة في الأصول والفروع .

((الركن الثالث)) : ((التربية الروحية السلوكية)) (التصوّف) : ونعني به تصوف أهل السنة القائم على تركية النفس وتنقية الروح والترقي بها في مراتب القرب من خالقها، لا التصوف الفلسفي الذي لا طائل للمسلم من ورائه إلا التوسع في المصطلحات والمعاني، بل والتعرّض للزلل والمهلكة. ولا نعني به أيضاً تصوّف الجهل والبدعة والخرافة. إنه تصوّف السلف وأئمة الدّين، الذي هو ركن الإحسان من أركان الكيان الإسلامي السليم . (١)

وقال الأستاذ لويس فانوس - وهو رجل من كبار رجال السياسة والقانون المخضرمين - : ((إنني كمسيحي أو من بديني، أؤكد أن الدراسة في الأزهر خير دراسة يقوم عليها منهج قديم أو حديث؛ فإن الأزهر هو ذلك المعهد القديم، الذي صان القومية العربية واللغة العربية، والفقه الإسلامي، الذي لم يترك شيئاً من حياة المجتمع إلا نظمه، كالجنايات، والحدود، وشيء من الوثائق، وأحكام الأسرة)) . فأفادتنا هذه النقول بأن الأزهر الشريف كان يسلك مسلكاً رشيداً ودقيقاً في تكوين عقلية الدارسين فيه، وفي صقل شخصيتهم وفي تنمية ملكاتهم العقلية والنفسية . وهذه هي الأسباب والموارد التي كانت تمكن الأزهريين من المشاركة في صناعة ثقافة بلدانهم، وفي تشكيل شخصية الإنسان الذي يتحمل موارث النبوة ويصنع الحضارة . (٢)

﴿ الأزهر ودوره في حياة الأمة الإسلامية والعربية ﴾

لما صار الأزهر الشريف هو قبلة العلم في العالم الإسلامي، وتعلقت به القلوب والأبصار، رحل كثير من أهل المعمور شرقها وغربها إليه، لينهلوا من معين علومه، الاقتباس من أنواره، ولذلك تتابعت عليه الوفود .

ولقد تقبل الأزهر هؤلاء الوافدين راعياً حانياً، فوكل إلى بعض الأساتذة المختارين أمر تعليم اللغة العربية لمن لا يجيدونها منهم، وإعدادهم للالتحاق بمراحل التعليم المختلفة، وسكن هؤلاء

١ - مقال : ((الشخصية الأزهرية ومنهج الإصلاح)) للأستاذ حمد الله حافظ الصفتي

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في صناعة ثقافة العالم)) ص (١٤) .

الوافدون الأروقة الخاصة بهم، ولما ضاقت بهم الأروقة، أعدت لهم مشيخة الأزهر المساكن الصحية، يقيمون بها تحت إشراف مراقبة البعوث الإسلامية . (١)

إن الأزهر الشريف بأروقته ومبعوثيه وطول الزمن الذي استحكمت فيه حركته العلمية، حتى جاءت الوفود من الأتراك والهنود والبغداديين والحضارمة والجاويين والشوام والجبرتين، فضلا عن أبناء سنار ودارفور وكردفان، وأبناء تشاد وأفريقيا الوسطى، وأبناء السنغال وساحل العاج ونيجيريا، فضلا عن أبناء مصر من الصعيد والشرقية والبحيرة وغيرها من البقاع والأعراق والأجناس، وأن كل هؤلاء الوافدين يعكفون على التعليم والدراسة، ثم يرجعون إلى بلدانهم فيتولون أرفع المناصب، أو يعكفون على تعليم ما تعلموا، وأن الأمم والشعوب استتارت بفعل هذه الحركة العلمية العجيبة، كل هذا مع اطراد هذه الحركة العلمية على مدى أجيال وقرون . (٢)

وكثر الوافدون إلى الأزهر الشريف بالتدريج، وكلما تصاعد صيته العلمي، ورأت الشعوب أثره الحميد في بناء عقول الرجال، وشاهدت آثار أبنائه في تشييد القيم الكبرى لهذا الدين من عبادة الله تعالى، وتركية النفس، وعمارة الأرض، زادت الأمم والشعوب ثقة فيه وفي مناهجه، وازدادت ائتماناً له على فلذات أكبادها، وخلاصة العقول النابغة من أبنائها .

ولقد قام الأزهر بالتفاعل مع هذه الثقة بعدة اجراءات فتقبل الوافدين وآواهم ووفر لهم الزاد، وهياً لهم المسكن، وبذل لهم العلم، حتى ذهبت الأمور بالتدريج في سبيل التقنين والترتيب الإداري المحكم، فنشأت فكرة الأروقة، وقد نزل طلبة العلم في الأروقة، واشتغلوا بالعلم، وأكبوا على تحصيله، ثم منهم من شارك في الشأن العام، فبرزت بذلك آثارهم وأنشطتهم في الكتابة والتأليف، وتدبيج المقالات في الصحافة، وتشكيل الجمعيات التي تنظم جهود أعضائها في الأغراض التي نشأت من أجلها . (٣)

يقول بيارد دودج : ((ومما يثير الفخر والإعجاب أن نرى خريجي الأزهر قد حملوا مشاعل الثقافة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف، وأن الأزهر نفسه كان المنارة التي تشع النور في العالم من

١ - ((الأزهر في ١٢ عام)) ص (٩٥) .

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في صناعة ثقافة العالم)) ص (١٩) .

٣ - المرجع السابق ص (٢١) .

سيبيريا إلى نيجيريا، ومن مراکش إلى الصين، قبل أن يسمع الناس بأمريكا أو الكشف عنها بعد، كما كانت البقاع الشمالية من أوروبا تعيش في تيه الضلالة والجهل برابرة بدائيين)) . (١)

وللأزهر الشريف دور فاعل ومستحق في تعزيز وشائج الأخوة الإسلامية الحقيقية، لا المتوهمة والمفتراة، وفي تقوية التعاون العلمي والفكري والثقافي بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، و في نشر حقائق الدين والردّ على أباطيل دعاة التفرقة الذين يتاجرون باسم الدين، خصوصاً في هذه المرحلة التي ينشط فيها تجار المشروعات الطائفية المقيتة التي تضعف في الأمة مناعتها وقدرتها على المواجهة، وتمزّق وحدتها. ولذلك، فإن من أول الواجبات على دول العالم الإسلامي وقياداته وعلمائه ومؤسساته الثقافية والتربوية والإعلامية، دعم جهود الأزهر الشريف ومساندة رسالته السمحة، ليبقى دائماً حصناً منيعاً من حصون الأمة الإسلامية، يصد عن دينها وهويتها وسلامة كيائها هجمات المبطلين ودسائس الكائدين، وينشر رسالة الإسلام السمحة في الآفاق تهدي العقول والنفوس إلى الصراط المستقيم، وإلى ما فيه الخير والصلاح لمن كان له قلب منهم أو ألقى السمع وهو شهيد .

وكما اهتم الأزهر بالوافدين إليه وعمل بكل جهده في سبيل أداء أمانة التبليغ للعلم الموروث عن النبي ﷺ وهدى القرآن والوحي الشريف، وكذلك العلوم الأخرى التي تصلح حياة المجتمعات الإسلامية، اهتم أيضاً بوجه آخر من وجوه تأديته لهذه الأمانة ، فأرسل رجاله وعلماءه إلى أقطار الدنيا وبلادها، وفي هذا الإيفاد تتجلى عظمة الأزهر الشريف، ومكانته وقدر تأثيره في العالم وصناعة ثقافته والحفاظ على الهوية الإسلامية في العالم بآثره .

وقد اهتمت مصر بالمبعوثين الأزهريين اهتماما كبيرا، إدراكا منها لأهمية الرسالة التي يقومون بها، فيسرت لهم السفر إلى البلاد الإفريقية لأداء رسالتهم في هذه البلاد، ولما صدر قانون تطوير الأزهر سنة ١٩٦١ م، وتضمنت الدراسة فيه الكليات العلمية التي يجمع خريجوها بين الثقافة الدينية والثقافة العلمية المطلوبة في مختلف المجالات، وكان الهدف الأساسي هو إعداد هؤلاء الخريجين لسد الفراغ في البلاد الإفريقية من النواحي المتعددة . وتشرف إدارة البعث الإسلامية التابعة لجمع البحوث الإسلامية بالأزهر على المبعوثين الأزهريين للبلاد الإفريقية . وكان عدد المبعوثين من الأزهر للبلاد الإفريقية في عام ١٩٧١ / ١٩٧٢ م حوالي ١٥٠٠

١ - ((الأزهر في ألف عام)) ص (١٧٥) .

مبعوث أوفدوا إلى البلاد تلبية لرغبتها : ((إريتريا ، الجزائر ، السنغال ، السودان بورندي ، تنزانيا ، سيراليون ، ليبيا ، مالاجاشي ، موريتانيا ، نيجيريا)) وقد تضاعفت الأعداد في السنوات التالية .

ويتلقى الأزهر كل عام عشرات الطلبات من الأقطار الإفريقية ليرسل لها بعثات من علمائه للتعليم في معاهدها، ويحرص الأزهر على تلبية هذه الرغبات، وهناك قواعد دقيقة لاختيار العناصر الصالحة للقيام بهذه المهمة السامية .^(١)

وبالإضافة إلى المبعوثين العاديين كثيرا ما يرسل الأزهر من علمائه البارزين من يقوم بتعليم أحكام الإسلام وفلسفته لمعتقيه، ولتوضيح الكثير من المفاهيم الغامضة، وقد كان هؤلاء العلماء أثر كبير في البلاد الإفريقية التي حلوا بها .^(٢)

وهناك أيضا وجه آخر لتأثير الأزهر الشريف الثقافي والتعليمي والديني يتمثل في إنشاء المراكز الإسلامية في العديد من أقطار العالم وعلى سبيل المثال في إفريقيا. وتنتشر المراكز الإسلامية في مختلف الدول الإفريقية بشمال القارة وغربها وشرقها، خاصة تلك التي انتشر فيها الإسلام . ومن أهم المراكز : المركز الثقافي العربي في فريتاون بسيراليون، ومركز الثقافة العربية في آبادان بنيجيريا، والمركز الإسلامي في دار السلام في تنزانيا، والمركز الثقافي الإسلامي في ساحل العاج . وأهم ما تؤديه هذه المراكز الإسلامية هو نشر الدعوة الإسلامية ، والاهتمام بالثقافة العربية ورعاية المسلمين ، والوقوف على أحوالهم وشيئونهم وإفادتهم في متطلبات حياتهم الشخصية كعقود الزواج والفتاوى الشرعية والاستفسارات الدينية، وحمائتهم من أعداء الدين وتثقيفهم دينيا حتى يتمسكوا بدينهم ويعملوا لنشر مبادئه . ولتحقيق هذه الأهداف تقوم هذه المراكز بالنشاطات الآتية :

١ - تعليم اللغة العربية لمن يرغب من المسلمين الذين يرغبون في تعلم هذه اللغة باعتبارها لغة القرآن .

٢ - شرح مبادئ الدين وتعاليمه وتفسير ما قد يكون غامضا لدى الناس مما يدعو إليه الدين أو ينهى عنه .

٣ - تنظيم المحاضرات التي ترتبط بالأحداث التاريخية الهامة التي مرت بالأمة الإسلامية والعربية .

^(١) - ((دور الأزهر في أفريقيا)) للدكتور شوقي عطا الله الجمل . ص (٥٤ - ٥٥) .

^(٢) - المرجع السابق . ص (٥٧) .

- ٤ - اللقاء أحاديث بالجمعات الإسلامية والمدارس .
- ٥ - إصدار مجلات دورية تربط القراء في هذه البلاد بباقي إخوانهم في العالم الإسلامي .
- ٦ - تقديم خدمات اجتماعية وثقافية، وتنظيم وسائل تحقيق التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع الواحد . (١)

وكما حرص الأزهر على إنشاء المؤسسات التابعة له للقيام بدوره في أداء الأمانة التي رفع لواءها حرص أيضا على تعليم المسلمين الذين لا يستطيعون الوفود إلى الأزهر بإقامة فروع له في تلك البلاد وهي المعاهد الأزهرية .

﴿ معاهد الأزهر في خارج مصر ﴾

يشعر الأزهر أن من واجبه أن يزود المعاهد الإسلامية بمختلف الدول الإفريقية والجامعات الإفريقية بحاجتها من الكتب الدينية، والأدوات التي تساعد في أداء رسالتها على أحسن وجه . ومن أمثلة هذه المعاهد: بالصومال معهد الدراسات الإسلامية، ومعهد برعو الديني، ومعهد مقديشيو، ومعهد بلدوش، ومعهد هرجيسا . وفي السودان : معهد أم درمان، والمعهد الديني في حلفا، والمعهد الديني في شجرة غوردون، و المعهد الديني في الملكال، ومعهد جوبا . وفي جيبوتي : معهد إعداد المعلمين . وفي السنغال : معهد كاواك ، ومعهد الحاج محمد المرتضى .

وفي جزر القمر : مدارس مزيبي . وفي تشاد : المركز الإسلامي . وفي ليبيا : معهد البيضا الديني، ومعهد القويسري . والجامعة الليبية (جامعة السنوسي سابقا) . وفي إريتريا : معهد أسمرة الديني . وفي نيجيريا : معهد العلوم العربية في لاجوس، ومدرسة دار العلوم في أبادان . وفي غانا : مدرسة المقاصد الإسلامية، ومدرسة جامع الشريف محمد عبده .

وهناك العديد من الهيئات العلمية الإفريقية الأخرى التي ترتبط بروابط متعددة بالأزهر والتي يحرص الأزهر على دعمها علميا وثقافيا وتزويدها بحاجتها من الكتب الدينية وغيرها . (٢)

قال الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود: وقد قام الأزهر طيلة قرون في وجه الزحف الفكري ليعلم رسالة الله، آخر الرسائل صافية نقية، ومن هنا كان المسلمون - في مشارق

١ - ((دور الأزهر في أفريقيا)) ص (٥٧ - ٥٨) .

٢ - ((دور الأزهر في إفريقيا)) ص (٥٩ - ٦٠) .

الأرض ومغاربيها - يدينون للأزهر بالفضل، يدينون جميعاً له بالفضل في عقيدتهم، وتدين له الدول العربية بالفضل في الدين واللغة وكان الأزهر ومازال مقدساً عند هذه الشعوب، وإذا سار شيخ الأزهر فيها امتدت إليه الأعين، وأصغت إليه الأفتدة، وغمره الناس بحبهم وتقديسهم .. وكذلك يفعلون مع المشايخ المتخرجين من الأزهر، والذين يلبسون الزي الأزهري... وهذه المكانة للأزهر يعترف بها المستعمرون والمبشرون، يقول أحدهم : إن العمامة البيضاء في أفريقيا أخطر علينا من القنبلة الذرية . ويقول آخر : لا يتأتى لنا الاستقرار في هذه البلاد ما دام الأزهر موجوداً .

﴿ دور الأزهر في آسيا ودول الغرب ﴾

وكما كان للأزهر الشريف دوره في الارتقاء بالمسلمين في إفريقيا وبحياتهم الاجتماعية والفكرية والثقافية والدينية، كذلك لا يغفل دوره في بقية أقطار الأرض، في آسيا وأوروبا والعالم الغربي عامة، وقد اتخذ في سبيل تحقيق هذه الأهداف السامية وترسيخ تلك القيم العالية ما انتهجه في إفريقيا من تشجيع الوافدين للدراسة فيه، وإقامة المراكز الإسلامية، والمعاهد العلمية، وكذلك إرسال علمائه لهذه البلاد، وسياحة الكثير منهم نشر الدين الله وتعليم عباده، وكان منهم الكثير، منهم من هو مشهور ومنهم من هو مغمور، ونورد بعض النماذج من حياة هؤلاء الأزهرين وتأثيرهم في العالم الإسلامي ومنهم :

(١) - إليك أنموذجا أزهريا رحل إلى المشرق الأقصى ، وهو العلامة الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن عفيفي المصري الأزهري، المولود بالقاهرة سنة ١٢٩٨ هـ - وهو من ذرية شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد علي خلف الحسيني، ثم تلقى على كبار علماء الأزهر في زمنه، ثم خرج سياحة علمية واسعة نشر فيها علوم الأزهر هنا وهناك، فنزل الحجاز سنة ١٣٣٩ هـ ثم دخل بلاد الشام، ثم دخل بلاد الهند سنة ١٣٤٠ هـ، وكان له دخول على نظام نواب حيدر شاه ملك حيدر آباد، وكان الملك يحب القرآن والصوت الحسن، ثم شبت الحرب العالمية وهو في حيدر آباد في الهند، ثم نزل بلاد الملايو، فأقام مدة في جزيرة سنغافورة، ثم نزل جاوة وساح فيها ودخل جزائر تيمور وجزيرة سلبيس، فأقام بمدينة سنكان وهي من مدن البوقيس .

قال العلامة الحبيب سالم بن أحمد بن جندان في ثبته المسمى : ((روضة الوالدان)) : وفيها اجتمعت به في عام ١٣٥٣ هـ، وأخذت عنه بعض مروياته، وأجاز لي بجميع مسموعاته ومقروءاته، وأسمعتني المسلسلات المروية في مسلسلات ابن الطيب الشرقي، والإمام محمد بن عقيلة، والحافظ أبي عيسى الثعالبي الجزائري، وغيرها فقرأت عليه القرآن غير مرة بقراءات نافعة وأبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي، ورويت عنه روايات فيها وحدثت عنه، فأذن لي بالرواية عنه، فكتب لنا الإجازة الخاصة خطاً . ثم ذكر ابن جندان نص الإجازة .

فلم تكن سياحته ورحلته الواسعة مجرد تنزه وتنقل بين البلدان، بل كانت سياحة علمية حافلة بالأخذ والتلقي، والتعلم والتعليم، مفعمة بالإفادة والإقراء للملوك فمن دونهم، وبمثل هذا انتشرت مصداقية الأزهر الشريف وسمعته العلمية في المشارق والمغارب، وألقى بطرحه العلمي في أذن الدنيا كلها، وما ترك بقعة إلا وألقى فيها شعاعات من علمه . (١)

ومنهم من لم يترجم له بعد ومنهم المغمور من لا يعرفه إلا القليل، ومن لم يشتهر منهم كثير جداً، ولذلك ما أحوجنا إلى تراجع للأزهريين تفي بحقهم ومعرفة الناس لهم وبجهودهم . ومن هؤلاء الذين لم يشتهروا كغيرهم :

٢ - الحافظ الفقيه أحمد حجازي بن عبد الله بن محمود بن أبي تليح عبدالعال طهطاوي المولد حجازي الأصل، شيخ القراء بمكة المكرمة، ولد في مدينة طهطا من محافظة سوهاج بصعيد مصر العربية، في عام ١٣٠٣ هـ من أسرة محافظة ذات وجاهه ويسار، وكان معروفاً بالحجازي منذ طفولته بين أفراد أسرته، وبين سائر الناس خاصة وأن أجداده القدماء كانوا من العرب النازحين من قبيلة جهينة ببلاد الحجاز إلى مصر، فنشأ يتيماً في بيئة متمسكة بعري الدين الإسلامي، و مطبوعة بطابع الأرياف، وذلك بعد وفاة والديه وهو صبي لم يتجاوز السادسة من عمره .

تلقى الدراسة الابتدائية بمدارس سوهاج، ثم تخصص في حفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أولاً ثم العشر، وأتقن فن التجويد على قراءة حفص، وتلقى الفقه والعلوم الدينية بالجامع الأزهر حتى تخرج حافظاً وفقهاً على يد شيخه ومريه الشيخ العلامة الأزهري ولي الله أحمد الدردير رحمه الله

ثم رحل إلى بلاد الحجاز والحجاز في ذلك الوقت تحت نفوذ الحكم التركي عازماً على أداء الحج والإقامة بمكة المكرمة، ومجاورة بيت الله فيها وفاء بنذر نذره إثر مرض شديد كاد يقضي عليه، و

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في صناعة ثقافة العالم)) . ص (٢٩ - ٣٠) .

كان عند هجرته تلك قد ناهز الثامنة عشرة، وكان قوي البنية ربع القامة إلى الطول أقرب عريض المنكبين مرتفع الصدر واسع الجبهة، قمحي اللون مع ميل إلى السمرة، وكان رحمة الله وقورا مهيبا محسنا وساعيا إلى الخير لا يرى إلا باسم الشجر والنور يتلألأ من وجهه مع ما عرف من فصاحته ووضوح نبرة النطق وإتقانه في مختلف أساليب البيان، واشتهر منذ أن كان فتى بحدة البصر وبمهارة فائقة في السباحة لمسافات طويلة والغوص في لجج الأنهار العميقة .

وقد اعتاد أبناء البلد الحرام من أهل مكة والمجاورين والحجاج وطلبة العلم تشكيل حلقة حوله عقب صلاتي العصر والمغرب للاستماع إلى ترتيله آي الذكر الحكيم كل يوم في باب أجياد بالمسجد الحرام، فقد كان رحمة الله جهوري الصوت عالي الطبقة حتى إن من عاصر تلك الفترة كان يذكر أن صوته كان يسمع من خارج المسجد الحرام، ولما تعرف مكبرات الصوت آنذاك .

فاستزعى ذلك انتباه الوالي التركي الذي أعجب بقراءته الجودة وحسن ترتيله وقوة حفظة فرغب أن يتلقى القرآن على يديه، فوافق الشيخ أحمد حجازي على تعليم الوالي التركي قراءة القرآن بقراءة حفص عن عاصم، وعلى أثره كثر الراغبون من طلبه العلم في أن يعلمهم القرآن، ولكنه لم يلبث أن استجاب لرغبة الوالي فانتقل إلى مقر الجند بالطائف وعينه الوالي إماما للجيش ومدرسا للقرآن الكريم بقشلة الطائف، ومن ثم أتيحت الفرصة لكثير من أهل الطائف لتعلم القرآن وحفظه على يده فأحبه أهل الطائف .

وكان قلب الشيخ أحمد معلقا بالمسجد الحرام فرجع إلى مكة المكرمة بعد خروج الحكومة التركية في أخريات عام ١٣٣١هـ وبدايات عام ١٣٣٢هـ ثم هيا الله له الأسباب فسافر إلى بلاد شرق آسيا ليعلم أهلها القرآن الكريم، حيث وجد من سلاطين بلاد الملايو وسنغافورة وأهلها خاصة احتفالا وتعظيما وتكريما للقرآن الكريم ورغبة صادقة في حفظه وفهمه، وتعلم العلوم الشرعية . فأمضى فترة من الزمان ينتقل بين مدن وقرى تلك البلاد فتكاثف طلاب العلم حوله، فلما رجع إلى أهله بمكة المكرمة في عهد الحكومة الهاشمية لزم بيته يعلم القرآن الكريم لأهل البيت الحرام والوافدين إليه، ثم عين في عهد حكم الشريف الحسين بن علي مديرا للمدرسة الرشدية بمدينة جدة للقسم الابتدائي، أيام كان معتمد المعارف بمكة رشدي بك وكيل الحربية والبحرية . وكان من المدرسين معه بتلك المدرسة كل من الشيخ صدقة منصور، والشيخ عبد الحميد عطيه، و الشيخ مصطفى داغستاني، والسيد حسين زيني، وتخرج على يده من التلاميذ الشيخ عمر بن الأفندي محمد نصيف، والشيخ محمد نور بن الشيخ أحمد ناس، وبعض الإخوة من آل الهزاري، وكثير من أبناء وأعيان مدينة جدة . ومكث مديرا للمدرسة الرشدية فترة تزيد عن ست سنوات . ورجع للإقامة بمكة المكرمة وكان ذلك في حدود عام ١٣٤٠ هـ ومكث بداره يعلم القرآن

الكريم ويرتله بالمسجد الحرام كعادته من قبل، وكان رحمه الله عائلاً فألح عليه بعض طلبة العلم من بلاد الملايو وسنغافورة أن يصحبهم إلى بلادهم ليستكمل ما بدأه من قبل . فاستجاب لهم وسافر في صحبتهم عام ١٣٤٢هـ ومكث في شرق آسيا فترة من الزمن كانت عصيبة على أهله وأولاده ولكنه استخلف الله فيهم فلم يخذله حتى عاد إليهم في سعة ويسار، وفي أثناء ذلك تم جلاء الحكم الهاشمي، فرجع الشيخ أحمد حجازي إلى مكة المكرمة بعد أن تخرج على يده في بلاد شرق آسيا عدد كثير من حفظة القرآن الكريم المجودين والمتفهمين في دينهم .

فلما أصدر الملك عبدالعزيز نظام التابيعات حصل الشيخ أحمد حجازي على حفيظة النفوس السعودية، وانتخب الشيخ أحمد حجازي الفقيه شيخاً لطائفة الفقهاء، وصدر الأمر السامي بذلك برقم ١٧٥٤ في ٣-٤/٩/١٣٥٣هـ فبلغته المعارف للنظام والتعليمات الخاصة بمشيخة القراء ، وتابع الشيخ أحمد حجازي الفقيه علمه في تعليم القرآن الكريم حتى تخرج على يده عدد من أبناء مكة المكرمة، قراء مجودين منهم ابنه الأكبر محمد الأمين، وابنه عبد الله، والشيخ المقرئ زكي داغستاني، والشيخ المقرئ عباس مقادمي، والشيخ المقرئ جميل آشي، والشيخ المقرئ محمد صالح باحيدرة، والشيخ المقرئ محمد الكحيلي ، والشيخ عبد الحميد حيات، والشيخ المقرئ أحمد سعد الله، والشيخ المقرئ محمد النونو، والشيخ عبد الحميد غندورة، والشيخ المقرئ جعفر جميل البرمكي . كما تفقه على يديه عدد من القراء الكبار منهم الشيخ محمد نور أبو الخير نقيب المقرئين الأول وفقههم، والشيخ المقرئ عمر أربعين الفقيه، والشيخ سراج قاروت الفقيه، كما تخرج على يديه عدد آخر من المقيمين من غير أبناء مكة المكرمة، منهم الشيخ المقرئ محمد معصوم، والشيخ المقرئ محمد طاهر جاوة، والشيخ المقرئ أشهد علي بن محمد صادر البنغالي، و الشيخ المقرئ مصطفى رواس، وآخرون من الأفاضل وكان من أكثر الناس ملازمة له وقرباً إليه شيخه وصديقه الشيخ أحمد حامد التيجي، الذي كان قد عمل مدرسا للقرآن الكريم بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، ألف رحمه الله رسالة سماها ((القول السديد في أحكام التجويد)) بأسلوب سهل مبسط وطبعها وقد ترجمت إلى اللغة الملايوية والبنغالية فيما بعد . وكان قد جعل بيته رحمه الله مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم لطلبة العلم من مختلف الأجناس الوافدة إلى الحج والعمرة، كالإندونيسيين والملايو والهنديين والبنغال وأهالي بخارى وتركيا، عدا المجاورين في الحرم، وأبناء مكة المكرمة، فكان يقضي معظم ساعات النهار يعلمهم ويحفظهم ويفقههم على قراءة حفص بن عاصم ويخص البعض من النابهين بتعليم القراءات السبع من طريق الشاطبية .

واستمر الشيخ أحمد حجازي الفقيه متولياً مشيخة القراء ورئاسة الفقهاء بمكة المكرمة نحو ثمان وعشرون سنة، حتى وافاه الأجل صباح يوم الأربعاء الخامس من شهر رجب عام ١٣٨١هـ و

كان طوال ليلة وفاته لا يكف عن تكرار محفوظه من القرآن الكريم كعادته حتى فاضت روحه وشيع من داره الكائنة بدرجة جبل السبع بنات بزقاق الدهان بحي أجساد بمكة المكرمة، ووري جثمانه الطاهر صعيد المعلاة وقد ناهز من العمر الثامنة والسبعين . (١)

٣ - وكان منهم العلامة عبد الرحيم بن إبراهيم بن عثمان بن محمد بن داوود بن أحمد بن محمد بن سليمان بن علي العطار السمنودي الحسيني المنصوري الأزهرى .
فقد نزل سنغافورة سنة ١٣٥٧ هـ فأقام بها زمانا، حيث استقدمه صاحب مدرسة الجنيد الإسلامية، ليتلقى عنه أهلها، فدرس فيها الحديث الشريف وغيره وكان يلقي الدرس والمواعظ في جامع الست خديجة بشارع قيلان، وفي جامع السلطان أيضا، وكان يرتجل خطبه ويتكلم الفصحى . (٢)

٤ - وكان منهم العلامة الأستاذ محمد عياد الطنطاوي المرحومي ، وأمره مشهور فقد درس في الأزهر الشريف على أكابر العلماء، ولزم شيخ الإسلام البرهان الباجوري، وتلمذ للعلامة شيخ الإسلام حسن العطار، واشتهر بالعلم ، وتلمذ عليه في القاهرة عدد كبير من المستشرقين، ثم انتقل إلى روسيا، وسافر إليها يوم ٢٤ من المحرم سنة ١٢٥٦ هـ ، ودرس اللغة الروسية، وأقام في بطرسبورج، إذ كان يعمل مدرسا للغة العربية بمعهد اللغات الشرقية في بطرسبورج ليننجراد الآن ، وظل يعمل هناك نحو ربع قرن ، إلى أن انتقل رحمه الله تعالى سنة ١٨٦٢م، وقد أحدث الشيخ أثرا كبيرا في الأدباء والمؤرخين الروس، حتى ترجم له أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتاب مستقل اسمه : ((حياة الشيخ محمد عياد طنطاوي)) ترجمه إلى العربية كلثوم عودة ، ونشر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ثم إنني رأيت بعد ذلك كله الرحلة الروسية للشيخ محمد عياد الطنطاوي والتي أسماها : ((تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا)) وقد طبعها ونشرها وقدم لها الدكتور محمد عيسى الصالحية .

وهو علم يفتخر به الأزهر الشريف، ويمثل حلقة من قيام الأزهرين بالمشاركة الفاعلة و المؤثرة في صناعة ثقافة العالم، وقد كتب عنه الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ مقالا عنوانه : ((أزهرى في روسيا))، وقد نشر في ((مجلة الأزهر))، وكتب عنه الدكتور عبد الجليل شلبي مقالا آخر عنوانه : ((من أعلام الأزهر الشيخ الطنطاوي)) نشر في ((مجلة الأزهر)) أيضا قال

^١ (المصدر موقع : <http://www.makkawi.com/Articles/Show.aspx?ID=120>)

^٢ - ((الأزهر واثره في صناعة ثقافة العالم)) ص (٣٠) .

في آخره : ((الشيخ الطنطاوي إذا شخصية أزهريّة، تركت أثرا في الثقافة الأوربيّة الحديثة، وقد أردت أن أعرف به بهذه الخلاصة ، لأنه فيما أحسب غير معروف بين الأزهريين)) . (١)

٥ - ومنهم : العلامة الشيخ محمود حب الله كان شديد الاهتمام بشيؤون المسلمين خارج مصر، وكان من أوائل المبعوثين الأزهريين إلى الشعوب الأفريقيّة، فسافر سنة ١٩٤٦م إلى زنجبار وساحل العاج، وأوغندة، وكنيا، وتنجانيقا، ونيجيريا، لتفقد أحوال المسلمين هناك، ولوضع طرق ناجحة لمعاونتهم في ظلال الوجود الاستعماري آنذاك، ونزل سنة ١٩٥٠م إلى جنوب أفريقيا، ولم يكن نشاطه رحمه الله مقصورا على إفريقيا، بل سافر سنة ١٩٥٢م إلى واشنطن لينشيء المركز الإسلامي الدولي هناك، وبذل جهودا جبارة في سبيل ذلك، حتى تم إنشاء المركز باشتراك اثنتي عشرة دولة، وصار المركز الإسلامي في واشنطن برئاسة مشرفا على المراكز الإسلامية في كل أنحاء الولايات المتحدة وكندا، كما أنشأ سنة ١٩٧٣م المركز الإسلامي في لندن، وفي الأربعينيات والخمسينيات زار اليابان ودرس أحوال المسلمين هناك، فكان رحمه الله رائدا ومؤسسا لفكرة إنشاء المراكز الإسلامية التي ترعى شيؤون المسلمين في دول العالم شرقا وغربا .

وأيام إقامته في الولايات المتحدة تمكن من التأثير في الثقافة العامة، وقدم الإسلام بصورة لافتة للنظر، وخاض في عدد من القضايا الفكرية والديبلوماسية، حتى كتبت عنه صحيفة الواشنطن بوست مقالا في صفحة كاملة، في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٩٦٩م ، جاء فيه : ((إن الأمريكيان عن طريق محاضراته عرفوا معاني أوضح عن الإسلام، وتعلموا منه الصدق، وأن غاية الإسلام الدعوة إلى الحق ونشره، وإشاعة المحبة بين الناس، وإقرار السلام، وأنه عالم من الطراز الأول، وأنه إحدى الشخصيات الدينية العالمية في العصر الحديث)) . (٢)

وإذا نظرنا في مجمل ما تقدم لاحظنا أن الأزهر قد انفرد عن غيره من المدارس العلمية بمصر بتنوع العلوم التي تدرس فيه، وانفرد عن غيره بعلميته، وانفرد عن غيره ببقائه، رغم الخطوب وازدياد نشاطه على مر العصور . وظلت الحياة العلمية هي الرائدة في العالم الإسلامي ببركة الأزهر الشريف، فقد كان علماء الأقطار يخاطبون علماء مصر ويستفتونهم في كثير من القضايا، ومن ذلك ما حدث في بدايات القرن السابع عشر من ظهور حادثة التدخين التي أثارت انتباه

١ - ((الأزهر الشريف واثره في صناعة ثقافة العالم)) ص (٣٠ - ٣١) .

٢ - المرجع السابق . ص (٣٣ - ٣٤) .

المسلمين وكثر تساؤلهم حول هذا الحدث الجديد عليهم، فتناولته أقلام العلماء في مختلف الأقطار الإسلامية للبت فيه، وبيان حكم الإسلام فيه، فمنهم من قال فيه بالحل ومنهم من قال بالحرمة، و نتيجة لذلك كثر إرسال التساؤلات من علماء الأقطار إلى علماء مصر للأخذ بفتواهم في هذه العادة المستحدثة . (١)

﴿ دور الأزهر في بناء الشخصية الأزهرية كما يجب أن تكون ﴾

الأزهري هو الوارث الذي ينال أعظم حظ في ميراث النبوة من الهدى والعلم والحكمة، و بدائع العلوم والمعارف، وقوة اليقين، وكمال التوحيد لله رب العالمين، وكيف لا وهو الذي يدل الخلق على الحق؟! . الأزهرى هو الوارث الذي يجب عليه أن يدرك حقيقة قيامه بواجب هذا الإرث الأكبر من أحوال النبي ﷺ وأخلاقه وأفعاله وعاداته وصفاته ظاهرا وباطنا حتى يتحقق بكمال معاني قوله ﷺ: ((إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَأُورِثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافِرٍ)) . (٢)

الأزهري باب يوصل الخلق إلى طريق الحق ومعرفته سبحانه، وهو الذي يخليهم ليحليهم بأوفر حظ من معرفته ليشرق في قلوبهم نور التعظيم لله ﷻ وأنوار التقوى، وبفيض على ألسنتهم و قلوبهم حلاوة ذكره سبحانه . الأزهرى هو أمين رسالة الوحي في زمانه لأنها ميراثه من النبي ﷺ و هو المؤمن على قلوب العباد وأخلاقهم في التعامل مع ربهم ورسله وخلقهم . الأزهرى هو ابن الأزهر ذلك المصنع الذي يصنع رجال الهدى وأمناء العلم والموعظة والحكمة والدعوة .

ولا يفتأ علماء التربية الحديثة يذكرون دورَ التعليم في صياغة شخصية الفرد والمجتمع، حيث يرجع إليه دور خطير في تكوين المحتوى الفكري والثقافي للأفراد، ومن ثمَّ ما يترتب على ذلك من سلوكيات وتفاعل في شتى وجوه الحياة. فإذا كان الأزهر الشريف هو أكبر وأعرق معهد علمي شهده تاريخ مصر، فلا شك أن دوره في صياغة الشخصية المصرية أمر واضح وأكيد. ورغم جميع ما قيل أو كتب عن دور الأزهر الشريف العلمي والثقافي، فقد ظل دوره في صياغة الشخصية المصرية وصناعة عقلها ومنهج تفكيرها محل إهمال وغياب عن الأذهان.... كان الجامع الأزهر مجمعا علميا جليلا مهيبا، يأوي إليه طلاب العلم من شتى البقاع، حتى لقد ضمت أروقته

^١ - ((الأزهر الشريف واثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٢٦) .

^٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ٢٩٠) حديث (٨٨) .

السبعين ما يزيد على عشرة آلاف طالب، أكثرهم من المجاورين القادمين من شتى ربوع مصر، ينهلون من بحار العلم بالأزهر، حتى إذا حان وقت توقف الدراسة من منتصف شعبان إلى منتصف شوال، انصرف الدارسون أو معظمهم إلى بلدانهم، فكانوا نافذة يطل أهل هذه البلدان من خلالها على أم الدنيا، لتعذر وسائل التواصل آنذاك . يرجع العالم الأزهرى إلى بلده في تلك الأيام المباركة بما يمثلها من هبة الأزهر وجلالة علمائه، فيعقد مجالس التدريس والفتوى بالنهار، حتى إذا صلى الناس العشاء، اجتمعوا على الشيخ الأزهرى في بيته يتجاذبون أطراف الحديث عن أخبار البلاد والعباد، والسياسة والحكم، وسائر الأحداث، فضلاً عن أحكام الشرع المطهر، فيسري ما تعلمه هذا الشيخ الأزهرى من تفكير منهجي منضبط، وفهم لمقاصد الشرع منه إلى عامة الناس ممن يخاطبونه ويستفتونه ويناقدونه، فينطبع في تفكيرهم وعقولهم، ثم يظهر بالتبعية في سلوكهم وممارساتهم . (١)

وجدير بالذكر أن نقرر أن الشخصية الأزهرية تكونت من طبيعة الأزهر نفسه الذي اكتسب نظامه وتربيته من طباع الشخصية المصرية التي أثرت فيه، وهو بدوره أثر فيها لذلك حين نتكلم عن تكوين الشخصية الأزهرية فإننا نتكلم عن مكونات الشخصية المصرية المسلمة الأصيلة بوجه تقارب يتفق بدرجة التسعين بالمائة أو ما يزيد على هذا . وأهم ما يميز الشخصية المصرية عامة والشخصية الأزهرية خاصة عدة مميزات أهمها :

١- ((التدين)) : تلك السمّة المصرية الأصيلة القديمة قدّم الأديان ذاتها، والتي تُعدّ مصدر القوة الداخلية، والمقاومة الخارجية، والصّلاية غير العادية للشعب المصري في مواجهة الكثير من المحن والأخطار التي تعرض لها عبر التاريخ، من استعمار الغزاة وقهر الطّغاة. تلك السمّة لا يمكن لأحد أن ينكر دور الأزهر ورجاله في ترسيخها في قلوب المصريين وعقولهم، فلا تطاول هيئة ولا مؤسسة الأزهر في حماية الدين، والذود عن حياضه، ونشر تعاليمه ومبادئه بين الخاصة والعامة . (٢)

٢- ((التسامح مع الآخر)) : وهو أيضاً موجود في الشخصية المصرية منذ قديم، لكن علماء الأزهر ضربوا أروع الأمثلة في تحويل هذا التسامح إلى واقع ملموس ومواقف وضاعة، فمن التسامح مع الآخر المتفق في الدين إلى التسامح مع الآخر المختلف في الدين، حتى إنهم كانوا

١ - ((الأزهر والشخصية المصرية)) .

٢ - ((الأزهر والشخصية المصرية)) .

ينصرون المخالف لهم في الدين على الموافق إذا كان المخالف صاحب الحق، وقد زكى هذا بقوة خلق التسامح في الشخصية المصرية . (١)

٣- ((الاعتدال)) : سمة مغروسة في طبيعة الشعب المصري، تبتعد به عن التطرف يمينًا ويسارًا، وتجعله أميل إلى الوداعة والهدوء والبشاشة والدِّمَاطة، وإلى الشخصية الاجتماعية السَّمَّحة الودود غير المنغلقة أو المعقَّدة، وأجَّح إلى التعاون منه إلى التنافس، وأبعد عن العنف والقسوة والدَّمَوية. وهو بعينه ما أورثته مناهج التعليم في الأزهر لأبنائها، من قبول الرأي والرأي الآخر، فقد كانت طريقة المتن والشرح والحاشية والتقرير، أبلغ سبيل لغرس صفة الاعتدال في نفوس طلاب الأزهر، ومنهم سرت إلى المجتمع، فرى الشارح يستدرك على الماتن، والحشِّي يستدرك على الشارح، و المقرَّر يستدرك على الحشِّي، وكلهم في النهاية أئمة فضلاء، لا يُطعنُ في واحد منهم. وكانت عبارة : ((فإن قيل: قلنا)) . أكبر دليل على ثقافة الحوار والنقاش والفهم الواعي المتبصَّر، التي ثبته الأزهر في نفوس الأزهريين والمصريين جميعًا . (٢)

٤- ((التعددية الفكرية والمذهبية)) : إن التعددية الفكرية مع التسامح مع المخالف طابع مصر منذ عهودها القديمة فكما يقول ويلسون عن مصر القديمة : ((داخل مصر كانت أشد الأفكار تباينا تتقبل بتسامح وتنسج معا فيما قد نعهده نحن المحدثين كانهدام للنظام في تضارب فلسفي، ولكنه كان للقدماء متكاملًا... كان طريق المصري هو أن يتقبل التجديدات، وأن يضمَّنهما تفكيره دون نبذ للقديم والبالي... وأن القديم والجديد ليرقدان معا كلوحة سيريالية معا للشباب و الشيخوخة على وجه واحد)) . أو كما يذكر مورنرتز : ((إن المصري لا يكون مصريًا إلا إذا تمسك بالقديم إلى جوار الجديد، فيوائم بينهما أو يصل أحدهما بالآخر على الأقل)) . لقد وجد الأزهر الشريف وهذه التركيبة موجودة في الشخصية المصرية بشكل أو بآخر فنهاها وزكاها إذ تحت لوائه تدرس المذاهب الثلاثة، وأحيانا الأربعة في الفقه، ولا تكاد توجد بلد من بلاد المسلمين إلا وهي على مذهب واحد من مذاهب المسلمين الفقهية، إلا مصر التي وجدت فيها التعددية بصورة سامية منذ فجر التاريخ، ثم نمت وترعرعت على أيدي الأزهر وعلمائه . (٣)

٥- ((المحافظة)) : المحافظة الشديدة على الموروثات والتقاليد والعادات التي ترسم ملامح الوجه المصري المشرق، وتحمل سائر ألوان التضحيات في سبيل الإبقاء على هذه الموروثات، و

١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٤١)

٢ - ((الأزهر والشخصية المصرية)) .

٣ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٤١) .

التصدي لكل ثائر عليها بُغيةً تغييرها، بل وصل الأمر كما يقول العقّاد رحمه الله إلى: أن المصري يثور أحياناً ليحافظ على التقاليد لا ليغيرها، فهو وللغربة والدّهشة ثائر من أجل المحافظة. فإذا وضعنا هذا جنباً إلى جنب مع عناية الأزهر في مناهجه وعلومه بتراث الأمة وموروثاتها، والحرص على ربط ماضيها بحاضرها ومستقبلها، والتواصل مع هذا التراث الضخم، والاستفادة منه، والبناء عليه، والإضافة إليه، أدركنا السر في وسم الشخصية المصرية بتلك السمة المميزة . (١)

٦- ((الواقعية)) : التي جعلت من المصري شخصاً عملياً، علّمته البيئة والتجربة والتاريخ تفهّم الواقع والعيش فيه وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه، فهو لا يهرب من الواقع إلا في القليل النادر بل يصطدم معه ويتحدّاه، في شموخ وإباء، قاهرًا لواقعه تارة، وساخراً منه أخرى. ومن قرأ تاريخ الأزهر قراءةً واعية، لاحظ أنه لم يكن بين رجاله من انزوى عن دنيا الناس تاركًا خلفه ما تموج به الأحداث، بل كان للأزهر وعلمائه النصيب الوافر في مواجهة مشاكل المجتمع بجرأة وجسارة، متعاملين مع كل موقف بما يناسبه . (٢)

٧- ((الوسطية الفكرية)) : وإذا كانت الوسطية مكوناً أساسياً من مكونات الإقليم المصري والمجتمع المصري حتى قال جمال حمدان : ((سواء من حيث الموضع أو الموقع تحتل مصر مكاناً وسطاً بين خطوط الطول والعرض، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج، وبين القارات والمحيطات، حتى بين الأجناس والسلالات والحضارات والثقافات، وليس معنى هذا أننا أمة نصف ولكننا أمة وسط، أمة متعددة الجوانب، متعددة الأبعاد والآفاق، مما يشري الشخصية الإقليمية والتاريخية، ويبرز عبقرية المكان فيها)) . فالأمة المصرية أمة وسط متعددة الجوانب فإذا جاءها الإسلام وأمتته أمة وسط فقد ازدادت مصر وسطية على وسطيتها، وقد تعلم المصريون كيف يكونون وسطاً طاعة لأمر الله بعد أن كان ذلك خلقاً طبعياً فطر عليه المصري . (٣)

٨- ((المزج بين العقل والعاطفة في الدين المصري)) : ومن الملامح الواضحة التي تمتاز بها الشخصية المصرية عن غيرها من الشخصيات فيما يتعلق بتدينها، هو المزج القوي في التدين المصري بين العقل والعاطفة، فالتدين المصري ليس تديناً عاطفياً فقط، كما هو عند بعض الأمم وليس تديناً عقلانياً فلسفياً فقط كما هو عند أمم أخرى، ولقد كان الأزهر الشريف هو الفاعل المؤثر في تركيب هذا اللون من التدين في الشخصية المصرية بحرصه على تعليم علم الكلام والجدل العقلي مع التربية الصوفية الذوقية الرقراقة، لقد كان المصري مؤمناً بعقله وقلبه، وقد

^١ - ((الأزهر والشخصية المصرية)) .

^٢ - المرجع السابق .

^٣ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٤٢) .

أحب المصري النبي ﷺ بعقله وقلبه، وأحب آل بيت النبي ﷺ بعقله وقلبه، وأحب الصالحين والعلماء بعقله وقلبه، ولذا تجد إيمان المصري نديا رطبا بينما قد يظهر من غيره الجفاء والجفاف، تجد المصري سريع العبرة، هطال الدمعة، بينما تجمد عيون غيره فلا تسكب دمعا، وما زال المصريون حتى اليوم يشعرون بقشعريرة العاطفة الجياشة ويسكبون دمع المحبة الصافية حينما يزورون النبي محمدا ﷺ في الوقت الذي لا يشعر كثيرون غيرهم بمثل ما يشعرون به . (١)

٩) – التفاعل المباشر مع العامة : إن البيئة العلمية في الأزهر الشريف قد أثرت في شخصية المصري احتراماً للعلماء وتقديماً لهم وسيراً خلف آرائهم، كما أوجدت أسلوباً خاصاً في التفكير والنقد مع الالتزام بجانب الأدب وهو أمر امتازت به الكتابات الأزهرية فلا تكاد تستشعر وأنت تقرأ كتاباً ما من الكتب التي سطرها علماء الأزهر الشريف رائحة نقد لغير ما اقتنع قبل توجيه النقد أو اللوم للغير، وقد أثر ذلك أثراً بالغاً في الشخصية المصرية فرغم وجود مذاهب ثلاثة تدرس في القطر المصري بل أحيانا الأربعة كان المصري يختار أحد هذه المذاهب ويسير على وفق أحكامه مع تبجيله واحترامه لسائر العلماء من أهل المذاهب الأخرى، بسبب ما يراه من علماء مذهبه من احترام لإخوانهم علماء المذاهب الأخرى، كما رسخ الأزهر احترام المرأة وحقها في التعلم والعمل الذي يناسب طبيعتها .

وكانت هذه الآثار تنتقل إلى مجتمع الناس بمشاهدة العلماء وطلاب العلم والبيئة العلمية ككل فإن ثمة آثار أخرى انتقلت إلى المجتمع المصري من الاحتكاك المباشر مع العلماء وطلبة العلم . (٢)

١٠ – رصد واقع الناس للوصول إلى حل مشكلات المجتمع : كان للعلماء اهتمام برصد واقع الناس سيما كان أم حسناً، تلحظ ذلك من حرص العلماء على تسجيل التواريخ، بل تراه أيضاً في حرصهم على تسجيل ما يعلمونه من مواصفات أهل عصرهم، فالشيخ عبد الله الشرقاوي وكان من كبار علماء الأزهر الشريف يسطر في كتابه ((تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين)) تصوره عن أهل مصر فيقول : ((وإن أهل مصر الغالب عليهم الأفراح واتباع الشهوات، والانهماك في الملذات، وتصديق المخالات، وفي أخلاقهم رقة، وعندهم بشاشة وملقة ومكر وخداع، لا ينظرون في عواقب الأمور، وعندهم قلة صبر في الشدائد، والقنوط من الفرج، وشدة الخوف من السلطان، ويخبرون بالأمور المستقبلية قبل أن تقع)) . وهذا الذي قاله الشيخ في وصف أهل مصر حسب تصوره قد وافقه عليه آخرون كما قال الدكتور محمود الشرقاوي :

^١ (السابق ص (٤٢)) .

^٢ ()) الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٢٣) .

((وقد يكون هذا الذي سجله الشيخ بعضه أو كله من صفات أهل مصر الغالبة، و لكنه ليس كل صفاتهم على التحقيق)) .

وليس الشاهد هنا في الوصف، في الحقيقة هو في حرص العلماء على التعرف على واقعهم و ملاحظة أخلاق الناس، وما يحتاج إلى التغيير منه وما لا يحتاج، وهو ما يدل على اهتمام القوم بمجتمعاتهم محاسنها ومساوئها للوصول إلى بر الأمان . (١)

١١ - القيادة وتحمل المسؤوليات العظام : وكان العلماء قادة يتصدرون الناس إذا وقع عليهم ظلم أو اعتدى عليهم معتد، أو كثرت عليهم المغارم والضرائب والمصادرات، أو ألت بهم فتنة، كان الناس إذا وقع بهم شيء من ذلك توجهوا وحدانا و زرافات إلى الجامع الأزهر، وقد تذهب النساء أيضا ويذهب الصبيان، ولهم في الطريق إليه ثورة وعجيج، فإذا دخلوا الجامع صعدوا إلى مآذنه ينادون الناس، ويصرخون بالظلم الذي يلقونه، ثم يبطل فريق منهم دروس العلماء التي تخلق حولهم فيها طلابهم في الأزهر، وقد يطلون الصلاة فيه، ثم يقبلون على العلماء يستصرخونهم مستجيرين بهم، فيرسل العلماء بعضا منهم إلى أولي الأمر أو يخرجونهم جميعا، وقد يخرج بعضهم قائدا لهذا الجمع المستجير الغاضب حتى يصل به إلى مجلس ولي الأمر أو منزله طالبا منه رفع الظلم أو منع العدوان، أو كف الجباة أو قطع الفتنة، ولهم في ذلك شجاعة فائقة تستحق أن تدون . (٢)

١٢ - الأزهرى شديد الرفق بالخلق والرحمة بهم : المتبع لتراجم الأزهرين يشاهد بوضوح وجلاء هذه الرحمة التي سرت في كيانه وبرزت في أقوالهم وأفعالهم، وكيف لا وأول ما يتلقى الطالب الأزهرى في الدرس ما رواه الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحْمُ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)) . (٣) هذا الحديث الذي يشكل اللبنة الأولى في بنائه، يسمى بحديث الرحمة، ويسمونه أيضا حديث الأولية، لأنه أول حديث يطرق سمع الطالب من شيخه، فهو أول غرس غرس في نفسه وهو في طور النشأة، ثم تتوالى عليه الآيات والأحاديث والسنن و المواقف النبوية الكريمة التي تؤكد على هذا المعنى، فكأنني به يلقي في بحر الرحمة فلا يخرج منه أبدا إلى أن يلقي ربه الرحمن الرحيم .

^١ - السابق ص (٢٧ - ٢٨) .

^٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٢٩ - ٣٠)

^٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٢٣) حديث (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو ؓ .

١٣- الأزهرى واسع المعرفة مطلع على ثقافات الآخرين : من أخص سمات الأزهرى أنه موسوعي

مطلع، ونماذج الأزهريين أصحاب الاطلاع الواسع لا تكاد تحصر، فمنهم على سبيل المثال العلامة الشيخ الإمام أحمد بن عبد المنعم صيام الدمنهورى المذهبي شيخ الإسلام والمسلمين المتوفى سنة ١١٩٢ هجرية، كان رحمه الله فذا بين علماء عصره ، فقد كانت ثقافته الدينية واللغوية عميقة كما هي عادة الأزهريين ، كما كان دارسا متضلعا من العلوم الرياضية والهندسة والفلك والطب والفلسفة ، يقول عن نفسه رحمه الله : أخذت عن أستاذنا الشيخ علي الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج الجداول، وما توقف عليها كالفرائض والميقات، وقد أخذت عنه وسيلة ابن الهائم ومعونته في الحساب والمقنع لابن الهائم أيضا، ومنظومة الياسمين في الجبر والمقابلة، والمنحرفات للسبط المارديني في وضع المزاويل، وبعضا من قانون ابن سينا ... إلى آخر ما قال رحمه الله .

ومنهم العلامة الشيخ أبو البركات محمد زكي الدين إبراهيم المتوفى سنة ١٤١٩ هـ ، وقد تعلم الشيخ الإنجليزية في المرحلة الابتدائية، وتعلم الفرنسية على يد الأستاذ داوود سليمان من أعيان أسيوط، والألمانية بالقاهرة على يد الأستاذ راغب والي، وكان مدرسا بالمدرسة الألمانية بالقاهرة، وقد ترجم الشيخ بعض قصائد الشاعر الألماني هايني رش هايني من الألمانية إلى العربية، وتعلم الفارسية على يد الشيخ محمد الأعظمي الإيراني عضو جمعية الأخوة الإسلامية، وقال عن نفسه : ((كتب إلى كاتب يعنفي بأني أحبس نفسي في قمقم التصوف، وأتوقع في صدفة التدين المتأخر، وأعيش متخلفا في عصور الجمود الماضية، بينما نحن في عصر تقدمي متحضر لم تعرفه دنيانا من قبل إلخ . والذي أحب أن يعرفه هذا الأخ وأمثاله أني رجل معمم مقفطن لا أزال أثقف نفسي وأزودها بكل ثقافة من المشرق أو المغرب، باحثا عن الحكمة، جاريا وراء الحقيقة، كلما أذنت لي صحتي وأوقاتي وقدرتي، فكما أقرأ تاريخ الإسلام والفلسفة وتدرج المذاهب، و نشوء الفرق والنحل، وأتابع الصوفية والسلفية، وتطور تاريخ المسلمين، وأتابع أدباء العرب و قصاصه وناقديه ومهرجيه ومفسديه، كذلك أدرس ملامح الفن القوطي وتدرجه إلى الريسانس إلى الكلاسيكية القديمة فالجديدة، إلى الرومانتيكية إلى التأثيرية إلى الواقعية إلى الرمزية إلى الانترامية إلى التجريدية، حتى بيكاسو في التصوير، وأندريه في الأدب، واسترافنسكي في الموسيقى، وأنا أقرأ لشكسبير، وبوب، وشيلي، وبيكون، وهيجل، وفلامريون، وجيته، ونيتشه، إلى سارتر، وسومرست موم ، وبراتراند رسل، وأقرأ كذلك رونسار، وفارلين، ورامبو، وبودلير، وأفرق بين لوحات جنيسبور، ورينولدزر، وأميز في مدارس الموسيقى بين صامويل جونسون، وبوالوا، إلى كل ما يتعلق بفن المسرح والسينما ... إلخ . فلست بمققم ولا مقوقع ولا جامد ولا متخلف بحمد

الله، إنني أعيش في عصري مندجاً فيه ثقافة ودعوة ومعاشاً، غريب عنه أخلاقاً وعبادة واتجاهاً،
ولكن على قدر مقدور لا بد منه للدعاة إلى الله . (١)



^١ - ((سمات الشخصية الأزهرية)) . بقلم الأستاذ / عماد الدين صلاح الأزهرى ص (٤ - ٦) .

مُتَهَيِّدٌ

فِي

مَفْهُومِ الْقِيَمِ

﴿ القيم في اللغة والاصطلاح ﴾

١ - القيم في اللغة :

تعددت المعاني اللغوية لمعنى القيم قال صاحب المصباح : ((الْقَوَامُ)) بالفتح العدل و الاعتدال. قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [سورة الفرقان آية: ٦٧] أي : عدلا. وهو حسن القَوَامِ : أي الاعتدال. وقَامَ المتاع بكذا أي : تعدلت قيمته به . والقيمة: الثمن الذي يُقَاوَمُ به المتاع. والجمع ((الْقِيَمُ)) مثل سدرة و سدر وشيء قِيَمِيٌّ . (١) والْقِيَمَةُ: واحدة الْقِيَمِ؛ وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء. يقال: قَوِّمْتُ السلعة. والاستِقَامَةُ: الاعتدالُ. يقال: استَقَامَ له الأمر . (٢) والقيمةُ، بالكسر: واحدة الْقِيَمِ. وما له قِيَمَةٌ . (٣) والقيمة : قيمة الشيء قدره وقيمة المتاع ثمنه ومن الإنسان طوله جمعه ((قيم)) ويقال ما لفلان قيمة ماله ثبات ودوام على الأمر . (٤)

ولفظ ((القيمة)) اسم هيئة من ((قام الشيء بكذا)) يعني : كان ثمنه المقابل له كذا ثم استعمل بمعنى ((القدر)) والمنزلة، ومن هنا نشأ المعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، فهو انتقال من دلالة مادية معروفة في علم الحساب وعلم الاقتصاد السياسي إلى دلالة معنوية عما في الأشياء من خير أو جمال أو صواب . (٥)

تعريفها في الاصطلاح :

نظرا لأهمية القيم في بناء الشخصية فقد تناولها كثير من العلماء بالبحث والتحليل، فاختلفوا تبعا لذلك في تعريفهم للقيم حسب نظرة واتجاه كل واحد منهم للقيم، فنجد ثلاثة اتجاهات رئيسة بالنسبة لمفهوم القيم :

أ - النظر إلى القيم باعتبارها مجموعة من المعايير التي يحكم بها على الأشياء بالحسن والقبح .

١ - ((المصباح المنير)) (٢ / ٥٢٠) .

٢ - ((الصحاح)) للجوهري (٢ / ١٠٢) .

٣ - ((القاموس المحيط)) (٣ / ٢٧٦) .

٤ - ((المعجم الوسيط)) (٢ / ٤٥٣) .

٥ - ((القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي)) . للأستاذ / فهمي محمد علوان ص (٩١) .

- (ب) - النظر إلى القيم باعتبارها تفضيلات يختارها الفرد .
- (ج) - النظر إلى القيم باعتبارها حاجات ودوافع واهتمامات واتجاهات ومعتقدات ترتبط بالفرد .

ومن التعريفات الاصطلاحية ما يلي :

- (١) - أنها مفهوم يدل على مجموعة من المعايير والأحكام تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهدافه وتوجهات حياته يراها جديرة بتوظيف إمكانياته، وهي تتجسد من خلال الاهتمامات والاتجاهات ((السلوك اللفظي والعملي)) بطريقة مباشرة وغير مباشرة .
- (٢) - هي : مجموعة من المعتقدات والتصورات المعرفية والوجدانية والسلوكية الراسخة، يختارها الإنسان بحرية بعد تفكير وتأمل، ويعتقد بها اعتقاداً جازماً، تشكل لديه منظومة من المعايير يحكم بها على الأشياء بالحسن أو بالقبح، وبالقبول أو الرد، ويصدر عنها سلوك منتظم يتميز بالثبات و التكرار والاعتزاز .
- (٣) - هي : مجموعة من المبادئ والقواعد والمثل والعمليات التي يؤمن بها الناس، ويتفقون عليها فيما بينهم ويتخذون منها ميزاناً يزنون به أفعالهم ويحكمون على تصرفاتهم المادية والمعنوية . (١)

^١ (-) دور المعلم في تعزيز القيم الإيمانية لدى طلبة المرحلة الثانوية)) . للباحث أحمد موسى أحمد برهوم - منشورات الجامعة الإسلامية بغزة كلية التربية - بتصرف يسير . ص (١٣ - ١٤) .

القيم الدينية

والروحانية

ونبدأ بالقيم الدينية ، إذ هي الأساس في تكوين الشخصية المثلى، وبناء المفاهيم، والقيم الدينية والروحانية مهمتها التأسيس الباطني لما يتعلق بالقيم التي يستقيم بها القلب، والعقل، و كذلك بما يستقيم به الظاهر من التصرفات والسلوك .

﴿ القيم الدينية والروحية ﴾

١ - قيمة التدين :

و((التدين)) تعريفه في اللغة : التدين بدين واتباعه. و((الدين)) : الطاعة، وقد دنته و دنت له : أطعته . قال عمرو بن كلثوم :

وأياما لنا غرا كراما *** عصينا الملك فيها أن ندينا

ويروى : وأيام لنا ولهم طوال . والجمع : ((الأديان)) . يقال : دان بكذا ديانة وتدين به فهو دينٌ ومتدين . ودينَت الرجل تديننا إذا وكلته إلى دينه . و((الدين)) : الإسلام . وقد دنت به . وفي حديث علي عليه السلام : ((محبة العلماء دين يدان به)) . (١)

ويتضح من التعريف اللغوي أن التدين هو : ملازمة الإسلام في كل شيء يأتي به المسلم ، بحيث يصبح من عاداته الالتزام بما ورد عن الإسلام في كل صغيرة وكبيرة . لذا يرتبط التدين في الإسلام بكل من الاعتقاد في القلب والقول باللسان والعمل بالجوارح .

وعلى ذلك يمكن أن نعرف التدين الإسلامي بأنه : التزام المسلم بعقيدة الإيمان الصحيح : ((الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره)) ، وظهور ذلك على سلوكه بممارسة ما أمر الله به، والانتهاز عن إتيان ما نهى الله عنه . (٢)

﴿ مفهوم الدين ﴾

لفظ ((الدين)) يطلق في اللغة العربية على معان متعددة : فيطلق تارة ويراد منه الجزاء، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [سورة الفاتحة آية: ٤] أي : يوم الجزاء، وهو يوم القيامة . ويطلق تارة ثانية ويراد منه الحكم والسلطان ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ آلْمَلِكِ ﴾ [سورة يوسف آية: ٧٦] أي : في حكمه وسلطانه . ويطلق ثالثة ويراد منه العادة والشأن، ومنه قول الشاعر :

١ - ((لسان العرب)) (١٣ / ١٦٩) .

٢ - ((التدين والصحة النفسية)) . للدكتور / صالح بن إبراهيم بن عبد اللطيف الصنيع ص (١٧ - ١٨) .

تقول وقد ذرات لها وضيئي *** أهذا دينه أبد وديني .

أي شأنه وشأني .

ويطلق رابعة ويراد منه الطاعة والانقياد، يقال : دان له ديناً وديانة . أي : خضع، وذل، و أطاع . ويطلق خامسة ويراد منه ما يتدين به الإنسان ، يقال : دان بكذا . أي : اتخذته ديناً وتعبد به . وكلامنا عن الدين بالمعنى الأخير.

أما ((الدين)) في نظر علماء الأديان فقد عرفه بعضهم بأنه : وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المال ، وهذا يشمل العقائد والأعمال . ومعنى هذا أن لفظ ((الدين)) عند هؤلاء لا يتناول إلا الأديان السماوية ، كاليهودية والمسيحية والإسلام، أما غيرهم من الأديان التي اصطلح عليها بعض الناس دون أن يكون لها صلة بالسماء فليست ديناً في نظرهم . (١)

« الفرق بين الدين والتدين »

التمييز بين الدين والتدين : بداية يجب التمييز بين الدين كوضع إلهي، والتدين ككسب بشري، والمقصود بالدين أصوله الثابتة، التي مصدرها النصوص اليقينية الورود القطعية الدلالة، أما التدين فهو معرفه والتزام بشري بهذه الأصول، بالإضافة إلى الفروع الظنية الورود والدلالة. يقول الدكتور عبد المجيد النجار : ((إن حقيقة الدين تختلف عن حقيقة التدين؛ إذ الدين هو ذات التعاليم التي هي شرع إلهي، والتدين هو التشريع بتلك التعاليم، فهو كسب إنساني. وهذا الفارق في الحقيقة بينهما يفضي إلى فارق في الخصائص، واختلاف في الأحكام بالنسبة لكل منهما . (٢)

^١ - ((الدين والتدين)) للدكتور محمد حسين الذهبي - بحث منشور بمجلة البحوث الإسلامية العدد الأول الإصدار من رجب إلى رمضان ١٣٩٥ هـ (١ / ٤٩) .

^٢ - مقالة : ((مفهوم التدين أبعاده وأنماطه وضوابطه بقلم : د / صبري محمد خليل . منشورة بموقع :

) <http://www.sudanile.com/index.php/2008-05-19-17-39-36/252-2009-09-06-09->

. (34-16/40252-2012-05-18-06-21-05)

ودرجات التدين الثلاثة : الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان : فالمؤمن لا يكون مؤمناً إلا بالدرجة الأولى : الإسلام فإن زادت درجته في الأخذ بحقائق الإيمان وواجباته صار مؤمناً، فإن زاد حتى أتم كمال الإيمان أصبح من المحسنين . وعلى هذا فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن، وكل محسن مؤمن وليس كل مؤمن محسن . ودليل هذا من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [سورة الحجرات آية: ١٤] ومن السنة حديث جبريل عليه السلام : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال : ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبُغْتِ)) . قال : ما الإسلام ؟ قال : ((الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ)) . قال : ما الإحسان ؟ قال : ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ...)) الحديث . (١)

﴿ دور الأزهر في بيان وترسيخ مفهوم التدين ودرجاته ﴾

لقد عمل الأزهر الشريف على إقرار مفهوم التدين الصحيح الذي لا يكون إلا بالتقوي في هذه الدرجات الثلاثة ، إسلام ثم إيمان ثم إحسان، وإقرار أنه ليس التدين مظهراً ولا سمته، إنما هو تأسيس للباطن قبل الظاهر، بترسيخ معانيه في القلوب قبل ارتداء زيه أو الظهور بسمته في الظاهر كما أصبح عند كثير من الناس اليوم يقيسون التدين بالمظهر والسمت، وإن كان القلب مظلماً لم يهتد بعد إلى أنوار الإسلام الحقيقية، فلذلك كان اهتمام العلماء قديماً وحديثاً بتأسيس التدين في النفوس والقلوب ليتحقق في الباطن قبل الظاهر، وهذا هو علم التربية والأخلاق المعروف بالتصوف الإسلامي الذي هو أحد مناهج الأزهر في التعليم والتربية وتصفية البواطن قبل تحلية الظواهر، ويوم أن هبت الحرب على هذا العلم فقدت الأمة هويتها الأخلاقية إلا قليلاً، وأصبح مؤشر الأخلاق في تأخر وانحطاط، وحل الجفاء في النفوس والظلمة في العقول والقلوب، لذلك يجب علينا حين نضع ميزاناً للتدين فلا بد من تطهير الباطن قبل تزيين الظاهر بسمت الاتباع ، بل

(١) - متفق عليه .

ومن أعجب العجب حين ترى السمات سمات اتباع السنة والقلب انطوى على الجفاء مع حضرة النبي ﷺ، وانطوى على الجهل لا العلم، لذلك كان علماء الأزهر في كل عصورهم إلا عصرنا المتأخر هذا يؤثرون في الناس بأحوالهم الخلقية والإيمانية، ومن بقي منهم اليوم قليل، ويدلك على هذا تلك المحاولات الغاشمة من الفاطميين التي استمرت لعدة قرون، والتي بذلوا فيها كل جهدهم في تحويل شعب مصر من السنة إلى التشيع، ولكنهم فشلوا الفشل الذريع، فعجزوا عن تحقيق هذا واستمر الشعب المصري على حاله على مذهب أهل السنة وحب نبيهم وآل بيته الكرام، وما هذا إلا لترسيخ الإيمان واليقين في قلوبهم قبل مظاهرهم، ويكفيهم شرفاً أنهم أحبوا آل بيت نبيهم ولم يتبعوا الرافضة .

﴿ المأمول في دور الأزهر ﴾

ونأمل في الأزهر الشريف أن يقوم بدوره في تعريف الناس حقائق الدين ومناهج التدين الصحيح وأنه ليس زياً يلبس أو سمّاً يرى، وليس تنطعا ولا تشدقاً، وليس شذوذاً عن منهج الوسطية والرحمة والرفق الذي هو أصل أصيل من أصول الإسلام، وهذه هي منهجية النبي ﷺ في تقييم الخلق فليس بزيهم ولا ستمتهم يقاسون، إنما بأعمالهم وإخلاصهم لله تعالى، ألا ترى أن الله تعالى قد ذكر المنافقين بحسن ستمتهم وقلوبهم قد انطوت على الذنب الأعظم والنفاق الأكبر، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ مَّحْسَبُونَ كُلٌّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤَفَّكَونَ ﴾ [سورة المنافقون آية: ٤] وعن سهل رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال : ((ما تقولون في هذا ؟)) . قالوا : حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ . قال : ثُمَّ سَكَتَ فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : ((ما تقولون في هذا ؟)) . قالوا : حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ . فقال رسول الله ﷺ : ((هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا)) . (١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((رَبِّ أَشَعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ)) . (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنْ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((النكاح)) باب ((الألفاء في الدين)) حديث (٤٨٠٣) .

٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٤ / ٤٠٣) حديث (٦٤٨٣) .

صَوْرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)) . (١) فحري بعلمائه أن يبينوا للناس حتى يؤسسوا تدينهم على أصول راسخة، وترسيخ دينهم في قلوبهم، حتى يتوافق الباطن والظاهر ويتحقق كمال الاتباع والتدين .

وحين أسس العلماء قيمة التدين وترسيخها في نفوس الناس أرسوها على أصولها وأسسها، و هي قيم تندرج تحت هذه القيمة العظمى، ومن هذه القيم التي تحقق صادق الإسلام وصدق الإيمان وتظهر كمال التدين الحق في القلوب والأحوال والأفعال والأقوال :

(١) - « قيمة ترسيخ العقيدة في القلوب »

((العقيدة)) هي : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وفي الدين : ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله وبعثه الرسل، وجمعها : عقائد . (٢) والعقيدة : ما يدين الإنسان به، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك . (٣)

والعقيدة في اللغة: من العقد؛ وهو الربط، والإبرام، والإحكام، والتوثق، والشد بقوة .

و((العقيدة)) : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، والعقيدة في الدين ما يقصد به الاعتقاد دون العمل؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل. والجمع: عقائد . وخلاصة ما عقد الإنسان عليه قلبه جازماً به؛ فهو عقيدة، سواء كان حقاً، أم باطلاً.

و((العقيدة)) في الاصطلاح : هي الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك. أي: الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك لدى معتقده، ويجب أن يكون مطابقاً للواقع، لا يقبل شكاً ولا ظناً؛ فإن لم يصل العلم إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة. وسمي عقيدة؛ لأن الإنسان يعقد عليه قلبه .

وعلى هذا يكون مفهوم العقيدة الإسلامية أنها : هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من

^١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البر والصلة والآداب)) باب ((تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره)) حديث (٢٥٦٤) .

^٢ - ((المعجم الوسيط)) (٢ / ٦١٤) .

^٣ - ((المصباح المنير)) (٢ / ٤٢١) .

أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، و الحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله ﷺ .

وقد جاءت الأدلة على هذه الأركان والأسس في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فمن القرآن قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٨٥] وقوله تعالى : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٣٦] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ ﴾ [سورة آل عمران آية: ٨٤]

ومن السنة عن أبي هريرة ؓ أَن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ ؟ . قَالَ : ((الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ)) . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ ؟ قَالَ : ((الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ)) . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ ؟ . قَالَ : ((الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ ؟ . قَالَ : ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رُؤُوسِ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾ [سورة لقمان آية: ٣٤] ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ : ((رُدُّوا عَلَيَّ)) . فَآخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ : ((هَذَا جَبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ)) . (١) وفي رواية : قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ ؟ . قَالَ : ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ)) . قَالَ : صَدَقْتَ .

(١) - متفق عليه .

وكل ركن من هذه الأركان هو قيمة عقائدية بذاتها لا بد أن ترسخ في قلوب المؤمنين لتكميل
التدين الحق في القلوب والنفوس وترسيخ الحق في وتصحيح الاعتقاد .

(١) - قيمة الإيمان بالله ﷻ

((الإيمان)) : مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن
((الإيمان)) معناه : التصديق . وقال الله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ
شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات آية: ١٤] (١)

أكد القرآن الكريم في غير موضع من آياته، على قيمة الإيمان بالله وما لها من آثار نفسية
كبرى في حياة الفرد والمجتمع، يأتي في مقدمتها بث الشعور بالسكينة والراحة والاطمئنان. فأصل
السكينة الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة
المخاوف، فلا ينزعج لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات .
فالمفهوم الشرعي للإيمان : هو اعتقاد وإقرار وعمل، تعتقد أن لهذا الكون خالقاً ومربياً ومسيراً،
وأنه موجود وكامل وواحد، وأن أسماءه حسنى وصفاته فضلى، وأنه خلق الإنسان ليسعده، وأن
الدنيا دار فيها يتأهل الإنسان لجنة خلقه الله من أجلها، وأنه أرسل الأنبياء والرسل، وأنزل
الكتب، وأنه خلق الملائكة، وأن كل شيء بفعله وقضائه وقدره، هذا هو الإيمان، والإيمان بوجود
الله هي الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها فكل مخلوق فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق
تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن هذه الفطرة إلا اذا طرأ على قلبه وعقله دخيل يصرفه عن نقاء
هذه الفطرة السوية . وهذه الفطرة هي اعتقاد وجود الله تعالى ووجود هذا الكون، وافتقاره إلى
صانعه، كما هو معروف عقلياً أن لكل صنعة صانع ، وهذا الكون مفتقر إليه سبحانه . وأن هذه
المخلوقات خالق، لأن العقل لا يقبل وجودها من غير خالق موجود قديم قادر سبحانه وتعالى،
ولا يمكن أن توجد صدفة، لأن كل حادث لا بد له من محدث، ولأن وجودها على هذا النظام
البديع المحكم، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها
مع بعض يمنع منعاً باتاً أن يكون وجودها صدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل

^١ - ((تهذيب اللغة)) (١٥ / ٣٦٩) .

وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه ؟ . قال تعالى معرفاً عباده كيفية الاستدلال على هذا :
﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [سورة الطور آية: ٣٥] . (١)

وكذلك تحقق الإيمان بمعرفة صفاته سبحانه وتعالى، وهو العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً منزهاً عن حلول الحوادث، وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة، وأنه ليس كمثل شئ، والإيمان بمعرفة أسمائه العلية .

وكذلك الإيمان بكل ما أخبر به سبحانه في كتابه، أو ما جاء على لسان نبيه ﷺ وهو ما يعرف بالسمعيات، ومداره على التصديق بإثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار . وكذلك الإيمان بأن الله تعالى منزّه الذات عن الاختصاص بالجهات، أو مماثلة خلقه وهو ما يعرف بالتجسيم، وكل ما ورد عن الله تعالى يوهّم ظاهره هذه المماثلة وهذا التجسيم فيجب تفويض علمه إلى الله تعالى، ونفي الكيف عنه، مع إثبات التنزيه الكامل لذاته سبحانه عن هذه المماثلة .

وعلى هذا يجب اعتقاد التنزيه لله تعالى ونفي ضد ذلك، وتأويل ما يستحيل معناه الظاهر في حق الله تعالى . واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل، كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الحديد آية: ٤] إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم، وحمل قوله ﷻ : ((قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)) . على القدرة والقوة، وحمل قوله ﷻ : ((الحجر الأسود يمين الله في أرضه)) . على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه الخال، فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسماً مماساً للعرش، إما مثله أو أكبر منه أو أصغر، وذلك محال وما يؤدي إلى الخال فهو محال . (٢)

والحاصل : أنه إذا ورد في القرآن أو السنة ما يشعر بإثبات الجهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح، اتفق أهل الحق وغيرهم ما عدا المجسمة والمشبّهة على تأويل ذلك لوجوب تنزيهه تعالى عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره . (٣)

١ - ((إحياء علوم الدين)) (١ / ١٠٦) بتصرف يسير .

٢ - ((إحياء علوم الدين)) (١ / ١٠٨) .

٣ - ((شرح جوهرة التوحيد للعلامة إبراهيم اللقاني)) . بتعليق الغرسي ص (١٥٩ - ١٦٧) .

واهتم العلماء قديما وحديثا بتقرير التوحيد في قلوب المسلمين، وما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وملائكته وكتبه ورسوله والإيمان بالقضاء والقدر، والبعث واليوم الآخر، وألفوا في هذا الكتب والمصنفات، ومن أشهر من ألف في العقيدة وما يخص التوحيد على سبيل المثال لا الحصر هذه الكتب والمؤلفين لها :

- 1 - كتاب ((الإبانة)) وكتاب ((اللمع)) كلاهما للإمام أبي الحسن الأشعري .
- 2 - كتاب ((التوحيد)) للإمام الهدى أبي منصور الماتريدي .
- 3 - كتاب ((التمهيد)) وكتاب ((الإنصاف)) كلاهما للإمام أبي بكر الباقلاني .
- 4 - كتاب ((أصول الدين)) للإمام عبد القاهر البغدادي .
- 5 - كتاب ((الاعتقاد)) وكتاب ((الأسماء والصفات)) كلاهما للإمام أبي بكر البيهقي .
- 6 - كتاب ((الإرشاد)) وكتاب ((العقيدة النظامية)) كلاهما لأبي المعالي الجويني .
- 7 - كتاب ((الإشارة)) للإمام أبي إسحق الشيرازي .
- 8 - ((الاقتصاد في الاعتقاد)) للإمام أبي حامد الغزالي .
- 9 - كتاب ((قواعد العقائد)) للإمام أبي حامد الغزالي، وهو كتاب منتشر متوفر لكونه جزءا من كتاب إحياء علوم الدين للإمام نفسه .
- 10 - كتاب ((الأربعين في أصول الدين)) وغيره من مصنفات الإمام الفخر الرازي .
- 11 - ((العقيدة الطحاوية)) وشروحها المعتمدة كشرح الشيباني، والبابرتي، والميداني، وغيرها باستثناء الشرح المعزول لابن أبي العز الحنفي فقد حذر العلماء منه .

كما ألفت كتب في الرد على المخالف لعقيدة المسلمين كالمجسمة والمعتزلة... وغيرها من الفرق المخالفة ومن هذه الكتب :

- 1 - ((مقالات الإسلاميين)) للإمام أبي الحسن الأشعري .
- 2 - ((الفرق بين الفرق)) للإمام أبي منصور عبد القاهر البغدادي .
- 3 - ((التبصير في الدين)) للإمام أبي المظفر الإسفراييني .
- 4 - ((الملل والنحل)) للشهرستاني .
- 5 - ((اعتقاد فرق المسلمين والمشركون)) للإمام الفخر الرازي .

كما ألفت كتب متأخرة تمتاز بالاستيفاء والتحرير والجمع والتلخيص غالبا وحل المشكل وبيانه ومن أشهرها :

- ١ - ((العقائد النسفية)) : وعليها شروح كشرح العلامة التفتازاني .
- ٢ - ((إضاءة الدجنة)) للمقري : وعليها شروح للمغاربة .
- ٣ - ((بيان مشكل الحديث)) للإمام أبي بكر بن فورك .
- ٤ - ((العواصم من القواصم)) للإمام أبي بكر بن العربي المالكي .
- ٥ - ((دفع شبه التشبيه)) للإمام ابن الجوزي .
- ٦ - كتاب ((أساس التقديس)) للإمام الفخر الرازي .
- ٧ - ((إزالة الشبهات)) لابن اللبان .
- ٨ - ((إيضاح الدليل)) للبدر ابن جماعة .
- ٩ - ((دفع شبه من شبه وتشبه وتمرد)) ونسبه للإمام أحمد لمؤلفه الإمام تقي الدين الحصري .

﴿ دور علماء الأزهر في ترسيخ قيمة الإيمان بالله ومعرفته ﴾

لقد كان علماء الأزهر خير خلف خير سلف في ترسيخ هذه القيمة الإيمانية العليا، فقد تبنا منهج العقيدة الصحيحة ومنهج التنزيه لله تعالى عما ذهبت إليه الفرق الأخرى المنحرفة، فاعتمدوا عقيدة الإمامين أبي الحسن الأشعري والإمام أبي منصور الماتريدي رحمهما الله، واتبعوا في هذا المنهج منهج من تقدمهم من أهل العلم، فعرفوا الناس بعقيدتهم في مجالس علمهم وحلقاته، و مجالس وعظهم، وشروحهم للكتب المتخصصة في هذا المنهج وحواشيهم وتقريراتهم عليها، و مناظرة المخالفين من فرق المجسمة والمعتزلة والخوارج وغيرهم من الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة وأقاموا على هذا البراهين والأدلة، ومن هذه المصنفات وأشهرها :

- ١ - ((جوهرية التوحيد للإمام اللقاني)) وعليها شروح للباجوري والصاوي والأمير وغيرهم .
- ٢ - ((الخريدة البهية)) للإمام الدردير : وعليها شروح للدردير، والسباعي، والصاوي وغيرهم .
- ٣ - شرح ((السنوسية لمحمد بن يوسف السنوسي)) للباجوري، والشرقاوي، وغيرهما .

ورفع الأزهر لواء حماية العقيدة الإيمانية عامة، وخاصة ما يختص بالإيمان بذات الله تعالى و صفاته وأفعاله، وساروا فيه على مذهب أهل السنة والجماعة، مذهب سلف الأمة، وقرون الهدى

المذهب الأشعري والمذهب الماتريدي، وعرفوا الناس العقيدة الصحيحة، وبنوا نفوسهم وعقولهم على هذه الأسس من الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر .
وأما ما يخص قضية التوحيد فكما هو معروف عنهم من تشرفهم بفضل نشرها والتعريف بالله تعالى وبتنزيه ذاته سبحانه عن التجسيم أو التعطيل، وهذه سنن العلماء من قبلهم من لدن عصور الهدى إلى زمننا هذا، لكنهم لم يسلموا من تلك الفرق المخالفة لهم وعلى رأسهم المجسمة الذين يثبتون لله تعالى تلك الصفات الخبرية التي يوهم ظاهرها مماثلته تعالى للمخلوقات، وذلك لأن الأزهر قد اعتمد في هذه القضية مذهبين :

الأول : إمرارها كما جاءت وتفويض العلم فيها إلى الله تعالى ونفي الكيفية عنها مع اعتقاد كمال التنزيه لله تعالى، وهذا مذهب السلف الصالح .

الثاني : مذهب التأويل لهذه الصفات إذا اضطروا إلى هذا، فيؤولونها بالمعاني الأصلية في اللغة بما يليق بكمال الله تعالى وجلاله وجماله .

لكن المجسمة أخذوا يناصبون الأزهر العداء، ويطعنون في عقيدته من أجل المخالفة وإثبات الذات واتباع الهوى، وكان أكثر ما يشنعون به قضية تأويل الصفات، واتخذوها سببا في الطعن في الأزهر الشريف وعلمائه بصفة التعطيل، فيصفون عقيدة الأزهر بأنها عقيدة المعطلة لصفات الله تعالى، فلذا كان من واجبات الذكر التعرض لهذه القضية ليعلم الناس إلى أي اتجاه تتجه عقيدة الأزهر التي هي أصفي من الماء الزلال وأضوأ من شعاع الشمس، لكن العميان لا يرونها ولا يهتدون إلى الحق سبيلا ! . وهذه من القيم العلمية التي يؤديها الأزهر وعلماءه ليبينوا للناس الحق من الباطل ليفهموا عقيدتهم وأمور دينهم، ومن هذه القضايا :

﴿ قضيتا التفويض والتأويل للصفات الخبرية ﴾

((التفويض)) : مأخوذ من قولهم : فوض الأمر . أي رده إليه .

وفوض إليه الأمر : صيره إليه وجعله الحاكم فيه . وفي حديث الدعاء : ((فوضت أمري إليك)) . (١) أي : رددته إليك . يقال : فوض أمره إليه . إذا رده إليه وجعله الحاكم فيه ومنه .
(١)

^١ - أخرجه الضياء في ((المختارة)) (٢ / ٢٩٩) حديث (٦٧٩) .

والمعنى الشرعي لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهو شرعا : رد العلم بهذه التشابهات إلى الله تعالى، وعدم الخوض في معناها، وذلك بعد تنزيه الله تعالى عن ظواهرها غير المرادة للشارع .
إن السلف كان مذهبهم التفويض. وهو الصرف عن المعنى الحقيقي بدون تعيين للمعنى المجازي أو المعنى الكنائي . (٢)

و((التأويل)) : أصله من ((الأول)) وهو الرجوع .

و((التأويل)) : تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أوله تأويلا وتأوله . (٣)

وهو شرعا : صرف اللفظ عن الظاهر بقرينة تقتضي ذلك .

وهذان المذهبان هما المذهبان المعتبران المأثوران عن أهل السنة والجماعة في أبواب التشابه، ولا اعتبار لمن جنح إلى التعطيل أو التشبيه من المذاهب الأخرى التي رفضتها الأمة ولفظتها . (٤)

واعلم أن مذهب السلف في قرون الهدى منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وتابعيهم، والخلف من بعدهم قائم على تأويل ما ورد من النصوص المتشابهة عن ظواهرها المستحيلة .

وإذا كان السلف والخلف يتفقون على تأويل النصوص وصرفها عن ظواهرها المستحيلة إثبات ظاهرها لله تعالى، فإن السلف يفوضون معاني هذه التشابهات إلى الله تعالى وحده بعد تنزيهه عن ظواهرها، وهذا منهج التأويل الإجمالي للنصوص المتشابهة عندهم، والخلف اختاروا التأويل التفصيلي للنصوص المتشابهة، أي حمل اللفظ على معنى يسوغ في اللغة العربية ويليق بالله تعالى، بمعنى أن الأشاعرة قد استمروا على مذهب أهل السنة والجماعة في هذا المنهج، وهو منهج أهل السنة شرقا وغربا .

يقول الإمام أبو الحسن الأشعري في ((رسالة إلى أهل النغر)) : الإجماع العاشر : وأجمعوا على وصف الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه ووصفه به نبيه من غير اعتراض فيه، ولا تكييف له وأن الإيمان به واجب وترك التكييف له لازم . (٥)

^١ - ((لسان العرب)) (٧ / ٢١٠) . و ((تاج العروس)) (١٨ / ٤٩٦) .

^٢ - ((شرح جوهرة التوحيد)) (٤٦٦) .

^٣ - ((مختار الصحاح)) (١ / ١٣) .

^٤ - ((أهل السنة الأشاعرة)) للشيخ حمد السنان ، وفوزي العنجري ص (١٤٤) .

^٥ - ((رسالة إلى أهل النغر)) للإمام أبي الحسن الأشعري ص (٢٣٦) .

وقال رحمه الله قبل ذلك : الإجماع الخامس : وأجمعوا على أن صفته ﷻ لا تشبه صفات المحدثين كما أن نفسه لا تشبه أنفس المخلوقين . (١) وقال أيضا : الإجماع الثامن : وأجمعوا على أنه ﷻ يجيء يوم القيامة والملك صفا صفا لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها فيغفر لمن يشاء من المذنبين ويعذب منهم من يشاء كما قال وليس مجيئه حركة ولا زوالا، وإنما يكون المجيء حركة وزوالا إذا كان الجائي جسما أو جوهرًا، فإذا ثبت أنه ﷻ ليس بجسم ولا جوهر، لم يجب أن يكون مجيئه نقلة أو حركة، ألا ترى أنهم لا يريدون بقولهم : جاءت زيدا الحمى . أنها تنقلت إليه أو تحركت من مكان كانت فيه، إذ لم تكن جسما ولا جوهرًا، وإنما مجيئها إليه وجودها به، وأنه ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا كما روى عن النبي ﷺ (٢) وليس نزوله نقلة، لأنه ليس بجسم ولا جوهر وقد نزل الوحي على النبي ﷺ عند من خالفنا . (٣)

﴿ التأويل حق وفيه الخلاص من فتنتي التجسيم والتعطيل ﴾

هذه النصوص المتشابهة في الصفات إما أن تثبت أو تنفي، ونفيها تعطيل ظاهر، لأنه نفى لما أثبت الله تعالى ورسوله ﷺ، فمثلا يقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه آية: ٥] فيأتي المعطل فيقول : إنه غير مستو، أو أن يقول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَّصْتُ بَيْدِي﴾ [سورة ص آية: ٧٥] فيقال : ليس لله يدان، وهذا بين البطلان لأنه نفى لما أثبت الله تعالى والعياذ بالله . أما الإثبات فإما أن يكون معه حمل الكلام على ظاهره وحقيقته التي يعهدها البشر، أو أن يصرف الكلام معه عن هذا الظاهر وهذه الحقيقة، والأول نعني حمل الكلام على الظاهر والحقيقة يفضي قطعاً إلى التشبيه، لأن حقائق وظواهر هذه الألفاظ أجسام وكميات مخلوقة عبر بها المخلوق عما يراه من عالمه المخلوق، والله تعالى منزّه عن ذلك . ولا يقال : نحملها على الظاهر وتفويض العلم بالكيفية إلى الله تعالى. لأن هذا القول تناقض صريح أوقعت فيه الغفلة، إذ ليس من ظاهر ولا حقيقة هنا إلا الجسم، وهذا لا يصح قطعاً وصف الله تعالى به، وهذه الكيفية التي

(١) - المرجع السابق . ص (٢١٦) .

(٢) - حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول هل من سائل يعطى هل من مستغفر يغفر له هل من تائب يتاب عليه حتى ينشق الفجر)) . أخرجه النسائي في ((سننه الكبرى)) (٦ / ١٢٥) حديث (١٠٣١٨)

(٣) - ((رسالة إلى أهل النغر)) ص (٢٢٧ - ٢٣٠) .

فوض العلم بها إلى الله تعالى هي ذاتها المعنى الذي زعموا إثباته، لأن معاني هذه الألفاظ كصفات، فإن أثبت المعنى فقد أثبتت الكيفية، وإذا فوضت الكيفية فقد فوض المعنى . لهذا قلنا إنه تناقض أوقعت فيه الغفلة .

وبقي القسم الأخير الذي هو صرف الكلام عن الحقيقة والظاهر، ثم بعد صرفه عن الظاهر إما أن يتوقف عن التماس معنى له ويوكل العلم به إلى الله تعالى، وهذا هو ((التفويض)) الذي عليه جماهير السلف الصالح، أو يلتمس له معنى لا ثقا بالله تعالى حسب مناحي الكلام عند العرب وما تسيغه لغتهم، وهذا هو التأويل الذي عليه خلف الأمة وجماعات من سلفها الصالح .

وبهذين المذهبين تنحصر القسمة الصحيحة في هذه القضية . لهذا ترى العلماء ينصون عندما يعرض لهم شيء من هذه المتشابهات على أنه إما : ((تفويض))، وإما : ((تأويل))، إذ ليس بعدهما إلا التشبيه أو التعطيل .^(١) فبين من هذا أن المكلف إما أن يمر هذه الصفات كما جاءت بدون اعتقاد مدلولها اللغوي الظاهر الذي يتنزه عنه الله تعالى، ويستحيل نسبته إليه أو وصفه به، لأنه يؤدي إلى التجسيم والتشبيه، وهذا مذهب السلف، أو يؤولها تأويلا تفصيليا مع صرفها عن ظواهرها المستحيلة وتخريجها على معنى لغوي تقبله اللغة ويشهد له الشرع، ويليق بكمال الله وجلاله، وهذا مذهب الخلف وكثير من السلف أيضا.

﴿ شهادات العلماء لمنهجي التفويض والتأويل ﴾

يذكر العلامة ابن عبد البر رحمه الله حديث النزول لله تعالى فيعرض أقوال أهل العلم فيه فأورد أقوالا غير أقوال أهل التأويل ثم عقب بعد ذلك بقوله :

قال أبو عمر : ليس هذا بشيء عند أهل الفهم من أهل السنة لأن هذا كيفية، وهم يفرعون منها لأنها لا تصلح إلا فيما يحاط به عيانا، وقد جل الله وتعالى عن ذلك، وما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر، ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فلا نتعدى ذلك إلى تشبيه أو قياس أو تمثيل أو تنظير، فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. قال أبو عمر : أهل السنة مجموعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكييفون شيئا من ذلك

^١ - ((أهل السنة الأشاعرة)) . ص (١٤٤ - ١٤٦) .

ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة و الحمد لله، روى حرملة بن يحيى قال: سمعت عبد الله بن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: من وصف شيئاً من ذات الله مثل قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [سورة المائدة آية: ٦٤] وأشار بيده إلى عنقه، ومثل قوله: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى آية: ١١] فأشار إلى عينيه أو أذنه أو شيئاً من بدنه قطع ذلك منه لأنه شبه الله بنفسه . (١)

ويقول الإمام النووي : اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين : ((أحدهما)) : وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها، بل يقولون : يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزّه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة، وعن سائر صفات المخلوق وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققهم وهو أسلم .

والقول ((الثاني)) : وهو مذهب معظم المتكلمين، أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها، وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهلها بأن يكون عارفاً بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع ذا رياضة في العلم . (٢)

وقال في حديث الجارية (٣) : قوله ﷺ : ((أين الله ؟)) . قالت : ((في السماء)) . قال : ((من أنا ؟)) . قالت : أنت رسول الله . قال : ((أعتقها فإنها مؤمنة)) . هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيها مذهبان تقدم ذكرهما مرات في كتاب ((الايان)) أحدهما : الإيمان به من غير خوض في معناه مع اعتقاد أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وتنزيهه عن سمات المخلوقات. والثاني : تأويله بما يليق به . فمن قال بهذا قال : كان المراد امتحانها هل هي موحدة تقر بأن

١ - ((التمهيد)) لابن عبد البر (٧ / ١٤٤ - ١٤٥) .

٢ - ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (٣ / ١٩) .

٣ - حديث مروي عن معاوية بن الحكم السلمي قال : وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحدٍ والجارية فاطمت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجلٌ من بني آدم أسفُ كما يأسفون لكبي صككتها صكةً فأثبت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ قلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ ! قال : ((اثبت بها)) . فأثبت بها فقال لها : ((أين الله ؟)) . قالت : في السماء . قال : ((من أنا ؟)) . قالت : أنت رسول الله . قال : ((أعتقها فإنها مؤمنة)) . أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((المساجد ومواضع الصلاة)) باب ((تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة)) حديث (٥٣٧) .

الخالق المدبر الفعال هو الله وحده، وهو الذي اذا دعاه الداعي استقبل السماء، كما اذا صلى المصلي استقبل الكعبة، وليس ذلك لأنه منحصر في السماء كما أنه ليس منحصرًا في جهة الكعبة بل ذلك لأن السماء قبلة الداعين، كما أن الكعبة قبلة المصلين، أو هي من عبدة الأوثان العابدين للأوثان التي بين أيديهم، فلما قالت : في السماء . علم أنها موحدة وليست عابدة للأوثان، قال القاضي عياض : لا خلاف بين المسلمين قاطبة فقيهم ومحدثهم ومتكلمهم ونظارهم ومقلدهم أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء كقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ ۝ ﴾ [سورة الملك آية: ١٦] ونحوه ليست على ظاهرها، بل متأولة عند جميعهم، فمن قال بإثبات جهة فوق من غير تحديد ولا تكييف من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، تأول ((في السماء))، أي : على السماء . ومن قال من دهماء النظار والمتكلمين وأصحاب التنزيه بنفي الحد واستحالة الجهة في حقه سبحانه وتعالى تأولوها تأويلات بحسب مقتضاها، وذكر نحو ما سبق. قال : ويا ليت شعري ما الذي جمع أهل السنة والحق كلهم على وجوب الإمساك عن الفكر في الذات كما أمروا، وسكتوا لحيرة العقل، واتفقوا على تحريم التكييف والتشكيل، وأن ذلك من وقوفهم وإمساكهم غير شاك في الوجود والموجود، وغير قادح في التوحيد بل هو حقيقته، ثم تسامح بعضهم بإثبات الجهة خاشيا من مثل هذا التسامح، وهل بين التكييف وإثبات الجهات فرق ؟. لكن إطلاق ما أطلقه الشرع من أنه القاهر فوق عباده وأنه استوى على العرش مع التمسك بالآية الجامعة للتنزيه الكلي الذي لا يصح في المعقول غيره وهو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ ﴾ [سورة الشورى آية: ١١] عصمة لمن وفقه الله تعالى وهذا كلام القاضي رحمه الله تعالى .

(١)

قال ابن الجوزي : أكثر السلف يمتنعون من تأويل مثل هذا ويمرونه كما جاء، وينبغي أن يراعى في مثل هذا الإمرار اعتقاد أنه لا تشبه صفات الله صفات الخلق، ومعنى الإمرار عدم العلم بالمراد منه مع اعتقاد التنزيه . (٢)

وقال الإمام عدي بن مسافر رحمه الله : وتقرير مذهب السلف كما جاء من غير تمثيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا حمل على الظاهر . (١)

١ - ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (٥ / ٢٤ - ٢٥) .

٢ - ((فتح الباري)) لابن حجر (٦ / ٤٨) .

وقال الإمام النووي : اختلفوا في آيات الصفات وأخبارها هل يخاض فيها بالتأويل أم لا ؟ . فقال قائلون : تتأول على ما يليق بها . وهذا أشهر المذهبين للمتكلمين . وقال آخرون : لا تتأول بل يمسك عن الكلام في معناها ويوكل علمها إلى الله تعالى ، ويعتقد مع ذلك تنزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحوادث عنه ، فيقال مثلا : نؤمن بأن الرحمن على العرش استوى ، ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به ، مع أننا نعتقد أن الله تعالى ليس كمثله شيء ، وأنه منزّه عن الحلول وسمات الحدوث ، وهذه طريقة السلف أو جماهيرهم . (٢)

وقال الإمام السيوطي : وجهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها و تفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها . وقال الترمذي في الكلام على حديث الرؤية : المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ومالك وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وغيرهم ، أنهم قالوا : ((نروي هذه الأحاديث كما جاءت ونؤمن بها ولا يقال : كيف ؟ . ولا نفسر ولا نتوهم)) . وذهبت طائفة من أهل السنة على أننا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى ، وهذا مذهب الخلف . واختار ابن برهان مذهب التأويل ، قال : ومنشأ الخلاف بين الفريقين هل يجوز أن يكون في القرآن شيء لم نعلم معناه أو لا ؟ . بل يعلمه الراسخون في العلم .

وتوسط ابن دقيق العيد فقال : إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم ينكر أو بعيدا توقفنا عنه وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه . قال : وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرا مفهوما من تخاطب العرب قلنا به من غير توقيف ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَحْسَرْتُ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ [سورة الزمر آية : ٥٦] فنحمله على حق الله وما يجب له . (٣)

فهذه النصوص وغيرها تصرح بإثبات التفويض للسلف وتنزيههم لله تعالى ونفي الكيف .

وهناك محاولات قديمة وحديثة برفض منهج التأويل ووصفه وأهله بالتعطيل ، وتنفير الناس من هذا المنهج ، بوصفهم له بأنه ابتداع وضلال ، ونسبة هذا المنهج إلى بعض الفرق المبتدعة كالجهمية والباطنية وغيرها ، ممن انتهجوا نهج التأويل المتكلف الذي يخالف منهج الأشاعرة في التأويل ، و

^١ - ((اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للالكائي ص (٢٦) .

^٢ - ((المجموع)) للإمام النووي . (١ / ٢٥) .

^٣ - ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢ / ١٤ - ١٥) .

لكن الحق أن تأويل الأشاعرة تأويل منضبط له شروطه وأصوله وقواعده، وهو منهج قائم على فهم الكتاب والسنة واللغة، وهو مذهب علماء الأمة وأئمتها .

﴿ أقوال العلماء في منهج التأويل في بعض الآيات ﴾

وقد اختلف الناس في الوارد منها في الآيات والأحاديث على ثلاثة أقوال:

((أحدها)) : أنه لا مدخل للتأويل فيها بل تجري على ظاهرها ولا تؤول شيئا منها وهم المشبهة .

((الثاني)) : أن لها تأويلا ولكننا نمسك عنه مع تنزيه اعتقادنا عن الشبه والتعطيل، ونقول لا يعلمه إلا الله وهو قول السلف .

((الثالث)) : أنها مؤولة وأولوها على ما يليق به .

والأول باطل، والأخيران منقولان عن الصحابة، فنقل الإمامك عن أم سلمة أنها سئلت عن الاستواء فقالت : الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة . وكذلك سئل عنه مالك فأجاب بما قالته أم سلمة، إلا أنه زاد فيها أن : من عاد إلى هذا السؤال عنه أضرب عنقه . وكذلك سئل سفيان الثوري فقال : أفهم من قوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه آية: ٥] ما أفهم من قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [سورة فصلت آية: ١١] وسئل الأوزاعي عن تفسير هذه الآية فقال : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه آية: ٥] : وإني لأراك ضالا. وسئل ابن راهويه عن الاستواء : أقائم هو أم قاعد ؟. فقال: لا يمل القيام حتى يقعد، ولا يمل القعود حتى يقوم وأنت إلى هذا السؤال أحوج .

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها وبأبائها . وأفصح الغزالي عنهم في غير موضع بتهجين ما سواها حتى ألجم آخرها في ((إجمامه)) كل عالم، أو عامي عما عداها . قال وهو كتاب ((إجمام العوام عن علم الكلام)) آخر تصانيف الغزالي مطلقا آخر تصانيفه في أصول الدين، حث فيه على مذاهب السلف ومن تبعهم . ومن نقل عنه التأويل علي وابن مسعود وابن عباس ؓ وغيرهم .

وقال الغزالي في كتاب ((التفرقة بين الإسلام والزندقة)): إن الإمام أحمد أول في ثلاثة مواضع وأنكر ذلك عليه بعض المتأخرين .

وقد حكى ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلى تأويل أحمد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٥٨] قال: وهل هو إلا أمره . بدليل قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [سورة النحل آية: ٣٣] واختار ابن برهان وغيره من الأشعرية التأويل (١) فقد ذكر هنا في كلامه رحمه الله منهجي التفويض والتأويل .

وقال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله : طريقة التأويل بشرطها أقربها إلى الحق . قال الزبيدي : ويعني بشرطها : أن يكون على مقتضى لسان العرب . (٢)
وقال الإمام الألوسي رحمه الله : والتأويل القريب إلى الذهن الشائع نظيره في كلام العرب مما لا بأس به عندي، على أن بعض الآيات مما أجمع على تأويلها السلف والخلف . (٣)

فإذا كان الأمر كذلك فلا ملامة ولا حرج حينئذ على علماء الأمة، إذا فسروا كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على طريقة العرب، وحسب أسلوب مخاطبتهم وتجاوزهم، وبما يليق بجلال الله تعالى، وبما يدفع شبه المشبهين، وهل هم في هذا إلا مهتدون بهدي جمهور السلف الذين فهموا عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ لكنهم لم يتطرقوا لإعلانه والتصريح به، لعدم الحاجة إلى ذلك في عصورهم، ومضى قرنهم على هذا . وهكذا كان الحال مع الذين جاءوا من بعدهم، إلى أن جاء زمن نبت فيه رؤوس البدعة، ورفع فيه أهل الزيغ عقيرتهم، وجابهوا الناس بما لم يكن به عهد، واستولوا بمقالاتهم الفاسدة على عقول العامة، وحملوا كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على ما لا يجوز حملهما عليه، وغاية ما فعلوه ﷺ هو أنهم جهروا بما كان يجتنب جمهور السلف الصالح من الصحابة والتابعين الجهر به لعدم الحاجة إليه في أزمته . (٤)

﴿ شهادات علماء الأمة لصحة تأويل الأشاعرة ﴾

وقد شهد لهم بهذا العلماء وقرروا لهم مذهبهم في التأويل، ليكون هو المنهج المقاوم للزندقة والفرق المنحرفة، التي أعلنت عن آرائها التي أوقعت الناس في الفتن والضلال .

١ - ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢ / ٧٨ - ٧٩) .

٢ - ((تحاف السادة المتقين)) للزبيدي (٢ / ١٠٩) .

٣ - ((روح المعاني)) للألوسي (٣ / ١١٦) .

٤ - ((أهل السنة الأشاعرة)) (١٦٥) .

(١) - **قال ملا علي قاري رحمه الله** : أكثر السلف لعدم ظهور أهل البدع في أزمنتهم يفوضون علمها - أي آيات الصفات وأحاديثها - إلى الله تعالى، مع تنزيهه سبحانه عن ظاهرها الذي لا يليق بجلال ذاته، وأكثر الخلف يؤولونها بحملها على محامل تليق بذلك الجلال الأقدس والكمال الأنفس، لا يضطرونهم إلى ذلك لكثرة أهل الزيغ والبدع في أزمنتهم . ومن ثم قال إمام الحرمين : لو بقي الناس على ما كانوا عليه لم نؤمر بالاشتغال بعلم الكلام، وأما الآن فقد كثرت البدع فلا سبيل إلى ترك أمواج الفتن تلتطم . (١)

(٢) - **وقال الإمام الزركشي** : قلت : وإنما حملهم على التأويل وجوب حمل الكلام على خلاف المفهوم من حقيقته، لقيام الأدلة على استحالة المشابهة والجسمية في حق الباري تعالى . (٢)

(٣) - **وقال الإمام عدي بن مسافر** : ونؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم أن الله ﷻ لا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء منها، فإن كل ما تمثل في الوهم فهو مقدره قطعاً وخالفه، وهذا الذي درج عليه السلف قبل ظهور الأهواء وتشعب الآراء، فلما ظهرت البدع وانتشر في الناس التشبيه والتعطيل فزع أهل الحق إلى التأويل . (٣)

(٤) - **وقال الإمام العز بن عبد السلام** : وليس الكلام في هذا بدعة قبيحة، وإنما الكلام فيه بدعة حسنة واجبة لما ظهرت المشبهة، وإنما سكت السلف عن الكلام فيه إذ لم يكن في عصرهم من يحمل كلام الله وكلام رسوله على ما لا يجوز حمله عليه، ولو ظهرت في عصرهم شبهة لكذبهم وأنكروا عليهم غاية الإنكار، فقد رد الصحابة والسلف على القدرية لما أظهروا بدعتهم، ولم يكونوا قبل ظهورهم يتكلمون في ذلك . (٤)

(٥) - **وقال الإمام النووي** : فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء في هذا . (٥)

ولعل التأويل جاء ليؤدي دوراً مهماً في قطع وسوسة الصدور، وقطع حبال التخييل والنوهم لذات الله ﷻ والمشابهة للحوادث، وهذا أنجح دواء لهذا الداء الذي يصيب عقول كثير من العامة وعند سماع حجج المتأولين وشرحهم لآيات وأحاديث الصفات على منهج الأشاعرة منهج

^١ - ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١ / ٢٦٠) .

^٢ - ((البرهان في علوم القرآن)) (٢ / ٢٠٩) .

^٣ - ((اعتقاد أهل السنة والجماعة)) (٢٦) .

^٤ - ((الفتاوى)) للعز بن عبد السلام ص (٢٢) .

^٥ - ((المجموع)) . (١ / ٢٥) .

الأزهر الشريف، يطمئنون وتهتفأ عقولهم وأفكارهم، وهذا ما جربناه فوجدناه مقبولا مفهوما عند العامة بل والخاصة من طلبة العلم الذين نور الله ﷻ بصائرهم وقلوبهم بنور الفهم .

(٦) - **قال العلامة ملا علي قاري :** اتفق السلف والخلف على تنزيه الله تعالى عن ظواهر التشابهات المستحيلة على الله تعالى ... ، وخاض أكثر الخلف في التأويل، لكن غير جازمين بأن هذا هو مراد الله تعالى من تلك النصوص، وإنما قصدوا بذلك صرف العامة عن اعتقاد ظواهر التشابه، والرد على المبتدعة المتمسكين بأكثر تلك الظواهر . (١)

﴿ أمثلة من التأويل عند السلف ﴾

(١) - في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [سورة القلم آية: ٤٢] قال الطبري : قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل : يبدو عن أمر شديد . ذكر من قال ذلك : حدثني محمد بن عبيد المحاربي قال : ثنا عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس ؓ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [سورة القلم آية: ٤٢] قال : هو يوم حرب وشدة . وعن ابن عباس ؓ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [سورة القلم آية: ٤٢] قال : عن أمر عظيم . كقول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق .

وعن إبراهيم : يوم يكشف عن ساق ولا يبقى مؤمن إلا سجد ويقسو ظهر الكافر فيكون عظما واحدا . وكان ابن عباس ؓ يقول : يكشف عن أمر عظيم ألا تسمع العرب تقول :
وقامت الحرب بنا على ساق .

وعن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [سورة القلم آية: ٤٢] يقول : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه . عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [سورة القلم آية: ٤٢] هو الأمر الشديد المفضع من الهول يوم القيامة . (٢)

^١ - ((مرقاة المفاتيح)) (١ / ٣٥٤) .

^٢ - ((تفسير الطبري)) (٢٩ / ٣٨) .

وقال شيخ الإسلام البيضاوي رحمه الله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [سورة القلم آية: ٤٢] يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب، وكشف الساق مثل في ذلك، وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب قال حاتم :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها *** وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا .
أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته، بحيث يصير عيانا مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان وتنكيره للتهويل أو للتعظيم . (١)

٢ - قوله ﷺ: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية: ١١٥]

عن مجاهد في قول الله ﷻ: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة آية: ١١٥] قال : قبله الله فأينما كنت من شرق أو غرب فاستقبلها . وقال آخرون: معنى قول الله ﷻ: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة آية: ١١٥] فثم الله تبارك وتعالى . وقال آخرون : معنى قوله: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة آية: ١١٥] فثم تدركون بالتوجه إليه رضا الله الذي له الوجه الكريم . (٢)

وقال الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان : ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة آية: ١١٥] فثم قبله الله والوجه والوجهة والجهة القبلة . وقيل: رضا الله تعالى . (٣)
وقال الإمام النسفي رحمه الله : ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة آية: ١١٥] أي: جهته التي أمر بها ورضيها . والمعنى: أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجدا فصلوا في أي بقعة شيءتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان . (٤)

٣ - قوله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨]

١ - ((تفسير البيضاوي)) (٥ / ٣٧٤ - ٣٧٥) .

٢ - ((تفسير الطبري)) (١ / ٥٠٦) .

٣ - ((تفسير البغوي)) (١ / ١٠٨) .

٤ - ((تفسير النسفي)) (١ / ٦٦) .

إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن آية: ٢٧] فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هاهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] أي: إلا إياه . وقال مجاهد والثوري في قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] أي: إلا ما أريد به وجهه. وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له : قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

أستغفر الله ذنبا لست محصيه *** رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافي القول الأول فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . (١) وقال الفخر الرازي : المسألة الثالثة استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين : ((الأول)) قالوا : الآية صريحة في إثبات الوجه، وذلك يقتضي الجسمية . و((الثاني قوله)) : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] وكلمة ((إلى)) لانتهاى الغاية، وذلك لا يعقل إلا في الأجسام .

و((الجواب)) : لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه، وأن لا يبقى منه إلا الوجه، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة، وهو بيان بن سمعان، وذلك لا يقول به عاقل، ثم من الناس من قال: الوجه هو الوجود . والحقيقة يقال وجه هذا الأمر كذا أي حقيقته . ومنهم من قال : الوجه صلة، والمراد كل شيء هالك إلا هو . وأما كلمة ((إلى)) فالمعنى : وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون . (٢)

وقال ابن أبي حاتم : عن مجاهد في قول الله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] قال: إلا ما أريد به وجهه . وعن سفيان الثوري في قول الله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] قال: كل شيء هالك إلا ما ابتغى به وجهه من الأعمال الصالحة . (٣)

^١ - ((تفسير ابن كثير)) (٣ / ٤٠٤) .

^٢ - ((تفسير مفاتيح الغيب)) للإمام الرازي (٢٥ / ٢٢) .

^٣ - ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩ / ٣٠٢٨) .

وقال السمرقندي : كل شيء هالك إلا وجهه يعني كل عمل هالك لا ثواب له إلا ما يراد به وجه الله ﷻ ويقال: كل شيء متغير إلا ملكه فإن ملكه لا يتغير ولا يزول إلى غيره أبدا . (١)

وقال الواحدي : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] أي: إلا إياه . (٢)

وقال الفخر الرازي : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] وذلك لأنه لو كان الوجه هو العضو المخصوص لزم أن يفنى جميع الجسد والبدن، وأن تفنى العين التي على الوجه، وأن لا يبقى إلا مجرد، وقد التزم بعض حمقى المشبهة ذلك وهو جهل عظيم . (٣)

وقال : قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] ظاهر الآية يقتضي فناء العرش وفناء جمع الأحياء والجهات وحينئذ يبقى الحق سبحانه وتعالى منزها عن الخيز والجهة . (٤)

وقال البخاري في ((صحيحه)) : باب تفسير سُورَةِ الْقَصَصِ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [سورة القصص آية: ٨٨] : إِلَّا مُلْكَهُ . وَيُقَالُ : إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ . (٥)

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ظاهر الآية يقتضي فناء العرش وفناء جمع الأحياء والجهات وحينئذ يبقى الحق سبحانه وتعالى منزها عن الخيز والجهة . (٦)

وقال الحلبي رحمه الله : يحتمل أن يكون معناه ما من شيء إلا وهو قابل للهلاك فيهلك إن أراد الله به ذلك إلا وجهه أي إلا هو، فإنه تعالى جده قديم والقديم لا يجوز عليه الفناء، وما عداه محدث والمحدث إنما يبقى قدر ما يبقيه محدثه . (٧)

وقال ابن الجوزي : قلت : فمن أين قالوا - أي بإثبات الوجه وأنه جارحة - هذا وليس لهم دليل إلا ما عرفوه من الحسيات ؟! وذلك يوجب التبعض، ولو كان كما قالوا كان المعنى أن ذاته تهلك إلا وجهه، وقال ابن حامد المجسم : أثبتنا لله وجهها ولا نجوز إثبات رأس . قلت ولقد اقشعر بدني من جراته على ذكر هذا فما أعوزة في التشبيه غير الرأس . (٨)

١ - ((تفسير السمرقندي)) (٢ / ٦٢٣) .

٢ - ((تفسير الواحدي)) (٢ / ٨٢٧) .

٣ - ((أساس التقديس في علم الكلام)) للإمام الرازي ص (٩٣) .

٤ - السابق . ص (٣٣) .

٥ - ((صحيح البخاري)) في كتاب ((التفسير)) باب ((تفسير سورة القصص)) .

٦ - ((أساس التقديس في علم الكلام)) ص (٣٣) .

٧ - ((شعب الإيمان)) للبيهقي (١ / ٣١١) .

٨ - ((دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه)) لابن الجوزي ص (١١٣) .

﴿ منهج الأزهر يضمن استقرار العقيدة ودفع الوسواس ﴾

لقد علمت مما سبق من أقوال علماء سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم أن الأزهر الشريف في عقيدته ما انحرف وما أتى ببدع من الأقوال، إنما هو منهج السلف، وعليه قد مضوا واقتفوا آثارهم ! . فالتأويل إذا اضطررنا إليه في حوار الملاحدة والجهلة قد يحل تلك المشكلات المعضلات التي تنتج عن الجهل تارة، وعن التوهم والتخيل تارة أخرى . فلذلك قس على هذا المنهج آيات الصفات وأخبارها في السنة التي يوهم ظاهرها المشابهة والتجسيم مما هو في ظاهره مشترك بين الخالق سبحانه والمخلوق، فجميع ما هو ثابت من نصوص الصفات، فإنهم — أي الأشاعرة — يثبتون كل ذلك بلا تشبيه ولا تمثيل، ويؤولون إذا استحال الظاهر بلا تعطيل، يثبتون ما أثبتته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أن ينزهوه تعالى عن كل ما لا يليق به سبحانه من ظاهر اللفظ، وهذا القدر من معنى اللفظ هو المنفي عندهم لاستحالة أن يتصف الله تعالى به، وهو القدر الذي يجب نفيه، ومثبته لا محالة واقع في التشبيه أو التجسيم أو مائل إليه .

فالتأويل ليس عنه محيص ، وكل الذين يفرون منه مضطرون إليه لا محالة، وإلا فماذا عساهم أن يقولوا في مثل قوله تعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [سورة التوبة آية: ٦٧] وقوله سبحانه: ﴿ أَلْيَوْمَ نَنسَلِكُمْ ﴾ [سورة الجاثية آية: ٣٤] فإنه يلزمهم أن يثبتوا نسيانا حقيقيا لأنه أثبت تعالى لنفسه نسيانا، ولكنه ليس كنسيان البشر الذي نفاه ربنا عن نفسه بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [سورة مريم آية: ٦٤] وقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [سورة الحديد آية: ٤] وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [سورة المجادلة آية: ٧] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَسْتَرْزِيهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٥] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأُمْتَفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ [سورة النساء آية: ١٤٢] وقوله صلى الله عليه وسلم: ((فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا)) .

- (١) وقوله ﷺ في الحديث القدسي حاكيا عن ربه ﷻ: ((.. وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوْلَةً)) .
- (٢) إلخ هذه النصوص الواردة بالكتاب والسنة .

قال الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى : فإنهم - يعني الأشاعرة - بحمد الله ليسوا معترلة، و لا نفاة لصفات الله معطلة، لكنهم يثبتون له سبحانه ما أثبتته لنفسه من الصفات، ويصفونه بما اتصف به في محكم الآيات، وبما وصفه به نبيه ﷺ في صحيح الروايات، وينزهونه عن سمات النقص والآفات، فإذا وجدوا من يقول بالتجسيم أو التكييف من الجسمة والمشبهة، ولقوا من يصفه بصفات المحدثات من القائلين بالحدود والجهة، فحينئذ يسلكون طريق التأويل، ويثبتون تنزيهه تعالى بأوضح الدليل، ويبالغون في إثبات التقديس له والتنزيه خوفا من وقوع من لا يعلم في ظلم التشبيه، فإذا أمنوا من ذلك رأوا أن السكوت أسلم، وترك الخوض في التأويل إلا عند الحاجة أحزم، وما مثاهم في ذلك إلا مثل الطبيب الحاذق الذي يداوي كل داء من الأدواء بالدواء الموافق، فإذا تحقق غلبة البرودة على المريض داواه بالأدوية الحارة، ويعالجه بالأدوية الباردة عند تيقنه منه بغلبة الحرارة، وما هذا ضرب المثل إلا كما روي عن سفيان الثوري : إذا كنت بالشام فحدث بفضائل علي عليه السلام، وإذا كنت بالكوفة فحدث بفضائل عثمان عليه السلام، وما مثال المتأول بالدليل الواضح إلا مثال الرجل السابح، فإنه لا يحتاج إلى السباحة ما دام في البر، فإن اتفق له في بعض الأحيان ركوب البحر وعين هوله عند ارتجاعه ، وشاهد منه تلاطم أمواجه، وعصفت به الريح حتى انكسر الفلك، وأحاط به إن لم يستعمل السباحة الهلك، فحينئذ يسبح بجهد طلبا للنجاة . (٣)

﴿ علماء الأمة وسوادها على عقيدة الأزهر الشريف ﴾

علماء الأمة هم نجوم السماء، يهتدي بهم من أطبقت عليه ظلمات الخيرة، والتبست عليه معالم الطريق، فإذا رأي أمامه أكابر الذين شهدت لهم الأمة بالفضل وتلقاهم الخاصة والعامة بالقبول، علم حينئذ أن هذا المنهج والطريق الذي سلكه هؤلاء منهج الهدى والصراط مستقيم .

^١ - متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها .

^٢ - متفق عليه من حديث أبي هريرة عليه السلام .

^٣ - ((تبين كذب المفتري)) لابن عساكر ص (٣٨٨ - ٣٨٩) .

ومذهب الأشاعرة ومن وافقهم من أهل السنة هو المذهب الذي عليه سواد الأمة، وأكابر أهل الفضل فيها، وما ذاك إلا لأنه الامتداد الطبيعي لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون وتابعوهم، فلم يبق علم من العلوم لم يكن لهم الريادة فيه، ولا تركوا باباً للمعرفة لم يلجوه، فكان لهم في كل علم من علوم الشريعة وغيرها القدر المعلى والجبين الأجل .

ومن هذه العلوم التي كان لأهل السنة فضل التقدم والتبريز فيها علم تفسير كتاب الله تعالى والعلوم المتعلقة به كالتقراءات والغريب والمشكل ونحوها، وإمامة عجلي من أعلام هذا الباب توقفك على هذه الحقيقة .

المفسرون لكتاب الله ﷻ ومنهم على سبيل الذكر لا الحصر :

١ - الإمام الفذ المفسر والمحدث العلامة القرطبي رحمه الله تعالى ، صاحب تفسير ((الجامع لأحكام القرآن))، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، حكى في تفسيره مذاهب السلف كلها، قال عنه الداودي في ((الطبقات)) : هو من أجل التفسير وأعظمها نفعا .

٢ - الإمام الحافظ المفسر أبو الفداء إسماعيل بن كثير رحمه الله تعالى، صاحب ((التفسير العظيم))، و((البداية والنهاية)) وغيرها، فقد نقل عنه أنه صرح بأنه أشعري كما في ((الدرر الكامنة)) (١) أضف إلى ذلك أنه ولي مشيخة ((دار الحديث الأشرافية)) التي كان شرط واقفها أن لا يلي مشيختها إلا أشعري، وزد عليه ما في تفسيره من التنزيه والتقديس والتشديد على من يقول بظواهر المتشابه .

٣ - الإمام المفسر الكبير قدوة المفسرين ابن عطية الأندلسي رحمه الله تعالى، صاحب تفسير ((المحرر الوجيز)) ألف كتابه في التفسير فأحسن فيه وأبدع، كان رحمه الله من أفاضل أهل السنة والجماعة ومن أكابر أهل الفضل، قال أبو حيان الأندلسي فيه في مقدمة ((البحر المحيط)) (٢) : ((هو من أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه و التحرير)) .

^١ - ذكر هذا ابن حجر في ((الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)) (١ / ٦٥) في ترجمة ابن قيم الجوزية فقال : إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية ولد سنة ٢٦ وأحضر على أيوب الكحال وغيره وسمع من جماعة كابن الشحنة ومن بعده واشتهر وتقدم وأفتى ودرس وذكره الذهبي في المعجم المختص فقال تفقه بأبيه وشارك في العربية وسمع وقرأ واشتغل بالعلم ومن نوادره أنه وقع بينه وبين عماد الدين ابن كثير منازعة في تدريس الناس فقال له ابن كثير أنت تكرهني لأنني أشعري فقال له لو كان من رأسك إلى قدمك شعر ما صدقتك الناس في قولك إنك أشعري وشيخك ابن تيمية وقال ابن رافع شرح ألفية ابن مالك وقال ابن كثير كان فاضلاً في النحو والفقه على طريقة أبيه ودرس بأماكن وكانت وفاته في صفر سنة ٧٦٧ .

^٢ - ((تفسير البحر المحيط)) (١ / ١١٢) .

٤ - الإمام أبو حيان الأندلسي رحمه الله تعالى صاحب ((البحر المحيط)) الحجة اللغوي
الثبت .

٥ - الإمام المقدم فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى صاحب تفسير ((مفاتيح الغيب))
المفسر المتكلم إمام وقته وفريد عصره، كان شجاً في حلوق المبتدعة، وسيفاً مصلتاً على أهل الزيغ
والإلحاد .

٦ - الإمام المفسر الحافظ البغوي محيي السنة رحمه الله تعالى صاحب كتاب ((شرح
السنة)) وتفسيره مملوء بما يدل على اعتقاد أهل السنة، وزاخر بالتأويل السني لنصوص المتشابه .

٧ - الإمام المفسر أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى، صاحب تفسير ((بحر العلوم))،
وكتابه ((تنبيه الغافلين وبستان العارفين))، وقد اشتهر بلقب : ((إمام الهدى)) .

٨ - الإمام المفسر الواحدي أبو الحسن علي النيسابوري أستاذ عصره في النحو والتفسير،
كان سنياً أشعرياً من أهل السنة والجماعة، صاحب المؤلفات النافعة والإشارات الرائعة، وله
كتاب ((أسباب النزول)) وهو من أشهر الكتب التي في بابه .

٩ - الإمام الحافظ المفسر جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى صاحب ((الدر المنثور في
التفسير بالمأثور)) .

١٠ - الإمام المفسر السمين الحلبي صاحب تفسير ((الدر المصون)) .

١١ - الإمام المفسر أبو الشاء شهاب الدين الألوسي الحسيني رحمه الله تعالى، خاتمة
المفسرين ونخبة المحدثين .

١٢ - الإمام الخطيب الشربيني رحمه الله تعالى صاحب تفسير ((السراج المنير)) .

ومن المحدثين على سبيل الذكر لا الحصر :

١ - الإمام الحافظ أبو الحسن الدارقطني رحمه الله تعالى .

٢ - الإمام أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى .

٣ - الإمام الحافظ أبو ذر الهروي .

٤ - الحافظ أبو طاهر السلفي .

٥ - الإمام الحافظ الحاكم النيسابوري صاحب ((المستدرک)) رحمه الله تعالى .

٦ - الإمام الحافظ ابن حبان البستي صاحب ((الصحيح)) رحمه الله تعالى .

٧ - الإمام الحافظ أبو سعد بن السمعاني صاحب كتاب ((الأنساب)) رحمه الله تعالى .

٨ - الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى .

- ٩ (- الإمام الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى .
- ١٠ (- الإمام الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى .
- ١١ (- الإمام الحافظ محيي الدين يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى .
- ١٢ (- الإمام المحقق بقية الحفاظ صلاح الدين خليل بن كيكليدي العلاني رحمه الله تعالى .
- ١٣ (- شيخ الإسلام الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى .
- ١٤ (- الإمام الحافظ ابن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله تعالى .
- ١٥ (- الإمام الحافظ الكرمانلي شمس الدين محمد بن يوسف رحمه الله تعالى .
- ١٦ (- الإمام الحافظ المنذري رحمه الله تعالى .
- ١٧ (- الإمام الحافظ الأبي رحمه الله تعالى .
- ١٨ (- الإمام الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى .
- ١٩ (- الإمام الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى .
- ٢٠ (- الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى .
- ٢١ (- الإمام الحافظ المناوي رحمه الله تعالى .

ومن الفقهاء على سبيل الذكر لا الحصر :

- ١ (- الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى .
- ٢ (- الإمام الفقيه اللغوي أبو المظفر الإسفراييني رحمه الله تعالى .

ومن اللغويين والأدباء :

- ١ (- الإمام ابن الأنباري رحمه الله تعالى .
- ٢ (- العلامة ابن سيده رحمه الله تعالى .
- ٣ (- العلامة ابن منظور صاحب ((لسان العرب)) رحمه الله تعالى .
- ٤ (- العلامة الجوهري صاحب ((الصحاح)) رحمه الله تعالى .
- ٥ (- مجد الفيروز آبادي صاحب كتاب ((القاموس المحيط)) رحمه الله تعالى .
- ٦ (- المرتضى الزبيدي صاحب كتاب ((تاج العروس)) رحمه الله تعالى .
- ٧ (- الإمام محمد بن مالك صاحب ((الألفية)) رحمه الله تعالى .
- ٨ (- العلامة ابن عقيل شارح ((ألفية ابن مالك)) رحمه الله تعالى .
- ٩ (- العلامة ابن هشام المصري رحمه الله تعالى .

ومن كتاب السبر والتواريخ منهم :

- ١ - الإمام القاضي عياض صاحب ((الشفا)) رحمه الله تعالى .
- ٢ - الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى .
- ٣ - الإمام الحلبي رحمه الله تعالى .
- ٤ - الإمام السهيلي رحمه الله تعالى .
- ٥ - الإمام الصالحي رحمه الله تعالى .

ومن السلاطين والملوك :

- ١ - السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى .
- ٢ - السلطان المجاهد نور الدين محمود زكي رحمه الله تعالى .
- ٣ - السلطان سيف الإسلام قطز .
- ٤ - السلطان محمد الفاتح رحمه الله . وخلفائه في الدولة العثمانية كانوا ماتريديّة .

ومن المتأخرين الأبطال والمجاهدين الذين يفخر أهل السنة والجماعة بهم :

- ١ - عمر المختار رحمه الله تعالى .
- ٢ - العلامة المجاهد الصوفي الناسك بديع الزمان النورسي رحمه الله تعالى .
- ٣ - البطل المجاهد عز الدين القسام رحمه الله تعالى .
- ٤ - البطل المجاهد عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى .

ورحم الله الإمام العلامة عبد الله بن علوي الحداد حيث قال : اعلم أن مذاهب الأشاعرة في الاعتقاد هو ما كان عليه جماهير أمة الإسلام، علماؤها ودهماؤها، إذ المنتسبون إليهم والسالكون طريقهم كانوا أئمة أهل العلوم قاطبة على مر الأيام والسنين، وهم أئمة علم التوحيد والكلام و التفسير والقراءة والفقه وأصوله والحديث وفنونه والتصوف واللغة والتاريخ .

ولنا الحق أن نتساءل بعد كل ما مر وما قيل : ما الهدف من القدح بأعلام المسلمين وإسقاط الهيبة والتوقير من قلوب الأجيال المسلمة لهم ؟. لماذا يصير البعض على تحطيم صروح الدين من

خلال تحطيم أعلامه ورموزه؟! أم أنه حق فينا قول رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى يلعن آخر هذه الأمة أولها)) . (١)

٢ - ﴿ قيمة إقامة البراهين العقلية والنقلية على وجود الله تعالى ﴾

من كمال الإيمان في قلوب العباد - كما قدمنا - معرفة الله تعالى ذاتا وصفاتا وأفعالا، و صفة الوجود لله تعالى لبقية صفاته هي الأساس الذي يؤسس عليه كمال إيمان العبد، خاصة ونحن نعيش في هذا الزمن موجات عاتية من موجات الإلحاد، وإنكار وجود الله تعالى من فئة غير قليلة كما كان عليه الإلحاد قديما، فقد كان قديما في خفاء، وقليل من يعلنه أو يتجرأ على الجهر به، لكن في زمننا هذا قد تتبنى فكره دول وتُنشأ من أجله مؤسسات وأبواق إعلامية مقروءة أو مشاهدة أو مسموعة، وساعدهم على هذا عصر العولمة الذي نعيش فيه وأدواته من القنوات المفتوحة، وصيرورة العالم كالقرية الصغيرة، ولذلك من الواجب على العلماء مقاومة هذه الظاهرة الخطيرة التي نتجت عن بعد الناس عن دينها، وقلة الفهم مع التمسح زورا بالعلم وادعاء تحصيله ولو عقلوا لعلموا أن العلوم بكل مناهجها لا تؤدي إلا إلى نتيجة حتمية واحدة، وهي : وجوب وجود الله تعالى، وأنه خالق هذا الكون والمدير له سبحانه، فالعلم ينتهي به المطاف إلى السجود في محراب الاعتراف والإقرار لله تعالى بالألوهية والربوبية فلا رب غيره ولا معبود سواه .

لذلك كان الأزهر الشريف عبر عصوره المتعاقبة يقوم بشرف نشر التوحيد، وتقريره في القلوب، هو والمدارس الإسلامية الأخرى كالزيتونة والقرويين وغيرها، وناظر علماء الملحدون والزنادقة في هذا المجال، ورفعوا راية التوحيد وعلومه، وأقاموا على هذا البراهين العقلية مع الأدلة النقلية .

وكان نهج العلماء قديما الاستدلال بالنقل وربطه بالعقل، قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي : وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان، وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝

^١ - ((أهل السنة الأشاعرة)) ص (٢٤٨ - ٢٦٨) بتصرف يسير .

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴿سورة النبا آية: ٦ - ١٦﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البقرة آية: ١٦٤]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٨﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٢٠﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة نوح آية: ١٥ - ١٨] وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٢٣﴾ نَحْنُ قَدْ زَيَّنَّا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٢٤﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٢٧﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٢٨﴾ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٣٠﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٣١﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٣٢﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٣٣﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٣٥﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٣٦﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الواقعة آية: ٥٨ - ٧٣]

فليس يخفي على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة، مضمون هذه الآيات، و أدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يديره، وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخير، ومصرفة بمقتضى تدبيره، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم آية: ١٠] ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم

لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا لا إله إلا الله . (١)

ومما يروى عن أئمتنا رحمهم الله : عن الإمام مالك رحمه الله تعالى أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنعيمات .

١ - ((إحياء علوم الدين)) (١ / ١٠٦ - ١٠٧) .

ومما يحكى عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى : أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم : دعوني فإنني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا إلى سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يجرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخرق الأمواج العظام حتي تخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ! فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟! . فبهت القوم ورجعوا إلي الحق وأسلموا علي يديه .

وعن الشافعي رحمه الله تعالى أنه سئل عن وجود الخالق ﷻ فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم ^(١)، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا، وتأكله الطباء فيخرج منه المسك، وهو شيء واحد . وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : أنه سئل عن ذلك فقال : هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح . يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الديك وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل في رياض الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأحداث هي الذهب السيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز ويروي لأبي العتاهية رحمهما الله تعالى:

فيا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة	وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد ^(٢)



^(١) - الحرير .

^(٢) - ((تفسير ابن كثير)) (١ / ٥٩ - ٦٠) .

﴿ إحياء هذه القيمة في عصرنا الحديث ﴾

يجب على علماء الأزهر في عصرنا الحالي تجديد الخطاب الديني بتطويره، ولا نقصد بهذا التفريط في ثوابت العلم وأسسها، بل بتطوير الخطاب بالتوافق مع معطيات العصر الحديث وآلياته، وأن يواكبوا مظاهر التقدم والتطور، لمقاومة ظاهرة الإلحاد التي أخذت تنتشر في عقول الشباب في الآونة الأخيرة اتجاهات الحداثة التي هي في مضمونها التمرد على كل شيء وعلى القديم بحجة ادعاء التجديد، حتى على الدين والله تعالى ورسوله وكتبه، وكأن الإسلام خصم للتحضر والعلم وعدو لهما نتيجة فهمهم المغلوط، فيجب على العلماء أن يزيلوا هذه الفكرة المتخلفة من عقولهم، وأن يخاطبواهم بتقرير الإيمان بخطاب مادي مشتمل على خطاب العقل بالماديات وأدلتها، التي تثبت وجود الباري سبحانه وتعالى، وما أكثرها ! بل إن الواقع في عصرنا عصر الشبكة العنكبوتية ((الإنترنت)) والسماوات المفتوحة كما يقولون، يثبت في كل يوم أن العلم خادم أمين لإثبات وجود الله تعالى وصدق رسوله ﷺ الذي وعده ربه وعدا غير مكذوب فقال : ﴿ سَتُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ [سورة فصلت آية: ٥٣] بل إن نظريات العلم تسجد في محراب الله تعالى ناطقة وشاهدة أنه الحق، وأن ما جاء به رسوله حق وقوله حق .

وعن طريق الأدلة المادية والأدلة الكونية يخاطب الله تعالى العقول بإثبات وجوده، ومع مرور الوقت يكشف الله تعالى للإنسان من علمه ما يشاء، وتزداد الأدلة وضوحا، وها هي الحقائق الكونية التي أخبر بها القرآن، تثبتها الاكتشافات الحديثة تصديقا لله ورسوله ﷺ، ومعطيات العصر تشجع على إحياء هذه القيمة بآليات العصر الحديث من إعلام مقروء ومسموع ومرئي .

وعلى سبيل المثال ما هو مبثوث عبر الشبكة العنكبوتية ((الإنترنت)) من مواقع مقروءة ومشاهدة من مواد علمية تبحث في هذا الميدان ومن هذا مثلا :

(١) - القرآن الكريم أول من لفت النظر إلى اختلاف بصمات الإنسان، وأنها لا تتشابه مع إنسان آخر أبدا، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَتَحْسَبُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَأَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ ۚ ﴾ بلى قَدِيرِينَ عَلَىٰ

أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ [سورة القيامة آية: ٤]. أثبت هذا العلم الحديث وهذا ما جاء مثلاً عبر هذا الرابط الإلكتروني :

<https://www.youtube.com/watch?v=xCA1CA3VpM0>

٢ - القرآن الكريم أول من نبه على ضرورة ذكر اسم الله على الذبائح والعلم الحديث يثبت هذا وفائدته المادية المحسوسة على هذا الرابط :

<https://www.youtube.com/watch?v=-7fNn3wzZ-E>

٣ - القرآن أول من أشار إلى حقيقة البرازخ في المياه، وجاء العلم ليثبت هذا والأمثلة في هذه الروابط :

<https://www.youtube.com/watch?v=dqOjeDJ6HPY>

<https://www.youtube.com/watch?v=93m2klu3uTg>

<https://www.youtube.com/watch?v=WzbiRqpaIAg>

<https://www.youtube.com/watch?v=ZddqzXM9y60>

٤ - القرآن أول من ذكر ما يسمى بالانفجار الكوني، وأثبت العلم الحديث، واعترف العلماء بهذا وإيمانهم به بعد الإلحاد الذي عاشوا فيه دهراً، أمثلة على هذا الرابط :

<https://www.youtube.com/watch?v=1vErFa2MwXI>

<https://www.youtube.com/watch?v=HpkZPqCSO70> = و

٥ - القرآن الكريم أول من أجاب عن سؤال كيف خلق الكون ؟ وذلك في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء آية: ٣٠] والعلم يشهد بهذا وهذه شهاداتهم :

(١) - <https://www.youtube.com/watch?v=HpkZPqCSO70>

(٢) - <https://www.youtube.com/watch?v=h1VoKYiRAcA>

(٣) - <https://www.youtube.com/watch?v=4MnDxERp7iw>

(٤) - <https://www.youtube.com/watch?v=72E7IM1kOqI>

وهناك الكثير من المواد العلمية التي تتعدى المئات بل والآلاف من إثبات النظريات الحديثة لكل ما أخبر عنه القرآن ورسول الله ﷺ قديماً في آياته وأحاديثه، ولا يزال الزمان في خدمة شرف تصديق الحق الذي جاء به الإسلام ورسوله ﷺ .

وهناك المئات من الأبحاث العلمية والرسائل والمقالات في هذا المجال التي أفدنا منها في تجديد الخطاب الدعوي، خاصة في دعوة ومناقشة الملاحدة والمتشككين، وهناك العديد من المواقع

الإلكترونية التي تخصصت في نشر الأدلة العلمية والكونية في تقرير قيمة الإيمان بوجود الله تعالى ومن أفضل المواقع التي اهتمت بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم موقع ((فصلت)) :

<http://fussilat.org>

و = www.elnaggarzr.com/

و = www.kaheel7.com

و = www.eajaz.org/

و = quran-m.com/

و غيرها من المواقع التي يمكن للداعية وعلماء الأزهر أن يستفيدوا منها في مواكبة لعصر الحداثة الذي نعيشه الآن، ولتكون الأدلة نقليّة وعقليّة ونظرية وعلمية مثبتة بإعلام مقروء ومرئي ومسموع .

(٢) - ﴿ قيمة الإيمان بالملائكة ﴾

تكرر لفظ ((الملائكة)) في القرآن الكريم أكثر من سبعين مرة، كما تكرر لفظ ((ملك)) ثلاثة عشرة مرة . (١) قال الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلُثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة فاطر آية: ١] وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام آية: ٨]

﴿ عالم الملائكة ﴾

وعالم الملائكة عالم غيبي غير محسوس، بمعنى أن الملائكة ليس لهم وجود بدني يدرك بالحواس، إنما هم من عالم آخر غير منظور لنا، ولا يعلم حقيقتهم وهيئتهم إلا الله . (٢)

وهم من عالم الغيب أو من عالم ما وراء الطبيعة، أو العالم غير المنظور الذي لا يعلم حقيقته إلا الله ﷻ، وهم مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومبرؤون من الميول النفسية، ومنزهون عن الآثام

١ - (راجع ((المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)) ص (٦٤٧) للأستاذ المرحوم / محمد فؤاد عبد الباقي .

٢ - (مباحث في علم التوحيد (النبوات)) للإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوي ص (٩٩) .

والخطايا، وهم ليسوا كالبشر يأكلون ويشربون وينامون ويتصفون بالذكورة والأنوثة، إنما هم عالم آخر قائم بنفسه ومستقل بذاته لا يتصفون بشيء مما يتصف به البشر، من الحالات المادية ولهم القدرة على أن يتمثلوا بصورة بشرية وغيرها، من الصور الحسية، فقد جاء جبريل للسيدة مريم متمثلاً لها في صورة بشرية: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۗ﴾ [سورة مريم آية: ١٦ - ١٧]

ودخلت جماعة منهم على سيدنا إبراهيم في صورة آدميين يحملون إليه البشري وظنهم ضيوفاً فقدم إليهم الطعام: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ۚ فَرَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ۚ﴾ [سورة هود آية: ٦٩ - ٧٠] . (١)

﴿ خلق الملائكة ومسكنها ﴾

والملائكة : هم أجسام نورانية . أي مخلوقة من نور لا يأكلون ولا يشربون دأبهم الطاعات ومسكنهم السموات . (٢) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : ((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)) . (٣)

والدليل على كون مسكنهم في السموات قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۚ﴾ [سورة مريم آية: ٦٤]

ومن السنة : عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظن السَّمَاءَ وَحَقَّ لها أَنْ تَنُطَّ ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ وَاللَّهُ لو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمَ لَصَحِجَّتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وما تَلَدَّدْتُمْ بالنِّسَاءِ على الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إلى اللَّهِ لو دِدْتُ أَنِّي كُنتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ)) . (٤)

١ - ((الإيمان وشعبه)) للشيخ فتحي منصور على منصور ص (٣٤) .

٢ - ((حاشية العلامة الدسوقي على شرح أم البراهين)) للإمام السنوسي ص (٢٥٤) .

٣ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الزهد والرقائق)) باب ((باب في أحاديث متفرقة)) حديث (٢٩٩٦) .

٤ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) في كتاب ((الزهد)) باب ((في قول النبي ﷺ لو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمَ لَصَحِجَّتُمْ قَلِيلًا)) حديث (٢٣١٢) .

﴿ قدر البشر عند الله ﷻ وقدر الملائكة ﴾

قال الكلاباذي : قولهم في الملائكة والرسول : سكت الجمهور منهم عن تفضيل الرسل على الملائكة، وتفضيل الملائكة على الرسل، وقالوا: الفضل لمن فضله الله، ليس ذلك بالجواهر ولا بالعمل، ولم يروا أحد الأمرين أوجب من الآخر بخبر ولا عقل، وفضل بعضهم الرسل وبعضهم الملائكة، وقال محمد بن الفضل: جملة الملائكة أفضل من جملة المؤمنين، وفي المؤمنين من هو أفضل من الملائكة، كانه فضل الأنبياء عليهم السلام على الملائكة . (١)

وقال العلامة التفتازاني : ذهب جمهور أصحابنا والشيعة إلى أن الأنبياء أفضل من الملائكة خلافا للمعتزلة والقاضي وأبي عبد الله الحلي منّا، وصرح بعض أصحابنا بأن عوام البشر من المؤمنين أفضل من عوام الملائكة، وخواص الملائكة أفضل من عوام البشر، أي غير الأنبياء . (٢)
ثم شرع في ذكر أدلتهم العقلية والنقلية . (٣)

﴿ ذكر بعضهم في القرآن الكريم ﴾

ذكر الله تعالى بعض أسمائهم في القرآن الكريم، ومنهم جبريل ﷺ وهو رئيسهم وأمين الوحي ومهلك ومدمر الأمم المجرمة... إلخ مناقبه ﷺ .

وقد سماه الله تعالى في كتابه باسمه فقال : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٩٧]

وذكره بألقابه الدالة على مكانته وقدره ﷺ فقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [سورة الشعراء آية:

١٩٣] وسماه بروح القدس قال تعالى : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [سورة البقرة آية: ٨٧] و: ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ

﴿ [سورة الحاقة آية: ٤٠] و: ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [سورة التكوين آية:

٢٠ - ٢١] و: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ ﴿ [سورة النجم آية: ٦] وذكر ميكائيل فقال : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٩٨] وذكر

^١ - (((التعرف لمذهب أهل التصوف)) . (٦٨ - ٦٩) .

^٢ - (((شرح المقاصد في علم الكلام)) (٢ / ٢٠٠) . (٢ / ٢٠٠ - ٢٠٣) .

^٣ - أنظر هذه الأدلة في ((شرح المقاصد)) (٢ / ٢٠٠ - ٢٠٣) .

حازن النار مالك فقال: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ﴾ [سورة الزخرف آية: ٧٧] ومنهم من ذكر على لسان المعصوم عليه السلام : عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل ورب إسرافيل أعوذ بك من حر النار ومن عذاب القبر)) . (١)

﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾

نستطيع أن نلخص طبيعتهم وأعمالهم في بضع كلمات، فهم خلق جبلوا على الطاعة والعبادة والتسبيح لله رب العالمين، لا يملون ذلك ولا يسأمون منه، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ رحلة الملائكة مع ابن آدم من المهد إلى اللحد ﴾

(١) - رحلة التكوين في بطن الأم : عن عبد الله عليه السلام قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قال : ((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) . (٢)

(٢) - عند الولادة : عن محمد بن كعب القرظي قال : قرأت في التوراة . أو قال : في صحف إبراهيم الخليل عليه السلام فوجدت فيها يقول الله : ((يا ابن آدم ما أنصفتني خلقتك ولم تك شيئا وجعلتك بشرا سويا، خلقتك من سلاله من طين فجعلتك نطفة في قرار مكين، ثم خلقت النطفة علقه فخلقت العلقه مضغه فخلقت المضغه عظاما فكسوت العظام لحما ثم أنشأتك خلقا آخر، يا ابن آدم هل يقدر على ذلك غيري ؟. ثم خفت ثقلك على أمك حتى لا تتبرم بك ولا تتأذى ثم أوحيت إلى الأمعاء أن اتسعي وإلى الجوارح أن تفرقي فاتسعت الأمعاء من بعد ضيقها وتفرقت الجوارح من بعد تشبكها، ثم أوحيت إلى الملك الموكل بالأرحام أن يخرجك من بطن أمك فاستخلصك على ريشة من جناحه، فاطلعت عليك فإذا أنت خلق ضعيف ليس لك سن يقطع

^١ - أخرجه النسائي في ((سننه الكبرى)) (٤ / ٤٦٤) .

^٢ - متفق عليه .

ولا ضرر يطحن، فاستخلصت لك في صدر أمك عرقا يدر لنا باردا في الصيف حارا في الشتاء واستخلصته لك من بين جلد ولحم ودم وعروق، ثم قذفت لك في قلب والدك الرحمة وفي قلب أمك التحنن فهما يكدان عليك ويجهدان ويربيانك ويغذيانك ولا ينمان حتى ينومانك، يا ابن آدم أنا فعلت ذلك بك لا لشيء استأهلت به مني ولا لحاجة استعنت بك على قضائها، يا ابن آدم فلما قطع سنك وطحن ضررك أطعمتك فاكهة الصيف في أوانها وفاكهة الشتاء في أوانها، فلما أن عرفت أنني ربك عصيتني فادعني فأني قريب مجيب واستغفري فأني غفور رحيم)) . (١)

٣ - **في خدمة حفظك حتى يأتي أمر الله تعالى أو ينفذ فيك قضاؤه** : قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّآ عَلَيْهَا حَافِظٌ ۖ ﴾ [سورة الطارق آية: ٤] وقال: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۖ ﴾ [سورة الأنعام آية: ٦١]

وقال: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ۚ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنِّ وَالٍ ۖ ﴾ [سورة الرعد آية: ١١] المعنى جعل الله للعبد معقبات يحفظونه في كل حال، من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاء المقدور الواقع أسلم المرء إليه، و المعقبات على هذا التأويل الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم أيضا . قاله الحسن . (٢)

٤ - **الملائكة الحافظين الكتبة** : ويتوكل بآدم ملكان يكتبان عمله إذا بلغ الحلم، وبدأ معه سن التكليف، وقد سماهما الله تعالى وقيل وصفهما فقال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۗ ﴾ [سورة ق آية: ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ ﴾ [سورة الانفطار آية: ١٠ - ١١]

٥ - **يوكل بك قرينك من الملائكة** : يلهمك الخير ويرشدك للطاعات، وهو ضد قرين الجن الذي يرشد ويوسوس بخلاف ذلك، عن ابن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما منكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة)) . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ . قال : ((وإياي ولكن الله أعانني عليه حتى أسلم فلا يأمرني إلا بخير)) . (٣)

١ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١٠ / ٣٩٩ - ٤٠٠) ، وذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٨ / ٤٢٠) .

٢ - ((تفسير الثعالبي)) (٢ / ٢٦٦) .

٣ - أخرجه ابن خزيمة في ((صحيحه)) (١ / ٣٣٠) حديث (٦٥٨) . والإمام أحمد في ((مسنده)) (١ / ٣٨٥) حديث (٣٦٤٨) .

(٦) - **شهادتهم للمؤمن** : بالصلاة أطراف النهار والليل، وصحبتهم له فيها : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : ((الْمَلَائِكَةُ يَتَعَقَّبُونَ مَلَائِكَةً بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةً بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي . فَيَقُولُونَ : تَرَكْنَاهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ يُصَلُّونَ)) . (١) وكذلك في صلاة الجمعة : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : ((إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمَلَائِكَةُ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَأَلَّوْلَ فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَّأَ الصُّحُفَ وَجَاوَزُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ)) . (٢) ويؤمنون على تأمين المصلين : عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِذَا قَالَ الْإِمَامُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ فَإِنَّهُ مِنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)) . (٣)

(٧) - **تأييد الله للمؤمنين بالملائكة ونصرهم لهم** : ودليل هذا ما كان يوم بدر حتى إن الله تعالى قد كشف عن ملائكته لهم فرأوهم بالأبصار : عن سهل بن سعد قال: قال لي أبو أسيد السَّاعِدِيُّ بعد ما ذَهَبَ بَصْرُهُ يَا ابْنَ أَخِي لَوْ كُنْتُ أَنَا وَأَنْتَ الْآنَ بِبَدْرٍ ثُمَّ أَطْلَقَ اللَّهُ لِي بَصْرِي لَأَرَيْتَكَ الشَّعْبَ الَّذِي خَرَجَتْ عَلَيْنَا مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ غَيْرَ شَكٍّ وَلَا تَمَارٍ . (٤)

- يتجسدون في صورة بشر لتكثير عدد المؤمنين ونصرتهم، حتى يرهبون عدو الله وعدوهم، ويقتلون أعداءهم وأدلة هذا : عن ابن عباس رضي الله عنه عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكنت قد أسلمت وأسلمت أم الفضل وأسلم العباس، وكان يكتُم إسلامه مخافة قومه، وكان أبو هُبَ قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام، وكان له عليه دين، فقال له : اكفني هذا الغزو وأترك لك ما عليك . ففعل فلما جاء الخبر وكبت الله أبا هُبَ وكنت رجلاً ضعيفاً أنحت هذه الأقداح في حجرة فو الله إني لجالس في الحجرة أنحت أقداحي وعندي أم الفضل إذ الفاسق أبو هُبَ يجير رجله، أراه قال عند طنب الحجرة وكان ظهره إلى ظهري فقال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث. فقال أبو هُبَ: هلم إلي يا ابن أخي، فجاء أبو سفيان حتى جلس عنده فجاء الناس فقاموا عليهما فقال: يا ابن أخي كيف كان أمر الناس؟ فقال: لا شيء فوالله إن لقيناهم فمئناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا،

^١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((بدء الخلق)) باب ((ذكر الملائكة)) حديث (٣٠٥١) .

^٢ - السابق حديث (٣٠٣٩) .

^٣ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((بدء الخلق)) باب ((إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه)) حديث (٣٠٥٦) .

^٤ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٩ / ٢٦٠) حديث (٥٧٨) . والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (٣ /

٥٣) . وذكره ابن عبد البر في ((الاستيعاب)) (٤ / ١٥٩٨) ترجمة (٢٨٤٥) .

وأيم الله ما لمت الناس . قال: ولم ؟ قال: رأيت رجالا بيضا على خيل بلق لا والله ما تليق شيئا ولا يقوم لها شيء. قال: فرفعت طنب الحجرة فقلت: والله تلك الملائكة. فرفع أبو هب يده فضرب وجهي وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض، حتى برك على صدري، فقامت أم الفضل فاحتجرت ورفعت عمودا من عمد الحجرة فضربت به، فعلق في رأسه شجة منكورة، وقالت: يا عدو الله استضعفته أن رأيت سيده غائبا عنه. فقام ذليلا فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى ضربه الله بالعدسة فقتلته، فلقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثة ما يدفنه حتى أنتن، فقال رجل من قريش لابنيه: ألا تستحيان أن أبكما قد أنتن في بيته. فقالا: إنا نخشى هذه القرحة . وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي الطاعون . فقال رجل: انطلقا فأنا معكما . قال: فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ثم احتملوه فقذفوه في أعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة . (١)

ودل على هذا القرآن أيضا قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ

﴿ سورة الأنفال آية: ١٢ ﴾

وعن ابن عباس قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم ويوم حنين عمائم حمراء ولم يقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لا يضربون . (٢) وعن مصعب بن عبد الله عن مولى لسهيل بن عمرو قال: سمعت سهيل بن عمرو رضي الله عنه يقول: لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقتلون ويأسرون . (٣)

وفي يوم أحد أيضا: عن عبد الله بن الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال: أعطى رسول الله ﷺ يوم أحد مصعب بن عمير رضي الله عنه اللواء فقتل مصعب فأخذه ملك في صورة مصعب فجعل رسول الله ﷺ يقول له في آخر النهار: ((تقدم يا مصعب)) . فالتفت إليه الملك فقال: لست بمصعب فعرف رسول الله ﷺ أنه ملك أيد به . (٤)

^١ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٣ / ٣٦٣) حديث (٥٤٠٣) ، والبزار في ((مسنده)) (٩ / ٣١٧) حديث (٣٨٦٦) . والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (٣ / ١٤٦) .

^٢ - أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٣ / ٥٧) ، والطبري في ((تاريخه)) (٢ / ٣٦) ، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١١ / ١٩٣) حديث (١١٤٦٩) .

^٣ - أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٣ / ٥٧) . وذكره ابن حجر في ((الإصابة)) (٣ / ٢١٤) . والسيوطي في ((الخصائص الكبرى)) (١ / ٣٣٢) وعزاه للبيهقي .

^٤ - أخرجه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٣ / ١٢١) وذكره ابن الجوزي في ((صفة الصفوة)) (١ / ٣٩٣)

وكانوا يأسرون ويقتلون أعداء الله ورسوله ﷺ تأييدا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وأدلة هذا : قال أبو زميل : فحدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيروم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال : ((صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة)) . فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . (١)

وعن محمود بن لبيد قال : قال الحارث بن الصمة سألني رسول الله ﷺ يوم أحد وهو في الشعب : ((هل رأيت عبد الرحمن بن عوف ؟)) . قلت : نعم يا رسول الله رأيتني إلى حر الجبل وعليه عكر من المشركين فهربت إليه لأمّنه فرأيتك فعدلت إليك فقال النبي ﷺ : ((أما إن الملائكة ثقائل معه)) . قال الحارث فرجعت إلى عبد الرحمن فأجده بين نفر سبعة صرعى فقلت له ظفرت يمينك أكمل هؤلاء قتلت ؟ قال أما هذا لأرطاة بن شرحبيل وهذا فأنا قتلتهم وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره . قلت : صدق الله ورسوله . (٢)

- سلامهم على المؤمنين في الدنيا: ومنهم من تحرق له العادة فيسمع سلامهم : عن حميد بن هلال سمعت مطرفا قال: قال لي عمران بن حصين رضي الله عنه إني أحدثك حديثا عسى الله أن ينفعك به إن رسول الله ﷺ قد جمع بين حج وعمرة ثم لم يمه عنه حتى مات ولم ينزل قرآن فيه يحرمه، وإنه كان يسلم علي فلما اكتويت أمسك عني فلما تركته عاد إلي . (٣)

- وكانوا يسمعون كلامهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبي بن كعب لأدخلن المسجد فلاصلين ولأحمدن الله بمحامد لم يحمد بها أحد، فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثني عليه فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول: اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وببيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره لك الحمد إنك على كل شيء قدير اغفر لي ما مضى من ذنوبي و اعصمني فيما بقي من عمري وارزقني أعمالا زاكية ترضى بها عني وتب علي . فأتى رسول الله ﷺ فقص عليه فقال: ((ذاك جبرائيل عليه السلام)) . (٤)

١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الجهاد والسير)) باب ((الإمداد بالملائكة في غزوة بدر)) حديث (١٧٦٣) .

٢ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٣ / ٢٧١) .

٣ - أخرجه أبو نعيم في ((المسند المستخرج على صحيح مسلم)) (٣ / ٣٢٥) حديث (٢٨٤٤) ، وابن حبان في ((صحيحه)) (٩ / ٢٤٥) حديث (٣٩٣٨) .

٤ - ذكره المنذري في ((الترغيب والترهيب)) وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب ((الذكر)) .

٨ - **وهم يلهمون المؤمنين بإذن ربهم** : ويتحدثون على ألسنتهم ودليل هذا : قال أنيس بن الحليس : بينا نحن محاصرون بهرسير بعد زحفهم وهزيمتهم أشرف علينا رسول فقال : إن الملك يقول لكم هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلها ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم . فبدر الناس أبو مفزر الأسود بن قطبة وقد أنطقه الله ﷻ بما لا يدري ما هو ولا نحن ، فأجابه بالفارسية ولا يعرف منها شيئاً هو ولا نحن ، فرجع الرجل ورأيانهم يقطعون إلى المدائن فقلنا : يا أبا مفزر ما قلت له ؟ قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما أدري ما هو ، وإلا أني علتني سكينه وأرجو أن أكون أنطقت بالذي هو خير . وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد فجاءنا فقال : يا أبا مفزر ما قلت له ؟ فوالله إنهم لهراب . فحدثه بمثل حديثه إيانا فنأدى في الناس ثم نهدهم فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج إلينا إلا رجل ، نادى بالأمان فأمناه فقال : ما بقي أحد فيها فما يمنعكم ؟! فتسورها الرجال وافتتحناها ، فما وجدنا فيها شيئاً ولا أحداً إلا أسارى أسرناهم خارجاً منها ، فسألناهم وذلك الرجل لأي شيء هربوا ؟! فقال : بعث إليكم الملك يعرض عليكم الصلح ، فأجبتموه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً ، حتى نأكل عسل أفريدون بأترج كوثي . فقال الملك : واويله ألا أرى الملائكة تكلم على ألسنتهم ترد علينا ، وتجيئنا عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك ما هو إلا شيء ألقى علي في هذا الرجل لنتهي فأرزوا إلى المدينة القصوى . قالوا : ولما دخل سعد والمسلمون بهرسير أمر بها ، فثلثت وتحول العسكر إليها ، ولاح لهم ، وذلك في جوف الليل القصر الأبيض ، فقال ضرار ابن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى هذا ما وعد الله رسوله ﷺ . وتابعوا التكبير حتى أصبحوا .^(١)

٩ - **الملائكة تنزل لسماع تلاوة القرآن** : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أسيده بن حضير رضي الله عنه بينما هو ليلة يقرأ في مربه إذ جالت فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضاً قال أسيده : فخشيت أن تطأ يحيى فقمْتُ إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها قال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربي إذ جالت فرسي فقال رسول الله ﷺ : ((اقرأ ابن حضير)) قال فقرأت ثم جالت أيضاً فقال رسول الله ﷺ : ((اقرأ ابن حضير)) قال : فقرأت ثم جالت أيضاً فقال رسول الله ﷺ : ((اقرأ ابن حضير)) قال : فأنصرفت وكان يحيى قريباً منها خشيت أن

^١ - ذكره الطبري في ((تاريخه)) (٢ / ٤٥٥) ، والكلاعي في ((الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله)) (٤ / ٢٦٦)

تَطَاهُ فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوْ حَتَّى مَا أَرَاهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ)) . (١)

١٠ . الملائكة تحضر مجالس الذكر والعلم : عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الدِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ: فَيَحْفَوْنَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ : مَا يَقُولُ عِبَادِي . قَالَ: تَقُولُ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ : يَقُولُونَ : هَلْ رَأَوْنِي . قَالَ: فَيَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ . قَالَ : يَقُولُ : وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي . قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا . قَالَ : يَقُولُ فَمَا يَسْأَلُونِي . قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ . قَالَ: يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا . قَالَ : يَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا . قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا . قَالَ: يَقُولُونَ : لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً . قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّدُونَ . قَالَ : يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ . قَالَ: يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا . قَالَ: يَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا . قَالَ : يَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا . قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً . قَالَ: يَقُولُ : فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ . قَالَ : يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : فِيهِمْ فَلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ . قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)) . (٢)

١١- الملائكة تصلي على المؤمنين وأهل العلم : قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ

لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٤٣]

وعن أبي أمامة الباهلي ؓ قال: ذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)) . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْخُوتُ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ)) . (٣)

١٢ . الملائكة تنزل على أهل الاستقامة ويحملون البشري لهم : قال الله

تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا

^١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((صلاة المسافرين وقصرها)) باب ((نزول السكينة لقراءة القرآن)) حديث (٧٩٦) .

^٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الدعوات)) باب ((فضل ذكر الله عز وجل)) حديث (٦٠٤٥) .

^٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) في كتاب ((العلم عن رسول الله ﷺ)) باب ((ما جاء في فضل الفقه على العبادة)) حديث (٢٦٨٥) .

وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ [سورة فصلت آية: ٣٠] عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ : ((أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ ؟ . قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ . قَالَ : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرِيهَا ؟ . قَالَ : لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ)) . (١)

١٣. الملائكة تستغفر للمؤمنين : قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة غافر آية: ٧] وقال تعالى :

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة الشورى آية: ٥].

١٤. الملائكة موكلة بقبض الأرواح ويسلمون على الصالحين عند

موتهم : قال الله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا

الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٣٢]

١٥ . والملائكة تتولي حضور جنازتهم وتغسلهم : عن محمود بن لبيد أن حظلة

بن أبي عامر ؓ أخو بني عمرو بن عوف أنه التقى هو وأبو سفيان بن حرب يوم أحد فلما استعلاه حظلة رآه شداد بن الأسود وكان يقال له ابن شعوب قد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله، فقال رسول الله ﷺ : ((إن صاحبكم يعني حظلة لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه)) . فسئلت صاحبه فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة . فقال رسول الله ﷺ : ((لذلك غسلته الملائكة)) . (٢) وعن عاصم بن عمر بن قتادة قال: لما نام رسول الله ﷺ حين أمسى أتاه جبريل، أو قال: ملك فقال من رجل من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء . فقال ﷺ : ((لا إلا أن يكون سعد فإنه أمسى دنفا ما فعل سعد ؟)) . قالوا : يا رسول الله قد قبض وجاءه قومه فاحتملوه إلى دارهم قال: فصلى رسول الله ﷺ الفجر ثم خرج وخرج الناس فبت رسول الله ﷺ الناس مشيا حتى إن شسوع نعاظم لتقطع من أرجلهم وإن أرديتهم لتسقط عن عواتقهم فقال رجل: يا رسول الله بتت الناس . فقال: ((إني أخشى أن تسبقنا إليه الملائكة كما سبقتنا إلى

١ (أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البر والصلة والآداب)) باب ((في فضل الحب في الله)) حديث (٢٥٦٧) .

٢ (- أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١ / ٣٥٧) ، وابن إسحاق في ((سيرته)) (٣ / ٣١٢) .

حظلة)) . قال محمد : فأخبرني أشعث بن إسحاق قال : فحضره رسول الله ﷺ وهو يغسل قال : فقبض رسول الله ﷺ ركبتيه فقال: ((دخل ملك ولم يكن له مجلس فأوسعت)) . الحديث (١)

١٦ - الملائكة تحتفي بجنائز المؤمنين وتشيعهم : عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: أصيب أبي يوم أحد فجعلتُ أكشف الثوب عن وجهه وأبكي وجعلوا ينهونني ورسول الله ﷺ لا ينهاني قال: وجعلتُ فاطمة بنتُ عمرو تبكيه فقال رسول الله ﷺ : ((تبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتُموه)) . (٢)

وكذلك لهم عملهم في الكون وفي تدبير أموره، ياذن ربهم ﷻ، من توكلهم بإرسال الرياح والسحاب وإنزال المطر، وإنبات النبات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله ﷻ، ولذلك أقسم بهم ربهم تبارك وتعالى فقال : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ۝ وَالنَّشِيطَاتِ ذُشُّطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ ﴾ [سورة النازعات آية: ١-٥] هذه صفات ملائكة الموت . وغيرها من أحوالهم عليهم السلام مما يجب على المؤمن أن يعتقد به ويؤمن به ويرعى الأدب معهم وحقوق صحبتهم .

٣ - ﴿ قيمة الإيمان با لكتب السماوية ﴾

((الكتب)) : جمع ((كتاب)) من : كتب من باب نصر، وكتابا أيضا وكتابة، والكتاب أيضا : الفرض والحكم والقدر. والكتاب عند العرب العالم . ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [سورة الطور آية: ٤١] (٣)

و((الكتاب)) : هو القرآن المنزل على رسول الله ﷺ، المكتوب في دفات المصاحف المنقول إلينا على الأحرف السبعة المشهورة، نقلا متواترا، لأن ما دون المتواتر لا يبلغ درجة العيان، ولا يثبت بمثله القرآن مطلقا . (١)

^١ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٧ / ٣٧٤) حديث (٣٦٧٩٧) ، وأحمد في ((فضائل الصحابة)) (٢) /

(٨١٩) .

^٢ - متفق عليه .:

^٣ - ((مختار الصحاح)) ص (٢٣٤) .

أما لفظ ((القرآن)) فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [سورة القيامة آية: ١٧ - ١٨] ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسما للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله .
(٢)

والقرآن في الاصطلاح : هو الكلام المنزل على سيدنا محمد ﷺ المعجز بسورة منه .
فقولنا : ((الكلام)) جنس شامل لجميع الكلام . وقولنا : ((المنزل على سيدنا محمد)) : فصل مخرج للكلام المنزل على غيره من الأنبياء، كالتوراة والإنجيل وسائر الكتب والصحف . وقولنا : ((المعجز)) فصل ثان مخرج للأحاديث الربانية كحديث الصحيحين : ((أنا عند ظن عبدي بي)) . وقولنا : ((بسورة منه)) : بيان لأقل ما يحصل به الإعجاز، وهو قدر أقصر سورة، كالكوثر، وإنما كان أقل الإعجاز بأقل سورة لأنه لم يكن في القرآن آية مفردة، بل الآية تستلزم مناسبة لما قبلها وما بعدها، فتكون ثلاث آيات . وزاد بعضهم في الحد فقال : ((المتعبد بتلاوته)) ليخرج منسوخ التلاوة . (٣)

والقرآن الكريم كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء، بدين عام خالد ختم به الأديان، فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، أنهى إليه منزلة كل تشريع، وأودعه كل نهضة، وناط به كل سعادة، وهو حجة الرسول وآيته الكبرى، يقوم في فم الدنيا شاهدا برسائله، ناطقا بنبوته، دليلا على صدقه وأمانته، وهو ملاذ الدين الأعلى يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه، وهو عماد لغة العرب الأسمى، تدين له اللغة في بقائها وسلامتها، وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها، وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها، وهو أولا وآخر القوة المحولة التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، وحولت مجرى التاريخ، وأنقذت الإنسانية

^١ - ((أصول السرخسي)) (١ / ٢٧٩) .

^٢ - ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) للزرقاني (١ / ١١) .

^٣ - ((القواعد الأساسية في علوم القرآن)) للدكتور محمد علوي المالكي ص (٩ - ١٠) .

العائرة، فكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً، لذلك كله كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ومن سلف الأمة وخلفها جميعاً إلى يوم الناس هذا . (١)

ومن أوجب الإيمان بالكتب المنزلة : الإيمان بالقرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ، وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رُسُلِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة النساء آية: ١٣٦] وقال: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ءَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ءَوَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَاغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [سورة البقرة آية: ٢٨٥] وقال: ﴿ ءَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزَلَ مِن قَبْلِكَ ءَوَالْآخِرَةُ هُمْ يُوَفُّونَ ﴿٢٨٥﴾﴾ [سورة البقرة آية: ٢٨٥] وغير ذلك من الآيات في هذا المعنى، وروينا في حديث ابن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ حين سئل عن الإيمان فقال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)) . والإيمان بالقرآن يتشعب شعباً فأولها : بأنه كلام الله تبارك وتعالى، وليس من وضع محمد ﷺ ولا من وضع جبريل عليه السلام . والثانية : الاعتراف بأنه معجز النظم لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يقدرُوا عليه . والثالثة : اعتقاد أن جميع القرآن الذي توفي النبي ﷺ عنه هو هذا الذي في مصاحف المسلمين لم يفت منه شيء، ولم يضع بنسيان ناس ولا ضلال صحيفة ولا موت قارئ ولا كتمان كاتب، ولم يحرف منه شيء، ولم يزد فيه حرف ولم ينقص منه حرف . (٢)

وللقرآن الكريم مزايا تميز بها عن الكتب السماوية التي تقدمته، ومنها :

(١) - أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية التي تضمنتها التوراة والإنجيل وسائر ما أنزل الله من وصايا، وأنه مؤيد للحق الذي جاء بها من عبادة الله وحده، والإيمان برسله، والتصديق بالجزاء، ووجوب إقامة الحق، والتخلق بمكارم الأخلاق . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَالِكِتَبَ بِالْحَقِّ

١ - ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) (١ / ٨) .

٢ - ((شعب الإيمان)) (١ / ١٨٥ - ١٩٠) .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ۝ [سورة المائدة آية: ٤٨]

ثم نسخت الكثير من الأحكام العملية السابقة بالشرعية الإسلامية، والأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، وأصبحت العقيدة واحدة، والشرعية واحدة للناس جميعاً.

٢ - جعل الله تعالى فيه نظم بناء المجتمعات بناء سليماً، فترى فيه أسس تكوين الأمم ومواثيقها ومعاهداتها، وتقنين قوانينها بما يتعلق بالفرد والمجتمع ويكفل مصالحهم ويسمو بأخلاقهم وقيمهم .

٣ - أنه دعا إلى العلم ومنهج النظر، ونهى عن التقليد الأعمى، ورفع قيمة العلم وأهله، وكفل حقوق جميع الأجناس من ذكر وأنثى، عربي أو أعجمي فالكل في شريعته سواء تتساوى فيه جميع الحقوق لسائر بني آدم من كرامة وعدل... إلخ .

٤ - أنه المنهج الأسمى الذي جمع المبادئ السامية والقيم الفاضلة في جميع مناحي الحياة من حيث العقائد والعبادات والآداب والمعاملات والنظم .

٥ - أنه المنهج الأقوم الذي كفل للبشرية منهج تنشئة الفرد والأسرة الفاضلة، والمجتمعات الصالحة، والحكومات العادلة لتحقيق خلافة الله في الأرض بعباده الصالحين .

لذلك كان الإيمان بالقرآن من أوجب واجبات الإيمان وتصديق رسول الله ﷺ. وكذلك الإيمان بسائر الكتب السابقة عليه في النزول، وهي على ما علمناه من الوحي الشريف جملة وتفصيلاً، فأما الجملة فالإيمان بكل الكتب والصحف التي أنزلها الله على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وهي على عددهم، وعددهم كثير، منهم من أخبرنا الله عنه في القرآن، ومنهم من لم يخبرنا عنه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة غافر آية: ٧٨] وقد جاء حصر عددهم عن رسول الله ﷺ في حديث أبي ذر رضى الله عنه قال: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي)). قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ((ثلاثمائة وثلاثة عشر)).^(١)

^١ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٢ / ٦٥٢) حديث (٤١٦٦) . والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١ / ١٤٩) وابن عساکر في ((تاریخ مدینة دمشق)) (٢٣ / ٢٧٧) .

ومما ذكر من هذه الكتب :

(١) - صحف إبراهيم عليه السلام : وهي ما أخبرنا الله تعالى عنها، وذكرها في كتابه فقال تعالى:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة النجم آية: ٣٦ - ٣٧] وقال

سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الأعلى آية: ١٨ - ١٩]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ . قال : ((كانت أمثالا كلها أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لتزد عني دعوة المظلوم فإني لا أردّها، وإن كانت من كافر وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله، أن تكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته في المطعم والمشرّب، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا ثلاث، تزود لمعاد أو مرمّة لمعاش أو لذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه، حافظا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه)) . (١)

(٢) - التوراة : اسم عبراني، وقد تكلف النحاة في اشتقاقها، وفي وزنها وذلك بعد تقرير النحاة أن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاق، وأنها لا توزن، يعنون اشتقاقاً عربياً .

فأما اشتقاق : التوراة، ففيه قولان : أحدهما : إنها من : وري الزند يري، إذا قدح وظهر منه النار فكان التوراة ضياء من الظلال، وهذا الاشتقاق قول الجمهور.

وذهب أبو فيد مؤرخ السدوسي إلى أنها مشتقة من : ورى ، كما روي أنه ﷺ كان إذا أراد سفراً ورى بغيره ، لأن أكثر التوراة تلويح . (٢)

وهي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام وأمر النبيين من بعده أن يقيموا أحكامه، لأن الله ﷻ أرسلهم ولم يرسل معهم كتباً، بل جعل التوراة كتابهم وشرعتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ مِّمَّا يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا

^١ - أخرج الهيثمي في ((موارد الظمآن)) (١ / ٥٣) وذكره ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٩ / ١٩٩) ، والمنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣ / ١٣١) حديث (٣٣٧٨) .

^٢ - موقع ويكيبيديا .

أَسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِحَايَتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ [سورة المائدة آية: ٤٤]

وقد فرض الله تعالى الإيمان بالتوراة كإيماننا بالقرآن : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا
أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٣٦]

والتوراة الموجودة اليوم هي ما يطلق على الشريعة المكتوبة، كما يطلق لفظ ((التلمود))
على الشريعة الشفهية . والتوراة الموجودة اليوم تشتمل على خمسة أسفار وهي:

١- سفر التكوين : ويتحدث هذا السفر عن خلق العالم، وظهور الإنسان، وطوفان نوح،
وولادة إبراهيم إلى موت يوسف عليه السلام .

٢- سفر الخروج : ويتحدث عن حياة بني إسرائيل في مصر، منذ أيام يعقوب إلى خروجهم إلى
أرض كنعان مع موسى ويوشع بن نون .

٣- سفر اللاويين : نسبة إلى لاوي بن يعقوب، وفي هذا السفر حديث عن الطهارة،
والنجاسة، وتقديم الذبائح، والنذر، وتعظيم هارون وبنيه .

٤- سفر العدد : يحصي قبائل بني إسرائيل منذ يعقوب، وأفرادهم ومواشيهم .

٥- سفر التثنية : وفيه أحكام وعبادات، وسياسة واجتماع واقتصاد، وثلاثة خطابات لموسى
عليه السلام .

هذه هي التوراة الموجودة اليوم، وكل عاقل منصف فضلاً عن المسلم المؤمن يعلم براءة
التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام مما هو موجود في التوراة اليوم، وذلك لأمر عديدة منها:

- ١- ما حصل للتوراة من الضياع والنسخ والتحريف والتدمير، فلقد حُرِّفَ فيها وبُدِّلَ.
- ٢- ما تشتمل عليه من عقائد باطلة لا تمت إلى ما جاء به المرسلون بأدنى صلة .
- ٣- اشتغالها على تنقص الرب ﷻ وتشبيهه بالملخوقين تعالى الله عما يقول الظالمون علواً
كبيراً .

٤- اشتغالها على سب الأنبياء والطعن فيهم .

٥- اشتغالها على المغالطات والمستحيلات والمتناقضات .

٦- أن المعركة التي قامت بين التوراة وحقائق العلم الحديث أثبتت ما في التوراة من الأخطاء
العلمية .

ومن أهم تلك الكتب التي تكلمت عن هذا الموضوع كتاب: ((التوراة والإنجيل والقرآن)) لعالم فرنسي اسمه ((مورييس بوكاي)) حيث أثبت وجود أخطاء علمية في التوراة والإنجيل، و أثبت في الوقت نفسه عدم تعارض القرآن مع العلم الحديث وحقائقه، بل سجل شهادات تفوق سبق القرآن فيها العلم بألف وأربعمائة عام . (١)

٣ - الزبور : من الكتب السماوية، أنزله الله ﷻ على داود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [سورة النساء آية: ١٦٣] وكان داود عليه السلام كثير القراءة في الزبور، الذي سماه الرسول ﷺ قرآنا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَائِتِهِ لِتُسْرَجَ فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ يَعْنِي الْقُرْآنَ)) . (٢) وأنزل الله ﷻ في الزبور المواعظ الغالية، و الشاء عليه ﷻ، ولم ينزل الله فيه أحكام الحلال والحرام؛ لأنهم كانوا يأخذون أحكامهم من التوراة، وقد اشتمل أيضا على التلويح والتلميح بصفة النبي ﷺ كما أخبر عن هذا من هداهم الله تعالى للإسلام . (٣)

٤ - الإنجيل : ((الإنجيل)) عربي مشتق من نجلت الشيء: استخرجته . كأنه أمر أبرز وأظهر بما فيه . (٤) والإنجيل : هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على سيدنا عيسى عليه السلام قال تعالى : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة آية: ٤٦]

الإنجيل بعد عيسى عليه السلام :

الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأنجيل، ورسائل الرسل. وتسمى التوراة العهد القديم، وتسمى الأنجيل ورسائل الرسل العهد الجديد، فالعهد الجديد هو الذي يشتمل على أناجيلهم، والأنجيل المعتمدة عند النصارى أربعة هي :

١- إنجيل يوحنا. ٢- إنجيل مرقس. ٣- إنجيل متى. ٤- إنجيل لوقا.

وهناك أناجيل أخرى مثل إنجيل برنابة، وأناجيل أخرى أهملت، وهناك أناجيل لا تعترف بها الكنيسة لكونها جاءت فيها البشارة بالنبي ﷺ تصریحا أو تلمیحا، ككتاب أخنوخ مثلا، وإنجيل

^١ - ((الإيمان بالكتب)) للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد ص (١٥ - ١٧) .

^٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((التفسير)) باب ((وآتينا داود زبوراً)) حديث (٤٤٣٦) .

^٣ - أنظر كتاب ((إفحام اليهود)) للسموأل المغربي .

^٤ - مقاييس اللغة (٥ / ٣٩٥) .

برئاسة . وقد بين كثير من العلماء المسلمين قديماً وحديثاً، ومن علماء النصارى الذين دخلوا في الإسلام، أو المتحررين منهم من ربطة التقليد عدم صحة هذه الأناجيل الموجودة في أيدي النصارى، ووجهوا إليها انتقادات كثيرة .

ومن هؤلاء العلماء المحدثين الشيخ رحمة الله الهندي رحمه الله تعالى في كتابه ((إظهار الحق))، والشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في كتاب ((محاضرات في النصرانية))، ومن علماء النصارى الذين أسلموا إبراهيم خليل أحمد كما في كتابه ((محاضرات في مقارنة الأديان)) .

ولقد وقع في الأناجيل كثير من تلاعب النساخ وتبديلهم وتحريفهم ، فضلا عن انقطاع السند في نسبتها لكتابتها، واشتمالها على تنقص الرب ﷺ وعلى نسبة القبائح للأنبياء عليهم السلام و اشتمالها على العقائد الباطلة المخالفة للنقل والعقل، وتعارضها مع الحقائق العلمية، كما أثبت ذلك عدد من العلماء؛ منهم موريس بوكاي، وخلوها من أي تصور محدد لنظام سياسي، أو اجتماعي، أو اقتصادي، أو علمي .

﴿ حكم الكتب السماوية قبل وبعد التحريف ﴾

المسلم يؤمن أن هذه الكتب نزلت من عند الله، وهي تدعو إلى توحيد الله وعدم الشرك به ﷻ، وهذا أساس في الإسلام من أسس العقيدة التي لا بد أن تستقر في قلوب المسلمين، وتعظيم حرمة هذه الكتب كتعظيم حرمة القرآن الكريم، وتعظيم الرسل الذين جاءوا بها كتعظيمهم وإيمانهم بسيدنا محمد ﷺ، وذلك لأن هذه الكتب دعت إلى التوحيد، وهو أصل كل الرسالات . ويؤمن المسلم أن الغاية من إنزال هذه الكتب هي هداية البشر إلى طريق الله المستقيم، وإزالة ما بينهم من اختلاف، وتبشيرهم برضوان الله ﷻ إن أطاعوه، وبعذابه إن عصوه. لكن الكتب السماوية -غير القرآن- لم تبقَ على الصورة التي أنزلها الله عليها، لأنها تعرضت للتحريف والتبديل، واختلط فيها كلام البشر بكلام الله ﷻ وقد ذكر الله تعالى في القرآن هذا التحريف الذي وقع في هذه الكتب، وقد أخذت صوراً شتى، وقد ذكر منها القرآن بعضها كإخفاء الآيات، وخاصة تلك الآيات التي بشرت بالنبي الخاتم محمد ﷺ وما جاء في شأنه من البشارات بوصفه ونعته، وقد فضح الله مكرهم في خطاب مباشر لهم فقال تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ

كَثِيرٌ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥٨﴾ [سورة المائدة آية: ٥٨] ومن هذه الصور التحريفية : التأويل الخاطي للآيات والإلحاد فيها بتغيير نطقها ولفظها ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ٧٨] وتبديل مواضع الآيات عن مواضعها قال تعالى: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَزْبًا لِقَوْمِ الْكَافِرِينَ هَؤُلَاءِ عِشْرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أَوْسَعُ مِنْ أَلْسِنِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِبُيُوتِهِمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء آية: ٤٦] وإضافة شيء ليس من الكتاب محاربة لله ورسوله من أجل إنكار الحق واتباع الهوى قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٧٩]

تحريف التوراة : إن الإيمان بالتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ركن من أركان الإيمان، والمسلم يؤمن بأنها اشتملت على كل خير، وجاءت بتوحيد الله تعالى وكانت نوراً وهدى. قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِحَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة المائدة آية: ٤٤] إلا أن التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام غير موجودة كما أنزلت، أما التوراة المتداولة الآن، فقد قام بكتابتها أكثر من كاتب وفي أزمان مختلفة، وقد دخل عليها التحريف والتبديل .

ومن أدلة التحريف الحسية أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف المتداولة عند اليهود، وقد أثبت القرآن هذا التحريف وعاب على اليهود تغييرهم وتبديلهم في التوراة . قال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٧٥] إنهم تجرؤوا على كتاب الله، فحرفوه ليخفوا ما

جاء فيه من الحق، وكل ما يثبت نبوة محمد ﷺ، وكانوا يعرفون النبي ﷺ كمعرفتهم آبائهم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ قَدِيمٍ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة آية: ١٤٦] ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون، حتى مع التحريف وإرادتهم إخفاء الحق واتباع الهوى، وإنكار نبوة خاتم النبيين والمرسلين ﷺ إلا أنهم قد أُثِّمُوا من حيث أخذوا الحذر، فما تزال البشارة به ﷺ في كتبهم إلى الآن حتى بعد تحريفهم وتبديلهم والله متم نوره، فسخر الله تعالى عباده له تخصصوا في مثل هذه المجالات، فاستخرجوا من كتبهم العديد من البشارات والأدلة على نبوته ورسالته ﷺ وهذا طرف منها :

﴿ صور من البشارات بالنبي ﷺ في الكتب السابقة ﴾

((أولاً)): فيما يسمى بالعهد القديم : جاء في الفصل العشرين: ((إن الرب جاء من طور سينين، وطلع لنا من ساعير، وظهر من جبل فاران، ومعه عن يمينه ربوات القديسين فمنحهم العز، وحببهم إلى الشعوب، ودعا بجميع قديسيه بالبركة)) . وهذه البشارة كادت أن تكون محل إجماع وقبول ممن كتب في هذا الجانب على أنها خاصة بالدلالة على النبي ﷺ . لأن ((فاران)) هي مكة وأرض الحجاز، وقد سكنها إسماعيل عليه السلام، ونصت على ذلك التوراة : ((وأقام في بركة فاران، وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر)) وإذا كانت التوراة أشارت إلى نبوة تنزل على جبل فاران لزم أن تلك النبوة على آل إسماعيل عليه السلام، لأنهم سكان فاران .

وقد أورد المهتدي الإسكندراني هذه البشارة باللغة العبرية ثم ترجمها إلى اللغة العربية ونص ترجمته هكذا: ((جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران، وظهر من ربوات قدسه عن يمينه نور وعن شماله نار، إليه تجتمع الأمم، وعليه تجتمع الشعوب)) . وقال: إن علماء بني إسرائيل الشارحين للتوراة شرحوا ذلك وفسروه بأن النار هي سيف محمد ﷺ القاهرة، والنور هي شريعته الهادية ﷺ . (١)

^١ - ((بشارات العهد القديم بمحمد ﷺ)) للدكتور محمد عبد الله السحيم ص (٨ - ٩) .

وقد بقي من هذه البشارة بقيّة في التوراة؛ ففي سفر التثنية الإصحاح (١٧ - ١٨ - ١٩) على لسان موسى عليه السلام: ((قال لي الرب : قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوانهم مثلك، وأجعل كلامي في فمهم، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه)) .

والنّص يصف تبشير الله تعالى لموسى عليه السلام بنبيّ سوف يبعثه من وسط إخوة بني إسرائيل، وأن هذا النبي سيكون مثل موسى عليه السلام، ويُخبر النص أيضاً: أن الذي لا يتبع هذا النبي ولا يسمع لكلامه، فإن الله تعالى سوف يعاقبه. إن البشارة تشترط شرطين : الأول أن ذلك النبي من وسط إخوة بني إسرائيل، والثاني أنه مثل موسى . وهذان الشرطان لا ينطبقان على يوشع بن نون عليه السلام، ولا على المسيح عليه السلام لأنهما كانا من بني إسرائيل، وليسا من وسط إخوة بني إسرائيل، ولو كان المراد واحداً منهما، لقال: ((أقيم لهم نبياً منهم)) . بل لم يكن هناك داعٍ لتحديد من أين يخرج ذلك النبي؛ لأن خروجه من بني إسرائيل هو أمر مألوف لا يحتاج لتوضيح أو تحديد . وكذلك وُلد كلٌّ من موسى ومحمد عليهما السلام نتيجة حملٍ طبيعي، وكذلك تزوج كل من موسى ومحمد عليهما السلام قبل تلقي الرسالة الإلهية، وكانت لهما ذرية، كلاهما عدّد زوجاته بعد الرسالة، وكانا عليهما الصلاة والسلام رجلا حرب .

والكتاب المقدّس نفسه ينفي أن بني إسرائيل قد قام فيهم نبيّ مثل موسى بعده، فقد جاء في سفر التثنية الإصحاح (٣٤ - ٥ : ١١): ((ولم يقم بعدُ نبي في بني إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الربُّ وجهاً لوجه في جميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون، وبجميع عبيده وكل أرضه)) .

وجاء في سفر إشعياء: الإصحاح الحادي والعشرون : ((13 وَخِي مِنْ جَهَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ: فِي الْوَعْرِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ تَبِيْتَيْنِ يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ. ١٤ هَآثُوا مَاءً لِمَلَأَقَةِ الْعَطْشَانِ يَا سُكَّانَ أَرْضِ تِيْمَاءَ. وَأَقُوا الْهَارِبَ بِخَبْزِهِ. ١٥ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُوقِ وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ. ١٦ فَإِنَّهُ هَكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ: «فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الْأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدٍ قِيدَارَ ١٧ وَبَقِيَّةُ عَدَدٍ قِسِيَّ أَبْطَالِ بَنِي قِيدَارَ تَقِلُّ لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَلَّمَ)) .

تفيد هذه البشارة أن الله أوحى إلى أشعيا بأن وحياً سيأتي من جهة بلاد العرب، وأن تلك الجهة من بلاد العرب هي الوعر التي تبست فيها قوافل الددانيين، وددان قرب المدينة النبوية المنورة كما تدل على ذلك الخرائط القديمة . ويأمر الوحي الذي تلقاه أشعيا أهل تيماء أن يقدموا

الشراب والطعام لهارب يهرب من أمام السيوف، ومجيء الأمر بعد الإخبار عن الوحي الذي يكون من جهة بلاد العرب قرينة بأن الهارب هو صاحب ذلك الوحي الذي يأمر الله أهل تيماء بمناصرتة : ((١٤ هَاتُوا مَاءً لِمَلَأَقَاةِ الْعَطْشَانِ يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ . وَأَفُوا الْهَارِبَ بِخُبْرِهِ)) . و أرض تيماء منطقة من أعمال المدينة، وفيها يهود تيماء الذين انتقل معظمهم إلى يثرب. ويذكر المؤرخون الإخباريون العرب نقلا عن اليهود في الجزيرة العربية أن أول قدوم اليهود إلى الحجاز كان في زمن موسى عليه السلام عندما أرسلهم في حملة ضد العماليق في تيماء، وبعد قضائهم على العماليق وعودتهم إلى الشام بعد موت موسى منعوا من دخول الشام بحجة مخالفتهم لشريعة موسى لاستبقائهم ابنا الملك العماليق . فاضطروا للعودة إلى الحجاز والاستقرار في تيماء، ثم انتقل معظمهم إلى يثرب. فأهل يثرب من اليهود هم من أهل تيماء المخاطبين في النص .

وكان تاريخ مخاطبة إشعياء لأهل تيماء في هذا الإصحاح هو النصف الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد. ويفيد الوحي إلى إشعياء أن الهارب هرب ومعه آخرون: ((١٥ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا . مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُوفِ وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ)) .

ثم يذكر الوحي الخراب الذي يحل بمجد قيدر بعد سنة من هذه الحادثة ، مما يدل على أن الهروب كان منهم، وأن عقابهم كان بسبب تلك الحادثة : ((١٦ فَإِنَّهُ هَكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ: فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الْأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدِ قَيْدَارَ ١٧ وَبَقِيَّةُ عَدَدٍ قِسِيِّ أَبْطَالِ بَنِي قَيْدَارَ تَقُلُّ)) .

وتنطبق هذه البشارة على محمد ﷺ وهجرته تمام الانطباق، فقد نزل الوحي على محمد ﷺ في بلاد العرب، وفي الوعر من بلاد العرب، في مكة والمدينة. وهاجر الرسول ﷺ من مكة من أرض بني قيدر قريش الذين كانوا قد عينوا من كل بطن من بطونهم شاباً جليداً ليجمعوا لقتل محمد ﷺ ليلة هجرته، فجاء الشباب ومعهم أسلحتهم فخرج الرسول ﷺ مهاجراً، فتعقبته قريش بسيوفها وقسيها كما تذكر العبارة : ((١٥ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا . مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُوفِ وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ)) .

ثم عاقب الله قريشاً أبناء قيدر بعد سنة ونيف من هجرته ﷺ بما حدث في غزوة بدر من هزيمة نكراء أذهبت مجد قريش، وقتلت عدداً من أبطالهم : ((١٦ فَإِنَّهُ هَكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ: فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الْأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدِ قَيْدَارَ ١٧ وَبَقِيَّةُ عَدَدٍ قِسِيِّ أَبْطَالِ بَنِي قَيْدَارَ تَقُلُّ)) .

وإن ما حملته هذه البشارة من معانٍ لا بد أن يكون قد وقع، لأنه يقع في عصر آلة الحرب فيه السيف والنبل، وقد انتهى عصر الحرب بالسيف والنبل . فهل نزل وحي في بلاد العرب غير

القرآن ؟. وهل هناك نبي هاجر من مكة إلى المدينة واستقبله أهل تيماء غير محمد ﷺ ؟! وهل هناك هزيمة لقريش بعد عام من الهجرة إلا على يد رسول الله ﷺ في غزوة بدر ؟! . إن هذه البشارة تدل على صدق رسالة محمد ﷺ، وأنها إعلان إلهي عن مقدمه ينقلها أحد أنبياء بني إسرائيل أشعياء، وبقي هذا النص إلى يومنا هذا على الرغم من حرص كفرة أهل الكتاب على التحريف والتبديل .

نزول الوحي وذكره في العهد القديم : ويذكر كتاب إشعياء الطريقة التي أنزل بها القرآن، وكون الرسول أميا لا يعرف الكتابة ولا القراءة، في سفر إشعياء (٢٩ : ١٢) هذا نصها: ((١٢ أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لَا يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ هَذَا . فَيَقُولُ: لَا أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ. أَيْ "مَا أَنَا بِقَارِئٍ")) . ومن لا يعرف الكتابة فهو لا يعرف القراءة، و أليس هذا هو عين ما نزل على النبي ﷺ في البدايات الأولى للوحي حينما نزل عليه جبريل عليه السلام وهو يتحنث في غار حراء فقال له : ((اقْرَأْ هَذَا)) .

ذكره ﷺ في زبور داود عليه السلام ((المزامير)) : عن الآتي باسم الرب ((المزمور ١١٨/٢١-٢٥)): ((٢٠ هَذَا الْبَابُ لِلرَّبِّ . الصَّادِقُونَ يَدْخُلُونَ فِيهِ . ٢١ أَحْمَدُكَ لِأَنَّكَ اسْتَجَبْتَ لِي وَصِرْتَ لِي خَلَاصًا . ٢٢ الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّوَايَةِ . ٢٣ مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا . 24 هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ . نَبْتَهِجْ وَنَفْرَحْ فِيهِ . ٢٥ آه يَا رَبُّ خَلِّصْ ! آه يَا رَبُّ أَنْقِذْ ! ٢٦ مُبَارَكَ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ . بَارَكْنَاكَ مِنْ بَيْتِ الرَّبِّ . ٢٧ الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ وَقَدْ أَنَارَ لَنَا . أَوْثَقُوا الدَّبِيحَةَ بِرَبْطٍ إِلَى قُرُونِ الْمَذْبَحِ . ٢٨ إِلَهِي أَنْتَ فَأَحْمَدُكَ . إِلَهِي فَأَرْفَعُكَ . ٢٩ احْمَدُوا الرَّبَّ لِأَنَّهُ صَالِحٌ لِأَنَّ إِلَى الْأَبَدِ رَحْمَتُهُ)) . (١)

وهذا هو الوصف الذي وصف به النبي ﷺ نفسه فيما روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا بُيْتًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبْنَةِ فَكُنْتُ أَنَا هَذِهِ اللَّبْنَةُ)) . (٢) إنه الحجر الذي تمت به النبوات .

١ - كتاب ((البارقليط)) للباحث زهدي جمال الدين محمد كتاب الكتروني :

<http://www.ebnmaryam.com/web/modules.php?name=myBooks2&op=open&cat=4&book=284>

٢ - متفق عليه .

والحديث السابق يجعل النبي ﷺ في ختامه للرسالات ومكانته بين الأنبياء، مثل حجر الزاوية أو اللبنة الأساسية التي لا يكتمل البناء ولا يتم حسنه وجماله إلا بها .

صفته ﷺ في العهد الجديد رغم التحريف الذي به : وما ورد في العهد الجديد

((الإنجيل)) في رؤيا يوحنا : Rv:19:11 : ((ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب)) .

والنص واضح بصفة النبي ﷺ ((الصادق الأمين)) . خاصة وأن يوحنا هذا عندهم كان بعد عيسى عليه السلام والرؤيا دالة على أن هذا حادث في المستقبل وقد تحقق بمجيء الصادق الأمين ﷺ .

وهناك الكثير والكثير من البشارات بالنبي ﷺ الواقعة فيما بين أيديهم من كتب للعهد الجديد والعهد القديم حتى بعد التحريف وإرادتهم طمس الحقيقة، وكأن الله تعالى طمس عقولهم وبصائرهم فأوقعهم فيما فروا منه، لأنه يريد إظهار نوره ولو كره الكافرون، وقد اختصرنا من ذكر هذه البشارات خشية الإطالة، فهناك الكثير منها في كتبهم التي يعتمدونها، وفي تلك الكتب التي لا يعتمدونها ويسمونها أسفاراً غير قانونية، كإنجيل برنابة الذي ذكر فيه النبي ﷺ باسمه صريحاً في أكثر من موضع منه، وقد كانت المفاجأة الخطيرة باكتشاف مخطوطات له ثبتت قدمها في تركيا مؤخراً، وقبلها فيما يعرف بمخطوطات البحر الميت ((مخطوطات قمران)) . (١)

هل نؤمن بهذه الكتب المحرفة ؟

كما سبق تقريره أن الكتب التي نزلت قبل القرآن ضاعت نُسخُها الأصلية، ولم يبقَ في أيدي الناس إلا تراجمها، أما القرآن فما يزال محفوظاً بسوره وآياته وكلماته وحروفه، كما تلاه جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، والكتب السابقة قد اختلط فيها كلام البشر بكلام الله، فلا يعرف أحد

(١) - مخطوطات البحر الميت ((قمران)) تضم ما يزيد على ٨٥٠ قطعة مخطوطة، بعضها مما سمي لاحقاً الكتاب المقدس وبعضها من كتب لم تكن تعرف أو كانت مفقودة. أول من عثر عليها هو راع فلسطيني اسمه محمد الديب واكتشف المزيد بين عامي 1947 و ١٩٥٦ في ١١ كهفاً في وادي قمران قرب خربة قمران شمال البحر الميت . وقد أثارت المخطوطات اهتمام الباحثين والمختصين بدراسة نص العهد القديم لأنها تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول منه. وقد اكتشفت في كهوف قرب البحر الميت في موقع خربة "قمران" لذلك فهي تسمى أيضاً "لفائف قمران". المصدر ويكيديا :

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AE%D8%B7%D9%88%D8%B7%D8%A7%D8%AA_%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AD%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%8A%D8%AA

فيها كلام الله من كلام البشر، وأما القرآن فهو جميعه كلام الله ﷻ ولم يختلط بحديث الرسول ﷺ أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم .

إن تحريفاً كثيراً قد وقع في كتبهم، إلا أنه لا تزال فيها بقايا من الوحي الإلهي وهي كثيرة أيضاً، ولا سبيل لمعرفة إلا بموافقتها لما في القرآن الكريم والسنة الصحيحة . وبعد أن علمنا أن الكتب السماوية السابقة قد حرفت وبُذلت ونُسخت بالقرآن الكريم، فإن سؤالاً مهماً يتبادر إلى الذهن هو : ما حكم اطلاع المسلم وقراءته الكتب المقدسة عند أهل الكتاب ؟ .

وبالرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة المتعلقة بهذه المسألة نجد أدلة ظاهرها التعارض، فبعضها يفيد الجواز والآخر يفيد المنع . عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه النبي ﷺ فعضب فقال : ((أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو يبطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعته إلا أن يتبعني)) . (١) وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتبكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴿ [سورة البقرة آية: ٧٩] أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم . (٢)

وأما أدلة جواز الاطلاع على كتب أهل الكتاب فمنها قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ﴿ [سورة يونس آية: ٩٤] وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ﴿ [سورة الرعد آية: ٤٣]

^١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٣ / ٣٨٧) حديث (١٥١٩٥) .

^٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الشهادات)) باب ((لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها)) رقم (٢٥٣٩)

ومن السنة : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)) . (١) والتحديث عن بني إسرائيل يقتضي النظر في كتبهم .

وعن عطاء بن يسار قال: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ : أَجَلَ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٤٥] وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ لَسْتُ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ . قَالَ يُؤْنَسُ : وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ . وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا . (٢)

التوفيق بين الأدلة : قال الحافظ ابن حجر في شرحه لقول النبي ﷺ : ((... وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج...)) أي: لا ضيق عليكم في الحديث عنهم، لأنه كان تقدم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم، ثم حصل التوسع في ذلك، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار . (٣)

ويستفاد من هذا أن الأمر بالإباحة والجواز ليس على إطلاقه، فإن جاء ما في كتبهم موافقاً لما في شرعنا صدقناه وجازت روايته، وما جاء مخالفاً لما في شرعنا كذبناه وحرمت روايته إلا لبيان بطلانه، وما سكت عنه شرعنا توقفنا فيه فلا نحكم عليه بصدق ولا بكذب وتجاوز روايته، وتذكر للاستشهاد لا للاعتقاد . ولا يجوز للقارئ إذا كان النظر فيها على وجه التعظيم والنفخيم لها، أو إذا كان يتشاغل بذلك دون غيرها مما هو مطلوب من علوم الشرع. وأما إذا كان قصد القارئ معرفة ما في كتبهم من الشر لتوقيه وتحذير الناس منه، أو الرد عليهم ببطلان دينهم وتحريف كتبهم ونسخ شريعتهم والتصديق بمحمد ﷺ بما يستخرج من البشارات في كتبهم، فهذا جائز تدل عليه النصوص الشرعية .

^١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الأنبياء)) باب ((ما ذكر عن بني إسرائيل)) حديث (٣٢٧٤) .

^٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((البيوع)) باب ((كراهية السخب في السوق)) حديث (٢٠١٨) .

^٣ - ((فتح الباري)) (٦ / ٤٩٠) .

﴿ ما هو واجب المسلم تجاه هذه الكتب ؟ ﴾

ومن واجب المسلم احترام الكتب المنزلة، وقد حرص العلماء على هذا اقتداء برسول الله ﷺ فقد جاء في زمان قد حرفت فيه التوراة والإنجيل، ونزل عليه في القرآن ما يثبت هذا، ومع هذا حزن لهزيمة الروم أمام الفرس برغم ما هم عليه، لكونهم أهل كتاب سماوي، وكان التحريف واقعا في إنجيلهم، ولم يرد على لسانه ﷺ أنه لعن التوراة الموجودة في أيدي اليهود مع علمه بتحريفهم لها، ونزول الوحي يثبت هذا، وقد أحل الله تعالى طعامهم وذبائحهم، والزواج من الكتابيات، برغم ما هم عليه من بطلان وتحريف وقولهم بألوهية عيسى ﷺ وبنوته لله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، لذا يجب علينا أن نؤمن بأصول هذه الكتب المنزلة من عند الله، وأما المحرفة فنقبل منها الحق الذي يقبله شرعنا، ونرد ما لا يوافق، لذلك تأدب العلماء في احترام الكتب السماوية حتى يكونوا قدوة للعامة لئلا يتجرؤوا بغير علم على كتب الله تعالى المنزلة، وبهذا أفتوا.

﴿ دور علماء الأزهر في ترسيخ قيمة احترام المخالفين في الدين ﴾

لقد كان الأساس في احترام المخالف في الدين هو معاملة النبي ﷺ الحسنة لأهل الكتاب وروى في هذا الكثير عنه ﷺ، وجرى على هذا المنهج أصحابه من بعده، مع علمهم ببطلان ما هم عليه، لكنهم كانوا يحترمونها وشعائهم وآمنوهم على أنفسهم ودور عباداتهم ومعتقداتهم ولم يرغبوا أحدا أن يدخل في الإسلام رغما عنه، مثال هذا صلح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل بيت المقدس وجاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم، وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم

وصلبهم حتى يبلغوا مأمَنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة . (١)

وقد سار منهج الأزهر وسار علماؤه على نهج السلف ﷺ ورسخوا قيمة احترام الأديان السماوية الأخرى واحترام أتباعها، وضمان أمنهم في أنفسهم ودورهم ومعتقداتهم، ودور عباداتهم والمعاملة الحسنة لهم، عملاً بقوله ﷺ فيما رواه عنه أبو ذرٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَبْرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا)) . أو قال : ((ذِمَّةٌ وَصِهْرٌ فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فِيهَا فِي مَوْضِعٍ لَبَنَةٍ فَأَخْرِجْ مِنْهَا)) . (٢)

ولقد أقام علماء الأزهر الشريف أروع الأمثلة في التعامل مع نصارى مصر، حيث تعايشوا معهم بالبر والرحمة والإنصاف، فتربى المصري على التعامل مع أخيه المصري دون تفرقة بسبب الدين، وكذلك الوافدون على الأزهر للتعليم قد غرست فيهم هذه المبادئ، وكان هذا معلماً بارزاً من معالم الشخصية المصرية والإسلامية أوجده وكونه الأزهر بعلمائه ورجاله وفكره وفقهه للدين . (٣)

وسجل التاريخ أن حاكم مصر الوالي عباس الأول كان شديد النقمة على النصارى، وأخرج معظمهم من خدمة الحكومة، وأصابهم بألوان من الأذى والاضطهاد، وقد خطر له أن يخرجهم من مصر ويبعدهم إلى السودان، وعندما أراد استصدار فتوى من الأزهر بجواز ذلك استدعى الشيخ الباجوري شيخ الجامع الأزهر يومئذ وسأله في ذلك، وكان رد الشيخ الباجوري هو رفض رغبة الوالي قائلاً : إنه إذا كان يعني الذميين الذين هم من أهل البلاد، فالحمد لله لم يطرأ على ملّة الإسلام طارئ ولم يستول عليها خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر.

١ - ذكره الطبري في ((تاريخه)) (٢ / ٤٤٩) .

٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((فضائل الصحابة)) باب ((وصية النبي ص بأهل مصر)) حديث (٢٥٤٣) .

٣ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٣٧) .

وفي هذا الموقف لحات قوية يجدر أن ننوه إليها :

((**اللمحة الأولى**)) : أن شيخ الأزهر شيخ الإسلام الباجوري قدم مصلحة النصارى على مصلحة والي مصر عباس الأول ولم يرهبه موقعه أو يخش مركزه .

((**اللمحة الثانية**)) : أن شيخ الأزهر إنما قدم مصلحة مصر في موقفه هذا، لأنه اعتبر المسيحيين جزءاً لا يتجزأ من النسيج الوطني المصري، ورفض أن ينظر إليهم كطائفة فقط يجب أن ينظر إليهم كمواطنين مصريين .

((**اللمحة الثالثة**)) : أن التكفل لغير المسلمين بالحفاظ على حياتهم وأمنهم، يعتبر مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلامية، فمقاصد الشريعة التي هي الحفاظ على الدين والنفس والعقل والعرض والمال، ليست خاصة بالمسلمين فحسب، بل تتعدى للبشرية كلها والإنسانية قاطبة .

((**اللمحة الرابعة**)) : المنهجية الأزهرية تلك هي التي تجعل العالم الأزهرى لا ينطلق في مواقفه وتصرفاته إلا من أسس وخلفيات منهجه وثقافته التي نشأ عليها .^(١)

٤ - ﴿ قيمة الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام ﴾

الرسول الكرام هم صفوة الله من الخلق، وخيرة الله تعالى من عباده، وأبواب رحمته وأسباب نعمته، هم الأطهار الذين اختارهم خالقهم لتبليغ وحيه، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم ، وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن الكفر والفسوق والعصيان، إلى الطاعة والعفاف والإيمان، هم الذين كملهم الله بصفاء الفطرة ونقاء القلب وسمو النفس، وعلو الهمة وسلامة العقل، ونظافة اليد وطهارة المنبت، وجمال الخلق والخلق، والظاهر والباطن .^(٢)

^١ - مقال : ((موقف أزهرى كيف قام الأزهر بتأمين أهل الكتاب بمصر)) بقلم الأستاذ محمد السيد الصياد الأزهرى .

^٢ - ((مباحث في علم التوحيد)) ص (٣٣) .

وهم الرجال المصطفون من بني آدم ﷺ الذين تلقفتهم العناية الإلهية من نشأتهم، لتقيهم أضرار البشرية، وترقى بهم صعدا في مدارج الكمال، ترشح قلوبهم الكبيرة لاستقبال ما يفد به الملائكة الأعلى عن حضرة القدس، فإذا الحكمة تسيل من ألسنتهم، والأسوة الحسنة تقتبس من أعمالهم، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم واتجاهاتهم . ومن هنا فالنبوة التي أوتوها امتداد في المواهب كلها، واكتمال عقلي وعاطفي وبدني، وعصمة من الدنيا، ورسوخ في الفضائل وعراقة في النبل والفضل .

هم الرجال المصابيح الذين هم كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم من أي ناحية أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

فالذين يرشحون للنبوة يصطفون لها اصطفاء، قلوبهم نقية تربطهم بالملائكة الأعلى أو اواصر الطهر والصفاء، وعقولهم حسيمة لا تنخدع عن حقائق الأشياء، ولا يصيبها ما أصاب كبار الفلاسفة من شرود وعماء، وأجسامهم مبرأة من العلل الخبيثة والأمراض المشوهة أو المنفرة، وصلتهم بالناس قوامها البر والخير . فليس يتصور في حق نبي أنه أخل بحق المروءة والتفضل، فضلا عن أن يرتكب ما يחדش الشرف أو يقدح في العصمة؛ ثم إن الرسل أمناء الله على الوحي السماوي والهداية الإسلامية، فكلامهم حكمة، وحياتهم أسوة، وسريرتهم وعلايتهم سواء، طرائق معيشتهم الخاصة كمناهج دعوتهم العامة، تتضح عفافا واستقامة، ظلوا بين الناس ما شاء الله فكانت مجتمعاتهم بركة، ثم قبضوا فخلفوا أقدس موارث وأقدس تركة، وحسبك أنهم خيرة الله من خلقه : ﴿ اَللّٰهُ اَللّٰهُ اَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٢٤] (١)

﴿ الفرق بين النبي والرسول ﴾

تأتي النبوة في اللغة بمعنى : الإخبار . والنبأ: الخبر . والجمع أنباء . (٢) وسُمِّيَ النبي نبياً لأنه مخبر عن أمر الله تعالى ووحيه . وقال بعض العلماء: النبوة مأخوذة من ((النبوة))، بمعنى: الرفعة . وسُمِّيَ النبي نبياً لرفعة مكانه عند الناس . (١)

١ - ((الإيمان وشعبه)) ص (٧٧ - ٧٨) .

٢ - ((لسان العرب)) (١ / ١٦٢) .

ولما كان مصدر النبوة هو الوحي، فقد جاء تعريف الوحي في اللغة بمعنى الإعلام في خفاء (٢)

ومن معاني الوحي في اللغة: الإشارة، والكناية، والمكتوب، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي. ومن معاني الوحي في اللغة كذلك: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوحي إليه. ومنه الإلهام الغريزي، كالوحي إلى النمل، ومنه إلهام الخواطر، مثل ما يلقيه الله تعالى في روع الإنسان السليم الفطرة، كالوحي إلى أم موسى عليها السلام (٣)

أما الفرق بين النبي والرسول في الاصطلاح الشرعي، فهو: أنَّ الرسول هو من أُوحيَ إليه بشرع وأمر بتبليغه، أما النبي فهو: من أُوحيَ إليه ولم يؤمر بالبلاغ. وبناءً على ذلك، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. (٤) فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها.

﴿إرسال الرسل من نعم الله العظمى﴾

وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه وخصوصاً سيدنا محمد ﷺ كما قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء آية: ١٠٧]



-
- ٣ - ((المفردات في غريب القرآن)) ص (٤٨٢) .
- ١ - ((لسان العرب)) (١٥ / ٣٨١) .
- ٢ - ((الوحي المحمدي)) محمد رشيد رضا ص (٢٢) .
- ٣ - ((دلالة الإيمان بالرسول والكتب المنزلة على صدق القرآن وقوة الإيمان)) . بحث للدكتور / عبد الرافع حمد الأمين منشور بمجلة ((الشريعة والدراسات الإسلامية)) العدد الخامس سنة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م . ص (١١١) .

﴿ الحكمة من إرسال الرسل ﴾

إن الله تعالى وسع كل شيء رحمةً وعلماً، سبحانه له الحكمة البالغة، والقدرة الشاملة، والإرادة النافذة، لم يخلق عباده عبثاً، ولم يتركهم سدى، بل بعدله قامت السموات والأرض، وبحكمته وتشريعه، وإرسال رسله قامت الحجة، وسعد من اتبعهم، وسلك طريقهم في الدنيا والآخرة، وخاب وخسر من سلك غير سبيلهم، واتبع هواه بغير هدى من الله، قال تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون آية: ١١٥] ولا يليق بعاقل رشيد عرف كمال حكمه الله وسعة رحمته، وعرف واقع الناس وما هم فيه من هرج وفساد وضلالة؛ أن ينكر حاجة البشر إلى قيادة رشيدة، عمادها وحى الله وشريعته، تعتصم به وتدعو الناس إليه وتهديهم إلى سواء السبيل . فإن الإنسان قد يقصر عقله في كثير من أحواله وشؤونه عن التمييز بين الحسن من الأفعال وقبيحها، ونافعها وضارها، وقد يعجز عن العلم بما يجب عليه علمه، لأنه ليس في محيط عقله ولا دائرة فكره، مع ما في علمه به من صلاحية وسعادة، كمعرفته بالله واليوم الآخر والملائكة تفصيلاً، فكان في ضرورة إلي معين يساعده في معرفة ما قصر عنه إدراكه أو عجز عنه فهمه، ويهديه الطريق في أصول دينه. وقد يتردد الإنسان في أمر من شؤونه حياته وتتملكه الحيرة فيه، إما لعارض هوى وشهوة من الحيرة، ويكشف له حجاب الضلالة بنور الهداية، ويخرجه من الظلمات إلى النور، ويكمّله بمعرفة ما عجز عنه فكره وفهمه، ويوقفه على حقيقة ما تردد فيه أو عجز عنه عقله ، ويدفع عنه غائلة الألم والحيرة ومضرة الشكوك والأوهام .

وإن تفاوت العقول والمدارك، وتباين الأفكار واختلاف الأغراض والمنازع، ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب، وذلك مما يفضي إلي سفك الدماء، ونهب الأموال، والاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرمات، وبالجملة ينتهي بالناس إلي تخريب وتدمير، لا إلي تنظيم وحسن تدبير ولا يرتفع هذا إلا برسول يبعثه الله بفصل الخطاب ليقيم به الحجة، ويوضح به المحجة، فافتضت حكمة الله أن يرسل رسله بالهدى ودين الحق، رحمة منه بعباده وإقامة للعدل بينهم، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم وحقوق أنفسهم وإخوانهم، وإعانة لهم على

أنفسهم، وإعذاراً إليهم، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن الْمُغِيرَةَ رضي الله عنه قال: قال سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصَفَّحٍ. قَبَلَكَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فقال: ((أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغَيْرُ مِنْهُ وَاللَّهِ أَغَيْرُ مِنِّي وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ)) . (١)

وبهذا يتبين أن إرسال الله الرسل إلي الناس مبشرين ومنذرين هو مقتضى حكمته، وموجب فضله وإحسانه ورحمته بعباده والله عليم حكيم . (٢) فإن الله لم يرسل الرسل لدعوة الناس إلى عبادة الله لحاجته إليهم، بل هو القادر سبحانه أن يعبد أهل الأرض كلها أجمعين. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس آية: ٩٩] والله أرسل الرسل ليقوموا بالحجة على الناس فينقطع عذرهم، فلا يدعي أحد أن الدعوة إلى عبادة الله لم تبلغه .

﴿ وظيفة الرسل ﴾

لقد اصطفى الله تعالى رسله للقيام بوظائف محددة باعتبارهم سفراء الله تعالى إلى عباده، وحمله وحيه وتمثل هذه الوظائف في الآتي :

(١) - **البلاغ المبين**؛ وهذه الوظيفة بالضرورة هي المهمة الأساسية للرسل، إذ ما بعثهم الله تعالى إلا لإبلاغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم، وقد جاء في القرآن الكريم ثلاث عشرة آية تنص على أن مهمة الرسول إنما هي ((البلاغ))، ومنها قال الله تعالى أمرا رسوله ﷺ: ﴿ * يَتْلُوهَا الرُّسُلُ بِلَغٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة المائدة آية: ٦٧] والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة، لأن الرسول يأتي بما يخالف أهواء الناس ويهدد مركز قاداتهم وكبراءهم المسيطرون على الناس بالباطل، ويأمرهم بما

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((التوحيد)) باب ((لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ)) حديث (٦٩٨٠) .

٢ - ((الحكمة من إرسال الرسل)) للشيخ عبد الرزاق عفيفي ص (٢ - ٣) .

يستكبرون ويكروهون، لأنه خلاف ما اعتادوه، لذلك امتدح الله تعالى رسله قائلا: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [سورة الأحزاب آية: ٣٩] والرسول في بلاغه لرسالات الله تعالى مؤتمن في أدائه، فلا يزيد فيها ولا ينقص منها، ولو كان الأمر متعلقا به شخصيا، وأوضح مثال على ذلك ما تكرر في القرآن الكريم من عتاب للنبي ﷺ في أكثر من موقف من ذلك، حين أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ﷺ الذي جاءه يسأله في أمور دينه فأعرض عنه النبي ﷺ منشغلا بدعوة بعض كبراء قريش طمعا في إيمانهم فعاتبه الله تعالى في ذلك بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [سورة عبس آية: ٢]

(٢) - دعوة الناس إلى التوحيد : وهذه الوظيفة تعد من كمال البلاغ وأساسه قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النحل آية: ٣٥] وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [سورة النحل آية: ٣٦] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل آية: ٤٣]

(٣) - التبشير والإنذار : إن الحياة الدنيا دار عمل ومزرعة للآخرة، وقد أرسل الله تعالى رسله وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وقد بين الله تعالى أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته فقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات آية: ٥٦] ولما أنزل الله تعالى آدم ﷺ إلى الأرض هو وإبليس قال الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [سورة طه آية: ١٢٣] وحذر عن مخالفة رسله وهديه فقال سبحانه: ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة طه آية: ١٢٤] فلما كانت الغاية الأساسية من وجود الإنسان في حياته الدنيا هي طاعة أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وكانت رسل الله تعالى هي المبينة لتلك الأحكام والمبلغة عن الله تعالى، لزم أن تكون من مهام الرسل الكرام عليهم السلام مهمة التبشير لمن اتبع أوامر الله تعالى بالفوز الكبير في الدنيا والآخرة، والإنذار لمن خالف

أوامره بالوعيد الشديد والعذاب الأليم في الآخرة، حتى تقوم الحجة على الناس كما قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء آية: ١٦٥] وهذه الوظيفة تقتضيها حكمة الله تعالى، وكمال عدله ولطفه بعباده، إذ أنه لا يتركهم سدى، حتى يبين لهم ما يتقون، فلا يؤخذون على حين غرة وغفلة، بل كما قال الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال آية: ٤٢] ومن كمال رحمته وعدله أنه تكفل ببيان صنوف النعيم، وألوان المتع التي أعدها لعباده المؤمنين، كما بين أنواع العذاب المهلك التي أعدها للمجرمين الكافرين .

4 - تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة : لقد خلق الله تعالى عباده خففاء، ولكن جاءتهم

الشياطين فاجتالتهم وانحرفوا عن الفطرة السليمة التي كانوا عليها، ولا تزال شياطين الجن والإنس يزينون لهم الباطل، ويشيرون فيهم الشبه والضلالات، ولأجل ذلك يرسل الله تعالى رحمة منه وهم رسله، كلما زاغ الناس عن الطريق المستقيم قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [سورة الكهف آية: ٥٦] ودعوة الرسل جميعا تقوم على التوحيد الخالص لله تعالى، إلا أن كل رسول يختص بتقويم الانحراف الحادث في عصره وموطنه، ذلك لأن الانحراف على الصراط المستقيم يختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان، فنوح عليه السلام أنكر على قومه عبادة الأصنام التي كانت عامة فيهم، وكذلك إبراهيم عليه السلام إضافة إلى أنه أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها. وصالح عليه السلام أنكر على قومه الفساد في الأرض واتباع المفسدين . ولوط عليه السلام حارب الشذوذ الجنسي المتفشي في قومه، وشعيب عليه السلام قاوم جريمة الإفساد الاقتصادي المتمثل في تطفيف المكيال والميزان . وموسى عليه السلام وقف في وجه النزعة المادية التي انحرف إليها بنوا إسرائيل .

ولما كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فقد جاءت رسالته عامة شاملة لكل أسس التقويم والهداية التي جاءت في الكتب السماوية السابقة، وزائدة عليها حتى تكون صالحة لكل زمان ومكان، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ

الْكِتَابِ وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ ۚ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٨﴾ [سورة المائدة آية: ٥٨]

٤٨] وقد جاءت رسالة الإسلام مرنة تصلح لكل زمان ومكان، وبيان ذلك أن العقائد والعبادات في الإسلام جاءت بها نصوص قطعية مفصلة ثابتة لا تقبل التبديل ولا التعديل، لأن العقائد والعبادات في ذاتها لا تتبدل بتبدل الزمان، ولا تختلف باختلاف الأعراف، كما أن هيئات العبادات مناسبة لكل البشر في جميع العصور .

أما الأوضاع الدستورية والمعاملات المادية والأحوال الإرادية التي يؤثر فيها تبدل الزمان والمكان واختلاف الأعراف فقد جاءت بها نصوص عامة، كأسس ودعائم بينما ترك لاجتهاد الناس أن يضعوا فيما يتعلق بها أحكاما لكل زمان ما يصلح له ويناسبه، بشرط المحافظة على هذه القواعد .

﴿ صفات الرسل ﴾

لو أردنا أن نأخذ الصفات التي يجب أن تتوفر في الرسل على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام كان في مقدمة هذه الصفات:

(١) - **الفطنة** : الفطنة بمعنى الذكاء، أي ما كان الله ﷻ ليرسل رسولا إلى خلقه لا يتصف بالفطنة، فالفطنة صفة لازمة للأنبياء مادام الله سبحانه وتعالى قد اصطفاهم، وما دام الله سبحانه وتعالى قد كلفهم تبليغ رسالاته، وبما أن الله سبحانه وتعالى قد كلفهم بنشر دينه فلا بد من أن يعطيهم مع هذا التكليف ما يعينهم على نشر الرسالة، لا بد من أن يكون النبي الرسول أعلى كل أصحابه ذكاءً حتى يستوعبهم، وحتى يستطيع توجيههم، وحتى يعرف إمكاناتهم، ولذلك فالنبي الكريم ﷺ كان يجمع كل صفات الكمال، وكل صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ كان يتصف بصفة يتميز بها، لكن النبي ﷺ جمع كل صفات الكمال وأعلاها وأسناها .

قال الشاعر :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وهذا النبي العظيم ﷺ أعلى البشر إدراكاً وفطنة، وأكملهم عقلاً وفهما واستيعاباً وحفظاً ، وأعد لهم حكماً، فتوافرت فيه ﷺ كل صفات القيادة العظيمة الرشيدة، فساس أمته بحكمة وبصيرة وفطنة عظيمة .

(٢) - **العصمة** : إن الرسل يبعثهم الله أئمة خلّقه وعباده، وما جعل الإمام إلا ليؤتم به، و ليكون القدوة الحسنة، والرسل جاءوا قدوة علياً لأمتهم، في كل أحوالهم القولية وأفعالهم وأخلاقهم، ولذلك يجب أن تكون أفعال الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام موافقة لأمر الله تعالى ظاهراً وباطناً، ولا يكون في أحوالهم دخلاً من الهوى أو من الشيطان، فليس للشيطان عليهم سبيلاً، ولأجل هذا كانت لهم أسبقية العناية لهم من الله تعالى، فحفظهم وعصمتهم من الزلل والخطأ ومما يغضبه سبحانه وتعالى . والعصمة ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها وبعبارة أخرى : قوة من الله تعالى في عبده تمنعه من ارتكاب شيء من المعاصي والمكروهات مع بقاء الاختيار . وقد يعبر عن تلك الملكة بلطف من الله تعالى يحمله على فعل الخير، ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء والامتحان . (١)

وحقيقة العصمة وهي: أن لا يخلق الله فيهم ذنباً . وعند الحكماء: ملكة تمنع عن الفجور وتحصل بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات . (٢)

ومن لوازم العصمة التي هي صفة أساسية بحق الأنبياء والرسل: العصمة عن الكتمان والتحريف فكتمان الحق معصية في الدعوة إلى الله ﷻ، والتحريف أيضاً معصية في الدعوة إلى الله ﷻ، فالنبي ﷺ معصوم وكذلك الأنبياء والرسل جميعاً عن الكتمان وعن التحريف وعن الخطأ والغلط والنسيان فيما أمره الله بتبليغه للناس، وهذه أيضاً من لوازم العصمة التي هي صفة أساسية، لأنه لو لم يكن معصوماً عن ذلك لم يكن أهلاً للاصطفاء بالرسالة، وعصمتهم من الذنوب كبيرها وصغيرها أيضاً ثابتة لهم .

(٣) - **الصدق** : والصدق ألزم صفات الرسل لهم، لأنهم ينعون من الكذب على الله تعالى، بل والصدق سر الاصطفاء لهم عليهم الصلاة والسلام، كي يحملوا أمانة تبليغ رسالات ربهم ﷻ . ولقد كان سيدنا رسول الله ﷺ أكمل الخلق صدقاً وشجاعة وأمانة، حتى كانت صفته الصادق الأمين قبل الرسالة وبعدها، فحينما وقف سيدنا جعفر ﷺ أمام النجاشي، وقال له :

^١ - ((دستور العلماء)) (٢ / ٢٣٤) .

^٢ - ((المواقف)) للإيجي (٣ / ٤٤٨) .

أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنَسِيءُ الْجَوَارِ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْ الضَّعِيفِ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَحْنُ نَعْبُدُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حُرِّمَ عَلَيْنَا وَأَحَلَّلْنَا مَا أُحِلَّ لَنَا ... (١)

فالصدق من أبرز صفات الرسل عليهم السلام، ولا يرفع الإنسان عند الله بشيء إلا إذا كان صادقاً معه وصادقاً مع نفسه وصادقاً مع الناس، قال ﷺ: ((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ)) . (٢)

أما أن يكون المؤمن كاذباً أو خائناً فهذا يتنافى مع إيمانه، لا يجتمع إيمان وكذب، ولا إيمان وخيانة، فالصدق صفة بارزة من صفات الأنبياء عليهم السلام، وهي من أبرز صفات المؤمن، لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين .

(٥) - التبليغ : وهذه الصفة الرابعة من صفاتهم عليهم الصلاة والسلام، لأن الله تعالى قد اصطفاهم لهذه المهمة ليكونوا أدلاء للخلق على الحق تبارك وتعالى، وهياهم لحمل هذه الأمانة، و رزقهم من الصفات المعينة على أداء رسالته بأكملها، فصفاتهم صفات متلازمة متكاملة بعضها مع بعض، فأكملهم بالفطنة والصدق، وعصمهم من الزلل ليلغوا عنه أمره ونهيه لعباده، وضمن لهم الحماية والعزة في سبيل ذلك ، وأنهم هم المنصرون في النهاية، وذلك بمقتضى قول الله ﷻ :

﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ [سورة المائدة آية: ٦٧]

وكما هو مقرر ومعروف عند علماء العقيدة أن الرسل معصومون عصمة تامة عن مخالفة أمر الله، ومعصومون أيضا من أن يقتلوا، وهذه كما قالوا ميزة الرسل على الأنبياء، فالرسل لا يقتلون، وقد يقتل الأنبياء، كما ذكر الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن وكلها بذكر الأنبياء، فكان هذا هو الدليل على ما ذهبوا إليه مثل قوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ

^١ - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (١ / ٢٠٢) رقم (١٧٤٠) .

^٢ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (١٠ / ١٩٧) حديث (٢٠٦١٧) .

وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
 ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٠﴾ [سورة البقرة آية: ٦١] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
 بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِّنَ
 النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة آل عمران آية: ٢١] وقوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا
 تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ
 بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْآدِثِيَّاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ
 ﴿١١٢﴾ [سورة آل عمران آية: ١١٢]

ومن أروع ما يثبت كمالهم عليهم الصلاة والسلام في هذه الصفة عامة وسيدنا محمد ﷺ
 خاصة، ما ذكره الله تعالى في كتابه من عتاب لحبيبه ﷺ، فلو أنهم يكتمون شيئاً أمرهم به الله تعالى
 لكتموا عتابهم، لكن ذلك لم يكن ولا يصح أن يقع منهم، ومن أمثلة هذا : عتاب الله تعالى له في
 عبد الله بن أم مكتوم ؓ حين جاءه ﷺ وكان مشغولاً بدعوة أشراف قريش طمعا في إيمانهم،
 فانشغل عنه بهم فعاتبه ربه فيه، والعتاب لا يكون إلا للحبيب، فقا تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾
 [سورة عبس آية: ١] إلخ الآيات .

وكذلك حين أمره بالزواج من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكان يتخرج من إعلان
 هذا، فأنزل الله تعالى عليه قوله : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ
 زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ
 زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
 وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٣٧] وحين أذن لبعضهم في عدم الخروج
 للجهاد، قال له : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
 الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة التوبة آية: ٤٣] فلو كان بالإمكان أن يكتم النبي العدنان شيئاً من القرآن
 لكتم هذه الآيات، لذا يجب علينا أن نعتقد اعتقاداً جازماً في حق الرسل، أنهم بلغوا جميع ما
 أمرهم الله بتبليغه .

(٦) - **الأمانة** : والأمانة هي: حفظ الحقوق وأداء الواجبات التي يؤتمن الإنسان عليها، ورعايتها والقيام بحققها . وهذا مفهوم عام يشمل كل مناحي الحياة، فليست الأمانة فقط حفظ الودائع وردها إلى أهلها، بل تتعدى هذا المعنى لتشمل كل أفعال المسلم مع نفسه ومع غيره .

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل الأعلى في أداء الأمانة ، فهي صفة ذاتية فيه ﷺ وطبع كريم من طبعه، وهكذا جميع إخوانه من النبيين والرسل فهم أمناء لله تعالى على خلقه، ومن كمال هذه الصفة فيهم عليهم الصلاة والسلام اصطفاهم الله تعالى لأداء هذه الأمانة العظمى، ألا وهي تبليغ رسالاته إلى عباده، وتوجيههم لما فيه رضاه، فالأمانة من أزم صفات الرسل والأنبياء التي تلازمهم طبعاً لهم وصفة وحالا . وقد أكد القرآن الكريم على وجوب القيام بحق الأمانة قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء آية: ٥٨] ولما كانت الأمانة هي أداء الحقوق، والمحافظة عليها، فالمسلم يعطي كل ذي حق حقه؛ يؤدي حق الله في العبادة، ويحفظ جوارحه عن الحرام، ويرد الودائع، ويحفظ الأسرار، ويؤدي عمله، ... إلخ .

﴿ دور الأزهر المأمول في إحياء قيمة الأمانة ﴾

إن واقعنا المعاصر الذي تعيشه الأمة اليوم لواقع مريع بكل معنى تفيده هذه الكلمة، فقد ضاعت الأمانة فيما بيننا إلا من رحم ربي، لذلك انتشر الفساد الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي في المجتمعات الإسلامية، وصرنا كما وصف النبي ﷺ حالنا كما جاء فيما روي عن علي عليه السلام قال : قيل لرسول الله ﷺ متى الساعة ؟ فزبره (١) رسول الله ﷺ حتى إذا صلى الفجر رفع رأسه إلى السماء فقال : ((تبارك خالقها ورافعها ومبدؤها وطاويها كطي السجل للكتاب)) . ثم تطلع إلى الأرض فقال : ((تبارك خالقها وواضعها ومبدؤها وطاويها كطي السجل للكتاب)) . ثم قال : ((أين السائل عن الساعة ؟)) . فجثا رجل من آخر القوم على ركبتيه فإذا هو عمر بن الخطاب عليه السلام فقال رسول الله ﷺ : ((عند حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر

(١) - الزبر : الزجر والمنع .

وإيمان بالنجوم، وقوم يتخذون الأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، والفاحشة زيارة)) . فسألته عن الفاحشة زيارة ؟ . فقال : ((الرجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاما وشرابا)) . (١)

ولما كانت رسالة الأزهر امتدادا لرسالة النبي ﷺ، فهو معقل العلم والعلماء، ولما كان العلماء هم ورثة الأنبياء، فلا بد أن يعيد الأزهر مرة أخرى تأثيره في المجتمعات الإسلامية عامة، وفي المجتمع المصري خاصة كما كان قديما، بتعليم الناس الأخلاق والقيم، والسمو بأخلاقهم، وأن يعملوا على تغيير ما تفشى في مجتمعاتنا من مثالب ومعايب أخلاقية ليست من أخلاق الإسلام والفترة الإنسانية الكريمة، خاصة في صفة وقيمة الأمانة في جميع مستويات وطبقات المجتمع من الراعي إلى الرعية، من القاع إلى رأس المجتمع، وذلك لأن في إحياء هذه القيمة العظيمة تحيا الناس في ظل أمن اجتماعي واقعي بعيد عن الضغائن الاجتماعية والطبقية، وذلك بضمان التكافؤ في الفرص في الوظائف والعمل، لأنه من الأمانة أن يكون الشخص المناسب في مكانه الأليق به، فيعمل العلماء على إقرار العدالة الاجتماعية بأن يوسد الأمر لأهله، لأن هذا من الأمانة التي جعلها الله تعالى في رقاب المسئول عمن يرعاه، وبهذا يتحقق السلم والتعايش الاجتماعي في المجتمع الإسلامي .

وكذلك بإقرار الأمانة في نفوس الناس وقلوبهم بجميع أنواعها من أمانات المعاملات في التجارة والبيع والشراء، ومحاربة بيع العينة الذي خرب الدور ومأوى السجون، وتبيين حكمه للناس حتى يحذروه ويتقوا ربهم ﷻ في معاملاتهم، لأنه خيانة لأمانة حفظ المسلمين، وخيانة لأمانة اتقاء الله في المعاملات، وكذلك دعوة الناس لمراعاة أمانة الكلمة، وهذا ما يلزم الإعلام في زماننا هذا من إعلام مقروء أو مسموع أو مرئي، وذلك يتحقق بالتوثق من الأخبار وعدم نشر الشائعات، و إيقاف خطاب الحز على الكراهية وبث الاختلاف، ومراعاة الله تعالى في أمانة توجيه الناس إلى إحياء الأخلاق في الأعمال الفنية الدرامية والسينمائية، فما أحوجنا إلى إعلام قيم يقدم قيما هادفة لبناء المجتمع لا لهدمه وهدم الأخلاق والقيم، ذلك إن أردنا صلحا اجتماعيا وتعايشا سلميا تنعم به المجتمعات .

ولابد للعلماء أن يحذروا الناس من تضييع الأمانة، لأن تضييعها خيانة لله ولرسوله ﷺ وللنفس والمجتمع، وقد حذر النبي ﷺ من تضييعها، وجعلها مؤشرا من مؤشرات الخطر فقال : ((إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)) . قال: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قال : ((إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)) . (٢)

١ - ذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٧ / ٤٧٣) .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الرقاق)) باب ((رفع الأمانة)) حديث (٦١٣١) .

لذلك يجب على الأزهر وعلمائه أن يعيد هذه القيمة إلى الحياة، فهذا هو الدور المأمول لهم، وقد طال الانتظار، وليعملوا على نشر هذه القيمة وغيرها بكل السبل، بالاحتكاك المباشر مع الجماهير عبر المساجد وحلق العلم ودروس المواعظ، والبرامج التليفزيونية والإذاعية، والمحاضرات بالمدارس والمؤسسات الحكومية والعامة، ونوادي الثقافة، وغيرها، ليربوا الناس على هذه الأخلاق التي كدنا أن نقول : قد فقدناها إلا قليلا . كما ربي النبي ﷺ أمته على مكارم الأخلاق، ومنها الأمانة في كل شيء، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ : ((أَذِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَكَ وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ)) . (١) أي : أن يؤدي المسلم هذه الودائع والأمانات كاملة إلى أهلها عند طلبها، حتى وإن كانوا غير أهل للوفاء لهم بأماناتهم، وليكن له في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة، فهي هو ﷺ كان مستودع أمانات قريش وقبائلها، وهي القبائل التي اجتمعت وتآمرت على قتله والعدر به، ومع هذا لم يخنهم في أداء أماناتهم إليهم، وها هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تحدث عن أحداث الهجرة فتقول : ولم يعلم أحد فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ إلا علي بن أبي طالب ؓ فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله ﷺ ليس أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من أمانته وصدقه . (٢) ولينشر العلماء هذه الدروس وغيرها، لتصل إلى قلوب الناس، ليغير الله واقعنا إلى ما يرضيه، ومن هذه الدروس : تعليم الناس أنه يدخل في حفظ الأمانات والودائع المؤمن الإنسان عليها أنواع كثيرة من الأمانات مثل حفظ الأموال، و الأنفس، والأعراض، والأسرار، والعلم، والقانون، والتكاليف الشرعية، والواجبات المدنية .

فحفظ السر أمانة لمن أؤتمن عليه، ومن الواجب عليه كتمانها وعدم إفشائه . والعلم أمانة في عنق العالم يجب عليه أن يحافظ عليه، ويتثبت منه ولا يكتمه ويبلغه الناس سليما صحيحاً، لا زيادة فيه ولا نقص، حتى يتحرر من الوعيد لمن خان أمانة العلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ كَتَمَ عِلْمًا تَلَجَّمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (٣)

لذلك أعطانا ساداتنا الأنبياء والرسل القدوة الحسنة في أداء أمانة العلم، وهي البلاغ للناس، عملا على نجاتهم من عذاب الله تعالى، لأن دعوتهم إلى النجاة أمانة في رقابهم لن تؤدي إلا بأداء أمانة العلم وعد كتمانها . وكذلك الأمانة في العبادة، والحفاظ على هذه الأمانة بحفظ التكاليف

١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٣ / ٥٦٤) حديث (١٢٦٤) .

٢ - ((الرياض النضرة)) للطبري (١ / ٤٤٥) .

٣ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ٢٩٧) حديث (٩٥) .

الشرعية، وأداء الفرائض، والانتهاز عن المعاصي، وفعل الطاعات . ومنها الأمانة في حفظ الجوارح، فهي أمانات مملوكة لله، وليست ملكا للعبد، فيجب عليه أن يحافظ عليها، فلا يستعملها فيما يغضب الله تعالى، بل في كل طاعة يبتغى بها وجهه الكريم، حتى يكون مكرما مصونا في يوم يفضح فيه الخائنون لأمانة الجوارح التي أنعم الله تعالى بها عليهم، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النور آية: ٢٤] وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا لِمَ جُلُودُهُمْ لَمْ تَشْهَدْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة فصلت آية: ٢٠ - ٢٣]

وأمانة حفظ الجوارح عما يغضب الله تعالى خلق كريم ورثه المؤمنون عن ساداتنا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كمثّل سيدنا يحيى عليه السلام قتل في سبيل رضا الله تعالى وحفظ جوارحه عما يغضبه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه فقال له : ((يا أبا يحيى خبرني عن قتلِكَ كيف كان ولم قتلِكَ بنو إسرائيل ؟)) . قال : يا محمد إن يحيى كان خير أهل زمانه وأجملهم وأصبحهم وجها وكان كما قال الله : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ [سورة آل عمران آية: ٣٩] وكان لا يحتاج إلى النساء فهو يته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بغية، فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها، وأجمعت على قتل يحيى ولهم عيد يجتمعون في كل عام وكانت سنة الملك أن يوعده ولا يخلف ولا يكذب فخرج الملك للعيد فقامت امرأته فشيّعته وكان بها معجبا ولم تكن تسأله فيما مضى، فلما أن شيّعته قال الملك : سليني فما تسأليني شيئا إلا أعطيتك . قالت: أريد دم يحيى بن زكريا. قال لها: سليني غيره . قالت: هو ذاك . قال: هو لك . فبعث جلاوزته إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أصلي فذبح في طست وحمل رأسه ودمه إليها . (١)

ومنها أمانة حفظ الودائع وأداؤها لأصحابها عندما يطلبونها كما هي، مثلما فعل الرسول ﷺ مع المشركين قبيل هجرته .

^١ - ذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٥ / ٤٩٨ - ٤٩٠) .

ومنها الأمانة في أداء العمل على خير وجه، بإتقان عمله فهو أمانة، ويؤديه بإجادة، فهذه صفة من صفات الرسل، فقد بلغوا جهدهم في إبلاغ الرسالة من الله تعالى إلى عباده، بالرغم مما واجهوه من متاعب وعناد وتكذيب، ومع هذا لم يياسوا حتى بلغوا رسالات ربهم، ومن إتقانه ﷺ في أداء الأمانة وتعبه ﷺ عاتبه ربه عتاب الرحمة والرفق، فقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [سورة الكهف آية: ٦] وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الشعراء آية: ٣] والإتقان في أداء العمل الذي هو أمانة في رقبة المؤمن قيمة سامية وخلق من الأخلاق التي ربي عليها رسول الله ﷺ أمته، عن عائشة أن النبي ﷺ قال: ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)) . (١)

وحفظ أعراض الناس مسلميهم وغير المسلمين منهم أمانة، يطالب به المسلم حفاظاً على حرمان الله تعالى وصيانة للأعراض، وهذا من أخلاق الطباع الكريمة والأخلاق السامية الحميدة التي كان لنا فيها ساداتنا الأنبياء والرسل القدوة الحسنة، ها هو الكليم موسى عليه السلام كان أميناً على عرض صاحب مدين في ابنته التي جاءت تدعوه للقاء أبيها، قال الله تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة القصص آية: ٢٥ - ٢٦] قال عمر، وابن عباس، وشريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت: ((إن خير من استأجرت القوي الأمين)) . قال لها أبوها: وما علمك بذلك ؟ . قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي : كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه .

وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال : ((أكرمي مثواه)) .

^١ - أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (٧ / ٣٤٩) حديث (٤٣٨٦) .

وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَتَأَبَّتِ آسْتَجْرُهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [سورة القصص آية: ٢٥ - ٢٦] . (١)

وبترسيخ هذا المعنى من علماء الأزهر وخطابهم به للمجتمع يكون الحد من مظاهر الفساد الاجتماعي والأخلاقي الذي تعاني منه المجتمعات اليوم ، من انتشار للتحرش والمعاكسات والفواحش والعياذ بالله، وعلى رأسها الزنا الذي هو من أكبر الكبائر، والذي ضرب المجتمعات وانتشر فيها نتيجة الانحلال الإعلامي الموجه في الآونة الأخيرة بنشر الانحلال الأخلاقي المتمثل في الأفلام الهابطة التي تعمل على انتشار صور البلطجة والانحلال الأخلاقي وهي أكثر من أن تحصى وترصد لها ملايين الجنيهاات، وكذلك نتيجة غياب دور العلماء في المجتمع، وغياب دور التعليم والرقابة الأسرية، والجهل والذي تمثل في البعد عن الدين، فلا بد للعمل على إيجاد الحلول لمثل هذه الأمراض الاجتماعية والأخلاقية الهدامة التي لا تؤدي إلا إلى الفساد بكل معانيه ومجالاته، فلا بد من دواء لهذه الأمراض وأول ما تكون تكون على أيدي العلماء فانهمضوا يرحمكم الله .

وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال، محبوبة بالذات، ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني، قال بعض الصحابة : رأيت أعرابيا أتى باب المسجد فنزل عن ناقته وتركها، ودخل المسجد وصلى بالسكينة والوقار، ودعا بما شاء فتعجبنا، فلما خرج لم يجد ناقته، فقال : إلهي أديت أمانتك فأين أمانتي ؟ . قال الراوي: فردنا تعجبا . فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته وقد قطع يده وسلم الناقة إليه . والنكتة أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته، وهو المراد من قوله ﷺ لابن عباس ؓ : ((يا غلام احفظ الله في الخلوات يحفظك في الفلوات)) . (٢)

﴿ عدد الأنبياء والرسل ﴾

لقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدد الأنبياء والرسل، فعن أبي ذر قال : قلت يا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ وفي عدة الأنبياء ؟ . قال : ((مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُمِائَةٌ وَخَمْسَةٌ

١ - ((تفسير ابن كثير)) (٣ / ٣٨٦) .

٢ - ((تفسير الرازي)) (١ / ٢٠١) .

عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا)) . (١) وقد ذكرهم الله تعالى إجمالاً في قوله سبحانه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء آية: ١٦٤] وذكر بعضهم في مواضع كثيرة من القرآن .

﴿أولو العزم من الرسل﴾

((العزم)) : هو الصبر والتحمل. وأفضل الرسل هم أولو العزم، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿* شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى آية: ١٣]

﴿وجوب الإيمان بهم﴾

الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام ركن من أركان الدين، فلا يستقيم لأحد دين ولا يقبل منه عمل إلا إذا آمن برسالاتهم، وأذعن لكل ما أنزل عليهم من الشرائع ، إجمالاً أو تفصيلاً . قال تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٨٥]

وفي الحديث أن جبريل سأل النبي عليهما الصلاة والسلام عن الإيمان فبينه بقوله: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره)) . (٢)

ومن زعم أنه آمن ببعض الرسل دون بعض لم يقبل منه ذلك، وكان في حكم من كفر بالجميع، ودليل هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا

^١ - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (٥ / ٢٦٥) حديث (٢٢٣٤٢) .

^٢ - متفق عليه .

بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ [سورة النساء آية: ١٥٠ - ١٥١]

﴿ وجوب الإيمان بمعجزاتهم ﴾

أعطى الله ﷺ كل نبي من الأنبياء عليهم السلام معجزة خاصة به، لم يعطها لغيره ليتحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي مناسبة لحال قومه وأهل زمانه، وأعطى نبيه الخاتم محمدًا ﷺ كل معجزات من قبله وزيادة بأكبر معجزة، ألا وهي القرآن الكريم، عن أبي هريرة ؓ قال: قال النبي ﷺ: ((ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر وإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (١)

نعم إن القرآن هو المعجزة الكبرى، والهداية العظمى، وختام رسالات السماء إلى الأرض، فهو الصراط المستقيم، والمنهج المستقيم، حارت الأبواب في إدراك حقيقته، واستمدت العلوم فوائدها من معين هدايته، وجمع الله فيه الأسرار، فلا يبصرها إلا أهل المعرفة والاستبصار، قال الله تعالى: ﴿ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام آية: ٣٨] وعن علي بن أبي طالب ؓ قال: أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ)) . فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال: ((كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ

^١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((فضائل القرآن)) باب ((كيف نزول الوحي وأول ما نزل)) حديث

إِذْ سَمِعْتُهُ حَتَّى قَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ [سورة الجن آية: ١ - ٢] من قال به

صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) . (١)

فالقُرآن هو المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق، وليس لنبي معجزة باقية سواه ﷺ إذ تحدى بها رسول الله ﷺ بلغاء الخلق وفصحاء العرب، وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم، والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم، وكان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وقال ذلك تعجيزا لهم فعجزوا عن ذلك، وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل، ونساءهم وذرايرهم للسي، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه، ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقا وغربا، قرنا بعد قرن، وعصرا بعد عصر، فلم يقدر أحد على معارضته، فأعظم بغاوة من ينظر في أحواله ثم في أقواله ثم في أفعاله ثم في أخلاقه ثم في معجزاته ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره، ثم يتمارى في ذلك في صدقه . (٢)

والمراد من المعجزة : أمر خارق للعادة يدعو إلى الخير والسعادة مقرون بدعوى النبوة قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله . (٣) هذا الأمر الخارق للعادة والخارج عن سنن الله العامة في خلقه، الذي يظهره الله على يد مدعى النبوة، تصديقا له في دعواه، وتأييدا له في رسالته، مقرونا بالتحدي لأمتة ومطالبتهم أن يأتوا بمثله .

فالْحاصل أن الأمر الخارق للعادة بالنسبة إلى النبي معجزة سواء ظهر من قبله أو من قبل آحاد أمتة . (٤) وقوله : ((أو من قبل آحاد أمتة)) . يشير إلى كرامة الأولياء، فالكرامة أيضا أمر خارق للعادة مثل المعجزة، غير أنها تختلف عنها بأنها غير مقترنة بالتحدي، كما هو مشهور عند العلماء، والكرامة التي يجريها الله تعالى على يد ولي من أوليائه هي في حقيقتها معجزة للنبي ﷺ، ذلك لأن الولي ما نال ما ناله من كرامة من الله إلا بفضل اتباعه للنبي ﷺ وتصديقه به .

١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ١٧٢) حديث (٢٩٠٦) .

٢ - ((إحياء علوم الدين)) (٢ / ٣٨٧) بتصرف يسير .

٣ - ((التعاريف)) للمناوي ص (٦٦٥) .

٤ - ((حاشية ابن عابدين)) . (٣ / ٥٥١) .

وقد حدث مثل هذا في الصدر الأول من عمر الأمة الإسلامية، عن شرحبيل بن مسلم الخولاني قال : بينا الأسود بن قيس العنسي باليمن فأرسل إلى أبي مسلم، فقال له : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع . قال : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع . قال : فأمر بنار عظيمة فأججت فطرح فيها أبو مسلم فلم تضره . فقال له أهل مملكته : إن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك . فأمره بالرحيل فقدم المدينة وقد قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر فقام إلى سارية من سواري المسجد يصلي فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : من أين الرجل ؟ قال : من اليمن . قال : فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره . فقال : ذاك عبد الله بن ثوب . قال : نشدتك بالله أنك هو ؟ قال : اللهم نعم . قال : فقبل ما بين عينيه ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . (١)

فالمعجزة إذا أمر يجريه الله على يد الأنبياء، ويكون خلاف ما اعتاده الناس، من سنن الكون وقوانينه، والغرض منها إثبات صدق نبوتهم وأنهم رسل من عند الله . والمعجزة تظهر على يد مدعى النبوة لتكون آية على صدقه في دعوى الرسالة التي بها هداية الناس من الضلالة وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والأخذ بأيديهم إلى ما ينفعهم في عقائدهم وأخلاقهم وأبدانهم وأموالهم .

﴿ تنوع المعجزات مع بيان الحكمة في ذلك ﴾

آيات الأنبياء التي أيد الله بها رسله قد اختلفت أنواعها، وتباينت مظاهرها وأشكالها، إلا أنها تجتمع في أن كلا منها قد عجز البشر عن أن يأتوا بمثله منفردين أو مجتمعين؛ فكانت بذلك شاهد صدق على الرسالة، وحجة قاطعة تحرس الألسنة، وينقطع عندها الخصوم، ويجب لها التسليم والقبول . ويغلب أن تكون معجزة كل رسول مناسبة لما انتشر في عصره وبرز فيه قومه، وعرفوا بالمهارة فيه؛ ليكون ذلك أدعى إلي فهمها، وأعظم في دلالتها على المطلوب، وأمكن في الإلزام بمقتضاها .

^١ - أخرجه ابن الجوزي في ((المنتظم)) (٥ / ٣٣١) .

ففي عهد موسى عليه السلام : انتشر السحر ومهر فيه قومه؛ حتى أثروا به على النفوس، و سحروا أعين الناظرين، وأوجس في نفسه خيفة منه من شاهده، وإن كان عال المهمة قوى العزيمة فكان ما آتاه الله نبيه موسى عليه السلام ذلك في كثير من الآيات معجزات تبطل سحر السحرة، وتقطع دابر الفجرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ قَالَ ﴿٧﴾ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأُشْهِبُهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ قَالَ ﴿٨﴾ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١١﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿١٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿١٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٤﴾ [سورة طه آية: ١٧ - ٢٤] ولهذا بهت السحرة، وبطل ما كانوا يعملون من التمويه والتخيل، و امتاز الحق من الباطل . قال تعالى: ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ ﴿١٥﴾ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿١٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴿١٩﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٢٠﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ؕ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٢١﴾ [سورة طه آية: ٦٥ - ٧٠]

وفي عهد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام : برع بنو إسرائيل في الطب، فكان مما آتاه الله ما قصه الله تعالى عنه في قوله سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُتِدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ [سورة المائدة آية: ١١٠] .

وفي عهد سيدنا محمد ﷺ : كان العرب قد بلغوا الغاية في الفصاحة وقوة البيان، وجرت الحكمة على ألسنتهم؛ حتى اتخذوا ذلك ميدانا للسباق والمباراة، فأنزل الله القرآن على رسوله ﷺ فكانت بلاغته وبيانه وما تضمنه من الحكم والأمثال، جانب من إعجازه، لأن وجوه إعجاز القرآن لا تتوقف عند الفصاحة والبلاغة والبيان فقط . وليست معجزات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام قاصرة على ما ذكر، وإنما ذلك بيان لما تحدى به كل منهم قومه، وجعله

قاعدة يبنى عليها دعوته ويثبت بها شريعته، وإلا فلهؤلاء وغيرهم من الأنبياء كثير من الآيات
البيّنات، والدلائل الواضحات، والبراهين الساطعات، التي دلت على صدقهم سوى ما تحدى به
كل نبي قومه .

﴿ الفرق بين المعجزات والكرامة والسحر ﴾

الفرق بين المعجزة والكرامة : ((المعجزة)) : أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعى النبوة
مع تحديه قومه بها، ومع عجز قومه عن معارضته بمثلها، على وجه يدل على صدقة في زمان
التكليف . وقالوا: لا بد للنبي من معجزة واحدة تدل على صدقه، فإذا ظهرت عليه معجزة
واحدة تدل على صدقه، وعجزوا عن معارضته بمثلها فقد لزمتهم الحجة في وجوب تصديقه
ووجوب طاعته، فإن طالبوه بمعجزة سواها فالأمر إلى الله ﷻ إن شاء أيده بها، وإن شاء عاقب
المطالبين له بها، لتركهم الإيمان بمن قد ظهرت دلالة صدقه . وهذا خلاف قول من زعم من
القدرية أن النبي ﷺ لا يحتاج إلى معجزة، أكثر من استقامة شريعته، كما ذهب إليه ثمانية .

وقالوا: الصادق في دعوى النبوة يجوز ظهور معجزة التصديق عليه، ولا يجوز ظهور معجزة
التصديق على المتنبي في دعوى النبوة، ويجوز أن يظهر عليه معجزة تدل على كذبه، كنطق شجرة
أو عضو من أعضائه بتكذيبه .

وقالوا: يجوز ظهور الكرامات على الأولياء، وجعلوها دلالة على الصدق في أحوالهم، كما
كانت معجزات الأنبياء دلالة على صدقهم في دعاويهم .

وقالوا: على صاحب المعجزة إظهارها والتحدي بها، وصاحب الكرامات لا يتحدى بها
غيره، وربما كتمها، وصاحب المعجزة مأمون العاقبة، وصاحب الكرامة لا يأمن تغير عاقبته، كما
تغيرت عاقبة بلعم بن باعوراء، بعد ظهور كراماته . وأنكرت القدرية كرامات الأولياء . (١)
والفرق الصحيح أن الكرامة لا تقع موافقة لدعوى الولي، والمعجزة شرطها أن تكون موافقة
لدعوى مدعى النبوة، فيظهر به الفرق .

^١ - ((الفرق بين الفرق)) لعبد القاهر البغدادي ص (٣٣٣ - ٣٣٥) .

الفرق بين المعجزة والسحر؛ ومذهب أهل الحق أن السحر حق، ومعناه أنه موجود، وأنكرت المعتزلة ذلك، قالوا: لا أصل له.

والدليل عليه قصة هاروت وماروت، وهو ظاهر في نص القرآن، والدليل عليه اتفاق أهل التفسير على أن نزول المعوذتين في سحر لبيد بن أعصم لرسول الله ﷺ، والدليل عليه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سحرته اليهود فتكروعت يده فأجلاهم عمر عن ديارهم، وروي أن جارية لعائشة سحرتها فباعتها عائشة رضي الله عنها. والدليل عليه إجماع الفقهاء على السحر، واختلافهم في أحكامه، حتى تكلموا في وجوب القصاص على من قتل بالسحر فدل ذلك على أنه موجود. فإذا ثبت كون السحر موجودا، فالسحر موافق للكرامة، إلا أن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق، و الكرامة لا تظهر على يد فاسق، بل تظهر على يد من يكون حاله موافقا للشرع والدين. (١)

فتبين من هذا أن الفرق: بين المعجزة والسحر، أن المعجزة قوة إلهية تبعث على النفس ذلك التأثير، فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك، والساحر إنما يفعل ذلك من لدن نفسه، وبقوته النفسانية ويأمداد الشياطين في بعض الأحوال، فيبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الأمر، وإنما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة، وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير، وللنفوس القاصدة للخير، والتحدي بها على دعوى النبوة. والسحر إنما يوجد لصاحب الشر، وفي أفعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين، وضرر الأعداء، وأمثال ذلك وللنفوس القاصدة للشر، هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الإلهيين.

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضا في أحوال العالم، وليس معدودا من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي، لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها، ولهم في المدد الإلهي حفظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله، وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر لا يأتيها، لأنه متقيد فيما يأتيه، يذره للأمر الإلهي، فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه، ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق، وربما سلب حاله.

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية، فلذلك لا يعارضها شيء من السحر، و انظر شأن سحره فرعون مع موسى عليه السلام في معجزة العصا، كيف تلقفت ما كانوا به يأفكون، وذهب سحرهم وضمحل كأن لم يكن، وكذلك لما أنزل على النبي ﷺ في المعوذتين: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [سورة الفلق آية: ٤] قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرؤها على

^١ - ((الغنية في أصول الدين)) للنيسابوري ص (١٥٥) .

عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت . فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره، وقد نقل المؤرخون أن ((زركش كاويان)) وهي راية كسرى كان فيها الوفق المثني العددي منسوجا بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق، ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض، بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم، وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والأوفاق مخصوص بالغلب في الحروب، وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا، إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله ﷺ وتمسكهم بكلمة الله، فانحل معها كل عقد سحري، ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون .

وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات، وجعلته كله بابا واحدا محظورا وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر، فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي، وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه. قالوا : والساحر مصروف عن مثل هذا التحدي فلا يقع منه، ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية لأن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال، فلذا لا تقع المعجزة مع الكاذب بإطلاق . وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه، فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين، فالسحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر، وكأنهما علي طرفي النقيض في أصل فطرتهما، والله يهدي من يشاء وهو القوي العزيز لا رب سواه . (١)

﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾

الإيمان بالرسول جميعا فرض عين على كل مسلم ومسلمة، فهذا واجب على عموم الأمة لا يسع المؤمن أن يعرض عنه أو ينكره . وهو الإيمان بجميع الرسل، ومعرفة ما ثبت في الشرع عنهم، من أسمائهم وأسماء الكتب التي أنزلت عليهم، وهذا فرض على مجموع الأمة وعلى كل فرد بعينه .

والإيمان بالرسول يستلزم أمورا منها :

^١ - ((مقدمة ابن خلدون)) ص (٥٠٢ - ٥٠٣) .

- (١) - التصديق بنبوتهم وبما جاءوا به من عند الله ﷻ .
- (٢) - عدم التفريق بين أحد منهم كما قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٨٥]
- (٣) - توقيرهم وتعظيمهم : قال تعالى: ﴿ لَتَتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [سورة الفتح آية: ٩] أي : تعظموه وتحترموه، وهذا حكم عام يشمل جميع الأنبياء والرسل، فحرمتهم من حرمة سيدنا ﷺ، واحترامهم من كمال احترامه ﷺ، وتلك عقيدة لا بد أن تسقر في قلوب المسلمين ولا يفارقوها .
- (٤) - وجوب العمل بشرائعهم : وذلك في حق كل أمة لنبيها، ولا يخفي أن ذلك قبل بعثة نبينا ﷺ التي نسخت شريعته كل شريعة، وما وافق شريعة الإسلام منها يقبل ، وما لا يوافق يرد .
- (٥) - اعتقاد عصمتهم في تبليغهم الوحي، و عصمتهم من الكبائر والصغائر .

﴿ حقوق الرسل على المسلمين ﴾

لقد أوجب الشرع الكريم على المسلم حقوقا، يجب عليه أن يؤديها تجاه أنبياء الله ورسله، قياما بما أمر الله به من تعظيمهم وتوقيرهم، واعترافاً بما فضلهم به على سائر الخلق، من تبليغ رسالته وتبيين دينه .

ومن هذه الحقوق الواجبة على المسلم تجاه أنبياء الله ورسله :

- (١) - النظر إليهم بعين الكمال، فلا يجوز للمسلم أن ينتقص واحدا من الأنبياء، بل يجب أن يعتقد أنهم أدوا رسالة الله على أكمل وجه، وأنهم بلغوا درجة الكمال البشري، فلا نقص يعيهم ولا عيب يشينهم .
- (٢) - وجوب محبتهم جميعاً، وهذا أمر مجمع عليه، ومن أبغض نبياً من الأنبياء فقد كفر .

(٣) - دفع غلو الغالين فيهم، كغلو النصارى في المسيح بن مريم عليها السلام حيث ادعوا أنه ابن الله، ومنهم طوائف تدعي أنه الله ذاته، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا، وفي دفع هذا الغلو صفاء عقيدة التوحيد وتنزيه الله تعالى عما وصفه به هؤلاء الذين لا يعقلون، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [سورة مريم آية: ٣٥] ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ [٣٦] تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [٣٧] وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [سورة مريم آية: ٨٨ - ٩٣]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: ((قال الله ﻻ كذبي ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يكذبي، وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يشتمني، فأما تكذبيه إياي فقلوله: لن يعيدني كما بداني . أو ليس أول الخلق بأهون علي من إعادته . وأما شتمه إياي فقلوله: اتخذ الله ولدا وأنا الله الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحدا)) . (١)

(٤) - الدفاع عنهم ونفي ما أُلصق بهم من تهمة وأكاذيب افتراء عليهم، كتلك التي روجها اليهود وزعموا أنها في الكتاب المقدس، حيث تصف الأنبياء بأنهم أهل غدر وخيانة، أو أنهم أهل شهوة وسكر، فإن الذب عن أعراض أنبياء الله أمام هذه التهمة الباطلة من أوجب الواجبات على أهل العلم، صيانة لمقام الأنبياء وحفظا لحقهم .

(٥) - كثرة الصلاة والسلام عليهم عند ذكرهم .

﴿ حكم الإسلام فيمن ينتقصهم أو يسبهم ﴾

يقول القاضي عياض : وحكم من سب سائر أنبياء الله تعالى وملائكته، واستخف بهم، أو كذبهم فيما أتوا به، أو أنكرهم وجحدهم حكم نبينا ﷺ على مساق ما قدمناه قال الله تعالى :

^١ - أخرجه ابن منده في ((الإيمان)) (٢ / ٩٧٢) حديث (١٠٧٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء: آية: ١٥٠] وقال تعالى:
﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾
﴿ [سورة البقرة: آية: ١٣٦] وقال ﷺ: ﴿ كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [سورة البقرة: آية: ٢٨٥] قال مالك في كتاب ابن حبيب، ومحمد، وقال ابن القاسم وابن
الماجنون وابن عبد الحكم وأصبع وسحنون فيمن شتم الأنبياء، أو أحدا منهم، أو تنقصه: قتل
ولم يستتب. ومن سبهم من أهل الذمة قتل إلا أن يسلم.
وروى سحنون عن ابن القاسم: من سب الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفر
فاضرب عنقه إلا أن يسلم. وقال القاضي بقرطبة سعيد بن سليمان في بعض أجوبته: من سب
الله وملائكته قتل. وقال سحنون: من شتم ملكا من الملائكة فعليه القتل. وفي ((النوادر)) عن
مالك فيمن قال: إن جبريل أخطأ بالوحي، وإنما كان النبي علي بن أبي طالب. استتيب فإن تاب
وإلا قتل. ونحوه عن سحنون، وهذا قول الغرابية من الروافض سموا بذلك لقولهم: كان النبي ﷺ
أشبه بعلي من الغراب بالغراب. وقال أبو حنيفة وأصحابه على أصلهم: من كذب بأحد من
الأنبياء، أو تنقص أحدا منهم، أو برئ منهم فهو مرتد. (١)

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة الإيمان بالرسول والتأدب معهم ﴾

لقد تقرر أن علماء الأزهر وطلاب علمه، هم الورث الأعظم للهدي النبوي الشريف
وأعظم الناس اقتداء برسول الله ﷺ، وهم حماة العقيدة ودعاة ترسيخ الإيمان في قلوب العباد، و
من المعلوم من الدين بالضرورة الإيمان بالرسول، وتوقيرهم والتأدب معهم، وعدم التفريق بينهم، و
قد سبق ذكر الأدلة على هذا كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [سورة البقرة: آية: ٢٨٥] وغيرها من الآيات. فالأنبياء جميعهم حرمتهم واحدة

^١ - ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣) .

كحرمة سيدنا محمد ﷺ، والإيمان بهم جميعا كالإيمان بحبيبنا محمد ﷺ وهذا ما قرره ﷺ في قوله :
 ((أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة)) . قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال:
 ((الأنبياء إخوة من علاتٍ وأمهاتهم شتى ودينهم واحد)) الحديث . (١)
 فعمدوا إلى تعليم الناس هذه العقيدة وترسيخها في قلوبهم ونفوسهم بكل طرق توصيل العلم من
 مجالس وحلق العلم، ومجالس المواعظ، وخطب الجمعة، والتأليف والنظم، وليس هذا فحسب بل
 بترسيخ حقيقة الإيمان، من إيمان بالله تعالى وذاته وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، ومما يدل
 على هذا ذلك التراث العلمي الضخم في تصنيف العقيدة ومتونها النثرية والشعرية، مثل
 ((جوهر التوحيد)) لشيخ الإسلام إبراهيم اللقاني، وما تبعها من شروح عديدة، وكذلك نظم
 ((الخريدة البهية)) للعلامة الدردير، وما تبعها من شروح . وغيرها من هذه المتون، لعلماء
 الأزهر المشهورين وغيرهم ممن لم يشتهر كشهرة غيره من الأعلام، وعلى سبيل المثال علامة زمانه
 الشيخ عمران أحمد عمران السيوطي المالكي الشاذلي رحمه الله،^٢ والذي وقفت على نظم له في
 العقيدة أسماه : ((منظومة التوحيد)) وهي منظومة مائة مختصرة بديعة ، يقول رحمه الله تعالى :

١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الفضائل)) باب ((فضائل عيسى عليه السلام)) حديث (٢٣٦٥)
 ٢ - الشيخ المحدث عمران بن أحمد بن عمران المالكي مذهبا، السيوطي بلدا، الشاذلي مشربا الحسني نسبا وشرفا، رحمه الله
 تعالى . ولد تقريبا في ربيع الأول في الثاني عشر منه سنة ١٨٩٠م وسبحان الله بينه وبين جده ﷺ موافقة عجيبة في تاريخ المولد
 والوفاة والسن، فقد انتقل إلى جوار ربه أيضا في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٩٥٣م عن ثلاثة وستين سنة، رحمه الله رحمة
 واسعة . كان من أكابر أهل العلم معروف عند الأكابر منهم في زمانه مشهور بينهم بالفضل والصلاح والعلم، ولد في المطيعة من
 قرى أسوط ونشأ بها يتيما رحمه الله وانتقلت به والدته إلى أسوط حيث تعلم هناك وأقام في حي الحمراء، وله مسجد يعرف
 باسمه الآن ثم انتقل رحمه الله إلى قرية كوم أبو شيل وبها توفي وقبر رحمه الله، بعد حصوله على الشهادة الثانوية الأزهرية، وربى بها
 أجيالا ورجالا، وكانت يومها تعج بالجهالة والفار والقتل .. إلخ، فأصلح الله تعالى شأنهم على يديه بالوعظ والإرشاد والنصيحة
 وصاروا من مريديه وتلامذته حتى خرج منهم العلماء بعد ذلك ، له الآلاف من القصائد في مدح رسول الله ﷺ قال عنه الشيخ
 يوسف الدجوي رحمه الله : الشيخ عمران حسان زمانه . وقال عنه الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله : كنت أتمنى أن أراه ، له
 مئات الكتب والرسائل المطبوعة ومنها ما يزال مخطوطا إلى الآن ، ذكر منها الكوهن شينا في ترجمته له في ((طبقات الشاذلية))
 ص (٢١٢ - ٢١٤) ومنها على سبيل الذكر : ((سيوف المريدین في نحر المنكرين)) وهو كتاب لم يسبق له مثيل ، أتى فيه
 بالعجب العجيب، وكشف النقاب عمن لزم الاعتاب من الأحاب، وكتاب : ((إرشاد العباد إلى سبيل الرشاد)) تكلم فيه عن
 أسرار الطريق، وإظهار معالم التحقيق، فهو كتاب فريد في باب، وكتاب ((التوسلات العمرانية)) وهي التوسلات التي نظمها
 بإذن سيد السادات، وكتاب : ((التوسلات الأبجدية بالحضرة احمديّة)) تلقاها عن صاحب الرسالة، وكتاب : ((نور البيان في
 الكشف عن بدع آخر الزمان)) ويكفي القارئ عنوانه فلكل شيء دليل، وله شرح على الحكم سماه : ((جلاء الظلم))، وشرح
 على الوظيفة سماه ((الواردات اللطيفة)) وشرح على ((التحيات)) وشرح على ((الأجرومية)) بطريق الإشارة الربانية ، و
 كتاب ((الأدلة الشرعية على الإشارة الشاذلية)) . وغيرها مما ذكره تلامذته .

الحمد لرب منفرد	لم يولد جل ولا ولدا
وصلاةً منه على طه	وسلامٌ يجري طول مدى
والآلِ وصحبِ أعلامٍ	نرجو بهم منه المددا
من بعدِ فذا عقد الدينِ	احفظه تكن ممن سعدا
عشرون صفاتٍ قد وجبت	لإله العرش كما وردا
فوجودٌ مع قدمٍ فاعلم	وبقاءٌ لا يتلوه ردى
ومخالفةُ المخلوقِ قيام	النفس غنى عما وجدا
والوحدانيةُ في الذاتِ	والوصفِ وفعلٍ فاعتمدا
وحياةٌ علمٌ قدرته	وإرادتهُ الأشياءُ أبدا
سمعُ المسموعِ كذا بصرٌ	كقديمٍ كلامٍ ما نفدا
كونُ المولى حياً فاعْرِفْ	كالباقيٍّ من سبعِ عَدَدَا
نَفْسِيَّتُهُ الْأَوَّلَى ذُكِّرُوا	خمسٌ سَلَبَتْ ضِدًّا سُرْدَا
ومعاني السبعِ ومع كونٍ	فبمعناويتها عُقِدَا

عنه لن تُشركه أحدا

ولها أضدادٌ قد نُفيت

والعلم به نهج السعدا

والجهل بربك ذو خطرٍ

فرضٌ فاحفظُ ينفعك غدا

ودليل الوصف الإجمالي

الله به عقلٌ شهدا

فوجود الكون دليلٌ وجود

قدماً لله ولا تمدا

فإذا أوجبت له أوجب

لله بقا أبدا أبدا

ومتى ثبت قدمٌ ثبت

لحوادثه تلقى الرشدَا

وبذا فاحكم بمخالفةٍ

معناه قيام النفس بدَا

وغناه المطلق عن خلقٍ

فيحلُ بذا أو يستندا

لا وصف تراه لا جرما

جاء القرآن وقد وردَا

لو كان اثنين لما انتظمت

لم يُعرف للأموات يدا

والميت فليس له أثر

فائف وانظر منك الجسدَا

والجهل كعجزٍ أو كرهٍ

لتحطمت الأشياء بددا

لو لم يسمع يُبصر ربي

لم يُرسل بكلام أحدا

لو لم يتكلم مولانا

فأجزه على الله الصّمد

إيجاد الممكن إعدام

وهو المختار إذا قصدا

ووجوب الأصل ممنوع

يُغني من شا يُفقر أمد

يعطيهم إن شا أو يمنع

أوجب واحذر بدع البعدا

للسل صفات أربعة

فطنا كل ليسوا بلدا

فالصدق أمانة تبليغ

وأجز عرضاً لا نقص بدا

والضد محال فاعلمه

معجزة الله لهم أبدا

لو تركوا الصدق لما ظهرت

لو كنتموا ضاع الدين سدا

لو خانوا لم تؤمر بهم

بالحجة عائداً أو جحدا

لو بلدوا ما قهروا خصماً

إبراهيم موسى إذ وردا

وأولوا عزم بعد الهادي

فيما نرويه معتمدا

عيسى نوح في آخرهم

إياك ومن للحق عدا

أفضلهم خير الخلق أتى

ونعيم عذاب من شردا

وسؤال المنكر في قبر

حوض ميزان لا عددا

والبعث وحشر مع نشر

وصراطٌ يعلو متن النار فيسقطُ فيها مَنْ طردا

والجنةُ بدءاً أوجدتها كالنارِ وخالفَ مَنْ مَرَدَا

والجنُّ عبادٌ كلفهم كالإنسِ إذا عرضوا اعتمدا

أملكُ حورٌ ولدانٌ في الخلدِ لعبدٍ قد خَلَدَا

ووليَّ اللهٍ وشرعتهِ وكرامتهِ تبقى أبدا

وأولوا الإيمانِ يرون اللهَ بدارِ الخلدِ كما وعدا

وصلاة اللهِ على الهادي والآلِ وأصحابِ سعدا

ما غرد فيهم عمران يرجو فوزاً في الحشرِ غدا

وقد طبقوا ذلك عمليا في المعاملة الحسنة لأهل الكتاب، واحترام رسلهم مما أثر في الشخصية المصرية وعلى سبيل المثال :

قد انتهز الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ حسن مأمون فرصة عيد ميلاد المسيح ﷺ فوجه رسالة إلى المسيحيين في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٦٨ م قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله سبحانه وأصلي وأسلم على رسوله المصطفى وعلى من سبقه من الأنبياء والمرسلين .

وفي ذكرى ميلاد المسيح ﷺ أحيي إخواننا المسيحيين متمنيا في هذه المناسبة الطيبة التي يحتفل فيها العالم كله بميلاد رسول السلام عيسى ﷺ، أن تتجه كلها إلى تلك الأرض المقدسة التي ولد فيها المسيح، ليروا كيف اعتدى فيها على السلام، وكيف شردت الفئة الباغية المعتدية من اليهود الصهيونيين، أهل بلد المسيح ﷺ وانتزعت أرضهم، وما زالت تمارس أساليب الغدر

والعدوان بمعاونة دول تعتنق دين المسيح، وتشجع على الظلم، والمسيح من الظلم براء، أيها الإخوة المسيحيون يا من قال الله تعالى في أسلافكم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^١ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَزُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَأَثْبَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٩٠﴾ [سورة المائدة آية: ٨٢ - ٨٦]

٨٦] تعالوا إلى كلمة سواء... أيديكم في أيدي إخوانكم المسلمين ثقب الظلم، ودفع العدوان حتى يظهر الله أرضنا وأرض المسيح، من رجس الصهيونية أعداء الله وأعداء الحياة، ويومئذ نفرح وتفرحون وتعم المسلمين والمسيحيين على السواء أعياد الظفر والنصر المبين، وكل عام وأنتم بخير. (١)

وكذلك ما حكى عن موقف شيخ الإسلام الباجوري: سجل التاريخ أن حاكم مصر الوالي عباس الأول كان شديد النقرة على النصارى، وأخرج معظمهم من خدمة الحكومة، وأصابهم بألوان من الأذى والاضطهاد، وقد خطر له أن يخرجهم من مصر ويبعدهم إلى السودان، وعندما أراد استصدار فتوى من الأزهر بجواز ذلك استدعى الشيخ الباجوري شيخ الجامع الأزهر يومئذ وسأله في ذلك، وكان رد الشيخ الباجوري هو رفض رغبة الوالي قائلا: إنه إذا كان - يعني الذميين - الذين هم من أهل البلاد، فالحمد لله لم يطرأ على ملة الإسلام طارئ ولم يستول عليها خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر. (٢)

٥ - قيمة الإيمان بالقضاء والقدر

((القضاء)) لغة: مصدر الفعل قضى يقضي قضاءً. قال ابن فارس: ((قضى)) أصل

^١ - ((شيوخ الأزهر)) للأستاذ سعيد عبد الرحمن (٤ / ٨٤) .

^٢ - مقال: ((موقف أزهري كيف قام الأزهر بتأمين أهل الكتاب بمصر)) بقلم الأستاذ / محمد السيد الصياد الأزهري .

صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته . قال الله تعالى: ﴿ فَقَضَلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [سورة فصلت آية: ١٢] أي: أحكم خلقهن . (١) و((القضاء)) : هو الحكم والصنع والحثم، و البيان . وأصله القطع والفصل وقضاء الشيء وإحكامه وإمضاؤه والفراغ منه؛ فيكون بمعنى الخلق (٢) وقال الجرجاني في تعريف ((القضاء)) : القضاء لغة: الحكم .
وفي الاصطلاح: عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد . (٣) (٤)

﴿ معاني كلمة القضاء في القرآن ﴾

لقد جاءت كلمة ((القضاء)) في القرآن الكريم بمعان عديدة منها :

(١) - الوصية والأمر: قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [سورة الإسراء آية: ٢٣] أي : أمر وأوصى. قال البيضاوي : أمر أمرا مقطوعا به . (٥)

(٢) - الحكم: قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء آية: ٤] وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [سورة طه آية: ٧٢] قال البيضاوي : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ ما أنت قاضيه، أي صانعه أو حاكم به، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ إنما تصنع ما تهواه أو تحكم ما تراه في هذه الدنيا . (٦)

١ - ((معجم مقاييس اللغة)) لابن فارس (٩٩ / ٥) .

٢ - ((لسان العرب)) لابن منظور (١٨٦ / ١٥) .

٣ - الأزل: هو الشيء الذي لا بداية له، والأبد: هو الشيء الذي لا نهاية له . أو يقال: الأزل: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب الماضي، والأبد: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب المستقبل. أنظر ((التعريفات)) للجرجاني ص (٧) .

٤ - ((التعريفات)) ص (١٧٧) .

٥ - ((تفسير البيضاوي)) (٣ / ٤٣٨) .

٦ - ((تفسير البيضاوي)) (٤ / ٦١) .

(٣) - الفراغ من العمل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَّتُمْ مِّنْ سَكَنِكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۖ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٠٠] قال القرطبي : وقضيت هنا بمعنى أدبتم وفرغتم قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَّتِ الصَّلَاةُ ﴾ [سورة الجمعة آية: ١٠] أي: أدبتم الجمعة وقد يعبر بالقضاء عما فعل من العبادات خارج وقتها الحدود لها . (١)

(٤) - الإتمام والحتم : قال الله تعالى : ﴿ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ [سورة القصص آية: ٢٩] وقال : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢١٠] وقال سبحانه : ﴿ وَقِيلَ يَتَّزِشْ أِبْلَىٰ مَاءَكَ وَيَسْمَأُ أَقْلَىٰ وَغِيضَ الْأَمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة هود آية: ٤٤] وقال تعالى : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [سورة يوسف آية: ٤١]

(٥) - الفصل في الحكم والقضاء : قال الله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر آية: ٦٩]

(٦) - الخلق : قال الله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر آية: ٦٩]

(٧) - القتل : قال سبحانه : ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [سورة القصص آية: ١٥]

﴿ تعريف القدر ﴾

((القدر)) في اللغة: مصدر الفعل: قَدَرَ يَقْدَرُ قَدْرًا، وقد تسكن داله . (٢) قال ابن فارس : أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته؛ فالقدر مبلغ كل شيء، يقال: قَدَرُهُ كذا أي مبلغه، وكذلك القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشيء أَقْدِرُهُ وَأَقْدَرُهُ من التقدير . (٣)

و((القَدَر)) محركة: القضاء، والحكم، وهو ما يقْدَرُهُ الله ﷻ من القضاء، ويحكم به من

^١ - () - ((تفسير القرطبي)) (٢ / ٤٣١) .

^٢ - () - ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٤ / ٢٢) .

^٣ - () - ((معجم مقاييس اللغة)) (٥ / ٦٢) ..

الأمر . و ((التقدير)) : التروية والتفكير في تسوية أمر وتهيئته .^(١)
والقدر في الاصطلاح: قال الجرجاني : القدر خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً
بعد واحد مطابقاً للقضاء . والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال .^(٢)

﴿ معاني القدر في القرآن ﴾

يأتي القدر في القرآن الكريم بعدة معان منها :

(١) - **التضييق** : قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴾ [سورة

الفجر آية: ١٦] أي ضيق عليه وجعله بمقدار بلغته .^(٣)

(٢) - **التعظيم** : قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [سورة الأنعام آية: ٩١] ما عظموا الله حق

عظمته وما وصفوه حق صفته .^(٤)

(٣) - **القدرة في التدبير** : قال تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴾ [سورة المرسلات آية: ٢٣]

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي : قدرنا وقت الولادة . ﴿ فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴾ فنعمة المقدرين نحن .^(٥)

(٤) - **تقدير الزمان والمكان** : قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى

ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سورة سبا آية: ١٨] أي : جعلنا هذه

القرى على مقدار معلوم يقيل المسافر في قرية ويروح في أخرى .^(٦)

(٥) - **التقسيم** : قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي

أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [سورة فصلت آية: ١٠] أي : ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ قسم ﴿ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ للناس

^١ - ((لسان العرب)) (٧٥ / ٥) .

^٢ - ((التعريفات)) للجرجاني ص (١٧٤) .

^٣ - ((تفسير النسفي)) (٤ / ٣٣٧) .

^٤ - ((تفسير الواحدي)) (١ / ٣٦٤) .

^٥ - ((تفسير الواحدي)) (٢ / ١١٦٢) .

^٦ - ((تفسير النسفي)) (٣ / ٣٢٥) .

والبهائم ﴿ فِي ﴾ تمام ﴿ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ ﴾ . (١) وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [سورة الواقعة آية: ٦٠] أي : قسمنا بينكم الآجال إلى الموت . (٢)

(٦) - الإتيان : قال الله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَرٍ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة سبأ آية: ١١] أي : وقدر في نسجها بحيث تتناسب حلقها، أو قدر مساميرها فلا تجعلها دقاقا فتفلق ولا غلاظا فتتخرق . (٣)

(٧) - الإرادة : قال تعالى : ﴿ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [سورة القمر آية: ١٢] أي دبر، وأريد وقوعه. قال البيضاوي : على حال قدرها الله . (٤)

(٨) - الصنعة بإحكام ومقدار معين : قال تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [سورة الإنسان آية: ١٦] قال النسفي : ((قوارير من فضة)) أي : مخلوقة من فضة، فهي جامعة لبياض الفضة وحسنها، وصفاء القوارير وشفيفها حي يرى ما فيها من الشراب من خارجها، قال ابن عباس رضي الله عنه : قوارير كل أرض من تربتها وأرض الجنة فضة . ﴿ قَدَرُوهَا ﴾ تكرمة لهم، أو السقاة جعلوها على قدر ري شاربها فهي ألد لهم وأخف عليهم، وعن مجاهد: لا تفيض ولا تغيض . (٥)
(٦) وغيرها من معانيها الواردة في القرآن ولغة العرب .

﴿ أدلة الإيمان بالقضاء والقدر ﴾

دلَّ على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان الكتابُ والسنةُ والإجماعُ والفطرةُ والعقلُ والحسُّ .

أدلة القرآن : قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٣٨] أي : وكان أمر الله قضاء مقضيا . (٦)

^١ - ((تفسير الجلالين)) (١ / ٦٣١) .

^٢ - ((تنوير المقباس)) للفيروز آبادي ص (٤٥٤) .

^٣ - ((تفسير البيضاوي)) (٤ / ٣٩٤) .

^٤ - المرجع السابق (٥ / ٢٦٥) .

^٥ - ((تفسير النسفي)) (٤ / ٤٠٣) .

^٦ - ((تفسير الطبري)) (٢٢ / ١٥) .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر آية: ٢١]

أي: لا نقصه ولا نزيده غير أنه يصرفه إلى من يشاء حيث شاء كما يشاء . (١)

كل شيء، وذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به المطر خاصة. (٢) ... إلخ

والأدلة من السنة: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ)) (٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سَلُونِي)) . فَهَابُوهُ أَنْ يَسْأَلُوهُ فَجَاءَ رَجُلٌ فَجَلَسَ عِنْدَ رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ ؟ . قَالَ : ((لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَتُقِيمِ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ)) . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ ؟ . قَالَ : ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ ...)) الحديث . (٤)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ الْخَيْرِ فَاحْرِصْ عَلَى مَا تَنْتَفِعُ بِهِ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا . وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ . فَإِنَّ اللَّوَّ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)) . (٥) ... إلخ هذه الأدلة .

﴿ القدر قدرا ﴾

((أحدهما)) : القدر المثلث، أو المطلق، أو المبرم: وهو ما في أم الكتاب فهذا ثابت لا يتغير، ولا يتبدل.

((ثانيهما)) : القدر المعلق، أو المقيد: وهو ما في كتب الملائكة، فهذا هو الذي يقع فيه الحو والإثبات، فالآجال والأرزاق والأعمار، وغيرها مثبتة في أم الكتاب لا تتغير، ولا تتبدل، أما ما في صحف الملائكة فيقع فيه الحو والإثبات، والزيادة والنقص .

^١ - ((تفسير الواحدي)) (١ / ٥٩٠) .

^٢ - ((زاد المسير في علم التفسير)) لابن الجوزي (٤ / ٣٩٢) .

^٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٥١) حديث (٢١٤٤) .

^٤ - متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

^٥ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٣ / ٢٩) حديث (٥٧٢٢) .

أقوال العلماء في أنواع القضاء والقدر : لقد ذكر الله تعالى نوعي القضاء والقدر في آية من كتابه الكريم فقال الله تعالى : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرعد آية: ٣٩]

اختلف المفسرون في ذلك فقال الثوري ووكيع وهشيم عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه : يدبر أمر السنة فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت . وفي رواية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال : كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما . وقال مجاهد: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران . وقال منصور: سألت مجاهدا فقلت : أرأيت دعاء أحدهما يقول : ((اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعداء)) . فقال: حسن . ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك فقال : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [سورة الدخان آية: ٣] قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير .

وقال الأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة : إنه كان كثيرا يدعو بهذا الدعاء ((اللهم إن كنت كتبنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب)) . وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن أبي حكيم عاصمة عن أبي عثمان النهدي : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويكي : اللهم إن كنت كتب علي شقوة أو ذنبا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة . وقال حماد عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا، ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عكيم عن ابن مسعود بمثله . وقال ابن جرير : أن كعبا قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال قول الله تعالى : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ الآية .

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر)). (١)

قال ابن حجر فالحق والإثبات بالنسبة لما في علم الملك . وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه البتة، ويُقال له: القضاء المبرم، ويقال للأول: القضاء المعلق. (٢)

ويجب الإيمان بالقضاء والقدر وأن الله قضى المعاصي والمكروه وقدر ذلك وكتبه على خلقه ولم يأمرهم به بل نهاهم عن الرضا بذلك. (٣)

والحاصل أنها قد وردت السنة الصحيحة ببيان أن القضاء باعتبار العباد ينقسم إلى قسمين خير وشر، فإنه قد شرع لهم الدعاء بالوقاية من شره، والاستعاذة منه، ولا ينافي هذا ما ورد عنه ﷺ في بيان معنى الإيمان لمن سأله عنه بقوله: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره)). كما هو ثابت في الصحيحين عنه ﷺ وغيرهما من طرق، فإنه يمكن أن يكون الإنسان مؤمنا بما قضاه الله سبحانه وتعالى من خير وشر، مستعيذا بالله من شر القضاء، عملا بمجموع الأدلة، فحديث الإيمان بالقضاء كما دل على أنه من جملة ما يصدق عليه مفهوم مطلق الإيمان، دل على أن القضاء منقسم إلى ما هو خير وإلى ما هو شر، كما قال: ((والقدر خيره وشره)). ثم بين ﷺ بما وقع منه من الاستعاذة من شر القضاء أن ذلك جائز للعباد. (٤)

﴿ حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر ﴾

الإيمان بالقضاء والقدر هو الإيمان بعلم الله الأزلي، والإيمان بمشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، وهو على أربع مراتب، يتحقق بها الإيمان بصفات الله التي تعرف من حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر ومنها :

^١ - ((تفسير ابن كثير)) (٢ / ٥٢٠) بتصرف يسير .

^٢ - ((فتح الباري)) (١٠ / ٤٣٠) .

^٣ - ((العين والأثر في عقائد أهل الأثر)) لعبد الباقي المواهي الحنبلي ص (٤٣) .

^٤ - ((تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين)) . للشوكاني ص (٤٤٦ - ٤٤٧) .

(١) - **العلم** : العلم بالأشياء قبل وجودها قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سورة يونس آية: ٦١] فالله ﷻ قدر كل شيء كان أو هو كائن إلى يوم القيامة وما يكون في الدار الآخرة ألا بعلمه، وقضى ذلك بقضائه سبحانه. وكتب كل شيء بعلمه، وأمر القلم فجرى بعلمه في خلقه، قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة الحديد آية: ٢٢] وعن الوليد بن عباد بن الصامت قال حدثني أبي ﷺ قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْآبِدِ)) . (١)

(٢) - **الإيمان بمشيئة الله تعالى** : فيستقر في قلوب العباد أنه لا مشيئة غالبة لمشيئته سبحانه وتعالى، وأنه لا يتم في ملكه إلا ما أَرَادَهُ سبحانه، فما من حركة ولا سكون في الأرض ولا في السماء إلا بمشيئته، فيثمر هذا حقيقة الإسلام في القلوب بخضوع لله تعالى ورضا عنه في قضائه وقدره، فيتجرد العبد من تدبيره لنفسه، ليفوض أمره إلى ربه فهو المدبر لشأنه كله وللسموات والأرض وما فيهن ، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الإنسان آية: ٣٠] وقال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [سورة البقرة آية: ١١٧] . قال سفيان الثوري : لما نزلت هذه الآية : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [سورة التكاوير آية: ٢٨] قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم . فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة التكاوير آية: ٢٩] (٢)

واعلم بأن القدر سر، والقضاء ظهور، السر في اللوح، والحكم نزوله على العبد، فالحكم يقتضي التسليم، والقضاء يقتضي الرضا، والقدر يقتضي التفويض، والقدر في علم الله ﷻ لا في وجه اللوح، والقلم الاطلاع، وإذا اطلع اللوح عليه سمي قضاء، وإذا وصل إلى العبد سمي حكما، والقدر مقدر في علمه الذي علم وصوله إلى العبد إن شاء، والقدر صفته، والمقدور ملكه، والقدر ليس بمحدود ولا معدود، والمقدور محدود ومعدود، كذلك القضاء والمقتضي، والحكم والحكوم،

^١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٤٢٤) حديث (٣٣١٩) .

^٢ - ذكره ابن كثير في ((تفسيره)) (٤ / ٤٨١)

والقدر صفة ربوبيته من غير ابتداء، تصويبا من الله ﷻ، والقضاء إلزام ما صوبه، والحكم تعليق ما ألزمه على العبد . (١)

﴿ ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ﴾

والإيمان بالقضاء والقدر يورث المؤمن به صفات سامية وقيما كريمة ومنها :

(١) - **القوة وعلو الهمة** : وخير دليل على هذا هم الصحابة والسلف الصالح ﷺ في معاركهم مع أعداء الله ورسوله ﷺ وكانوا في معظمها قلة في العدد، ضعفاء في عتادهم، ولكنهم انتصروا بفضل الله وإيمانهم وعقيدتهم التي هذبت عليها نفوسهم وتنورت بها قلوبهم إيمانا بقول ربهم ﷻ : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة آية: ٥١] حتى هابتهم القوى العظمى في زمانهم، لما علموا قوة عقيدتهم، وكان شعارهم ﷻ : ((احرص على الموت توهب لك الحياة)) .

ويذكر التاريخ عن صحابة النبي ﷺ أنهم كانوا لا يخشون الموت ولا يهربون منه، خاصة في ميدان الجهاد لرفع راية الإسلام، ففي معاركهم لفتح بلاد فارس : أقبل خالد حتى نزل الحيرة وكان عليها قيصة بن إياس بن حية الطائي أميرا لكسرى، فخرج إليه بأشrafهم، فقال لهم خالد : أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام. فان أجبتهم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وإن أبيتم فالجزية، فان أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم . فقال له قيصة بن إياس: ما لنا بجربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية . فصالحهم على تسعين ألف درهم كل سنة فكانت أول جزية وقعت بالعراق هذه والتي صالح عليها ابن صلوبا . (٢)

١ - ((أصول الدين)) للغزنوي الحنفي ص (١٨٦ - ١٨٧) .

٢ - ((الثقات)) لأبي حاتم (٢ / ١٨٣) .

(٢) - **الرضا والطمأنينة** : وأعظم ما يورثه الإيمان بالقضاء والقدر، من صفات إيمانية صفة الرضا عن الله تعالى، والاطمئنان إلى عدله في قضائه وقدره، فنفس المؤمن راضية لعلمه يقينا بعدل الله وحكمته ورحمته . ولقد ضرب السلف المثل الأعلى في هذه القيمة السامية والصفة الكريمة وإليك أمثلة :

(١) - النبي ﷺ كان أَرْضَى الخلق بقضاء الله وقدره، أبتلي بمختلف أنواع الأذى في سبيل إبلاغ رسالة ربه فصبر ورضي ، وكان يقابل الإساءة بالإحسان والدعاء لمن آذاه : عن ابن عباس ؓ قال: سئل رسول الله ﷺ أي آية أنزلت من السماء أشد عليك ؟ قال : فقال : ((كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركوا العرب، وأفناء الناس في الموسم، فأنزل علي جبريل فقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة المائدة آية: ٦٧] قال : فقامت عند العقبة فناديت يا أيها الناس من ينصروني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة ؟. أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا . أو تنجحوا ، ولكم الجنة . قال: فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون علي بالتراب والحجارة ويزقون في وجهي ويقول : كذاب صابئ . قال: فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعوا عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك . فقال النبي ﷺ : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون وانصروني عليهم أن يجيئوني إلى طاعتك)). فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه . (١)

واختار الآخرة وآثرها على الدنيا، وترك الدنيا بأثرها وزهد فيها، مع أنه لو أرادها لسارت معه الأرض ذهباً وفضة أينما حل وذهب، عن ابن عباس ؓ يحدث أن الله تبارك وتعالى أرسل إلى نبيه ﷺ ملكاً من الملائكة ومعه جبريل فقال الملك : إن الله يخبرك بين أن تكون عبداً نبياً وبين أن تكون ملكاً . فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأشار جبريل بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ : ((بل أكون عبداً نبياً)) . الحديث . (٢)

ومات أولاده فصبر ورضي حتى عيره من غيره وهو عدو الله العاص بن وائل لعنه الله : كان إذا ذكر له رسول الله ﷺ قال : دعوا ذكره فإنه أبتر . يعني أنه لا ولد له فإذا مات انقطع ذكره واسترحم منه . وكانت قريش تقول لمن مات ابنه أو لم يكن له ابن : أبتر . فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [سورة الكوثر آية: ٣]

^١ - أخرجه الضياء في ((المختارة)) (١٠ / ١٤) .

^٢ - أخرجه النسائي في ((سننه الكبرى)) (٤ / ١٧١) رقم (٦٧٤٣) .

يعني : مبغضك هو الأبر . أي الذي انقطع خيره وذكره في الدنيا والآخرة . (١) ...إلخ ما ذكر من أحواله ﷺ في الرضا عن الله في قضائه وقدره له ﷺ .

وربى أصحابه على هذه القيمة الغالية ، وصحابته ربوا أتباعهم عليها ، وهكذا كانت الأمة في قرون الخير راضية عن ربها في قضائه وقدره، فكان النصر جدير بهم وهم أجدر الناس بالنصر والعزة .

وبالجملة نقول : لقد كان إيمان المسلمين بعقيدة القضاء والقدر سببا في تقدمهم في جميع مجالات الحياة، حتى سادوا الدنيا كلها في مدة وجيزة أشبه ما تكون بالأحلام، ويوم أن ضعف الإيمان بعقيدة القضاء والقدر تأخر المسلمون، وأصبح حالهم على ما نراه الآن . وكان لعقيدة القضاء والقدر الأثر الواضح في نبوغ علماء المسلمين في فروع العلم المختلفة، فماذا يمنع المسلم من أن يغامر ويلاحظ، وأن يجرب ويختبر، ويقضي الساعات الطويلة في المعامل، ووسط الأجهزة والمخابر، ليكتشف سنن الله في كونه بعزيمة قوية لا تعرف التردد، لإيمانه بأن أمر المؤمن كله خير؛ كما قال ﷺ ، وكان نتيجة ذلك أن ظهر العباقرة من المسلمين أمثال جابر بن حيان في مجال الكيمياء، فهو أول من استحضر حامض الكبريتيك، واكتشف حامض النيتريك والصودا الكاوية، واستخدم ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج. وأمثال الحسن بن الهيثم أستاذ البصريات، الذي ألف في الرياضة خمسة وعشرين كتابا، وفي الطبيعة أربعة وأربعين كتابا . وأمثال البيروني الذي يقول عنه المستشرق الألماني سخاو : البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ، فقد كان أديبا متعمقا في الرياضيات، والفلك، والتاريخ . وأمثال : ابن سينا في الطب، وابن البيطار في الصيدلة، والخازن في الضوء، واليوزجاني وابن يونس وعباس بن فرناس في الفلك، و الخوارزمي وابن فضالان والمسعودي والمقدسي في الجغرافيا والطيران .

وكانت هذه العقيدة سببا في الهدوء النفسي، والطمأنينة القلبية، فلم يظهر ما يسمى بالعقد النفسية، أو الأمراض العصبية، أو حوادث الانتحار، وغيرها من الأمراض الاجتماعية التي أصابت الأمة، وكفلت لها تعايشا سلميا على منهج أخلاقي ديني أصيل . والإيمان بعقيدة القضاء والقدر يدفع المسلم لأن يكون كريما سخيا جوادا ودودا، ولهذا أثره في تكافل المجتمع وتمسك كيانه . (٢)

١ - ((تفسير السمعاني)) (٦ / ٢٩٣) .

٢ - ((فوائد الإيمان بالقضاء والقدر)) للدكتور . محمد ربيع جوهري المصدر : موقع هدي الإسلام .

﴿ أثر الإيمان بالقضاء والقدر ﴾

وللإيمان بالقدر ثمرات أخلاقية تعود على المؤمن به بحسن الخلق، وطيب النفس، وحسن العشرة، ولين العريكة، ومن تلك الثمرات ما يلي :

(١) - الصبر : فالإيمان بالقدر يشمر لصاحبه عبودية الصبر على الأقدار المؤلمة، والصبر من جهيل الخلال، ومن محمود الخصال، له فوائده الجمّة، وعوائده الكريمة، وله عواقبه الجميلة، وآثاره الحميدة .

(٢) - التواضع : فالإيمان بالقضاء والقدر يحمل صاحبه على التواضع مهما أوتي من مال، أو جاه، أو علم، أو شهرة، أو نحو ذلك؛ لعلمه بأن ما أوتيّه إنما هو بقدر الله، وأنه ﷻ لو شاء لانتزعه منه . ومن هنا يتواضع لله تعالى .

(٣) - الكرم والسخاء : ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم علم اليقين بأن الله هو الرزاق، وهو الذي قسم بين الخلق معيشتهم؛ فكلّ له نصيبه، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، ولن يفتقر أحد إلا بقدر الله ﷻ، وهذا الإيمان يشرح صدر صاحبه للإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله، واستجابة لأمره ﷻ بالإنفاق .

(٤) - الشجاعة والإقدام : فالإيمان بالقدر يملأ قلب صاحبه شجاعة وإقداماً، ويُفرّغه من كل خور وجبن؛ لأن المؤمن بالقضاء والقدر يعلم أنه لن يموت قبل يومه، ولن يصيبه إلا ما كُتب له، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروه لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه .

(٥) - سلامة الصدر من الحسد والاعتراض : الإيمان بالقضاء والقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بينها، وذلك مثل رذيلة الحسد؛ فالؤمن بالقدر لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لإيمانه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم أرزاقهم، فأعطى من شاء، ومنع من شاء ابتلاء وامتحاناً، وأنه حين يحسد غيره إنما يعترض على قدر الله . فإذا آمن بالقدر سلّم من الحسد، وسلّم من الاعتراض على أحكام الله .

(٦) - محاربة اليأس : المؤمن بالقضاء والقدر لا يعرف اليأس، ولا تراه إلا متفائلاً في جميع أحواله، منتظراً الفرج من ربه، عالماً بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً. وتراه موقناً تمام اليقين بأن العاقبة للمتقوى وللمتقين، وأن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة .

٩) - قوة الاحتمال : فالمؤمنون بالقضاء والقدر حقاً هم أقوى الناس نفوساً، وأكثرهم احتمالاً، وأقلهم جزعاً، والذين لا يؤمنون بالقدر يجزعون لأتفه الأسباب، بل ربما أدى بهم الجزع إلى الجنون والوسوسة وتعاطي المخدرات، وقتل النفس. ولذلك يكثُر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقضاء والقدر، كأمريكا والسويد والنرويج وغيرها، بل لقد وصل الأمر ببعض البلاد إلى فتح مستشفيات لعلاج ظاهرة الانتحار. ولو كانوا يؤمنون بالله وبقدره هل يكون هذا مصيرهم؟! .

هل القضاء والقدر هو الجبر كما يقال: ((نحن مسيرون لا مختارون))؟! .

الجبر على ضربين، جبر من الإيجاب، وجبر من الجبروت، والإيجاب يزيل الأفعال، والجبروت يزيل الاستغناء، فالعبد ليس بمجبور إجباراً يزيل الفعل، بل هو مختار في الفعل تحت الجبروت، مفتقر إلى الله ﷻ بورود التوفيق، ووجود الاستطاعة، فمن جهة تخليق الأفعال في أعضائه وإخراجها من العدم إلى الوجود مجبور، يعني ليس بخالق الأفعال، وإنما حصلت الأفعال بالتخليق فهو في استعمالها غير مجبور، بل مختار في استعمالها، لأن الله تعالى أعطى له التمييز متولداً من العقل والفهم، والذهن ليس كشجرة تحركها الريح تسخيراً من غير تمييز، أو كسحاب والشمس والقمر وسائر المسخرات لأنه مأمور منهي . والمجبورات غير مأمورات ولا منهيات، والعبد مثاب ومعاقب، والمسخرات لا ثواب لها ولا عقاب؛ فثبت أن العبد ليس بمجبور إجباراً يزيل الفعل، و ليس بمستغن يقدر على إيجاد المعدوم، لأنه ليس بخالق . (١)

هل وجود القضاء والقدر يسلب الإنسان اختياره بين الخير والشر ؟

اعلم أن المذهب المستقيم أن تقدير الخير والشر من الله تعالى، وفعل الخير والشر من العبد ، والعبد مختار في فعله اختيار تمييز وتحصيل، لا اختيار مشيئة وقدرة، والعبد مخاطب بمراعاة الأمر والنهي، وبالنظر إلى القضاء والقدر، فيحصل له الخوف والرجاء والاجتهاد والرغبة، وهو غير

^١ - ((أصول الدين)) ص (١٨٨ - ١٨٩) .

مسئول في جانب القضاء والقدر ليثاب ويعاقب، بل هو مسئول في جانب الأمر والنهي للشواب والعقاب، وليس للعبد أن يقول عاذرا لنفسه : بأن القضاء والقدر هكذا أجري علي فما ذنبي ؟ . بل العبد ملزم بمراعاة الأمر والنهي، فيقال له: إنك سلمت إلى الله ﷻ الربوبية وصدقته بأن القضاء والقدر منه ربوبية فكذلك الأمر والنهي ^(١).

واعلم أن لكل عبد هدى ورشدا، فمن الله ﷻ فضل، وكل من خذل وحرم فمن الله عدل، وصفة الله ﷻ الفضل والعدل، فمن أعطاه الهدى فقد عامله بالفضل، ومن حرمه فقد عامله بالعدل، ولا يوصف بالجور والخطأ، يظهر أن من الله تعالى الأمور لا من الأمر، فمنع التوفيق ليس بقدر للعبد، لأنه عادل في منعه متفضل في إعطائه، فالكل منه وإليه، ليس للعبد اعتراض، ولا منه مهرب، فينبغي للعبد أن يرضى بجميع ما قضى الله تعالى عليه وقدره، ويلزم طريق الصبر والتسليم والتفويض، وهو لا يخوض في قضاء الله وقدره، أو بوسوسة أو مقال، فإن الله تعالى أخفي علم القدر عن عباده، ونهاهم عن مرآه، ومنعهم عن الاعتراض فيه والسؤال عنه، كما قال تعالى:

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء آية: ٢٣] وقال ﷻ : ((لما خلق الله الخلق جعل طباعهم في النهي متحركة، وفي الأمر ساكنة، وأمرهم أن يسكنوا على المتحرك، وأن يتحركوا بالساكن، ولا تجدوا إلى ذلك سبيلا إلا بحول الله وقوته)) ^(٢) . وخالفنا في هذه المسألة القدري والجبري ؛ فقال القدري : الخير والشر فعل العبد ليس لله تعالى صنع فيه . وقال الجبري : الخير والشر من الله تعالى ﷻ ليس للعبد فيه فعل . والدلالة على بطلان ما قالوا ما ذكرنا من الدلائل . واعلم أن جميع أحكام الله تعالى ثلاثة :

- حكم شاء الله وأحبه : وهو الفرائض .
 - وحكم شاء الله وأحبه ولم يأمر به وهو النوافل .
 - وحكم شاء الله ولم يحبه ولم يأمر به وهو المعاصي .
- واعلم أن جميع ما قضى الله ﷻ أربعة : قضاء الطاعة، وقضاء المعصية، وقضاء النعمة، وقضاء الشدة . فعلى العبد إذا قضى له بالطاعة أن يستقبلها بالحمد والإخلاص ليكرم بالتوفيق . وإذا قضى له بالمعصية أن يستقبلها بالتوبة والاستغفار ليرزق المحبة والمغفرة . وإذا قضى له بالنعمة

^١ - ((أصول الدين)) ص (١٨٩ - ١٩٠) .

^٢ - لم أقف عليه .

أن يستقبلها بالشكر والصدق ليكرم بالزيادة . وإذا قضى له بالشدة أن يستقبلها بالصبر والرضا ليكرم بالأجر والثواب . (١)

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة الرضا بالقضاء والقدر ﴾

لقد علم الأزهر وعلماءه شعوب الأرض كيف يكون الرضا بالقضاء والقدر، وذلك بصدق أحوالهم، وبث علومهم، فعلموهم الرضا بقليل العيش وحمد الله عليه، وهذا أمر مشهور عنهم فقد كان أكثرهم فقراء وقد صبروا على هذا، ولم يعقهم الفقر عن طلب العلم، بل جدوا و اجتهدوا في تحصيله، وصبروا في سبيل هذا على الجوع تارة وقلة ذات اليد تارة أخرى، ومنهم من رضي عن الله تعالى في قضائه وقدره في مواجهة طغيان الحكام والولاة، والاستعمار الغاشم، بداية من الحملة الفرنسية التي قتلت المئات منهم، وذلك لأن إيمانهم بالقضاء والقدر ترجموه إلى أفعال، فلم يخافوا الموت ولا أسلحة الفرنسيين بجبروتها، بل واجهوا طغيانهم وبذلوا في سبيل حرية مصر وشعبها وجهادهم في سبيل الحق أرواحهم ثمنا غاليا لهذا، وهذه أمثلة على جهادهم في مراحل تاريخ مصر المختلفة :

فمثلا في عهد دولة المماليك : في سنة (١٢٠٩هـ / ١٧٩٥م) ، يروي الجبرتي في يومياته بأن أمراء ممالك اعتدوا على بعض فلاحى مدينة بلبس، فحضر وفد منهم إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي وكان شيخاً للأزهر وقتها. وقدموا شكواهم له ليرفع عنهم الظلم. فغضب وتوجه إلى الأزهر، وجمع المشايخ، وأغلقوا أبواب الجامع، وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر. واحتشدت الجموع الغاضبة من الشعب، فأرسل إبراهيم بك شيخ البلد هم أيوب بك الدفتردار، فسألهم عن أمرهم. فقالوا: نريد العدل، ورفع الظلم والجور، وإقامة الشرع، وإبطال الحوادث والمكوس والضرائب . وخشي زعيم الأمراء مغبة الثورة، فأرسل إلى علماء الأزهر يبرئ نفسه من تبعة الظلم، ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك. وأرسل في الوقت نفسه إلى مراد يحذره عاقبة الثورة.

٣ - ((أصول الدين)) ص (١٩٠ - ١٩٤) .

فاستسلم مراد بك، وردّ ما اغتصبه من أموال، وأرضى نفوس المظلومين. لكن العلماء طالبوا بوضع نظام يمنع الظلم ويردّ العدوان . واجتمع الأمراء مع العلماء، وكان من بينهم الشيخ السادات، والسيد عمر مكرم، والشيخ الشرقاوي، والشيخ البكري، والشيخ الأمير. وأعلن الظالمون أنهم تابوا والتزموا بما اشترطه عليهم العلماء. وأعلنوا أنهم سيبتلون المظالم والضرائب، والكف عن سلب أموال الناس، والالتزام بإرسال صُرّة مال أوقاف الحرمين الشريفين والعوائد المقررة إليهم، وكانوا ينهبونها. وكان قاضي القضاة حاضراً. فكتب على الأمراء وثيقة أمضاها الوالي العثماني، وإبراهيم بك ومراد بك شيخا البلد .

الأزهر ومقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر : وكان للأزهر صفحة مجيدة في مقارعة الاستعمار الفرنسي، فعندما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م، أشعل علماء الأزهر الثورة ضدّهم من داخل الأزهر الشريف، وتزعموا مقاومة الاحتلال، وأشعلوا ثورتهم بالقاهرة الأولى، حيث ألفت الأزهر لجنة لتنظيم الثورة ضدّ الفرنسيين، وقامت هذه الثورة بالقاهرة في أكتوبر عام ١٧٩٨م، واحتشدت الجموع في الأزهر ينادون بالجهاد ضدّ الفرنسيين، وهاجموا الفرنسيين ومعسكراتهم، وقتلوا الجنرال ديوى حاكم القاهرة، فأخذ الفرنسيون يطلقون النار على الثوار في الشوارع، وتدفقت الجماهير إلى الأزهر واحتشد فيه ما يزيد على ألف مواطن وأقاموا المتاريس في الطرق والأزقة، ودخلت قوات نابليون بالخيول صحن الأزهر، وألقت بالمصاحف وعاثت فيه إفساداً، وضرب الجامع بالمدافع من فوق القلعة، وأغلق الفرنسيون الأزهر وشرّدوا من فيه . وكانت هذه الواقعة قد عجّلت بانسحاب الفرنسيين من مصر، حيث اندلعت بعد ذلك ثورة القاهرة الثانية. وقدّم الأزهر وقتها عدداً من الشهداء، كما أقدمت قيادة الحملة على إعدام لفيف من علمائه وطلابه، ولا سيما بعد مقتل الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبي أحد طلاب الأزهر . وكان من أبرز من قاد الثورة وقتها من شيوخ الأزهر الشيخ عمر مكرم، والشيخ السادات، و الشيخ الشرقاوي .

وفي عام ١٨٠٥م استطاع علماء الأزهر أن يفرضوا على الخليفة العثماني الوالي محمد علي باشا ليكون والياً على مصر العثمانية، بعد أن أخذوا عليه الموائيق والعهود بأن يقيم العدل بين الرعية .

الأزهر ومقاومة الاحتلال البريطاني : وبعد الاحتلال البريطاني لمصر كان لشيوخ الأزهر دور كبير في إشعال الروح الوطنية ضدّ المحتل الإنجليزي، وعندما بدأت ثورات الشعب المصري حاول المحتل الإنجليزي زرع الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط في مصر، فكان الأزهر صمام الأمان

الذي فطن لمحاولات المحتل، وتعاون شيوخ الأزهر والقساوسة الأقباط، وخطبوا في الأزهر والكنائس ضد المحتل الإنجليزي .

وفي ثورة ١٩١٩م، أذكى الأزهر روح الثورة ضد الاستعمار البريطاني . وكان الأزهر معقلاً للحركة الوطنية، تنطلق منه جماهير الشعب، حتى إن المندوب السامي البريطاني طلب إلى شيخ الأزهر أبي الفضل الجيزاوي إغلاق الأزهر، ولكن الجيزاوي رفض، وبقي الأزهر يتحدى السلطات الاستعمارية .

الأزهر ومقاومة العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦م؛ عندما غزا التحالف الفرنسي البريطاني الإسرائيلي مصر سنة ١٩٥٦م، كان هدفهم الأساسي إصابة المصريين بالصدمة والخوف ودفعهم للاستسلام، فذهب جمال عبد الناصر للخطابة من فوق منبر الأزهر كرمز تاريخي، وخطب خطبته التاريخية التي كانت علامة فاصلة في الأحداث وقتها، ليعلن عدم استسلام مصر ووقوفها صامدة مقاومة ضد العدوان الثلاثي .

وأيضاً كان للمسجد دوره الأساسي بعد هزيمة ١٩٦٧م؛ إذ قام شيوخ الأزهر بالخطابة وإشعال الروح المعنوية بين الجنود المصريين على الجبهة طوال ست سنوات؛ مما كان له الأثر الكبير في انتصار الجيش المصري في أكتوبر ١٩٧٣م .^(١)

فهاهم علماء الأزهر الشرفاء عبر تاريخ مصر في العصور الوسطى والحديث، ما بين شهيد ومسجون، اعتقل منهم من اعتقل ورموا في سجون الاحتلال وهم في كامل إيمانهم بالله ورضاهم عنه في قضائه وقدره، حتى أتاهم نصر الله وقر الله عيونهم وحررت مصر ورجعت إليها الكرامة والعزة، وقد تكرر هذا السيناريو مع الطغاة من الولاة الذين حكموا مصر .

كذلك كان من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر السخاء والجود والكرم، وذلك لما يستقر في قلب المؤمن أنه ما نقص مال من صدقة، وأن الرزاق هو الله، فيتحقق بهذه العقيدة مضاعفة الخيرات بالكرم والصدقات والإحسان إلى الفقراء، ولقد ضرب علماء الأزهر الشريف مثلاً عالياً في هذه التصرفات الرائعة فعلى سبيل المثال : شيخ القراء في زمانه عبد الرحمن بن شحادة اليميني المتوفي في (١٠٥٠ هـ - ١٦٤٠ م) كان ممن لهم نشاط تجاري ملحوظ مما أدر عليه الأموال الكثيرة، فانعكس ذلك على علاقاته مع طلبة العلم والفقراء، حيث كان كثير الإحسان إليهم

^١ - ((مصر في القرن الثامن عشر)) (٢ / ١٣٤ - ١٣٥) .

والبر بهم، ولا يمر عليه يوم إلا ويعطي من ماله الشيء الكثير لمن يحتاج له، كما كانت له معاملات تجارية مع غيره من التجار . (١)

وعلموا الناس كيف يكون الرضا عن القضاء والقدر بدعوتهم وفي مجالس علمهم ومواعظهم، ليدرك الناس حقيقة الرضا بالقضاء والقدر ويتحققوا به في أحوالهم ظاهرا وباطنا، وفي مقامهم أيضا .

﴿ دور الأزهر المأمول في إقرار التعايش السلمي بهذه القيمة ﴾

لقد مر ذكر ثمرات الرضا والإيمان بالقضاء والقدر، وعلمنا أن من ثمراته سلامة الصدور من الحسد والاعتراض، وما أحوج الناس اليوم إلى العلماء في ترسيخ هذه القيمة ببث دعوتهم فيما بينهم بكل وسائل التوصيل، لأن هذه القيمة أساس في إصلاح الفساد الاجتماعي الذي نعاني منه في هذه الأزمنة المتأخرة، فالحسد هو السبب الأكبر فيما يعرف بالحدق الاجتماعي والطبقي، الذي هو الأساس في جرائم السرقة والقتل والاعتداء على الممتلكات وخطف الناس وتهديدهم، بحجة الفقر وأن هؤلاء من الأغنياء، وبحجة أن المجرمين الذين يفعلون هذه الجرائم لا يجدون ما ينفقون أو أنهم يفتقدون العدالة الاجتماعية... إلخ .

أما إذا استقرت نعمة الرضا في القلوب والإيمان بالقضاء والقدر فستجد كثيرا من هذه الجرائم قد جفت مواردها إن لم تنتهي، لأن نور الإيمان فعله عجيب في القلوب والنفوس وفي تغييرها إلى أحسن حال .

وكذلك يجب على العلماء أن يتقربوا إلى الشباب لأنهم عماد الأمة، وهم الأمة القادمة، فيعملوا على ترسيخ هذه القيمة في قلوبهم وعقولهم، ليحاربوا اليأس الذي ضرب شباب الأمة اليوم في مقتل، فصرفهم عن الأمل إلى الكسل، وعن السمو إلى الدنو، ولو أنهم استقرت أخلاق الإسلام في قلوبهم، ورضوا عن ربهم لكان هذا كفيلا لخلق جيل جديد من الشباب يتحرر من اليأس ويتمسك بالأمل من جديد، فنرى الواحد منهم يحاول ويحاول لتحقيق أهدافه وإثبات ذاته

^١ - ((قبل أن يأتي الغرب)) للأستاذ ناصر عبد الله عثمان ص (٥٣) .

وهذا هو المطلوب والأمل المنشود، بدلا من أن يملأه اليأس ويحطمه الجزع، فيصبح عدو نفسه يعمل ليل نهار على تدميرها بالمخدرات وبالأخلاق الدنيئة والجهل والبعد عن الدين ونور النبوة . وإذا نجح علماء الأزهر اليوم في ترسيخ هذه القيمة في المجتمع كما نجح أسلافهم بالأمس، فسيكون هذا سببا عظيما وكبير الأثر في النهوض بالهمم وتدريبها على الصبر وقوة التحمل في ظل الظروف التي تمر بها البلاد من مشكلات اقتصادية وفتن سياسية... إلخ . فيكون الإيمان بالقضاء والقدر عاملا مساعدا كبيرا في صبر الشعب وتحمله ما يمر به حتى ترفع الحن التي تضرب البلاد، ويعود الاستقرار والطمأنينة مرة أخرى .

وبهذه المنهجية وهذه الأعمال يعود التعايش والسلم الاجتماعي لمصر، ومنها إلى دول العالم الإسلامي نظرا لأثر الأزهر الشريف عالميا، ويتحقق الأمن الذي جعله الله تعالى سمة من سمات مصر وخاصية من خصائصها فقال تعالى : ﴿ أَذْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة يوسف آية:

القيم الأخلاقية

لبناء فرد مسلم صالح لنفسه وللمجتمع

القيم الأخلاقية والروحية

ومن كمال إقرار قيمة التدين الحقيقي في الفرد والمجتمع، أن يؤسس المسلم على قيم أخلاقية دينية وروحية حقيقية، حتى يصبح فعلاً هو بحق المتدين الذي يريده الإسلام، وهذا لن يتم إلا بتأسيسه بقيم التدين القلبية، وهي القيم العقائدية التي مر ذكرها، وتأسيسه بالقيم الظاهرة في الأحوال والمعاملات على نهج النبوة، ونهج الوسطية التي جاء بها ﷺ، وكان الأزهر الوريث الأكبر لها .

ملهيد

إن الحاجة اليوم إلى المعايير والقيم الأخلاقية قد أصبحت ملحة وضرورية أكثر مما كانت عليه في العصور السابقة، ليس في مجتمعنا فحسب بل للعالم أجمع . ذلك لأن العالم اليوم انفتح بعضه على بعض، وتقدمت وسائل الاتصال على نحو قد جعل ذلك العالم كمدينه واحدة. وإن القيم القادرة على حماية الحضارة من الانهيار هي القيم الإسلامية، فهي القيم الوحيدة القادرة على توجيه الحضارة توجيهها سليما.

ويعبر أحد الأساتذة الأمريكيين عن مدى تعطش الناس هناك إلى قيم ومثل تنقذهم من المخاطر الحاضرة والمستقبلية . وهو الأستاذ ت.ب.ايرفنج أستاذ بجامعة تنسى الأمريكية، عندما وقف مخاطبا تجمعاً إسلاميا في مدينة جلاسجو في بريطانيا. يقول في هذه المناسبة : إنكم لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علميا أو تقنيا أو اقتصاديا أو سياسيا أو عسكريا، ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا تلك الدول تجثو على ركبها أمامكم بالإسلام، أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذي تحملون، والذي تتعطش إليه أرواح الناس في مختلف جنات الأرض . تعلموا الإسلام وطبقوه واحملوه لغيركم من البشر تفتح أمامكم الدنيا، ويدين لكم كل ذي سلطان، أعطوني أربعين شابا ممن يفهمون هذا الدين فهما عميقا، يطبقونه على حياتهم تطبيقا دقيقا، ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه وأنا أفتح لكم الأمريكتين . (١)

^١ (- المصدر : http://twbh.com/index.php/site/print_article/read3874/)

فالمعايير والقيم الأخلاقية الإنسانية العامة لم تعد ضرورة من أجل حماية العالم من مخاطر الحروب والتقدم العلمي من غير هدف وغاية أو مثل عليا. بل وجودها ضرورية للعلاقات الفردية والاجتماعية والدولية التي تضبط العلاقات والسلوكيات من حيث الالتزام بالمسؤوليات وأداء الأمانات لأهلها. والمتأمل لواقع أمتنا الإسلامية يدرك حاجتها الماسة إلى من يرد عليها إيمانها وثقتها بماضيها ورجاءها في مستقبلها، وما أحوجها لمن يرد عليها إيمانها بهذا الدين الذي تحمل اسمه وتجهل كنهه، وتأخذه بالوراثة أكثر مما تتخذه بالمعرفة. ليتحقق فينا مراد الله تعالى الذي تحقق في أسلافنا فدانت لهم الأرض بأسرها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ

خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ [سورة آل عمران آية: ١١٠] فقد جاء الإسلام ليقوم بدوره الأسمى في حياة البشرية، دوره الذي شهد له التاريخ به في تخلص روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، ودوره في تخلص المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهييار، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان، ودوره في بناء العالم على أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء، و الحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة. جاء الإسلام ليحصن النفوس بالأخلاق، ويحصن المجتمع بالقيم ليطمئن أمرين هما :

(١) - **تحصين النفس خلقياً:** التحصين الخلقي هو تقوية النفس بمكارم الأخلاق التي بعث بها النبي ﷺ وقال معلنا عن دوره في هذه الحياة ورسالته فيها : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) . (١) وتحصين النفس خلقياً يرجع في الأساس إلى وعي الأفراد بقيم الأخلاق وفائدتها لهم في حياتهم الاجتماعية. فالصدق والأمانة والوفاء والوعد والشرف والكرامة وحسن السلوك، كلها أفعال خلقية لا تظهر إلا في تعاملهم بعضهم مع بعض .

(٢) - **تحصين النفس دينياً:** ويقصد بالتحصين الديني تركية النفس بما جاء في القرآن الكريم من حكم ومواعظ وأوامر ونواه، فالعلم بها نجاة الإنسان من المهالك التي تقود إليها النفس الأمارة بالسوء وتزيين الشيطان، ومقام التزكية هو أحد أسس الدين، فهو مقام الإحسان الوارد في حديث سؤال جبريل عليه السلام : قال ما الإحسان؟ قال : ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ

^١ - أخرجه النسائي في ((سننه الكبرى)) (١٠ / ١٩١) حديث (٢٠٥٧١) .

فإنه يَرَاكَ)). (١) وفي القرآن الكريم كذلك سورتا النور والحجرات، فيهما آيات أخلاقية كثيرة في فهم معانيها وتدبرها تحصين للنفس من سوء الأدب وانحطاط الخلق ومن الإجرام والانحراف .

(٣) - تحصين النفس ثقافياً: وذلك من خلال تهذيب النفس بتنمية معارفها وتعلم العلم بكل أنواعه والإفادة منه، ومواكبة علوم العصر والاستفادة من آلياته، وذلك كله بهدف سمو القيم الإنسانية وتنميتها وخدمة المجتمع والدين . وإمام الإنسان بخبرات البشر الماضية والحاضرة وتجاربهم التي مروا بها وما حدث لهم من أحداث وما وقع لهم من وقائع، وذلك بقراءة كتب التاريخ وسير العظماء، وكذلك من ارتكبوا جرائم وانحرفوا عن سواء السبيل ففيها عبر ومواعظ .

فالمؤسسات التربوية المختلفة تلعب دوراً حيوياً في هذا الجانب بـتحصين الفرد من خلال تفاعله الواعي مع الظروف والمواقف الاجتماعية ليتبصر الأمور ويحكم عقله ويتخذ قراره، كما تقوم المؤسسات التربوية بطرح قضايا المجتمع ومشكلاته وتوجههم وإرشادهم نحوها، ليتحقق للفرد في النهاية تنمية نوازع الخير في نفسه وتربيته على الترفع عن الدنيا والارتقاء بالنفس إلى مراتب المتقين الذين يخشون ربهم في السر والعلن . (٢)

وللأخلاق أهمية بالغة لما لها من تأثير كبير في حياة الأفراد والجماعات والأمم، ولهذا فقد حفل القرآن الكريم بها واعتنى بها أيما عناية، فقد بينت سور القرآن الكريم وآياته أسس الأخلاق ومكارمها . (٣) وكذلك اعتنت السنة النبوية بالأخلاق والمعاملات عناية فاقت كل التصورات، فقد عدَّ بعض العادين فيما وقع لهم أحاديث رسول الله ﷺ فوجدوها ستين ألف حديث، عشرون منها في العقائد، وأربعون في الأخلاق والمعاملات، وهذا بلا شك دليل على عناية السنة بالأخلاق كعناية القرآن الكريم بها. فقد قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم آية: ٤] يمتدحه الله تعالى بحسن الخلق تارة، ويأمره بمكارم الأخلاق ومحاسنها تارة أخرى، قال تعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٩٩] .

^١ - متفق عليه .

١ - ((الأزمة الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية)) ص (٢١ - ٢٢) و ص (٢٦ - ٢٧) بتصرف .

٢ - ((فصول من الأخلاق الإسلامية)) للأستاذ عبد الله بن سيف الأزدي ص (٧) .

﴿ تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً ﴾

أولاً : معنى الأخلاق في اللغة : ((الخلق)) بالضم : هيئة راسخة للنفس، تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً . (١)

ثانياً : الأخلاق في الاصطلاح : عرف العلماء الأخلاق بتعريفات كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ولكن سنذكر أهم تلك التعريفات ومنها :

(١) - **تعريف ابن مسكويه :** فقد عرف الأخلاق بأنها : حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تنقسم الى قسمين : منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج ، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجن من أيسر شيء، كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أي شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويجزن من أيسر شيء يناله . ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه الفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً . (٢)

(٢) **تعريف الغزالي :** حيث عرفها بأنها : هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال ييسر وسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية . (٣)

﴿ أهمية الأخلاق ﴾

للأخلاق أهمية بالغة باعتبارها من أفضل العلوم وأشرفها وأعلاها قدراً، لذلك نجد بعض العلماء عندما يتحدث عن بيان قيمة علم الأخلاق بالنسبة إلى العلوم الأخرى يعظم من شأن علوم الأخلاق وهذه بعض أقوالهم :

(١) - يقول بعضهم : إنه إكليل العلوم جميعاً . ومنهم من يقول : إنه تاج العلوم . ومنهم من يقول : إنه زبدة العلوم . ذلك أن العلوم الأخرى تساعد أساساً على الأخلاق في الكشف عن النافع والضار، والخير والشر، وهما موضوع الأخلاق، فتعتبر تلك العلوم وسائل معينة لتحقيق هذا العلم. كما أن علم الأخلاق يستخدم العلوم الأخرى في الكشف عن مهمته وتحقيق أهدافه.

٣ - ((دستور العلماء)) (٢ / ٦٤) .

١ - ((تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)) لابن مسكويه . ص (٥١) .

٢ - ((أصول الدعوة)) للدكتور عبدالكريم زيدان ص (٧٩) .

٢ - إن السلوكيات الأخلاقية وآدابها هي التي تميز سلوك الإنسان عن سلوك البهائم في تحقيق حاجاته الطبيعية، أو في علاقاته مع غيره من الكائنات الأخرى، فالآداب الأخلاقية في كل المعاملات، وقضاء الحاجات الإنسانية، زينة الإنسان وحليته الجميلة، وبقدر ما يتحلى بها الإنسان يضيف على نفسه جمالاً وبهاء، وقيمة إنسانية . (١)

٣ - إنها وسيلة لنجاح الإنسان في الحياة، فالإنسان الشرير المعتدى على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم، لا يمكن أن يكون محبوباً بين الناس، فلا يثقون به ولا يتعاملون معه .

٤ - أنها وسيلة للنهوض بالأمة وذلك لأن التاريخ يخبرنا أن سقوط كثير من الأمم والحضارات كان بسبب انهيار الأخلاق، كما قرر ذلك ابن خلدون وغيره . (٢)

ولهذا كان النهج السديد في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم، وتيسير سبل الحياة الطيبة لهم، أن يبدأ المصلحون بإصلاح النفوس وتركيتها، وغرس معاني الأخلاق الجيدة فيها، ولهذا أكد الإسلام على صلاح النفوس، وبيّن أن تغير أحوال الناس من سعادة وشقاء ويسر وعسر، ورخاء وضيق، وطمأنينة وقلق، وعز وذل كل ذلك ونحوه تبع لتغير ما بأنفسهم من معان وصفات . (٣)

﴿ الحضارات السابقة والأخلاق ﴾

لم تحظ الحضارات السابقة والمعاصرة بإسهام كبير، ولا دور بارز في جانب الأخلاق والقيم، ويشهد على ذلك علماء الغرب ومُفكّرهم؛ فيقول الكاتب الإنجليزي ((جود)) : إن الحضارة الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق؛ فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم، فقد منحتنا العلوم الطبيعية قوة هائلة، ولكننا نستخدمها بعقل الأطفال والوحوش ... فالانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون، وفي إنكاره عالم القيم، الذي يشمل قيم الخير والحق والجمال .

وتقول ألكسيس كارليل : في المدينة العصرية قلّمَا نشاهد أفراداً يتبعون مثلاً أخلاقياً، مع أن جمال الأخلاق يفوق العلم والفن من حيث أنه أساس الحضارة . والحقيقة أيضاً أن هذا الجانب، جانب الأخلاق والقيم لم يُوفَّ حقّه إلا في حضارة المسلمين، تلك التي قامت في

٣ - ((علم الاخلاق الإسلامية)) لمقداد يالجن ، ص (٧) .

٤ - السابق . ص (٨ - ١٠) .

٣ - ((أصول الدعوة)) ص (٨٠) .

الأساس على القيم والأخلاق، وبعث رسولها ﷺ خاصة لِيَتِمَّ مكارم الأخلاق ويكملها، وذلك بعد أن تشرذمت وتفرقت وأهملت بين الأمم والحضارات، تلك الأخلاق والقيم التي لم تكن يوماً نتاج تطور فكري على مرّ العصور، وإنما كانت وحياً أوحاه الله ﷻ وشرّعه رسول الإسلام محمد ﷺ فكان مصدرها التشريع الإسلامي منذ خمسة عشر قرناً من الزمان .

وينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة راقية فيها تكريم وتعظيم، انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ ٥٠ ﴾

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿ ٥١ ﴾ [سورة الإسراء آية: ٧٠] وهذه النظرة جعلت لحقوق الإنسان في الإسلام خصائص ومميزات خاصة؛ من أهمها شمولية هذه الحقوق؛ فهي سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية .. كما أنها عامة لكل الأفراد؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين، دون تمييز بين لون أو جنس أو لغة، وهي كذلك غير قابلة للإلغاء أو التبديل؛ لأنها مرتبطة بتعاليم ربّ العالمين . (١)

وما أرسل رسول الله ﷺ إلا بتمام مكارم الأخلاق، عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنما بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)) . (٢) وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) . (٣) وعن طلحة بن كريب الخزاعي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن الله تعالى كريم يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها)) . (٤) وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال)) . (٥) واعلم أن الإنسان من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز، وهو أبداً يحب من الأمور أفضلها، ومن المراتب أسرفها، ومن المقتنيات أنفسها إذا لم يعدل عن التمييز في اختياره، ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه، وهذا أولى ما اختاره الإنسان لنفسه، ولم يقف دون بلوغ غايته، ولم يرض بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله، ولأجل تمام الإنسان وكماله وجب أن يكون مزتانا بمكارم الأخلاق ومحاسنها، منزها عن مساوئها وعن مقابحها، آخذاً في جميع أحواله بقوانين الفضائل، عادلاً عن كل طرق الرذائل، وإذا كان ذلك كذلك كان واجبا على الإنسان أن يجعل قصده

٢ - ((الأخلاق والقيم في الحضارة الإسلامية)) للدكتور راغب السرجاني ص (١ - ٢) .

٢ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٢ / ٣٨١) حديث (٨٩٣٩) .

٢ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (١٠ / ١٩١) حديث (٢٠٥٦٩) .

٤ - السفاسف : الردى .

٤ - أخرجه القاضي في ((مسند الشهاب)) (٢ / ١٩٢) حديث (١١٦٥) .

٥ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٢ / ٣٨١) حديث (٨٩٣٩) .

اكتساب كل سنيمة سليمة من المعائب، ويصرف همته إلى اقتناء كل خلق كريم خالص من الشوائب، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة، ويستفرغ وسعه في إطراح كل خلة مذمومة دنيئة، حتى يحوز الكمال بتهذيب أخلاقه، ويكتسي حال الجمال بدمائة شمائله و يباهي بحق أهل السؤدد والفخر، ويلحق بالذين هم من درجات النباهة والمجد، إلا أن المبتدئ بطلب هذه المرتبة، والراغب في إدراك هذه المنزلة، ربما خفيت عليه الخصال المستحسنة التي تتبعه تجربتها أعني اتخاذها . (١)

ولقد كفل الإسلام تعريف الأخلاق ومكارمها وكيف يتخلق بها الإنسان فضلا عن المسلم، و ربي الإسلام المسلم على مكارم الأخلاق تربية صحيحة ليكون قبسا من نور مجتمعه وللدنيا جميعها .

لذلك حين نتعرض لقيم الأخلاق لن نرى أعظم من تلك الأخلاق الإسلامية التي أسسها الإسلام ورسوله الكريم ﷺ، وجاء من بعدهما الوريث الأكبر لتلك الدعوة العظمى لمكارم الأخلاق، ألا وهو الأزهر الشريف برجاله وعلمائه وطلابه، والقيم الأخلاقية أول ما تكون تكون مستمدة من مشكاة الدين، فلذلك كان أول قيمة أخلاقية لا بد أن يربي عليها الإنسان عامة والمسلم خاصة هي قيمة :

١ - « قيمة الدين » .

و((الدين)) في اللغة بمعنى : الطاعة والانقياد . و((الدين)) : الديانة . واسم لجميع ما يعبد به الله ، والملة، والإسلام، والاعتقاد بالجنان، والإقرار باللسان، وعمل الجوارح بالأركان، و السيرة، والعادة، والحال، والشأن، والورع، والحساب، والملك، والسلطان، والحكم، والقضاء، والتدبير . (٢)

والدين في الاصطلاح العام : ما يعتنقه الإنسان ويعتقده ويدين به من أمور الغيب والشهادة .
والدين اصطلاحاً: مجموعة المعتقدات والمبادئ التي تدين بها تلك الأمة أو الشعب وما يترتب على اعتناقها من قضايا علمية وشرعية .

٦ - ((تهذيب الأخلاق)) لابن عدي ص (١١ - ١٢١) .

١ - ((المعجم الوسيط)) (١ / ٦٣٧) .

والتدين فطرة غرزها الله في بني البشر، ومن خصائص هذا الإنسان أنه بفطرته يميل إلى التدين، وقد كان الناس في أول الأمر على التوحيد قبل أن تزين لهم الشياطين عبادة الطواغيت واتخاذ الأصنام، فالدين ضرورة حياة جميع الناس، أيا كان هذا التدين حقا كان أو باطلا . فليس هناك مجتمع على وجه الأرض ليس له دين يتخذه وينطلق من خلاله، ويبني عليه تصرفاته. حتى الدول إنما تبني سياساتها الداخلية والخارجية على ما تدين به. ومن هنا ينبغي أن نعلم أن تصرفات كثير من الدول إنما هي تصرفات دينية. فما تمارسه إسرائيل على سبيل المثال من إجرام ووحشية وإبادة للشعب الفلسطيني إنما منطلقها في ذلك منطلق ديني . وما تمارسه أمريكا أيضا من سياسات وتدخلات بل وحروب، إنما منطلقها أيضا منطلق ديني في المقام الأول، كما صرح بذلك كبيرهم الذي علمهم السحر (١) بأن ما يقوم به إنما هي حرب صليبية .

وقد تضافرت الدلائل الشرعية والحسية على أن التدين بالدين الحق، وهو توحيد الله تعالى، هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها قال سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف آية: ١٧٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ما من مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيَمَجِّسَانِهِ)) . (٢)

والعقل يوجب حاجة الإنسان إلى قوانين وأخلاق تنظم حياته، وتضبط سلوكه، ليميز بذلك عن سائر الحيوان، فإن الناس إما أن يعيشوا من غير دين ينظم حياتهم، ويضبط سلوكهم، وإما أن يتخذوا لهم من يشرع لهم ديناً، وإما أن يكونوا على الدين الحق الذي جاءهم بالبينات والهدى، فيكونوا بذلك على وفاق مع فطرتهم التي فطروا عليها، فتتظم أمور حياتهم خير انتظام .

والذي يقرأ تاريخ الأمم السابقة التي كانت بلا عقيدة، يجدها قد اندثرت حضارتها في مدة قصيرة ولم تستطع البقاء، وتحولت بفضل التدين بدين الإسلام قبائل السلب والنهب إلى دولة ذات حضارة، يحكمها منهج صالح لكل زمان ومكان .

(١) - جورج بوش الابن حين أعلن حربه على العراق وأفغانستان .

(٢) - متفق عليه .

لذلك كان للتدين أسس وقيم يقوم عليها، أولها وأهمها قيم العقيدة الصحيحة التي سبق ذكرها، ثم تأتي بعد هذا تلك القيم التي تشكل شخصيته وأخلاقه الإيمانية ومنها :

١ - ﴿ قيمة إخلاص العبودية لله تعالى ﴾

و((الإخلاص))، هو : التوحيد لله خالصا ولذلك قيل في السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [سورة الإخلاص آية: ١] : ((سورة الإخلاص)) . وأخلصت لله ديني : أمحضته وخلص له ديني . (١)

والإخلاص اصطلاحا: إفرااد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون أي شيء آخر؛ من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى . وبصح أن يقال: ((الإخلاص)) : تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين . (٢)

والعبودية في اللغة : الخضوع والذل . و((التبعيد)): التذليل . يقال: طريق معبد . و((التبعيد)) أيضا : الاستعباد . وهو اتخاذ الشخص عبدا . وكذا الاعتباد ، وفي الحديث: ((رجل اعتبد محررا)) . وكذا الإعباد والتعب . (٣)

و((العبودية)) في الاصطلاح: القيام بحق الطاعات بشرط التوقير، والنظر إلى ما منك بعين التقصير، وشهود ما يحصل من مناقبك من التقدير . ويقال: ((العبودية)): ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار . ويقال: ((العبودية)): التبرؤ من الحول والقوة، والإقرار بما يعطيك ويوليئك من الطول والمنة . ويقال: ((العبودية)): معانقة ما أمرت به، ومفارقة ما زجرت عنه . وسئل

١ - ((العين)) للخليل بن أحمد (٤ / ١٨٦) .

٢ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٥٩) .

٣ - ((مختار الصحاح)) ص (١٧٢) .

محمد بن خفيف: متى تصح العبودية؟. فقال: إذا طرح كل على مولاه، وصبر معه على بلواه .
(١)

﴿ أهمية الإخلاص ﴾

الإخلاص من أهم أعمال القلوب باتفاق أئمة الإسلام، فهو حقيقة الدين، وهو الفارق بين التوحيد والشرك، فلا تقبل الأعمال إلا به، وهو أول مفتاح دعوة المرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال الربيع بن أنس : علامة الدين الإخلاص لله، وعلامة العلم خشية الله . وقد أمر الله تعالى به في آيات كثيرة، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ ﴾ [سورة الزمر آية: ١١ - ١٤]

ولما كانت أعمال العباد تتوقف في قبولها على الإخلاص فقد أمر الله ﷻ به عباده، فقال جل شأنه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝ ﴾ [سورة البينة آية: ٥] أي: وما أمر الله هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك . ولا يخفي أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقال تعالى : ﴿ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ ﴾ [سورة الزمر آية: ٢ - ٣] . (٢)

وعن زيد بن ثابت قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَلَبَّغَهُ غَيْرُهُ فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ لَيْسَ بِفِقْهِهِ ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ إِيْخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَمُنَاصَحَةُ وَلَاَةِ الْأَمْرِ وَلِزُومُ الْجَمَاعَةِ فَإِنِ دَعَوْتُهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا نِيَّتَهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ)) . (٣)

4 - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٤٧ - ٣٤٨) .

١ - ((من أخلاق القرآن الكريم الإخلاص والصدق)) مجلة البحوث الإسلامية الجزء (٣٩) ص (١١٧ - ١٢٠)
للدكتور محمد بن عبد الله بن محمد العيادي

٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ٤٥٥) حديث (٦٨٠) وابن ماجه في ((سننه)) (١ / ٨٤)
حديث (٢٣٠) .

وقال رب العزة جل جلاله : ((الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي)) . (١)

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول، فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل : ((أخلص العمل يجزك منه القليل)) . (٢)

﴿ حقيقة الإخلاص ﴾

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا، و يسمى الفعل المصفي المخلص إخلاصا، قال الله تعالى: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [سورة النحل آية: ٦٦] فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرت، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به .

والإخلاص يضاده الإشراف، فمن ليس مخلصا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي، ومنه جلي، و كذا الإخلاص والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب، وإنما يكون ذلك في القصور والنيات .

وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا، بالإضافة إلى المنوي ، فمن تصدق و غرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك .

والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة

٣ - ذكره الديلمي في ((الفردوس بمأثور الخطاب)) (٣ / ١٨٧) حديث (٤٥١٣) وعزاه لعلي وابن عباس ؓ .

٤ - ((إحياء علوم الدين)) (٤ / ٣٧٦) .

واحده خالصه لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى .

وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفي شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب، وانضافت إليه هذه الأمور.

ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة، كما سبق في النية، وبالجمله فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر، وإنما الإخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون في باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار . (١)

عن أبي إدريس قال: لا يبلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمده أحد على شيء من عمل الله ﷻ . (٢)

﴿ درجات الإخلاص ﴾

الإخلاص تصفية العمل من كل شوب، وهو على ثلاث درجات :

﴿ الدرجة الأولى ﴾ : إخراج رؤية العمل من العمل، والإخلاص من طلب العوض على العمل، والنزول عن الرضا بالعمل .

﴿ الدرجة الثانية ﴾ : الخجل من العمل مع بذل الجهود، وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود .

﴿ الدرجة الثالثة ﴾ : إخلاص العمل بالإخلاص من العمل، تدعه يسير مسير العلم وتسير أنت مشاهدا للحكم حرا من رق الرسم . (٣)

١ - ((إحياء علوم الدين)) (٤ / ٣٨٠) .

٢ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخ مدينة دمشق)) (٢٣ / ٤١٩) ، وذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٢ / ٧٢٤) وعزاه لابن عساكر .

٣ - ((منازل السائرين)) للهروي ص (٤١) .

قال علماؤنا رحمة الله تعالى عليهم : الإخلاص إنما يكون بالقلب، وذلك أن لابن آدم جوارح ظاهرة وجوارح باطنة، فعلى الظاهرة العبادة والامتنال، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [سورة البينة آية: ١٥] وعلى الباطنة أن تعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مخلصا في ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [سورة البينة آية: ١٥] فالأصل الذي تتفرع عنه العبادات على أنواعها هو الإخلاص، وذلك لا يكون إلا بالقلب، فعلى هذا الجوارح الظاهرة تبع للباطنة ، فإن استقام الباطن استقام الظاهر جبرا، وإذا دخل الخلل في الباطن دخل في الظاهر من باب أولى، فعلى هذا ينبغي للمؤمن أن تكون همته وكليته في تخليص باطنه واستقامته، إذ أن أصل الاستقامة منه تتفرع وهو معدنها، وقد نص الحديث على هذا وبينه أتم بيان فقال ﷺ : ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)) . (١) وقال ﷺ : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)) . (٢) فالهجرة على حد واحد في الفعل وإنما كانت هذه لله وهذه لغير الله تعالى على ما انطوت عليه الجوارح الباطنة وهي النية، وقد قال الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس رحمه الله تعالى : ألا ترى أن الساجد لله تعالى والساجد للصنم في صورة واحدة وإنما كانت هذه عبادة وهذه كفرا بالنية . (٣)

﴿ من ثمرات الإخلاص ﴾

وللإخلاص ثمرات تحل بركاتها على المسلم منها : زيادة الإيمان، ونقاء القلب من الحقد والغل والخيانة، وانقطاع كثرة الوسوس والرياء، وقبول الأعمال من الله تعالى، وإدراك الأجور الكثيرة منه سبحانه وتعالى وإن عجز عن العمل، والانتفاع بالعمل الصالح وإن قل، وتحول المباحات إلى قربات لله ﷻ، ومغفرة الذنوب من الله تعالى، وإجابة الدعاء وتفريج الكرب في الدنيا، وتثبيت الله للمخلصين الصادقين، ومحبة الله ﷻ للمخلص، وكذلك محبة أهل السماء له، ووضع القبول له في الأرض، والنجاة من مضلات الفتن، والنصر والتمكين على الأعداء، وإدراك حسن الخاتمة، والإظلال في ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله في الآخرة، والنجاة من عذاب النار، والفوز بالنعيم المقيم في جنة النعيم . فالإخلاص خير كله، ومفتاح لكل خير في الدارين، ومغلاق لكل شر .

١ - متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ﷺ .

٢ - متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ .

٣ - ((المدخل)) لابن الحاج (١ / ٧) .

﴿ تلازم الإخلاص والصدق ﴾

لما كان الإخلاص من الأعمال القلبية، والأعمال القلبية تتداخل ويقترن بعضها ببعض فالإخلاص له أساس يقترن به وهي أعمال قلبية أخرى كالصدق، فلا يكون إخلاص إلا عن صدق في المعاملة مع الله، والمحبة لله تعالى وهو أساس الصدق، والتوكل على الله تعالى، فيفوض أمر القبول إليه ولا ينظر إلى عمله، فلا يتم ولا يكون إخلاصاً إلا بها. وأظهر الأعمال القلبية اقتراناً بالإخلاص هو الصدق . قال ابن القيم :والإخلاص والصدق كل منهما يشمر الآخر ويقتضيه . (١)

﴿ الفرق بين الإخلاص والصدق ﴾

والفرق بين الإخلاص والصدق : أن الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع .
وفرق آخر: الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل . (٢)
ولذلك كان من الواجب أن يفهم المسلم قيمة الصدق التي هي من قيم الأخلاق الإيمانية في الإسلام .

٢ - ﴿ قيمة الصدق ﴾

﴿ الصدق ﴾ في اللغة : من الصَّدَق : قال أبو عمرو الصَّدَقُ الصُّلْبُ . وكذلك قال ابن السكيت قال : ويقال هو صَدَقُ النظر . ومنه قيل : صدقوهم القتال . و﴿ الصَّدَقُ ﴾ ضدُّ الكذب قال أبو الهيثم في قول كعب بن زهير :
وفي الحلم إدهانٌ وفي العفو دُرْسَةٌ * وفي الصدق منجاةٌ من الشرِّ فاصدق
قال و﴿ الصَّدَق ﴾ هاهنا : الشجاعة والصلابة . يقول: إذا صَلُبْتَ للحرب وصدقتَ انهزم عنك من تصدقه، وإن ضَعُفْتُ قوِي عليك واستمكن منك . وقال الليث : ويقال : صدقتُ القوم : أي قلتُ لهم صِدْقاً . (٣)

٤ - (مدارج السالكين) لابن القيم (٢ / ٢٨) .

1 - (التعريفات) للجرجاني ص (٢٨) .

٢ - (تهذيب اللغة) (٨ / ٢٧٦) .

والصدق في الاصطلاح قد عرفوه بالعديد من التعريفات كل حسب فهمه ومشربه : قال عبد الواحد بن زيد : الصدق الوفاء لله بالعمل . وقيل : موافقة السر النطق . وقيل : استواء السر والعلانية . يعني أن الكاذب علانيته خير من سريره كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه . وقيل الصدق : القول بالحق في موطن الهلكة . وقيل : كلمة الحق عند من تخافه وترجوه . (١)

ومفهوم الصدق هو المراد أن يعرفه المسلم ليوافق هذه المعاني، حتى يتحقق بمقام الصدق، ومنه إلى مقام الصديقية، وهذا مراد الإسلام من العباد، وهو الترقى في مقامات الإيمان حتى يصل إلى درجة الإحسان وهي درجة الصديقية .

قال الأستاذ أبو علي الدقاق : والصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء آية: ٦٩] والصادق الاسم اللازم من الصدق، والصديق المبالغة منه: وهو الكثير الصدق، الذي الصدق غالبه .

وأقل الصدق استواء السر والعلانية. والصادق: من صدق في أقواله. والصديق: من صدق في جميع أقواله، وأفعاله وأحواله.

وقال أحمد بن حنبل: من أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق فإن الله مع الصادقين . وعن الجنيد يقول: الصادق: ينقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة . وقال أبو سليمان الداراني: لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه . وعن سهل بن عبد الله يقول: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره. وقال الواسطي: الصدق: صحة التوحيد مع القصد. (٢)

﴿ أهمية الصدق ﴾

الصدق عمود الدين وركن الأدب وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به، وقال أرسطاطاليس : أحسن الكلام ما صدق فيه قائله ، وانتفع به سامعه . وقال المهلب بن أبي

٣ - ((مدارج السالكين)) (٢ / ٢٧٤) .

١ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٦٣ - ٣٦٦) بتصرف يسير .

صفرة : ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعزله من الصدق وكان يقال على الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق . ويقال : لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لاطلع على خزائن الغيب، ولكان أمينا في السماوات والأرض . وقيل من لزم الصدق وعود لسانه به وفق . ويقال الصدق بالحر أخرى .

قال ابن القيم : ومن منازل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة آية: ٥] منزلة ((الصدق)) وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين .

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين وخص المنعم عليهم بالنيبين والصديقين والشهداء والصالحين فقال تعالى : ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة التوبة آية: ١١٩] وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء آية: ٦٩] فهم الرفيق الأعلى وحسن أولئك رفيقا، ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانا منه وتوفيقا، ولهم مرتبة المعية مع الله فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين . (١)

والصدق مفتاح لكل خير ومن هذه الخيرات :

(١) - ((مدارج السالكين)) (٢ / ٢٦٨ - ٢٧١) .

(١) - **هو طريق للبر في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة** : عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : ((إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا . وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا)) . (١)

(٢) - **هو سبب الطمأنينة** : عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ((دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ ؛ فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَالْكَذِبُ رِيَّةٌ)) . (٢)

٣ - **من صدق الله يصدق الله** : عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف حدثه عن أبيه عن جدّه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ)) . (٣)

٤ - **الصدق مفتاح البركة** : عن أبي خالد حكيم بن حزام رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بَوْرُكٌ لُهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)) . (٤) وإذا تحقق الإخلاص والصدق كان نتيجهما ثمرة تحقق الاستقامة ! .

(٣) - ﴿ قيمة الاستقامة ﴾

((الاستقامة)) لغة : الاعتدال . يقال : استقام له الأمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيَّ ﴾ [سورة فصلت آية: ٦] أي: في التوجه إليه دون الآلهة . وقام الشيء واستقام : اعتدل واستوى . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ [سورة فصلت آية: ٣٠] معنى قوله : ﴿ اسْتَقَمُوا ﴾ عملوا بطاعته ولزموا سنة نبيه . وقال الأسود بن مالك : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ لم يشركوا به شيئاً .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الأدب)) باب ((قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)) حديث (٥٧٤٣) .

١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٦٦٨) حديث (٢٥١٨) ، والإمام أحمد في ((مسنده)) (١ / ٢٠٠) حديث (١٧٢٣) .

٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الإمارة)) باب ((اسْتِحْبَابُ طَلَبِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى)) حديث (١٩٠٩) .

٣ - متفق عليه .

وقال قتادة : ﴿ اسْتَقِمُوا ﴾ استقاموا على طاعة الله . والاستقامة اعتدال الشيء واستواؤه .
(١)

وفسر الاستقامة الصحابة وهم أهل اللغة : بعدم الرجوع إلى عبادة الأوثان، و أنكر أبو بكر
رضي الله عنه من فسرهما بعدم الإتيان بذنب وقال: حملتم الأمر على أشده وفسرها علي كرم الله
وجهه بالإتيان بالفرائض . (٢)

((الاستقامة)) : درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها،
ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴾ [سورة النحل آية: ٩٢] ومن لم يكن مستقيماً في صفته لم يرتق من
مقامه إلى غيره، ولم يبن سلوكه على صحة؛ فمن شرط المستأنف الاستقامة في أحكام البداية، كما
أن من حق العارف الاستقامة في آداب النهاية . فمن أمارات استقامة أهل البداية: أن لا تشوب
معاملاتهم فترة. ومن أمارات استقامة أهل الوسائط: أن لا يصحب منازلهم وقفة . ومن أمارات
استقامة أهل النهاية: أن لا تتداخل مواصلتهم حجة .

قال أبو علي الدقاق، رحمه الله : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : التقويم، ثم الإقامة، ثم
الاستقامة؛ فالتقويم من حيث تأديب النفوس. والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من
حيث تقريب الأسرار .

واعلم أن الاستقامة توجب دوام الكرامات، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ
لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ ﴾ [سورة الجن آية: ١٦] ولم يقل: سقيناهم . بل قال: أسقيناهم يقال: أسقيته
إذا جعلت له سقياً؛ فهو يشير إلى الدوام . (٣) وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((اسْتَقِيمُوا
وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) . (٤)

٤ - ((لسان العرب)) (١٢ / ٤٩٩) .

١ - ((ثمرات النظر)) للصنعاني ص (٥٤) .

٢ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٥٦ - ٣٥٨) .

٣ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (١ / ١٠١) حديث (٢٧٧) .

والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ)) . قالوا : ولا أنت يا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قال : ((ولا أنا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ)) الحديث . (١)

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال . وأخبر في حديث ثوبان أنهم لا يطبقونها فنقلهم إلى المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم ، كالذي يرمي إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب به ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله .

فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد ، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات ، فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله ، قال بعض العارفين : كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة . (٢)

وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة، كما خرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ((اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تُخْصُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)) . (٣)

فالسداد هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، كالذي يرمي إلى غرض فيصيبه، وقد أمر النبي ﷺ عليا أن يسأل الله ﻋَﻠَﻴْكَ السَّدَادَ وَالهْدَى، وقال له : اذكر بالسداد تسديدك السهم وباهدى هدايتك الطريق.

والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمما على قصد السداد وإصابة الغرض فتكون مقاربته عن غير عمد.

فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [سورة فصلت آية: ٣٠] بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره .

٤ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((صفة القيامة والجنة والنار)) باب ((إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة)) حديث (٢٨١٨) .

١ - ((مدارج السالكين)) (٢ / ١٠٥) .

٣ - سبق تخريجه .

فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبه وإرادته ورجائه ودعائه، والتوكل عليه والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وفي مسند الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)) (١) . (٢)

﴿ أهمية الاستقامة ﴾

لقد حث الله ﷻ على الاستقامة وأمر بها عباده، وكذلك حض عليها نبيه ﷺ فالؤمن مطالب بالاستقامة الدائمة، ولذلك يسألها ربه في كل ركعة من صلاته ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [سورة الفاتحة آية: ٦] ولما كان من طبيعة الإنسان أنه قد يقصر في فعل المأمور، أو اجتناب المحذور، و هذا خروج عن الاستقامة، أرشده الشرع إلى ما يعيده لطريق الاستقامة، فقال تعالى مشيراً إلى ذلك : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [سورة فصلت آية: ٦] فأشار إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، وأن ذلك التقصير يجبر بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة .

﴿ أسباب تعين على الاستقامة ﴾

- ١ - من أهم أسباب الاستقامة إرادة الله لهذا العبد الهداية، وشرح صدره للإسلام، وتوفيقه للطاعة والعمل الصالح .
- ٢ - الإخلاص لله تعالى، ومتابعة رسول الله ﷺ .
- ٣ - الاستغفار والتوبة .
- ٤ - محاسبة النفس .
- ٥ - المحافظة على الصلوات الخمس مع الجماعة .

١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٣ / ١٩٨) حديث (١٣٠٧١) .

١ - ((جامع العلوم والحكم)) (١ / ٢٠٦) .

٦ - الدعاء والتضرع، وسؤالها بجد وإخلاص، ولأهمية ذلك أمرنا بقراءة الفاتحة في كل ركعة، لما فيها من سؤال الصراط المستقيم المخالف لأصحاب الجحيم .

٧ - الاشتغال بالعلم الشرعي، فالعلم قائد والعمل تبع له والحرص على التمسك بالسنة، فهي سفينة النجاة .

٨ - مراقبة الله في السر والعلن، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان، وعدم الغفلة عن ذلك، ومحاسبتها في كل وقت وحين، وعلى الجليل والحقير.

٩ - الإكثار من تلاوة القرآن، ومحاولة حفظه أو ما تيسر منه، والمداومة على ورد ثابت .

١٠ - الإكثار من ذكر الله ﷻ والمداومة على الذكر .

١١ - تدريب النفس على الثقلب بين الخوف والرجاء .

١٢ - التقرب من العلماء والقرب منهم، والحرص على الاستفادة منهم، واقتباس الأدب والسلوك قبل العلم والمعرفة.

١٣ - دراسة السيرة النبوية، وتراجم الأصحاب والعلماء، والأولياء والصالحين . و الإكثار من ذكر الموت وتوقعه في كل وقت وحين، فهو أقرب إلى أحدنا من شراك نعله. والخوف والحذر من سوء الخاتمة . وسؤال الله والاستعاذة به من الفتن ما ظهر منها وما بطن . وتجديد التوبة والإنابة، مع تحقيق شروطها والحرص على أن تكون توبة نصوحاً .

﴿ ثمار الاستقامة ونتائجها ﴾

إن من أعظم ثمرات الاستقامة أنها السبب في السعادة في الدنيا والآخرة . ونزول ملائكة الرحمة على المستقيمين عند الموت مطمئنة ومثبتة لهم، ومبشرة إياهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [سورة فصلت آية: ٣٠] وكذلك تشيبتهم في القبر بالقول الثابت، وتبشرهم عند القيام للبعث والنشور، وعند دخول الجنة دار الكرامة والمقامة إلخ هذه الكرامات الدنيوية والأخروية .

٤ ـ « قيمة الاعتصام بالكتاب والسنة »

((الاعتصام)) : الامتسك بالشيء افتعال منه ومنه شعر أبي طالب :

ثمّال اليتامى عصمة للأرامل

أي : يمنعهم من الضياع والحاجة . وفي الحديث : ((فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم)) (١)
وفي حديث الإفك : ((فعصمها الله بالورع)) . وفي حديث عمر رضي الله عنه : ((و عصمة أبنائنا إذا
شتونا)) . أي : يمتنعون به من شدة السنة والجذب . فالاعتصام : التمسك بالشيء، ويقال :

استعصم : استمسك (٢) قال الله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٠٣]

ومن اعتصم بالقرآن الكريم فقد اعتصم بالله، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١١] أي : يتوكل عليه ويحتمي بحماه (٣)

« حاجة المسلمين للاعتصام بالكتاب والسنة »

إن الأمة الإسلامية تعيش اليوم زمناً عصيباً تحتاج فيه إلى فقه وعلم بالشرعية، وإدراك
وتصور عميق للواقع . إننا نعيش في زمن طغت فيه ظلمات الفتن على معالم السنن، وغطى فيه
دخان الحرائق على الحقائق، واشتبهت فيه طرق السير على السائرين، واختلت فيه الموازين . إننا
نعيش في زمن ازدهمت فيه المتغيرات، وتتابعت فيه الأزمات، واختلطت فيه الأصوات والتبس فيه
الحق بالباطل . زمن بدأت فيه الشبهات تغشى الإسلام وشعاره، فأصبحت الطرق مبهمة
والسماء غائمة . وإن الأمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تمنع النظر في كتاب ربها، وتدقق الفكر في
سنة رسولها محمد ﷺ يقول النبي ﷺ : ((تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ
اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟)) . قَالُوا : نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَغْتَ فَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ . فَقَالَ
يَا صَبِّحِ السَّبَّابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ : ((اللَّهُمَّ اشْهَدْ)) . ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَدْنَى
ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ وَلَمْ يُصَلِّي بَيْنَهُمَا شَيْئًا . (٤)

١ - متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

٢ - ((مفردات ألفاظ القرآن)) للأصفهاني، ص (٥٧٠) .

٣ - ((تفسير السعدي)) ص (١٥٩) .

٤ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣١٢ / ٤) حديث (١٤٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه .

فالقرآن هو الحياة وهو النجاة في زمن أفلست فيه النظم، ووهنت فيه القيم، و انكشفت فيه عورة العولمة المزعومة .

إن القرآن الكريم هو مصدر الثبوت لأنه يزرع الإيمان، ويزكي النفوس، ويقوي الصلة بالله، فإن الآيات إذا سكنت قلب المؤمن اطمئن قلبه وازداد يقينه، وعظم إيمانه يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد آية: ٢٨]

لأن القرآن الكريم يزود المسلم بالتصورات السليمة، والقيم الصحيحة، التي يستطيع من خلالها أن يقوم الأوضاع من حوله، وينظر بنور الله حتى لا يقع في الاضطراب أو التناقض . فهو جبل الله المتين، والنور المبين، من تمسك به عصمه الله ومن اتبعه أنجاه الله، ومن دعي إليه هداه الله، فلا بد أن نرجع إلى الكتاب والسنة في قضايانا المعاصرة، ومشكلاتنا الحاضرة، حتى نفهم جذور المشكلات، وأسباب النكبات والويلات، ونقرأ المتغيرات والمستجدات، يقول الله في كتابه العظيم: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء آية: ٩] يهدي للتي هي أقوم في السلوك، وأقوم الأخلاق، يهدي للتي هي أقوم في السياسة والاقتصاد، وفي كل شيء، وكذلك سنة الحبيب ﷺ ومنهاجه القويم .

﴿ فوائد الاعتصام بالكتاب والسنة ﴾

لقد جاء الإسلام ليبنى شخصية الإنسان الذي يعتنقه ويؤمن به ويتبعه ، فهو يجعله يتخلق بالأخلاق الكريمة، والقيم السامية العظيمة ، من اليسر والسماحة، و التواضع واللين، والرفق والكرم، وغيرها من مكارم الأخلاق التي جاء المعصوم ﷺ بها ولتمامها. ولن تجد ديننا منهج الأخلاق ونظمها ، ورسخ القيم وعظمها ، مثل الإسلام ورسوله ﷺ .

لذلك لا يقاس الدين بالأشخاص ، ولا يعرف الحق بالرجال ، بل الرجال يعرفون بالحق ، هكذا يؤخذ الدين جملة واحدة، ومن شذ عن منهجه فلا يقاس الإسلام به ، بل فعله رد عليه ، مسئول هو وحده عنه ، ولهذا لما حصل الغلط في فهم الدين عند كثير من وقف من الدين على رسمه ، ولم يتحقق بمعرفته ، أتى بعض الناس ليسب الدين وأهله، ويشوه صورتهم ، لأنه رأي ملتجيا يكذب أو يغش أو يفعل أمرا محرما ، أو رأي امرأة محجبة أخلاقها سيئة ، فقال : انظروا

إلى الملتحين والمنقبات يكذبون ويغشون . ونحن نقول لابد للناس أن تفهم فالدين لا ينسب إليه الخطأ لأنه منهج متكامل ، وإن كان قد بدا نقص أو اختلال فلا ينسب إلا إلى فاعله ، لا إلى الدين .

لقد غلط كثير من الناس في فهم الدين حتى جعلوا المتدين هو الملتحي فقط، والمتدينة هي المنتقبة أو المحجبة، وإن كان هذا من جنس ما يطلب شرعا، وهذا فهم قاصر لحقيقة الدين، فرب ملتح وهو بعيد عن الدين ، ورب منتقبة أو محجبة وهي بعيدة عن الدين .

لذلك كان الاعتصام بالكتاب والسنة قيمة عالية وخلق كريم، يجب على الأمة أن تتمسك به، وتتخلق به إن كنا نريد أن تعود العزة إلينا، وأن تعود علينا بركات هذا التمسك بهذا الخلق الكريم والعمل العظيم . وخاصة في العصر الحديث وفي القرن الواحد والعشرين الذي نحيا فيه، أصبحت هناك ظواهر لا تنكر من ابتعاد الكثير من العباد عن طاعة الرحمن إلي طاعة الشيطان، و من الحياء من المعصية والندم علي ما فات إلي الحرص علي الذنب والتمادي فيه، بل والافتخار به وكأنه لا عيب فيه ولا حرج ! . وصرنا نعيش ونعاني من كثرة الفتن من انحلال أخلاقي، وأفلام خليعة، وفضائيات تبث أدق التفاصيل بإثارة مفتعلة لتفسد الأخلاقيات، ولا تتقي الله في المراهقين والمراهقات من أبناء وبنات المسلمين والمسلمات، الذين يشاهدون كل ذلك بانبهار شديد، وحب للتقليد، حتي اتخذوا منهم ومن فنانات الفيديو كليب وغيرها اللاتي لا هم لهن إلا التنافس في التعري واستعراض فنهن في زيادة الخلاعة، وهدم القيم ومخالفة التقاليد الشرقية الأصيلة قدوة لهن . ونحن لا نقول إن الفن محرم أو غير مقبول، بل يا ليت القائمين على مثل هذه الأعمال يكون فنههم في تمجيد الفضيلة وبناء الأمة بفن راقى يسمو بالنفس البشرية، وعودة الأخلاق الكريمة، خاصة وأن الإعلام اليوم وخاصة ما يتعلق منه بالأفلام والمسلسلات والأغاني هو أكبر مؤثر في الناس تربية ووعيا ! .

ومن رواسب هذا التحور الخطير، والانحراف عن تعاليم الدين أن ظهر جيل جديد من المسلمين والمسلمات، صار جل هدفهم في الحياة ليس في نصر الدين والدعوة إلي الله، ومساعدة الناس وحب الخير ونشر الأمان والسلام بين أفرادهم، أو نفع المجتمع وخدمة الناس ، أو إحياء الأخلاق والقيم ، لا . إنما ظهر في دنيا الناس جيل سوبر لا يري أبعد من قدميه يريد الشهرة والمال الوفير، لزوم الشقة التملك والسيارة وارتداء أحدث تصميمات الموضة من الأزياء الراقية الخليعة والشاذة في الكثير منها، والتي لا تتفق مع البيئة الشرقية وتعاليم الدين، وإنما هو التشبه والتقليد فقط .

لهذه الأسباب وغيرها وقع الكثير من الناس في المعاصي والآثام، صغيرها وكبيرها وظل البعض يسخر وهو علي معصيته وغروره ويصف من تمسك بالقيم والأخلاق والدين ، بل وحتى العادات الشرقية الأصيلة بالتخلف والرجعية .

فلذلك الاعتصام بالكتاب والسنة هو أعظم ما يقي المسلم الفتن في عصرنا الحديث، وإن أرادوا اتيكيتا أو نظما متقدمة في الحياة بجميع وجوهها، فليرجع الناس إلى دينهم وسنة نبيهم ﷺ فقد نظم الكتاب والسنة حياة المجتمع الإسلام ، على المستوى الجماعي وعلى المستوى الفردي، بل ونظم بناء الدول وعلاقاتها وأنظمتها ومنهجياتها ووضع دساتيرها، وكل منصف يعلم بذلك، قال الله تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام آية: ٣٨] وسنة النبي ﷺ وأحواله هي أسمى نظام حياة، وكفي شاهدا ودليلا في هذا أنه حول قساة القلوب جفاة الطباع رعاء الشاء، إلى أرق الناس أفئدة، وألينهم عريكة وطبعا، وأعظمهم أدبا، وأكرمهم أخلاقا، ففتحوا البلاد بإيمانهم، وفتحوا العباد بأخلاقهم وبكريم طباعهم وحسن معاملتهم، ملكوا القلوب قبل العروش، وصاروا ملوكا وسادة قادة، ﷺ علمهم كل شيء، ونظم لهم في حياتهم علاقاتهم ومعاملاتهم و أحوالهم وأخلاقهم وسلوكياتهم على أحسن نظام وأقوم سبيل، حتى حسدنا غيرنا من الأمم السابقة على نعمة كونه ﷺ نبينا ورسولنا، فها هو يهودي يحقد على المسلمين كما ذكر وهو يخاطب سلمان الفارسي ﷺ حسدا من عند نفسه على نبينا وقدوتنا ﷺ الذي من الله تعالى به علينا فهو النعمة العظمى التي أنعم الله بها علينا : عن عبد الرحمن بن يزيد عن سلمان ﷺ قال : قِيلَ لَهُ : قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةِ !. قَالَ : فَقَالَ : أَجَلٌ لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ . (١)

٥ - ﴿ قيمة الوسطية في الدين ﴾

معنى ((الوسط)) لغة : الوسط مخففا، يكون موضعاً للشيء، تقول: زيد وسط الدار . فإذا نصبت السنين صار اسما لما بين طرفي كل شيء . ووسط فلان جماعة من الناس وهو يسطهم إذا صار في وسطهم . والوسط من الناس، وكل شيء أعدل وأفضل، ليس بالغالي ولا المقصر . (٢)

١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الطهارة)) باب ((الاستطابة)) رقم (٢٦٢) .

٢ - ((العين)) (٧ / ٢٧٩) .

فعلى هذا الوسطية منزلة بين طرفين كلاهما مذموم : فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور، و
السخاء وسط بين التبذير والتقتير . ويفهم من هذا أن أوسط الشيء أفضله وأحسنه وأخير ه .

قال ابن عاشور مجليا هذا المعنى : والوسط : اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به أو
للشيء الواقع بين أشياء محيطة به، ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عرفا، ولما كان
الوصول إليه لا يقع إلا بعد اختراق ما يحيط به، أخذ فيه معنى الصيانة والعزة طبعاً : كوسط
الوادي لا تصل إليه الرعاة والدواب إلا بعد أكل ما في الجوانب فيبقى كثير العشب والكلأ .

ووضعا : كوسط المملكة يجعل محل قاعدتها، ووسط المدينة يجعل محل قصبتها، لأن المكان
الوسط لا يصل إليه العدو بسهولة، وكواسطة العقد لأنفس لؤلؤة فيه .

فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفا، فأطلقوه على
الخيار النفيس كناية ، قال زهير :

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم ** إذا نزلت إحدى الليالي بمعضل .

ويقال: أوسط القبيلة . لصميمها .

وأما إطلاق الوسط على الصفة الواقعة عدلا بين خلقين ذميمين فيهما إفراط وتفريط،
كالشجاعة بين الجبن والتهور، والكرم بين الشح والسرف، والعدالة بين الرحمة والقساوة،
فذلك مجاز بتشبيه الشيء الموهوم بالشيء المحسوس، فلذلك روي حديث : ((خير الأمور
أوسطها)) . وسنده ضعيف (١) وقد شاع هذان الإطلاقان حتى صارا حقيقتين عرفيتين (٢)

ومعناها في الاصطلاح : ذهب الدكتور وهبة الزحيلي إلى أن المقصود بالوسطية هو :
الاعتدال . فقال : والوسطية في العرف الشائع في زمننا تعني الاعتدال في الاعتقاد والموقف
والسلوك والنظام والمعاملة والأخلاق، وهذا يعني أن الإسلام دين معتدل غير جانح ولا مفرط
في شيء من الحقائق، فليس فيه مغالاة في الدين، ولا تطرف ولا شذوذ في الاعتقاد، ولا
استكبار ولا خنوع ولا ذل ولا استسلام ولا خضوع وعبودية لغير الله تعالى، ولا تشدد أو
إحراج، ولا تهاون ولا تقصير، ولا تساهل أو تفريط في حق من حقوق الله تعالى، ولا حقوق
الناس، وهو معنى الصلاح والاستقامة . (٣)

١ - ذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٥ / ٢٧٧) وعزاه للبيهقي عن مطرف ؓ .

٢ - ((التحرير والتنوير)) للطاهر بن عاشور (٢ / ١٧) .

٣ - ((الوسطية مطلباً شرعياً وحضارياً)) للدكتور وهبة الزحيلي ص (٥) .

ووردت كلمة ((وسط)) في القرآن في عدّة مواضع، وذلك بتصاريدها المتعدّدة : وردت في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۝ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٤٣] وقد ورد تفسير هذه الكلمة في السّنة النبويّة، كما ذكر لها المفسرون عدّة معانٍ، ومنها : ما رو الطبري بإسناده عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ۝ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٤٣] قال : ((عدولا)) .^(١)

إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، كغلو النصاري الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أبناءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها. (٢)

قال ابن عاشور: فأما الذين تعلقوا بالاستدلال بوصف ((الوسطى)) فمنهم من حاول جعل الوصف من الوسط بمعنى الخيار والفضل، فرجع إلى تتبع ما ورد في تفضيل بعض الصلوات على بعض، ومنهم من حاول جعل الوصف من الوسط، وهو الواقع بين جانبيين متساويين من العدد، فذهب يتطلب الصلاة التي هي بين صلاتين من كل جانب. (٣)

وكلمة : ((أوسط)) : كقوله تعالى : ﴿ فَكَفَّرْتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ۝ ﴾ [سورة المائدة آية: ٨٩] قال عطاء: أوسطه : أعدله. (٤)

كلمة : ((فوسطن)) وردت في قوله تعالى: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝ ﴾ [سورة العاديات آية: ٥]

قال الطبري: يقول تعالى ذكره فوسطن بركبانهن جمع القوم، يقال: وسطت القوم بالتخفيف، ووسّطته بالتشديد، وتوسّطته، بمعنى واحد. (٥) وقد جاء لفظ ((الوسط)) في أحاديث عن النبي ﷺ : عن عبد الله بن معاوية الغاضري ؓ قال: قال رسول الله، ﷺ : ((ثلاث

^١ - ((تفسير الطبري)) (٢ / ٧) . والحديث أخرجه الترمذي (٥ / ١٩٠) رقم (٢٩٦١) .

^٢ - ((تفسير الطبري)) (٢ / ٦) .

^٣ - ((التحرير والتنوير)) (٢ / ٤٦٧) .

^٤ - ((تفسير الطبري)) (٧ / ١٦) .

^٥ - ((تفسير الطبري)) (٣٠ / ٢٧٦) .

من فعلهنّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان من عبد الله وحده وعلم أنّه لا إله إلا الله وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام ولم يعط الهرمة ولا الدرنّة ولا المريضة ولا الشّرط اللّيمة ولكن من وسط أموالكم فإنّ الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره ((^(١))). والوسط هنا ما بين أجود الغنم وبين السيئ والمعيّب .

وللوسطية ميزات وخصائص لا بد أن تقوم عليها وتكون صفات لها ، ومنها :

- (١) - **الخيرية** : وهي تحقيق الإيمان الشامل، يحوطه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- (٢) - **الاستقامة** : وهي لزوم المنهج المستقيم بلا انحراف، فالوسطية لا تعني التنازل أو التميع أبداً .
- (٣) - **البينية** : وذلك واضح في كل أبواب الدين، فالصراط المستقيم بين صراطي المغضوب عليهم والضالين .
- (٤) - **اليسر ورفع الحرج** : وهي سمة لازمة للوسطية .
- (٥) - **العدل والحكمة** : وقد فسر النبي ﷺ الوسط بالعدل، وذلك هو معنى الخيار؛ وذلك لأن خيار الناس: عدوهم . وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٩٠] ^(٢)

﴿ أهمية الوسطية والاعتدال ﴾

نفهم مما سبق ذكره أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه، فلنتخذ البدن مثلاً فنقول : مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه، وكسب الصحة له وجلبها إليه، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعزّي المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتیاد والتعليم تكتسب الرذائل، وكما أن البدن في الابتداء لا

(١) - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٢ / ١٠٣ - ١٠٤) رقم (١٥٨٢) .

(٢) - ((دور الأسرة المسلمة في تفعيل قيمة الوسطية كمنهج حياتي للشباب)) للدكتورة حنان محمد درويش . ص (٤)

يخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم، وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه، فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها، واكتساب زيادة صفاتها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها.

(١)

﴿ دور الأزهر الشريف في نشر الوسطية الإسلامية ﴾

لو كان الأزهر مجرد معهد علمي يجلس في ساحاته كوكبة من الأساتذة تحيط بهم ثلة من التلاميذ، لكان في بلدان العالم مشرقه ومغربيه ما يماثله ويضاهيه ، وربما يفوقه أو يزيد عليه . ولو كان الأزهر مجرد خزانة للتراث، أو وعاء له لكان في مكتبات العالم المغمورة والمشهورة ما يضارعه أو يدانيه كثرة وشهرة . ولو كان الأزهر مجرد اسم ذائع، أو شهرة رائجة لكان في مقدور كثيرين اصطناع مثل ذلك أو ما هو أكثر منه . إذا فما الذي جعل للأزهر هذه القامة السامقة، والقيمة الشاهقة، التي لم تزد علي مر السنين إلا ارتفاعاً وشموحاً ؟.

إنه استمسك الأزهر بميزان الاعتدال، وتجسيده الفعال للوسطية الإسلامية، تلك الوسطية التي تمثل نسيج الإسلام الساري في أوامره ونواهيه، وقيمه ومقاصده، تلك الوسطية التي كتب الله تعالى بواسطتها للإسلام، الخلود والبقاء والشهادة علي البشرية جمعاء، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة آية: ١٤٣] بيد أن تلك الوسطية التي أوثمن الأزهر عليها لم تكن مجرد دعوى عريضة، أو دعاء أجوف، بل كانت ذات تجليات رئيسة شتى، تجاه القضايا الخطيرة الكبرى في الإسلام .

فمنذ أن تبلور كيان الأزهر الفكري، كان له من خلال موقفه الوسطي رأي متوازن ثلاثي الأبعاد تجاه الفتنة الكبرى التي حدثت في القرون الأولى للإسلام، تتمثل أولاً في وجوب تعظيم أقدار الصحابة رضي الله عنهم، والحكم القاطع بعدالتهم وبراءتهم من المطاعن والمثالب، تمسكاً بقوله ﷺ: ((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي)) الحديث . (١) و((أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)) . (٢) وتتمثل ثانياً: في أن نكف ألسنتنا عما شجر بينهم من خلاف أو شقاق، آخذاً بالمقولة المشهورة عن السلف الصالح: ((هذه أحداث أبعد الله تعالى عنها سيوفنا، فلا نلوث بها ألسنتنا)) .

وتتمثل ثالثاً: في التزام الحيطة والحذر تجاه كثير من المرويات التاريخية التي تلاعبت بها الأهواء البغيضة، والعصبية المقيتة، وأن نحمل الراجح منها علي أحسن محامله. وبهذا الموقف الوسطي المذهبي تحدد موقف الأزهر التاريخي أمام الفرقاء، علي نحو سمح للأزهر فيما بعد أن يتبنى دعوة التقريب بين المذاهب، وأن يعمل علي جمع المسلمين علي كلمة سواء، لولا أعاصير السياسة الهوجاء التي أفسدت ما أصلحه الأزهر، وذهبت بجهوده في هذا السبيل كل مذهب !.

ومنذ أن تبلور كيان الأزهر الفكري، كان له من خلال موقفه الوسطي رأي محدد تجاه قضية الجمع بين النقل والعقل، فلا يزال الأزهر ملتزماً بقولة الإمام الغزالي : لا معاداة بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول . وبقولته الأخرى : العقل كالبصر السليم، والقرآن والسنة كالشمس المنتشرة الضياء، ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

بهذا الموقف الوسطي تحدد موقف الأزهر العلمي، فشملت علومه التراث النصي الزاخر، كما شملت التراث العقلي الرصين، دون أن ينثني أو ينحني أمام تيارات وافدة، تحمل بصمات معادية للعقل إلي حد التكفير، أو أمام محاولات مقابلة تدعي العقلانية، لكي تدخل علي نسيج الإسلام حداثة منفلطة، أو علمانية مرفوضة .

ومنذ أن تبلور كيان الأزهر الفكري تحدد موقفه الديني والشرعي تجاه محاولات الاختراق التي تحاولها جهات شتى، فلقد احتفظ بكيانه الصلب المتماسك الرفض لمحاولات مزج الإسلام بالعلمانية، أو خلط الإسلام بالأعيب السياسية ومناوراتها، أو لإلباس الإسلام أودية صحراوية متحجرة، أصابت المجتمعات الإسلامية بالنزوع إلي معاداة العقل، والنفور من التنوع والتعددية .

^١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((فضائل الصحابة)) باب ((قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً)) حديث (٣٤٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . .

^٢ - أخرجه ابن منده في ((فوائده)) ص (٢٩) حديث (١١) .

هذه التجليات اقتضت من الأزهر علي مدي تاريخه الحافل اختيارات حاسمة، ومواقف صارمة، لا يرضى فيها إلا وجه الإسلام الحق، ووجه الحقيقة الناصعة . فلم تكن وسطية الأزهر يوما ما محاولات عقيمة لاسترضاء هذا الطرف أو ذاك الطرف علي حساب الحق والحقيقة .

ولم تكن وسطية الأزهر يوما ما مواقف غامضة متخاذلة تجاه قضايا الإسلام الكبرى التي لا تحتمل أنصاف الحلول أو الإجابات الرجراجة .

ولم تكن تلك الوسطية يوما ما مجرد حاصل جمع ضحل لأطراف متناقضة، كل منها يبتغي أن يتخذ من الأزهر ظهيرا لأغراضه، أو نصيرا لأهدافه، بل كانت وسطية الأزهر دوما موقفا واضحا ورؤية نابعة من أصول الإسلام القطعية، مستهدفة مصالح المسلمين ، الذين يؤوبون إلي تلك الوسطية حين تضل بهم السبل، أو تتفرق بهم الأهواء .^(١)

لذلك كانت تربية الأزهر لطلابه في حلق العلم ودروسه وعامة الناس في مجالس الوعظ وخطب المنابر على قيم عملية تؤكد معنى الوسطية، حتى جعلها سماتا شخصية للمسلم الوسطي المعتدل .

﴿ دور الأزهر المأمول في تأسيس الوسطية ﴾

قد عمل الأزهر الشريف على تأسيس الوسطية بالتربية للمسلمين سواء من طلابه، أو من عامة الناس، وجعل الوسطية قائمة على أسس خلقية، وقيم روحانية، لا تتحقق الوسطية الحق إلا بها، وهي في مجملها قيما إسلامية راقية، وأخلاقا محمدية خالصة .

لذلك نأمل في الأزهر وعلمائه أن يعملوا على تحقيق الوسطية الإسلامية العظيمة، وصياغة التربية الاجتماعية عليها، ولتوضع من أجل هذا المناهج التربوية والتعليمية في جميع مراحل التعليم والتنشئة لأفراد المجتمع الإسلامي، حتى نستطيع السيطرة على حالات الفوضى الأخلاقية، و الانفلات القيمي، سواء في الذين يدعون التدين ولم يتحققوا بحقائقه، أو من كان بعيدا عن الأخلاق الإسلامية وقيم الدين، وتفهم من تمسح بالشرق أو بالغرب فجاء ليعلمها حربا على مجتمعه ودينه، وهو أجهل الناس لحقائق الأمور، لذلك هناك مجموعة من القيم تعتبر من أهم أسس

(١) - مقالة : ((الأزهر والوسطية)) للأستاذ الدكتور محمد عبد الفضيل القوصي .

تحقيق الوسطية التي هي أعظم خصائص هذه الأمة، لابد أن تربي عليها الأمة تعليما وتديسا وتنشئة، ومن أهمها هذه القيم :

١ - « محبة النبي ﷺ »

ومحبته ﷺ فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وبها يكمل الإيمان، وترتفع الدرجات، وتنال المكرمات في الدنيا والآخرة؛ وهي أساس التدين والاتباع، وأصل التقوى، ومعدن الإيمان، وبها تقبل الأعمال، وتتضاعف الحسنات وإن قل العمل، وهي سر القبول، وارتقاء المقامات، وسر ولاية الأولياء واصطفاء الأصفياء، وبها تعلقو الرتب في الدنيا والآخرة، ولا يدلك على هذا إلا ما ورد في فضل أبي بكر ﷺ الذي ضرب القدوة العليا في محبته ﷺ، فأحبه حبا عظيما، أعظم من حبه لنفسه وولده وأهله وكل ما يملك، وشهد له سيدنا ﷺ بقوله : ((إن أبا بكر لم يفضلكم بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه)) . (١)

فمنهم من فسر هذا السر باليقين والتصديق، الذي وقر في قلبه ﷺ : عن ابن عباس ﷺ أن أبا بكر صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة، وهم يريدون الشام في تجارة حتى نزلوا منزلا فيه سدرة فقعد رسول الله ﷺ في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له : ((بجيرا)) يسأله عن الدين . فقال: من الرجل الذي في ظل السدرة ؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله . قال: والله هذا نبي الله . ما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد ﷺ فوقع في قلب أبي بكر اليقين . (٢)

قال ابن القيم : والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه، وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وصلاة وقراءة منه، قال أبو بكر بن عياش : ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه . (٣)

١ - ذكره الكلاباذي في ((بحر الفوائد)) ص (٢٧٨) .

٢ - ذكره الطبري في ((الرياض النضرة)) (١ / ٤١٩) .

٣ - ((مفتاح دار السعادة)) (١ / ٨٢) .

وهذا حق في شأنه ﷺ ، غير أننا لو دققنا لرأينا أن الحديث يحتمل معنى إضافيا آخرًا، وهو محبته ﷺ العظيمة الصادقة لرسول الله ﷺ، وقد ظهر هذا من حاله، ونطق به مقاله في كل أحواله عن محمد بن سيرين قال: ذكر رجال على عهد عمر ﷺ فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر ﷺ قال: فبلغ ذلك عمر ﷺ فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: ((يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي ؟)) . فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك . فقال: ((يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟)) . قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك . فلما انتهى إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار. فدخل واستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الحجرة . فدخل واستبرأ ثم قال : انزل يا رسول الله . فنزل. فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر . (١)

فهذه الأحوال من صدق المحبة واليقين كان له الحظ الأوفى، والقدح المعلن والسبق إلى كل خير ﷺ . وبمحبه ﷺ يكمل الإيمان، ويتأسس في قلوب المؤمنين، وهذا هو الفارق بين الصادقين في الإيمان وبين اللئام من المنافقين، إن المؤمنين أحبوهم وقدموا محبته على كل شيء، قدموه على أنفسهم وأهليهم وأولادهم، جعلوا نحورهم دون نحوره ﷺ، وأنفسهم وأرواحهم وكل ما يملكون فداء له ﷺ، وخاب المنافقون وخسروا ببغضه وكرهه، فخابوا في الدارين، وضل سعيهم في الآخرة والحياة الدنيا. ودليل هذا ما روي عن أنس ﷺ قال : قال النبي ﷺ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) . (٢) وعن زُهْرَةَ بْنِ مَعْبُدٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ)) . فَقَالَ عُمَرُ : فَلَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((الْآنَ يَا عُمَرُ)) . (٣)

(١) - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٣ / ٧) حديث (٤٢٦٨) .

(٢) - متفق عليه .

(٣) - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٤ / ٢٣٣) حديث (١٨٠٧٦) .

فلذلك بلغ الصحابة ﷺ مقامات الكمال والفوز والنصر بحبه ﷺ في الدنيا والآخرة وكانت لهم بمحبته البشرية والشرف في الدارين، عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإنني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك . فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۝ ﴾ [سورة النساء آية: ٦٩] (١) وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله متى الساعة قائمة ؟ قال : ((وئيلك وما أعددت لها ؟)) . قال : ما أعددت لها إلا أنني أحب الله ورسوله . قال : ((إنك مع من أحببت)) . فقلنا : ونحن كذلك . قال : ((نعم)) . ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً . الحديث . (٢)

﴿ إيثار حبه وحب ما يرضيه على كل محبوب للنفس ﴾

ومن علامات كمال محبته ﷺ أن يحب المسلم كل ما يحبه رسول الله ﷺ ، ويقدمه على كل محبوب له : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء أبو بكر رضي الله عنه بأبيه أبي قحافة إلى رسول الله ﷺ يقوده شيخ أعمى يوم فتح مكة فقال له رسول الله ﷺ : ((ألا تركت الشيخ حتى نأتيه)) . قال : أردت أن يؤجر والله لأننا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحاً مني بإسلام أبي التمس بذلك قرّة عينك . فقال رسول الله ﷺ : ((صدقت)) . (٣)

وعن عامر أن العباس تحفي عمر في بعض الأمر فقال له : يا أمير المؤمنين أرايت أن لو جاءك عم موسى مسلماً ما كنت صانعا به ؟ قال : كنت والله محسناً إليه . قال : فأنا عم محمد النبي ﷺ . قال : وما رأيك يا أبا الفضل فوالله لأبوك أحب إلي من أبي . قال : الله الله . لأنني كنت أعلم أنه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبي، فأنا أؤثر حب رسول الله ﷺ على حيي . (٤)

(١) - أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (١ / ١٥٣) حديث (٤٧٧) .

(٢) - متفق عليه .

(٣) - أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (٩ / ٤٠) حديث (٨٣٢٣) .

(٤) - أخرجه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٤ / ٣٠) .

﴿ توقيره ﷺ واحترامه والأدب معه ﴾

وهذا حق من حقوقه ﷺ التي أوجبها الله تعالى على المؤمنين، وفرض فرضه عليهم تكريماً لحبيبه ومصطفاه، اقتداء بفعل السادة من أصحابه ﷺ واقتفاء لأثرهم فقد كانوا أعظم الناس توقيراً له، واحتراماً وتادباً مع جنابه الأكرم، فحازوا شرف الدارين، وكان احترامه والأدب معه خلقاً من أخلاقهم الباطنة والظاهرة في جميع أحوالهم، سواء في حالة حضوره أو في حال غيابه ﷺ، وبعد انتقاله إلى جوار ربه، وما انتصروا على عدوهم إلا بفضل محبتهم له، واحترامهم إياه وتعظيمه وتوقيره ﷺ، امثالاً لأمر ربهم سبحانه وتعالى قال ﷺ: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [سورة الفتح آية: ٩] وقال أمرا لهم بالتأدب معه ﷺ في مناداته: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور آية: ٦٣] ونهى عن رفع أصواتهم في حضرته ﷺ أو أن يجهروا له بالقول كجهر أحدهم لبعض فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات آية: ٢]

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع إليه أحد منهم بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويتبسمان إليه ويتبسم إليهما . (١)

وفي حديث صلح الحديبية عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه: ... ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه . قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً؛ والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف

١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٦١٢) حديث (٣٦٦٨) .

رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَكَرَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ . (١)

وعن أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَنَزَلَ عَلَى أَبِي أَيُّوبَ فَأَنْزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السُّفْلَ وَنَزَلَ أَبُو أَيُّوبَ الْعُلُوَّ، فَلَمَّا أَمْسَى وَبَاتَ فَجَعَلَ أَبُو أَيُّوبَ يَذْكُرُ أَنَّهُ عَلَى ظَهْرِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْفَلَ مِنْهُ، وَهُوَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَحْيِ، فَجَعَلَ أَبُو أَيُّوبَ لَا يَنَامُ يُحَاذِرُ أَنْ يَتَنَاطَرَّ عَلَيْهِ الْعُبَارُ، وَيَتَحَرَّكَ فَيُؤْذِيَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا جَعَلْتُ اللَّيْلَةَ فِيهَا غَمَضًا أَنَا وَلَا أُمُّ أَيُّوبَ . قَالَ: ((وَمِمَّ ذَاكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ ؟)) . قَالَ: ذَكَرْتُ أَنِّي عَلَى ظَهْرِ بَيْتِ أَنْتَ أَسْفَلَ مِنِّي فَأَتَحَرَّكَ فَيَتَنَاطَرُّ عَلَيْكَ الْعُبَارُ وَيُؤْذِيكَ تَحْرِيكِي، وَأَنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْوَحْيِ . قَالَ: ((فَلَا تَفْعَلْ يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ بِالْعِدَاةِ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَبِالْعَشِيِّ عَشْرَ مَرَّاتٍ أُعْطِيََتْ بِهِنَّ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَكُفِّرَ لَكَ بِهِنَّ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ وَرُفِعَ لَكَ بِهِنَّ عَشْرُ دَرَجَاتٍ وَكُنَّ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَعْدَلِ عَشْرِ مُحَرَّرِينَ تَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ لَا شَرِيكَ لَهُ)) . (٢)

وعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَخِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : كَانَ لِلْعَبَّاسِ مِيزَابٌ عَلَى طَرِيقِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلَيْسَ عُمَرُ ثِيَابَهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَقَدْ كَانَ دُبْحَ لِلْعَبَّاسِ فَرُخَانٍ فَلَمَّا وَافِيَ الْمِيزَابَ صَبَّ مَاءٌ بِدَمِ الْفَرُخَيْنِ فَأَصَابَ عُمَرَ وَفِيهِ دَمُ الْفَرُخَيْنِ فَأَمَرَ عُمَرَ بِقَلْعِهِ ثُمَّ رَجَعَ عُمَرُ فَطَرَحَ ثِيَابَهُ وَلَبَسَ ثِيَابًا غَيْرَ ثِيَابِهِ ثُمَّ جَاءَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ فَاتَاهُ الْعَبَّاسُ فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَلْمَوْضِعُ الَّذِي وَضَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ . فَقَالَ عُمَرُ لِلْعَبَّاسِ : وَأَنَا أَغْزِمُ عَلَيْكَ لَمَّا صَعَدْتَ عَلَى ظَهْرِي حَتَّى تَضَعَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَفَعَلَ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ رضي الله عنه . (٣)

﴿ أَدْبَهُمْ ﷺ عِنْدَ ذِكْرِ اسْمِهِ الشَّرِيفِ ﴾

علمنا الصحابة رضي الله عنهم عظيم الأدب مع حضرة سيدنا رسول الله ﷺ ، في حياته وبعد انتقاله، و التأدب معه في كل شيء حتى في مجرد ذكر اسمه الشريف ﷺ فكانوا يتأدبون في ذكره، في حال مخاطبته أو في الحديث عنه، ويا ليت من يتصدى للدعوة اليوم ممن يظهرون على الناس عبر الشاشات للقنوات الفضائية يعلمون الناس هذا الأدب، وليكونوا قدوة لهم فيه، لكن الواقع الذي

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الشروط)) باب ((الشروط في الجهاد والمصالحة)) حديث (٢٥٨١) .

٢ - أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (٤ / ١٥٤) حديث (٣٩٨٦) .

٣ - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (١ / ٢١٠) حديث (١٧٩٠) ، والضياء في ((المختارة)) (٨ / ٣٩١) حديث

(٤٨٢) .

نراه منهم ونسمعه من مقامهم بخلاف هذا تماما، حتى أحدثوا فتنة عظيمة بين الناس ، فبرى الكثير منهم يتحاشى أن يقول : سيدنا محمد ﷺ . فيتهرب من ذلك فيقول : قال محمد ﷺ . فعل محمد ﷺ . وأحسنهم حالا يقول : قال نبينا . أو : قال النبي محمد ﷺ .

وما أعظمها من جفوة حين تعمد هؤلاء الإيحاء للناس بأن احترامه وتوقيره بالسيادة بدعة، بل ومنهم من صرح بأنه لا يجوز أن يقال : سيدنا محمد ﷺ . وروجوا لهذا حتى كانت فتنة اختلاف بين الناس والمشتكى إلى الله ، حتى صار الخلاف في هذه القضية بين الوالد وولده والأخ وأخيه والمرء وزوجه ، ويا ليتهم أفادوا الناس بغير هذا ! .

واحتجوا بأحاديث أولوها على هواهم، كالحديث المروي عن مُطَرِّفٍ قال: قال أبي : انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا . فَقَالَ : ((السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) . قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا . فَقَالَ: ((قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ)) . (١)

ولقد شرح العلماء ﷺ هذا القول منه ﷺ ولم ينفوا عنه صفة سيادته الثابتة له ﷺ في الدارين، لكن المتعالمين يفهمون فهما معكوسا، فماذا قال العلماء في شرح هذا الحديث ؟ .

قال الأزهرى: كره ﷺ أن يمدح في وجهه وأحب التواضع . (٢) فقال : ((السيد الله)) . أي الحقيق بهذا الاسم . قال القاري : أي الذي يملك نواصي الخلق ويتولاهم هو الله سبحانه، وهذا لا ينافي سيادته المجازية الإضافية المخصوصة بالأفراد الإنسانية، حيث قال : ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر)) . أي : لا أقول افتخارا بل تحدثا بنعمة الله . وإلا فقد روى البخاري عن جابر ﷺ: أن عمر ﷺ كان يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالا . وهو بالنسبة إلى بلال تواضع . وقال السيوطي: قال الخطابي قوله ﷺ : ((السيد الله)) . أي : السؤدد كله حقيقة لله ﷻ وأن الخلق كلهم عبيد الله . وإنما منعهم أن يدعوه سيدا قوله : ((أنا سيد ولد آدم)) . لأنهم قوم حديث عهد بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة كهي بأسباب الدنيا، وكان لهم رؤساء يعظمونهم وينقادون لأمرهم . وقوله : ((قولوا بقولكم)) . أي: قولوا بقول أهل دينكم وملتكم، وادعوني نبيا ورسولا كما سماني الله تعالى في كتابه، ولا تسموني سيدا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم ، ولا تجعلوني مثلهم فإني لست كأحدكم، إذا كانوا ليسودونكم في أسباب الدنيا، وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة فسموني نبيا ورسولا . (٣)

١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢٥٤) حديث (٤٨٠٦)

٢ - ((عمدة القاري)) للعيني (٢ / ٥٥) .

٣ - ((عون المعبود)) (١٣ / ١١١ - ١١٢) .

فقد كان أصحابه ﷺ ومن بعدهم يعظمون اسمه ﷺ أعظم التعظيم، ويستنكرون على من ذكره بدون تعظيم أو إضافته إلى الله بالرسالة أو النبوة، كرسول الله أو نبي الله ﷺ. عن سلمة بن سعيد قال: كنا عند معاوية ﷺ فقال: وددت أن عندنا من يحدثنا عما مضى من الزمن، هل يشبه ما نحن فيه اليوم؟ قيل له: بحضرموت رجل قد أتت عليه ثلاثمائة سنة. فأرسل إليه معاوية فأتى به، فلما دخل عليه أجله، ثم قال له: ما اسمك؟ قال: أمد بن أمد. فقال له: كم أتى عليك من السنين؟ قال: ثلاثمائة سنة. فقال له معاوية: كذبت. ثم أقبل على جلسائه فحدثهم ساعة، ثم أقبل عليه فقال: حدثنا أيها الشيخ. فقال له: وما تصنع بحديث الكذاب؟! فقال: إني والله ما كذبتك وأنا أعرفك بالكذب ولكني أردت أن أخبر من عقلك فأراك عاقلاً، حدثنا عما مضى من الزمن هل يشبه ما نحن فيه؟ فقال: نعم كأنه ما ترى ليل يجيء من هاهنا ويذهب من هاهنا. قال: أخبرني عن أعجب ما رأيت. قال: رأيت الطعينة تخرج من الشام حتى تأتي مكة لا تحتاج إلى طعام ولا شراب، تأكل من الثمار وتشرب من العيون، ثم هي الآن كما ترى. قال: وما آية ذلك؟ قال: دول الله في البقاع كما ترى. ثم سأله عن عبد المطلب وعن أمية بن عبد شمس. ثم قال له: فهل رأيت محمداً؟ قال: ومن محمد؟ قال: رسول الله!. قال: سبحان الله ألا عظمته بما عظمه الله سبحانه؟! ألا قلت: رسول الله ﷺ. (١)

والدليل على أنهم كانوا يلتزمون مخاطبته بالتأدب معه، وكانوا ينادونه بالسيادة والتعظيم ما روي: عن سهل بن حنيف يقول: مَرَرْنَا بِسَيْلٍ فَدَخَلْتُ فَاغْتَسَلْتُ فِيهِ فَخَرَجْتُ مَحْمُومًا فَنَمِيَّ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((مُرُوا أَبَا تَابِتٍ يَتَعَوَّذُ)). فقلت: يَا سَيِّدِي وَالرُّقَى صَالِحَةٌ؟ فقال: ((لَا رُقِيَّةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ أَوْ حُمَةٍ أَوْ لَدَغَةٍ)). (٢)

﴿ لزوم القلب واللسان للصلاة عليه ﴾

وهي من أعظم القربات، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب آية: ٥٦]

٢ - أخرجه ابن الأثير في ((أسد الغابة)) (١ / ١٧٤).

٣ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ١١) حديث (٣٨٨٨) والنسائي في ((سننه)) (٦ / ٧٢) حديث (١٠٠٨٦)، و الحاكم في ((المستدرک)) (٤ / ٤٥٨) حديث (٨٢٧٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من صلى على مرة واحدة كتب الله ﻻ له بها عشر حسنات)) . (١) وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي ثم سلوا الله لي الوسيلة وإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)) . (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من سره أن يكتال بالمكيال الوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)) . (٣)

﴿ حب آل بيته لربه ﷺ ﴾

وحبهم ﷺ من حبه ﷺ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۚ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [سورة الشورى آية: ٢٣]

قال البيضاوي: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على ما أعطاه من التبليغ والبشارة ﴿ أَجْرًا ﴾ نفعا منكم ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي تودوني لقرايتي منكم، أو تودوا قرايتي . وقيل الاستثناء منقطع والمعنى: لا أسألكم أجرا قط ولكني أسألكم المودة . و﴿ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ حال منها أي:

﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ ﴾ ثابتة في ذوي القربى متمكنة في أهلها، أو في حق القرابة، ومن أجلها كما جاء في الحديث: ((الحب في الله والبغض في الله)) . روي أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم علينا ؟ . قال: ((علي وفاطمة وابناهما)) . (٤)

وعن السدي عن أبي الديلم قال: لما جاء بعلي بن الحسين رضي الله عنهما أسيرا فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة . فقال له علي بن الحسين رضي الله عنهما: أقرأت القرآن ؟ . قال: نعم . قال: أقرأت ((آل حم)) . (٥) قال:

١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٢ / ٢٦٢) حديث (٧٥٥٢) .

٢ - أخرجه ابن خزيمة في ((صحيحه)) (١ / ٢١٨) حديث (٤١٨) .

٣ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (١ / ٢٥٨) حديث (٩٨٢) .

٤ - ((تفسير البيضاوي)) (٥ / ١٢٨) .

٥ - سورة الشورى .

قرأت القرآن ولم أقرأ ((آل حم)) . قال: ما قرأت : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [سورة الشورى آية: ٢٣] قال: وإنكم لأنتم هم ؟ . قال : نعم . (١)

٢ - ﴿ اعتقاد حرمة دماء المسلمين ﴾

ومن أهم أسس تحقق الوسطية، قيمة اعتقاد حرمة دماء المسلمين، حتى لا يستهين بدمائهم أحد، نتيجة فهم خاطئ، وظلمة في العقول والقلوب، كأمثال أناس لم يتفهموا أمر ربهم ولا سنة نبیهم، فخرجوا على المجتمعات الإسلامية بفكر غريب ينادي بالكفر للمجتمع المسلم، فحللوا الدماء المسلمة الزكية واستحلوا إزهاق الأرواح باسم الدين، والسبب في هذا هو الجهل والفهم الخاطئ، والغلو والتشدد المنبوذ الذي لا يتوافق مع روح شريعة الإسلام . وقد تواعد الله تعالى من يستحل هذه الحرمات بالعذاب الأليم في جهنم، وبغضبه عليه ولعنته فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء آية: ٩٣] وكذلك جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تعظم حرمة دم المسلم على المسلم : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قُتِلَ قَتِيلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُعْلَمُ قَاتِلُهُ فَصَعِدَ مِنْبَرَهُ فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيْقَتُلْ قَتِيلٌ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ لَا يُعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اجْتَمَعُوا عَلَى قَتْلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَعَذَبَهُمُ اللَّهُ بِلاَ عَدَدٍ وَلَا حِسَابٍ)) . (٢)

وعن أبي طبيان قال: سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنه يَقُولُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ . قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشَيْنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ وَطَعْنَتْهُ بِرُمَحِي فَقَتَلَتْهُ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَّغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ((يَا أُسَامَةُ قَتَلْتُهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟)) . قَالَ : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَ مُتَعَوِّدًا . فَقَالَ: ((طَعْنَتْهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) . فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَيَّنْتُ أَنَّ لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ . (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فِيهَا الْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَلَمَّا أَتَوْا الْقَوْمَ وَجَدُوهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا وَبَقِيَ رَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لَمْ يَرَحْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَأَهْوَى إِلَيْهِ الْمُقْدَادُ فَقَتَلَهُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : قَتَلْتَ رَجُلًا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا

٢ - أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (٢٥ / ٢٥) .

٣ - أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (١٢ / ١٣٣) .

١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١١ / ٥٧) حديث (٤٧٥١) .

اللَّهُ . وَاللَّهُ لَيَذْكُرَنَّ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ . فلما قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ رَجُلًا شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَتَلَهُ الْمُقَدَّادُ . فقال : ((ادْعُوا لِي الْمُقَدَّادَ)) . فقال : ((يَا مُقَدَّادُ قَتَلْتَ رَجُلًا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَكَيْفَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟!)) . قال : فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَتَّبِعُونَا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلْسَلِمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَتَّبِعُونَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء آية: ٩٤] فقال رسول الله ﷺ : ((كَانَ رَجُلًا مُؤْمِنًا يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَقَتَلْتَهُ وَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ)) . (١)

ولقد عظم النبي ﷺ جرم من استحل دم مسلم، عن عبادة بن الصامت ؓ عن النبي ﷺ قال : ((من قتل مؤمنا ثم اغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)) . (٢) وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ ؓ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا)) . (٣) وعن سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ؓ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : أَرَأَيْتَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ثُمَّ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ؟. قَالَ: وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ ؟ . وقد سمعت نَبِيَّكَ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ أَقْرَبَ الْخَلَائِقِ مِنْ عَرْشِ الرَّحْمَنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُؤْمِنُ الَّذِي قُتِلَ مَظْلُومًا رَأْسُهُ عَنْ يَمِينِهِ وَقَاتِلُهُ عَنْ شِمَالِهِ وَأَوْدَاجُهُ يَشْخَبُ يَقُولُ: رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلْتَنِي فِيمَ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ الصَّلَاةِ .)) (٤) وعن نافع عن ابن عمر ؓ عن النبي ﷺ قال: ((من قتل مؤمنا متعمدا فقد كفر بالله)) . (٥)

٣ - ﴿ الخوف على المسلم والحرص على حياته ﴾

إن المسلم أغلى شيء في هذا الكون، فهو مراد الله من خلقه، وهو أعز شيء في الوجود، والله ما هنا إلا حينما هان ديننا علينا، فذهبت عزتنا وتأخرت حضارتنا والله ورسوله ﷺ قد عظموا

٢ - أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (١٢ / ٣٠) حديث (١٢٣٧٩) .

٣ - أخرجه الضياء في ((المختارة)) (٨ / ٣٤٢) حديث (٤١٥) .

٤ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٣ / ٣١٨) حديث (٥٩٨٠) .

٥ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢ / ١٠١) حديث (١٢٥٩٧) .

٦ - أخرجه الطرسوسي في ((مسند عبد الله بن عمر)) ص (٣٢) حديث (٤١) .

حرمة المسلم تعظيماً كبيراً، ولا يدلّك على هذا إلا ما روي عن ابن عبّاسٍ ؓ قال: نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا أَطْيَبَ وَأَطْيَبَ رِيحِكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكَ إِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَكَ حَرَامًا وَحَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ مَالَهُ وَدَمَهُ وَعَرَضَهُ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ ظَنًّا سَيِّئًا)) . (١)

والإسلام قد سبق النظم الغربية في احترام قيمة الإنسان، وأنه من الواجب على مجتمعه أن يحافظ عليه ويحميه، ولا يستهين به ولا بدمه، فإننا نرى اليوم من الدول الغربية أنها مستعدة لقيام حروب من أجل إنقاذ أحد أفراد شعبها أو جيشها، احتراماً منهم لقيمة الإنسان وحفاظاً عليه، وقد سبق الإسلام جميعهم في هذه المبادئ والقيم ودليل هذا : عن أنس بن مالك ؓ أن عمر بن الخطاب ؓ سأله : إذا حاصرت المدينة كيف تصنعون ؟ قال: نبعث الرجل إلى المدينة ونصنع له هنة من جلود. قال: أرايت إن رمى بحجر ؟ قال : إذا يقتل. قال: فلا تفعلوا فو الذي نفسي بيده ما يسرني أن تفتتحوا مدينة فيها أربعة آلاف مقاتل بتضييع رجل مسلم . (٢)

وعن حميد بن عبد الرحمن قال : قال عمر ؓ : لأن أستنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إلي من جزيرة العرب . (٣)

٤ - « تأمين المسلم وحرمة ترويعه »

لقد بلغ من درجة كمال الأخلاق في الإسلام، وكمال الاحترام في المعاملة بين المسلمين أن حرص الإسلام على المسلم من الترويع ولو كان بقصد المزحة واللعب، فما بالك بمن يسيح لنفسه تهديد أمنهم وحياتهم بالقتل، واستحلال دمائهم بحجة أنهم قد كفروا، وهم من الكفر فروا وإنهم ليشهدون: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟! عن عَمْرُو بن يحيى عن أبيه عن جَدِّهِ أَبِي حَسَنٍ وَكَانَ بَذْرِيئاً عَقِيئاً ؓ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ وَنَسِيَ نَعْلَيْهِ فَأَخَذَهُمَا رَجُلٌ فَوَضَعَهُمَا تَحْتَهُ فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَقَالَ: نَعْلِي . فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا رَأَيْنَاهُمَا . فَقَالَ رَجُلٌ: هُوَ ذَا ؟ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَيْفَ بَرُوعَةُ الْمُؤْمِنِ)) . فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا صَنَعْتُهُ لَاعِبًا . فَقَالَ: ((كَيْفَ بَرُوعَةُ الْمُؤْمِنِ)) مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا . (٤)

١ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١١ / ٣٧) حديث (١٠٩٦٦) .

٢ - أخرجه الشافعي في ((مسنده)) ص (٣١٧) ، و البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٩ / ٤٢) حديث (١٧٦٨٧) .

٣ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٦ / ٤٩٦) حديث (٣٣٢٥٣) .

٤ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢٢ / ٣٩٤) حديث (٩٨٠) .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : حدثنا أصحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَنْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرُوَّعَ مُسْلِمًا)) . (١)

٥ - « احترام المسلمين وتوقييرهم ومراعاة رحم الإسلام بينهم »

حرص النبي ﷺ أن يؤسس علاقة المسلم بأخيه في التعامل، وإقرار التعايش السلمي بين المسلمين ، وأنه ينبغي أن يقوم على أسس الاحترام والمحبة والتعاون فيما بينهم، فضلا عن تراحمهم وتواددهم . عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (٢)

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَا هُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ)) . (٣)

وعن إبراهيم بن عبد الأعلى عن جَدَّتِهِ عَنْ أَبِيهَا سُؤَيْدِ بْنِ حَنْظَلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَرَجْنَا نُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا وَائِلُ بْنُ حُجْرٍ فَأَخَذَهُ عَدُوٌّ لَهُ فَتَحَرَّجَ الْقَوْمُ أَنْ يَخْلِفُوا وَحَلَفْتُ أَنَّهُ أَخِي فَخَلِي سَبِيلَهُ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ تَحَرَّجُوا أَنْ يَخْلِفُوا وَحَلَفْتُ أَنَّهُ أَخِي قَالَ : ((صَدَقْتَ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ)) . (٤)

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حِجَّتِهِ : ((أَلَا وَإِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَحِلُّ لَهُ دَمُهُ وَلَا شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ إِلَّا بِطَيْبِ نَفْسِهِ أَلَا هَلْ بَلَغَتْ ؟)) . قالوا : نعم . قال : ((اللَّهُمَّ اشْهَدْ)) . (٥)

٢ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٣٠١) حديث (٥٠٠٤) . وابن أبي شيبة في ((مسنده)) (٢ / ٤٢٧) .

٣ - متفق عليه .

٤ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البر والصلة والآداب)) باب ((تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله)) حديث (٢٥٦٤) .

١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ٢٢٤) حديث (٣٢٥٦) .

٢ - أخرجه الدارقطني في ((سننه)) (٣ / ٢٥) حديث (٨٧) .

٦ - (تعظيم حرمة عقيدة المسلم وعدم الحكم عليه بشيء)

نرى كثيرا ممن بلغ الكبر في صدورهم مبلغا عظيما، يحتقر المسلمين ويطعن في عقيدتهم ويظن النجاة لنفسه فقط ومن وافقه على منهجه ورأيه، وهذا مرض إبليسي خطير والعياذ بالله، لأنه مؤثر خطير يدل على الكبر والاعتزاز بالنفس، ومن يقع في شرك هذا المرض العضال يصبح محجوبا بحسه مفتونا بنفسه، فيكون على شاكلة إبليس لعنه الله الذي احتقر آدم ﷺ، مما يجعله مشغولا بالخلق عن نفسه، يشتغل بعيوبهم والتنقيب عما يطعن به فيهم، وينسى النجاة بنفسه والعمل على تحصيلها، وما أكثر ما نرى في هذا الزمان من يستحل عقيدة المسلمين ليطعن فيها ويشكك في النوايا، وكأنه أصبح إلها عليما بذات الصدور والعياذ بالله، ومنهم من يحتقر بعض المسلمين لمعصيتهم ويزفع عن معاملتهم، ونسي أن كل بني آدم عرضة للمعصية، وقد قدر الله تعالى على آدم ﷺ المعصية لحكم منها: أن يجعله قدوة لأولاده من بعده في التوبة والأعمال الصالحات. وكثيرا ما نرى في زماننا هذا خطابا دعويا منفرا ومقنطا من رحمة الله، يشكك أكثر مما يرسخ، ويفرق أكثر مما يجمع، يشتغل بالمعائب وتتبع العورات ليشفي غليله بالاتهام بالكفر أو التفسيق أو التبديع، لذا يجب على هؤلاء أن يتعلموا كيف تكون الدعوة ؟. وأنها في حقيقتها فن رد الخلق إلى طريق الحق سبحانه، وما جعل الدعوة إلا لهذه الغاية، وقد أسس الإسلام مبدأ الاحترام للمسلم وجعله حقا من حقوقه حتى وإن كان عاصيا، وأنه ليس من حق أحد أن يشكك في نيته أو ما انطوى عليه قلبه، لأن هذا أمر لا يطلع عليه ويعلمه إلا الله تعالى، وحينما نأخذ بالظاهر لا بد أن نتعامل أيضا بثقافة حسن الظن في المسلم وثقافة العذر، فكلنا ضعفاء إلا من قواه الله وثبته. وليس بتعامل بدعي في الإسلام، إنما هو مستمد من أحوال سيدنا رسول الله ﷺ مع المسلمين وإن كانوا عصاة. عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ﷺ أن رجلا كان يلقب حمارا وكان يهدي لرسول الله ﷺ العكة من السمن والعكة من العسل، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه جاء به إلى رسول الله ﷺ فيقول: يا رسول الله أعط هذا ثمن متاعه. فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يتسم، ويأمر به فيعطى، فجاء به يوما إلى رسول الله ﷺ وقد شرب الخمر فقال رجل: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: ((لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله)) (١).

١ - أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (١ / ١٦١) حديث (١٧٦) . وابن الأثير في ((أسد الغابة)) (٢ / ٦٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى بشارب فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يضربوه فمنهم من ضربه بنعله ، ومنهم بيده، ومنهم بثوبه، ثم قال: ((ارجعوا)) ثم أمرهم فبكتوه فقالوا : ألا تستحي مع رسول الله ﷺ تصنع هذا ثم أرسله فلما أدبر وقع القوم يدعون عليه ويسبونونه يقول القائل : اللهم اخزه اللهم عنه. فقال رسول الله ﷺ : ((لا تقولوا هكذا ولكن قولوا: اللهم اغفر له اللهم ارحمه)) . (١) وعن يزيد بن أبي عبيد مولى سلمة بن الأكوع حدثه أنه سمع سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يقول : كنا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه رأينا أنه قد أتى بابا من الكبائر . (٢)

٧ - ﴿ حرمة شتم المسلم وسبه ﴾

وجعل الإسلام من حق المسلم على المسلم التزام الأدب معه في الحوار، والتأدب معه في الخطاب، وأن يحفظه ويحفظ حيائه من قول الفحش من سب أو شتم ، مما يثير الخلاف والحقد والتنازع في المجتمع الإسلامي، وهو باب من أبواب الفتن الاجتماعية المهلكة التي تورث البغضاء والفرقة، فلذلك حرم الإسلام إيذاء المسلم بالسب والشتم، وكل الألفاظ التي تؤذيه، وما أخرجنا إلى هذه القيمة وهذا الخلق في زمن أصبح السباب فيه من الأمور التي لا تستنكر ولا حرج فيها، وهذه همجية نهى الإسلام عنها وتغضب الله تعالى ورسوله ﷺ، ولو أننا رجعنا إلى أخلاقنا وتربيتنا التي ربي عليها رسول الله ﷺ أصحابه عليها وأمر بها أمته، لاستقام اعوجاج المجتمع، وهذا الانحلال الأخلاقي في التعامل والفعل والقول . عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَمْلُوكَيْنِ يَكْذِبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَني وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ ؟ قَالَ: ((يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدَرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَقْتَصَ لَكَ مِنَ الْفَضْلِ)) . قالت : فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَنْكِي وَيَهْتِفُ . فقال رسول الله ﷺ : ((أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا

٢ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٣١٢ / ٨) حديث (١٧٢٧٢)

٣ - أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٣٨٠ / ٦) حديث (٦٦٧٤) .

حَسْبُكَ ﴿١٧﴾ [سورة الأنبياء آية: ٤٧] ((. فقال الرَّجُلُ : والله يا رَسُولَ اللَّهِ ما أَجِدُ لي وَلَهُؤُلَاءِ شيئاً خيراً من مُفَارَقَتِهِمْ أَشْهَدُكُمْ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلِّهِمْ . (١)

ومن مسند أنس بن مالك ؓ : وقع رجل عند النبي ﷺ في رجل فقال له النبي ﷺ : ((قم لا شهادة لك)) . قال : يا رسول الله فلست أعود . قال : ((أصبحت تهزأ بالقرآن ما آمن بالقرآن من استحلال محارمه)) . (٢) وعن البهي قال: كان بين عبيد الله بن عمر وبين المقداد شيء فنال منه عبيد الله فشكاه المقداد إلى أبيه فنذر عمر ليقطعن لسانه، فلما خاف ذلك من أبيه تحمل على أبيه بالرجال . فقال: دعوني فأقطع لسانه فتكون سنة يعمل بها من بعدي، لا يوجد رجل شتم رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ إلا قطع لسانه . (٣)

وعن عمارة بن عمير قال: شهد رجلان عند شريح لرجل على شيء . قال الأعمش : أراه قال : على بغل . فقال: تشهدان هذا اشتراه من هذا ؟ قال أحد الشاهدين : أشهد أنه فاجر . فقال شريح : وما يدريك أنه فاجر قم لا شهادة لك !؟ . (٤)

٨ - ﴿ تحريم غيبة المسلم ﴾

الغيبة من أهم الأمراض الاجتماعية التي تفشت في المجتمعات الإسلامية، وهي خلق غريب ليس من الطبيعي أن توجد في المجتمع الإسلامي، لأنها لا تكون إلا عن أمراض اجتماعية أخرى لا تقل عنها خطورة وشرًا مثل الحقد والحسد والبغض... إلخ ولقد حارب الإسلام الغيبة وجعلها من الذنوب الخطيرة ومن الكبائر والمعاصي التي يجب أن يتطهر منها المسلم ويرتفع عنها، لأنها لا تأتي إلا بشر، ولا تورث إلا الفرقة والبغضاء، قال الله تعالى محذرا عباده من الغيبة وغيرها :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات آية: ١٢] وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ : حَسْبُكَ من

(١) - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٣٢٠) حديث (٣١٦٥) .

(٢) - ذكره الهندي في ((كنز العمال)) (٢ / ١٤٩) حديث (٤١٩٧) وعزاه لأبي نعيم .

(٣) - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخ مدينة دمشق)) (٣٨ / ٦٠) .

(٤) - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٤ / ٥٤٧) رقم (٢٣٠٢٢) .

صَفِيَّةٌ كَذًا وَكَذَا تَعْنِي فَصِيرَةً فَقَالَ : ((لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ)) . قَالَتْ وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ : ((مَا أَحَبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنْ لِي كَذًا وَكَذَا)) . (١)

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ اسْتِطَالَاةَ الْمَرْءِ فِي عَرَضٍ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ وَمِنْ الْكِبَائِرِ السَّبْتَانِ بِالسَّبَةِ)) . (٢)

وعن سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرَّبَا الْإِسْطِطَالَاةَ فِي عَرَضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ)) . (٣) وعن أَبِي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ)) . (٤)

وعن وَقَّاصِ بْنِ رَبِيعَةَ عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ رضي الله عنه أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكَلَهُ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا مِنْ جَهَنَّمَ وَمَنْ كَسَى ثَوْبًا بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ مَقَامَ سُمُعَةٍ وَرِيَاءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ سُمُعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (٥)

وعن إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه يَقُولَانِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ وَيُنْتَهَكُ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ)) . (٦)

وإن هذه الروايات كفيلا أن ترجع الأدب لمن شرد منه الأدب، ويزعم أنه على نهج الكتاب والسنة، ومع هذا يبيح لنفسه الخوض في أعراض من خالفه من المسلمين في رأيه، خاصة أولئك الذين يخوضون في أعراض العلماء بغير فهم ولا حق، ولم يكتفوا بالمعاصرين منهم بل والأقدمين السابقين رحمهم الله، فبئس الناس من لا يحترم سلفه ولا يقدر قدر علمائه وإن خالفهم، فقد أمرنا بالاحترام حتى مع الاختلاف .

١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢٦٩) حديث (٤٨٧٤) .

٢ - السابق حديث (٤٨٧٧) .

٣ - السابق حديث (٤٨٧٦) .

٤ - السابق (٤ / ٢٧٠) حديث (٤٨٨٠) .

٥ - السابق حديث (٤٨٨١) .

٦ - السابق (٤ / ٤٧١) حديث (٤٨٨٤) .

٩ - ﴿ تحريم تجسس عورات المسلمين وزلاتهم ﴾

ومما يؤكد حرص الإسلام على خصوصية حياة الإنسان، وأنه ليس من حق أحد أن يتجسس على عوراته أو أن ينتهك خصوصيته، حتى ولو كان تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا إذا جهر بمعصية ودعا إليها، فوقتها من حق ولي الأمر، ولي الأمر فقط أن يتدخل في هذا الأمر وليس عامة الناس حتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، وقد نهى الله تعالى عن تجسس العورات وتتبع الزلات، وقد ضمن لعباده بالتوبة إذا عصوه وتابوا إليه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ

﴿ [سورة الحجرات آية: ١٢]

وعن الأعرج قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه يَأْتُرُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا إِخْوَانًا وَلَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكِحَ أَوْ يَتْرُكَ)) . (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا التقوى هاهنا ويشير إلى صدره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم)) . (٢)

وعَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ)) . أَوْ: ((كَذَبْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ)) . قَالَ يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ كَلِمَةً سَمِعَهَا مُعَاوِيَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا . (٣)

وعن زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: أُتِيَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقِيلَ: هَذَا فُلَانٌ تَقْطُرُ لِحَيْتُهُ خَمْرًا . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرُ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذُ بِهِ . (٤)

(١) - متفق عليه .

(٢) - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البر والصلة والآداب)) باب ((تحريم ظلم المسلم)) حديث (٢٥٦٤) .

(٣) - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٣ / ٧٢) حديث (٥٧٦٠) .

(٤) - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢٧٢) حديث (٤٨٩٠) .

١٠ - ﴿ وجوب ستر المسلم ﴾

وكما حرص الإسلام على كمال التعامل الخلقي بين المسلم والمسلم، حرص أيضا على إحياء قيمة غالية في نفوس المسلمين، يا ليت الكثير منهم يفهمها، ألا وهي قيمة الستر، وقد أمرهم بالستر صيانة للأمة من شماتة أعدائها فيهم، ممن ييغون كثرة الزلات لها، والتشفي بفضح عوراتهم قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النور آية: ١٩] وهذا الوعيد يشمل من عمل على نشر الفاحشة بين الذين آمنوا بتزيينها لهم، أو تسهيلها ليقترفوها، وكذلك الذين ينقلون أخبارها، ويشيعون ذكرها بين من لم يعلم بها .

ولذلك يلفت النبي ﷺ نظر أمته إلى معنى عظيم حين يقول ﷺ: ((ادْفَعُوا الْحُدُودَ مَا وَجَدْتُمْ لَهُ مَدْفَعًا)) . (١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((ادْرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة)) . (٢) يعني ادفعوا الحدود ما استطعتم قبل أن تصل إلي فإن الإمام إذا سلك سبيل الخطأ في العفو الذي صدر منه خير من أن يسلك سبيل الخطأ في الحدود . (٣)

والسؤال هنا : لماذا أوصى النبي ﷺ بهذا ؟ مع أنه ﷺ لم يفرط في حد من حدود الله ؟! والجواب عن فهم لفقه الحديث كما علمنا مشايخنا جزاهم الله خيرا: أن النبي ﷺ حريص على تحسين صورة الأمة، والستر لخالها، إذ أنها الأمة التي قال الله تعالى فيها : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١١٠]

فأين الخيرية إذا تساهلت الأمة في الحدود وأقامتها بدون تدقيق وتوثيق، مما يجعل معدل الحدود في الأمة يرتفع، وهذا مما يطعن في خيريتها، ويفرح الأعداء فيها، وليس هذا معناه أن نفرط في الحدود، بل أن نلتزم الدقة فيها وتوافر شروط إقامتها، فإذا اختل شرط منها يدفع الحد ولا يقام سترًا للمسلمين وإمهالا للعاصي لعله يتوب، وقد ستره الله ودفع عنه العذاب في الدنيا .

٢ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ٨٥٠) حديث (٢٥٤٥) .

٣ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٨ / ٢٣٨) حديث (١٦٨٣٤) .

٤ - ((تحفة الأحوذ)) للمباركفوري (٤ / ٥٧٣) .

وهذا أمر لا بد أن يفهمه من ظن أن تطبيق الشريعة فقط هي إقامة الحدود، وقد حصروها في هذا ونسوا أنها منظومة إلهية متكاملة تشمل كل وجوه الحياة وتنظيمها، وليست فقط قطع يد السارق أو رجم أو جلد الزاني.... إلخ .

فقد أمرنا بالستر فيما بيننا، وها هو خليفة من أعظم خلفاء الإسلام، ومن أعدل حكام الزمان الفاروق عمر بن الخطاب ؓ يقول : لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات . (١)

فما أحوجنا إلى قيمة السر وتطبيقها فيما بيننا عمليا، والانتفاء عن تتبع العورات والزلات ليستقيم المجتمع وتسمو الخلق . عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : ((لَأَسْتُرُ عَبْدًا عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (٢) وعن عبد الله بن عمر ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (٣) وعن عامر قال : جاءت امرأة إلى عمر ؓ فقالت : يا أمير المؤمنين إني وجدت صبيًا ووجدت معه قبطية فيها مائة دينار، فأخذته واستأجرت له ظئرا، وإن أربع نسوة يأتينه فيقبلنه، لا أدري أيهن أمه . فقال لها : إذا هن أتيتك فأعلميني . ففعلت فقال : لامرأة منهن أيتكن أم هذا الصبي ؟ . فقالت : والله ما أحسنت ولا أجهلت يا عمر، تعمد إلى امرأة ستر الله عليها فتريد أن تهتك سترها ؟ ! . قال : صدقت . ثم قال للمرأة إذا : أتيتك فلا تسألين عن شيء وأحسني إلى صبيهن . ثم انصرف . (٤)

وعن الشعبي قال : أتى عمر بن الخطاب ؓ رجل فقال : إن لي بنتا وأدتها في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت، فأدركت معنا الإسلام فأسلمت فلما أسلمت أصابها حد من حدود الله فأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها، وقد قطعت بعض أوداجها فداويتها حتى برأت، ثم أقبلت بعد بتوبة حسنة وهي تخطب إلى قوم، فأخبرهم من شأنها بالذي كان ؟ . فقال عمر ؓ : أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه ؟ ! . والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، انكحها نكاح العفيفة المسلمة . (٥) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه أن عبد الله بن

١ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٥ / ٥١١) رقم (٢٨٤٩٣) .

٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البر والصلة والآداب)) باب ((بشارة من ستر الله تعالى عيبه في الدنيا)) حديث (٢٥٩٠) .

٣ - متفق عليه .

٤ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧ / ١٠٨) حديث (٩٦٦٢) .

٥ - أخرجه هناد في ((الزهد)) ص (٦٤٧) .

مسعود رضي الله عنه ومعاذ بن جبل رضي الله عنه وعقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قالوا : إذا اشتبه عليك الحد فادراه ما استطعت . (١) وعن القاسم بن عبد الرحمن قال : قال ابن مسعود رضي الله عنه : ادروا الحدود والقتل عن عباد الله ما استطعتم . (٢) وعن يزيد بن نعيم عن أبيه أن ماعزاً رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأقرَّ عنده أربع مرَّاتٍ فأمرَ برَّجَمِهِ وقال لَهْزَالٍ : ((لو سترتُهُ بثوبِكَ كان خيراً لك)) . (٣)

وعن يزيد بن نعيم بن هزال وكان هزال استرجم ماعزاً قال : كانت لأهلي جارية ترعاهم غنما لهم يقال لها فاطمة، قد أملكك وأن ماعزاً وقع عليها، وأن هزالاً أخذه فقال له: انطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنخبره بالذي صنعت عسى أن ينزل فيك قرآن . فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فرجم، فلما عظمت مس الحجارة انطلق فاستقبله رجل بكذا وكذا وبساق بعير فضربه فصرعه فقال: ((يا هزال لو سترته بثوبك كان خيراً لك)) . (٤) وعن دُخَيْنٍ أَبِي الْهَيْثَمِ كَاتِبِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: إِنَّ لَنَا جِيرَانًا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَأَنَا دَاعِ الشَّرْطِ لِيَأْخُذُوهُمْ . فَقَالَ عُقْبَةُ: وَيَحْكُ لَا تَفْعَلْ وَلَكِنْ عَظِّمُهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . قَالَ: إِنِّي نَهَيْتُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا وَإِنِّي دَاعِ الشَّرْطِ لِيَأْخُذُوهُمْ . فَقَالَ عُقْبَةُ: وَيَحْكُ لَا تَفْعَلْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحْيَا مَوْءُودَةً فِي قَبْرِهَا)) . (٥)

وعن الشعبي : أن عمر رضي الله عنه كان في بيت ومعه جرير بن عبد الله رضي الله عنه فوجد عمر رجلاً فقال : عزمتم على صاحب هذه الريح لما قام فتوضأ . فقال جرير رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين أو يتوضأ القوم جميعاً . فقال عمر رضي الله عنه : رحمك الله نعم السيد كنت في الجاهلية ونعم السيد أنت في الإسلام . (٦)

فما أخرجنا إلى أدبهم رضي الله عنهم لنطبقه فيما بيننا ! .

١١ - ﴿ العفو والصفح عن المسلمين ﴾

-
- ٢ - أخرجه الدارقطني في ((سننه)) (٣ / ٨٠) حديث (١٠) .
 - ٣ - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (٧ / ٤٠٢) حديث (١٣٦٤٠) .
 - ٤ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ١٣٤) حديث (٤٣٧٧) .
 - ٥ - أخرجه النسائي في ((سننه الكبرى)) (٤ / ٣٠٧) حديث (٧٢٨٠) .
 - ٦ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ٢٧٥) حديث (٥١٧) والبيهقي في ((سننه الكبرى)) (٨ / ٣٣١) حديث (١٧٣٨٧) ، وأحمد في ((مسنده)) (٤ / ١٤٧) حديث (١٧٣٧٠) .
 - ٧ - ذكره ابن الجوزي في ((صفة الصفوة)) (١ / ٧٤١) .

المصالحة الاجتماعية من أهم الدعائم التي تؤسس عليها المجتمعات وتبنى عليها الدول، وذلك لما تنميه من تسامح بين أفراد المجتمع، وكذلك إذا طبقت على المستوى الدولي بين الدول بعضها مع بعض مما يثمر تعايشا سلميا، وأمنا اجتماعيا نحن في حاجة ماسة إليه في عصرنا الحديث، ذلك العصر الذي تجرد فيه كثير من هذه القيم السمحة، وطغيان المادية والمصلحة الفردية، مما أثمر في المجتمعات روح التنافس والتحاسد والتباغض، ومع ازدياد نسبة هذه الأخلاق الرديئة، علت نسبة الجرائم من غش اقتصادي، وجرائم أخلاقية وظاهرة البلطجة التي سادت الكثير من المجتمعات الإسلامية، وأصبح الناس لا يطبق بعضهم لبعض تصرفا، خاصة بعد قيام الثورات الأخيرة، و بالأخص في المجتمع المصري حين حدث ذلك الانفلات الأخلاقي مع الغياب الأمني، ظهرت مثل هذه الظواهر بشكل غريب، وكأن الناس موتورة بعضهم من بعض، لذلك لابد من إصلاح هذا الفساد الأخلاقي بترسيخ قيم العفو والمصالحة والتسامح، التي بنى عليها الإسلام الأمة، فساد الأمن والعدل والمحبة والإخاء فيما بينهم، هذا إن أردنا تعايشا سلميا يضمن مجتمعاتنا الأمن والاستقرار . ويجب على الأزهر وعلمائه أن يرسخوا هذه القيم في نفوس الناس بالدعوة إليها وإحياء المنهج النبوي في إصلاح القلوب والنفوس ! .

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ينادي مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة مرتين فيقوم من عفا عن أخيه)) . قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [سورة الشورى آية: ٤٠] . (١)

ولقد وصل أمر العفو والتسامح في الإسلام إلى حد العفو عمن ارتكب ما يعرف في عرفنا اليوم : بـ ((الخيانة العظمى للوطن والمجتمع)) . وذلك بإفشاء أسرار الدولة، وتهديد أمنها القومي، وفلسفة الإسلام في هذا أنه يفتح باب التوبة والرجعة مرة أخرى لهذا الفرد ليصلح نفسه ويكون فردا صالحا لبلده ومجتمعه، خاصة إذا ندم واعترف بجرمه. ودليل هذا ما روي عن عبيد الله بن أبي رافع قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال: ((ائطلقوا حتى تأثوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها)) . فائطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجي الكتاب . فقالت: ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين النياب . فأخرجته من عقاصها (٢) فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض

١ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦ / ٣١٥) حديث (٨٣١٣) .

١ - العقيقة : الخصلة من الشعر، والجمع : عقاقص .

أَمْرٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا حَاطِبُ مَا هَذَا ؟)) . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عَنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَقَدْ صَدَقَكُمْ)) . قَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ . قَالَ : ((إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)) . (١)

وكان النبي ﷺ يحب صفح المسلم عن أخيه في الحقوق وأصاهم بهذا، ورباهم عليه، عن أبي المَاجِدِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَذَكَرَ الْقِصَّةَ وَأَنْشَأَ يَحْدِثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنْ أَوَّلَ رَجُلٍ قُطِعَ فِي الْإِسْلَامِ أَوْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ هَذَا سَرَقَ . فَكَأَنَّمَا أُسِفَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَمَادًا . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ يَقُولُ مَالِكَ فَقَالَ : ((وَمَا يَمْنَعُنِي وَأَنْتُمْ أَغْوَانُ الشَّيْطَانِ عَلَى صَاحِبِكُمْ وَاللَّهُ ﷻ عَفْوٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَلَا يَنْبَغِي لَوَالِي أَمْرٍ أَنْ يُؤْتَى بِحَدٍّ إِلَّا أَقَامَهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة النور آية: ٢٢] (٢)

وعن ابن عمر ؓ قَالَ : كُنْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ فِي حَجٍّ أَوْ عَمْرَةٍ فِإِذَا نَحْنُ بِرَاكِبٍ فَقَالَ عُمَرُ ؓ أَرَى هَذَا يَطْلُبُنَا قَالَ فَجَاءَ الرَّجُلُ فَبَكَى قَالَ: مَا شَأْنُكَ ؟ إِنْ كُنْتَ غَارِمًا أَعْنَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ خَائِفًا آمَنَّاكَ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَتَقْتُلَ بِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَرِهْتَ جَوَارِ قَوْمٍ حَوْلَنَاكَ عَنْهُمْ . قَالَ : إِنِّي شَرِبْتُ الْخَمْرَ وَأَنَا أَحَدُ بَنِي تَيْمٍ، وَإِنْ أَبَا مُوسَى جَلَدَنِي وَحَلَقَنِي وَسَوَّدَ وَجْهِي، وَطَافَ بِي فِي النَّاسِ . وَقَالَ: لَا تَجَالِسُوهُ وَلَا تَتَوَاكَلُوهُ . فَحَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَحَدِي ثَلَاثَ: إِمَّا أَنْ أَتَّخِذَ سَيْفًا فَأَضْرِبَ بِهِ أَبَا مُوسَى، وَإِمَّا أَنْ آتِيكَ فَتُحَوِّلَنِي إِلَى الشَّامِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَنِي وَإِمَّا أَنْ أَلْحَقَ بِالْعَدُوِّ فَأَكُلَ مَعَهُمْ وَأَشْرَبَ . قَالَ: فَبَكَى عُمَرُ ؓ وَقَالَ : مَا يَسْرُنِي أَنْكَ فَعَلْتَ، وَإِنْ لَعَمْرُكَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنِّي كُنْتُ لِأَشْرَبَ النَّاسَ لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنَّهَا لَيْسَتْ كَالزُّنَا، وَكُتِبَ إِلَى أَبِي مُوسَى : سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَا بَعْدَ فَإِنْ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ التَّيْمِيُّ أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا، وَأَيْمُ اللَّهِ لَنْ عُدْتَ لِأَسْوَدَ وَجْهَكَ وَلَأَطُوفَنَّ بِكَ فِي النَّاسِ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ حَقَّ مَا أَقُولُ لَكَ فَعِدْ فَأَمْرُ النَّاسِ أَنْ يَجَالِسُوهُ وَيُؤَاكِلُوهُ، وَإِنْ تَابَ فَاقْبَلُوا شَهَادَتَهُ . وَحَمَلَهُ وَأَعْطَاهُ مَائَتِي دِرْهَمٍ . (٣)

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الجهاد والسير)) باب ((الكسوة للأسارى)) حديث (٢٨٤٥) .

٣ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (١ / ٤١٩) حديث (٣٩٧٧) ، وعبد الرزاق في ((مصنفه)) (٧ / ٣٧٢) .

١ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (١٠ / ٢١٤) حديث (٢٠٧٣٧) .

١٢) ﴿ حسن الظن بالمسلمين وتأويل أفعالهم ﴾

لقد أصبح اليوم فيما بين المسلمين، ظاهرة غريبة ، هي ظاهرة تنصيب بعض الناس لأنفسهم منصب الحسبة على المجتمع ، بل ولم يقف الأمر إلى هذا ،إنهم أخذوا يشككون في النيات ، ويشككون في الدماء والأفعال، حتى أدخلوا من أرادوا الجنة، ومن أرادوا النار، وكأنهم اطلعوا على ما في الصدور، وكشفوا عن حقيقة النيات، وهم مع كل ذلك يعتقدون أنهم على هدي النبوة قائمون وبه متمسكون ومنهج النبوة من كل أفعالهم وأحوالهم براء ، فما أوجبنا إلى حسن ظن بعضنا في بعض، وكل ما يصدر من إخواننا في الدين من أفعال قد تكون مخالفة أو تحمل وجهين فلا بد من حملها على الوجه الحسن، وأن نظهر قلوبنا من سوء الظن بفعل المسلم وأقواله، ونؤولها على أحسن المعاني، لأن هذا هو منهج النبوة الذي ربي عليه النبي ﷺ أمته فساد الأدب والحب في مجتمعاتهم ومعاملاتهم ! .

عن سالم عن أبيه قال : قدم أبو قتادة على أبي بكر فأخبره بقتل مالك و أصحابه فجزع من ذلك جزعا شديدا، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه فقدم عليه، فقال أبو بكر : هل يزيد خالد على أن يكون تأول فأخطأ. ورد أبو بكر خالدًا وودى مالك بن نويرة ورد السبي والمال .
(١)

وعن ابن أبي عون وغيره أن خالد بن الوليد ادعى أن مالك بن نويرة ارتد بكلام بلغه عنه، فأنكر مالك ذلك، وقال : أنا على الإسلام ما غيرت ولا بدلت وشهد له بذلك أبو قتادة وعبد الله بن عمر ، فقدمه خالد وأمر ضرار بن الأزور الأسدي فضرب عنقه، وقبض خالد امرأته ، فقال لأبي بكر : إنه قد زنى فارجمه . فقال أبو بكر: ما كنت لأرجمه تأول فأخطأ . قال : فإنه قد قتل مسلما فاقتله . قال: ما كنت لأقتله تأول فأخطأ . قال: فاعزله . قال: ما كنت لأشيم (٢) سيفًا سله الله عليهم أبدا . (٣)

٢ - أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٦ / ٢٥٦) .

٣ - أشيم : أي : أغمد .

٤ - ذكره الهندي في ((كنز العمال)) (٥ / ٢٤٧) وعزاه لابن سعد .

فها هي معصية كبرى قد وقع فيها خالد عليه السلام وهي قتل نفس مسلمة ، وذلك نتيجة تأويل خاطئ ، ومع هذا أحسن أبو بكر به الظن وأول فعله ، ولم يقتله به قصاصا . إذا فما بال من يكفرون المسلمين باللمم من الذنوب ، أو لنجد الاختلاف في الرأي والمنهج ؟!

١٣- ﴿ وجوب بغض المعصية لا العاصي ﴾

ولما تقرر فيما سبق أن الإسلام قد رسخ حسن الظن بالمسلم وتأويل فعله، والعفو والصفح عنه، فليس هذا معناه أن يكون التساهل في ارتكاب الذنوب والرضا عنها، بل هو التماس الرحمة للمسلمين، لضعفهم حين تقع منهم المعاصي لأن الظن بالمسلم أنه لا يجب فعلها، وأنه يقدم رضا الله تعالى ويحتجب ما يغضبه، فإذا وقع منه شيء من هذا فالظن به أنه وقع عن ضعف منه، ومع هذا يزداد هذا الخلق كمالاته في تقرير أن المسلم لا بد أن لا يحتقر أخاه المسلم لذنبه، فلا يجوز احتقاره، كما علمنا علماؤنا لأن باب التوبة مفتوح، وأن الخلائق محل نظر الرحمن ﷻ ورحمته، فلذلك تعلمنا أن نبغض الذنب، ولا نحتقر المذنب: عن أبي قلابة أن أبا الدرداء عليه السلام مر على رجل قد أصاب ذنبا، فكانوا يسبونونه . فقال: رأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه ؟! . قالوا: بلى . قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم . قالوا: أفلا تبغضه ؟! . قال: إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي . (١)

وعن ابن مسعود قال: إذا رأيتم أخاكم قارف ذنبا فلا تكونوا أعوانا للشيطان عليه. تقولوا: اللهم اخزه اللهم العنه. ولكن سلوا الله العافية فإننا أصحاب محمد ﷺ كنا لا نقول في أحد شيئا حتى نعلم على ما يموت، فإن ختم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيرا، وإن ختم له بشر خفنا عليه عمله. (٢)

١٥- ﴿ سلامة الصدر من الغش والحسد للمسلمين ﴾

(١) - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (١١ / ١٨٠) حديث (٢٠٢٦٧) .
(٢) - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (١١ / ١٧٩) حديث (٢٠٢٦٦) ، وابن المبارك في ((الزهد)) ص (٣١٣) حديث (٨٩٦) .

إن القيم السابقة التي قررها ورسخها الإسلام في أتباعه من حسن الظن والعفو عن المسلمين والتماس العذر للعاصي، والدعاء له بالهداية والتوبة والمغفرة، لا تتأتى إلا من قيمة أخرى، وهي سلامة صدر المسلم وطهارته من الغش والحسد والحقد، وهذا من أسمى أخلاق المسلمين، بل ومن أعظم الأعمال التي يرفع الله بها الدرجات، ويجزل بها الثواب الكثير وإن قل العمل، ويدرك سليم القلب المقامات والدرجات العلى من الجنة بأقل الأعمال، ويتحصلون بها درجات الولاية. وفي إحياء هذه القيمة ضماناً للمجتمع بالتعايش السلمي والأمن الاجتماعي، ونهاية الجرائم التي لا تتم إلا عن حقد وحسد وغش للمجتمع .

عن زيد بن أسلم قال : دخل على أبي دجانة رضي الله عنه وهو مريض وكان وجهه يتهلل، فقيل له : ما لوجهك يتهلل ؟! . فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين : أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعني، وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً . (١)

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أفضل ؟ قال : ((كُلُّ مَخْمُومٍ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ)) . قالوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فما مَخْمُومُ الْقَلْبِ (٢) ؟ قال : ((هُوَ النَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيٍ وَلَا غِلٍّ وَلَا حَسَدٍ)) . (٣)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((دخلت الجنة فإذا أكثر أهلها البله)) . (٤) وفي ((النهاية)) : إن البله جمع الأبله ، وهو الغافل عن الشر، المطبوع على الخير. وقيل: هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس، لأنهم أغفلوا أمر دنياهم، فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. (٥) فأما الأبله وهو الذي لا عقل له فغير مراد في الحديث . (٦)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) . فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ فلما كان الْعُدُ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِثْلَ ذَلِكَ ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى ، فلما كان الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضاً فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ رضي الله عنه فقال: إني لَأَحِيتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا،

١ - أخرجه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٣ / ٥٥٦) .

٢ - مخموم القلب : النقي من الغل والحسد.

٣ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٤٠٩) حديث (٤٢١٦) .

٤ - أخرجه ابن عساکر في ((تاريخه)) (٤٣ / ٥٣٣) .

٥ - ((الأسرار المرفوعة)) لملا على قاري ص (١٠٤) و ((النهاية في غريب الأثر)) للجزري (١ / ١٥٥) .

٦ - ((النهاية في غريب الأثر)) (١ / ١٥٥) .

فان رَأَيْتَ أنْ تُؤوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ . قال : نعم . قال أَنَسٌ : و كان عبد الله يحدث أنه باتَ معه تلكَ الليالي الثلاثَ فلم يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئاً غيرَ أنه إذا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ على فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ ﷻ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ قال عبد الله : غيرَ أَنِّي لم أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْراً . فلما مَضَتِ الثلاثُ لَيالٍ وَ كِدْتُ أنْ أَحْتَقِرَ عَمَلُهُ قُلْتُ : يا عَبْدَ اللهِ إِنِّي لم يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ ، وَلَا هَجْرٌ تَمَّ ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ : ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) . فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ ، فَأَرَدْتُ أنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَاقْتَدَى بِهِ ، فلم أَرَكُ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ ، فما الذي بَلَغَ بِكَ ما قال رسول الله ﷺ ؟ . فقال : ما هو إِلَّا ما رَأَيْتَ . قال : فلما وَلَّيْتُ دَعَانِي . فقال : ما هو إِلَّا ما رَأَيْتَ غيرَ أَنِّي لَا أَجِدُ في نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسَدُ أَحَدًا على خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ . فقال عبد الله : هذه التي بَلَغْتَ بِكَ وَهِيَ التي لَا تُطِيقُ . (١)

﴿ ١٦ ﴾ - الفرح بحسن حال المسلمين

وإذا سلم القلب من الغش والحسد والحقد، صار قلباً ربانياً، يفرح لفرح المسلمين، ويحزن لحزنهم، وهذا من علامات صحة القلوب النقية المؤمنة، والفرح لحسن حال المسلمين من علامات كمال الإيمان واستقرار اليقين في القلوب .

عَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ : شَتَمَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ : إِنَّكَ لَتَشْتُمُنِي وَفِيَّ ثَلَاثُ خِصَالٍ : إِنِّي لَأَتِي عَلَى الْآيَةِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ فَلَوْ دِدْتُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا أَعْلَمُ مِنْهَا ، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ بِالْحَاكِمِ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ يَعْدِلُ فِي حُكْمِهِ فَأَفْرَحُ بِهِ ، وَلِعَلِّي لَا أَقَاضِي إِلَيْهِ أَبَدًا ، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ بِالْعَيْثِ قَدْ أَصَابَ الْبَلَدَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ فَأَفْرَحُ وَمَالِي بِهِ مِنْ سَائِمَةٍ . (٢)

^١ - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (٣ / ١٦٦) حديث (١٢٧٢٠) .

^٢ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠ / ٢٦٦) حديث (١٠٦٢١) .

١٧ . ﴿ قضاء حوائج المسلمين ﴾

ومن أعظم أخلاق المسلمين التعاون على قضاء الحوائج، ونبذ خلق الأنانية والمصلحة الشخصية، وقد طبق السلف عليه السلام من أصحاب النبي ﷺ فمن بعدهم هذا الخلق فسادوا وقادوا، و نعموا بنعمة الأمن وسلامة التعايش فيما بينهم، لأنه بقضاء حوائج الناس تنتشر المحبة فيما بينهم، ويسود العدل والإنصاف للضعفاء والمظلومين، وفيه سلامة الصدور والقلوب من الأحقاد والضغائن، ويتحقق الترسيخ الحقيقي لقيمة الأخوة، وفيه استحقاق العون من الله وتوفيقه للعباد : عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (١)

وها هو سيد الخلق ﷺ يضرب المثل الأعلى في هذا الخلق الكريم : عن بنت لحباب رضي الله عنها : خَرَجَ خَبَابٌ فِي سَرِيَّةٍ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَاهَدُنَا حَتَّى كَانَ يَحْلُبُ عَنَّا لَنَا فَكَانَ يَحْلُبُهَا فِي جَفْنَةٍ لَنَا فَكَانَتْ تَمْتَلِي حَتَّى تَطْفَحَ . قَالَتْ : فَلَمَّا قَدِمَ خَبَابٌ حَلَبَهَا فَعَادَ حِلَابُهَا إِلَى مَا كَانَ فَقُلْنَا لِحَبَابٍ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْلُبُهَا حَتَّى تَمْتَلِي جَفْنَتُنَا فَلَمَّا حَلَبَتْهَا نَقَصَ حِلَابُهَا . (٢)

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب للحي أغنامهم فلما استخلف قالت جارية منهم : الآن لا يحلبها . فقال أبو بكر : بل وإنني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله . (٣) وإنما كانوا يقومون بالحلاب لأن العرب كانت لا تحلب النساء منهم، و كانوا يستقبحون ذلك، وكان الرجال إذا غابوا احتاج النساء إلى من يحلبهن، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال لقوم : ((لا تسقوني حَلْبَ امْرَأَةٍ)) . (٤)

وكان عمر رضي الله عنه يتعاهد الأرامل يستقيهن الماء بالليل، ورآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة فدخل إليها طلحة رضي الله عنه نهاراً فإذا هي عجوز عمياء مقعدة، فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندك ؟ . قالت: هذا مذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يصلحني و يخرج عني الأذى . فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة أعورات عمر تتبع ! .

١ - متفق عليه .

٢ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٥ / ١١١) برقم (٢١١٠٨) .

٣ - ((الطبقات الكبرى)) لابن سعد (٣ / ١٨٦) .

٤ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((٢ / ١٥٠)) حديث (٦٣٧) .

وكان أبو وائل يطوف على نساء الحي وعجائزهن كل يوم فيشتري لهن حوائجهن وما يصلحهن . وقال مجاهد : صحبت ابن عمر رضي الله عنهما في السفر لأخدمه فكان يخدمني .

وكان كثير من الصالحين يشترط على أصحابه أن يخدمهم في السفر . وصحب رجل قوما في الجهاد فاشترط عليهم أن يخدمهم، وكان إذا أراد أحد منهم أن يغسل رأسه أو ثوبه قال: هذا من شرطي. فيفعله. فمات فجرده للغسل فأرأوا على يده مكتوبا من أهل الجنة، فنظروا فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم . (١)

وبعث الحسن البصري قوما من أصحابه في قضاء حاجة لرجل وقال لهم : مروا بثابت البناني فخذوه معكم، فأتوا ثابتا فقال: أنا معتكف . فرجعوا إلى الحسن فأخبروه فقال: قولوا يا أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة. فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وذهب معهم . (٢)

وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك، وأن تكون متفقدا لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله، كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقا بسبب قيامك بها، بل تتقصد منة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره . ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة، بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد .

كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة . (٣)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((من قضى لأخيه حاجة كان بمنزلة من خدم الله عمره)) . (٤) ويتزعم ابن أبي الدنيا بابا في كتابه ((قضاء الحوائج)) بعنوان : ((كيف تستجاب دعوتك)) ويورد تحته أحاديث وروايات نذكرها عن روايتها مع حذف الإسناد اختصارا قال : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : ((من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر)) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : ((من أنظر معسرا إلى ميسرة أنظره الله بذنبه إلى توبته)) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال

١ - جامع العلوم والحكم (١ / ٣٤١ - ٣٤٢) .

٢ - ((فيض القدير)) (٦ / ٢٠٥) .

٣ - ((إحياء علوم الدين)) (٢ / ١٧٥ - ١٧٦) .

٤ - ((قضاء الحوائج)) لابن أبي الدنيا ص (٣٧) حديث (٢٥) .

رسول الله ﷺ : ((من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة واحدة منها صلاح أمره كله وثنان وسبعون له درجات يوم القيامة)) . (١) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((من كسا مؤمناً على عرى كساه الله من إسترى الجنة ومن سقاه على الظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم ومن أطعمه من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة)) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أوضى رسول الله ﷺ ذات يوم فرفع رأسه فنظر إلى فقال : ((يا أنس أما علمت أن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم تنفس عنه كربته أو تفرج عنه غماً أو تزجي له صنعة أو تقضى عنه ديناً أو تخلفه في أهله)) . (٢) وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن لله عبداً خلقهم لحوائج الناس تقضى حوائج الناس على أيديهم أولئك آمنون من فزع يوم القيامة)) . (٣)

١٨ ■ إكرام العلماء والصالحين وتوقيرهم

العلماء هم السادة، وهم القادة، وهم منارات الأرض، والعلماء ورثة الأنبياء، وهم خيار الناس والمراد بهم خيراً، المستغفر لهم . هم الأعلام على طريق الهدى، وهم كالنجوم يهتدى بهم ؛ هم أرقى الناس منزلة في الدنيا قبل الآخرة، أحق الناس أن تتطلع الناس لما عندهم، وإن من نعم الله تعالى على هذه الأمة أن جعل لها أئمة يجددون الدين ويبينون العلم الذي جاء به نبي الله ﷺ يصونون العلم ويحفظونه ويبلغونه، ينفون عن العلم والدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فكل من غلا في فهم آية أو حديث وأتى بشائبة تبعد عن الفهم الصحيح نفوها، حتى يكون الدين صافياً من كل شائبة، وكل من انتحل صفة العلماء، وتكلم بالباطل بينوا زيفه و ردوا عليه باطله، وللعلماء فضل عظيم إذ الناس محتاجون إليهم في كل حين، وهم غير محتاجين إلى الناس. ولا شك أن بيان فضل العلماء يستلزم بيان فضل العلم؛ لأن العلم أجل الفضائل، وأشرف المزايا، وأعز ما يتحلى به الإنسان، فهو أساس الحضارة، ومصدر أمجاد الأمم،

(١) - المصدر السابق ص (٤١) حديث (٢٩)

(٢) - السابق ص (٤٢ - ٤٥) حديث (٣٠) و (٣١) و (٣٤) .

(٣) - السابق ص (٥٥) حديث (٤٩) .

وعنوان سموها، وتفوقها في الحياة، ورائدها إلى السعادة الأبدية، وشرف الدارين، والعلماء هم حملته وخزنته .

من أجل هذا جاءت الآيات والأخبار لتكريم العلم والعلماء، والإشادة بمقامهما الرفيع، وتوقيرهم في طليعة حقوقهم المشروعة لتحليهم بالعلم والفضل، وجهادهم في صيانة الشريعة الإسلامية وتعزيزها، ودأبهم على إصلاح المجتمع الإسلامي وإرشاده.

والإسلام لا يوجب هذا الحق لعلماء الشريعة فقط، بل لكل العلماء في جميع أنواع العلم، ويشجع طلب العلم في كل مجال إلا إذا كان مجالا حراما أو يضر بالإنسانية والمجتمع. ولا يدل ذلك على فضلهم مثل ثناء الله عليهم ورفعهم لقدرهم ودرجاتهم، قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة آل

عمران آية: ١٨] وقال سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر آية: ٩] وقال : ﴿ إِنَّمَا مَخْنَثَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر آية: ٢٨]

لذلك توقيرهم واجب واحترامهم من أعظم أخلاق المسلمين . وقد علمنا ﷺ احترام الصالحين والكبار وأهل الفضل : عن أبي أمامة قال: بَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ أَتَى بِقَدَحٍ فِيهِ شَرَابٌ فَنَازِلُهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبَا عُبَيْدَةَ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَنْتَ أَوْلَى بِهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ . قَالَ : ((خُذْ)) . فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ الْقَدَحَ ثُمَّ قَالَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَشْرَبَ : خُذْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ . قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : ((اشْرَبْ فَإِنَّ الْبَرَكَاتِ فِي أَكَابِرِنَا فَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَجْلَ كَبِيرَنَا فَلَيْسَ مِنَّا)) . (١)

وعن أبي سلمة أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت وأخذ له بركابه فقال : تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ . فقال : هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا . (٢)

١٩ . إكرام المسلمين حتى في حال الاختلاف في الرأي

١ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٨ / ٢٢٧) حديث (٧٨٩٥) .

٢ - أخرجه ابن عساکر في ((تاريخه)) (١٩ / ٣٢٦) .

وهذا الخلق من أعظم الأخلاق أهمية واحتياجا إليه في عصرنا، بعد ظهور تيارات ومذاهب وأحزاب، وكل حزب بما لديهم فرحون، فاختلفوا وتباغضوا وتحاسدوا وتدابروا، فكانت من هنا الفرقة المقيتة والتشرذم المذموم، مما أنتج شقاقا في المجتمعات الإسلامية وتفرقة، في مجال العلم والأخلاق، والسياسة... إلخ. لذلك من الواجب إحياء هذا الخلق الكريم، ولنختلف ولكن لا نفرق، لنختلف ولكن لا نتباغض، لنختلف ولكن يحترم بعضنا بعضا، فلا نشكك ولا نتهم، و ليقبل كل منا الآخر، فإذا تم هذا ونجحنا فيه فسيكون هذا حلا للمشاكل الاجتماعية الخطيرة و داعما للاستقرار والأمن والسلم الاجتماعي، وسيكون أكبر قاعدة لتأسيس اجتماع الكلمة و وحدة الصف، وبهذا تعود العزة المفقودة للأمة، ويتحقق النصر والريادة المنشودة، ولننظر في حياة أسلافنا كيف بنوا أمة مدنية حديثة، سمت حضارتها بأخلاقهم وحسن سلوكهم فيما بينهم، فانتصروا بالرغم من ضعف عتادهم وقلة عددهم على الدول العظمى في أزمنتهم، وفتحوا بلادهم بالأخلاق قبل السيوف!

عن الحسن قال : لما قتل علي عليه السلام الحواريون قالوا : من هؤلاء يا أمير المؤمنين أكفار هم ؟ قال : من الكفر فروا . قيل : فمنافقين ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا . قيل : فما هم ؟ قال : قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا . (١)

وعن أبي حبيبة مولى طلحة قال : دخلت على علي عليه السلام مع عمران بن طلحة بعد ما فرغ من أصحاب الجمل . قال : فرحب به وأدناه وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وإياك من الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [سورة الحجر آية: ٤٧] فقال : يا ابن أخي كيف فلانة ؟ كيف فلانة ؟ قال : وسأله عن أمهات أولاد أبيه . قال : ثم قال : لم نقبض أرضكم هذه السنين إلا مخافة أن ينتهبها الناس . يا فلان انطلق معه إلى ابن قرظة مره فليعطه غلة هذه السنين، ويدفع إليه أرضه . قال : فقال رجلان جالسان ناحية أحدهما الحارث الأعور : الله أعدل من ذلك أن نقتلهم ويكونوا إخواننا في الجنة . قال : قوما أبعد أرض الله وأسحقها فمن هو إذا لم أكن أنا وطلحة يا ابن أخي إذا كانت لك حاجة فأتنا . (٢)

وعن عمرو بن غالب أن رجلا نال من عائشة رضي الله عنها عند علي عليه السلام فقال له عمار : اسكت مقبوحا منبوحا أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ . (٣) وعن الحكم قال : سمعت أبا وائل قال : لما بعث علي عمار بن ياسر والحسن بن علي عليه السلام إلى الكوفة ليستنفرهم خطب عمار فقال : إني

(١) - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (١٠ / ١٥٠) حديث (١٨٦٥٦) .

(٢) - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٨ / ١٧٣) حديث (١٦٤٩٢) .

(٣) - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٧٠٧) حديث (٣٨٨٨) .

لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها لينظر إياه تتبعون أو إياها . (١) وعن زيد بن وهب قال: تَمَارَى رَجُلَانِ فِي آيَةِ مِنَ الْقُرْآنِ فَاتَّيَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَقْرَأْنِيهَا أَبُو عَمْرٍة . وقال الآخرُ : أَقْرَأْنِيهَا عُمَرُ . فلما ذُكِرَ عُمَرُ بَكَى عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ قَائِمٌ وَمَسَحَ عَيْنَيْهِ وَنَفَضَ يَدَهُ فِي الْحَصَا ثُمَّ قَالَ: لَهِيَ أَيْبُنُ مِنْ طَرِيقِ السَّيْلِحِينَ . ثُمَّ قَالَ : اقْرَأْهَا كَمَا أَقْرَأَكَهَا عُمَرُ، إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَدْخُلْهُمْ حُزْنٌ عَلَى عُمَرَ يَوْمَ أُصِيبَ لِأَهْلِ سُوءٍ، عُمَرُ كَانَ أَتَقَانًا وَأَقْرَأَنَا لِكِتَابِ اللَّهِ . (٢)

وعن ابن عائد قال رجل من أهل العراق لعمر: ما رأينا رجلا أقضى بالعدل ولا أقول بالحق ولا أشد على المنافقين منك . قال عوف: كذبتُم قد رأينا من هو خير منه أبو بكر . قال عمر: صدق عوف وكذبتُم، قد كان أبو بكر أطيب من ربح المسك وأنا أضل من بعير أهلي . (٣)

وعن سويد بن غفلة قال: مررت بقوم من الشيعة يشتمون أبا بكر ﷺ وعمر ﷺ و ينتقصونهما فأتيت عليا بن أبي طالب ﷺ فقلت : يا أمير المؤمنين إني مررت بقوم من الشيعة يشتمون أبا بكر وعمر و ينتقصونهما، ولولا أنهم يعلمون أنك تضمّر لهما على ذلك لما اجترؤوا عليه . فقال علي : معاذ الله أن أضمر لهما إلا على الجميل، ألا لعنة الله على من يضمّر لهما إلا الحسن . ثم نهض دافع العين يبكي فنادى: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس وإنه لعلى المنبر جالس وإن دموعه لتسحادر على لحيته وهي بيضاء، ثم قام فخطب خطبة بليغة موجزة ثم قال: ما بال أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه، ومما يقولون بريء، وعلى ما يقولون معاقب، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا كل مؤمن تقي، ولا يبغضهما إلا كل فاجر غوي، أخوا رسول الله ﷺ وصاحباه ووزيراه. (٤)

وعن أبي إسحاق قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب ﷺ إن عثمان ﷺ في النار. قال: ومن أين علمت ؟ قال : لأنه أحدث أحداثا . فقال له علي : أترأى لو كانت لك بنت أكنت تزوجها حتى تستشير ؟ قال: لا . قال: أفأرأى هو خير من رأي رسول الله ﷺ لابنتيه ؟! وأخبرني عن النبي ﷺ أكان إذا أراد أمرا يستخير الله أو لا يستخير. قال : لا بل كان يستخير. قال: أفكان الله ﷻ يخير له أم لا ؟ قال: بل كان يخير له. قال: فأخبرني عن رسول الله ﷺ أأحار الله له في

٤ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٨ / ١٧٤) حديث (١٦٤٩٤) .

١ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٩ / ١٦٠) حديث (٨٨٠٢) .

٢ - أخرجه البخاري في ((التاريخ الكبير)) (٤ / ٢٦٦) .

٣ - أخرجه ابن الأثير في ((أسد الغابة)) (٤ / ١٧٦) .

ترويجه عثمان أم لم يخر له ؟ قال : نعم . قال : لقد تجردت لك لأضرب عنقك فأبى الله ذلك، أما والله لو قلت غير ذلك ضربت عنقك . (١)

وعن عامر بن سعد قال : بَيْنَمَا سَعْدٌ يَمْشِي إِذْ مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يَشْتُمُ عَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ رضي الله عنهم فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : إِنَّكَ تَشْتُمُ قَوْمًا قَدْ سَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا سَبَقَ فَوَاللَّهِ لَتَكْفُنَّ عَنْ شَتْمِهِمْ أَوْ لَأَدْعُوَنَّ اللَّهُ عز وجل عَلَيْكَ . فَقَالَ : تُخَوِّفُنِي كَأَنَّكَ نَبِيٌّ . فَقَالَ سَعْدٌ : اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا يَشْتُمُ أَقْوَامًا سَبَقَ لَهُمْ مِنْكَ مَا سَبَقَ فَاجْعَلْهُ الْيَوْمَ نَكَالًا . فَجَاءَتْ بُخَيَّةٌ فَأَفْرَجَ النَّاسُ لَهَا فَتَنَحَّطَتْ فَرَأَيْتُ النَّاسَ يَتَّبِعُونَ سَعْدًا وَ يَقُولُونَ : اسْتَجَابَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ . (٢) وفي رواية : ورفع يديه وقال : اللهم إن هذا يشتم وليا من أوليائك فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك . قال قيس : فوالله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته في تلك الأحجار فانفلق دماغه ومات . (٣)

٢٠ . إكرام ضعفاء وفقراء المسلمين واحترامهم

إن من أحوج ما نحتاجه في واقعنا اليوم قيمة وخلق التراحم فيما بيننا، في زمن نسي فيه الناس التراحم فيما بينهم إلا من رحم ربي، والتراحم يجلب على صاحبه ومجتمعه رحمة الله وتوفيقه ونصره، يجلب المحبة بين الناس؛ وإكرام الضعفاء ونصرتهم ورحمتهم يجبر كسر الفقراء، ويسد حاجتهم، وما أسماها من أخلاق تحقق العدالة الاجتماعية والتكافل والتضامن، حتى نكون كالجسد الواحد الذي شبهنا به صلى الله عليه وسلم عن التَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)) . (٤) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إِنَّمَا تَنْصُرُونَ بِضَعَفَائِكُمْ)) . (٥) وعن سعد رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِؤْنَ عَلَيْنَا . قَالَ : وَكُنْتُ أَنَا وَبَن مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هَذِيلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أَسْمِيهِمَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ

٤ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٣٩ / ٤٩) .

١ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١ / ١٤٠) حديث (٣٠٧) .

٢ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٣ / ٥٧١) حديث (٦١٢١) .

٣ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البر والصلة والآداب)) باب ((تراحم المؤمنين وتعاطفهم)) حديث (٢٥٨٦) .

٤ - أخرجه الطبراني في ((مسند الشاميين)) (١ / ٣٣٥) حديث (٥٩٠) .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٥٢] . (١)

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟ قال : فقام معاذ فأخذ بتليبيه حتى أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقاتلته فقام رسول الله ﷺ مغضبا يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي : الصلاة جامعة . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((يا أيها الناس إن الرب رب واحد، وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي)) . فقال معاذ وهو أخذ بتليبيه: يا رسول الله ما تقول في هذا المنافق ؟ فقال: ((دعه إلى النار)) . قال فكان فيمن ارتد فقتل في الردة . (٢)

﴿ دور الأزهر في ترسيخ هذه القيم ﴾

إن هذه القيم السابقة هي أسس ووسطية الأزهر الشريف التي استمدتها من وسطية النبي ﷺ ومن شريعة الإسلام، وعلى هذه الأسس والقيم ربي الأزهر الشخصية الأزهرية التي تأثرت بها الشخصية المصرية والمسلمة بوجه عام .

وقد تفاعل العلماء مع بيئتهم فأثروا فيها بهذا المنهج الوسطي المعتدل الذي ضرب المثل الأعلى في التسامح والاعتدال، فكون شخصية متسامحة محبة للخير ذات قلب صاف سليم من الأحقاد والحسد والغش محب للعلماء، عفو يصفح عمن أساء إليه، رحيم يرحم الضعفاء والفقراء، وينصر المظلومين، يعمل على نجاة نفسه ولا يهتم بعيوب غيره إلا على سبيل العظة والنصح وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، لا يتجرأ على النار بفتوى بغير علم، يتأدب مع الله تعالى

(١) - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((فضائل الصحابة)) باب ((فضل سعد بن أبي وقاص)) حديث (٢٤١٣)

(٢) - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٢٤ / ٢٢٥) .

فيفوض أمر الخلق إلى خالقهم سبحانه، ويظن بالناس خيرا، ويؤول أفعالهم إن جاءت على خلاف المطلوب، ييغض الذنب ولا يحتقر أحدا لمعصيته لعله يتوب إلى الله فيتوب الله عليه، فيكون خيرا منه، ... إلخ هذه الأخلاق الكريمة والقيم النبيلة التي مر ذكرها، والتي أسست دولة ومجتمعا و أفرادا كانوا أعظم البشر حضارة ورقيا وتقدما .

﴿ المأمول في دور الأزهر في إقرار التعايش السلمي بهذه القيم ﴾

نأمل ونتشوق إلى أن يؤدي الأزهر دوره مرة أخرى في صياغة الشخصية الإسلامية على المستوى المحلي والعالمي، ليجنب المجتمع الإسلامي والمصري مغبة التطرف الفكري والعلمي والثقافي، الذي لا ينتج عنه إلا الفرقة والحرب والتنازع وعدم الاستقرار، وزعزعة الأمن الاجتماعي .

لذلك لابد أن يعمل الأزهر بتقرير مفهوم الوسطية وتوعية الناس بروح الإسلام السمحة في المعاملات، والسلوكيات والاعتقادات، وذلك عبر وسائل الإعلام بكل أنواعها، وبالكتابات في المجلات والجرائد والمطبوعات، وإطلاع الناس على هذه القيم وتحبيبها إليهم، وغرسها في نفوسهم في خطب الجمعة والدروس والندوات وحلق العلم والبرامج الإعلامية . وكل هذا سيعيد إلى المسلمين وسطيتهم وأمنهم واستقرارهم وتعایشهم على أسس المبادئ والقيم الأخلاقية والروحية التي تغير المجتمع إلى أحسن حال .



القيم السلوكية

إذا أسست هذه القيم الأخلاقية والعقائدية السابقة في نفوس المسلمين، أثمرت نتائجها في سلوك الفرد والمجتمع وتعاملاتهم، وهذه ما تعرف بالقيم السلوكية، ومن أهمها هذه القيم الآتية :

١ . « قيمة التواضع »

تعريفه : ((التواضع)) : التذلل . وتواضع الرجل ذل . ويقال : دخل فلان أمرا فوضعه دخوله فيه فاتضع . وتواضعت الأرض : انخفضت عما يليها . وأراه على المثل يقال : إن بلدكم لتواضع . (١) فالتواضع لغة : من الضَّعة، وهي الذل والهوان . والمراد بالتواضع: إظهار الذل لمن يراد تعظيمه.

وقال بعضهم: التواضع هو الانكسار والتذلل، ونقيضه التكبر والترفع . فالتواضع هو : انكسار القلب لله جل وعلا والذل والرحمة بالعباد، فلا يرى المتواضع له على أحد فضلا، ولا يرى له عند أحد حقا، وإنما يستشعر فضل الناس عليه قبل مطالبتهم بما عليهم من حقوق له.

١ - ((لسان العرب)) (٨ / ٣٩٧) .

قال الله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر آية: ٨٨] أي : وتواضع لهم وارفق بهم . (١) فالتواضع إذا هو: خفض الجناح ولين الجانب، وقبول الحق ممن كان والانقياد له، وهو خلق يتولد من قلب عالم بالله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته، وتعظيم نعوته وجلاله، وتقدير محبته وإجلاله، كما كان حال النبي ﷺ ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة .

﴿ منزلة التواضع ﴾

التواضع خلق يزرقه الله تعالى لأحبابه وأصفيائه منهم، فهو خلق النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وورثتهم من العلماء العاملين والأولياء والصالحين، قال الله تعالى في وصفهم : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان آية: ٦٣] أي: بسكينة ووقار متواضعين (٢) غير أشربين، ولا مَرِحِينَ، ولا متكبرين . (٣) وعن مجاهد عن ابن عباس ؓ : ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال : علماء حلماء . (٤) و((الهون)) بالفتح في اللغة : الرفق واللين . (٥) والهون بالضم: الهوان . فتبين أن المفتوح منه صفة أهل الإيمان . والمضموم: صفة أهل الكفران .

عن العرباض بن سارية ؓ : قال وعظنا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً دُرِفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قال : ((قد تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ حَيْثُمَا انْقَادَ)) . (٦)

وعن عياض بن حمار ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : ((وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)) . (٧) وعن عبد الله بن مسعود ؓ عن النبي ﷺ قال : ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ)) . قال رجلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قال : ((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ

٢ - ((تفسير البيضاوي)) (٣ / ٣٨٢) .

٣ - ((تفسير الواحدي)) (٢ / ٧٨٣) .

٤ - ((تفسير البغوي)) (٣ / ٣٧٥) .

٥ - ((تفسير الطبري)) (١٩ / ٣٤) .

٦ - ((مشارق الأنوار)) للفاضي عياض (٢ / ٢٧٣) .

١ - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (٤ / ١٢٦) حديث (١٧١٨٢) .

٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الجنة وصفة نعيمها وأهلها)) باب ((الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ)) حديث (٢٨٦٥) .

وَعَمَّطُ النَّاسِ)). (١) وعن حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلِّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلِّ غُلٍّ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ)). (٢) وعن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله ﷻ: العِزَّةُ إِزَارِي، والكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فمن نازعني عذبتة)). (٣) وعن إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ عَنْ أَبِيهِ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ)). (٤)

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عليه السلام أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا. وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ. (٥) وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عليه السلام قال: كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تَتَّخِذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ. (٦) وعن أَنَسٍ عليه السلام: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا لَعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ الثَّلَاثَ قَالَ: وَقَالَ: ((إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عَنْهَا الْأَذَى وَلْيَأْكُلْهَا وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ)). وَأَمَرْنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ قَالَ: ((فَإِنَّكُمْ لَا تَذَرُونِ فِي أَيِّ طَعَامِكُمْ الْبَرَكَةَ)). (٧) وعن إبراهيم عن الْأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ بَيْتَهُ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةٍ أَهْلُهُ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ إِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. (٨) وكان ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ الشَّاةَ لِأَهْلِهِ، وَيَعْلِفُ الْبَعِيرَ وَيَأْكُلُ مَعَ الْخَادِمِ. وَيَجَالِسُ الْمَسَاكِينَ، وَيَمْشِي مَعَ الْأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ فِي حَاجَتِهِمَا، وَيَبْدَأُ مِنْ لَقِيهِ بِالسَّلَامِ، وَيَجِيبُ دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ. وَلَوْ إِلَى أَيْسَرِ شَيْءٍ.

وكان ﷺ لَيْنَ الْخَلْقِ، كَرِيمَ الطَّبَعِ، جَمِيلَ الْمَعَاشِرَةِ، طَلَقَ الْوَجْهَ بِسَامًا، مُتَوَاضِعًا مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ، جَوَادًا مِنْ غَيْرِ سُرْفٍ، رَقِيقَ الْقَلْبِ رَحِيمَ بِكُلِّ مُسْلِمٍ خَافِضَ الْجَنَاحَ لِلْمُؤْمِنِينَ، لَيْنَ الْجَانِبِ لَهُمْ. وَمَا يَدُلُّ عَلَى تَوَاضُعِهِ الْعَظِيمِ ﷺ تَفْضِيلُهُ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى نَفْسِهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ)). (٩)

٣ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الإيمان)) باب ((تحريم الكبر)) حديث (٩١) .

٤ - متفق عليه .

٥ - أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٣ / ٣٥٢) حديث (٣٣٨٠) .

٦ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٦٢) حديث (٢٠٠٠) .

٧ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الاستئذان)) باب ((التسليم على الصبيان)) حديث (٥٨٩٣) .

٨ - أخرجه البخاري في كتاب ((الأدب)) باب ((الكبر)) حديث (٥٧٢٤) .

٩ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الأشربة)) باب ((استحباب لعق الأصابع والقصعة)) حديث (٢٠٣٤) .

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الجماعة والإمام)) باب ((من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج)) حديث (٦٤٤) .

٢ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢١٨) حديث (٤٦٧٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يؤنس بن مئني ونسبه إلى أبيه)) . (١)

ولاشك أنه ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين، وسيد الناس أجمعين؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتني رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الدراغ وكانت تُعجبه فنهس منها نهسة ثم قال : ((أنا سيد الناس يوم القيامة)) . (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع)) . (٣)

وبالجملة فقد كان ﷺ القدوة العليا في التواضع، فكان يشفع لأصحابه، ومن تواضعه عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد أو شاباً فققدتها رسول الله ﷺ فسأل عنها أو عنه فقالوا : مات . قال : ((أفلا كنتم آذنتُموني)) . قال: فكأنهم صغروا أمرها أو أمره . فقال : ((دُلوني على قبرها)) . فدُلوه فصلى عليها ثم قال : ((إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن الله ﷻ ينورها لهم بصلاتي عليهم)) . (٤) وكان ﷺ القدوة العليا في التواضع كان يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويحيب دعوة العبد .

وأمر ﷺ بالتواضع ونصح به، عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((إنما يحرم على النار كل هين لين قريب سهل)) . (٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((لو دُعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ولو أهدني إلى ذراع أو كراع لقبْتُ)) . (٦)

﴿ التواضع في القرآن والسنة ﴾

قد ذكر الله تعالى خلق التواضع في كتابه الكريم بمعناه فقال تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الحجر آية: ٨٨] وقال في شأن التواضع للوالدين: ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [سورة الإسراء آية: ٢٤] وقال سبحانه: ﴿ وَأَخْفِضْ

٣ - متفق عليه .

٤ - متفق عليه .

٥ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الفضائل)) باب ((تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق)) حديث (٢٢٧٨) .

٦ - متفق عليه .

١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ٢١٥) حديث (٤٦٩) .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الهبة وفضلها)) باب ((القليل من الهبة)) حديث (٢٤٢٩) .

جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ [سورة الشعراء آية: ٢١٥] وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٦﴾ [سورة المائدة آية: ٥٤] هذه صفات المؤمنين الكامل، أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه وولييه، متعززا على خصمه وعدوه . (١) يعني : أرقاء رحماء لقوله ﷺ: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء آية: ٢٤] ولم يرد به الهوان بل أراد أن جانبهم لين على المؤمنين، وقيل: هو الذل من قولهم: دابة ذلول . يعني : أنهم متواضعون . (٢) وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٢﴾ [سورة الحجرات آية: ١٣] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [سورة النجم آية: ٣٢]

وفي السنة الشريفة بيان خلق التواضع وفضائله، ومنها ذكر بعض أحوال ساداتنا من النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين : عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : ((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ)) . فقال أصحابه : وأنت؟! . فقال : ((نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِلْأَهْلِ مَكَّةَ)) . (٣) وأمر الحبيب ﷺ أمته بالتواضع في سائر أحوالهم، ليجعلوه لهم شعارا وحالا وخلقاً، لأنه من مكارم الأخلاق التي أتمها ﷺ، وبها تسود المحبة بين الناس: عن ركب المصري قال : قال رسول الله ﷺ : ((طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنَقَصَةٍ وَذَلٌّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالًا جَمَعَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَحِمَ الْمَسَاكِينَ أَهْلَ الْمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْرِ وَالْحِكْمَةَ؛ طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَطَابَ كَسْبُهُ وَأَصْلَحَ سَرِيرَتُهُ وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرُّهُ؛ طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ)) . (٤) وعد ﷺ التواضع من أفضل العبادات، وعلمها أصحابه، وعرفهم بفضلها : عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنكم لتغفلون أفضل العبادة التواضع . (٥)

٣ - ((تفسير ابن كثير)) (٢ / ٧١) .

٤ - ((تفسير البغوي)) (٢ / ٤٦) .

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الإجارة)) باب ((رَعَى الْغَنَمَ عَلَى قَرَارِيطٍ)) حديث (٢١٤٣) .

٢ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٤ / ١٨٢) حديث (٧٥٧٢) .

٣ - أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) ص (١٣٢) برقم (٣٩٣) .

وعرفهم أن التواضع من أسرع الطرق توصيلاً إلى مرضاة الله ورسوله والقرب منهما، وأنه قد يبلغ العبد من الدرجات العلى بتواضعه وأخلاقه ما لا يبلغه بعمله : عن هارون بن رئاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني ؟)) . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : ((أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافهم الذين يألفون ويؤلفون)) . ثم قال : ((ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني)) . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : ((الثرثارون ، ^(١) ، المتشدقون ^(٢)) المتفيهقون)) . قالوا : يا رسول الله قد عرفنا الثرثارون المتشدقون فما المتفيهقون ؟ . قال : ((المتكبرون)) . ^(٣) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن العبد ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القانت الذي يصوم النهار ويقوم الليل)) . ^(٤)

وضرب النبي ﷺ المثل الأعلى في التواضع ليس بمقاله فقط بل وبأحواله وتصرفاته : عن يحيى بن جعدة رضي الله عنه قال : جاء رجل أسود به جدري قد نقش والنبي ﷺ يطعم فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه وأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه . ^(٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة . فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك . قال : أفملاًكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً . قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : ((بل عبداً رسولاً)) . ^(٦) وكان يتواضع مع من لم يعرفه، ويحمل حاجاته بنفسه ﷺ : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دخلت مع رسول الله ﷺ السوق فقعد إلى البرازين ^(٧) فاشترى سراويل بأربعة دراهم، قال : وكان لأهل السوق رجل يزن يزن بينهم الدراهم يقال له : فلان الوزان . قال : فجاء به يزن ثمن السراويل فقال له رسول الله ﷺ : ((أتزن وأرجح)) . فقال له الوزان : إن هذا القول ما سمعته من أحد من الناس، فمن هذا الرجل ؟ قال أبو هريرة قلت : حسبك من الوهن والجفاء في دينك ألا تعرف نبيك ﷺ . قال : فقال : هذا رسول الله ﷺ ؟ قال : فأخذهما يعني يديه ليقبلها، فجذبها رسول الله ﷺ قال : ((مه إنما يفعل هذا الأعاجم بملوكها وإنني لست بملك وإنما أنا رجل منكم)) . قال : ثم جلس فاتزن

٤ - الثرثارون : هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق . ((لسان العرب)) (١٠٢ / ٤) .

٥ - المتشدقون : جمع متشدد ، وأراد بالمتشدد المستهزئ بالناس يلوي شدة بهم وعليهم ، و تشدد في كلامه فتح فمه واتسع ، والشداق من سمات الإبل . ((لسان العرب)) (١٠ / ١٧٣) .

٦ - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (١١ / ١٤٤) حديث (٢٠١٥٣) .

٧ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦ / ٢٣٧) حديث (٧٩٩٩) .

٨ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٥ / ١٤١) حديث (٢٤٥٣٤) .

٩ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٢ / ٢٣١) حديث (٧١٦٠) .

٢ - تجار الثياب والأقمشة .

الدرهم وأرجح (١) كما أمره النبي ﷺ . قال: فلما انصرفنا تناولت السراويل من رسول الله ﷺ لأحملها عنه فمنعني، وقال: ((صاحب الشيء أحق بحمله إلا أن يكون ضعيفا يعجز عنه فيعينه عليه أخوه المسلم)) . قلت : يا رسول الله وإنك لتلبس السراويل ؟. قال: ((نعم بالليل والنهار وفي السفر والحضر)) . (٢) وعن ابن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ عَلَى خُبْرِ الشَّعِيرِ . (٣) وعن يحيى بن أبي كثير قال : قال رسول الله ﷺ : الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى)) . (٤) وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا يرفع عبد نفسه إلا وضعه الله ولا يضع نفسه إلا رفعه الله ﷻ)) . (٥)

إن التواضع خلق حميد جليل يستثير في النفس الإعجاب والتقدير، وهو من أبرز صفات المؤمنين المتقين، ومن شيم العاملين الورعين، ومن أخلاق الأنبياء والمرسلين، فالتواضع صفة محمودة تدل على طيب النفس وصفائها، وتدعو إلى المحبة والألفة بين الناس، وتوطد أواصر المودة والإحسان بينهم، وتطهر القلوب من الحسد والبغض والكراهية، وتوصل إلى نيل رضا الله ﷻ وثوابه. كما أن التواضع سبب لنشر العدل وبعث روح الألفة في المجتمع، فالتواضع منكسر القلب لله، خافض جناح الذل والرحمة لعباده، لا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه، وهذا في حقيقته ما هو إلا عطاء الله تعالى لمن يحبه ويكرمه .

﴿ التواضع في مفهوم الصالحين ﴾

عن إبراهيم بن الأشعث قال : سألت الفضيل عن التواضع ؟. فقال: التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه . (٦) ويقال : ويقال : أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمري : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن مناديا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أو سعي. فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا .

٣ - أرجح الميزان أي أثقله حتى مال . ((لسان العرب)) (٢ / ٤٤٥) .

٤ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٤ / ٢٠٦) .

٥ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٢ / ٥٠٦) حديث (٣٧٣٤) .

٦ - أخرجه ابن أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)) ص (١٥١) برقم (١١٥) .

٧ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٧ / ٨٩) حديث (٣٤٤١٨) .

٨ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٨ / ٩١) .

وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء، فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله ﷻ لنا . فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سبب هلاككم . قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : ((إن الله ﷻ رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل)) . (١)

﴿ أنواع التواضع ﴾

((التواضع)) أن يتضع العبد لصولة الحق، وهو على ثلاث درجات :

﴿ الدرجة الأولى ﴾ : التواضع للدين، وهو أن لا يعارض بمعقول منقولاً، ولا يتهم على الدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سيلاً . ولا يصح ذلك له إلا بأن يعلم أن النجاة في البصيرة والاستقامة بعد الثقة، وأن البيئة وراء الحجة .

﴿ الدرجة الثانية ﴾ : أن ترضى بمن رضى الحق لنفسه، وأن لا ترد على عدوك حقاً، وتقبل من المعتذر معاذيره .

﴿ الدرجة الثالثة ﴾ : أن تتضع للحق فتزل عن رأيك في الخدمة، ورؤية حقه في الصحبة، وعن رسمك في المشاهدة . (٢)

﴿ للمتواضع والمتكبر علامات لا تقفي على المتأملين ﴾

المتواضع ينقاد للحق مع من كان، ولا يبالي بترك قول كان يقوله وينصره إذا اتضح له الصواب، والمتكبر يتعصب لأقواله وأفعاله ويعجب بقوله ومقاله، يبين له الحق فيشمخ بأنفه، متكبراً عنه عجباً بنفسه وتيهياً . والمتواضع يسلم على الصغير والكبير، والشريف والوضيع. ويقبل بوجهه وقوله على من تصدى له حتى يقضي حاجته، ويعاشر كل أحد أكمل معاشرة حسنة بخلق كريم، والمتكبر لا يسلم ولا يقبل بوجهه على الفقير والحقير وينأى بجانبه عن مجالستهم، ولا يهتم بشأنهم، وإنما يتصدى ويعظم الرؤساء والكبراء خاضعاً لهم بقلبه، معظماً لهم بلسانه، وهذا أكبر برهان معبر عن رذيلته، فما أقل حظ المتكبرين، وما أعظم خسرانهم المبين، خسروا بتكبرهم على الإيمان والأخلاق الجميلة، وخسروا ما أعده الله للمتواضعين من الشواب الجزيل، وحصلوا على الوبال والعقاب، خسروا محبة الخلق على اختلاف طبقاتهم، فالناس جبلوا على محبة المتواضعين ومقت المتكبرين؛ ومن أظهر من الناس تعظيمهم ومحبتهم، فذلك زور ونفاق

٢ - ((إحياء علوم الدين)) (٣ / ٣٤٣) .

٣ - ((منازل السائرين)) ص (٦٠ - ٦١) .

يذهب سريعاً. وما وصل أحد للمنازل العالية إلا بالتواضع، ولا أدركت الأخلاق الجميلة إلا بالانقياد للحق وتعظيم حقوق الخلق .

فالتواضع حبيب إلى الله حبيب إلى عباد الله قريب من الخيرات بعيد عن الشرور والمنكرات. والمتكبر بغيب إلى الله بغيب إلى عباد الله، بعيد عن الإحسان والخيرات، قريب من الشرور والمنكرات. لأن التواضع خُلِقَ الأنبياء والمرسلين، ونعت المتقين والمهتدين، والتكبر خُلِقَ الجبابرة الظالمين، التواضع يزيد الشريف شرفاً ويرفع الوضيع حتى يصل إلى مقامات الأولياء والأصفياء. ما أحلى خلق التواضع وخصوصاً من الأغنياء والأشراف والرؤساء، وما أقبح الكبر من كل أحد وبالأخص من الضعفاء والفقراء .

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة التواضع ﴾

إننا لا نغالي حين نكرر ونقول : إن الأزهر الشريف بمناهجه وعلمائه وطلابه هم الوريث الأكبر لهدى النبوة، ولا ندعي حقاً ليس لأهله، بل إنها الحقيقة التي يقرها التاريخ ولا ينكرها كل منصف، إن الأزهر الشريف علم الناس كمال الأخلاق النبوية والأحوال المصطفوية الشريفة، بكل وسائل تعليمه تدريسا وتعلما ووعظا، في الخطب والدروس وحلق العلم، وكان علمائه أكبر دليل يجسد هذه الأخلاق في المجتمعات الإسلامية، مما أثر في سلوكيات الناس ومعاملاتهم، و من أبرز أخلاقهم خلق التواضع، الذي ما زلنا نلمسه ويلمسه الناس منهم في معاملاتهم ممن تحقق منهم بالمنهج الأزهري الأصيل، وذلك امتدادا لما أسسه علماء الأزهر الأوائل، الذين ورثوه عن مشايخهم، وهؤلاء عمن قبلهم حتى ينتهي الأمر إلى رسول الله ﷺ، فلم يجتمع لعلماء الأزهر الإسناد العلمي في الروايات والكتب فقط، بل قد اجتمع لهم حتى الإسناد في الأحوال والأخلاق والمعاملات، فتحققوا بحقائق الأخلاق الحميدة والأنوار النبوية، فكانوا من أعظم الناس تواضعا، و فهموا الناس من تصرفاتهم وسلوكياتهم أن التواضع ليس بالمذلة، أو أنه لا يسدى لمن لا يفهمه، فكانوا مع تواضعهم يحتفظون بعزة الله لهم بالعلم والفهم، وليس عزة التكبر وبطر الحق، والتاريخ خير شاهد على هذا، يشهد أنهم كانوا مع العامة على تواضع عظيم أما مع الذين قد يسيئون فهم تواضعهم فيعتبرونها ذلة، فقد كانوا يعاملونهم بعزة من غير تكبر، ومثال هذا :

شيخ الإسلام زكريا الأنصاري : قد كان الكثير من أفراد الشعب يلوذون به لقضاء حوائجهم عند الأمراء والوجهاء، فكان يقضيها لهم، وكان يؤثر الجلوس إلى البسطاء والسعي في

حل مشكلاتهم عند أولي الشأن، وكما كان ﷺ حريصا على بذل الخير للرعية، فإن حرصه كان شاملا للراعي أيضا، فكان مناصحا للحكام مجاهرا بالحق عندهم، حريصا على صلاح أمورهم دنيا وأخرى، وقد ذكر الشيخ بعض ما جرى بينه وبين السلطان قايتباي الذي كان يعلم صدقه في النصح وحرصه على الأمة، فقال : ما كان أحد يكملي كما يكملي السلطان قايتباي، كنت أحط عليه في الخطبة حتى أظن ما عاد قط يكلمني، فأول ما أخرج من الصلاة يتلقاني، ويميل يدي ويقول : جزاك الله خيرا. فلم تزل الحسدة بنا حتى أوقعوا بيننا الوقعة، وكان ماسكا لي الأدب، ما كلمني كلمة تسوءني قط، ولقد طلعت له مرة فأغلظت عليه القول فاصفر لونه، فتقدمت إليه وقلت : والله يا مولانا إنما أفعل ذلك معك شفقة عليك، وسوف تشكرني عند ربك، وإني والله لا أحب أن يكون جسدك هذا فحمة من فحم النار . (١)

ومن أكثر مواقفهم التي تظهر تواضعهم في أنفسهم لله تعالى وللخلق، ما ذكره الجبرتي عن الشيخ الإمام محمد بن علي بن منصور الشنواني الشافعي رحمه الله، قال الجبرتي : هو شيخ الإسلام وعمدة الأنام الفقيه العلامة، والنحرير الفهامة، الشيخ محمد الشنواني، الأزهري الفقيه النحوي المعقولي .

كان مهذب النفس مع التواضع والانكسار، والبشاشة لكل أحد من الناس، وكان عند فراغه من الدروس يغير ثيابه ويكنس المسجد، ويغسل القناديل ويعمرها بالزيت والفتائل، حتى يكنس المراحض، وكان قانعا بهذا لا يتطلع إلى أي مظهر من مظاهر الدنيا، التي يتهافت عليها الآخرون . (٢) ولما توفي الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، لم يكن هناك أهل لهذه المكانة سوى الشيخ الشنواني فاتجهت إليه الأنظار، فلما علم ذلك ترك بيته وذهب إلى مكان غير معروف هربا من هذه المسئولية، وبعدا عن المظاهر الدنيوية . (٣)

وعلم علماء الأزهر طلبتهم وعامة الناس خلق وقيمة التواضع من تعاملهم فيما بينهم، كمشايع بعضهم مع بعض أو معاملة الشيوخ لتلاميذهم، فمن صور معاملة الشيوخ بعضهم مع بعض التي قامت على الاحترام والتواضع، أمثلة كثيرة منها :

١ - ((رسالة الأزهر)) عدد شهر رمضان سنة ١٤٣٢ هـ ص (١٣)

١ - ((عجائب الآثار)) (٣ / ٣٨٢) .

٢ - ((شيوخ الأزهر)) للأستاذ أشرف فوزي صالح (٢ / ٢٢) .

العلاقة بين العلماء كانت في الجملة قائمة على التفاهم والحب والترابط، فقد وجد من قوة العلاقة والاحترام بين العلماء آنذاك أن كان العالم يترك درسه وطلبته إذا رأى من تربطه به صداقة حميمة، ليحمل عنه نعله، ويهيئ له مكان درسه، وليس في هذا الصنع عجباً، فهو ما نراه بعينه بين كل من الشيخ العالم علي الحلبي الشافعي (١٠٤٤ هـ - ١٦٤٣ م) . والشيخ العالم سلطان المزاحي الشافعي (١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ م) فعلى الرغم من المكانة العلمية التي كان يحظى بها الشيخ سلطان بين علماء الأزهر آنذاك إلا أنه كان عندما يرى الشيخ علي الحلبي ماراً في المسجد يقوم تاركاً درسه وطلبته ليقبل يدي الشيخ علي، ويحمل عنه نعليه، ويضعهما في خزانة الشيخ علي، ويفرش له سجادته التي يجلس عليها للإلقاء درسه، وبعدها يعود الشيخ سلطان إلى درسه لإتمامه . (١)

إن هذا الموقف وأمثاله من العلماء قد أثر في شخصية المسلمين بوجه عام، والمصريين بوجه خاص، مما أثر أثراً بالغاً في نفوسهم، حيث أورثتهم تلك المواقف تأسيس قيم الاحترام والتواضع في نفوسهم وتعاملاتهم في واقع حياتهم، مما جعل عامة الناس يحترمونها الاحترام العظيم، فقد كان احترام الناس للعلماء وتقديرهم لهم لا يوصف، ومن صورته قيامهم لهم وتوسيع الطريق عند مرورهم وتقبيل أيديهم وحمل أحذيتهم والجلوس عند أرجلهم في مجالس العلم والوعظ والتعليم، وانصياعهم لأمرهم، مما كان يضمن للمجتمعات واقعا سلميا وتعايشاً آمناً، ومجتمعاً متماسكاً مستمسكاً بالقيم والأخلاق .

وكذلك في معاملة المشايخ لطلابهم فقد : حرص العلماء على تقوية صلتهم بطلابهم ورفع الكلفة السائدة بين الأساتذة كآباء والطلاب كأبناء، إذ حاول البعض الاقتراب من طلابه وتوسيع دائرة العلاقة القائمة على طلب العلم إلى رحاب أوسع، فتكون بينهم ما يمكن أن نسميه تجاوزاً بـ ((الأخوة)) أو ((الصداقة))، فهذا هو ذا الشيخ العالم محمد أبو عبد الله بن علاء الدين البابلي الشافعي (١٠٧٧ هـ - ١٦٦٦ م) . كان متوددا لطلبته متفقدا لهم بالإحسان، وإذا غاب عنه أحدهم سأل عنه، فإن كان مريضاً عاده، وإن كان مشغولاً أرسل إليه بالسلام، وكان أكثر حبه للطلبة الفقراء .

وأيضاً الشيخ العالم شعبان الفيومي الأزهري الشافعي (١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ م) الذي كان كثير الدعاء لمن يقرأ عليه من الطلبة .

٣ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٠) .

والشيخ علي الشيراملسي الشافعي (١٠٨٧ هـ - ١٦٧٦ م) كان حريصا على إشراك طلابه في مناقشة الدرس، ويتكدر إذا ما لمس عدم مشاركة طلابه له، ويقول لهم : ما لنا اليوم هكذا . ليس هذا فحسب بل نراه يعطي درسا تربويا آخر لطلبته، حيث إنه كان يحترم الشيوخ المتقدمين ويجلهم، حتى إنه لم يجرؤ على إعلان مخالفته للمخطئ منهم، ويقول للطلبة تواضعا منه: شاركونا في فهم هذه العبارة. ثم يبين ما فيها من خلل أو اعتراض بأسلوب لطيف خفي، حتى لا يحقر المخطئ، وكان يقول أيضا : قيراط من الأدب خير من أربعة وعشرين قيراطا من العلم .

وكان ينهج هذا النهج في تدريسه أيضا الشيخ العالم محمد أبو الذهب بن محمد البكري (١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م) الذي كان حسن المحاضرة مع تلاميذه، ولا يتكبر في أخذ الفائدة من أصغرهم .^(١)

﴿ دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة التواضع ﴾

نأمل في علماء الأزهر إحياء دورهم في المجتمع المصري والعالمي، بترسيخ القيم ومنها قيمة التواضع، كما أحياء أسلافهم من مشايخ الهدى والعلم كما سبق ذكره، لأنه بإحياء قيمة التواضع وغيرها تتحقق حياة المجتمع وإنقاذه من التخلف الفكري، وفوضى الفتاوى التي انتشرت بشكل غريب وعجيب، وذلك لأسباب منها :

- ١ - كثير من الناس اليوم نتيجة البعد عن الدين والعلم يظن أن علماء الأزهر متكبرون، وذلك لتأخر دورهم في المجتمع في الحقب المتأخرة، وعدم اختلاطهم بالعامية والمجتمع فيما يخصه .
- ٢ - استغلال البعض لبعد الأزهر ودور مشايخه، مما أدى إلى ظهور المتعالمين، وتجروهم على الفتوى، والإنسان العامي البسيط قد يهاب سؤال عالم متخصص في العلوم الشرعية، فينصرف إلى سؤال من هو قريب منه من غير أهل التخصص، فنراه يستفتي فلانا المهندس أو فلانا الطبيب في أحسن الأحوال، مع الرغم أن أمثال هؤلاء لم يدرسوا علما شرعيا، وليس لهم علاقة بالأزهر الذي هو قلعة التخصص في مجالات الفتوى والعلوم الشرعية، أما القاعدة العامة الكثيرة فتراهم يستفتون فلانا العامل أو السباك أو النقاش... إلخ. وكل مؤهلاته أنه أصبح متدينا مؤهلاته إطلاق حية أو تقصير ثوبه، فتشعبت الفتوى والعلوم أي صارت شعبية فقدت التخصص، مما أدى إلى أن كل واحد من المجتمع يريد ديننا على ما يريد، وشرعا على ما يهواه ويراه .

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣١ - ٣٢) .

لذلك نأمل في الأزهر أن يختلط علماءه بالمجتمع ويوثرون فيه بالآتي :

- ١ - مشاركة الناس في أفراحها وأحزانها .
 - ٢ - الاختلاط بالناس وحصر مشاكلهم والتعرف عليهم والسعي في قضاء حوائجهم، لترجع إلى الأزهر ثقة المجتمع كما كانت عليه قديما .
 - ٣ - العمل على السعي في الصلح بين الناس، بشكل فردي أو بشكل مؤسسي، وذلك بدور أئمة المساجد، أو تكوين لجنة للمصالحة الاجتماعية لحل مشاكل المجتمع لاستقرار التعايش السلمي والقضاء على الفتن الاجتماعية، كفتنة الثأر، والفتنة الطائفية ... إلخ .
 - ٤ - العمل على انحسار ظاهرة تشعيب العلم الشرعي والفتوى، بتوعية الناس وتحذيرهم من التماس الفتوى عند غير المتخصصين، وبتشكيل لجان فتوى على مستوى المراكز والمدن و المحافظات، ولتكن هذه اللجان مكونة من العلماء الأزهريين على أعلى مستوى من الفهم والفقه، وأن تخضع لإشراف الأزهر ودار الإفتاء .
 - ٥ - المطالبة بسن قوانين تعاقب كل من يفتي بغير ترخيص رسمي صادر من الأزهر الشريف أو دار الإفتاء، ويجب أن يكون المرخص له قد أذن له في الفتوى بعد تأهيل عال لهذه المهمة تأهيلا كاملا على أعلى مستوى من التدريب .
- خاصة وأن الأزهر قد غرس قديما في المجتمع المصري والإسلامي رد الأمر إلى أهله وكل تخصص إلى أصحابه ! . فمن أهم الآثار التي خلفها العلماء في مجتمعاتهم أنهم طبقوا المبدأ الإسلامي : ﴿ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٤٣] ففي تواضع جم سلم بعضهم بالتخصص فراح إكمالا للفائدة العلمية يبحث عن العارفين بالتفاصيل الدقيقة لصنف من العلوم، ولم يتورعوا عن السؤال والاستقصاء في سبيل إخراج العمل العلمي بصورة جيدة، وهذا ما حدث بين كل من أديب مصر في عصره الشيخ العالم شهاب الدين الخفاجي الحنفي (١٠٦٩ هـ - ١٦٥٨ م) وبين الشيخ عبد القادر البغدادي (١٠٩٣ هـ - ١٦٨٢ م) الذي كانت له دراية باللغتين التركية والفارسية، وأخبار الفرس وأنه انفرد بذلك بمصر في عصره .
- علم هذا الأمر العامي أن يقف عند حدوده، ولا يجترأ بالكلام في الدين والفتيا بما لم ينزل به الله أمرا إذ هو يجد كبار العلماء يتوقفون في أمور ويحيلونها إلى غيرهم، وقد بلغوا في العلم شأوا، فكيف به هو وليس له في العلم فتيل ولا قطمير ! .
- ونلاحظ أن العلاقات الطيبة بين العلماء وتسليمهم لأهل التخصص قد أثر أثرا بالغا في المجتمع المصري بل في شخصية الإنسان المصري التي كانت تحترم العلماء إلى أقصى حد وتقدمهم ولا تتقدمهم وتسمع لقولهم .

إن هذا المنهج - منهج الأزهر - المتوازن الدقيق كان سببا في الحفاظ على البيئة العلمية في مصر قوية متماسكة لا يكاد يشعر الناظر إليها والمتتبع لأحوالها أن ثمة خلافا بين أهلها، وقد أثر هذا كثيرا في المجتمع المصري، فكان مجتمعا صلبا قويا متماسكا، لا يكاد الناظر إليه يستشعر بين أهله خلافا رغم وجود التعددية الفقهية من أول زمن العلم في مصر .

وقد فقد المجتمع المصري هذه الخاصية التي أكسبتها له التربية الأزهرية لما ظهر في مصر فئام من الناس اختاروا لهم طريقا غير طريق الأزهر وأهله . فظهر الخلاف بينهم واضحا جليا بل وتجاوز النقد حد الأدب إلى حد التكفير والتبديع والتفسيق، ولم يكن المصريون يوما كذلك عندما كان الأزهر الشريف هو المرجعية العليا في مصر، أما حينما التفت الناس إلى غيره فقد ظهر ما ظهر، وتشتت الناس، وادعت كل فرقة أنها الفرقة الناجية وأن ما سواها هالك . (١)



﴿ قيمة خلق الحلم ﴾

((الحلم)) بالكسر : الأناة والعقل، وجمعه ((أحلام)) و((حلوم)) وفي التنزيل العزيز:

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِكَذِّ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [سورة الطور آية: ٣٢]. وأحلام القوم حلماؤهم، ورجل حلیم من قوم أحلام وحلماء . و((حُلْم)) بالضم، يحلم حلما صار حلیمًا . وحلم عنه . والحلم نقيض السفه . (٢) و((الحليم)) : ذو الحلم . وبمؤنثه سميت حلیمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن سعد بن بكر ظئر رسول الله ﷺ . (٣)

و((الحليم)) هو : الذي لا يستخفّ شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، و لكنه جعل لكل شيء مقدارا فهو منتبه إليه . (٤) والحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣١ - ٣٢) .

^٢ - ((لسان العرب)) (١٢ / ١٤٥) .

^٣ - ((المغرب في ترتيب العرب)) لأبي الفتح المطرزي (١ / ٢٢١) .

^٤ - ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (١ / ٤٣٤) .

الغضب . (١) و ((الحلم)) : هو حالة متوسطة بين رذيلتين الغضب والبلادة، فإذا استجاب المرء لغضبه بلا تعقل ولا تبصر كان على رذيلة، وإن تبلد وضيّع حقه ورضي بالهضم والظلم كان على رذيلة، وإن تحلّى بالحلم مع القدرة، وكان حلمه مع من يستحقه كان على فضيلة .
وهناك ارتباط بين الحلم وكظم الغيظ، وهو أن ابتداء التخلق بفضيلة الحلم يكون بالتحلم : وهو كظم الغيظ، وهذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة، لما في كظم الغيظ من كتمان ومقاومة واحتمال، فإذا أصبح ذلك هيئة راسخة في النفس، وأصبح طبعاً من طبائعها كان ذلك هو الحلم والله أعلم . (٢)

﴿ فضل الحلم ﴾

قد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٥٥] ونلاحظ أن الآيات التي وصفت الله بصفة الحلم قد قرنت صفة الحلم في أغلب هذه الآيات بصفة المغفرة أو العفو، ويأتي هذا الاقتران في الغالب بعد إشارة سابقة إلى خطأ واقع، أو تفريط في أمر محمود، وهذا أمر يتفق مع الحلم؛ لأنه تأخير عقوبة. ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٣٥] وقال: ﴿ تَرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنِيهِنَّ وَلَا تَحْزَنْ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٥١]

١ - ((المفردات في غريب القرآن)) ص (١٢٩).

٢ - السابق نفس الصفحة .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سورة فاطر آية: ٤١]

ونجد أيضاً أن عدداً من الآيات التي وصفت الله بالحلم قد قرن فيها ذكر الحلم بالعلم، كقوله تعالى: ﴿ لَيْدَخِلْنَهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة الحج آية: ٥٩] وهذا يفيد أن كمال الحلم مع كمال العلم . عن هارون بن رئاب، قال: حملة العرش يتجاوبون بصوت حسن رخيم يقول الأربعة : سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك. ويقول الأربعة الآخرون : سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك . (١)

﴿ الحلم من أخلاق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ﴾

لقد علمت أن الحلم صفة من صفات الله ﷻ، وخلق كريم من أخلاق ساداتنا من النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وقد ذكر الله تعالى هذا في كتابه الكريم، فقال في شأن خليله إبراهيم ﷺ : وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [سورة التوبة آية: ١١٤] ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [سورة هود آية: ٧٥] وقال في صفة إسماعيل ﷺ : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [سورة الصافات آية: ١١] .

وكانت صفة الحلم من صفات سيدنا محمد ﷺ، وكان ﷺ القدوة الحسنة في مكارم الأخلاق في أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ وقد شهد له ربه بأكمل الأخلاق وأعظمها فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم آية: ٤]

— وهذه صور مختلفة من كمال حلمه ﷺ مع أعدائه ومن آذاه :

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما تُوفِّيَ عبد الله بن أبي دُعَيِّ رسول الله ﷺ للصَّلَاةِ عليه فَقَامَ إِلَيْهِ فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ تَحَوَّلْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي صَدْرِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَلَى عَدُوِّ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْقَائِلِ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا. يَعُدُّ أَيَّامَهُ قَالَ : وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَبَسَّمُ حَتَّى إِذَا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ : ((أَخْرَجَنِي خَيْرْتُ فَأَخْرَجْتُ قَدْ

^١ — أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١ / ٣٢٧) .

قِيلَ لِي: ﴿ اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [سورة التوبة آية: ٨٠] لو أَعْلَمَ أَنِّي لو زِدْتُ على السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ)) . قال: ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ وَمَشَى معه فَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى فُرِعَ مِنْهُ قَالَ: فَعُجِبَ لِي وَجُرَأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ [سورة التوبة آية: ٨٤] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ قَالَ: فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهُ عَلَى مُنَافِقٍ وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ . (١)

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ يَهُودٍ أَهْدَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةً مَسْمُومَةً، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: ((اَمْسِكُوا فَإِنَّهَا مَسْمُومَةٌ)) . وَقَالَ لَهَا: ((مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟)) . قَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا فَسَيُطْلَعُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا أُرِيحَ النَّاسَ مِنْكَ، قَالَ: فَمَا عَرَضَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . (٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ الطِّفِيلُ بْنُ عَمْرِو الدَّوْسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ . فَاسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ النَّاسُ: هَلِكُوا . فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ، اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ، اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ)) . (٣)

وَمِنْ عَظِيمِ حِلْمِهِ ﷺ عَدَمُ دَعَائِهِ عَلَى مَنْ آذَاهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَقَدْ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فِيهِلْكُهُمُ اللَّهُ وَيُدْمِرَهُمْ، وَلَكِنَّهُ ﷺ حَلِيمٌ حَكِيمٌ يَهْدَفُ إِلَى الْغَايَةِ الْعَظْمَى، وَهِيَ رَجَاءُ إِسْلَامِهِمْ أَوْ إِسْلَامِ ذُرِّيَّاتِهِمْ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَخْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) . (٤)

وكَذَلِكَ حِلْمُهُ ﷺ بِالْعَصَاةِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَكَمَالُ حَسَنِ دَعْوَتِهِ لِلْعِبَادِ، وَهَذِهِ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لَهُ ﷺ شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا لِنَبِيِّهِ ﷺ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٥٩]

١ - أخرجه الزمذني في ((سننه)) (٥ / ٢٧٩) برقم (٣٠٩٧) .
٢ - أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٤ / ٢٦٠) ، والأصبهاني في ((دلائل النبوة)) ص (٢١٥) برقم (٢٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
٣ - متفق عليه .
٤ - أخرجه البخاري في كتاب ((الأنبياء)) باب ((حديث الغار)) حديث (٣٢٩٠) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه . فقال: ((أدنه)) . فدنا منه قريباً قال: فجلس . قال: ((أتحبه لأهلك ؟)) . قال: لا والله جعلني الله فداك . قال: ((ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)) . قال: ((أتحبه لبناتك ؟)) . قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك . قال: ((ولا الناس يحبونه لبناتهم)) . قال: ((أتحبه لأختك ؟)) . قال: لا والله جعلني الله فداك . قال: ((ولا الناس يحبونه لأخواتهم)) . قال: ((أتحبه لعماتك)) . قال: لا والله جعلني الله فداك . قال: ((ولا الناس يحبونه لعماتهم)) . قال: ((أتحبه لخالتك ؟)) . قال: لا والله جعلني الله فداك . قال: ((ولا الناس يحبونه لخالاتهم)) . قال: فوضع يده عليه وقال: ((اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه)) . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء . (١)

وما أحوج الدعاة إلى الله تعالى في زماننا إلى التخلق بخلق الله ﷻ وكيفية حوارهِ للمتمرد على الشرائع، وإقناعه بالعقل والنقل، كما علمنا ﷺ في هذا الحوار العقلاني النفسي الرائع، برفق ولين ورحمة وعظيم حلم منه ﷺ ! .

وعن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم . قالت عائشة ففهمتها فقلت: وعليكُم السام واللعة . قالت: فقال رسول الله ﷺ: ((مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرقيق في الأمر كله)) . فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: ((قد قلت: وعليكُم)) . (٢)

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من أعطي حظاً من الرقيق فقد أعطي حظاً من الخير ومن حرم حظاً من الرقيق فقد حرم حظاً من الخير)) . عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: ((ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق)) . (٣) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن النبي ﷺ سباً ولا فحاشاً ولا لعاناً كان يقول لأحدنا عند المعينة: ((ما له ترب جبينه)) . (٤)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه)) . (٥) وعن سفيان بن عيينة قال: كان من دعاء

٢ - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (٥ / ٢٥٦) حديث (٢٢٢٦٥) .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الأدب)) ، باب ((الرقيق في الأمر كله)) ، حديث (٦٠٢٤) .

١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢٣٥) حديث (٤٧٩٩) .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الأدب)) ، باب ((لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً)) حديث (٥٦٨٤) .

٣ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٥ / ١٧٤) .

رسول الله ﷺ : ((اللهم اغني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملي بالعافية)) .
(١) إلخ ما نقله الصحابة رضي الله عنهم من أحوال حلمه ﷺ .

﴿ دور الأزهر في إحياء قيمة الحلم ﴾

لقد رسخ الأزهر الشريف قيمة خلق الحلم في قلوب الناس العامة منهم والخاصة، وذلك بمواقف علمائه، وحسن معاملاتهم للناس، فهم لا يجهلون على من خالفهم الرأي ويسعون به بآرائه وأدل دليل على هذا التعددية المذهبية التي يقوم عليها منهج الأزهر الشريف، بتدريس فقه المذاهب الأربعة، بل وغيرها، ومع هذا كانوا من أعظم الناس محبة مع اختلاف هذه المذاهب في بعض الفروع الفقهية، وليس اختلافا من أجل الاختلاف، فاختلافهم رحمة بالناس وتيسيرا عليهم ولكل دليله .

وكذلك سعة حلمهم بالعامة في استفتائهم عما يريدون، بل إنهم وسعوا المتمرد منهم على الشريعة بالحوار وبالمعاملة باللين حتى يهديه الله، ومثلهم الأعلى في هذا هو رسول الله ﷺ كما سبق ذكره في حديث الشاب الذي جاءه ﷺ يسأله أن يحل له الزنا .

وقد رأينا من مشايخنا علماء الأزهر مثل هذه المواقف، فقد رأينا أحدهم يأتيه السائل متعللا بأنه لا يصلي لأن مهنته مثلا ترك ثيابه متسخة، من أجل هذا يمتنع عن الصلاة لأنها تستلزم الطهارة !. فنجد الفتوى منهم غريبة وعجيبة خارجة عن القواعد الفقهية، فيقول له : صلي بثيابك والقبول على الله. وحين راجعناهم، قالوا: لو قلنا له لا تصلي وعنفناه فلن يصلي إلى يوم الدين، فلا بد من التدرج في دعوته، اليوم يصلي بثيابه التي ذكرها، فإذا باشرت حلالة الصلاة قلبه، ونظر إلى المصلين سيستحي، ويبدأ بتغييرها شيئا فشيئا .

هكذا كان فقه دعوتهم التدرج في الدعوة والتيسير حتى يتم المراد ويتحقق الهدف، كما كان أمر النبي ﷺ في هداية الخلق، لأن الإنسان بطبعه عدو لمن يعنفه ولما يجهل، وقد يزداد عنادا في هذه الحالة، فالداعية الناجح من يعرف كيف يجد المدخل إلى قلب المدعو والسائل، ويفتيه بالحال الأنسب له، فقد كان يأتي الناس يسألون النبي ﷺ عن أفضل العمل مثلا، والسؤال واحد لكن الجواب متعدد، فمنهم من يدلّه على الذكر، ومنهم من يدلّه على الجهاد، ومنهم من يدلّه على

الصلاة، ومنهم من يدلّه على الصوم، ومنهم من يدلّه على الحج إلخ فكل واحد منهم له حال يناسبه في جوابه ﷺ .

والحلم من أعظم أسباب نجاح الدعوة إلى الله وتعليم الناس، وتغيير المجتمع إلى أفضل الأحوال . وقد أعطى علماء الأزهر القدوة الحسنة في هذا الخلق العظيم اقتداء منهم برسول الله ﷺ وأصحابه وأهل بيته ﷺ، ومن أخبارهم على سبيل المثال :

كانت هناك جفوة بين شيخ الأزهر الإمام الشيخ حسن القويسني والعلامة الشيخ محمد الأمير وبلغ ذلك الحاكم، فأرسل للشيخ الأمير يسأله عن سبب الجفوة، أخبره أن الشيخ القويسني حدثه عنها، إلا أن الشيخ الأمير قال : ليس بيننا إلا الخير، وما أظن الشيخ القويسني حدثك بشيء من هذا . وأثنى الشيخ الأمير على العلامة القويسني خيرا، ولما انصرف من عند الوالي ذهب إلى الشيخ القويسني وأخبره بما حدث . فقال له : صدقت في ظنك . ما قلت للحاكم شيئا . فقال الشيخ الأمير : هكذا أهل العلم يسوون ما بينهم في خاصتهم، وأما مظهرهم فيجب أن يكون قدوة للتألف والخير، وإمساكا على عروة الإسلام، وحفظا لكرامة العلم . (١)

ويتبين من هذا الموقف مدى عظمة خلق علماء الأزهر، وحلم الشيخ الإمام محمد الأمير الذي منعه من الانجراف في الحديث مع الحاكم ، بل في حلم وأناة وثقة في خلق الإمام الشيخ القويسني نفي أن يكون قد أطلعه على شيء، وصدق في ظنه . حقا قد كانوا مشايخ علم وهدى وأخلاق ﷺ .

ومن مواقفهم ما يحكيه الجبرتي عن حلم علماء الأزهر ومعاملتهم لمن يتعمد الإساءة إليهم مثل الشاعر الأنبوطي، قال الجبرتي في ترجمته : الشاعر اللبيب الناظم النادر الشيخ عامر الأنبوطي الشافعي شاعر مفلق هجاء، لهيب شراره محرق، كان يأتي من بلده يزور العلماء والأعيان، وكلما رأي لشاعر قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ، فكانوا يتحامون عن ذلك . وكان الشيخ الشبراوي يكرمه ويكسبه، ويقول له: يا شيخ عامر لا تزفر قصيدتي الفلانية وهذه جائزتك . ومن بعده الشيخ الحفني كان يكرمه ويغدق عليه ويستأنس لكلامه، وكان شيخا مسنا صالحا مكحل العينين دائما، عجيبا في هيئته. ومن نظمه ألفية الطعام على وزن ألفية ابن مالك، وأولها :

يقول عامر هو الأنبوطي *** أحمد ربي لست بالقنوطي . (٢)

١ - ((رسالة الأزهر)) عدد ذي القعدة ١٤٣٢ هـ ص (٣٦) .

١ - ((عجائب الآثار)) للجبرتي (١ / ٣٠٦) .

وهذا الموقف يظهر عظيم حلمه في معاملة الناس، وهذا الموقف من الشيخ الشبراوي وهو هو مكانة وجاها، ليس خوفا من الأنبوطي، فلسنا نبالغ إن قلنا : إنه كان يملك أساليباً أخرى كفيلة بأن ترد الأنبوطي عنه، خاصة وأنه مسموع الكلمة عند الحكام والعامّة والخاصة، ولكنه متخلق بأخلاق النبي ﷺ في الحلم والرحمة والمعاملة باللين للناس والإحسان إليهم .

﴿ دور الأزهر المأمول في إحياء قيمة خلق الحلم ﴾

وكما أدى الأزهر دوره في اكتساب الناس خلق الحلم عن طريق تعليمهم وعظمتهم، والقُدوة من أحوال علمائه في معاملاتهم وتعاملهم مع الناس، فإن على الأزهر اليوم مسؤولية كبيرة في إرجاع هذا الخلق الكريم إلى التعاملات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، لأن التغيير الاجتماعي اليوم الذي أصبحت سماته العنف والحدة حتى في مجرد الحوار والكلام، وعدم تحمل الناس بعضهم لبعض، وهذا ما نعاني منه في واقعنا اليوم، من أخلاق غريبة على المجتمع المصري فضلاً أن يكون غريباً على المجتمع الإسلامي، وعليهم أن يتعاونوا مع خبراء علم النفس والاقتصاد وغيرهم، للوصول إلى حل لهذه الظواهر الدخيلة علينا والغريبة على مجتمعاتنا وعاداتنا وأخلاقنا .

كما أنه على الأزهر دور في توجيه الإعلام الموجه للعقول من خلال المسلسلات والأفلام وغيرها، ففي الفترة الأخيرة ازدادت أعداد الأفلام السينمائية المخروجة على العنف والبلطجة، و تصوير البلطجي أو المجرم على أنه القدوة المواكبة لهذا العصر الحديث، وأن الدنيا غابة لا يتعايش الإنسان فيها إلا بالعنف، مما أدى إلى ارتفاع نسبة الجريمة، وتكرر المعارك بصفة شبه مستمرة في جميع أنحاء مصر، وانتشار ظاهرة الفحش في الكلام من بداءة وألفاظ خادشة للحياء وسب الملة.... إلخ . هذا بالإضافة إلى الانحلال الأخلاقي الذي نعيشه .

لذلك يجب على الأزهر الشريف ممثلاً في الإمام الأكبر شيخ الأزهر وهيئة علمائه، أن يطالبوا بسن قوانين لمعاقبة من يدعو بالتصريح أو بالتلميح من خلال ما يزعمون أنها من الأعمال الفنية، بتهمة التحريض على هدم الأخلاق والدعوة إلى الانحلال، وإنشاء جهاز رقابي مكون من الشرفاء من علماء الأزهر وعلماء علم النفس وغيرهم لرقابة كل هذه الأعمال الفنية، واعتماد اللاتق بأخلاقنا ومجتمعاتنا، ورفض ما لا يليق، إن أردنا أن نرجع للمجتمع أخلاقه .

﴿ قيمة الحياء ﴾

((الحياء)) : الاحتشام . (١) يقال : أنا أحتشمك وأحتشم منك . أي أستحي . وما
 يعني إلا الحشمة أي الحياء . (٢) و((الحياء)) بالمد : التوبة والحشمة . وقال الراغب : هو
 انقباض النفس عن القبائح . (٣) و((الحياء)) لغة مصدر حيي، وهو : تغيّر وانكسار يعتري
 الإنسان من خوف ما يُعاب به ويدم . (٤)

وعرفه ابن حجر رحمه الله بقوله : هو خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في
 حق ذي الحق . (٥) وقال الإمام الواحدي: قال أهل اللغة : الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل
 من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع الغيب. قال: فالحياء من قوة الحسّ ولطفه وقوة الحياة . (٦)
 وسُمي الحياء باسم الحياء من الاستحياء؛ لأنه يُستَر من الآدمي، ويكنى عنه من الحيوان، و
 يستفحش التصريح بذكره، واسمه الموضوع له، ويستحي من ذلك ويكنى عنه، ولذا سُمي حياءً
 لهذا المعنى . (٧)

﴿ أهمية الحياء ﴾

يقول الطحاوي في العلاقة بين الإيمان والحياء لما سُئل عن ذلك ؟ : إنا وجدنا الحياء يقطعُ
 صاحبه عن رُكوب المعاصي أقوالاً وأفعالاً، كما يقطعُ الإيمانُ أهله عن مثل ذلك ، وإذا كانَ
 الحياءُ والإيمانُ فيما ذكرنا يعمَلانَ عملاً واحداً، كانا كشيءٍ واحدٍ، وكانَ كُلُّ واحدٍ منهما من
 صاحبه وكانت العربُ تُقيمُ الشيءَ مكانَ الشيء الذي هو مثله أو شبيهه . (٨)

وقال النووي: وأما كونُ الحياءِ خيراً كُلُّهُ ولا يأتي إلّا بخيرٍ، فقد يُشكلُ على بعضِ الناسِ
 من حيث إنَّ صاحبَ الحياءِ قد يستحي أن يواجهَ بالحقِّ من يُجلُّهُ، فيتركُ أمره بالمعروفِ ونهيهِ
 عن المنكرِ، وقد يحملُهُ الحياءُ على الإخلالِ ببعضِ الحقوقِ وغير ذلك مما هو معروفٌ في
 العادة، وجوابُ هذا ما أجابَ به جماعةٌ من الأئمة منهم الشيخُ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله :

١ - (المعجم الوسيط) (١ / ٢١٣) .

٢ - (أساس البلاغة) (١ / ١٢٨) .

٣ - (تاج العروس) (٣٧ / ٥١٢) .

٤ - (الموسوعة الفقهية) (١٨ / ٢٥٩) .

٥ - (فتح الباري) (١ / ٥٢) .

٦ - (شرح النووي على صحيح مسلم) (٢ / ٥) .

٧ - (تهذيب اللغة) (٥ / ١٨٩) ، (لسان العرب) (١٤ / ٢١٧) و (المعجم الوسيط) (١ / ٢١٣) .

٨ - (مشكل الآثار) (١ / ١٩٠ - ١٩١) .

أَنَّ هَذَا الْمَانِعَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لَيْسَ بِحَيَاءٍ حَقِيقَةً بَلْ هُوَ عَجْزٌ وَخَوْزٌ وَمُهَانَةٌ، وَإِنَّمَا تَسْمِيَّتُهُ حَيَاءً مِنْ إِطْلَاقِ بَعْضِ أَهْلِ الْعُرْفِ أَطْلَقُوهُ مَجَازًا لِمُشَابَهَتِهِ الْحَيَاءَ الْحَقِيقِيَّ، وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ الْحَيَاءِ خَلْقُ يُبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ وَنَحْوِ هَذَا .^(١)

قال الزبيدي: وفَرَّقَ بعضهم بَيْنَ الْحَجَلِ وَالْحَيَاءِ وقال : إِنَّ الْحَجَلَ أَخَصُّ مِنَ الْحَيَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ صُدُورِ أَمْرٍ زَائِدٍ لَا يُرِيدُهُ الْقَائِمُ بِهِ بِخِلَافِ الْحَيَاءِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِمَا لَمْ يَقَعْ فِيهِ فَيَتْرُكُ لِأَجْلِهِ .^(٢)

﴿ مفهوم الحياء عند الصالحين ﴾

يقال: ((الحياء)) : انقباض القلب لتعظيم الرب . وقال محمد بن أحمد الجوزجاني : سمعت أبا بكر الوراق يقول: ربما أصلي لله تعالى ركعتين، فأنصرف عنهما، وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء .^(٣) وعن محمد بن عبد الملك قال: سمعت ذا النون المصري يقول: الحياء وجود الهيبة في القلب، مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى .^(٤) قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [سورة العلق آية: ١٤] .

﴿ الحياء من أعظم أخلاق الإسلام ﴾

الحياء خلق نبيل يحول بين من يتمتع به وبين فعل المحرمات، وإتيان المنكرات، ويصونه من الوقوع في الأوزار والآثام، وهو كذلك الامتناع عن فعل كل ما يستقبحه العقل ولا يقبله الذوق السليم، والكف عن كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق، فإذا تحلى المسلم بهذا الخلق، صحت سريرته وعلا نيته، وعامل الخلق بما يرضاه مولاه، وكذلك فإن هذا المسلم الحي لا يقبل إلا الحلال من كل شيء وفي المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك، كما يعد الحياء دليلاً صادقاً على مقدار ما يتمتع به المرء من أدب وإيمان .

٢ - ((طرح الشريب)) (٨ / ١٤٨ - ١٤٩) .

٣ - ((تاج العروس)) (٢٨ / ٣٩٦) .

٤ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٧٠) .

١ - المرجع السابق (٢ / ٣٦٧ - ٣٦٨) .

والحياء دليل على المروءة وعنوان على الشهامة وآية على حسن الخلق، لأن الحياء انكسار للعظيم وخجل من الكريم واحترام للكبير، الحياء عزة في ثوب التذلل وشموخ في زي الانكسار والهمة في رداء التواضع، وإن معيار الأخلاق الحسنة وعلامتها هو الحياء، كما أنه رأس مكارم الأخلاق، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: رأس مكارم الأخلاق الحياء .^(١)

وقد حث الإسلام على الحياء وأمر به، لأنه من أسمى الصفات الآدمية، وأرقى الأخلاق الإنسانية: عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ)) .^(٢)

ولقد حثت الشريعة الإسلامية المسلمين على التحلي بفضيلة الحياء وبين النبي ﷺ أن هذا الخلق الشريف هو أبرز ما يتميز به الإسلام من فضائل، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ)) .^(٣)

وإذا استحکم خلق الحياء في نفس المسلم، صده عن كل قبيح وقاده إلى كل أمر حسن طيب والحياء لا يأتي إلا بخير، أما إذا ضعف هذا الخلق فلن يحل محله إلا السفه والوقاحة والفحش، ويجد الإنسان نفسه أمام أبواب مفتوحة من السوء والمنكر، فينزلق إليها، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : ((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ التُّبُوَّةِ الْأُولَى : إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)) .^(٤)

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في التمسك بخلق الحياء، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه واصفا رسول الله : كان رسول الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ .^(٥) وإذا كان الحياء من الناس حسنا، فإن الأحسن منه كثيرا أن يكون الحياء من الله تعالى، لأنه يمنع الإنسان من العاصي دائما، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ)) . قال: قلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . قال: ((لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلَتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْإِلَى وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ))

٢ - ((الآداب الشرعية)) (٢ / ٢٢٠) ، و ((مكارم الأخلاق)) (١ / ٣٤) .

٣ - متفق عليه .

٤ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٣٩٩) حديث (٤١٨١) ، ومالك في ((الموطأ)) (٢ / ٩٠٥) من حديث زيد بن طلحة .

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الأدب)) باب ((إذا لم تستح فاصنع ما شئت)) حديث (٥٧٦٩) .

٢ - متفق عليه .

الْحَيَاءُ)) . (١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قالوا: يا رسول الله إن حارثة بن النعمان أفسده الحياء . فقال رسول الله ﷺ : ((لا يفسد الحياء ولكن لو قُلتُم أصلحه الحياء لصدقتم)) . (٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((ما كان الحياء في شيء إلا زانه ولا كان الفحش في شيء إلا شانه)) . (٣) وقال ابن عمر رضي الله عنهما : الحياء والإيمان مقرونان جميعاً فإذا رفع أحدهما ارتفع الآخر معه . وقال: مكتوب في التوراة إذا لم تستح فاصنع ما تشاء . وقال : أحيوا الحياء بمجالسة من يُستَحْيَا منه . (٤)

﴿ أنواع الحياء ودرجاته ﴾

ينقسم الحياء إلى نوعين :

- ١ - حياءٌ فطري غريزي : وهو الذي يكون طبعاً في الإنسان موجوداً في أصل الخلقة .
- ٢ - حياءٌ مكتسب : وهو الحياء الذي ينتج عن تدريب الإنسان نفسه عليه وتهذيبها .

وقيل : الحياء على وجوه :

- ١ _ ((حياء الجنائية)) : كآدم عليه السلام لما قيل له : أفراراً منا ! . فقال: لا بل حياء منك .
- ٢ _ و((حياء التقصير)) : كالملائكة يقولون له سبحانه: ما عبدناك حق عبادتك .
- ٣ _ و((حياء الإجلال)) : كإسرافيل عليه السلام، تسربل بجناحه حياء من الله ﷻ .
- ٤ _ و((حياء الكرم)) : كالنبي ﷺ كان يستحي من أمته أن يقول لهم : أخرجوا . فقال الله ﷻ : ﴿ وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنْ الْحَقِّ ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٥٣]

- ٥ _ و((حياء حشمة)) : كعلي رضي الله عنه حين سأل المقداد بن الأسود رضي الله عنه حتى سأل رسول الله ﷺ عن حكم خروج المذي، لمكان فاطمة رضي الله عنها.
- ٦ _ و((حياء الاستحقار)) : كموسى عليه السلام، قال: إني لنعرض لي الحاجة من الدنيا، فاستحي أن أسألك يا رب، فقال الله ﷻ : سلمي حتى عن ملح عجينك، وعلف شاتك .

٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٦٣٧) حديث (٢٤٥٨) .

٤ - أخرجه ابن أبي الدنيا في ((مكارم الأخلاق)) (٣٦) حديث (٧٨) .

٥ - أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (١ / ٢١٠) حديث (٦٠١) .

٦ - ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه الأندلسي (٢ / ٢٣٧) .

٧- ((حياء الإنعام)) : وهو حياء الرب سبحانه، يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعد ما عبر الصراط، وإذا فيه : ((فعلتَ ما فعلتَ، وقد استحييت أن أظهره عليك، فاذهب، فإني قد غفرت لك)) . (١)

والحياء من أوائل مدارج أهل الخصوص يتولد من تعظيم منوط بود وهو على ثلاث درجات :

((الدرجة الأولى)) : حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه، فيجذبه إلى تحمل المجاهدة،

ويحمله على استقباح الجناية ويسكتنه عن الشكوى .

((الدرجة الثانية)) : حياء يتولد من النظر في علم القرب، فيدعوه إلى ركوب المحبة، ويربطه بروح الأنس، ويكره إليه ملابسة الخلق .

((الدرجة الثالثة)) : حياء يتولد من شهود الحضرة، وهي التي تشوبها هيبة، ولا تفاوئها تفرقة ولا يوقف لها على غاية . (٢)

﴿ الحياء من صفات النبيين والصالحين ﴾

حياء موسى عليه السلام:

فقد جاء في وصفه أنه كان حياءً ستيراً، حتى كان يستر بدنه، ويستحي أن يظهر مما تحت الثياب شيئاً حتى مما ليس بعورة . وبسبب تستره الزائد آذاه بعض بني إسرائيل في أقوالهم، فقالوا: ما يبالي في ستر نفسه إلا من عيب في جسمه أو من أدرة (٣) هو مصاب بها . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سِتِيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ فَأَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا : مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتَرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ . وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَخَذَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ

١ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٦٩) .

٢ - ((منازل السانين)) (١ / ٥٤ - ٥٥) .

١ - الأدرّة: هي انتفاخ في الحصى بسبب فتق .

على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : توبي حجر توبي حجر . حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل فرأوه غريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعاً أو خمسا فذلك قوله : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٦٩].^(١)

﴿ دور الأزهر المأمول في إحياء قيمة الحياء ﴾

إن من الأمور التي لا تنكر، أن المبادئ والقيم في انحدار بشكل عام، ولا يخفي على متأمل واقعنا المرير الذي صرنا فيه، وما أن أصبحنا في زمن العولمة إلا وأصبح الانحدار الهائل في القيم والمبادئ محسوسا وملموسا وصاحبه فقد الحياء، وبفقدته فقدت الأخلاق، وكيف لا؟! وهو أساس الأخلاق والقيم وأصلها، وواجب الشرفاء في هذا الزمان من المصلحين هو توعية المجتمعات وتوجيههم، ومحاولة الرجوع بهم عن ذلك المنحدر الخطير، وهذا الواجب يتأكد أكثر ما يتأكد في دور الأزهر الشريف وعلمائه، وحثمية قيامهم بدورهم في تصحيح مسار الأمة في مبادئها وقيمها وسلوكها لأنهم العلماء ورثة الأنبياء، فعليهم المعول في الإصلاح، كذلك هو من واجب المفكرين والإعلاميين والباحثين و المنصّفين في محاولة النهوض بالأمة في شتى المجالات، و من ذلك المجال الأخلاقي والسلوكي، فهو واجب المجتمع كله، ولا بد لكل فئات المثقفين المخلصين أن يتعاونوا مع الأزهر الشريف وعلمائه في القيام بهذا الدور، ووضع منهجية التغيير والنهوض بالقيم والأخلاق .

﴿ قيمة خلق الرحمة ﴾

تعريف الرحمة في اللغة : ((الرحمة)) : الرقة. والتعطف و الرحمة .^(٢) و ((الرحمة)) : المغفرة .^(٣)

(٢) - متفق عليه .

(١) - ((مختار الصحاح)) (١ / ١٠٠) .

(٢) - ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣ / ٣٣٦) .

أما في الاصطلاح : فالرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية . (١)

﴿ الرحمة صفة من صفات الله ﷻ ﴾

الرحمة صفة من صفات الله تبارك وتعالى، فمن أسماء الله تعالى الرحمن، والرحيم، وقد افتتحت سور القرآن، بسم الله الرحمن الرحيم، وقال الله تعالى: ﴿يَتَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الحجر آية: ٤٩] وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَمَّا

قَضَىٰ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)) . (٢)
وعن أبي هريرة ؓ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً ! فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ)) . (٣)

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ؓ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ؛ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)) . (٤)

وقد ضرب النبي ﷺ مثالا على رحمة الله تعالى للعباد: عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبِيٌّ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ قَدْ تَحَلَّبُ تُدِيهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ أَخَذَتْهُ فَالْصَّقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : ((أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟)) . قُلْنَا : لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ! فَقَالَ : ((لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا)) . (٥)

٣ - ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢ / ١٦٩) .

٤ - متفق عليه .

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الرقاق)) باب ((الرجاء مع الخوف)) حديث (٥٩٨٨) .

٢ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٥٤٨) حديث (٣٥٤٠) .

٣ - متفق عليه .

﴿ الرحمة خلق النبي ﷺ العظيم ﴾

لقد كان خلق الرحمة من أعظم صفات النبي ﷺ زكاه ربه به وأثنى عليه فقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة آية: ١٢٨]

ولقد أكرمنا الله ﷻ بالإسلام وأرسل إلينا رحمته ﷺ قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة الدخان آية: ٦] وهو الرحمة للعالمين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء آية: ١٠٧] رحمة شاملة وعامة وعالمية، وليست عنصرية تقوم على الأعراق أو الألوان أو المذاهب، بل رحمة لكل البشر، ليست رحمة للعرب دون العجم أو للمسلمين دون غيرهم، أو للشرق دون الغرب، بل هي رحمة للعالمين . خصه الله بها فجعلها أكمل صفاته، وكل أخلاقه ﷺ كمال، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٥٩] وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم آية: ٤] وأعطانا ﷺ القدوة الحسنة، وضرب لنا المثل الأعلى في الرحمة، وبهرت رحمته كل من رآه وعاشره ﷺ فأثر فيهم عظيم الأثر، وبنى فيهم القيم والأخلاق، حتى شهد له العالم بهذا الخلق الكريم ﷺ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله ﷻ . (١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ وَكَانَ ظَنَرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَذَرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه وَأَنْتَ يَا

(١) - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الفضائل)) باب ((مَبَاعَدَتِهِ ﷺ لِلْأَتَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمُبَاحِ أَسْهَلُهُ وَانْتِقَامِهِ لِلَّهِ عِنْدَ انْتِهَاكِ حُرْمَاتِهِ)) حديث (٢٣٢٨) .

رَسُولَ اللَّهِ ؟. فقال : ((يا ابن عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ)) . ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ ﷺ : ((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ)) . (١)

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ فَأُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَاتَّجَوَّزُ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ)) . (٢)

ومن خصائص رحمة النبي ﷺ أنها ليست مجرد تعاليم نظرية، أو تطلعات فلسفية، أو كما يقال: حبراً على ورق، بل شأنها كشأن سائر خصاله وأخلاقه التي ترجمها إلى منهج حياة عملية، وواقع حي عاشه المسلمون في العهود الإسلامية العريقة وتأثروا به . فرحمة النبي ﷺ رحمة عملية يمارسها في حياته اليومية، كما تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه، فقالت : كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم آية: ٤] . (٣)

ومن رحمته ﷺ أنه نهى عن تعذيب الحيوانات والطيور وكل شيء فيه روح، فقد مرَّ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَرَأَى غُلَمًا أَوْ فِتْيَانًا نَصَبُوا أَمَامَهُمْ دَجَاجَةً، وجعلوها هدفاً لهم، وأخذوا يرمونها بالحجارة فَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه : نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ . (٤) أي: تحبس أو تعذب أو تقيد أو ترمي حتى الموت .

وَعَنْ ابْنِ عُمرَ رضي الله عنهما : أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ وَغُلَامٌ مِنْ بَنِي يَحْيَى؛ رَابِطٌ دَجَاجَةٌ يَرْمِيهَا، فَمَشَى إِلَيْهَا ابْنُ عُمرَ حَتَّى حَلَّهَا ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا وَبِالْغُلَامِ مَعَهُ فَقَالَ: ارْجُرُوا غُلَامَكُمْ عَنْ أَنْ يَصْبِرَ هَذَا الطَّيْرَ لِلْقَتْلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ تُصْبَرَ بِهِيمَةً أَوْ غَيْرَهَا لِلْقَتْلِ . (٥)

ومن الرفق بالحيوان ذبحه بسكين حاد حتى لا يتعذب : عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قال: اثنتان حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُجِدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)) . (٦)

٢ - أخرجه البخاري في كتاب ((الجنائز)) باب ((قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ)) حديث (١٢٤١) .

٣ - متفق عليه .

٤ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٩١ / ٦) برقم (٢٤٦٤٥) .

٥ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الذبائح والصيد)) باب ((ما يكره من المثلة والمصورة والمنحمة)) حديث (٥٠٨٩) .

١ - الرجوع السابق نفس الكتاب والباب حديث (٥١٩٥) .

2 - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان)) باب ((الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ فِي الذَّبْحِ وَالْقَتْلِ وَتَحْلِيدِ الشَّفْرَةِ)) حديث (١٩٥٥) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: إنه كان مع النبي ﷺ في سفر إلى مكة وإن رسول الله ﷺ كان إذا خرج إلى الغائط أبعد حتى لا يراه أحد، قال: فبصر رسول الله ﷺ بشجرتين متباعدتين فقال: ((يا ابن مسعود اذهب إلى هاتين الشجرتين فقل لهما: إن رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا له ليتوارى بكما)) . فمشى إحداهما إلى الأخرى فقصى رسول الله ﷺ حاجته ثم رجعتا إلى مكانهما فمضى حتى أتينا أزقة المدينة فجاء بغير يشتد حتى سجد لرسول الله ﷺ ثم قام بين يديه تذرف عيناه فقال رسول الله ﷺ: ((من صاحب هذا البعير ؟)) . قالوا: فلان . فقال: ((ادعوه لي)) . فأتوا به فقال له رسول الله ﷺ: ((ما شأنك وهذا البعير يشكوك ؟)) . فقال: يا رسول الله هذا البعير كنا نسنوا عليه منذ عشرين سنة ثم أردنا نخره . فقال رسول الله ﷺ: ((شكا ذلك بنسما جاز يتموه استعملتموه عشرين سنة حتى إذا رق عظمه ورق جلده أردتم نخره بعنية)) . قالوا: بل هو لك يا رسول الله . فأمر به رسول الله ﷺ فوجه به مع الظهر فقال له أصحابه: يا رسول الله سجد لك هذا البعير ونحن أحق بالسجود . فقال رسول الله ﷺ: ((معاذ الله أن يسجد أحد لأحد لو سجد أحد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)) . (١)

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأنطلق لحاجته فرأينا حُمرةً معها فرخان فأخذنا فرخيهما فجاءت الحُمرة فجعلت تفرش فجاء النبي ﷺ فقال: ((من فجّع هذه بولدها ؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا)) . ورأي قرية نمل قد حرقناها فقال: ((من حرق هذه ؟)) . قلنا: نحن . قال: ((إنه لا ينبغي أن يُعَذَّبَ بالنار إلا ربُّ النار)) . (٢)

ورحمته ﷺ كانت موضع الإعجاب ، فقد بهرت المنصفين من غير المسلمين ، وهذ شهادات بعضهم :

١ - يتحدث جوستاف لوبون في كتابه ((الدين والحياة))، عن أخلاق النبي ﷺ ولاسيما رحمته ورقة قلبه، فيقول: ((لقد كان محمد ذا أخلاق عالية وحكمة ورقة قلب، و رأفة ورحمة وصدق وأمانة .

٢ - ويتحدث توماس كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١ م) الكاتب الإنجليزي المعروف، في إعجابه بصفات الرحمة في شخصية محمد ﷺ فيقول: ((لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة وحجى ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه .

٣ - أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٩١٨٩) .

٤ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ٥٥) حديث (٢٦٧٥) .

٣ - ويتحدث وليم موير فيتحدث في مؤلفه : ((حياه محمد)) عن أخلاقيات النبي ﷺ في تقدير بالغ لركة النبي ﷺ ورفقه ورأفته، فيقول : ((ومن صفات محمد الجليلة الجديرة بالذكر، والحرية بالتنويه: الرقة والاحترام، اللذان كان يعامل بهما أصحابه، حتى أقلهم شأنًا فالسماحة والتواضع والرفاة والرقة تغلغت في نفسه، ورسخت محبته عند كل من حوله، و كان يكره أن يقول: ((لا))، فإن لم يمكنه أن يجيب الطالب على سؤاله، فضل السكوت على الجواب . (١)

﴿ الرحمة من أعظم أخلاق المسلمين ﴾

إن الإسلام يعمل على بناء شخصية المسلم على القيم والأخلاق ليصبح المسلم على أكمل الأخلاق وأعظم القيم، فيصبح رحيماً القلب، يغيث الملهوف ويصنع المعروف، ويعاون المحتاجين، ويعطف على الفقراء والمخرومين، ويمسح دموع اليتامى؛ فيحسن إليهم، ويدخل السرور عليهم .
عن أبي موسى الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: ((لن تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على ما تحابوا عليه؟!)) . قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ((افشوا السلام بينكم تحابوا والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا)) . قالوا: يا رسول الله كلنا رحيماً. قال: ((إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة)) . (٢)

وعن أنس بن مالك ؓ قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيماً)) . قالوا: يا رسول الله كلنا يرحم . قال: ((ليس برحمة أحدكم صاحبه يرحم الناس كافة)) . (٣) وعن عبد الله بن عمرو ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)) . (٤)

فالرحمة في الإسلام عامة لأهل الأرض قاطبة، فالمؤمنون يحبهم ونوقرهم ونعطف عليهم والعصاة نعظهم ونرفق بهم، وأهل الضلال ندلهم على طريق الحق ونرشدهم لما خلقوا له، عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت أبا القاسم ؓ يقول: ((لَا تُنَزِّعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ)) . (٥)

١ - المصدر ((موقع الألوكة)) نقلا عن هذا الرابط : <http://www.alukah.net/sharia/0/142/>

٢ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٤ / ١٨٥) حديث (٧٣١٠)

١ - أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (٧ / ٢٥٠) حديث (٤٢٥٨) .

٢ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٢٣) حديث (١٩٢٤) .

٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٢٣) حديث (١٩٢٣) .

والرحمة كذلك كما يجب أن تكون من الأب لصغاره، فهي كذلك لا بد أن تكون في كل مجالات الحياة، بين السيد لخدمته، ومن رئيس العمل لمروؤوسيه، ومن رئيس الدولة لشعبه وكل بحسب منزلته. ومن صور الرحمة العملية إطعام الجائع وكسوة العريان وإنقاذ المشرف على الهلاك ودفع ظالم عنه وإرشاد الحيران وتعليم سائل عن أصل الدين... إلخ .

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة الرحمة ﴾

قيمة الرحمة إحدى القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام وأسسها في نفوس المسلمين، و الأزهر هو لسان الإسلام الناطق الواعظ، وهو مظهر الإسلام الماثل في الواقع، وهو وريث الأحوال النبوية والعلوم المصطفوية، وعلماءه هم قدوة الأنام في مكارم الأخلاق، فقد عمل الأزهر وعلماءه في ترسيخ قيمة الرحمة في المناهج وحلق العلم، إذ صار من سنة علمائه العاملين أصحاب الأسانيد المتصلة برسول الله ﷺ أن يجيزوا تلامذتهم في أول لقائهم بهم بحديث من الأحاديث المعروفة بالسلسلات، ومنها الحديث المسلسل بالأولية الحقيقية، وهو ما يعرف بحديث الرحمة، فيكون أول حديث يسمعه التلامذة من شيخهم في أول لقائهم بهم . وهذا يشعر بأن منهج الأزهر يبدأ بالرحمة المتبادلة بين الطالب وشيخه .

وكذلك من أحوالهم في المعاملة مع الناس، كانوا رحماء رفقاء، مما أثر في تكوين الشخصية المصرية والإسلامية، برقة القلوب ورحمتها على الناس .

﴿ قيمة خلق الصبر ﴾

((الصبر)) : حبس النفس عن الجزع، وصبره : حبسه . قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ [سورة الكهف آية: ٢٨] وفي حديث النبي ﷺ في رجل أمسك رجلا وقتله آخر قال : ((اقتلوا القاتل

واصبروا الصابر)) (١) أي : احبسوا الذي حبسه للموت حتى يموت . والتصبر: تكلف الصبر.
(٢)

﴿ مفهوم الصبر عند الصالحين ﴾

سئل الجنيد عن الصبر؟ فقال : هو تجرع المرارة من غير تعيس . وقال علي بن أبي طالب
عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس في الجسد. وقال ذو النون: الصبر: التباعد عن المخالفات، و
السكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة. وقال ابن
عطاء: الصبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب. وقيل: هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى. و
قال أبو عثمان: الصبار: الذي عود نفسه الهجوم على المكاره. وقيل: الصبر: المقام مع البلاء
بحسن الصحة، كالمقام مع العافية. وقال عمرو بن عثمان: الصبر: هو الثبات مع الله سبحانه
وتعالى، وتلقي بلاءه بالرحب والدعة . وقال ذو النون: الصبر: هو الاستعانة بالله تعالى .

وقف رجل على الشبلي فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله ﷻ،
فقال: لا. فقال: الصبر لله . قال: لا. قال: الصبر مع الله . قال: لا. قال: فأى شيء؟ قال:
الصبر عن الله . قال: فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه أن تتلف.

وعن أبي علي الدقاق رحمه الله يقول : فاز الصابرون بعز الدارين ؛ لأنهم نالوا من الله تعالى
معيته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٥٣] (٣)

وقال قيس بن الحجاج في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [سورة المعارج آية: ٥] أن يكون
صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو . (٤)

﴿ من فضائل الصبر ﴾

ورد ذكر الصبر في السنة النبوية كثيراً جداً، وفي ثنايا هذا الموضوع سنتطرق إلى بعض من
تلك الأحاديث ومنها : عن أبي سعيد الخدري عليه السلام : إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ : ((مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ
عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفِّهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً

١ - أخرجه البيهقي في ((سننه)) (٨ / ٥٠) حديث (١٥٨٠٩) .

٢ - ((مختار الصحاح)) (١ / ١٤٩) .

٣ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٢٢ - ٣٢٤) .

٤ - ((تفسير السمعاني)) (٦ / ٤٦) .

خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)) . (١) وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت أن رسول الله ﷺ يقول: ((ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم آجرني من مصيبتى وأخلفني خيرا منها إلا آجره الله في مصيبتيه وأخلفه خيرا منها)) . فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة ، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنني قلتها فأخلف الله لي رسول الله فأرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت : إن لي بنتا وأنا غيور . فقال: ((أما ابنتها فندعوا الله أن يغنيها عنا وأدعوا الله أن يذهب بالغيرة)) . (٢)

وقال علي عليه السلام : اعلّموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له . وقال الأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا وإلا سلوت كما تسلوا البهائم . (٣) وعن المقداد بن الأسود عليه السلام قال : وأيم الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ وَلَمْ يَنْ ابْتَلَى فَصَبْرَ فَوَاقٍ)) . (٤) وعن أنس بن مالك عليه السلام عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((عِظْمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظْمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) . (٥)

﴿ الفرق بين الصبر والقسوة ﴾

والفرق بين الصبر والقسوة، أن الصبر : خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلوع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدريّة والشرعية .
وأما القسوة : فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثير بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته، لا لصبره واحتماله .

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

١ - قلب قاس غليظ، بمنزلة اليد اليابسة.

٢ - قلب مائع رقيق جداً .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الزكاة)) باب ((الاستغفار عن المسألة)) حديث (١٤٠٠) .

٣ - أخرجه أبو نعيم في ((المسند المستخرج على صحيح مسلم)) (٣ / ٧) حديث (٢٠٥٧) .

٤ - ((ذم الهوى)) لابن الجوزي ص (٥٩) .

٥ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ١٠٢) حديث (٤٢٦٣) .

٦ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٣٣٨) حديث (٤٠٣١) .

فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص، وأصح القلوب وهو القلب الثالث .

٣- القلب الرقيق الصافي الصلب، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه وبقبله، و يؤثره بركته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته .

﴿ الصبر من أخلاق الأنبياء ﴾

ومن أشد الناس صبراً على البلاء الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : عَنْ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ : ((الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، فَيُتْلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)) . (١)

فكم لاقى الأنبياء من أقوامهم من التكذيب والصد عن الحق، والرغبة إلى الباطل فكذبوا بعضهم، وقتلوا آخرين، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٨٧]

ولقد تعرض سيدنا محمد ﷺ لأذى قومه مراراً، ولكنه صبر رجاء إسلامهم ومن صور تحمله للأذى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَا جَزُورٍ، فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَأَخَذَتْ مِنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ أَبَا جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ أَوْ أَبِي بَنْ خَلْفٍ)) . فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ فَأَلْقُوا فِي بئرٍ غَيْرِ أُمَيَّةٍ أَوْ أَبِي فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا ضَخْمًا فَلَمَّا جَرُّوهُ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ قَبْلَ أَنْ يُلْقَى فِي الْبئرِ . (٢) وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، أَتَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الْأَفْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أَنَسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَأَتَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي

١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٧ / ١٦٠) حديث (٢٩٠٠) .

١ - متفق عليه .

الْقِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ : وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُريدَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ. فَقُلْتُ : وَاللَّهِ
لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ : ((فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللَّهُ
مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)) . (١)

ومع دعوة النبي ﷺ لقومه إلا أنهم كذبوه واتهموه بالجنون والسحر والشعوذة والشعر، و
حاولوا قتله وطرده من بلده، وآذوه أيما أذية، ومع ذلك صبر واحتسب . عن عبد الله بن
مسعود رضي الله عنه كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذَمُوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ
عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) . (٢)

ومواطن صبر النبي ﷺ على أذى قومه كثيرة، وليس المجال مجال حصرها وعرضها .
وقد ابتلي الخليل إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فصبر واستسلم لقضاء الله
تعالى، فكان صبره نجاته وفوزه برضاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ﴾ (١١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
الْأَسَى قَالَ يَبْنَؤُنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى^٣ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُوْمَرُ^٤
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٣) وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَرَاهِمُ (١٤)
قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٥) إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٦) وَقَدَيْنَاهُ
بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٨) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٩) [سورة الصافات آية: ١١ - ١٩]
فأي بلاء أعظم من أن يتلى المرء بقتل ولده وفلذة كبده، ومع ذلك صبر نبي الله إبراهيم على
ذبح ولده امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى، وصبر ولده إسماعيل عليه السلام، وأسلم لله رب العالمين،
فكانت عاقبة الصبر والاختبار أن فداه الله بذبح عظيم، فكانت سنة إلى يوم الدين .

وابتلاء يوسف عليه السلام بامرأة العزيز، وهو شاب يافع كامل الحيوية والنشاط، وآتاه الله
فوق ذلك جمالاً مفرطاً، وتهيات له أسباب فعل الفاحشة، مع امرأة العزيز ذات المنصب والجمال،
في بيت لا يوجد فيه سواهما من البشر، ولكن قوة الإيمان حالت دون وقوع تلك المعصية، قال
تعالى : ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ^٥ قَالَ مَعَاذَ
اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ^٦ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٠)﴾ [سورة يوسف آية: ٢٣] ثم ابتلي بنساء
امرأة العزيز وصديقاتها من نساء الأمراء والأغنياء ، فكدن له كيداً عظيماً .

٢ - متفق عليه .

٣ - متفق عليه .

فانظروا كيف كانت عاقبة الصبر عن معصية الله تعالى ، كانت رفعة لصاحبها في الدنيا والآخرة وسبباً للخروج من نار المعصية وهلاكها .

ولما ابتلى الله ﷻ عبده أيوب عليه السلام بالمرض، صبر ولم يتبرم ولم يدع به ربه أن يشفيه من بلائه : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۖ آرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۖ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [سورة ص آية: ٤١ - ٤٤]

﴿ من أنواع الصبر ﴾

١ - الصبر على طاعة الله : أمر الله تعالى عباده بالصبر على طاعته، وأداء عبادته، ذلك لأن التكاليف الشرعية فيها مشقة على النفوس، والنفوس تنفر منه، فكان الصبر على الطاعة من علامات المؤمنين المحبين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)) . (١)

قال النووي رحمه الله: قال العلماء: هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن، ومعناه : لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات؛ فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسيء والصبر عن الشهوات ونحو ذلك؛ وأما الشهوات التي النار مخوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة، كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاحى ونحو ذلك، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكره الاكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسى القلب، أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا . (٢) ولهذا أمر الله تعالى عباده على العباد فقال سبحانه وتعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ دَ

١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الجنة والنار وصفة نعيمها وأهلها)) حديث الباب رقم (٢٨٢٢) .

٢ - ((شرح النووي على صحيح مسلم)) (١٧ / ١٦٥) .

سَمِيًّا ﴿١٦﴾ [سورة مريم آية: ١٦] وقال تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا ۚ
 خُنْ نَزْرُقُكَ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة طه آية: ١٣٢]

قال ابن القيم رحمه الله : فسعادة العبد وكمال لذته ونعيمه، موقوفاً على هذه المقامات الخمسة : علمه بالنعيم المطلوب، ومحبه له، وعلمه بالطريق الموصل إليه وعلمه به، وصبره على ذلك ، قال الله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفَىٰ خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر] . (١)

ويؤكد الله تعالى هذا المعنى، وأن الصبر على شعائر الدين وعباداته من أعظم ما يرضيه ويتقرب به عباده إليه، وأنه جزاؤه عنده عظيم، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ هُمُ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِم بِمَا صَبَرُوا ۖ فَيَعْمَعُ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الرعد آية: ٢٢ - ٢٤]

٢. < الصبر عن معصية الله >

وذلك بالصبر عند الشهوات كما حصل ليوסף عليه السلام مع امرأة العزيز ، وكما حصل لكثير من العلماء والأولياء قديماً، فمن أعظم أنواع الصبر، الصبر على مجاهدة النفس وما يشه الشيطان فيها، ويزينه لها من فعل الحرام، وارتكاب الآثام . لأن العاقل حري به أن يعلم ويعتقد أن الصبر عن معصية الله أهون من الصبر على الأغلال والسلاسل والحميم والجحيم يوم القيامة والعذاب الأليم، فمن أدرك هذا وعمل به كان هو الكيس الفطن الذي لم يغفله الشيطان ولا نفسه عما هو كائن يوم القيامة وبعد الموت، عن بن عمر ؓ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَاشِرَ عَشْرَةِ فِجَاءٍ رَجُلٌ مِّنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ أَكْيَسِ النَّاسِ وَأَخْزَمِ النَّاسِ؟ قَالَ : ((أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ، وَأَشَدَّهُمْ اسْتِعْدَادًا لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) . (٢)

(٢) - ((إغاثة اللفهان)) (٢ / ١٨٠) .

(١) - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢ / ٤١٧) حديث (١٣٥٣٦) .

٣ . ﴿ الصبر على أذى الناس ﴾

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في أيهما أفضل : العزلة أم الاختلاط ؟ .

ولكل منهما مزاياه، لكن الاختلاط بالناس والصبر على أذاهم أفضل من العزلة، ودليل هذا : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ)) . (١)

ولما كان رضا الناس غاية لا تدرك، فإذا كان ذلك كذلك فلا بد من الصبر على ما ينتج من مخالطة الناس، لأن الأمر موضوع أجر وخيرية، وليس كل الناس فاسقاً وبغاة وظلمة حتى يفضل الإنسان العزلة، لأن الخير موجود في الناس إلى اليوم وإن كان قد قلت مظاهره، ولا أدل على ذلك من تلك التبرعات وأعمال البر التي يقوم بها المسلمون في كل مكان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ : ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَدَلْتُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)) . (٢) وعن حميد قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يخطب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((مَنْ يُرِذِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)) . (٣)

٤ . ﴿ الصبر على الابتلاء والأمراض ﴾

من فضل الله تعالى على عباده، أن العبد لا يصيبه مرض ولا وهن ولا نصب ، حتى الهم والغم يمرضه، ثم يصبر على ذلك إلا آتاه الله من الخير ما لم يكن يحتسبه، وقد ثبت هذا على لسان المعصوم عليه السلام وما جاء من عظيم البشري لمن صبر ورضي : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونَ ؟ فَأَخْبَرَنِي ؛ ((أَنَّهُ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونَ فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ)) . (٤)

وعن صهيب رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ،

٢ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٣٣٨) حديث (٤٠٣٢) .

٣ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الإمارة)) باب ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَالَفَهُمْ)) حديث (١٩٢٠) .

٤ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الاعتصام بالكتاب والسنة)) باب ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ)) حديث (٦٨٨٢) .

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الأنبياء)) باب ((حديث الغار)) حديث (٣٢٨٧) .

فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) . (١) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ ، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا)) . (٢)

وعن عبد الله ﷺ قال : دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا . قَالَ : ((أَجَلُ إِنِّي أُوَعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ)) . قلت : ذلك بأن لك أَجْرَيْنِ ؟ . قَالَ : ((أَجَلُ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا)) . (٣)

وهذا يظهر أن من أشد الناس بلاءً النبي ﷺ فإنه كان يوعك ويصيبه المرض وهو صابر محتسب ، بل كان مرضه كمرض الرجلين من الناس . ومن الناس من إذا أصيب بالبلاء سخط ، وعاتب ربه والعياذ بالله ، ووقع في المعصية والذنب من حيث يدري أو لا يدري ، وذلك إثم كبير ، وشر مستطير فكل الناس في هذه الدنيا يتقلب بين البلاء والحن والفتن ، والخير والفرح والسرور ، كل ذلك للاختبار والامتحان . يقول ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في ((حكمه)) : ((ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك)) .

قال ابن عجيبة رحمه الله : قلت : الغالب على النفس الأمانة واللومة أن تنبسط بالعطاء وتنقبض بالمنع ، لأن في العطاء منعها وشهوته ، فلا جرم أنها تنبسط بذلك وفي المنع قطع موادها وترك حظوظها ، ولا شك أنها تنقبض بذلك ، وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها ، فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء ، والعطاء عين المنع ، فافهم أيها الفقير عن مولاك ، ولا تتهمه فيما به أولاك ، فربما أعطاك ما تشتهي النفوس ، فمنعك بذلك حضرة القدوس ، وربما منعك ما تشتهي نفسك ، فيتم بذلك حضورك وأنسك ، ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها ، فمنعك جمال الحضرة و بهجتها ، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها ، وربما أعطاك قوت الأشباح فمنعك قوت الأرواح ، وربما منعك من قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح ، وربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق ، وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق ، وربما أعطاك العلوم وفتح لك مخازن الفهوم ، فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيوم ، وربما منعك من كثرة العلوم وأعطاك الأنس بالحي القيوم ، فأحطت بكل مجهول ومعلوم ، وربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة ، وربما منعك من عز الدنيا

٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الزهد والرفائق)) باب ((الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ)) حديث (٢٩٩٩) .

٣ - متفق عليه .

٤ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((المرضى)) باب ((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول)) حديث (٥٣٢٤) .

وأعطاك عز الآخرة، وربما أعطاك التعزز بالخلق ومنعك من التعزز بالحق، وربما منعك من التعزز بالخلق وأعطاك التعزز بالملك الحق، وربما أعطاك خدمة الكون، فمنعك من شهود المكون، وربما منعك من خدمة الكون وأعطاك شهود المكون، وربما أعطاك التصرف في الملك، ومنعك دخول الملكوت، وربما منعك من التصرف في الملك ومنحك شهود الملكوت، وربما أعطاك أنوار الملكوت فمنعك التزقي إلى بحر الجبروت، وربما حجب عنك أنوار الملكوت فأعطاك الدخول إلى حضرة الجبروت، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا علام الغيوب . قال ابن العربي الحاتمي رحمه الله : إذا منعت فذاك عطاؤه، وإذا أعطيت فذاك منعه، فاختر الترك على الأخذ . اهـ

وشاهده قوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢١٦] (١)

٥ - ﴿ الصبر على فقد الأحبة والأقارب ﴾

إن الابتلاء بفقد القريب والصديق والحبيب، أمر وارد وحكم قاهر من العلي القهار الذي قهر عباده بالموت وتعزز بالبقاء، سبحانه حي لا يموت؛ ومصيبة قائمة نافذة ما دام هناك بشر على ظهر الأرض، قال سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٨٥] وحكم فنفذ حكمه ﷻ ولم يفرق ولم يميز حتى حبيبه ﷺ خاطبه فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [سورة الزمر آية: ٣٠] فحري بالمؤمن أن يسلم ويرضى، لأنها قضية لن يعافي منها أحد، فالصبر خير ما يقابل به قضاء الله تعالى وقدره بفراق الأحبة والأقارب والأهل والأخلاء، ولذلك لا بد أن نحبي في نفوسنا هذه القيمة وهذا الخلق في التعامل مع الله سبحانه وتعالى، ولنأخذ القدوة الحسنة من فعله ﷺ الذي صبر واحتسب في فقد والده، فنشأ يتيما وأنشأه الله تعالى في عنايته وحفظه وتربيته، قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [سورة الطور آية: ٤٨] وصبر حين فقد أولاده عليهم السلام الواحد بعد الآخر، سيدنا القاسم ثم سيدنا عبد الله ثم سيدنا إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وصبر حين فقد زوجته وحبيته أمنا خديجة رضي الله عنها ... إلخ ما نقل عن صبره ﷺ، فرضي بقضاء الله تعالى ولم يجزع

(١) - ((إيقاظ الهمم بشرح الحكم)) لابن عجيبة ص (١١٥) .

ولم يستخط، بل فهم مراد الله تعالى وأن الموت باب حياة أخرى وهي الحياة البرزخية، وكل البشر سيدخلون منه، وأفهم أصحابه وأتباعه وأمته هذه الحقيقة فصبروا واطمأنوا، ومن أخبارهم :

دخل ابن عمر رضي الله عنه المسجد وابن الزبير رضي الله عنه مصلوب فأتى أسماء رضي الله عنها وهي أم ابن الزبير يعزيها، فقال لها : عليك بتقوى الله والصبر، فإن هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فقالت : وما يمنعني من الصبر ؟! وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بنى إسرائيل . (١)

ورباهم عليه السلام على الصبر على قضاء الله تعالى فضربوا المثل الأعلى فيه : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ ابْنُ لَآبِي طَلْحَةَ يَشْتَكِي، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ فَقَبِضَ الصَّبِيَّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ : مَا فَعَلَ ابْنِي ؟. قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ : هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ . فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعِشَاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ : وَارُوا الصَّبِيَّ . فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ : ((أَعَرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ ؟)) . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : ((اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا)) . فَوَلَدَتْ غُلَامًا، قَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ : احْفَظْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَرْسَلَتْ مَعَهُ تَمَرَاتٍ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : ((أَمَعَهُ شَيْءٌ ؟)) . قَالُوا : نَعَمْ تَمَرَاتٌ . فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَضَعَهَا ثُمَّ أَخَذَ مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ، وَحَنَكَهُ بِهِ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ . (٢)

فالصبر منزلته عظيمة عند الله ﷻ وبما أن المصائب قائمة بالإنسان، فواجب عليه الصبر عند حصولها، وأن يتسلى بمصيبة من حوله، فيحمله ذلك على الصبر، ثم ليتذكر الصابرين من هذه الأمة قديماً وحديثاً، وليتدبر كتاب ربه في الأمر بالصبر والحث عليه، وما وعد الله الصابرين من الفضل والأجر .

ذكر أبو الفرج بن الجوزي في ((عيون الحكايات)) : قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية، فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها فسلمنا، فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: من أنتم ؟ قلنا: قوم ضالون عن الطريق ، أتيناكم فأنسنا بكم . فقالت: يا هؤلاء ولوا وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل. ففعلنا. فألقت لنا مسحاً، فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني . ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردها، إلى أن رفعتها، فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني . فوقف الراكب

١ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٦ / ٢٠٢) برقم (٣٠٦٧٤) .

٢ - متفق عليه .

عليها فقال: يا أم عقيل أعظم الله أجرك في عقيل . قالت: ويحك! مات ابني ؟ . قال: نعم . قالت: وما سبب موته ؟ . قال: ازدحمت عليه الإبل، فرمت به في البئر. فقالت: انزل فاقض ذمام القوم . ودفعت إليه كبشًا، فذبحه وأصلحه، وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا، خرجت إلينا وقد تكورت، فقالت: يا هؤلاء هل فيكم من أحد يحسن من كتاب الله شيئًا ؟ . قلت: نعم . قالت: اقرأ من كتاب الله آيات أتعزى بها . قلت: يقول الله ﷻ في كتابه: ﴿ وَكَثِيرٍ الصَّابِرِينَ ﴾ [الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ] ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٥٥ - ١٥٧] قالت: آله إنها لفي كتاب الله هكذا ؟ . قلت: آله إنها لفي كتاب الله هكذا . قالت: السلام عليكم . ثم صفت قدميها، وصلت ركعات، ثم قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحاسب عقيلًا . تقول ذلك ثلاثًا. اللهم إني فعلت ما أمرتني به، فأجز لي ما وعدتني . (١)

وعن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن، ولقنه من الفقه جانبًا كبيرًا، قال: فمات فجئت أعزيه. فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا . قال: فقلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ولقنته الحديث والفقه ؟! . قال: نعم رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانا بأيديهم قلال فيها ماء، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يومًا حارًا، شديدًا حره، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء . قال: فنظر إلي وقال: ليس أنت أبي. قلت: فأني شيء أنتم ؟ . قال: فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا آبائنا، فنستقبلهم فنسقيهم الماء . قال: فلهذا تمنيت موته . (٢) وعن ثابت البناني: أن صلة بن أشيم كان في غزاة له ومعه ابن له فقال له: أي بني تقدم فقاتل حتى أحسبك. فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم أبوه فقتل، فاجتمعت النساء، فقامت امرأته معاذة العدوية، فقالت للنساء: مرحبًا إن كنتن جئنن لتهنئني مرحبًا بكن، وإن كنتن جئنن لغير ذلك فارجعن . (٣)

٦ - ﴿ الصبر على فقد الجوارح ﴾

وكما عظم الله أجر الصابرين على المرض وعلى فقد الأهل والأحبة، عظم أجر من فقد عضوا من جسده أو جارحة من جوارحه، فصبر ورضي على قضائه سبحانه وتعالى، ومن أمثلة

^١ - ((تسلية أهل المصائب)) لأبي عبد الله المنجي الحنبلي ص (١٤٢) .

^١ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٦ / ٣٧) .

^٢ - ((تسلية أهل المصائب)) ص (٨٦ - ٨٧) .

هذا العين مثلا، فيها يرى آثار رحمة الله على عباده، وبها يشاهد سنن الله الكونية، ولها فوائد لا تحصى، ولهذا رتب الله تعالى على فقدها الجنة .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ اللَّهَ قَالَ : إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ فَصَبْرٍ، عَوَضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ . يُرِيدُ عَيْنِيهِ)) . (١) وَعَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ قُدَامَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((عَزِيزٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ يَأْخُذَ كَرِيمَتِي مُسْلِمٌ ثُمَّ يَدْخُلَهُ النَّارُ)) . (٢)

قال ابن حبان في كتابه ((الثقات)) في ترجمة أبي قلابة: عن عبد الله بن محمد، قال: خرجت إلى ساحل البحر مرابطاً وكان رابطنا يومئذ عريش مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة وفي البطيحة خيمة، فيها رجل قد ذهب يده ورجلاه، وثقل سمعه وبصره، وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه، وهو يقول: اللهم أوزعني أن أحمذك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها علي، وفضلتني على كثير من خلقت تفضيلاً. قال الأوزاعي: قال عبد الله: قلت: والله لآتين هذا الرجل، ولأسأله أني له هذا الكلام، فهم علم أم إلهام ألهم؟. فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: ((اللهم.... تفضيلاً)) . فأني نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها، وأي فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها؟! قال: وما ترى ما صنع ربي؟! والله لو أرسل السماء علي ناراً فأحرقتنني، وأمر الجبال فدمرتنني، وأمر البحار فأغرقتنني، وأمر الأرض فبلعتنني، ما ازددت لربي إلا شكراً، لما أنعم علي من لساني هذا، ولكن يا عبد الله إذ أتيتني لي إليك حاجة، قد تراني على أي حالة أنا، أنا لست أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني، وإذا جعت أطعمني، وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام، فتحسسه لي رحمك الله .

فقلت: والله ما مشى خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك . فمضيت في طلب الغلام، فما مضيت غير بعيد، حتى صرت بين كتيان الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه، فاسترجعت وقلت: أني لي وجه رقيق آتى به الرجل؟! . فبينما أنا مقبل نحوه، إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي ﷺ، فلما أتيته سلمت عليه فرد علي السلام. فقال: ألسنت بصاحبي؟. قلت: بلى. قال: ما فعلت في حاجتي؟. فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي ﷺ? قال: بل أيوب النبي ﷺ . قلت: هل علمت ما صنع به ربه؟. أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟. قال: بلى. قلت: فكيف وجده؟. قال: وجده صابراً شاكراً حامداً . قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحشه من أقربائه وأحبائه؟. قال: نعم. قلت: فكيف وجده ربه

٣ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((المرضى)) باب ((فضل من ذهب بصره)) حديث (٥٣٢٩) .

٤ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٦ / ٣٦٥) حديث (٢٧١٠٨) .

؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً . قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيره عرضاً لمار الطريق، هل علمت ؟ قال: نعم . قلت: فكيف وجده ربه ؟ قال: صابراً شاكراً حامداً أوجز يرحمك الله . قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثران الرمل، وقد افترسه سبع فأكل لحمه، فأعظم الله لك الأجر وأهلمك الصبر. فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه فيعذبه بالنار. ثم استرجع وشهق شهقة فمات . فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، عظمت مصيبي، رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع، وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع، فسجيت به بشملة كانت علي وقعدت عند رأسه باكياً، فبينما أنا قاعد إذ تهجم علي أربعة رجال فقالوا: يا عبد الله ما حالك ؟ وما قصتك ؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه. فكشفت عن وجهه فانكب القوم عليه يقبلون عينه مرة ويديه أخرى، ويقولون : بأبي عين طالما غضت عن محارم الله، وبأبي جسم طالما كان ساجداً والناس نيام، فقلت: من هذا يرحمكم الله ؟ فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس ؓ لقد كان شديد الحب لله وللنبي ﷺ . فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا وصلينا عليه ودفناه فانصرف القوم وانصرفوا إلى رباطي، فلما أن جن علي الليل وضعت رأسي فرأيت فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة، وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي: ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [سورة الرعد آية: ٢٤] فقلت: أأست بصاحبي ؟ قال: بلى. قلت: أني لك هذا ؟ قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر على البلاء، والشكر عند الرخاء ، مع خشية الله ﷻ في السر والعلانية . (١)

﴿ الأسباب المعينة على الصبر ﴾

من الأسباب التي تهون المصائب والابتلاء :

- ١ - معرفة حقيقة الدنيا وأنها دار شقاء غدارة ضلالة خوانة، إذا حلت أو حلت، وإذا أفرحت أحزنت، لا تثبت على حال، ما أعطت إلا وأخذت، وما تسوى عند الله جناح بعوضة : عن سهل بن سعد ؓ قال: قال رسول الله ﷺ : ((لو كانت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)) . (٢)
- ٢ - الإيمان بالدنيا كلها ملك الله يعطي منها من يشاء ويمنع منها من يشاء، وحكم العبد فيها الرضا والصبر ولا يجوز له بحال من الأحوال الاعتراض على قضاء الله وقدره .

١ - أخرجه ابن حبان في ((الثقات)) (٥ / ٢ - ٥) .

٢ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٥٦٠) حديث (٢٣٢٠) .

٣ - الإيمان والثقة بحصول الفرج لأن الله جعل مع العسر يسرين، وبهذا يتحقق معنى التوكل على الله .

٤ - معرفة الجزاء والثواب على الصبر، والإيمان بما وعد الله تعالى عباده الصابرين .

٥ - الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم ما يعين على الصبر فقضاء الله نافذ لا محالة . فليس أمام العبد خيار إلا الرضا وهو خير له ! .

٦ - التسلي بأخبار وقصص الصالحين، بدءاً من الأنبياء ثم العلماء والأولياء فهذا خير زاد للصبر .

﴿ دور علماء الأزهر في ترسيخ قيمة الصبر ﴾

لقد رسخ الأزهر الشريف وعلماءه خلق الصبر في نفوس وقلوب المسلمين بالأقوال المتمثلة في أداء أمانة العلم الشريف، في حلق الدروس والمواظب والخطب، ونقل أخبار الصابرين على قضاء الله تعالى وقدره، وتبيين فضيلة الصبر وثوابه، وعظيم الأجر من الله تعالى عليه، فساهموا في إصلاح الناس وأخلاقهم، وإصلاح قلوبهم وتعاملاتهم فيما بينهم، فكانت تعم الوجوه أنوار الإيمان والرضا عن الله، مما جعل في عصور البركة الماضية تسود المحبة بين الناس، والرضا عن الله، وشكر الله على القليل، وعلى ابتلائه، والكل راض عن حاله، شاكرًا لله تعالى على نعمه وفضله .

وكما قرروا ذلك بالمقال قرروه بأحوالهم وأفعالهم مما جعلهم قدوة يقتدي بهم عامة الناس وخاصتهم، ومثال هذا صبرهم على الفقر وطلب العلم مع رقة حالهم المادي وتواضع معيشتهم : فقد كانت رقة الحال هي السمة الغالبة على الكثير من علماء القرن الحادي عشر الهجري السابع الميلادي - على سبيل المثال - ولم يكن الأمر مقصوراً على علماء تلك الفترة بل كان أمراً غالباً على طالبي العلم عبر العصور المختلفة . ورقة الحال تجعل العلماء قريين جداً مادياً من أهل الطبقات الدنيا يشعرون بما يشعرون به من ألم الفقر والجوع ونقص الأموال والثمرات، مع استعلائهم عن ذلك بعلمهم وتقواهم، فهم بعلمهم من أكابر رجالات المجتمع، وهم بأحوالهم المالية مع عامة الناس . (١)

ومع هذا العناء والابتلاء في الحياة كانت لهم عزة عجيبة أعزهم الله تعالى بها، فكانوا أعظم من الملوك جلالة، وكانت تهابهم الحكام وهم أصحاب الجاه والأموال والغنى، ومن أخبارهم رضي الله عنه : الشيخ علي الصعيدي: فقد كان ذا مهابة توجب على علي بك الكبير أن يقبل يده، وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتي بتحريمه، فصار على بك يحرس على أن يخفي أدوات التدخين

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٣) .

إذا علم بمجيئه خشية من غضبه، وكان الناس يلجؤون إليه إذا مسهم الضر فيسجل شكواهم في صحيفة خاصة، ويتحدث مع الحاكم في كل شكوى على حدة، ولا يلقي بالاً لتضايقه البارز في قطوب وجهه، بل كان يصيح في وجهه قائلاً: لا تأسف فالدنيا فانية وسيسألنا الله عن تأخرنا في نصحك إن لم نفعل . ثم يمسك بيده قائلاً : أنا أخاف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب .

وقد لاحظ تلكوا في إجابة بعض مطالبه فخرج غاضباً ونفر الناس وراءه وارتبك الأمير فحاول اللحاق به معذراً، فأصر الشيخ على ألا يعود وأخذ يتلو قول الله : ﴿وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة هود آية: ١١٣] (١)

ومنهم الإمام المراغي : لقي الإمام المراغي في حياته متاعب عديدة؛ سواء من الأحزاب والاستعمار وبعض ذوي النفوذ، وتغلب على كل ذلك بقوة إيمانه بالله، وكان حريصاً على الأمانة، صادقاً لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولو كلفه ذلك حياته؛ مثل ما فعل بعض المجرمين في قضية رشوة، وألقوا عليه ماء النار، ولكن الله لطف به، وما حدث معه والملك فاروق في تطبيق زوجته الأولى فريدة، وأراد أن يحرم عليها الزواج من غيره، وكان الشيخ يعالج بالمستشفى فرفض الاستجابة؛ فضايق الملك به وذهب إليه بالمستشفى، فقال له الإمام عبارته الخالدة: أمّا الطلاق فلا أرضاه، وأمّا التحريم فلا أملكه . وطال الجدل، فصاح المراغي قائلاً: إن المراغي لا يستطيع أن يحرم ما أحل الله . (٢)

﴿ دور الأزهري المأمول في تعايش المجتمع بقيمة الصبر ﴾

إن من أعظم ما نحتاجه اليوم في مجتمعنا المصري خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة، هو الصبر والمصابرة، وهذه وصية الله تعالى لعباده، قال سبحانه وتعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران آية: ٢٠٠] فالله ﷻ لم يذكر الصبر فقط بل أتبعه في الأمر بالمصابرة، وهي مبالغة في الصبر، وهي أعلى من الصبر درجة

٢ - المصدر : <http://cb.rayaheen.net/showthread.php?tid=34118>

١ - المصدر موقع مشيخة الأزهر :

<http://www.onazhar.com/page2home2.php?page1=2&page2=91>

ومقاما . قال بعض أرباب اللسان : اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء، و
رابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسما لعلكم تفلحون في دار البقاء . (١)

قال ابن القيم: فالصبر مع نفسك و المصابرة بينك وبين عدوك، والمرابطة الثبات وإعداد
العدة، وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو فكذلك الرباط أيضا لزوم ثغر القلب لئلا
يهجم عليه الشيطان فيملكه أو يخربه أو يشعته . (٢) فلذلك ما أحوجنا إلى الصبر والمصابرة
والمرابطة كما أوصانا ربنا ﷻ، لنهزم المعوقات التي تعيق بناء وطننا، وتأسيس مجتمعاتنا على
الأسس القويمة والقيم الحميدة، وندفع الفتن عن بلادنا، ذلك لأن طريق بناء الوطن بعد ما مر به
من الفتن والخن والقلاقل طويل يحتاج إلى صبر من الراعي والرعية، فليصبر بعضنا بعضا ويشد
بعضنا أزر بعض، ويأخذ الناس بأيدي بعضهم لننجز ونبني ونشيد ونؤسس، إذا أردنا الفلاح .

ودور علماء الأزهر في هذا الميدان هو دور المجاهد في سبيل الله تعالى، لأن هذا ثغر من الثغور
التي تهدد المجتمع في أمنه وسلامه، فلا بد أن يعملوا على غرس هذه القيمة في النفوس والقلوب
والسلوك، وليصبر بعضنا على بعض لنتجاوز الخن، وتحقيق العدالة والتعايش السلمي في هذا
البلد والوطن الغالي الكريم، و نجتاز بمصر إلى بر الأمان، وسيكون هذا إن شاء الله وسيأتي الله
بالفرج والنصر القريب .

﴿ قيمة الشكر ﴾

((الشكر)) : الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، وقد شكره بشكره بالضم شكرا و
شكرانا أيضا . (٣) وقال الأخفش : ((الشكر)) : الثناء باللسان للعارية يؤتاها . وقال غيره :
((الشكر)) : معرفة الإحسان والتحدث به . وقيل: الشكر والحمد بمعنى واحد، لكن الحمد
أعم فكل شاكر حامد، وليس كل حامد شاكر . وقال بعضهم : الشكر بالقلب وهو التسليم .
قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [سورة النحل آية:
٥٣] وباللسان وهو الاعتراف . قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [سورة الضحى آية: ١١]
وشكر العمل هو الدوام على طاعة الله قال الله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ

٢ - ((تفسير الواحدي)) (١ / ٣٨٩) .

٣ - ((مدارج السالكين)) (٢ / ١٥٨ - ١٥٩) .

١ - ((مختار الصحاح)) (١٤٥) .

عِبَادِي الشَّكُورُ ﴿٣١﴾ [سورة سبأ آية: ١٣] وقال ﷺ وقد عوتب في كثرة العمل وأتعاب نفسه : ((أفلا أكون عبدا شكورا)) . (١)

والشكر : تصور النعمة وإظهارها . قيل : وهو مقلوب عن الكشر . أي : الكشف . ويضاده الكفر ، وهو نسيان النعمة وسترها ، ودابة شكور : مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها . وقيل : أصله من عين شكرى . أي : ممتلئة بالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه . (٢)

وفي الاصطلاح : شكر الله : ثناء عليه بنعمه وأياديه ، والاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع . (٣) وقيل : الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه . (٤) وهو أن تعلم أن النعمة من الله وحده .

﴿ الفرق بين الحمد والشكر ﴾

قال أبو سليمان : الحمد نوع ، والشكر جنس ، فكل حمد شكر وليس كل شكر حمدا ، وهو على ثلاث منازل :

١ - شكر القلب : وهو الاعتقاد بأن الله ولي النعم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ عَطَا

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئُرُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٥٣]

٢ - وشكر اللسان : وهو إظهار النعمة بالذكر لها ، والثناء على مسديها . قال الله تعالى ﴿ وَأَمَّا

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [سورة الضحى آية: ١١] .

٣ - وشكر العمل : وهو إداب النفس بالطاعة . قال الله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ

مِّنْ عِبَادِي الشَّكُورُ ﴾ [سورة سبأ آية: ١٣] . (٥)

وقيل : الحمد على الأنفاس ، والشكر على نعم الخواص . وقيل : الحمد ابتداء منه ، والشكر اقتداء منك . (٦)

٢ - ((مشارق الأنوار)) (٢ / ٢٥١ - ٢٥٢) .

٣ - ((المفردات في غريب القرآن)) ص (٢٦٥) .

٤ - ((تفسير الطبري)) (١ / ٦٠) .

٥ - ((تفسير ابن كثير)) (١ / ٢٣) .

١ - ((غريب الحديث)) للخطابي (١ / ٣٤٦) .

٢ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣١٦) .

﴿ قالوا عن الشكر ﴾

والشكر في مفهوم الصالحين حسب أذواقهم ومشاربهم، فلذلك كل منهم يرى الشكر بعين طبعه ومعاملته مع الله تعالى : قيل : والشكر ينقسم إلى: شكر باللسان: وهو اعتزافه بالنعمة بنعت الاستكانة . وشكر بالبدن والأركان: وهو اتصاف بالوفاء والخدمة. وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة . وشكر: هو شكر العارفين، يكون باستقامتهم له في عموم أحوالهم .

وقال أبو بكر الوراق : شكر النعمة مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة. وقال أبو عثمان: الشكر: معرفة العجز عن الشكر . ويقال: الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك بأن ترى شكره بتوفيقه، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك، فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر، إلى ما لا يتناهى .

وقيل: الشكر: إضافة النعم إلى موليتها بنعت الاستكانة . وقال الجنيد : الشكر: أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة . وقال رويم: الشكر: استفراغ الطاقة. وقال الجنيد : كنت بين يدي السريّ أَلعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟. فقلت : ألا تعصي الله بنعمة . فقال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد رحمه الله : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري . (١)

وقال الشبلي: الشكر: رؤية المنعم، لا رؤية النعمة. وقال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني . (٢)

﴿ الشكر في القرآن ﴾

قال الله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِيْ أَدْْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِيْ وَلَا تَكْفُرُوْنَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٥٢]

قال القرطبي : والشكر معرفة الإحسان والتحدث به وأصله في اللغة الظهور . فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له، إلا أن شكر العبد نطق باللسان وإقرار بالقلب بإنعام الرب مع الطاعات . (١)

٣ - ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣١١ - ٣١٤) بتصرف مختصر .

١ - أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الشكر)) ص (٧) برقم (٨) .

وقال ابن كثير : عن زيد بن ثابت بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني . وقال الحسن البصري وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره . (٢)

﴿ الشكر في السنة ﴾

ورود فضل الشكر في سنة المعصوم ﷺ في أحاديث كثيرة منها : عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ مُعَاذٍ فَقَالَ: ((يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ)) فَقَالَ مُعَاذٌ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ . فَقَالَ : ((يَا مُعَاذُ أَوْصِيكَ أَنْ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)) . (٣) وعن يحيى بن عطار القشيري عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يرزق الله عبدا الشكر فيحرمه الزيادة لأن الله ﷻ يقول : ﴿ لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [سورة إبراهيم آية: ٧] . (٤) وعن زياد بن علقمة عن المغيرة بن شعبه ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ ! فقال : ((أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)) . (٥) وعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((الحمد لله يملأ الميزان)) . (٦) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهُوَ أَقْطَعُ)) . (٧) وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((الإيمان نصفان: نصف في الصبر ونصف في الشكر)) . (٨) وعن الحسن

٢ - ((تفسير القرطبي)) (٢ / ١٧٢) .

٣ - ((تفسير ابن كثير)) (١ / ١٩٧) .

٤ - أخرجه ابن خزيمة في ((صحيحه)) (١ / ٣٦٩) حديث (٧٥١) ، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥ / ٣٦٤) حديث (٢٠٢٠) .

٥ - أخرجه الرافعي في ((تاريخه)) (٢ / ٣٧٨) .

١ - متفق عليه .

٢ - أخرجه الحرائطي في ((فضيلة الشكر لله على نعمته)) ص (٣٨) برقم (١٦) .

٣ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ١٧٣) حديث (١) .

٤ - أخرجه الحرائطي في ((فضيلة الشكر لله على نعمته)) ص (٣٩) برقم (١٨) .

قال: سمع نبي الله ﷺ رجلا يقول: الحمد لله بالإسلام. فقال: ((إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة)) . (١)

وعن أبي أمامة ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ لبس قميصا فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في حياتي، ثم مد يده فنظر إلى كل شيء يزيد على بدنه فقطعه، ثم أنشأ يحدث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من ليس ثوبا أحسبه قال جديدا فقال حين يبلغ ترقوته أو قال قبل أن يبلغ ترقوته مثل ذلك ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكساه مسكينا لم يزل في جوار الله وفي ذمة الله وفي كنف الله حيا وميتا حيا وميتا ثلاثا ما بقي من الثوب)) . فقلت لعبيد الله من أي الثوبين قال: لا أدري . (٢)

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة قلب شاكر ولسان ذاكِر وبدن على البلاء صابر وزوجة لا تبغيه خوفا في نفسها ولا ماله)) . (٣) وعن أبي هريرة ﷺ قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ فانطلق معه فلما طعم وغسل يده قال: ((الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسى من العري، وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلا، الحمد لله رب العالمين)) . (٤)

وعن أبي الدرداء ﷺ يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: ((إن الله ﷻ يقول: يا عيسى إني بآعت من بعدك أمة إن أصابهم ما يُحبون حمدوا الله وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا واصطبروا ولا حلم ولا علم. قال: يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم؟. قال: أعطيهم من حلمي وعلمي)) . (٥) وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يؤتي بالنعيم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله ﷻ لنعمة من نعمه خذي حقل من حسناته فما تترك له حسنة إلا ذهبت بها)) . (٦) وعن عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ قال:

٥ - أخرجه الضياء في ((المختارة)) (٥ / ٢٤٨) حديث (١٨٧٥) .

٦ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥ / ١٨٢) برقم (٦٢٨٧) .

٧ - المرجع السابق . (٤ / ١٠٤) حديث (٤٤٢٩) .

٨ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (١ / ٧٣١) حديث (٢٠٠٣) .

١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٦ / ٤٥٠) حديث (٢٧٥٨٥) .

٢ - ذكره الهندي في ((كنز العمال)) (١٤ / ١٦٣) برقم (٣٩٠٠٧) وعزاه لابن النجار وأبي الشيخ .

((إذا رأى الله تعالى يعطي العباد ما يسألون على معاصيهم إياه فإنما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا دُسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام آية: ٤٤] . (١)

وعن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عليه السلام ((عبدا شكورا)) لأنه لم يلبس جديدا ولم يأكل طعاما إلا حمد الله تعالى . (٢) وعن أبي الجلد قال: قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال: أي رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل شكرك إلا بنعمتك؟ قال : فأتاه الوحي: أن يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني . قال: بلى يا رب . قال : فإني أرضي بذلك منك . (٣)

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((يجاء بعبد من عبيد الله فيوقف بين يدي الله ﷻ فيقول الله : أي عبيدي هات حقي قبلك أجرك بحقك قبلي بأدائك حقي عليك . قال: فينظر في ذلك فلا يستطيع أن يحير جوابا. فيقول للملائكة: يا ملائكتي انظروا في عمل عبيدي ونعمتي عليه)) . أظنه قال: ((فينظرون فيقولون: ولا بقدر نعمة واحدة من نعمك عليه . قال: فيقول يا ملائكتي انظروا في عمل عبيدي سيئه وصالحه . فينظرون فيجدونه كفافا، فيقول: عبيدي قد قبلت حسناتك وغفرت لك سيئاتك، وقد وهبت لك نعمتي ما بين ذلك)) . (٤)

﴿ كيف يكون الشكر ؟ ﴾

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن موسى عليه السلام قال: يا رب ما الشكر الذي ينبغي لك ؟ . قال: يا موسى لا يزال لسانك رطبا من ذكري . (٥)

ولعل هذا تفسير اقتران الذكر بالشكر، في قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِيْ أَدْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِيْ وَلَا تَكْفُرُوْا ﴾ [سورة البقرة آية: ١٥٢] ولعل هذا أيضا السر في أن الله تعالى لم يأمر عباده بحمده فلم يأتي بصيغة الأمر مثل : ((احمدونني)) ، ولكن جاء بصيغة الخبر، لعلمه سبحانه عجز عباده عن حمده، فجعل ذكر حمده حمدا له منهم وشكرا له سبحانه .

٣ - أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (٧ / ١٩٥) .

٤ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٦٢ / ٢٧٣) .

٥ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦ / ٥٦) .

٦ - أخرجه الخرائطي في ((فضيلة الشكر لله على نعمته)) ص (٥١) برقم (٥٧) .

٧ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٧ / ٧٣) برقم (٣٤٢٨٨) .

قال القرطبي : وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده، وعجزهم عن القيام بواجب حمده، فحمد نفسه عنهم لتكون النعمة أهنأ لديهم حيث أسقط عنهم به ثقل المنة.^(١)

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : ((ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب له شكرها، وما علم من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره، وأن الرجل ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبته حتى يغفر له)) .^(٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحَدِّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فَالْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ)) .^(٣) وفي رواية : ((وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمَسِّي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ)) .^(٤)

وعن عبد الله بن سحرة قال: قال رسول الله ﷺ : ((من ابتلي فصبر، وأعطى فشكر، و ظلم فغفر، ثم شكر)) ثم سكت قالوا: ما له يا رسول الله ؟ . قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام آية: ٨٢] .^(٥)

وعن ابن عمر رضي الله عنه عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((من رأي صاحب بلاء فقال : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا . إِلَّا غُوفِي مِنْ ذَلِكَ الْبَلَاءِ كَأَنَّا مَا كَانَ مَا عَاشَ)) .^(٦) وعن يونس بن عبيد قال: قال رجل لأبي تيمية : كيف أصبحت ؟ قال: أصبحت بين نعمتين لا أدري أيهما أفضل ؟. ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد ولم يبلغها عملي .^(٧) وعن محمد بن لوط الأنصاري قال: كان يقال: الشكر ترك المعصية .^(٨)

قال عبد الله بن ثعلبة : إلهي من كرمك أنك تطاع فلا تعصي، ومن حلمك أنك تعصي كأنك لا ترى، وأي زمن لم يعصك فيه سكان أرضك فكنت والله عليهم بالخير عوادا .^(٩)

١ - ((تفسير القرطبي)) (١ / ١٣٥) .

٢ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤ / ٩٢) حديث (٤٣٧٩) .

٣ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣ / ١٤٣) حديث (٨٦١) .

٤ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٣١٨) حديث (٥٠٧٣) من حديث عبد الله بن غنام البياضي رضي الله عنه .

٥ - أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٤ / ١٣٣٤) برقم (٧٥٤٨) .

٦ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٤٩٣) حديث (٣٤٣١) .

١ - ((عدة الصابرين)) لابن القيم ص (١٠١) .

٢ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤ / ١٣٠) برقم (٤٥٤٧) .

٣ - أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الشكر)) ص (٢٠) برقم (٤٦) .

وعن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن حصين رضي الله عنه وعليه مطرف خزر . فقلنا: يا صاحب رسول الله ﷺ تلبس هذا؟! . فقال: إن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله يحب إذا أنعم على عبد نعمة أن يرى أثر نعمته عليه)) . (١) وعن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشيف الهيئة فقال: ((هل لك من مال؟)) . فقلت: نعم . قال: ((من أي مال؟)) . قلت: من كل قد آتاني الله من الإبل والرقيق والغنم . قال: ((إذا آتاك الله مالا فلير عليك)) . قال: قلت: يا رسول الله أرايت رجلا نزلت به فلم يكرمني ولم يقرني فنزل بي أجزيه بما صنع؟ . قال: ((لا بل أقره)) . (٢) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)) . (٣)

وعن بكر بن عبد الله يرفعه: ((من أعطى خيرا فرؤى عليه سمي حبيب الله محدثا بنعمة الله ومن أعطى خيرا فلم ير عليه سمي بغيض الله معاديا لنعمة الله)) . (٤) وعن إبراهيم بن الأشعث سمعت الفضيل يقول: قال الله ﻋﻠﻴﻚ: ((يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرنى لا أصرعك بين معاصيك يا بن آدم اتقني ومن حيث شئت)) . (٥) وعن الحسن بن أبي الحسن: ﴿ إِنَّ آيَاتِنَا لِلرِّبِّهِ لَكُنُودٌ ﴾ [سورة العاديات آية: ٦] قال: يعدد المصائب وينسى النعم . (٦)

وعن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قال: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره على نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمك كفرا، أو أكفرها بعد معرفتها، أو أنساها فلا أثنى بها . (٧)

وعن محمد بن هانئ عن بعض أصحابه قال: قال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين؟ . فقال: إن رأيت بهما خيرا أعلنته وإن رأيت بهما شرا سترته . قال: فما شكر الأذنين؟ . قال: إن سمعت بهما خيرا وعيته وإن سمعت بهما شرا دفته . قال: فما شكر اليدين؟ . قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حقا لله هو فيهما . قال: وما شكر البطن؟ . قال: أن يكون أسفله

-
- ٤ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٣ / ٢٧١) برقم (٥٨٨٨) .
٥ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٢ / ٢٣٤) حديث (٥٤١٦) .
٦ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ١٢٣) حديث (٢٨١٩) .
٧ - أخرجه ابن أبي الدنيا في ((العيال)) (٢ / ٥٤٥) برقم (٣٦٤) وفي ((الشكر)) ص (٢٣) برقم (٥٤) .
٨ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤ / ١٢٧) برقم (٤٥٣٥) .
٩ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤ / ١٥٣) برقم (٤٦٢٩) .
١٠ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٤٥ / ٢٢٨) ، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤ / ١٢٩) برقم (٤٥٤٥) .

طعاما وأعلاه علما . قال : وما شكر الفرج ؟ . قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [سورة المؤمنون آية: ٥ - ٧] قال : فما شكر الرجلين ؟ . قال : إن رأيت ميتا غبطته استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتا مقتته كففتها عن عمله، وأنت شاكر لله ﷻ، فأما من يشكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر . (١)

وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعُو يقول : اللهم إني أسألك تَمَامَ النِّعْمَةِ . فقال : ((أَيُّ شَيْءٍ تَمَامُ النِّعْمَةِ ؟)) . قال : دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا أَرْجُو بِهَا الْخَيْرَ . قال : ((فَإِنْ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ وَالْقُرُوزُ مِنَ النَّارِ)) . وَسَمِعَ رَجُلًا وَهُوَ يَقُولُ : يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . قال : ((اسْتَجِيبَ لَكَ فَسَلْ)) . وَسَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إني أسألك الصَّبْرَ . فقال : ((سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَلَاءَ فَسَلَّهُ الْعَافِيَةَ)) . (٢)

﴿ خطورة الغفلة عن شكر الله ﷻ ﴾

عن عبد الله بن داود عن سفيان في قوله ﷻ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة القلم آية: ٤٤] قال : نسبغ عليهم النعم ونمنعهم الشكر . (٣)

وعن حماد بن زيد يقول : اجتمع أيوب السخيتاني ويونس بن عبيد وابن عون وثابت البناني في بيت فقال ثابت : يا هؤلاء كيف يكون العبد إذا دعا الله فاستجاب له دعاءه ؟ . قال ابن عون : يكون البلاء في نفسه . قال ثابت : فإنه يعتزضها العجب بما صنع الله به . فقال يونس بن عبيد : لا يكون العبد يعجب بصنع الله له إلا وهو مستدرج . فقال أيوب : وما علامة المستدرج ؟ . فقال : إن العبد إذا كان له عند الله منزلة فحفظها وأبقى عليها ثم شكر الله أعطاه الله أشرف من المنزلة الأولى، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله فكان تضییعه للشكر استدراجا من الله له، فغلبه عن شكر العجب معرفة الاستدراج، وإن العبد المستدرج إذا ألقى في قلبه شيء من الشكر حمله شكره على التفقد من أين أتى، فإذا عرف ذلك بصدق خضع، فإذا خضع أقال الله عشرته . قال حماد : إن ابن عمر سئل عن الاستدراج ؟ فقال : ذلك مكره بالعباد المضيعين . قال : فبكوا

٢ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣ / ٢٤٣) .

٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٥٤١) حديث (٣٥٢٧) .

٤ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٧ / ٧) . وذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٣ / ٦١٨) .

جميعا ثم رفع أيوب من بينهم يده وقال : يا عالم الغيب والشهادة لا توفيق لنا إن لم توفقنا، ولا قوة لنا إن لم تقونا. فقال يونس : به وجدنا طعم القوة من دعائك يا أبا بكر . قال : وكان أيوب يعرف أصحابه أن له دعوة مستجابة . (١)

وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد قال: حدثني أمي قالت : كان بمرور امرأة تلد البنات فولدت تسع بنات، فلما حملت العاشرة قال لها النساء: يا فلانة إن ولدت هذه المرة ابنة فاحمدي الله . قالت: إن ولدت ابنة لم أحمده الله. قالت: فولدت خنزيرة . قالت أمي: فأتيتها فنظرت إلى الخنزيرة تحت ثيابها، فعاشت ثلاثة أيام ثم ماتت . (٢)

﴿ حوار نافع ﴾

عن عبد الله بن أبي نوح قال: قال لي رجل على بعض السواحل : كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملتك بما تحب ؟. قلت : ما أحصي ذلك كثرة . قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك ؟. قلت : لا والله ولكنه أحسن إلي فأعاني . قال: فهل سألته شيئا قط فأعطاك ؟. قلت : وهل منعني شيئا سألته ؟! ما سألته شيئا قط إلا أعطاني ولا استعنت به إلا أعاني . قال : أرأيت لو أن ابن آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك ؟ . قلت : ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء . قال : فربك أحق وأحرى أن بذلك نفسك له في أداء شكر نعمه عليك، وهو المحسن قديما وحديثا إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضي بالحمد من العباد شكرا . (٣)

﴿ فهم لابد منه ﴾

حري بالعباد أن يتفكروا في تقسيم الله تعالى النعم والأرزاق للعباد، وأن يفهموا أنه قد جرت أقداره بحكمته، منهم من آمن بها وأدركها بتوفيق الله تعالى، فاطمأنوا واستراحوا لقضاء الله لهم ومنهم من لم يفهم فيعترض، ومن اعترض طرد والعياذ بالله، فلذا كان من الفطنة التسليم له سبحانه في كل ما قضاه، والشكر على كل ما أنعم به وأولاه .

١ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١٠ / ١٦٣) .

٢ - أخرجه الخرائطي في ((فضيلة الشكر لله تعالى)) ص (٣٧) برقم (١٣) .

٣ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦ / ٢٩٨) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ((إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إلى من هو أسْفَلُ منه)) . (١)

وهذا منه ﷺ علاج نافع للنفوس الساخطة على قضاء ربها، وهو علاج ناجح لمن أخذه لأن العقل يقبله وتطمئن به النفس، فمن نظر إلى من هو دونه استراح ورضي، ومن نظر إلى من هو فوقه تعب وسخط وهو الخاسر .

وعن الحسن قال: خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فدبوا على وجه الأرض فيهم الأعمى والأصم والمبتلى ، فقال آدم : يا رب ألا سويت بين ولدي . قال : ((يا آدم أردت أن أشكر)) . (٢) وعن بعض الحكماء قال : لو لم يعذب الله ﷻ على معصيته، لكان ينبغي أن لا يعصي لشكر نعمته . (٣)

﴿الأزهر الشريف وقيمة الشكر لله﴾

من أعظم النماذج الأزهرية التي أثرت في نفوس الناس بما يرسخ فيها قيمة الشكر لله تعالى، وأن من صور شكره ذكره سبحانه وطاعته، الشيخ الإمام شيخ شيوخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمته الله، الذي تجسدت فيه معان كثيرة منها الحرص على أداء حقوق الله تعالى مع انشغاله بالعلم تحصيلًا وتدريسًا، إلا أنه كان يتعلق قلبه بالله تعالى وذكره، والقيام بشكر نعمه .

ومع ما كان عليه من الاجتهاد في العلم اشتغالًا واستعمالًا وإفتاء وتصنيفًا ومباشرة القضاء، ومهمات الأمور وكثرة إقبال الدنيا، فإنه كان لا يفتّر عن الطاعة لا ليلاً ولا نهاراً، وكان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان فوق سطح الجامع الأزهر الشريف، وكان كثير الذكر والتأله و العبادة، تحقيقاً لمقام العبودية لله، والذي هو عين المقصد الثالث من مقاصد المنهج الأزهرى، الذي يدعو الناس إليه؛ وكان شيخ الإسلام يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مائة سنة وأكثر ويقول : ((لا أعود نفسي الكسل)) . حتى في حال مرضه كان يصلي النوافل قائماً، ولما قيل له في ذلك قال : ((النفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبي، وأختم عمري بذلك)) . وكان إذا أطال عليه أحد في الكلام يقول له : ((عجل قد ضيعت علينا الزمان)) . وكان إذا القارئ

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الرقاق)) باب ((لينظر إلى من هو أسْفَلُ منه ولا ينظر إلى من هو فَوْقَهُ)) حديث (٦١٢٥) .

٣ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٧ / ٣٩٧) .

٤ - ((الشكر)) ص (٧١) .

يصحح بين يديه كلمة في الكتاب الذي يقرأه ونحوه يشتغل بالذكر بصوت خفي قائلا : ((الله الله)) . لا يفتر عن ذلك حتى يفرغ . ولم يزل شيخنا على تلك الطريقة الجميلة من التواضع وحسن العشرة، والأدب والعفة، والانجماع عن بني الدنيا، مع التقلل وشرف النفس ومزيد العقل وسعة الباطن والاحتمال، وكان قليل الأكل لا يزيد على ثلث رغيف، مع ما كان فيه من بسط في الرزق وإقبال الدنيا عليه، كل ذلك مع شدة مراقبته لنفسه ومحاسبته لها . ومما قاله عليه السلام شعرا متضرعا إلى الله تعالى :

إلهي ذنوبي قد تعظم خطرها	وليس على غير المسامح متكل
إلهي أنا العبد المسيء وليس لي	سواك ولا علم لدي ولا عمل
إلهي أقلني عثرتي وخطيئتي	لأنني يا مولاي في غاية الخجل
إلهي ذنوبي مثل سبعة أبحر	ولكنها في جنب عفوك كالبلبل
ولولا رجائي أن عفوك واسع	وأنت كريم ما صبرت على زلل
إلهي بحق الهاشمي محمد	أجرني من النيران إني في وجل
وباللطف والعفو الجميل تولني	وبالخير فامنن عند خاتمة الأجل . (١)



﴿ قيمة العفو ﴾

((العفو)): من العفاء بالفتح والمد : التراب . قال صفوان بن محرز : إذا دخلت بيتي فأكلت رغيفا وشربت عليه ماء فعلى الدنيا العفاء . وعفو المال : ما يفضل عن النفقة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلُواكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢١٩] وأما قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٩٩] أي: خذ الميسور من أخلاق الرجال، ولا تستقص عليهم . ويقال: أعطاه عفو ماله . يعني : أعطاه بغير مسألة . (٢) وفي أسماء الله تعالى ((العَفُو)) وهو فعول من ((العفو))

(١) - ((رسالة الأزهري)) عدد شهر رمضان سنة ١٤٣٢ هـ ص (١٣ - ١٤) .

(٢) - ((مختار الصحاح)) ص (١٨٦) .

وهو: التجاوز عن الذنب. وترك العقاب عليه وأصله الخو والطمس . (١) ومعناه كذلك : أن يستحق حقاً فيسقطه ويبري عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ . وعلى هذه المعاني يكون معناه اصطلاحاً هو : إسقاط حق ثابت جوداً وكرماً مع القدرة على الانتقام، أو كف الضرر مع القدرة عليه .

ولقد خلق الله تعالى النفوس، فجبلت على ما جبلت عليه، من حب لذاتها، وحب للاستحواذ والطمع، والتعزز والأنانية وحب الانتقام، وهذا من طبيعة النفس البشرية الملازمة لها وهو الميل إلى الانتقام والثأر، وعدم الميل إلى الصفح والعفو، إلا ما يكون من تلك النفوس التي هذبت بنور من الله تعالى، وترى بغيره بغير الإيمان، وأسست على التقوى، وهذا النوع منها قليل، لذا رغب الإسلام في العفو ولم يفرضه . وذلك لاختلاف طبائع الناس فمنهم من يستجيب لداعي العفو، ومنهم من لا يستجيب، لأن قلوبهم كالحجارة بل أشد قسوة، فمن الحجارة ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله .

﴿ العفو في القرآن الكريم ﴾

إن الله تعالى قد سمى نفسه عفواً، فهو سبحانه العفو، وقد جاء اسم الله ((عفو)) أربع مرات مقتزناً بالمغفرة، ومرة بالقدرة، قال سبحانه: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [سورة النساء: آية: ٤٣] وقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [سورة الحج: آية: ٦٠] وقال: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [سورة المجادلة: آية: ٢] ، وقال: ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [سورة النساء: آية: ٩٩]

وجاءت مشتقات كلمة العفو في كثير من المواضع في القرآن الكريم قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٥٢] وقال سبحانه : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٠٩] وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٣٧] وقال : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴾ [سورة النساء آية: ١٥٣] وقال سبحانه : ﴿ يَأْتِ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة المائدة آية: ١٥] وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٩٩] وقال : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور آية: ٢٢] إلخ هذه الآيات الكريمة .

﴿ العفو من أخلاق النبي الكريم ﷺ ﴾

لقد كان خلق العفو من أخلاق النبي ﷺ التي كمله الله تعالى بها، وكانت صفته وبعته في الكتب السابقة كالنوراة المنزلة على موسى عليه السلام، عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٤٥] قال في التَّوْرَةِ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفُظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ

بِالسَّوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا . (١)

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يتخلق بخلق العفو : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٥٩] وقال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٩٩] وعن سفيان بن عيينة عن رجل قد سمعه قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : ((يا جبريل ما هذا ؟)) . قال : ما أدري حتى أسأل العالم . قال: ثم قال جبريل : يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك . (٢)

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر آية: ٨٥] وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [سورة المؤمنون آية: ٩٦] وقال : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [سورة فصلت آية: ٣٤] وكما هو مقرر في اصطلاح الأصوليين أن الخطاب للنبي ﷺ هو خطاب لعموم الأمة . كان هذا الخطاب لحضرته ﷺ تأديبا من الله تعالى لعباده .

﴿ أهمية العفو في الإسلام ﴾

إن الإسلام جاء ليتمم مكارم الأخلاق، فهي رسالته والأمانة التي أودعها الله تعالى نبيه ﷺ، جاء يدعو إلى التسامح والعفو بين الناس، وذلك لأهمية العفو في الحياة، وأنه سبيل إلى الإصلاح، ودفع العدوان والإفساد . وقد فضل الله تعالى عباده العافين عن الناس، السمحاء أرقاء القلوب والأخلاق، ووعدهم على هذه الأفعال الكريمة، والأخلاق الشريفة بالوعد المحقق والثواب العظيم، جنات عرضها السموات والأرض، فقال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ، جَنَّاتٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿

(١) - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((التفسير)) باب : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

﴾ حديث (٤٥٥٨) .

(٢) - أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٩ / ١٥٥) .

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَالِينَ وَالْعَالِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣﴾ [سورة آل عمران آية: ١٣٣ - ١٣٤]

ومن المقرر شرعا وعقلا وعرفا أن العفو حق ثابت للعافي دون المعفو عنه، اختيارا لا إجبارا ولا إكراها، بل ابتغاء الأجر والثواب من الله تعالى وطمعا في رحمته وفضله، ودليل هذا قول الله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الشورى آية: ٤٠ - ٤١]

والعفو ليس بالضعف كما يفهمه بعض الجهالة من الناس، إنما هو قوة وعزة، لأن من يعفو يملك قلبا طاهرا نقيًا، ولا يزداد بعفوه إلا رفعا في الدرجات في الآخرة، لأنه تخلق بأخلاق الله تعالى، فمن عفا يعف عنه، ومن أكرم يكرم، ولا يزيده العفو في الدنيا إلا عزة ورفعة، وكذلك في الآخرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ رَجُلًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا أَوْ مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ)) . (١)

﴿ العفو في حياة الأنبياء ﴾

لقد كان العفو من أخلاق النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فهم أعظم الخلق أخلاقا وأطهرهم طباعا، وأتقاهم وأنقاهم قلوبا، جملهم الله برضاه، وزينهم بتقواه، وهذبهم بأسمى الأخلاق وأسمى القيم، وقد كان أعظمهم في هذا سيد ولد آدم أجمعين ﷺ . وكان رسول الله ﷺ يسامح الجاهل الذي لا يعرف أدب الخطاب، وكذلك يسامح المسيء الذي يمكن إصلاحه، وأيضا يسامح المنافق الذي يتظاهر بغير ما يطن . إذ لا يشك أحد أن رسول الله ﷺ لو أمر بقتل أحد أو عقابه لتبادر المئات إلى تنفيذ أمره، ولكن كان ﷺ يتحمل ويعفو ويسامح . (٢)

ومن مواقف عفوه، ومشاهد حلمه وكرمه حادثة الطائف حيث تجلّى عفوه في يوم الطائف حين ذهب يدعوهم إلى الإسلام، فرفضوا دعوته وسلطوا عليه صبيانهم وعبدهم وسفهاءهم يؤذونه هو ورفيقه زيد بن حارثة، وسال الدم من قدميه الشريفتين : عن عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ

(١) - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٧٦) حديث (٢٠٢٩) .

(٢) - ((الرسول ﷺ)) للأستاذ سعيد حوي . ص (١٢٧) .

أُحْدٍ ؟ قال : ((لقد لَقِيتُ من قَوْمِكَ ما لَقِيتُ وكان أشدَّ ما لَقِيتُ منهم يومَ الْعُقَبَةِ إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلالٍ فلم يُجِئني إلى ما أَرَدْتُ ، فَأَنْطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهِي فلم أَسْتَفِقْ إلا وأنا بقرنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإذا أنا بِسَحَابَةٍ قد أَظْلَنَتْنِي فَتَنَظَرْتُ فإذا فيها جَبْرِيلُ فَنَادَانِي فقال : إِنَّ اللَّهَ قد سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لك وما رَدُّوا عَلَيْكَ وقد بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ . فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قال : يا محمد . فقال ذلك . فِيمَا شِئْتَ إن شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ . فقال النبي ﷺ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) . (١)

وكذلك مشهد دخوله مكة بلده الكريمة وموطنه الحبيب، الذي اضطر إلى تركه اضطرار لما زاد عليه كيد الكائدين، وعناد المشركين وأذيتهم، فأمره الله تعالى بالهجرة، ووعدته وعدا غير مكذوب، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [سورة القصص آية: ٨٥] قال القرطبي : ختم السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأول أكثر، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس، ومجاهد، وغيرهم . قال القتبي : معاد الرجل : بلده، لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبي ﷺ من الغار ليلا مهاجرا إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة، عرف الطريق إلى مكة، فاشتاق إليها، فقال له جبريل : إن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [سورة القصص آية: ٨٥] أي : إلى مكة ظاهرا عليها . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالجحفة ليست مكية ولا مدنية . (٢)

وأنجز الله تعالى وعده، ونصر عبده، وهزم جحافل الشرك والطغيان وحده، ودخلها النبي ﷺ ظاهرا منتصرا في عزة الله تعالى له ولجنده، ومثل بين يديه من اتهمه بالسحر تارة، وبالكهانة والجنون تارة أخرى، مثل بين يديه من سبه وشتمه وعابه، من أذاه وأدمى قدميه ضربا، من كان يغري به الصبيان ليضربوا وجهه الكريم الأكرم بالتراب... إلخ ما فعلوه مع جنابه الأفخم ﷺ، ولو أنه انتقم ما عابه أحد، فقد أصبحوا أسرى بين يديه، ولكن صاح فيهم ليوقط قلوبهم من نومة الغفلة، وينفض عنها تراب وغشاوة الشرك والكفر، فأحياهم بصيحته من الموت، وقال لهم ﷺ : ((يا معشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم ؟)) . قالوا : خيرا أخ كريم

(٢) - متفق عليه .

(٣) - ((تفسير القرطبي)) (١٣ / ٣٢١) .

وابن أخ كريم . ثم قال : ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) فأعتقهم رسول الله ﷺ وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئا، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء . (١)

و عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ (٢) يَنْخُلُ فَرَاوًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غُرَّةً فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ أَوْ غَوْثُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: ((اللَّهُ)) . قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ . فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْفَ فَقَالَ لَهُ: ((مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟)) . قَالَ: كُنَّ خَيْرًا مِنِّي . قَالَ: ((تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) . قَالَ: لَا وَلَكِنْ أُعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أَقَاتِلَكَ وَلَا أَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ . قَالَ: فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ . (٣) وها هو الخليل ﷺ يعفو ويغفر لأبيه عناده وسوء خطابه، وهو الحريص على نجاته، الداعي له إلى الإيمان، فيقابل توعده وتهديده بالعفو والصفح، قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِي آلِكَتَبِ

إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٥) يَتَابَت إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٦) يَتَابَت لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٧) يَتَابَت إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٨) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابَرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٩) قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (١٠) وَأَعَزَّتْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (١١) ﴿ [سورة مريم آية: ٤١ - ٤٨]

ويذكرنا الله تعالى بإخوة يوسف عليه السلام فقد حقدوا عليه قربه من أبيه عليه السلام ، و كادوا له كيدا عظيما ليتخلصوا منه، ويدور الزمان دورته، وقد مكن الله له في أرضه، وصار الوزير الأول في مصر، وجاءه إخوته يطلبون منه الحبوب والطعام وعرفهم بنفسه، فتذكروا شناعة فعلهم، وخافوا أن يبطش بهم أو أن ينتقم، وهو قادر على هذا الآن غير الأمس ، هو الآن صاحب جاه ومال وسلطان ومنصب مع النبوة التي أكرمها الله بها، لكنه عليه السلام لم يفعل وقابلهم بالإحسان، كما ذكر الله تعالى فقال: ﴿ قَالُوا أَيْنَ نَتَّيُوسِفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا

(١) - أخرجه ابن جرير في ((تاريخه)) (٢ / ١٦١) .

(٢) - محارب هو ابن خصفة وخصفة هو ابن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر والحاربون من قيس ينتسبون إلى محارب بن خصفة ((فتح الباري)) (٧ / ٤١٨) .

(٣) - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٧ / ١٣٨) حديث (٢٨٨٣) .

أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ [سورة يوسف آية: ٩٠ - ٩٢]

﴿ العفون من أخلاق الصالحين ﴾

لقد ربي النبي ﷺ أصحابه وآل بيته على أكرم الأخلاق، وأمر بها أمته فمن أخذ بها فقد فاز بسعادة الدارين : عن سهل بن معاذ عن أبيه عليه السلام أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَن كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ بِكَ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ)) . (١) فكانوا حلماء أتقياء، لما ورثوه عنه ﷺ من كريم الأحوال وأظهر الأخلاق .

وكان من أدعيته ﷺ : ((اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي)) . (٢) وها هو الصديق أبو بكر ﷺ في حديث الإفك تكلم مسطح بن أثاثه عن عائشة رضي الله عنها، وكان قريباً له، فقال أبو بكر الصديق ﷺ ، وكان يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أَثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ : وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئاً أَبَداً بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة النور آية: ٢٢] فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي . فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ . (٣)

ويصف أحد الصالحين وهو إبراهيم النخعي حال السلف ﷺ وعظمة أخلاقهم وما كانوا عليه من قيم، وخاصة قيمة العفو، فيقول : كانوا يكرهون أَنْ يُسْتَدَلَّوا، فإذا قدرُوا عَفَوْا . (٤) وقال الحسن بن علي ﷺ : لو أَنَّ رجلاً شتمني في أذني هذه، واعتذر في أذني الأخرى

١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢٤٨) حديث (٤٧٧٧) .

٢ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٥٣٤) حديث (٣٥١٣) .

٣ - متفق عليه .

٤ - ذكره البخاري تعليقا في كتاب ((المظالم)) باب ((الانتصار من الظالم)) .

لَقَبْتُ عَذْرَه . (١) وقال جعفرُ الصادقُ رحمه الله : لأنْ أُنْدِمَ على العفوِ أحبُّ إليَّ منْ أُنْدَمَ على العقوبة . (٢) وقال الفضيل بنُ عياض رحمه الله : إذا أتاك رجلٌ يشكو إليك رجلاً فقل: يا أخي أعفُ عنه؛ فإنَّ العفوَ أقربُ للتقوى. فإن قال: لا يحتملُ قلبي العفوَ ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ فقل له: إن كنتَ تحسنُ أن تنتصر، وإلاَّ فارجع إلى بابِ العفو؛ فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحبُ العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلبُ الأمور؛ لأنَّ الفتوة هي العفو عن الإخوان . (٣)

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة العفو ﴾

يتكرر معنا القول والإقرار بأن الأزهر الشريف هو الامتداد العلمي لنور الرسالة، والوريث الأكبر لهدى النبوة، ولذلك دور الأزهر مستمر باستمرار الإسلام، ولا زال الأزهر يغرس في النفوس ويرسخ في القلوب والعقول روح العفو والتسامح، ليس فقط مع المسلمين، بل ومع غيرهم، من أهل الديانات السماوية الأخرى، وهذا الأمر محور من محاور وسطيته، بل إنه قابل اتهام الكثير من الجهلاء للإسلام وأنه انتشر بالسيف، بالعفو والتسامح، وعرف الناس عظمة هذا الدين في التسامح مع الآخر والعفو عنه، بل وقرر ضمان حقهم في ديار المسلمين من حق المواطنة والحماية لهم، والدفاع عنهم، ومزاولة شعائرهم وعبادتهم بحرية وأمان، وهذا في حقيقته استمرار لمنهج النبوة الذي قرره سيدنا رسول الله ﷺ، وعمل به أصحابه من بعده من الوفاء بالعهد وتأمين أهل الذمة، والكف عن أذيتهم .

ويشهد التاريخ أنه عندما فتح عمرو بن العاص ﷺ مصر، أوصى أصحابه بأن يحسنوا معاملة القبط عملاً بالحديث النبوي الشريف عن ابن عباسٍ ﷺ قال : لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَقَالَ : ((إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَلَوْ عَاشَ لَعَتَقْتَ أَخَوَالَهُ الْقَبْطُ وَمَا اسْتَرْقَ قَبْطِي)) . (٤)

٢ - ذكره المقدسي في ((الآداب الشرعية)) (١ / ٣١٩) .

٣ - ((أدب المجالسة)) لابن عبد البر ص (١١٦) .

٤ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٨ / ١١٢) .

١ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (١ / ٤٨٤) حديث (١٥١١) .

والقبط منهم هاجر زوج إبراهيم أبي الأنبياء وأم إسماعيل أبي العرب عليهم السلام، كما أن منهم مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى الرسول ﷺ، وهي أم ولده إبراهيم عليه السلام . فحفظ عمرو بن العاص ﷺ الوصية، وعمل بها ولم يكن هو وجيشه كما كان عليه الغزاة من الوحشية التي يستخدمونها مع أهالي البلاد المفتوحة، من سفك للدماء وهتك للأعراض، ونهب للأموال والثروات، فإن عمرا ﷺ وجه أمرا صريحا إلى جنوده بأن يكفوا أيديهم عن أموال المصريين وأعراضهم وأن يتحلوا بالعفة وغض الأبصار عن النساء، وقد كان هذا عهدهم في كل حروبهم، كما أوصاهم رسول الله ﷺ : عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ﷺ قال: عَهْدَ إِيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا نَقْتُلَ صَبِيًّا وَلَا امْرَأَةً . (١)

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كان نبي الله ﷺ إذا بعث جيشا من المسلمين إلي المشركين قال : ((انطلقوا باسم الله ولا تقتلوا وليدا طفلا ولا امرأة ولا شيخا كبيرا ولا تغورن عينا ولا تعقرن شجرة إلا شجرا يمنعكم قتالا أو يحجز بينكم وبين المشركين ولا تمثلوا بآدمي ولا بهيمة ولا تغدروا ولا تغلوا)) . (٢)

وقد تركهم عمرو ﷺ أحراراً وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، ولم يضع عمرو ﷺ يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب. وفي هذا يقول توماس أرنولد: ((إن حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة . وإن كثيراً من نصارى مصر قد تركوا النصرانية بمثل السرعة والسهولة التي اعتنقوها بها في مستهل القرن الرابع الميلادي)) . (٣)

وهكذا نجد أن الأقباط لم يجدوا في المسلمين عدواً لدينهم، بل كفّلوا لهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وكانوا يقيمون احتفالات بأعيادهم الدينية كل عام، فقد كان للأقباط بمصر عند الفتح الإسلامي أربعة عشر عيداً في كل عام من أعوامهم القبطية، ولم يحد المسلمون من حرية الأقباط في احتفالاتهم بهذه الأعياد والمواسم . (٤)

٢ - أخرجه الطبري في ((المعجم الكبير)) (١٩ / ٧٤) رقم (١٤٧) .

٣ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٩ / ٩٠) حديث (١٧٩٣٤) .

٤ - ((الدعوة للإسلام)) للسير توماس أرنولد ، ترجمة الأستاذ حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النجراوي ص (١٢٣ - ١٢٥) .

١ - ((مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني)) للأستاذ علي إبراهيم حسن . ص (٤٩٦ - ٤٩٧) .

فقد كان الفتح الإسلامي لمصر ممهدا لانتشار الإسلام، ولكن السبب الحقيقي في انتشار الإسلام بها هو التسامح والعفو، ووسطية الإسلام التي ورثها الأزهر الشريف عنه منهجا اختصه لعلومه ومناهجه . مما نجم عنه بعد ذلك انتشار الدين وازدياد عدد المسلمين عن رضا واقتناع كاملين .

ولقد أقام علماء الأزهر الشريف أروع الأمثلة في التعامل مع نصارى مصر، حيث تعايشوا معهم بالبر والرحمة والإنصاف، فتربى المصري على التعامل مع أخيه المصري دون تفرقة بسبب الدين، وكذلك الوافدون على الأزهر للتعليم قد غرست فيهم هذه المبادئ، وكان هذا معلما بارزا من معالم الشخصية المصرية- والإسلامية - أوجده وكونه الأزهر بعلمائه ورجاله وفكره وفقهه للدين . (١)

وخير شاهد على هذا ما سجله التاريخ : أن حاكم مصر الوالي عباس الأول كان شديد النقمة على النصارى، وأخرج معظمهم من خدمة الحكومة، وأصابهم بألوان من الأذى والاضطهاد، وقد خطر له أن يخرجهم من مصر ويبعدهم إلى السودان، وعندما أراد استصدار فتوى من الأزهر بجواز ذلك استدعى الشيخ الباجوري شيخ الجامع الأزهر يومئذ وسأله في ذلك، وكان رد الشيخ الباجوري هو رفض رغبة الوالي قائلا : إنه إذا كان - يعني الذميين الذين هم من أهل البلاد- فالحمد لله لم يطرأ على ملة الإسلام طارئ ولم يستول عليه خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر . (٢)

﴿ دور الأزهر المأمول في إحياء قيمة العفو ﴾

إن قيمة العفو والتي ينتج عنها قيمة أخرى هي قرينة لها لا تفارقها، ألا وهي قيمة التسامح من أعظم القيم التي يجب على العلماء والمشايع أن يرسخوها ويؤصلوها في المجتمع المصري خاصة

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) . ص (٣٧) .

٣ - ((رسالة الأزهر)) إصدار شهر رمضان لعام ١٤٣٢ هـ .

وفي العالم الإسلامي عامة، وهذا الدور منوط بالأزهر الشريف وعلمائه، ذلك لأن الأمة تحتاج لهذه القيم في عصر تبدلت فيه الأحوال، وفسدت فيه الأخلاق، واستبدلت فيه القيم العربية والإسلامية الأصيلة بقيم غريبة علينا، دخيلة على مجتمعاتنا، فقد ظهرت الشحناء والبغضاء والخلاف والاختلاف، حتى تفرقت القلوب واختلفت الأهواء وتناقضت الآراء، وظهرت فيما بيننا مصطلحات المهدف منها التشكيك في الذمم والنوايا، مثل ما ظهر عقب ثورة ٢٥ يناير من مصطلحات سياسية تصم من يطلق عليها بالخيانة أو العمالة، مثل مصطلح : ((فلول)) على سبيل المثال ... وغيره ، مما ساعد على اتساع فجوة الاختلاف والمخالفة بين قلوب الأمة .

فما أحوجنا إلى قيمة وخلق العفو، وننسى ما مضى، وليبدأ المجتمع - كما يقال - صفحة جديدة، نصفي فيها اختلافاتنا السياسية والحزبية، ولا ننظر إلى الوراء، ولنشيع بين صفوف المجتمع المصري روح التسامح فيما بيننا، تسامحا اجتماعيا، وتسامحا أخلاقيا، وتسامحا دينيا واعتقاديا، وتسامحا سياسيا، ووقتها نستطيع أن نصنع بتوفيق الله تعالى أعجادا سيشهد لها التاريخ، ونبني أمة قوية عظيمة .

وبعدها ننظر إلى من يريد ألا يقبل هذه الروح، ولا ينهج سبيل هذه القيم، ويريد أن يشق صفوف الأمة والمجتمع فليحاسبوا لأنهم قد شذوا عن كيان الأمة وخرجوا من نسيجها، ومن يشذ يشذ بنفسه وعليها .



القيم الاجتماعية

﴿ قيمة العدالة ﴾

((العدالة)) الحكم بالحق، وهي من ((العدل)). وتعريفه في اللغة : ((العدل)) ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور. يقال : عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلا. وهو عادل، من قوم عدول. وفي أسمائه سبحانه ((العدل)) وهو : الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم . وهو في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل، وهو أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلا .

و((العدل)) : الحكم بالحق يقال: هو يقضي بالحق و يعدل. وهو حكم عادل ذو معدلة في حكمه . (١) و((العدل)) : المرضي من الناس قوله وحكمه. وهذا عدل . وهم عُدل . والعدولة والعدل : الحكم بالحق . (٢)

تعريفه اصطلاحاً : قيل : العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ماله . (٣) والعدل هو: كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات وترك الظلم والإنصاف وإعطاء الحق . (٤) وقيل : المراد بالعدل : العدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر . (٥)

﴿ العدل في القرآن ﴾

لقد ذكر الله تعالى العدل في القرآن في مواضع عديدة بلفظه أو بمرادفه في معناه كالقسط، و هذا لينبه عباده على أهمية العدل وفضله، وأنه هو السبيل للنجاة في الدارين، ومن هذه الآيات : قال تعالى معرفاً بصفته وأنه عدل مقسط بين عباده بالعدل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٨] وأمر عباده بالقسط والعدل فقال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء آية: ١٣٥] وقال تعالى : ﴿ وَإِن حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة المائدة آية: ٤٢] وقال سبحانه : ﴿ وَإِن طَافِئَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الحجرات آية: ٩] وقال سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا الزُّنُبَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [سورة الرحمن آية: ٩] وقال : ﴿ وَأَن تَقُومُوا لِلَّيْتَمَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء آية: ١٢٧] وقال سبحانه: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

١ - ((لسان العرب)) (١١ / ٤٣٠) .

٢ - ((العين)) (٢ / ٣٨) .

٣ - ((المفردات في غريب القرآن)) ص (١١٩) .

٤ - ((تفسير القرطبي)) (١٠ / ١٦٦) .

٥ - ((المفردات في غريب القرآن)) ص (٣٢٥) .

كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ أَعْدِلُوا هُوَ
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [سورة المائدة آية: ٨]

وعرفنا بذاته أنه العدل وحكمه عدل فقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١١٥] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٩٠]

وجعل العدل والقسط الصراط المستقيم الذي تسير عليه الحياة، ونهج الأنبياء والمصلحين من
بعدهم، فقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة الحديد آية: ٢٥] وقال ﷺ : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۚ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ
كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ٢٩] وقال
سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۚ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
الْعَذَابَ ۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة يونس آية: ٥٤] وغيرها من الآيات
البيّنات، التي أسست منهج العدالة، وحققت العدل ورسمت للإسلام منهجا سويا وصراطا
مستقيما، بهر به عقول أعدائه قبل أوليائه، فشهدوا بفضله : عن ابن عباس ؓ أن الوليد بن
المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن
قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم ؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله .
قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك إنك منكسر له أو إنك
كاره له . قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة
مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة
وإن عليه لطاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو. قال: لا يرضى عنك
قومك حتى تقول فيه . قال: فدعني حتى أفكر . فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يآثره عن غيره
فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [سورة المدثر آية: ١١] الآيات . (١) وقال عكرمة قرأ النبي
ﷺ على الوليد بن المغيرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ٩٠] فقال يا ابن

^١ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٢ / ٥٥٠) حديث (٣٨٧٢) .

أخي أعد. فأعاد عليه فقال: والله إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أصله لمورق وأعلاه لمثمر وما هو بقول بشر . (١)

﴿ العدل في السنة ﴾

لقد جاء ذكر العدل وفضله في سنة النبي ﷺ في كثير من الأحاديث، وكذلك نقل لنا الرواة أحوال عدله ﷺ لتكون نبراسا يقتدى به . عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ)) . (٢) وَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى)) . (٣)

ومن أخبار عدله ﷺ أنه وقف موقفا ليس لأحد به طاقة إلا هو ﷺ، من ذا الذي يقف من ملوك الأرض فيعلن أمام رعيته أنه يريد القصاص منه؟! من عنده سمو النفس الراضية المطمئنة كنفس رسول الله ﷺ يقف فينادي : من له حق علي يأخذه مني ؟ فداه نفسي ووالدي وولدي ﷺ لقد أعطانا المثل الأعلى والقدوة الحسنة من أقواله وأفعاله ﷺ فتعسا لمن لم يتبعه ولم يتخلق بأخلاقه من ملوك الأرض وعامة الخلق وخاصتهم، وهنيئا لمن اتبعه واقتفى آثاره ﷺ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ : جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ مَوْعُوكًا قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ . فَقَالَ : ((خُذْ يَدَيَّ يَا فَضْلُ)) . فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمِنْبَرِ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : ((صَبِّحْ فِي النَّاسِ)) . فَصَبَّحْتُ فِي النَّاسِ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَتْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : ((أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي حُقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ فَمَنْ كُنْتَ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرَهُ فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدِّ مِنْهُ، أَلَا وَمَنْ كُنْتَ شَتَمْتَ لَهُ عِرْضًا فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدِّ مِنْهُ، أَلَا لَا يَقُولَنَّ رَجُلٌ إِنِّي أَخَشَى الشَّحْنَاءَ مِنْ قَبْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . أَلَا وَإِنَّ الشَّحْنَاءَ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِي وَلَا مِنْ شَأْنِي، أَلَا وَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ حَقًّا إِنْ كَانَ لَهُ أَوْ حَلَلَنِي، فَلَقِيتُ اللَّهَ وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ، أَلَا وَإِنِّي لَا أَرَى ذَلِكَ مُغْنِيًا عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ مَرَارًا)) . ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَعَادَ لِمَقَالَتِهِ فِي الشَّحْنَاءِ وَغَيْرِهَا ثُمَّ قَالَ : ((أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَرُدَّهُ وَلَا يَقُولْ فُضُوحَ الدُّنْيَا وَإِنَّ فُضُوحَ الدُّنْيَا أَيْسَرُ مِنْ فُضُوحِ الْآخِرَةِ)) . فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي عِنْدَكَ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ . قَالَ : ((أَمَا إِنَّا لَا نُكَدِّبُ قَائِلًا وَلَا نَسْتَخْلِفُهُ فِيمَ صَارَتْ لَكَ عِنْدِي ؟)) .

١ - تفسير القرطبي (١٠ / ١٦٥) .

٢ - أخرجه النسائي في ((سننه الكبرى)) (٣ / ٤٦٠) حديث (٥٩١٦) .

٣ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٦ / ٤٩٠) .

قال : تَذَكَّرُ يَوْمَ مَرِّ بِكَ مِسْكِينٌ فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَدْفَعَهَا إِلَيْهِ ؟ . فقال : ((اذْفَعُهَا إِلَيْهِ يَا فَضْلُ)) . ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ : عِنْدِي ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ كُنْتَ غَلَّثْتَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . قَالَ : ((وَلِمَ غَلَّثْتَهَا ؟)) . قَالَ : كُنْتُ إِلَيْهَا مُحْتَاجًا . قَالَ : ((خُذْهَا يَا فَضْلُ)) . ثُمَّ قَالَ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ خَشِيَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا فَلْيَقُمْ أَدْعُو لَهُ)) . فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَكَذَّابٌ وَإِنِّي لَمُنَافِقٌ وَإِنِّي لَكَاوِمٌ . قَالَ : ((اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقًا وَإِيمَانًا وَأَذْهَبْ عَنْهُ النَّوْمَ إِذَا أَرَادَ)) . ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَكَذَّابٌ وَإِنِّي لَمُنَافِقٌ وَمَا شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أَتَيْتُهُ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا هَذَا فَضَحْتَ نَفْسَكَ . فَقَالَ : ((مَهْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ فَضُوحُ الدُّنْيَا أَيْسَرُ مِنْ فَضُوحِ الْآخِرَةِ)) . ثُمَّ قَالَ : ((اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقًا وَإِيمَانًا وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى خَيْرٍ)) . فَكَلَّمَهُمْ عُمَرُ بِكَلِمَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرُ مَعِيَ وَأَنَا مَعَهُ وَالْحَقُّ بَعْدِي مَعَ عُمَرَ حَيْثُ كَانَ)) . (١)

وعن خَوْلَةَ امْرَأَةِ حَمْزَةَ ؓ قَالَتْ : كَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَقٌ مِنْ تَمَرٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ فَأَتَاهُ يَفْضِيهِ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَفْضِيَهُ فَقَضَاهُ تَمَرًا دُونَ تَمَرِهِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ . فَقَالَ : أَتَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! . فَقَالَ : نَعَمْ وَمَنْ أَحَقُّ بِالْعَدْلِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! . فَكَتَحَلَتْ عَيْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِدُمُوعِهِ ثُمَّ قَالَ : ((صَدَقَ مَنْ أَحَقُّ بِالْعَدْلِ مِنِّي لَا قَدَسَ اللَّهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ شَدِيدِهَا وَهُوَ لَا يَتَعْتَعَهُ)) . ثُمَّ قَالَ : ((يَا خَوْلَةُ عَدِيدِهِ وَأَذْهَبِيهِ (١) وَأَقْضِيهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ غَرِيمٍ يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِ غَرِيمِهِ رَاضِيًا إِلَّا صَلَّتَ عَلَيْهِ دَوَابُّ الْبَرِّ وَتُؤَنُّ الْبِحَارُ ، وَلَيْسَ مِنْ غَرِيمٍ يَلُوي غَرِيمَهُ وَهُوَ يَجِدُّ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِثْمًا)) . (٢)

وعن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ)) . (٣) وعن عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهْمَهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْرُومَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا : مَنْ يَكَلِّمْ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟!)) . ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ : ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ

(١) - أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٠/١٨) (٧١٨) .

(٢) - انتقيه ونظفيه .

(٣) - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢٤ / ٢٣٤) برقم (٥٩٢) .

(٤) - متفق عليه .

تَرْكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيَّمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)) . (١)

ولقد ربي النبي ﷺ أمته وخلفائها على العدل، وجعله أساساً من أساس التعامل الاجتماعي، و أساساً من أساس الحكم بين الناس، وصفة لا بد أن تتوفر في الحاكم، وكذلك في الرعية فيما بينهم . وإن تحقيق العدل أعظم هدف في الحياة الإنسانية؛ وبدون العدل سيبقى المجتمع متخلفاً وراقداً في سبات عميق، وبدون العدالة الاجتماعية سيبقى الأحمق في خانة الحكيم وسيبقى الجاهل في مركز المتعلم . فالعدل قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح العباد والبلاد، به قامت السموات والأرض، وتألقت به الضمائر والقلوب، والتأمت به الأمم والشعوب، وشمل به الناس التناصف والتعاطف، وضمهم به التواصل والتجانس، وارتفع به التقاطع والتخالف . وضعه الله تعالى لتوزع به الأنصبة والحقوق، وتقدر به الأعمال والأشخاص، إذ هو الميزان المستقيم، الذي لا تميل كفته، ولا يختل وزنه، ولا يضطرب مقياسه، فمن رام مخالفته، وقصد مُجانبته، عرّض دينه للخبال، وعمرانه للخراب، وعزته للهوان، وكثرته للنقصان، وما من شيء قام على العدل واستقام عليه، إلا آمن الانعدام، وسلم من الانهيار .

والعدل قيمة ضرورية في الإسلام عمل الإسلام على إثباتها، وترسيخها بين الناس، حتى ارتبطت بها جميع مناحي تشريعاته ومناهجه ونظمه، فلا يوجد نظام في الإسلام إلا وللعدل فيه مطلب، فهو مرتبط بنظام الإدارة والحكم، والقضاء، وأداء الشهادة، وكتابة العهود والمواثيق بل إنه مرتبط أيضاً بنظام الأسرة والتربية، والاقتصاد والاجتماع، والسلوك، والتفكير، إلى غير ذلك من أنظمة الإسلام المختلفة وهذا يدل بوضوح على أن الإسلام ضمن قيمة العدل في جميع مجالات الحياة .

﴿ أقسام العدل ﴾

(١) - ((عدل فردي)) : وهو خلق يدل على التوازن النفسي لدى الفرد، ويسميه علماء السلوك ((الاعتدال))، وذلك أن تناسب قوى الإنسان الثلاث ((العقل والغضب والشهوة)) وهو أمر

راجع إلى الإنسان نفسه إما لذاته وطبعه، نتيجة تأملاته وأفكاره الفردية، وإما بتأثير غيره عليه عن طريق العلم والمعرفة والإدراك .

(٢) - **عدل جماعي** : وهو رعاية حقوق الآخرين، وما يجب نحوهم من احترام وتقدير، أي أن الإنسان يعتدل في أخذ ما له من حقوق، وأداء ما عليه من واجبات. مثل عدل الإنسان في بيعه وشرائه، وفي حكمه وقضائه، وشهادته وأمانته، ومنعه وعطائه، وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية الكثيرة، التي يجري فيها العدل بين الفرد وغيره. سواء في هذا الحاكم أو الرئيس وهو إنسان فرد كغيره من أفراد الأمة، يجب عليه تجاه الجماعة أن يتبع قواعد العدل في توليتها، وذلك بإسناد الأعمال إلى أهلها من ذوي الكفاءة والخبرة. والقاضي يجب أن يراعي العدل بين الخصمين بإعطاء كل ذي حق حقه، وإلزام من عليه الحق أن يدفعه لمستحقه.... إلخ .

والله تعالى ينصر دولة العدل وإن كانت كافرة، ويهزم دولة الجور وإن كانت مسلمة، ولنا في عدل الفاروق رضي الله عنه مثلاً وشاهداً، الذي علم الأمم كيف تبنى الأمم والدول على قيمة العدل الذي يحقق أمناً واستقراراً للحاكم والمحكوم على السواء : وفي سنة سبع عشرة جيء إلى عمر بالهرمزان ملك الأهواز أسيراً ومعه وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، فلما وصلوا به إلى المدينة ألبسوه كسوته من الديباج المذهب، ووضعوا على رأسه تاجه وهو مكلل بالياقوت ليراه عمر والمسلمون على هيئته التي يكون عليها في ملكه، فطلبوا عمر فلم يجدوه، فسألوا عنه فقيل: هو في المسجد . فأتوه فإذا هو نائم، فجلسوا دونه، فقال الهرمزان : أين هو عمر ؟ . قالوا : هو ذا . قال: فأين حرسه وحجابه ؟. قالوا : ليس له حارس ولا حاجب . فنظر الهرمزان إلى عمر وقال : عدلت فأمنت فنمت . واستيقظ عمر لجلبة الناس فقال: الهرمزان ؟. قالوا : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه. وأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوباً ضيقاً . فقال عمر : كيف رأيت عاقبة أمر الله فيك ؟. فقال الهرمزان : لما خلى الله بيننا وبينكم في الجاهلية غلبناكم، ولما كان الله الآن معكم غلبتمونا . (١)

وقد حكى عن يزدجرد بن شهريار آخر ملوك العجم أنه بعث رسولا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمره أن ينظر في شمائله فلما دخل المدينة قال: أين ملككم ؟. قالوا : ليس لنا ملك لنا أمير خرج برا . فخرج الرجل في أثره فوجده نائماً في الشمس ودرته تحت رأسه وقد عرق جبينه حتى ابتلت منه الأرض . فلما رآه على حالته قال : عدلت فأمنت فنمت، وصاحبنا جار فخاف فسهر، أشهد أن الدين دينكم ولولا أني رسول لأسلمت وسأعود بإذن الله تعالى . (٢)

١ - ((الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى)) (١ / ٨٤) .

٢ - ((فضائح الباطنية)) لأبي حامد الغزالي ص (٢١٢) .

و قال رسول ملك الروم لعمر عليه السلام وقد طلبه فوجده نائما في المسجد: عدلت فأمنت فنمت،
وجرنا فخفنا فحرسنا . (١)

﴿ العدالة الاجتماعية ﴾

إن كثيرا ما يرتبط مفهوم العدالة الاجتماعية والعدل، ذلك لأن العدل هو الصفة والخلق والقيمة، والعدالة هي التطبيق العملي له .

وقضية العدالة الاجتماعية من القضايا المهمة، والتي ترتب عليها تحولات تاريخية مهمة، بل حيزت أهم محور في الثورات والانتفاضات والحروب في التاريخ الإنساني، وفي القرون الأخيرة تشكلت الأنظمة الاقتصادية وفق رؤى خاصة حول مجمل محاور النشاط الاقتصادي، وكان من أهم هذه المحاور والتي كنت تعطي الصبغة الأساسية للنظام الاقتصادي هو نظريته لآلية توزيع الثروات، وما ترتب عليها من تفاوت في الدخل، ومدى قدرة هذا النظام على إشباع الحاجات، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع . (٢)

والعدالة هي التقدير الصحيح والاعتراف الكامل بحقوق وجدارة كل فرد واحترامها . وهي إعطاء كل شخص حقه . ويستخدم مفهوم العدالة الاجتماعية في كثير من المجتمعات كشعار براق يتاجر به من يتاجر دون أن يحققها بمضمونها الصحيح، كما هو الحال في كثير من المجتمعات الغربية . بل إن النتائج تشير إلى غياب العدالة الاجتماعية في معظم المجتمعات، وحدوث انتهاكات لا حدود لها لحقوق أفراد المجتمع وحريرتهم، وتجارتهم بمثل هذه الشعارات لا تصب إلا في مصالحهم فقط، في حين لا يريدون خيرا لغيرهم من المجتمعات خاصة العربية والإسلامية .

ومن الأمثلة والأدلة على ما نقول : سجل استخدام الولايات المتحدة لحق النقض ((الفيتو)) في مجلس الأمن الدولي المؤسسة الحامية والراعية لحقوق الإنسان في العالم . فبالنسبة للقضية الفلسطينية، فقد استخدمت أمريكا الفيتو (٧٢) مرة في الفترة من (عام ١٩٦٨ إلى ١٩٩٨) لإجهاض قرارات تتعلق بالحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني، مثل القرارات التي تستنكر التكرّر لحق العودة للاجئين الفلسطينيين، ومصادرة الأراضي الفلسطينية، وبناء المستعمرات الصهيونية، وانتهاك المقدسات الدينية، والتعذيب، وضرب النساء الحوامل والتسبب

١ - ((رسل الملوك) لابن الفراء ص (٨٤) .

٢ - ((العدالة الاجتماعية في الاقتصاد الإسلامي)) للدكتور محمد يحيى محمد الكبسي ص (٢) .

في إسقاط الجنين، وإغلاق حضانات الأطفال والمدارس، وصلاحية تطبيق معاهدة جنيف الرابعة، وميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي . وبالتحديد صوتت الولايات المتحدة الأمريكية ضد القرار رقم (٣) ١٩٨٣ م والذي أقر في (١٥ شباط ١٩٨٣) والذي يستنكر مذابح مخيمي اللاجئين الفلسطينيين ((صبرا وشاتيلا)) والقرار رقم (٣) ١٩٨٧ م والذي أقر في ٢٠ شباط ١٩٨٧ م والذي يستنكر سياسة ((القبض الحديدي)) سياسة تكسير عظام الأطفال الذين يرمون الحجارة خلال الانتفاضة الأولى .

﴿ التكافل الاجتماعي صورة من العدالة الاجتماعية ﴾

وللعدالة الاجتماعية صور منها : التكافل الاجتماعي وهو: أن يتضامن أبناء المجتمع ويتساندوا فيما بينهم سواء أكانوا أفراداً أو جماعات، حُكماً أو محكومين على اتخاذ مواقف إيجابية كمرعية الأيتام، ونشر العلم... وغير ذلك، بدافع من شعور وجداني عميق ينبع من أصل العقيدة الإسلامية، ليعيش الفرد في كفالة الجماعة، وتعيش الجماعة بموازنة الفرد، حيث يتعاون الجميع ويتضامنون لإيجاد المجتمع الأفضل، ودفع الضرر عن أفرادهِ .^(١)

ويتميز التكافل الاجتماعي في الإسلام عن بقية الأنظمة التكافلية الوضعية بالنظرة الشمولية التي لا تقتصر على النواحي المادية في المجتمع؛ بل تشمل سائر المناحي الأدبية والروحية من حب وتعاطف وتعاون وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر .^(٢)

وإن كان الضمان الاجتماعي موجوداً في الأنظمة الاقتصادية الوضعية، فإنَّ التكافل في الاقتصاد الإسلامي يتميز بعدد من الميزات منها^(٣) :

١ - بسبقه الزمني، وشوْله الزماني والمكاني، ولكل أصناف المحتاجين، فهو يشمل الأجيال المختلفة، كما يشمل الأقطار المختلفة.

٢ - بدرجة الإلزام به، فالزكاة كأداة رئيسة من أدوات التكافل، هي قبل ذلك فريضة وركن من أركان الإسلام .

٣ - تعدي المسؤولية عنه من مستوى الفرد والأسرة إلى المجتمع باختلاف دوائره والدولة .^(٤)

١ - ((التكافل الاجتماعي في الإسلام)) للأستاذ عبد الله علوان . ص (١٥) .

٢ - ((التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية)) . للأستاذ محمد الصالح . ص (١٧-١٨) .

٣ - ((دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي)) للدكتور يوسف القرضاوي . ص (٤٠١) .

٤ - ((العدالة الاجتماعية في الاقتصاد الإسلامي)) ص (٧ - ٨) .

﴿ من حقوق المرأة في عدل الإسلام ﴾

جاء الإسلام ووضع المرأة في مكانها الطبيعي، وأعاد إ
ليها حقوقها ومكانتها التي سلّبت منها، تحت ظلام الجهل وفساد العادات والتقاليد في الأمم
السابقة . فأكد الإسلام على وحدة الأصل والنشأة بين الذكر والأنثى، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ أَتَقُولُوا لَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ [سورة النساء آية: ١] ونظر
إليها الإسلام على أنها هدية من الله، وقدم القرآن ذكرها على الذكور، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ
ذُكْرَانًا وَإِنثًا ۝ يُجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۝ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝﴾ [سورة الشورى آية: ٤٩ - ٥٠]

كما كرم الإسلام المرأة فمنحها أهلية التعبير عن إرادتها في أخص شؤون حياتها، وهو
الزواج عن أبي سلمة أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ۞ حَدَّثَنِي: أَنَّ النَّبِيَّ ۞ قَالَ: ((لَا تُنْكَحُ الْاَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ
وَلَا تُنْكَحُ الْبَكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ)) . قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ إِذْنُهَا ؟. قال : ((أَنْ تُسَكَّتَ)) .
(١)

ومنحها العديد من الحقوق كحرية التملك والتصرف كما تشاء ، على قدم المساواة مع الرجل،
قال تعالى : ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا
۝﴾ [سورة النساء آية: ٤] وقال سبحانه : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ
نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝﴾ [سورة النساء آية: ٧]
وساوى القرآن بينها وبين الرجل أمام القانون في الحقوق والواجبات؛ كحق إبرام العقود وتحمل
الالتزامات، وحق الدفاع عن حقوقها أمام القضاء. فقال تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ
بِالْعُرُوفِ ۝﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٨]

وبجمل القول : لقد جاء الإسلام بقيم ومبادئ ترفع من مكانة المرأة وتصون لها كرامتها،
وسنذكر هذا قريبا بشيء من التفصيل في القيمة الاجتماعية : ((احترام حقوق المرأة)) إن شاء
الله تعالى .

(١) - متفق عليه .

﴿ ثمرات العدل ﴾

إن المجتمع الذي يضمن نظامه العدل، يجني في حياته ثمرات عظيمة ومنافع كثيرة، نذكر منها ما يلي:

- ١ - شعور الناس بالاطمئنان والاستقرار، مما يدفعهم إلى الإقبال على العمل والإنتاج، بما فيه نماء العمران واتساعه، وكثرة الخيرات وزيادة الأموال والأرزاق .
- ٢ - أنه يضمن للمجتمع الاستقرار والرضا، ويجنب المجتمعات الاضطراب والفن والقلق .
- ٣ - يورث المحبة بين كل طبقات المجتمع، بين الحاكم والرعية، وغنيهم وفقيرهم، وبين كل أفراد المجتمع .

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة العدل وتحقيق العدالة ﴾

لقد رسخ الأزهر الشريف وعلماءه قيمة العدل، وتطبيق العدالة في المجتمع وتحقيقها بين الناس، وكانت من أكبر همومهم ومطالبهم التي خرجوا مع الناس في المطالبة بها ومواجهة الطغيان والاستبداد، وقد سجل التاريخ لهم العديد من المواقف التاريخية المشرفة، ولما كانت العدالة الاجتماعية متعددة الوجوه، فقد ضرب علماء الأزهر المثل الأعلى فيها على تعدد صورها ووجوهها، فمثلا في ضمان العدالة الاجتماعية الاقتصادية :

نجد الشيخ حسن كريت الفقيه المالكي المجاهد، لما أراد الأتراك أن يفرضوا ضرائب باهظة على أهل رشيد، وطلبوا منهم الأموال والكلف الشاقة، وأخذوا ما وجدوه بها من الأرز للعليق، خرج كبيرهم السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخذا بك، وتكلم معهما وشنع عليهما. وقال: أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العساكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال، ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل ؟ . فدعونا نخرج بأموالنا وعيالنا ولا نأخذ معنا شيئا ونترك لكم البلدة افعلوا بها ما شئتم . فلاطفوه في الجواب، وأظهروا له الاهتمام بالمناداة والمنع .^(١)

- ضمان العدالة الاجتماعية السياسية ضمانا للاستقرار والأمن :

ومن ذلك أيضا ما قام به العلماء حينما أصدر وزير مصر مصطفى باشا فرمانا بنفي ثمانية وعشرين أميراً وقائدا عسكرياً من خصومه السياسيين بعد تجريدهم من مناصبهم وأموالهم، فاتجه

^١ - ((عجائب الآثار)) (٤ / ٩٢) .

أكثر هؤلاء الأمراء إلى الجامع الأزهر للاحتماء بجرمه والاستنجاد بعلمائه، فما كان من علماء الجامع الأزهر إلا أن عقدوا اجتماعاً برئاسة الشيخ سلطان المزاخي الشافعي شيخ الأزهر (١٠٧٥ هـ - ١٦٦١ م) في السابع عشر من ربيع الأول عام (١٠٧١ هـ) للتباحث حول مسألة هؤلاء الفقاريين اللاجئين إلى الجامع الأزهر، واتفقوا في نهاية اجتماعهم على فرض الحماية هؤلاء اللاجئين، والمطالبة برد حقوقهم، كما اتفقوا على انتداب أربعة من كبار علمائهم ليتباحثوا مع الوزير مصطفى باشا حول حرية وأمن وحقوق هؤلاء اللاجئين، ووقع الاختيار على كل من العالم سلطان المزاخي الشافعي، والشيخ العالم على الشيراملسي الشافعي، والشيخ العالم محمد المتولي، والشيخ العالم موسى القليمي، وصعد هؤلاء الشيوخ الأربعة إلى القلعة واجتمعوا بالوزير مصطفى باشا فعرفوه بمجيء الجند إلى الجامع الأزهر، بعد سماعهم نبأ خروجهم من مصر مع قطع مرتباتهم وضبط بلادهم، وأكد العلماء أن هذا الأمر لا يجوز لأنه لو وقعت منهم ذنوب وكانت تغفر بالتوبة فقد تابوا، واستطاع العلماء أن يقنعوا الوزير بمساعدهم، ونجحوا في حماية هؤلاء الأمراء واستصدار أمر بالصفح عنهم، بل وأصروا على أن تبقى الحجة المتضمنة للعفو عن هؤلاء في أيديهم هم .^(١)

- وكذلك عملوا على تحقيق العدالة الاجتماعية في ضمان حقوق الملكية والانتفاع بها، ومن هذا ما ذكره الجبرتي يقول : وقعت حادثة في طائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر وذلك أنه آل إليهم مكان موقوف، وجحد واضح اليد ذلك والتجأ إلى بعض الأمراء، وكتبوا فتوى في شأن ذلك، واختلفوا في ثبوت الوقف بالإشاعة، ثم أقاموا الدعاوى في المحكمة، وثبت الحق للمغاربة، ووقع بينهم منازعات وعزلوا شيخهم وولوا آخراً، وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخاً منهم يسمى الشيخ عباس، والأمير المنتجى إليه الخصم يوسف بك، فلما ترافعوا وظهر الحق على خلاف غرض الأمير حنق لذلك ونسبهم إلى ارتكاب الباطل، فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين، فطردوا المعينين وشتموهم وأخبروا الشيخ أحمد الدردير، فكتب مراسلة إلى يوسف بك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاودة الحكم الشرعي، وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوي وآخرين، فعندما وصلوا إليه وأعطوه التذكرة نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس، ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع، فاجتمعوا في صبحها وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات، وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء، وأغلق أهل الأسواق القرية الحوانيت، وبلغ الأمراء ذلك فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين،

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٨ - ٣٩) .

وأرسل إبراهيم بك من طرفه، إبراهيم أغا بيت المال فلم يأخذ جوابا، وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان، وأمر بفتح الحوانيت فبلغ مجاوري المغاربة ذلك فذهب إليه طائفة منهم، وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي والمسلوق وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه فقتل من مجاوري المغاربة ثلاثة أنفار، وانجرح منهم كذلك ومن العامة، وذهب الأغا ورجع الفريق الآخر، وبقي المهرج إلى ثاني يوم فحضر إسماعيل بك والشيخ السادات وعلي أغا كتحدا الجاويشية وحسن أغا وآغات المتفرقة والترجمان وحسن أفندي كاتب حوالة وغيرهم، فنزلوا الأشرفية وأرسلوا إلى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب، وكان ذلك عند الغروب، فلم يرضوا بمجرد الوعد وطلبوا الجامكية والجراية، فركبوا ورجعوا وأصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو عليه وإسماعيل بك مظهر الإهتمام لنصرة أهل الأزهر، فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع المؤيدي، وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ إبراهيم السندوبي ملخصها : أن إسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء حوائجهم وقبول فتواهم وصرف حكايتهم وجراياتهم، وذلك بضمان الشيخ السادات له ... (١)

- وكذلك عملهم على تحقيق العدالة الاجتماعية بإقرار الأمن للمواطنين، ورفع الظلم والاضطهاد عنهم، وضمان معيشة كريمة لهم، وهذا ما أخبرنا عنه الجبرتي من مواقف الشيخ الشرقاوي رحمه الله فيقول : ويذكر من أحداث سنة تسع ومائتي وألف، وفي شهر ذي الحجة وقع به من الحوادث أن الشيخ الشرقاوي له ضيعة في قرية بشرقية بليس حضر إليه أهلها وشكوا من محمد بك الألفي، وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا منهم مالا قدرة لهم عليه، و استغاثوا بالشيخ، فاغتاز وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع، وذلك بعد ما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبدوا شيئا، ففعل ذلك في ثاني يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت، ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات، وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك وقد بلغه اجتماعهم، فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم، فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع، وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها . فقال : لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات . فقيل له : هذا ليس

١ - ((عجائب الآثار)) (١ / ٤٩٦ - ٤٩٧) .

بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء الممالك، والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ . فقال: حتى أبلغ . وانصرف ولم يعد لهم بجواب وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد، وأرسل إبراهيم بك إلى المشايخ بعضهم ويقول لهم : أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي. وأرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك فبعث مراد بك يقول: أجيئكم إلى جميع ما ذكرتموه .. إلخ. (١)

وغيرها من المواقف الكثيرة التي تدل على حرص الأزهر وعلمائه على تحقيق العدالة بكل صورها، وقد كان الأزهر وعلماءه حاجزا بين الناس ووقوع الظلم عليهم . وقد قال راغب باشا أحد ولاة مصر عن الشيخ العلامة محمد الحفني : إن الشيخ محمد الحفني سقّف أهل مصر يمنع عنهم نزول البلاء . وكان كما يقول الجبرتي : لا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه وإذنه . (٢)

﴿ دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة العدل ﴾

إن المأمول في دور الأزهر في واقعنا المعاصر أمل تشتاق إليه النفوس، ولكنه لن يتحقق إلا بمعاونة الدولة له ولعلمائه، وذلك بتزويد الأزهر بما يحتاجه من نفقات حتى يستطيع توصيل رسالته إلى العالم، وإلى المجتمع المصري خاصة، من غرس العدل في نفوسهم عبر وسائل الإعلام المختلفة، وكذلك بتفويضه في حل مشاكل الناس الاجتماعية والمالية، ودعمه في الأنشطة الخيرية وإشرافه على أموال الزكاة وصرفها في مصارفها، وتكوين لجان للإشراف على هذا العمل من خبراء الاقتصاد وغيرهم من الشرفاء الذين ينشدون بناء الوطن .

كذلك دعم مستوى الدعاة الأزهرين ماديا واجتماعيا، وكفالة حصانة قانونية لهم، حتى ترجع هيئة علماء الأزهر مرة أخرى، مع تدريبهم على الأعمال والأنشطة والمهارات التي تتوافق مع العصر الحديث وآلياته المتقدمة، والعمل على الرقي بمستواهم العلمي، وقتها ستتغير خريطة العالم إلى أحسن حال يُرضي .

﴿ قيمة الحرية ﴾

^١ - ((عجائب الآثار)) (٢ / ١٦٦ - ١٦٧) .

^٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٤٠) .

تعريف الحرية : ((الحرية)) لغة من : حرر : أي أعتق وصار حراً .^(١) وتأتي الحرية بمعنى من لم تملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية .^(٢) أو : بأنها ما يميز الإنسان عن غيره، ويتمكن بها من الممارسة والاختيار دون إكراه ضمن حدود معينة .^(٣)

﴿ مفهوم مصطلح الحرية ﴾

ويعتبر مصطلح ((الحرية)) من المصطلحات التي تختلف الناس في مفهومها اختلافاً كثيراً من مجتمع لآخر ومن عصر إلى عصر، ومن ثقافة إلى أخرى، بل ومن فرد إلى آخر، شأنها شأن سائر المصطلحات المتعلقة بالنشاط البشري، فهي في تطور مستمر لا يتوقف ولا يركد إذ هو حاجة إنسانية ولازم اجتماعي، يؤكد للإنسان كرامته وإنسانيته.

والحرية نسبية لا مطلقة، لأن الإنسان إذا أراد أن يعيش في مجتمع فلا بد أن يتنازل عن جزء من حريته، لهذا فكل ما ينقص من حرية الفرد يزيد من حرية المجتمع والعكس صحيح، لذلك كان شرطاً أساسياً للاستمتاع بالحرية أن لا تتعدى على حرية الآخرين، وهي الحرية المسئولة. لأن الفرد لا يمكن أن يكون فرداً خالصاً ذا كيان مستقل مقابل لوجود المجتمع، إلا إذا تصورنا جديلاً أنه قد اعتزله تمام الاعتزال، بجسمه وأفكاره ومعاملاته جميعاً وهذا أمر مستحيل الحدوث عملياً .

(٤)

﴿ مفهوم الحرية في الإسلام ﴾

((الحرية)) : ضد العبودية. والحر: ضد العبد، وتحرير الرقبة :عتقها من الرق والعبودية . فالحرية: هي الإباحة التي تمكن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته، في أي ميدان من ميادين الفعل والقول والفكر، وبأي لون من ألوان التعبير ما دام لا يخالف الأصول الإسلامية الثابتة . وفي المصطلح القرآني، الذي يقابل بين الحر والعبد ذكر الله تعالى الحرية ومرادفاتها بالتصريح، كالحديث عن التحرير أو ذكر الحر، أو بمعناها وهي حرية الإرادة والمشئنة، بل إن

١ - ((مختار الصحاح)) ص (١٢٩) .

٢ - ((المفردات في غريب القرآن)) ص (١١١) .

٣ - ((حق الحرية في العالم)) . للدكتور وهبة الزحيلي ص (٣٩) .

٤ - ((الإنسان بين المادية والإسلام)) للأستاذ محمد قطب . ص (١١١) .

القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي دعا إلى الحرية والتحرر من رق البشر، بل وتجد تكرار ذكرها، ومن المعروف في أساليب العرب في كلامها أن من أسباب تكرار الشيء هو لفت الانتباه إليه وتأكيد فضيلته في النفوس والعقول بل والقلوب، كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ

عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ۖ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ [سورة البقرة آية: ١٧٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ۖ﴾ [سورة النساء آية: ٩٢] وقال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَرْتُمْ بِهِ ۖ فَطَعَامٌ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ [سورة المائدة آية: ٨٩] وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوَعُّظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٩٠﴾ [سورة المجادلة آية: ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَذَرَكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿٩١﴾ فَكَ رَقَبَةٌ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة البلد آية: ١٣] فكها خلاصها من الأسر. وقيل: من الرق. (١)

وورد معناها وهو العتق الذي هو المهيب للحرية والسبب فيها في سنة النبي ﷺ ومن هذا ما روي: عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار حتى يعتق فرجه بفرجه)). (٢)

وهذا يؤكد حرص الإسلام على قيمة الحرية للإنسان ومحاربتة للرق، ويحث المسلم على فضيلة تحرير الناس من رق العبودية حين يبين فضل هذا العمل العظيم.

وعن البراء بن عازب ؓ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله علمني علما يدخلني الجنة. قال: ((لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك

١ - ((تفسير القرطبي)) (٢٠ / ٦٨).

٢ - متفق عليه.

(الرقبة) . قال أوليسا واحدا ؟ . قال : ((لا . عتق النسمة أن تنفرد بعقتها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها)) . (١)

وذكرت الحرية بمعناها، مثل لفظ المشيئة: لأن المشيئة هي لازم الإرادة، والإرادة لا تكون إلا عن حرية فقال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۖ ﴾ [سورة الكهف آية: ٢٩] ومن أعظم الأمثال استشهادا بها من المأثورات الإسلامية كلمات عمر بن الخطاب ؓ التي يقول فيها : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . (٢)

ومما قرره الإسلام شرعا وعرفا أن الله ﷻ قد خلق الإنسان ليعيش في حرية تامة في ظل القيم التي أمره بها، والشرائع التي نهجها له منهاجا واضحا وطريقا مستقيما يسمو به وبكرامته، مع التمييز بين حرية الحركة وبين حرية النفس الحقيقية، فالمرء قد يكون حراً في استعمال أمواله، وفي طعامه وشرابه، وفي أسفاره وتنقلاته، وقد يكون حراً في علاقاته الاجتماعية، وقد يكون حراً في امتلاك أي شيء في هذه الحياة، ولا يكون محتقراً بسبب لونه أو جنسه أو دينه . وهذا كله من الحقوق التي كفلها الإسلام للإنسانية جميعها لا المسلمين فقط، وجعلها من الحقوق الواجبة للإنسان عامة، ولا أدل على هذا من ذلك الميثاق النبوي الذي أعلنه النبي ﷺ ليقرر فيه بعض حقوق الإنسان في هذه الحياة ليسود بها الاحترام والعدالة والمساواة والحرية : عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال : ((يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى . أبلغت ؟)) . قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ثم قال : ((أي يوم هذا ؟)) . قالوا : يوم حرام . ثم قال : ((أي شهر هذا ؟)) . قالوا : شهر حرام . قال : ثم قال : ((أي بلد هذا ؟)) . قالوا : بلد حرام . قال : ((فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم)) . قال ولا أدري قال : أو : ((أعراضكم)) أم لا ؟ . ((كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . أبلغت ؟)) . قالوا : بلغ رسول الله ﷺ قال : ((ليبلغ الشاهد الغائب)) . (٣)

١ _ أخرجه البغوي في ((تفسيره)) (٤ / ٤٩٠) .

٢ _ أخرجه ابن عبد الحكم في ((فتوح مصر)) ص (٢٩٠) .

٣ _ أخرجه أحمد في ((مسنده)) (٥ / ٤١١) حديث (٢٣٥٣٦) .

وقد كان ﷺ يراعي شعور الإنسان الذي وقع في أسر الرق، فكره إطلاق لفظ ((العبد)) و((العبدية))، مراعاة للشعور الآدمي، مما يدل على أن الإسلام قد عظم الحريات واحترم البشر ودعا إلى هذه القيم الأخلاقية الراقية : عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : ((لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اسْقِ رَبَّكَ . أَطْعِمْ رَبَّكَ . وَضِيْ رَبَّكَ . وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : رَبِّيْ . وَلْيَقُلْ : سَيِّدِيْ . مَوْلَايَ . وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِيْ . أَمْتِيْ . وَلْيَقُلْ : فَتَايَ فَتَاتِيْ غُلَامِيْ)) . (١)

﴿ الحرية من أعظم حقوق الإنسانية ﴾

إن الحرية مفهوم شغل الإنسان منذ فجر البشرية، وسيشغله ما دام هناك بشر على هذا الكوكب، لأنها قضية إنسانية، وحق واجب من حقوق البشرية . غير أن مفهومها يختلف من ثقافة إلى أخرى ومن إنسان إلى آخر، فهناك من يظن أن الإنسان يكون حراً إذا كان يفعل كل ما يحلو له بدون وجود أي اعتبار لأي مبدأ، سواء كان مبدأ إلهياً أو أخلاقياً أو اجتماعياً . وفي مجال السياسة ينادي البشر في كل مكان من العالم بالحرية، وتختلف الآراء حول معنى الحرية السياسية، فمنهم من يعتبرها التعبير بحرية عن آرائه السياسية الخاصة بمجتمعهم بدون قيود رقابية أو محاسبة من الدولة، ومنهم من يراها الثورات على النظم الحكومية لمجرد الاختلاف مع حزبه أو اتجاهه السياسي، وأن من حقه أن يثور متى شاء ليغير ما يشاء، ومنهم من يراها عدم تدخل الأجهزة الرقابية بالتسلط والقهر في الحياة المجتمعية والسياسية للشعوب، ولكن مع كل هذا الاختلاف في وجهات النظر والفهم للحرية هناك اتفاق على أنها حق واجب لكرامة الإنسان .

﴿ الحرية في مفهوم الصالحين ﴾

١ (- متفق عليه .

قالوا : ((الحرية)) : أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته: سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء، فيتساوى عنده أخطار الأعراض . واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية؛ فإذا صدقت لله تعالى عبوديته خلصت عن رق الأغيار إلى حريته . فأما من توهم أن العبد يسلم له أن يخلع وقتاً عذار العبودية، ويحيد بلحظه عن حد الأمر والنهي و هو مميز، في دار التكليف فذلك انسلاخ من الدين .

والذي أشار إليه القوم من الحرية هو: أن لا يكون العبد تحت رق شيء من المخلوقات لا من أعراض الدنيا، ولا من أعراض الآخرة؛ فرداً لفرد لم يسترقه عاجل دنيا، ولا حاصل هوى، ولا أجل منى ولا سؤال، ولا قصد ولا أرب ولا حظ . قال الحسين بن منصور: من أراد الحرية فليصل العبودية . (١)

وهذا الفهم هو أصدقه في فهم حقيقة الحرية، فكثير من أصحاب المفاهيم المغلوطة اليوم يفهم أن الحرية هي التمرد على كل شيء من الثوابت والأصول، حتى ولو كانت تلك الأصول الإلهية وثوابت العقيدة، بحجة أنه حر ينادي بالحرية وينشدها، وهل الحرية في التمرد والمخالفة والهمجية الفكرية؟! فضلاً على الهمجية السلوكية والهمجية القولية ! .

﴿ الحرية بين الادعاء والواقعية ﴾

قد يكون الإنسان حراً في ظاهره كما هو الناس اليوم بعد انتهاء الرق بعون الله وتوفيقه من العالم وبفضل الإسلام، وهذه حقيقة لا تنكر، لكنه ربما يكون في أحواله الباطنة يعيش أقسى حالات العبودية، ويا ليتها عبودية لله تعالى، فما هي إلا الحرية في أسمى حقيقتها بل هي العزة والكرامة، لكنه ربما يعيش عبودية أخرى لمعان أخرى ويعتقد ويزعم أنه حر، فالإنسان الذي يسعى وراء لذة اقتناء المال واكتنازه بكل سبل الاقتناء بحلال أو بحرام، هو إنسان مستعبد لحب المال، ويحتاج أن يتحرر من عبودية المال ليحقق حريته . وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ فقال : ((تَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رِضًى وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعَسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوْبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعَنَانٍ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبِرَةً

١ _ ((الرسالة القشيرية)) (٢ / ٣٧١ - ٣٧٣) .

قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ)) . (١)

وهناك عبودية التمرد التي تتولد من نفس جامحة متمردة لا هدف لها إلا المخالفة للمعقول والمنقول والعادة والعرف بل والفطرة الإنسانية السوية، وهذا ما نراه في أحوال بعض الشباب الذي يتمرد على والديه، ويحتقر كل نصيحة أبوية لمنفعته، أو الاستهزاء بالثوابت من القيم الاجتماعية، بل ويتطور الأمر إلى التمرد حتى على الثوابت والقيم الدينية والأخلاقية الأصيلة فمثل هؤلاء في حقيقة الأمر عباد لنوع من الغرور والكبرياء لا يمتلك الحرية. لأنه لو ملكها لقبل النصيحة بهدوء ورضا، ومثل هذه الحالات منها ما يكون طارئاً يمكن علاجه، ومنها ما يكون نتيجة الكبر والغرور ومن الصعب علاجه .

وكذلك نرى من أنواع التمرد التمرد على الأخلاق والفطرة بحجة الحرية كالشباب الذي يسير خلف شهواته الجسدية مخالفا لكل قيم التربية والعرف والعادة، ويزعم أنه حر لا يكون حراً لأنه لو فهم وأدرك لأدرك أنه مستعبد للشهوة، تأسره وتسوقه إلى الخطيئة كعبد ذليل. فهو بحاجة إلى التحرر من سلطان استحكام الشهوة، تعس عبد الشهوة إنها عبودية داخلية، يحتاج الإنسان إلى نضال ومجاهدة ليطلق سراح نفسه منها، ويصير حراً طليقاً.

وهكذا تتنوع المفاهيم للحرية حسب من يراها ويفهمها بفهمه الخاص، لأنه يرى أنه مدرك لحقيقتها من خلال رؤيته لها وإن كانت رؤيته غير صحيحة ! .

إن الحرية الحقيقية : هي نفي الخوف وإعادة التوازن بين الذات والبيئة المحيطة، و لا حرية في عالم يحكمه الخوف والهلل، ويسيطر عليه الفزع والجزع، ويخيم عليه القلق والاضطراب، ولا حرية بدون مبادئ وقيم تؤسس للأمن الاجتماعي والعدالة بواقعها الحقيقي، لذلك جاء الإسلام ليرشد الإنسانية إلى المعنى الحقيقي للحرية ولجميع القيم السامية، ليخلق مجتمعاً فريداً قائماً على كل أسس الخير .

والحقيقة التي يمكن أن نسلم بها، هي أن معنى الحرية مفقود في هذا العالم، وما كتب عنها هو عبارة عن آمال وأمنيات وأضغاث أحلام وتصورات لا حقيقة لها على أرض الواقع، إلا في الإسلام وما أفاده للإنسانية .

وخير دليل تلك الشهادات المنصفة من المنصفين من المستشرقين، وكما يقال : الفضل ما شهدت به الأعداء. فقد رأوا في الإسلام النموذج الأكمل في الحرية وأنها حق واجب للإنسانية

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الجهاد)) باب ((الحراسة في الغزو في سبيل الله)) حديث (٢٧٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عموما وللمسلم خاصة، فضلا عما جاء به الإسلام من قيم راقية ومبادئ سامية تهدف لرفي المجتمع في كل مجالات الحياة ! فمنهم من اهتدى عن عقيدة راسخة ومنهم من شهد بالحق للإسلام ومن هؤلاء .

﴿ قالوا عن الحرية في الإسلام ﴾

(١) - فاطمة ترفسكن (١) **تقول :** لم يتبين لي الفرق الشاسع بين تعاليم الإسلام وبين كثير من العادات الشرقية إلا عندما دخلت عالم الإسلام الروحي عن طريق القرآن والكتابات الإسلامية، فشعرت ببطء كيف يجذبني الإسلام . وكانت تعاليمه تخاطب عقلي وفطرتي . وكان من أهم ما شدني إلى النظام الاجتماعي المثالي في الإسلام، تساوي جميع الأجناس، والتسامح الذي لا حد له، والحرية التامة في جميع المجالات الدنيوية والروحية، وكذلك الاعتراف بالحياة الدنيا من غير مبالغة، والاجتهاد في طلب العلم الذي يعتبر فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأخيراً وليس آخراً أعجبت بالعلاقة المباشرة بين العبد وربّه . (٢)

(٢) - يوجينا ستشيفسكا : كان للأمة الحرية المطلقة والرقابة على أعمال الخلفاء الراشدين، و مدى موافقتها لنصوص الشريعة وخضوعها لآراء الفقهاء، وسيرهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء . ولم ينقل أحد من المؤرخين سواء كانوا عرباً أم غيرهم انتقاداً للخلفاء بظلم أو سوء تصرف، بل اعترف الكل بأن عدلهم وحسن سلوكهم وصراحة طريقتهم قد حبيت فيهم غيرهم من الشعوب، حتى أسقطوا عروش ملوكهم وخربوا دولهم، وأسسوا بدلاً منها دولة الإسلام الذي عشقوه لعدل قوانينه، ونزاهة حكامه وعفتهم ورفقهم واتباعهم لشرعهم لا يتعدونه، و كانت نصوص الشريعة واضحة لم يدخلها تأويل ولا شبهات . (٣)

(٣) - ستودارد : (٤) الإسلام في عهده الأول، إنما كانت شمس الحرية مشرقة وهاجة، ودينًا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الإسلامي فيما بعد من الوهن والتدني بحاجب

Fatima Zuesken

(١) - فاطمة ترفسكن

فتاة من تشيكوسلوفاكيا كانت تحمل اسم (مونيكا). ولدت عام ١٩٤٣م، وتخصصت في الرسم الهندسي. قرأت كثيراً واتصلت بعدد من المسلمين الألمان، وبعد أن اقتنعت بالإسلام ديناً، أعلنت انتماءها إليه عام ١٩٦٣م.

(٢) - ((قالوا عن الإسلام)) للدكتور عماد خليل ص (٩) .

(٣) - المرجع السابق ص (١٠) .

Lothrop Stoddard

(٤) - (١) لوثرروب ستودارد

المنصف عن جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الإسلامية كما قال العلامة ليسبار: إنما هي ديمقراطية شورية جوهرًا وأصلًا، وعدو شديد للاستبداد . وقد أجهل قامباري هذه الحقيقة في شأن الإسلام بقوله: ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعف واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم . وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين . وناصروا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء . (١)

(٤) - لايتنر : كل مسلم قيم ومهيمن على دينه مباح له التكلم بخصوص الأمور الدينية فليس هو رقيقًا للمشايخ . يعبد الله وحده لا يحتاج إلى وسيط، وإنما كان متى أدركته أوقات الصلاة فهناك محل لعبادته، ولعلماء المسلمين الحرية التامة للاحتراف والاشتغال، ولكن أكثر علمائهم يتعاطون تعليم الدين للناس. وأي مسلم يستطيع أن يقول: إني بتسليم نفسي لإرادة الله. نائب عن الدين الذي علمه محمد . والحق يقال: بأن كافة المسلمين في الدنيا مرشدون بهذا الهدى الاجتماعي . (٢)

(٥) - كولدتسيهر :.. أنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التي وضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهي، كانت قائمة على روح التسامح، وعدم التعصب. وأن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحًا دينيًا في علاقات الحكومات الإسلامية، ونجد ظواهر هذا التشريع في الإسلام في كتب الرحالة في القرن الثامن عشر، يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع من مبادئ الحرية الدينية التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية . (٣)

(٦) - جواهر لال نهرو : إذا عدت النظافة عيبًا في العرب، فقد أسند إليهم عيب آخر ألا وهو التسامح الديني ويكاد المرء لا يصدق أن ذلك هي التهمة الرئيسية الموجهة للعرب في كتاب رئيس أساقفة فالنسيا الذي وضعه في عام (١٦٠٢) بعنوان : ((إحاد العرب وخياناتهم)) . وطالب فيه بإقصاء العرب عن إسبانيا. وقد قال: ((أن العرب يجذبون جدًا حرية الضمير في

مؤلف أمريكي يتميز بسعة اطلاعه على معطيات العالم الإسلامي الحديث. ويعد كتابه: ((حاضر العالم الإسلامي)) من أهم المؤلفات الحديثة التي عاجلت قضايا هذا العالم ومجريات أحداثه عبر النصف الأول من هذا القرن. وقد زادته قيمة علمية، التعليقات والإضافات الخصبية التي أحققها الأمير شكيب أرسلان بطبعته العربية .

^١ - المرجع السابق ص ١٠ نقلا عن - ((حاضر العالم الإسلامي)) (٤ / ٤٣ - ٤٤) .

^٢ - المرجع السابق ص (١١) .

^٣ - السابق ص (٢٦٣) .

الشيءون المتعلقة بالدين، شأنهم في ذلك شأن الأتراك والمسلمين الذين تركوا لأتباعهم الحرية الدينية)). ولعمري ما أجمل هذا المدح الذي قصد به ذم مسلمي إسبانيا الذين يمتازون بتسامحهم الديني، في الوقت الذي استرسل فيه المسيحيون الأوروبيون في التعصب والغلظة . (١)

(٧) - **جاءك ريسلر** :.. عندما بهرت الحضارة الإسلامية المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوروبا المسيحية كلها، أخذوا يزحفون حباً في الحرية التي تميزت بها هذه الحضارة إلى قرطبة وطليطلة وإشبيلية، لكي يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها . (٢)

(٨) - **لوثرروب ستودارد** : الإسلام، وهو هذا الدين البين الصريح، ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوفاً فوق سجوف. والعربي كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده واشتعلت غيرته، فبات تواقاً إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها، والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها، والتكيف على حديث مقتضياتها، والخروج بها عما ألفه أزماناً في فيافي الصحراء.. لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية، لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالمادية واستلذاذ الترف، ورخاء العيش فحسب، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة. فنشأ عن جميع هذا الجهد والتزقيات، أن أخرج للناس تهذيب عربي سام . فأضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان فخر الحضارة العربية ودرة تاجها. وكان ربح من الزمن كانت فيه الحضارة مشرقة الشمس، يانعة الثمار، وارفعة الظلال. فسادت الحرية العقلية، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية، ووضعت القواعد والأصول، واستتبقت الأحكام. بيد أن هذا لم يكن من صنع العرب وحدهم، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متطللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الإسلام يذوقون الأمرين، ويسامون خسفاً شديداً في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البيزنطية والجوسية الفارسية . (٣)

﴿ الحرية في الإسلام والاتجاهات السياسية الأخرى ﴾

^١ - السابق ص (٢٧٣) .

^٢ - السابق ص (٣٠٩) .

^٣ - السابق ص (٣١٢) .

إن الحرية في الإسلام تتعدى ما يعبرون عنه اليوم من مبادئ الليبرالية الغربية التي غزت عقول العرب والمسلمين في مجتمعاتنا بحجة التمدن والتحضر وذلك قولهم : أنت حر ما لم تضر غيرك .

وإن كان هذا المبدأ معناه صحيحا إلا أنه لا يسد الاحتياج المطلوب عند كل ذي عقل، فلعل الشخص حر ما لم يضر غيره، لكنه من باب ادعاء الحرية قد يضر نفسه، بمعتقدات تخالف المجتمع أو بأفعال أو أقوال إلخ . والإسلام قد حرص كل الحرص على المؤمنين والصالحين بل والمجتمع كله، يمنعهم حتى من ضرر أنفسهم، فيحرم عليهم أن تكون حريتهم إضرارا لغيرهم أو لأنفسهم، ولذلك جعل هناك قاعدة إيمانية عظيمة هي أصل من أصول الإيمان اعتقادا وتعاملا وواقعا، وهي قول النبي ﷺ الذي رواه عبادة بن الصامت أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى : ((أَنْ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)) . (١)

فأنكر الإسلام مفهوم الحرية المطلقة التي ليس لها رادع من مبدأ أو شرع، وجعلها حرية مقيدة بقانون إلهي لا يأتيه الباطل أبدا ولا يتطرق إليه النقص ولا التناقض، وضمن له في هذه القوانين الإلهية كمال الحرية والعدل ما دام أنه لم ينتهك حرمان هذه القوانين وحدود هذا المنهج . وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق أحرارا، وأنعم عليهم بالإرادة والقدرة على الاختيار وعفا عنهم ما وقعوا فيه من الخطأ والنسيان وما استكروها عليه، مما قد يقدر في حريتهم واختيارهم، أو يجلب لهم الضرر والعار . وقد بحث الناس عن الحرية بحثا طويلا فلم يجدوا حرية تامة إلا في ظل عبودية الله سبحانه وتعالى إذ هي عبودية الأحرار بحق .

﴿ الإسلام أعظم دين كفل الحرية للبشر ﴾

مما يدل ذلك على سمو مبادئ الإسلام ومنهجه، وأنه دين الحرية والتحرر من قهر العباد ما جاء في القرآن الكريم ردا على من اتخذ مع الله إلها آخر عامة، وعلى أهل الكتاب خاصة لما بدلوا دينهم وحرّفوا الكلم عن مواضعه، فضلوا بعد علم، ونقضوا التوحيد الذي هو رسالة جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، فاستحقوا غضب الله والضلالة بعد هدى، فقال سبحانه :

^١ - أخرجه ابن ماجة في ((سننه)) (٢ / ٧٨٤) برقم (٢٣٤٠) .

﴿ قُلْ يَتَاهِلَ آلِ كَتَبْتَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة

آل عمران آية: ٦٤]

فقد حرر الإسلام نفوس الموحدين من عبودية غير الله سبحانه، وجعل الحرية أساسا في العقيدة، وربى عليها أتباعه إلى يوم القيامة، فذاقوا معنى الحرية الحقيقية في ظل عبادة الله الواحد الأحد حتى صارت الحرية لهم شعارا وحالا ومقالا، ها هو عمر رضي الله عنه يعلنها شعارا لا يفرق بين مسلم وغيره وأنها حق من حقوق الإنسان : أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم . قال : عدت معاذا . قال : سابت ابن عمرو بن العاص فسبقتة فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه . فقدم فقال عمر : أين المصري ؟ . خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأليمين . قال عمر للمصري : ضع على ضلعة عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه . فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتي . (١)

وها هو ربعي ابن عامر رضي الله عنه يرفع شعار الحرية كمبدأ أصيل في الإسلام، وغاية من أعظم الغايات التي يسعى الإسلام إلى ترسيخها فكما روي : وأقبل ربعي يسير على فرس له زباء قصيرة، معه سيف له مشوف وغمده لفافة ثوب خلق، ورمحه معلوب بقد معه حجلة من جلود البقر على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف، و معه قوسه ونبله، فلما غشي الملك وانتهى إليه وإلى أدنى البسط قيل له: انزل . فحملها على البساط، فلما استوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشققهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أروه التهاون، وعرف ما أرادوا فأراد استحراجهم، وعليه درع له كأنها أضاة ويلمقه عباءة بغيره قد جابها وتدرعها وشدها على وسطه بسلب، وقد شد رأسه بمعجرتة، وكان أكثر العرب شعرة ومعجرتة نسعة بغيره، ولرأسه أربع صفائر قد قمن قياما كأنهن قرون الوعلة، فقالوا: ضع سلاحك . فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتوني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت . فأخبروا رستم فقال: انذنوا له هل هو إلا رجل واحد ؟! . فأقبل يتوكأ على رمحه وزجه نصل يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم غرقة ولا بساطا إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرقاً، فلما دنا من

^١ - أخرجه ابن الحكم في ((فتوح مصر وأخبارها)) ص (٢٩٠) عن أنس رضي الله عنه .

رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض، وركز رمحہ بالبسط، فقالوا : ما حملك على هذا ؟ . قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه . فكلّمه فقال: ما جاء بكم ؟ . قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله . قال: وما موعود الله ؟ . قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي . فقال رستم: قد سمعت مقاتلتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ . (١)

إن عظمة القيم التي زرعها الإسلام في نفوس وقلوب المسلمين ، وتحريرها من عبودية المال والجاه والسلطان والدنيا، ورسخ فيهم قيمة العزة بالله وبدينه الذي أكرمهم به، فهو يخاطب قائد جيش لقوى عظمى في هذا الزمان لم يوجد ما يماثلها قوة وعتادا، ومع هذا كان في كمال شموخه وعزته بالله ورسوله والإسلام، لم يقع في أسر الخوف أو هيبة المخلوقين، لأنه تحرر من هذه المعاني بالتوحيد ومعرفة ربه، وأما رستم فقد جمعت له أسباب النصر الدنيوية فرأى كثرة عدد جيشه وعتاده فوق في أسر الغرور بهذه القوة وعبد الدنيا والجاه والمنصب فضلا عن شركه بعبادة النار من دون الله فلم يذق الحرية الحقيقية، ولم يدرك قيمة العزة الحق، فكان خائفا من لقاء ربي ﷺ حتى كاد أن يموت خوفا من خطابه ومن العزة والحرية التي رآها فيه، وبالفعل هزم وجيشه، و نصر الله عباده وأورثهم أرضهم وديارهم، ولم يسكت ربي ﷺ عن رفع شعار الحرية الذي رفعه الإسلام بل أعلنها له بقوله : ابتعثنا الله وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، و من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

وتتجلى في هذا الخبر قيم عظيمة منها أن الحرية في الإسلام تمنع الإنسان من عبودية ذاته وشهواته، فتحرره من شهواته وهواه إذا تسلطا عليه وهما أعدى أعدائه، كما تحرره من عبودية كل مخلوق مثله لا يملك له نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. كما تحرره من أن يكون ذليلاً تابعا من أجل المال أو الغنى أو المنفعة.

﴿ هل الحرية تعني الإطلاق من كل قيد ؟ ﴾

^١ - أخرجه الطبري في ((تاريخه)) (٢ / ٤٠١) .

لقد سبق تقرير عدم إقرار الإسلام للحرية المطلقة من كل قيد وضابط، لأن الحرية بهذا الشكل أقرب ما تكون إلى الفوضى، التي يثيرها الهوى والشهوة، ومن المعلوم أن الهوى يدمر الإنسان أكثر مما يبنيه، ولذلك منع الله من اتباعه وحذرنا منه قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ نَعِرْضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء آية: ١٣٥] وقال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الفرقان آية: ٤٣] وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٧٦] وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [سورة الرعد آية: ٣٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون آية: ٧١] وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص آية: ٥٠] وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [سورة الروم آية: ٢٩]

وقد وضع الإسلام قيوداً ضرورية، تضمن حرية الجميع، وتشتمل الضوابط التي وضعها الإسلام في الآتي:

- (١) - ألا تؤدي حرية الفرد أو الجماعة إلى تهديد سلامة النظام العام وتقويض أركانه، وألا تفوت حقوقاً أعظم منها، وذلك بالنظر إلى قيمتها في ذاتها ورتبتها ونتائجها.
- (٢) - ألا تؤدي حرته إلى الإضرار بحرية الآخرين.

وبهذه القيود والضوابط ندرك أن الإسلام لم يقر الحرية لفرد على حساب الجماعة كما لم يشبها للجماعة على حساب الفرد، ولكنه وازن بينهما، فأعطى كلا منهما حقه.

﴿ أنواع الحرية ﴾

تنقسم الحرية باعتبار واقعها إلى قسمين عامين يتفق معظم المفكرين والفلاسفة عليهما وهما:

(١) - ((الحرية الشخصية)) : وتمثل في حرية الإنسان في ذاته من الاستعباد والظلم، وكذلك الأمن، وحرية في تملك ثمرة نشاطه الفردي وحرية التصرف فيما يملكه، وهي حقوق مادية. أما الحقوق المعنوية فتتمثل في الحرية الدينية، والتي تشمل حرية العقيدة وحرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية . أي أن يكون الفرد قادراً على التصرف في شئون نفسه، وفي كل ما يتعلق بذاته، آمناً من الاعتداء عليه في النفس والمال والعرض أو أي حق من حقوقه، على ألا يكون في تصرفه عدوان على غيره .

(٢) - ((الحرية العامة)) : وهي الحريات التي تتعلق تأثيرها بالمجتمع أو بالمشاركة بين أفراد المجتمع، كالحرية السياسية وحرية التعليم وحرية العمل والاقتصاد، وحرية الرأي والحرية الصحفية والإعلامية. وهذه الحريات لا بد من ضبطها بضوابط واقعية معتدلة حتى يمكن تقليص تأثيراتها السلبية لصالح التأثيرات الإيجابية على المجتمعات .^(١)

ولم يخص الإسلام بهذه الميزات المسلم فقط، بل جعلها قوانيناً عامة مكفولة للمسلم وغير المسلم ممن يعيش تحت مظلة حكم الإسلام، وجعله واقعاً عملياً وقواعد شرعية، وقضايا فقهية تطبق وتدرس، ومن الأدلة على هذا : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((من قَتَلَ مُعَاهِداً لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)) .^(٢)

وقد شهد بهذا المفكرون من غير المسلمين ومنهم :

١ - أرنولد توينبي يقول : لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الحرية وتلك سياسة مستنيرة ، أجمعت الآراء على امتداحها، لقد سلك الإسلام طريقة بين رعايا الخلافة غير العرب، مستنداً على مزاياه وفضائله الذاتية، وكان انتشاراً بطيئاً، لكنه كان مؤكداً. ويحتمل أن الهداية إلى الإسلام بصورة جماعية لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادي حتى حلول فترة

^١ - ((الحريات العامة في الفكر والنظام الإسلامي دراسة مقارنة)) . للأستاذ عبد الحكيم حسن العيلي . ص (٣٥٩) .

^٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الجهاد والسير)) باب ((إثم من قتل معاهداً بغير جرم)) حديث (٢٩٩٥) .

اضمحلال الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر. ويمكن القول بالتأكيد أن هذه الغلات التي حصدت من حقل التبشير الإسلامي، كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية، ولم تنجم قط عن ضغط سياسي . (١)

٢ - **جاءك ريسلر يقول:** كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة في عبادتها، وكان اليهود المطاردين لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات، ووصلوا أحياناً إلى مراكز سامية، واختلط المسيحيون مع المسلمين. ويحدث أنهم احتفلوا بأعيادهم معا في المسجد وفي الكنيسة، ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد شوهد بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوج على الرغم من تحريم الكنيسة . (٢)

٣ - **كولدتسيهر يقول:** إنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التي وضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم، أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهي كانت قائمة على روح التسامح وعدم التعصب. وأن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحاً دينياً في علاقات الحكومات الإسلامية، ونجد ظواهر هذا التشريع في الإسلام في كتب الرحالة في القرن الثامن عشر، يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع من مبادئ الحرية الدينية التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية .

٤ - **برنارد لويس يقول:** لم يكن اللاجئون من المسلمين واليهود، ولا المسيحيون من ذوي الآراء الدينية والسياسية المنشقة، هم الأوروبيين الوحيدين الذين استفادوا من الحكم العثماني إذ أن الفلاحين في المناطق التي غزيت قد تمتعوا بتحسّن كبير في أوضاعهم. فقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى.. و أصبح الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية في حقوقهم أكبر بكثير من ذي قبل، وكانت الضرائب التي يدفعونها تقلدّر بصورة مخففة، وتجمع بطريقة إنسانية، وذلك بالمقارنة بما كان يجري في أنظمة الحكم السابقة والجاورة.. فحتى القرن التاسع عشر كان الأوروبيون الذين يزورون البلقان يعلقون على أوضاع فلاحى البلقان الحسنة وعلى رضاهم عن هذه الأوضاع، وكانوا يجدونه أفضل من الأوضاع السائدة في بعض أنحاء أوروبا المسيحية . (٣)

١ - ((قالوا عن الإسلام)) . ص (٢٣٨) .

٢ - السابق ص (٢٤٧) .

٣ - السابق ص (٢٦٩) .

وانظر إلى ما روي عن أبي رجاء الخراساني عن جسر قال: شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى عدي بن أرطاة قرئ علينا بالبصرة : أما بعد . فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام، واختار الكفر عتيا وخسرانا مبينا، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحا لمعاشر المسلمين وقوة على عدوهم؛ ثم انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته، حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك أن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك ثم ضيعناك في كبرك . قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه . (١)

﴿ ضمان الإسلام لأنواع الحريات ﴾

(١) - **حرية التنقل والسفر :** والمقصود بها أن يكون الإنسان حرا في السفر والتنقل داخل بلده وخارجه دون عوائق تمنعه. والتنقل بالغدو والرواح حق إنساني طبيعي، تقتضيه ظروف الحياة البشرية من الكسب والعمل وطلب الرزق والعلم ونحوه، وقد جاء تقرير حرية التنقل والسفر بالكتاب والسنة ففي الكتاب قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [سورة الملك آية: ١٥] ولم يمنع الإنسان من التنقل إلا لمصلحة عامة كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طاعون عمواس، حين منع الناس من السفر إلى بلاد الشام الذي كان به هذا الوباء، ولم يفعل ذلك إلا تطبيقاً لقول رسول الله ﷺ فيما روي عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون ؟ . فقال أسامة قال: رسول الله ﷺ : ((الطَّاعُونَ رَجَزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ)) . (٢)

١ - ((أحكام أهل الذمة)) . (١ / ١٤٤) .

٢ - متفق عليه .

ولأجل تمكين الناس من التمتع بحرية التنقل حرم الإسلام الاعتداء على المسافرين، والترصص لهم في الطرقات، و أنزل عقوبة شديدة على الذين يقطعون الطرق ويروعون الناس بالقتل أو النهب أو السرقة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة آية: ٣٣] بل واهتم بالطرق و تأمينها خلقيا فقد نهى النبي ﷺ صحابته عن الجلوس فيها، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ)) . فقالوا : ما لنا بُدُّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا . قال: ((فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا)) . قالوا: وما حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قال: ((غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ)) . (١)

٢ - حرية المأوى والسكن: متى قدر الإنسان على اقتناء مسكنه، فله حرية ذلك، كما أن العاجز عن ذلك ينبغي على الدولة أن تدبر له السكن المناسب، حتى تضمن له أدنى مستوى لمعيشته: عن أبي سعيد الخدري قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ قَالَ: فَجَعَلَ يَضْرِبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ)) . فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنْ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ . (٢)

فإذا ما ملك الإنسان مأوى ومسكن، فلا يجوز لأحد أن يقتحم مأواه أو يدخل منزله إلا بإذنه، حتى لو كان الداخل خليفة، أو حاكماً أعلى، ما لم تدع إليه ضرورة قصوى أو مصلحة بالغة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النور آية: ٢٧]

وإذا كان قد نهى الإسلام عن دخول البيوت بغير إذن أصحابها، فالاستيلاء عليها أو هدمها أو إحراقها من باب أولى، إلا إذا كان ذلك لمصلحة الجماعة، بعد ضمان الدولة تعويضه بيتاً ضماناً عادلاً، وهذه المصلحة قد تكون بتوسعة مسجد، أو بناء شارع، أو إقامة مستشفى، أو نحو ذلك، وقد أجلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل نجران، وعوضهم بالكوفة . بل وضمن النظام الإسلامي سلامة بيوت الفقراء وصيانتها، وإصلاحها من بيت مال المسلمين، ومن الأدلة على ذلك ما روي من شأن فرتونة السوداء وكانت مسيحية يقول ابن عبد الحكم : وكان يريد عمر

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((المظالم)) باب ((أَفْنِيَّة الدُّوَرِ وَالْجُلُوسِ فِيهَا)) حديث (٢٣٣٣) .

٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٢ / ٢٣٨) حديث (٥٤١٩) .

بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابا إلا حمّله فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرا وأنه يقتحم عليها منه فيسرق دجاجها فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك، وأنه يدخل عليك منه فيسرق دجاجك، فقد كتبت لك كتابا إلى أيوب بن شرحبيل أمره أن يبني لك ذلك، حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله والسلام .
وكتب إلى أيوب بن شرحبيل :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل أما بعد .
فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت إلي تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها، وتساءل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها.

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجزيرة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، و إذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها . (١)

ولحفظ حرمة المنازل وعظمتها حرم الإسلام التجسس، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات آية: ١٢] وذلك لأن في التجسس انتهاك لحقوق الغير، والتي منها : حفظ حرمة المسكن، وحرية صاحبه الشخصية بعدم الاطلاع على أسراره. بل وبالعالم الإسلام في تقرير حرية المسكن بأن أسقط القصاص والدية عمن انتهك حرمة البيوت بغير حق وإذن، بالنظر فيها ونحوه، يدل على ذلك حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : ((مَن اَطَّلَعَ إِلَى دَارِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَّؤُوا عَيْنَهُ فَلَا دِيَّةَ وَلَا قِصَاصَ)) . (٢)

٣ - حرية التملك : ويقصد بالتملك حيازة الإنسان للشيء وامتلاكه له، وقدرته على التصرف فيه، وانتفاعه به عند انتفاء الموانع الشرعية . وقد أعطى الإسلام للفرد حق التملك، وجعله قاعدة أساسية للاقتصاد الإسلامي، ورتب على هذا الحق نتائج الطبيعية في حفظه لصاحبه،

١ - ((سيرة عمر بن عبد العزيز)) . ص (٦٣) .

٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٣ / ٣٥١) حديث (٦٠٠٤) .

وصيانتة له عن النهب والسرقه والاختلاس ونحوه . ووضع عقوبات رادعة لمن اعتدى عليه، ضمانا له لهذا الحق، ودفعاً لما يتهدد الفرد في حقه المشروع . وكفل له حرية التصرف فيه بالبيع أو الشراء أو الإجارة أو الرهن أو الهبة أو الوصية وغيرها من أنواع التصرفات المباحة، وحرم التصرفات غير المباحة شرعاً مع التملك، مثل الرشوة والربا وغيره وبيع العينة... إلخ .

٤ - حرية الاعتقاد: وهي اختيار الإنسان لدين يريده بيقين، وعقيدة يرتضيها عن قناعة، دون أن يكرهه شخص آخر على ذلك . ودليل هذا قول الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٦] لأن الفكر والاعتقاد لا بد أن يتسم بالحرية، وأن أي إجبار للإنسان أو تخوفه أو تهديده على اعتناق دين أو مذهب أو فكرة باطل و مرفوض، لأنه لا يرسخ عقيدة في القلب، و لا يشبثها في الضمير. لذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ الْمَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس آية: ٩٩] فكل هذه الآيات وغيرها، تنفي الإكراه في الدين، وتثبت حق الإنسان في اختيار دينه الذي يؤمن به . وحرية ممارسة الشعائر الدينية كما كفله لأتباعه، وذلك في حدود النظام العام، وحسن رعاية الآداب وترك لهم حرية التعامل والتقاضي فيما يتصل بالعقائد متى كان ذلك مشروعاً ومقررأ لديهم . ^(١) فقد أقر الرسول ﷺ اليهود المحيطين بالمدينة على ممارستهم لشعائهم الدينية . ^(٢) كما أعطى عمر رضي الله عنه أماناً لأهل إيلياء على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . ^(٣) فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم و أموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمتها وبريئتها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم و لا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلييهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا

(١) - ((الحريات العامة)) . ص (٢٩٧) .

(٢) - ((السيرة النبوية)) لابن هشام (٢ / ٥٠١) .

(٣) - ((آثار الحرب في الفقه الإسلامي)) للدكتور وهبة الزحيلي . ص (٦٨٦) .

الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . (١)

وها هم علماء أوروبا اليوم ، يشهدون لسماحة الإسلام ، ويقولون له بذلك في كتبهم :

- قال ميشود : في كتابه : ((تاريخ الحروب الصليبية)) : إن الإسلام الذي أمر بالجهاد، متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وقد حرم قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها .

﴿ شبهة حول تكفل الإسلام بالحرريات ﴾

فإن قيل : هذا الزعم بتكفل حرية الاعتقاد في الإسلام غير واقعية بدليل قتل المرتد عن الإسلام أو ما يعرف بحد الردة ! .

و((الجواب)) : سبق أن عرفنا أن الحريات في الإسلام ليست مطلقة، إنما هي مفتوحة ومضمونة بالقدر الذي يحقق مصلحة الفرد كاملة، ولكنها توقف عندما تشكل مفسدة ظاهرة للجماعة حماية لمصلحة الجماعة، ولذا فإن حرية العقيدة مقيدة بعدم الردة عن الإسلام، ذلك لأن الردة عن الإسلام ليست حرية في العقيدة، وإنما هي جريمة قبيحة بحق الجماعة، لأن معناها الوحيد إعطاء الآخرين فرصة الإساءة إلى الإسلام وإهانة عقيدته والاحتيال على شريعته . (٢)

لذا حسماً لهذه المفسدة، ووفقاً لهذا الضرر الظاهر على الجماعة قرر الشارع عقوبة رادعة على الردة وهي القتل . (٣) ففي حديث ابن عباس رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: ((من بدل دينه فاقتلوه)) . (٤) فالشارع قد بنى هذه العقوبة على أساسين:

((الاول)) : إخلال المسلم في الوفاء بالتزامه، إذ هو بإسلامه مختاراً يكون قد رتب على نفسه الالتزام بعقيدة الإسلام وشرعته بمحض إرادته، وبارتداده يكون قد أخل بالتزامه فضلاً عن

١ - ((تاريخ الطبري)) (٢ / ٤٤٩) .

٢ - ((حقوق الإنسان)) للشيخ محمد الغزالي . ص (١٠٠) .

١ - ((فلسفة مقاصد التشريع في الفقه الإسلامي)) . ص (١٥) .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الجهاد)) باب ((لا يعذب بعذاب الله)) حديث (٢٨٥٣) .

إساءته للدولة بالتجروء على عقيدتها عامداً، لأن ردته لا تعرف إلا بإعلانها من قبله، وفي ذلك خروج على النظام العام للدولة، وبهذا يجز صاحبها على نفسه العقوبة حيث أن الإخلال بالتزام يترتب عليه جزاء .

أما: ((الأساس الثاني)) : فدرء المفسدة على المجتمع الإسلامي لما ذكر آنفاً من التشويش على عقائد الناس والإضرار بهم، وما قد يجلبه من إيقاع للفتنة بينهم .^(١)

فحد الردة لا يخاطب به إلا المسلمون فحسب، ومن كان على دين سماوي غير الإسلام كالمسيحية واليهودية يعيش آمناً على دينه ونفسه وماله في البلاد بحكم شريعة الإسلام نفسها، و لكن الدولة حين تعاقب المسلم الذي يخرج عن الملة السمحاء إنما تحمي نفسها وتحمي مواطنيها من المسلمين وتقيّد أحكام الشريعة في أرضها.^(٢)

٥ - حرية الرأي: وهي أيضاً تعرف بحرية التفكير والتعبير، وقد جوز الإسلام للإنسان أن يقلب نظره في صفحات الكون المليئة بالحقائق المتنوعة، والظواهر المختلفة، ويحاول تجربتها بعقله، واستخدامها لمصلحته مع بني جنسه، لأن كل ما في الكون مسخر للإنسان، يستطيع أن يستخدمه عن طريق معرفة طبيعته ومدى قابليته للتفاعل والتأثير ولا يتأتى ذلك إلا بالنظر وطول التفكير. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)). أو: ((أَمِيرٍ جَائِرٍ)).^(٣) وباستعراض التاريخ الإسلامي، نجد أن حرية الرأي طبقت تطبيقاً رائعاً، منذ عصر النبوة، فهذا الصحابي الجليل حباب بن المنذر رضي الله عنه، أبدى رأيه الشخصي في موقف المسلمين في غزوة بدر، على غير ما كان قد رآه النبي ﷺ فأخذ النبي ﷺ برأيه، وأبدى بعض الصحابة رأيهم في حادثة الإفك، وأشاروا على النبي ﷺ بتطليق زوجته عائشة رضي الله عنها إلا أن القرآن برأها، وغير ذلك من المواقف الكثيرة التي كانوا يبدون فيها آراءهم .

٦ - حرية التعلم: طلب العلم والمعرفة حق كفله الإسلام للفرد، ومنحه حرية السعي في تحصيله، ولم يقيد شيئاً منه، مما تعلقت به مصلحة المسلمين ديناً ودنياً، بل انتدبهم لتحصيل ذلك كله، وسلوك السبيل الموصل إليه، أما ما كان من العلوم بحيث لا يترتب على تحصيله مصلحة، وإنما تتحقق به مضرة ومفسدة، فهذا منهى عنه، ومحرم على المسلم طلبه، مثل علم السحر

٣ - ((النظام السياسي الإسلامي مقارناً بالدولة)) للأستاذ منير حميد البياتي . ص (٢٩) .

٤ - ((نظام الجريمة والعقاب في الإسلام)) للأستاذ على منصور . ص (٣٨٢) .

٣ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ١٢٤) حديث (٤٣٤٤) .

والكهانة ، ونحو ذلك . ولن تجد ديناً اهتم بالعلم وطلبه مثل الإسلام، فقد نزلت آيات القرآن الأولى تأمر النبي ﷺ بالقراءة قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة العلق آية: ١ - ٥]

٧ - الحرية السياسية: وهي حق الإنسان في اختيار سلطة الحكم، وانتخابها ومراقبة أدائها ومحاسبتها ونقدها وعزلها إذا انحرفت عن منهج الله وشرعه، وحولت ظهرها عن جادة الحق والصالح . كما أنه يحق له المشاركة في القيام بأعباء السلطة، ووظائفها الكثيرة، لأن السلطة حق مشترك بين رعايا الدولة، وليس حكراً على أحد، أو وقفاً على فئة دون أخرى، واختيار الإنسان للسلطة قد يتم بنفسه، أو من ينوب عنه من أهل الحل والعقد، وهم أهل الشورى، الذين ينوبون عن الأمة كلها .

﴿ دور علماء الأزهر في ترسيخ قيمه الحريات ﴾

لقد عمل الأزهر الشريف وعلماءه على ترسيخ القيم السامية في المجتمع المصري خاصة، وفي المجتمعات الإسلامية والعربية عامة، وذلك بآثره على الوافدين من هذه المجتمعات لتلقي العلوم فيه وكان للأزهر دوره الفعال في إقرار الحريات بما قدمه من تعريف بالحرية في الإسلام عبر وسائل اتصاله وتأثيره المختلفة من خلق العلم والدرس ومجالس الوعظ والخطب، وتعريف للناس بحقوقهم وعزة علمائهم وتحريرهم من كل ما يعيق قول الحق وإعلان آرائهم بكل عزة واعتزاز متى شاءوا ومتى أرادوا ! .

والتاريخ يشهد لعلماء الأزهر أنهم قد علموا الناس كيف تكون الحرية، وكيف من حرية أنفسهم واجهوا غشامة الاستبداد الاستعماري وغيره، ومن هذه الصور المشرفة مواقفهم إبان الحملة الفرنسية : وقد دخلوا بخيلهم الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية، وقتلوا فيه بعض علمائهم، ونهبوا منه أموالاً كثيرة. وسبب وجودها فيه - أي الأموال - أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله، فحولوا فيه أمتعة بيوتهم، فنهبوا أكثر البيوت التي حول الجامع الأزهر، وفتشوا الكتب التي في الخزانة يعتقدون أن بها أموالاً، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة .

وكانت هذه أول مرة يعدم فيها مشايخ الأزهر كالمجرمين.^(١) لكن هذا الكيد الإجرامي لم ينل من عزيمة أولئك العلماء ولا من همتهم، بل ظلوا يهيجون الشعب لرد هذا البلاء. وكان كلما هجم الفرنساوية على جهة من الجهات يجاربون من بها من المقاتلين، ويملكون منهم بعض المتاريس، فتصيح المناداة، ويتسامع الناس، وينادون على بعضهم البعض، ويقولون: عليكم بالجهة الفلانية، الحقوا إخوانكم، فينفرون إلى تلك الجهة والمتراس حتى تنكشف عنه الفرنساوية، و ينتقلوا إلى غيرها فيفعلون كذلك. هذا والأغا والوالي يكرران المناداة، وكذلك أولاد العلماء، كسيدي محمد، نجل الشيخ الجوهري، وسيدي محمد، نجل الشيخ الأمير، والسيد عمر عمر، نقيب الأشراف، وبعض شوربجية الانكشارية^(٢) أيضاً ينادون بالتركي، كل هؤلاء، يمرون بجهات المدينة ليلاً ونهاراً ويحرضون الناس على الجهاد.^(٣)

ومن أبرز أعلام ومواقف تلك الفترة:

الشيخ محمد السادات : وهو شمس الدين محمد بن عبد الرحمن . قرأ على عدد من المشايخ، وتقدم ثم تولى مشيخة السادة . وكان ذا أدب ومروءة وفضل، وبولغ في تعظيمه من قبل أهل عصره مبالغة عظيمة. وكان صادعاً بالحق في وجه الأمراء والرؤساء، وله مواقف خالدة ضد الاستعمار الفرنسي . ومن مواقفه : يسجل التاريخ للشيخ محمد السادات كيف أعقل في حجرة كان ينام فيها على التراب، ويرفع رأسه على حجر، وكيف كان يضرب مرة في الصباح وأخرى في المساء أمام زوجته وولده، فما ركع ولا رجع، بل ألهب الثورة بسجنه وتعذيبه بأكثر مما كان في حريته وتكريمه .

٢- الشيخ عمر مكرم : هو عمر مكرم بن حسين السيوطي . زعيم شعبي مصري من أسرة شريفة النسب. ولد بأسيوط سنة ١١٦٨، وتعلم بالأزهر، وولي نقابة الأشراف سنة ١٢٠٨. ولما احتل الفرنسيون الإسكندرية سنة ١٢١٣، وزحفوا على القاهرة، تقدم على رأس جمهور من أهل القاهرة لمقاومتهم. وقاد عدة ثورات لمقاومة الفرنسيين، ولقي منهم نقمة كبرى، وظل النفي

^(١) - انظر: ((ودخلت الخيل الأزهر)) للأستاذ محمد جلال كشك . ص (٢٢٢ - ٢٢٤) . وقد ذكر عدداً ممن قتل من المشايخ وكيفية قتلهم.. وانظر في ترهيبهم وتهديدهم للعلماء: ((مجلة الأمة)) . ص ٣٧. عدد (٤٠) . ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

^(٢) - الانكشارية: العسكر العثماني المقيم في مصر.

^(٣) - السابق ص (١٩٥ - ١٩٦) .

والحرمان من نصيبه حتى مات رحمه الله منفياً في طنطا سنة ١٢٣٧، ومن مواقفه : عندما اقترب الفرنسيون من القاهرة سنة (١٧٩٨) ، كان أول من قام بتعبئة الجماهير للمشاركة الشعبية في قتال الفرنسيين. يقول الجبرتي: وصعد نقيب الأشراف السيد عمر للقلعة، فأنزل منها بيرقا أي علما كبيراً سمته العامة البيرق النبوي، فنشره بين القلعة، إلى أن وصل به إلى بولاق، وهو راكب ومعه ألوف بالنبايت والعصي، يهللون ويكبرون ويكثرون الصياح. ولم يبق أحد لم يتبعه إلا النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرّون على الحركة. (١)

ولما قام بثورته الشعبية لعزل خورشيد باشا الوالي الظالم، في سنة ١٨٠٥، وتمكن بهذه الثورة من خلعه، وتوليه محمد علي باشا ولاية مصر، حدث حوار بينه وبين واحد من أنصار الوالي خورشيد باشا عندما حوصروا في القلعة من قبل الجماهير المسلمة، ومنعت عنهم إمدادات السلاح والطعام والماء. قال الضابط الأرنأؤوطي: عمر بك، للشيخ عمر مكرم: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم، وقد قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء آية: ٥٩] فقال: أولوا الأمر العلماء وحمة الشريعة والسلطان العادل. وهذا خورشيد باشا رجل ظالم، وجرت العادة من قديم أن أهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شيء من زمان. حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور، فإنهم يعزلونه ويخلعوناه. فقال عمر بك: وكيف تحاصروننا، وتمنعون عنا الماء والأكل، وتقاتلوننا؟ نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟ قال السيد عمر مكرم: نعم! لقد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم لأنكم عصاة. (٢)

٣- الشيخ محمد كريم: من أهل الإسكندرية. كان في أول أمره قبانياً، وتقدم به نشاطه، فتقلد أمر الديوان والجمارك بالشعر. ونفذت كلمته وأحكامه وتصدره لغالب الأمور. ولما نزلت الحملة الفرنسية في الإسكندرية يقودها نابليون، قاومها محمد كريم فاعتقله كليبر، وأرسله إلى القاهرة لينظر نابليون في أمره. وطلبت منه أموال للإفراج عنه إن قدمها خلال اثني عشرة ساعة، وإلا قتل. ومضت المدة ولم يأت بالمال، فأركبوه حملاً يحيط به جمع من العساكر، وطافوا به بطبولهم، ثم قتلوه رمياً بالرصاص، وقطعوا رأسه وعلقوه ومناد ينادي: هذا جزاء من يخالف الفرنسيين. وكان ذلك سنة (١٢٠٣) هـ رحمه الله. (٣)

١ - ((مسلمون ثوار)) . للدكتور محمد عمارة. ص (٣٢٥) .

٢ - المرجع السابق ص (٣٢٧) .

٢ - ((الأعلام)) للزركلي. (١٤ / ٧) .

ومن مواقفه : لما حاول فانتور كبير تراجع الحملة، أن يغريه بدفع الفدية، فقال له: إنك رجل مؤمن، فماذا يضريك أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ ؟. فأجابه السيد محمد كريم إجابة الرجل المؤمن الصادق الإيمان : إذا كان مقدورا علي أن أموت، فلا يعفيني من الموت أن أدفع هذا المبلغ. وإن كان مقدورا لي الحياة، فعلام أدفعه ؟ .^(١)

كما كانت لهم ثوراتهم على الظلم والطغيان والاستبداد من الحكام حين يقع ظلمهم على الشعب أو على العلماء، فيثورون طلبا للحرية .

وغيرها من المواقف الكثيرة التي تؤكد حرص علماء الأزهر على مبدأ الحرية وقيمة العزة بالله وبرسوله وبالإسلام في مواجهة الظلم والاستبداد والقهر .

ومنهم الإمام محمد عبده الذي واجه الطغاة من الحكام والمحتلين على السواء، فقد كان مطالباً بالعدالة والحرية مواجهاً لطغيان الخديوي، معلناً موقفه هذا بحرية وجرأة، ومما يشهد له بهذا : لما سئل الإمام من مكاتب البول ميل جازيت عن رأيه في الخديوي، قال: إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا. ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام.^(٢)

وقد صرح برأيه في الاحتلال الإنجليزي لمصر، وهاجم إنجلترا في عقر دارها.

فعندما زار لندن مبعوثاً من قبل قيادة تنظيم العروة الوثقى، أدلى بحديث إلى صحيفة ((بول ميل جازيت)) عن احتلال الإنجليز لمصر، خاطب فيه الإنجليز بقوله: ((إننا نرى أن انتصاركم للحرية هو انتصار لما فيه مصلحتكم، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل. ولقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكي تكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا. لم لا تغادروا بلادنا في الحال ؟ . لقد علمنا الإنجليز شيئاً واحداً، وهو: التضامن في مطالبكم بالجلاء. شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا، وأردنا لبلادنا إصلاحاً وتقدماً كتقدم الأوروبيين في طريق الحرية، ولكننا الآن نعلم أن هناك ما هو شر من استبداد الحكام، وشر من ظلم الأتراك. وليس في مصر من بلغ به الظلم حداً يرجو معه مساعدتكم . إن لنا إليكم رجاء واحداً، وهو أن تغادروا بلادنا حالاً إلى غير رجعة .^(٣)

٣ - موقع ((التاريخ العربي)) : <http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad24partie12.htm>

١ - ((زعماء الإصلاح في العصر الحديث)) . للأستاذ الدكتور أحمد أمين. ص (٣٠٩ - ٣١٠) .

٢ - ((الأعمال الكاملة)) للإمام محمد عبده. ت / الدكتور. محمد عمارة. (١ / ٨٨) .

وعندما التقى الإمام بوزير الحرية الإنجليزي، لورد : ((هر تنكثون)) ، ويدور بينهما حديث يتناول فيه الوزير الإنجليزي أهل مصر بما يقلل شأنهم، ويطعن في استحقاقهم وأهليتهم للحرية والاستقلال، فيغضب الأستاذ الإمام لوطنه وحريته، ويؤكد رفض طبيعة هذا الوطن لسلطة الحاكم الأجنبي، ويدلل على أهلية هذه البلاد للحرية، وحقها في طرد قوات الاحتلال، فيقول للوزير الإنجليزي: إن المصريين قوم عرب، وكلهم مسلمون إلا قليلا، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس .^(١)

ومنهم الشيخ الإنباي: شيخ الجامع الأزهر دخل عليه اللورد كرومر محبيا فصافحه الأستاذ من جلوس فاستعظم اللورد ما صنع وسأله : ألسن تقوم للخدوي؟ فقال: نعم لأن الخديوي ولي الأمر وهو منا ولست مثله لدينا في شيء .

ولم يقل الشيخ ذلك تزلفا للخدوي توفيق فهو العالم الجريء الذي جابه توفيقا وأفسى بعزله .

ومنهم شيخ الأزهر الشيخ إبراهيم حمروش :

^١ - السابق. (١ / ٨٨ - ٨٩) .

أسند إليه منصب مشيخة الأزهر فى ٣٠ من ذى القعدة سنة ١٣٧٠ (٢ من سبتمبر سنة ١٩٥١م) وبقي متقلدا هذا المنصب الجليل حتى يوم ٩ من فبراير سنة ١٩٥٢ وكان الوطن فى أيام توليه مشيخة الأزهر فى محنة مع الإنجليز فى قناة السويس وفى حاجة إلى جمع الصفوة وتوحيد الكلمة ، فكان للشيخ السهم الموفور فى هذه الدعوة الشريفة ، فتراه ينشر على الناس فى يوم ١٥ / ١ / ١٩٥٢ كتابا يقول فيه :

« أيها المصريون أتوجه إليكم فى هذه الظروف التى غشيتكم فتنتها أن تكونوا إخوانا متآخين متحابين ، رائدكم الإخلاص لبلادكم وأنفسكم **وَلَا تَزْعَوُا فَنَشَلُوا وَنَذْهَبَ رِيحُهُ** وإن شر ما تُبلى به الأمم فى محنتها أن تتفرق كلمتها وأن تنحل وحدتها وتنقطع أواصر المودة بين جماعاتها فيشق العدو الطريق إليها ، وينفذ بسهامه إلى صدور أبنائها .

وهذه مصر بلادكم العزيزة ، ووطنكم المحبوب - تناديكم جميعا شييا وشبانا ، رجالا ونساء ، أقباط ومسلمين أن تكونوا سهاما مسددة نحو عدوها ، وأن تلقوا الغاصب صفا واحدا كأنكم بنيان مرصوص بقلوب لا تعرف إلا الوطن والدفاع عن حريته .

وأذكركم - حتى لا يغيب عن أذهانكم - تاريخ هذا الغاصب الرابض فى دياركم ، وما اعتاده من سياسة التفريق طلبا للسيادة ورغبة فى السلطات ويسطا للنفوذ ، لمصلحته هو لا لمصلحة أحد سواه ، وأذكركم جميعا مسلمين وأقباط بماضيكم المجيد فقد قمتم كتلة واحدة تطالبون باستقلال البلاد واستكمال حريتها وتبوءها مكانة سامية بين الأمم ، وأشهدتم العالم كله على وحدتكم وائتلافكم ، وإنى أعيدكم بالله من التفرقة واختلاف الكلمة لتضيق جهودكم الكبيرة التى بذلتموها فى سبيل عزتكم وعزة بلادكم ، واعلموا أن النصر المؤزر لقضيتنا رهين باتحاد صفوفنا واجتماع كلمتنا ، ووقوفنا جميعا فى وجه عدونا ، حتى تظهر بلادنا بما تصبو إليه من السيادة والحرية والاستقلال ويتمتع أهلها جميعا بالأخوة الصادقة والاطمئنان على أموالهم وأنفسهم » .

وحين اشتد حنق الإنجليز فى القناة والإسماعيلية فأنزلوا عذابهم على القرى الآمنة
- أصدر الشيخ منشورا جاء فيه :

« إن شعب وادى النيل الباسل فى كفاحه السلمى لإخراج المغتصبين المحتلين من
بلادهم لم يجاوز حقه الشرعى فى الدفاع عن عقيدته والمطالبة بحريته ، ولكن هذا الدفاع لم
يرق فى أعين المحتلين من الإنجليز فعملوا بكل الوسائل العدوانية على توهين وحدته واندسوا
فى صفوفه يشيعون الأراجيف لتفريق كلمته ، فلما واجههم الشعب وحدة متراسة وقام فى
وجههم على قلب رجل واحد ، يطالب بحقه فى الحياة الحرة طاشت أحلامهم ولجؤوا إلى
القوة الغاشمة يسلطونها على الأمنين فى ديارهم وعلى النساء فى خدورها وعلى الأطفال
فى مهادها .

وكما زاد الشعب تمسكا بحقه صبرا على هذا العنت زاد عسفهم وتعددت مظالمهم
حتى خرجوا على كل شرعة وبذوا كل ما عرف من ألوان التنكيل التى اشتهرت بها محاكم
التفتيش وما قام به النازيون من أعمال وحشية ، فأزالوا الآمنة من الوجود بدباباتهم
وهدموا البيوت بمدافعهم الثقيلة وشردوا النساء والأطفال الأبرياء ، وانتهكوا كل الحرمات
واعتدوا على المساجد والكنائس ولم يبق جرم إلا ارتكبه ولا شناعة إلا فعلوها ، ولم
تقف شناعتهم فراحوا يطلقون النار على حفظة الأمن ويقتلونهم تقتيلا فى رائعة
النهار ، ويأسرون من نجا منهم .

وإنى باسم الأزهر علمائه وطلابه لأعلن استنكارى لهذا الإجرام الفظيع الذى انتهكت
فيه الأعراض ، واستبيحت الأموال واعتدى على حرية الإنسان وحقه المشروع فى أن يطالب
بحريته واستقلاله ، وأحتج بشدة على هذه الأعمال العدوانية التى تتنافى وجميع الشرائع
والأديان . وأهيب بالضمير العالمى أن يثور على هذا الوضع المهين لكرامة الإنسان ، وأن
يهب لوقف هؤلاء المستبدين عند حدهم ليعلموا أن فى العالم ضمائر تتحرك لنصرة الحق ،
ونفوسا تثور للأخذ بيد العزل المكافحين لنيل حرياتهم .

وليعلم الإنجليز أن هذه الفضائع التى يصيبونها على رؤوس أبنائنا لن تلين للشعب

قناة ، ولن تردده عن المطالبة بجلائهم الناجز عن وطننا العزيز ، وإن وادى النيل كله لن يسكت بعد اليوم على ضيم يراود به ، ولن يفرط فى حق من حقوقه مهما ابتلى بالشدائد ومهما ضحى من أرواح غالية .

وإني إذ أستمطر رحمة الله ورضوانه على شهدائنا الأبرار ، أتوجه إلى أبناء الوطن جميعا مناشدا إياهم أن يشدوا من عزائمهم ، وألا يجعلوا لهذه الأحداث تأثيرا فى نفوسهم ، فلا يهنوا ولا يحزنوا ولا يضعفوا وهم الأعلون إن شاء الله ، فلا بد للجهاد من تضحية وللحرية من ثمن « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

()

ومما يدل على حرصهم على ترسيخ قيمة الحرية في نفوس العامة والخاصة، ما أعطوه مثالا من أنفسهم وحياتهم : خلال العلاقات الأسرية فقد تجاوب العلماء مع فئات مجتمعاتهم المختلفة، ولم يستغلوا مكانتهم الاجتماعية في عقد زيجات لجلب أي عائد مادي أو معنوي بل على العكس من ذلك حرص بعض العلماء على الزواج من جاريته التي يملكها بعد عتقها لتوجيه أبناء مجتمعاتهم إلى تحرير جواريتهم حتى تكون ضمن الخطوات العملية إلى تقليص ظاهرة الرق . (٢)

﴿ قيمة المصالحة الاجتماعية ﴾

المصالحة : الصلح والتصالح . و((الصلح)) : تصالح القوم بينهم . و((الصلح)) : السلم، وقد اصططحوا وصالحوا وتصالحوا واصالحوا مشددة الصاد بمعنى واحد . (٣)

و((الصلح)) : إنهاء الخصومة وإنهاء حالة الحرب والسلم، وقد يوصف بالمصدر فيقال: هو صلح لي . وهم لنا صلح مصالحون . (٤)

وتعريفه اصطلاحاً : عقد يدفع النزاع . ذكره ابن الكمال . (٥)

١ - ((شيخ الأزهر)) (٤ / ٢٢ - ٢٤) .

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٦) .

٣ - ((لسان العرب)) (٢ / ٥١٧) .

٤ - ((المعجم الوسيط)) (١ / ٥٢٠) .

٥ - ((التعاريف)) ص (٤٦٠) .

وعلى هذا فالإصلاح : هو السعي بين الناس بغرض الإصلاح بينهم ، فينمي خيرا ويقول خيرا
عكس النمام الذي يسعى بين الناس بغرض الإفساد .

﴿ الصلح في القرآن الكريم ﴾

لقد ذكر الصلح ومشتقاته مثل الإصلاح، ومتزادفاته مثل السلم في القرآن الكريم، وهذا مما يدل على أهمية هذه القيمة في الإسلام، ودعوته إليها لتقريبها وترسيخها في المجتمع الإسلامي، ذلك لأنها من جملة الأخلاق الكريمة التي تحقق للمجتمع الأمن والتعايش السلمي، والمحبة والتعاون على البر والتقوى. ومن هذه الآيات ما جاء يمدح المصلحين ويأمر بالإصلاح، ويعظم أجره قال سبحانه : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة آية: ١٦٠] وقال : ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي سَمَىٰ قُلُوصًا لِلْإِصْلَاحِ هُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ غَرَضٌ بِكُمْ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٠] وقال : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُزُورًا لِأَيِّمِنَ بِكُمْ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٤] ، وقال : ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء آية: ١٢٨] ، وقال : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنَ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنَ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [سورة النساء آية: ٣٥] ، وقال : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء آية: ١١٤] ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٧٠] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال آية: ١] وقال : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيَّءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ

فَأَتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ [سورة الحجرات آية: ٩ - ١٠]

وقال : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٨]

وهذه الآيات وغيرها تؤكد حرص الإسلام وتأكيده على قيمة المصالحة والتصالح والإصلاح بين الناس، وأنها من أعظم الأمور التي حث عليها الشارع الحكيم حتى يسود بين الناس التواد والمحبة والأخوة الإيمانية، وألا يعكر صفو هذه المحبة والأخوة شيء، وإذا حصل شيء من ذلك وجب الإصلاح فوراً . لأن الإصلاح مصدر الطمأنينة والهدوء، ومبعث الاستقرار والأمان .
ولأن التنازع مفسد للبيوت والأسر، مهلك للشعوب والأمم، سافك للدماء، مبدد للثروات وهادم للمجتمعات، قال الله تعالى يحذر عباده منه : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِسْمُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال آية: ٤٦]

قال الواحدي : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ ولا تختلفوا : ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ تجنبوا
﴿وَتَذْهَبَ رِسْمُكُمْ﴾ جلدكم وجرأتكم ودولتكم . (١)

لأن الخصومات والمشاحنات تنتهك حرمت الدين، ويعم الشر القريب والبعيد، ومن أجل ذلك سمى رسول الله ﷺ فساد ذات البين بالخالقة التي تخلق الدين: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ؓ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالْقِيَامِ ؟)) . قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : ((إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْخَالِقَةُ)) . (٢) وعن الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ؓ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْخَالِقَةُ لَا أَقُولُ: تَخْلُقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أَنْبَأُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ دَاكُمْ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)) . (٣)

١ - ((تفسير الواحدي)) (١ / ٤٤٣) .

٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١١ / ٤٨٩) حديث (٥٠٩٢) .

٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٦٦٤) حديث (٢٥١٠) .

﴿ الصلح والإصلاح في السنة ﴾

إن من مكارم الأخلاق التي أتمها النبي ﷺ الصلح الذي ينبي عليه الإصلاح للنفوس والقلوب والتعاملات والسلوكيات فيما بين الناس، ولذلك اهتم النبي ﷺ بالصلح ورسخ قيمة أخلاقية واجتماعية راقية سامية . وجاءت أحاديث كثيرة عنه ﷺ في هذه القضية الهامة : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ)) . زَادَ أَحْمَدُ : ((إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا)) . وزاد سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ : وقال رسول الله ﷺ : ((الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ)) . (١) وقد نقل عنه ﷺ إصلاحه بين أفراد المجتمع في كل المشكلات الاجتماعية التي يقع فيها التنازع والخصومة، ومن أهم هذه الصور :

(١) - **إصلاحه ﷺ بين الأفراد والجماعات :** عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ : ((اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحْ بَيْنَهُمْ)) . (٢)

(٢) - **إصلاحه ﷺ فيما يقع بين الأزواج والزوجات :** عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قال: ما كان لِعَلِيٍّ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَبِي ثُرَابٍ وَإِنْ كَانَ لَيَفْرَحُ بِهِ إِذَا دُعِيَ بِهِ، جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ : ((أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ ؟)) . فقالت: كان بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَعَاضَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقُلْ عِنْدِي . فقال رسول الله ﷺ لِإِنْسَانٍ : ((انْظُرْ أَيْنَ هُوَ ؟)) . فَجَاءَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ . فَجَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ فَأَصَابَهُ ثُرَابٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ : ((قُمْ أَبَا ثُرَابٍ قُمْ أَبَا ثُرَابٍ)) . وفي هذا تعليم لآباء الأزواج والزوجات وأمهاتهم، أن يسلكوا سبيل الإصلاح بين الزوجين، بالرحمة والكلام اللين الكريم، وتطبيب خاطر للغاضب منهما، ولا يسلكوا سبيل العناد والشقاق فيفسدوا ما بينهما .

(٣) - **إصلاحه ﷺ بين المتدائنين :** عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنُ أَبِي حَذْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ وَكَادَى

^١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ٣٠٤) حديث (٣٥٩٤) .

^٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب (الصلح) باب ((قول الإمام لأصحابه : اذهبوا بنا نصلح)) حديث

(٢٥٤٧) .

كَعْبَ بْنِ مَالِكٍ : ((يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ)) . قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَأَشَارَ يَدِهِ : ((أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ)) . قَالَ كَعْبٌ : قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : ((قُمْ فَأَقْضِهِ)) . (١)

وهذا تعليم منه ﷺ لأئمة ليصلحوا في مثل هذا الميدان بالتدخل لحل مشكلات الديون، والتوفيق بين الأطراف بإيجاد حلول عادلة ومرضية للطرفين .

(٤) - **إصلاحه ﷺ فيما بين القبائل والطوائف** : عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية . فقال : قد اجتمع ملاً بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتى شاباً من اليهود وكان معه، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار .

وكان يوم بعث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج . ففعل، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيطي أحد بني حارثة بن الحرث من الأوس، و جبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتناولوا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئت والله رددناها الآن جذعة . وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة . والظاهرة الحرة فخرجوا إليها وتحاور الناس فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : ((يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، و قطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً)) . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ آلِ كَتَسِبَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِغَايَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة آل

عمران آية: ٩٨]

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١١ / ٤٢٨) حديث (٥٠٤٨) .

(٥) - **إصلاحه ﷺ فيما بين الناس من الأموال :** عن عائشة رضي الله عنها تقول: سمع رسول الله ﷺ صوتَ خصومٍ بالبَابِ عالِيَةٍ أصواتَهُمَا وإذا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ في شَيْءٍ وهو يقول : والله لا أفعلُ . فخرَجَ عليهما رسول الله ﷺ فقال : ((أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ ؟)) . فقال : أنا يا رَسُولَ اللَّهِ . وَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ . (١)

(٦) - **إصلاحه ﷺ فيما بين الناس من خصومة في الدماء :** عن ابن أبي حذَرِدٍ الأسلمي عن أبيه ﷺ قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ وَفِي تِلْكَ السَّرِيَّةِ أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَمُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ بْنُ قَيْسٍ وَأَنَا فِيهِمْ فَبَيْنَا نَحْنُ إِذْ مَرَّ بِنَا عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيُّ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ فَفَتَلَهُ، وَسَلَبَهُ بَعِيرًا لَهُ وَوَطَأَ مِنْ لَبَنِ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ فِيْنَا الْقُرْآنُ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ [سورة النساء آية: ٩٤] قَالَ الْمُحَارِبِيُّ: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ ثُمَّ جَلَسَ إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ فَقَامَ إِلَيْهِ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ عُيَيْنَةُ يَطْلُبُ بَدَمَ الْأَشْجَعِيِّ وَالْأَقْرَعُ يَدْفَعُ عَنْهُ فَاخْتَصَمْنَا بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوِيلًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((بَلْ تَقْبَلُونَ الدِّيَةَ خَمْسِينَ فِي سَفَرِنَا وَخَمْسِينَ إِذَا رَجَعْنَا)) . فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَبِلُوا الدِّيَةَ فَلَمَّا قَبِلُوا الدِّيَةَ قَالُوا : أَيْنَ صَاحِبُكُمْ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ طَوِيلٌ عَلَيْهِ حُلَّةٌ قَدْ تَهَيَّأَ فِيهَا لِلْقَتْلِ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا اسْمُكَ ؟)) . قَالَ : مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((اللَّهُمَّ لَا تَغْفِرْ لِمُحَلَّمِ بْنِ جَثَامَةَ)) . فَقَامَ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَتَلَقَّى دَمْعُهُ بِفَضْلِ رِدَائِهِ . (٢)

حالات يمتنع فيها الإصلاح بين الخصوم :

قد وضع الإسلام ضوابطاً للصلح بين الناس، وأهمها عدم ضياع الحقوق، أو أن يؤدي الصلح إلى تحريم حلال أو تحليل حرام، أو مفسدة أو فتنه، فيحرم الصلح إذا كان في حق من حقوق الله أو مما لا يجوز الاعتياض فيه كالحقوق مثل الزنا واللواط والسرقة، فإذا وقعت خصومة في مثل هذه القضايا فلا يجوز الإصلاح فيها أو الشفاعة، ولا يجوز التنازل لأنها حق من حقوق

(١) - متفق عليه .

(٢) - أخرجه ابن الجارود في ((المتقى)) ص (١٩٦) برقم (٧٧٧) .

الله، ولا يملك أحد إسقاط هذا الحق، أما حقوق العباد فهي تقبل الصلح بالإسقاط أو المعاوضة عليها . وكذلك يتمتع الصلح إذا تبين أن أحد الخصوم ظالم ومعتد في خصومته، وأن قصده الإضرار بالآخرين ونهب حقوقهم ؛ فعندئذ يحرم السعي في الصلح إلا أن يراد نصح وتخفيف بالله، فإن أبي فيجب أن يردع عن فعله ويعاقب؛ لأن الصلح تنازل من الطرفين وتجاوز عن بعض الحق فإذا أعطي الظالم، وتنازل له المظلوم عن بعض حقه وهو مبطل نكون قد أعنا الظالم على المظلوم وكافأناه على ظلمه، وكان في هذا الصلح سبيلا للتحايل لأخذ حقوق الناس بغير وجه حق وفساد عظيم .

وأن لا يشترط الساعي في الصلح إذا تم شرطاً مخالفاً لحكم الله، فإن كان مخالفاً لحكم الله فإنه لا يجوز: عن عائشة: قام رسول الله ﷺ في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ((أَمَّا بَعْدُ . مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شَرْطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةً شَرْطٍ قَضَاءُ اللَّهِ أَحَقُّ وَشَرْطُ اللَّهِ أَوْثَقُ)) الحديث . (١) وأن يكون الصلح قد تم بتراض من الجانبين المتخاصمين .

﴿ أهمية المصالحة وإصلاح ذات البين ﴾

إن الأمة تحتاج إلى إصلاح يدخل الرضا إلى المتخاصمين، ويعيد الوئام إلى المتنازعين، إصلاح تسكن به النفوس، وتأنف به القلوب، إصلاح يقوم به عصبة خيرون، شرفت أقدارهم وكرمت أخلاقهم، وطابت مناباتهم . فئات من ذوي الشهامة من الرجال، والمقامات العلية من القوم، رجال مخلصون ذووا قوة وعقل وإيمان وصبر، يخبرون الناس في أحوالهم ومعاملاتهم، حذاق في معالجة أدوائهم، أهل إحاطة بنفوس المتخاصمين وخواطر المتباغضين ، والسعي بما يرضي الطرفين . فهؤلاء هم خيار الأمة .

ليفوزوا بالنواب العظيم والأجر الكريم ، عن أبي الدرداء ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة ؟)) . قالوا : بلى . قال : ((إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة)) . (٢) ويقول الأوزاعي رحمه الله : ما خطوة أحب إلى الله ﷻ من خطوة في إصلاح ذات البين . (٣)

^١ - متفق عليه .

^٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١١ / ٤٨٩) حديث (٥٠٩٢) .

^٣ - ((تفسير القرطبي)) (٥ / ٣٨٥)

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة الصلح ﴾

كان العلماء قادة اجتماعيين بيدهم الحل والعقد، فهم الوسطاء الذين تسمع كلمتهم في الصلح بين الناس، وفي فض المنازعات التي كانت تصل في كثير من الأحيان إلى حد القتال بالسيوف . (١)

ومن ذلك أيضا على سبيل الذكر ما قام به العلماء حينما أصدر وزير مصر مصطفى باشا فرمانا بنفي ثمانية وعشرين أميرا وقائدا عسكريا من خصومه السياسيين بعد تجريدهم من مناصبهم وأموالهم، فاتجه أكثر هؤلاء الأمراء إلى الجامع الأزهر للاحتماء بحرمه والاستنجاد بعلمائه فما كان من علماء الجامع الأزهر إلا أن عقدوا اجتماعا برئاسة الشيخ سلطان المزاحي الشافعي شيخ الأزهر (١٠٧٥ هـ - ١٦٦١ م) في السابع عشر من ربيع الأول عام (١٠٧١ هـ) للتباحث حول مسألة هؤلاء الفقاريين اللاجئيين إلى الجامع الأزهر، واتفقوا في نهاية اجتماعهم على فرض الحماية هؤلاء اللاجئيين، والمطالبة برد حقوقهم، كما اتفقوا على انتداب أربعة من كبار علمائهم ليتباحثوا مع الوزير مصطفى باشا حول حرية وأمن وحقوق هؤلاء اللاجئيين، ووقع الاختيار على كل من العالم سلطان المزاحي الشافعي، والشيخ العالم على الشبرا ملسي الشافعي، والشيخ العالم محمد المتولي، والشيخ العالم موسى القليمي، وصعد هؤلاء الشيوخ الأربعة إلى القلعة واجتمعوا بالوزير مصطفى باشا فعرفوه بمجيء الجند إلى الجامع الأزهر بعد سماعهم بنأ خروجهم من مصر مع قطع مرتباتهم وضبط بلادهم، وأكد العلماء أن هذا الأمر لا يجوز لأنه لو وقعت منهم ذنوب وكانت تغفر بالتوبة فقد تابوا، واستطاع العلماء أن يقنعوا الوزير بمساعدهم، ونجحوا في حماية هؤلاء الأمراء واستصدار أمر بالصفح عنهم، بل وأصروا على أن تبقى الحجة المتضمنة للعفو عن هؤلاء في أيديهم هم . (٢)

وكان للعلماء التصدر الحقيقي في فض المنازعات ، وكان لهم التصدر الشكلي في حضور المناسبات أيضا - التي ترسخ المصالحة الاجتماعية بين أفراد الشعب وتؤلف بين قلوبهم - فكانوا يشاركون المصريين في الاحتفال بوفاء النيل، حيث يجتمع الوالي وشيخ البلد وكبير المماليك وقاضي القضاة، وكبار العلماء والأعيان، ويكسر الوالي أو نائبه سد الجسر، فإذا جرى الماء في الخليج يشق القاهرة، وتفيض منه بركة الأزبكية وغيرها من منازل القاهرة ورياضها، خرج أهلها

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٥) .

^٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٨ - ٣٩) .

في مباحثهم إلى المقياس والروضة وغيرها يتنزهون، وتطلق المدافع وتقام الزينات على البيوت، وتضاء القناديل فيها . كما كانوا يشاركون أيضا في الاحتفال بخروج الحمل في النصف الأخير من شوال من كل سنة، ويوم رؤية هلال رمضان، وغير ذلك . (١)

ومما يؤكد حرصهم على إقرار المصالحة الاجتماعية، حسن معاملتهم لأهل الكتاب من نصارى مصر : ما ذكره الجبرتي في أحداث سنة ١٢٢٣ هـ من نقصان النيل وانتظار الناس وفاءه فلم يف، فانزعجوا انزعاجا شديدا، وأمر علماء الأزهر الناس بصلاة الاستسقاء، وأقيمت صلاة الاستسقاء، وزاد النيل زيادة قليلة ثم نقص، فاتفق العلماء على التوجه مع الناس إلى جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه لصلاة الاستسقاء مرة أخرى، وأشاروا بخروج النصارى من أهل مصر معهم فاشتركوا وجاء المعلم غالي كبيرهم ومعه كثير منهم فجلسوا في ناحية المسجد، حتى أتم المصلون صلاتهم ودعاءهم، ولم تمض ليلة واحدة حتى أوفي النيل وزاد ماؤه حتى غطى على المقياس، وبعد ذلك بيوم واحد نودي في الناس بوفاء النيل، وأطلقت المدافع وأقيم الاحتفال المعتاد، ويقول الجبرتي : إن بعض الأقباط فرح فرحا شديدا بذلك، وكان يقول: إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجهم للصلاة . (٢)

ولقد أقام علماء الأزهر الشريف أروع الأمثلة في التعامل مع نصارى مصر حيث تعايشوا معهم بالبر والرحمة والإنصاف، فتربى المصري على التعامل مع أخيه المصري دون تفرقة بسبب الدين، وكان هذا معلما بارزا من معالم الشخصية المصرية أوجده وكونه وشكله الأزهر الشريف بعلمائه ورجاله وفكره وفقهه للدين، ويوم ضعفت سيطرة الأزهر على الشخصية المصرية وتبع الناس فقها غير أزهرى أطلت الفتنة الطائفية برأسها، لقد أوجد هذا النوع من التدين البعيد عن الأزهر الشريف الخلاف والشقاق بين المسلمين وبعضهم البعض، وبين المسلمين وبين غيرهم من أهل الكتاب .

ومن الأدلة على ترسيخ علماء الأزهر لقيمة التصالح الاجتماعي والتعايش السلمي المكفول للمسلمين وغيرهم والحفاظة على حقوقهم ما : قد حدث أن بطريرك الأقباط بطرس السادس، كان شديدا على شعبه في مراعاة الأمور الدينية، صلبا في منعهم مما ينهى عنه الدين، وخاصة في الزواج والطلاق، ووقع بين البطريرك وبين كبير الأمراء في ذلك الوقت ابن إيواظ نزاع شديد

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٥) .

^٢ - (انظر روايته بالتفصيل في ((عجائب الآثار)) (٣ / ٢٣٩ - ٢٤٠) .

على أمر من أمور المسيحيين في مصر بسبب تشدد البطريك وصلابته، وناصر ابن إيواظ كثير من أهل الرأي والمكانة، وعرض النزاع على العلماء فأفتوا بحق بطرس السادس فيما يطلب، ونصروه على ابن إيواظ .^(١)

﴿ دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة المصالحة الاجتماعية ﴾

إن ترسيخ قيمة المصالحة الاجتماعية والصلح بين أفراد المجتمع المصري خاصة والمجتمعات الإسلامية عامة، أصبح من أكثر الضرورات الملحة التي لا بد للمجتمع أن يرسخها، ويطبقها في الواقع، خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير، والتي خلفت بعدها بؤرا كثيرة من الفتن والفرقة والشحناء والتباغض بين الناس وطوائف المجتمع، أثرت هذه الأحداث في شق صفوف المصريين، وانتشار الحقد والتناحر، فوجب على علماء الأزهر أن يقوموا بدورهم في المصالحة الاجتماعية والصلح بين طوائف المجتمع وأحزابه وفئاته، لنبدأ عهدا جديدا يقوم على التصالح والتسامح ليتم التوافق والانسجام الاجتماعي المنشود، حفاظا على وطننا وهويتنا وخدمة لديننا ومجتمعنا، ونعيد تأسيس علاقاتنا بعضنا مع بعض على أساس الاحترام والمحبة والتوافق على الأساسيات، ويعذر كل منا الآخر في الفرعيات ووجهات النظر، ليسع كل منا الآخر، ولنبني وطننا ويوفقنا الله تعالى إلى الفلاح ويؤيدنا بالنجاح .

﴿ قيمة التناصح ﴾

التناصح والنصيحة من النصح . وتعريف النصح في اللغة : ((النصح)) : نصح الشيء خلص . والتناصح : الخالص من العسل وغيره . وكل شيء خلص فقد نصح . ويقال: نصحت له نصيحتي نصوحا . أي : أخلصت وصدقت . والاسم ((النصيحة)) . والنصيح : التناصح . و قوم نصحاء . قال الجوهري : وانتصح فلان . أي : قبل النصيحة .^(٢) وأصل النصح في اللغة : الخلوص . يقال نصحته ونصحت له . ومعنى ((نصيحة الله)) : صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته . و((النصيحة لكتاب الله)) هو : التصديق به والعمل بما فيه . و((نصيحة رسوله ﷺ)) : التصديق بنبوته ورسالته والانقياد لما أمر به ونهى

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٧) .

^٢ - ((لسان العرب)) (٢ / ٦١٥) .

عنه . و ((نصيحة الأئمة)) : أن يطيعهم في الحق ولا يرى الخروج عليهم إذا جاروا و ((نصيحة عامة المسلمين)) : إرشادهم إلى مصالحهم . (١)
واصطلاحاً : النصيحة هي : الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد . (٢)

﴿ ذكر النصيحة في القرآن ﴾

ذكرت النصيحة في القرآن بلفظها ومعناها ومن هذه الآيات :
قال الله تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ٦٢] وقال سبحانه : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [سورة الأعراف آية: ٦٨] وقال : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة هود آية: ٣٤] وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة آية: ٩١] وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٧٠ - ٧١]

﴿ النصيحة في السنة ﴾

وأما الأحاديث فقد ذكرت النصيحة وفضلها، وأنها من أعظم قيم الإسلام وأخلاق المسلمين فيما بينهم، ومن هذه الأحاديث الشريفة : عن تميم الداري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) . قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : ((لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)) . (٣)
قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث : وهذا الحديث من الأحاديث التي قيل فيها أنها أحد أرباع الدين، ومن عده فيها الإمام محمد بن أسلم الطوسي، وقال النووي: بل هو وحده محصل لغرض الدين كله، لأنه منحصر في الأمور التي ذكرها، فالنصيحة لله وصفه بما هو له أهل،

١ - ((النهاية في غريب الأثر)) (٥ / ٦٢) .

٢ - ((التعريفات)) . ص (٣٠٩)

٣ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الإيمان)) باب ((بيان أن الدين النصيحة)) حديث (٥٥) .

والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرغبة في محابه بفعل طاعته، والرغبة من مساخطه بترك معصيته، و
الجهاد في رد العاصين إليه، وروى الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامة صاحب على
قال : قال الحواريون لعيسى عليه السلام : يا روح الله من الناصح لله ؟ . قال : الذي يقدم حق
الله على حق الناس . والنصيحة لكتاب الله تعلمه وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة وتحريرها في
الكتابة، وتفهم معانيه وحفظ حدوده، والعمل بما فيه وذبح تحريف المبطلين عنه . والنصيحة
لرسوله تعظيمه ونصره حياً وميتاً وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها والاقتداء به في أقواله وأفعاله
ومحبته ومحبة أتباعه . والنصيحة لأئمة المسلمين إعانتهم على ما حملوا القيام به، وتنبههم عند
الغفلة، وسد خلتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم
نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن، ومن جملة أئمة المسلمين أئمة الاجتهاد . وتقع
النصيحة لهم ببث علومهم ونشر مناقبهم، وتحسين الظن بهم . والنصيحة لعامة المسلمين بالشفقة
عليهم، والسعي فيما يعود نفعه عليهم، وتعليمهم ما ينفعهم، وكف وجوه الأذى عنهم، وأن
يجب لهم ما يجب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه . (١)

وعن زياد بن علقمة قال: سمعت جرير بن عبد الله يقول : يوم مات المغيرة بن شعبه قام
فحمد الله وأثنى عليه وقال : عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللَّهِ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ
أَمِيرٌ، فَإِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ الْآنَ . ثُمَّ قَالَ : اسْتَغْفِرُوا لِأَمِيرِكُمْ فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْعَفْوَ . ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي
أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ : أَبَايُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ . فَشَرَطَ عَلَيَّ : ((وَالنُّصْحَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)) . فَبَايَعْتُهُ
عَلَى هَذَا وَرَبِّ هَذَا الْمَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ . (٢)

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)) .
(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ)) . قِيلَ :
مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قَالَ : ((إِذَا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ
لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ وَإِذَا مَرِضَ فَعُدُّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ)) . (٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه
عن رسول الله ﷺ قَالَ : ((مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ
وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا وَجَعَلَ يَحْجِرُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَفَحَّمْنَ فِيهَا قَالَ : فَذَلِكُمْ مَثَلِي
وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجَرِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَفَحَّمُونَ فِيهَا)) . (٥)

١ - ((فتح الباري)) (١ / ١٣٨) .

٢ - متفق عليه واللفظ للبخاري .

٣ - متفق عليه .

٤ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((السلام)) باب ((حق المسلم على المسلم)) حديث (٢١٦٢) .

٥ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الفضائل)) باب ((شفقتي ﷺ على أمته)) حديث (٢٢٨٤) .

﴿ أهمية التناصح والنصح الاجتماعي ﴾

إن التناصح فيما بين الناس معلم من معالم هذا الدين؛ بل إنه الدين . وإنه السبيل لانحصار الفساد، ومحو آثار المفسدين، وإنه حق من حقوق المسلمين، وبند من بنود البيعة التي بايع فيها الصحابة سيد المرسلين ﷺ .

وإن النصيحة هي الطريق الأنجع لتصحيح الأخطاء، ومعالجة العيوب واستدراك النقص وسد الخلل، فالؤمن من آفة أخيه، بها تشيع الفضائل، ويُتخلى عن الرذائل، وهي طريقة ساداتنا من المرسلين، ووسيلتهم في الدعوة، وهي من أبلغ وأفضل صور التواصل بالحق الذي وصف الله به عباده المفلحين، والنصيحة وسيلة من وسائل محاصرة الفساد، إذ العصيان والفساد أمراض سريعة الانتشار، فإن لم تجد من يقف أمامها فيأخذ على أيدي الظالمين والمفسدين، عم الفساد وانتشرت المعصية ، إنه ليس أدل على رقي الأمة واستقامة ضمائرنا من تمسكها بخلق التناصح فيما بينها حتى نستطيع النجاة والتجاوز بالأمة من هذه الخن والفتن، أما إذا عطلت النصيحة وامتنع قبولها فهو الفساد والدمار والهلاك : عن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى خُدُودِ اللَّهِ وَالْوَقْعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا)) . (١)

وإنك لتقرأ في تاريخ سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين والخلفاء والعلماء فيعجبك ما تراه بينهم من صدق اللهجة، ووفاء الأخوة، وقيام بواجب النصح، وترحيب بالنقد البريء الهادف، مما تشعر معه أنك إزاء أمة لم تخلد في التاريخ بسيف ولا تدمير؛ وإنما خلدت بخلق قوي، ونفوس كريمة، وعقول راجحة وأخوة صادقة مع جهاد ودعوة . ومما يدل على هذا ما روي من تاريخهم المشرق المشرف : عن الحسن قال: قال رجل لعمر رضي الله عنه : اتق الله يا أمير المؤمنين فوالله ما الأمر كما قلت . قال: فأقبلوا على الرجل . فقال : لا تألت (٢) أمير المؤمنين . فلما رأهم أقبلوا على الرجل قال : دعوهم . فلا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم تقل لنا . (٣)

^١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الشركة)) باب ((هل يُقَرَّغُ فِي الْقِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ)) حديث

(٢٣٦١) .

^٢ - تجهد وتتعب .

^٣ - أخرجه النعماني في ((أخبار المدينة)) (١ / ٤١٠) برقم (١٣٢١) .

﴿ أسباب نجاح التنصيح الاجتماعي ﴾

وبجملته القول : إن أسباب نجاح التنصيح الاجتماعي تتمثل في هذه الأسباب :

(١) - **الصدق : في النصيح** : ابتغاء رضا الله تعالى وإصلاح المجتمع وحال الأفراد المنصوحين، مع استخدام الحكمة في التوجيه، كما كان حال النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة النحل آية: ١٢٥]

(٢) - **الأمانة : في النصيحة** : وفي إرادة الخير للمنصوح وهذا خلق كريم تحلى به الأنبياء ففي خبر هود عليه السلام قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ رَسَلْنَا مِنْ أَمَمِنٌ ﴾ [سورة الأعراف آية: ٦٨].

(٣) - **تعهد النصيح على انفراد** : في حالة النصيح للأفراد، وتجنب النصيح أمام الملاء فلربما أورت التشهير تعنتاً وتمنعاً وعناداً . وكم ترى من امرئ يعلن النصيحة وهو يُشهر بالفضيحة ! . فيذكر ك بما يسوؤك، ويزجرك أمام الملاء، وما ذاك فعل الناصح الموفق، ذكر ابن عبد البر في ((بهجة المجالس)) عن مسعر قال : رحم الله من أهدى إلى عيوبي في سر بيني وبينه فإن النصيحة في الملاء تقريع . (١)

وقد كان من هدي النبي ﷺ إذا أراد العتاب وتقديم النصيح وأراد أن يخص أحدا بعينه في جماعة يقول : ((ما بال أقوام)) . فلم يكن ليسمي بل يعرض ويكني . قال سليمان الخواص: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما فضحه . وعن عبد الله بن المبارك قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره، أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في أمره ويؤجر في نهيه، فأما اليوم فإذا رأى أحد من أحد ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره . (٢)

﴿ النصيحة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾

((المعروف)) : هو اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى

^١ - ((الآداب الشرعية)) (١ / ٣٠٥) .

^٢ - ((روضة العقلاء)) لأبي حاتم ص (١٥٨) .

الناس، وكل ما ندب إليه الشرع .^(١) وقال ابن الأثير: ((المنكر)) ضد المعروف، وهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر .^(٢)

ويطلق اسم المعروف على ما عرف بأدلة الشرع من أعمال البر، سواء جرت به العادة أم لا .^(٣) وقال ابن حجر الهيتمي: المراد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمر بموجب الشرع والنهي عن محرماته .^(٤)

فالمعروف في الشرع ما كان مطلوب الفعل على سبيل الوجوب أو الندب، والمنكر ما كان مطلوب الترك على سبيل التحريم أو الكراهة، أما المباح فلا يوصف بأي منهما إذ يستوي في الشرع فعله وتركه .^(٥)

﴿ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾

قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنها من أعظم القيم التي تحتاجها المجتمعات عامة والإسلامية خاصة، فهي قيمة لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم .^(٦) وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل عظيم من أصول الإسلام، ولا شك أن صلاح العباد في معاشهم ومعادهم متوقف على طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، وتام الطاعة متوقف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١١٠] وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية هذا الأمر أهمية بالغة، ففيه تحقيق الولاية بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة آية: ٧١] وهو من أسباب النصر على

٣ - ((لسان العرب)) (٢٤٠ / ٩) . و ((النهاية في غريب الحديث)) (٢١٦ / ٣) .

٤ - ((النهاية في غريب الحديث)) (١١٥ / ٥) .

٥ - ((فتح الباري)) (٤٤٨ / ١٠) .

٦ - ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (١٤٦ / ٢) .

١ - ((الزبدة الفقهية في شرح الروضة البهية)) ل محمد حسن ترحيني (٦٦٩ / ٣) .

٦ - ((الموافقات)) للشاطبي . تحقيق : إبراهيم رمضان (٣٢٤ / ٢)

الأعداء، والتمسكين في الأرض. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ﴾ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ [سورة الحج آية: ٤١]

وفيه التوفيق للدعاء والاستجابة. عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ)) . (١)

والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مكفريات الذنوب والخطايا، ففي الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((فَتَنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ)) . (٢)

وقد أظهر الله حكمه بفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران آية: ١١٠] ففي الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصل . وقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل كونوا كلكم أمرين بالمعروف . بل قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ . فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين له ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . (٣)

﴿ من الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ ﴾

لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به، فقيها فيما ينهى عنه، رفيقا فيما يأمر به، رفيقا فيما ينهى عنه، حليما فيما يأمر به، حليما فيما ينهى عنه . (٤)

وقد وضع السلف الصالح معايير وصفات من يقوم بهذا الواجب : عن علي أبي عبد الله بن الربيع الصوفي قال : دخلت على سفيان بالبصرة ، فقلت : يا أبا عبد الله . إني أكون مع هؤلاء المحتسبة فندخل على هؤلاء الخبيثين، ونتسلق على الحيطان ؟ قال : أليس لهم أبواب ؟ قلت :

١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٤٦٨) حديث (٢١٦٩) .

٢ - متفق عليه .

٣ - (إحياء علوم الدين) (٢ / ٣٠٦) .

٤ - المرجع السابق ، ص (١٨) .

بلى . ولكن ندخل عليهم لكيلا يفروا . فأنكر ذلك إنكارا شديدا، وعاب فعائنا، فقال رجل : من أدخل ذا ؟ قلت : إنما دخلت إلى الطبيب لأخبره بدائي، فانتفض سفيان وقال : إنما أهلكنا أنا نحن سقمى ونسمى أطباء. ثم قال : لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث : رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى . وعن حنبل: أنه سمع أبا عبد الله يقول : والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجلا مبائنا معلنا بالفسق والردى، فيجب عليك نهيه وإعلامه؛ لأنه يقال : ليس لفاسق حرمة، فهذا لا حرمة له. وقال أحمد بن حنبل: كان أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون، يقولون : مهلا رحمكم الله . وعن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل يقول : ما أحب الرجل إذا كان يأمر وينهى أن يقوم في مسجد من المساجد أو في سوق من الأسواق ييكت الناس ويؤنبهم من غير أن يرى منكرا، وما أحب له إذا رأى منكرا أن يسكت إلا أن يخاف. وقيل لإبراهيم بن أدهم: الرجل يرى من الرجل الشيء أو يبلغه عنه أيقول له ؟ قال : هذا تبكيت، ولكن يعرض به . وعن صالح بن زنبور قال : سمعت أم الدرداء تقول : من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه . (١)

لذلك كانت مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات أهل العلم لا المتعلمين، و ذلك لأن هذا الواجب قد ينقلب إلى شهوة عند بعض أصحاب القلوب المريضة، فيتعاطم الأمر في صدورهم زعما منهم أنه من حقوقهم الخاصة وأنه من باب الغيرة على الدين يقومون بذلك، فينتهي بهم الأمر إلى انتهاك الحرمات، والاعتداء على المسلمين، فيؤدي هذا إلى منكر أكبر مع عدم الفهم وغياب الفقه والعلم، وهذا ما عانت منه الأمة في الأزمنة الأخيرة، من ظهور تيارات التكفير والخروج على المجتمع بحجة تغيير المنكر، والنظرة إلى الناس بعين الازدراء والتحقير، و لذلك كان من الواجب فهمه أن مهمة تغيير المنكر أول ما تكون تكون من واجبات الحاكم، ثم العلماء وليس عامة الناس حتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد عظيم .

وقبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العلماء الثقات يلقي الترحيب من المنصوحين ويقابل بالقبول، ذلك لأنهم أهل هذه الوظيفة النبوية وميراثهم من نبيهم ﷺ، في حين قد يقابل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضد هذا إذا صدر ممن ليس أهلا له، كمدع للعلم أو الصلاح والناس لا يرون فيه هذا، مما يدفعهم إلى العناد، خاصة إذا كان الأمر الناهي لا تتوافر فيه صفات الداعي إلى سبيل الله ورسوله بالحكمة والموعظة الحسنة واللين في الطبع والقول، ودمائة الخلق

^١ - ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) للخلال ص (٣٨) و (٥٠) .

وفتح أبواب الرحمة للخلق، لأنهم أدلاء للخلق على الحق ومهمتهم رد الشاردين على الله وإقامتهم على الصراط المستقيم .

﴿ واجب الدولة تجاه إحياء قيمة النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾

لا نقصد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن نحصره في مجال الشريعة والعبادات فقط، بل كل عالم في مجاله فقيه فيه، فالطبيب فقيه في الطب، ويجب عليه أن يقوم بواجبه في نصح المجتمع عامة، وأن يأمر بالمعروف في مجاله بالإرشاد إلى ما يحافظ على سلامة الفرد والمجتمع في الناحية الصحية والطبية، وأن ينهى عن المنكر بتحذير المجتمع مما يضر صحة الفرد والجماعة والبيئة . والمدرس في مجاله فقيه يقوم بواجب النصيحة لتلامذته، ويأمرهم بالمعروف، وذلك بإرشادهم إلى الأخلاق القويمة وتعليمهم ما ينفعهم ويعود على مجتمعهم بالتقدم والرقى، وينهاهم عن المنكر وتوجيههم بالانصراف عن كل ما يفسدهم.... إلخ

والسياسي فقيه في مجاله يقوم بواجبه تجاه الفرد والمجتمع في النصح بتعريف الناس بحقوقهم السياسية من غير انحياز ولا عدا، ويأمر بالمعروف بأن يتسم بالإيجابية وعدم الانحياز، وينهى عن المنكر بالتحذير من أفعال أو اتجاهات تضر بكيان الدولة وأمنها واستقرارها خارجيا وداخليا.

وهكذا كل منا لا بد أن يقوم بواجبه في النصيحة لمجتمعه أفرادا وجماعات حتى نستطيع أن نهض ببلادنا وقيمنا مرة أخرى لنكون خير أمة أخرجت للناس.

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة النصح ﴾

لا زال علماء الأزهر هم أول من يقوم بواجب النصيحة في كل مجالات الحياة، لأنهم ورثة النبي ﷺ، وقد نشروا النصح في حلقات العلم والدروس والخطب، ونصحوا الحكام والولاة بما يسهم في رفع الظلم واستقرار البلاد، وعملوا على إحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولاً وعملاً حتى وإن وصل الأمر للتهديد .

ولنا في الإمام الأكبر حسن مأمون القدوة فقد وقف موقفاً يشهد له التاريخ حين أصر على إلغاء تصاريح بيوت الدعارة في مصر، فقد كان عارا في جبين المسلمين في العالم الإسلامي عامة، وفي مصر خاصة، وكان قد وضعه الاستعمار ونص عليه بصفة رسمية، حتى ينتشر الفساد في المجتمع و الانحلال في الأمة بحجة واهية لا أساس لها من الصحة .^(١)

^١ - ((شيوخ الأزهر)) سعيد عبد الرحمن (٨ / ٤) .

وشيوخ الإسلام زكريا الأنصاري : قد كان الكثير من أفراد الشعب يلوذون به لقضاء حوائجهم عند الأمراء والوجهاء، فكان يقضيها لهم، وكان يؤثر الجلوس إلى البسطاء والسعي في حل مشكلاتهم عند أولي الشأن، وكما كان عليه حريصا على بذل الخير للرعية، فإن حرصه كان شاملا للرعي أيضا، فكان مناصحا للحكام مجاهرا بالحق عندهم، حريصا على صلاح أمورهم دنيا وأخرى، وقد ذكر الشيخ بعض ما جرى بينه وبين السلطان قايتباي الذي كان يعلم صدقه في النصح وحرصه على الأمة، فقال : ما كان أحد يحملني كما يحملني السلطان قايتباي، كنت أخط عليه في الخطبة حتى أظن ما عاد قط يكلمني، فأول ما أخرج من الصلاة يتلقاني، ويميل يدي ويقول : جزاك الله خيرا . فلم تزل الحسدة بنا حتى أوقعوا بيننا الوقعة، وكان ماسكا لي الأدب، ما كلمني كلمة تسوءني قط، ولقد طلعت له مرة فأغلظت عليه القول فاصفر لونه، فتقدمت إليه وقلت : والله يا مولانا إنما أفعل ذلك معك شفقة عليك، وسوف تشكرني عند ربك، وإني والله لا أحب أن يكون جسدك هذا فحمة من فحم النار . (١)

ومن أخبارهم عليه السلام : الشيخ علي الصعيدي: فقد كان ذا مهابة توجب على علي بك الكبير أن يقبل يده، وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتي بتحريمه، فصار على بك يحرص على أن يخفي أدوات التدخين إذا علم بمجيئه خشية من غضبه، وكان الناس يلجئون إليه إذا مسهم الضر فيسجل شكاواهم في صحيفة خاصة، ويتحدث مع الحاكم في كل شكوى على حدة، ولا يلقي بالا لتضايقه البارز في قطوب وجهه، بل كان يصيح في وجهه قائلا: لا تأسف فالدينا فانية وسيئالنا الله عن تأخرنا في نصحك إن لم نفعل . ثم يمسك بيده قائلا : أنا أخاف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب . وقد لاحظ تلكوا في إجابة بعض مطالبه فخرج غاضبا ونفر الناس وراءه وارتبك الأمير فحاول اللحاق به معتذرا فأصر الشيخ على ألا يعود وأخذ يتلو قول الله : ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

﴿سورة هود آية: ١١٣﴾ (٢)

١ - ((رسالة الأزهري)) عدد شهر رمضان سنة ١٤٣٢ هـ ص (١٣)

٢ - المصدر : <http://cb.rayaheen.net/showthread.php?tid=34118>

﴿ دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة النصح ﴾

يتعاضد دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة النصح والمناصحة الاجتماعية، بعد كل تلك الأحداث التي مرت بها مصر، لذلك نأمل في تفعيل دوره في ترسيخ هذه القيمة الكريمة، ذلك لأن النصح هو منهج الإسلام، والنصح يتم به إصلاح الأخلاق والمجتمع، فواجب على العلماء والدعاة الأزهريين أن ينشروا قيمة النصح، وأن يبذلوه بشروطه من لين الجانب، وحسن الكلام والتصرف، بصدق وإخلاص وابتغاء للحق، والتحذير من الانفراد بالرأي، وترسيخ قيمة المشاركة في الآراء، من أجل البناء والتعمير والتوافق الاجتماعي وتصفية القلوب، والتعاون من أجل هذا الوطن الكريم .

﴿ قيمة التعاون ﴾

التعاون من ((العون)) وهو: الظهير على الأمر والجمع الأعوان . والمعونة: الإعانة . و تعاون القوم أعان بعضهم بعضا واعتنوا أيضا مثله . (١)
واصطلاحا : هو مساعدة الناس بعضهم بعضاً في الحاجات وفعل الخيرات .

﴿ ذكر التعاون في القرآن ﴾

قد أمر الله سبحانه بالتعاون، فقال: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٠٠ ﴾ [سورة المائدة آية: ٢٠٠] قال الأخفش : هو مقطوع من أول الكلام وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي: ليعن بعضكم بعضا وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه، وهذا موافق لما روي عن النبي ﷺ أنه قال : ((الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ)) . وقد قيل: الدال على الشر كصانعه . (٢)

١ - ((لسان العرب)) (١ / ١٩٤) .

٢ - ((تفسير القرطبي)) (٦ / ٤٦ - ٤٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [سورة الماعون آية: ٧] وعن عبد الله ﷺ قال : هو ما تَعَاوَنَ الناسَ بَيْنَهُمُ الْفَأْسُ وَالْقَدْرُ وَالِدَّلُ وَأَشْبَاهُهُ . (١)

﴿ فضل التعاون ﴾

لقد جعل الله سبحانه وتعالى التعاون فطرة جبلها في جميع مخلوقاته، صغيرها وكبيرها ذكرها وأنثاها، الإنس والجن، فلا يمكن لأي مخلوق أن يواجه كل أعباء الحياة ومتاعبها منفرداً، بل لابد أن يحتاج إلى من يعاونه ويساعده، لذلك فالتعاون ضرورة من ضروريات الحياة التي لا يمكن الاستغناء عنها، فبالتعاون ينجز العمل بأقصر وقت وأقل جهد، ويصل إلى الغرض بسرعة وإتقان، والتعاون هو: المساعدة على الحق ابتغاء الأجر من الله سبحانه .

أنواع التعاون

والتعاون نوعان: ((الأول)) : مما أمر الله ﷻ وأمر الرسول ﷺ به، فهو التعاون على البر والتقوى أي في كل وجه الخير والطاعة لله ﷻ كمثل التعاون في تزويج الشباب، والتعاون في العلم، وتفريج كربات المهمومين وسد حاجات المعوزين، وكفالة الأيتام والفقراء، وعلاج المرضى... إلخ . قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر]

و((الثاني)) : التعاون على الإثم والعدوان، فهذا الذي حرمه الله ﷻ ورسوله ﷺ كالإعانة على الباطل، والإعانة على معصية، أو أخذ مال بغير حق، أو ظلم أحد، ونحو ذلك .

﴿ أهمية التعاون في الإسلام ﴾

لقد حث الإسلام على قيمة التعاون فيما بين المؤمنين، وعظم أجرها وأمر بها، وقد سبق ذكره في القرآن الكريم، وجاءت السنة تظهر فضل التعاون على الخيرات والبر والتقوى والطاعات، ومن هذا : عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالنَّبِيِّانِ

^١ (- أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٢ / ٢٤٠) برقم (١٠٦١٨) .

يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)) . وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ . (١) وَعَنْ عَرْفَجَةَ بْنِ شَرِيحٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ((سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ أَوْ يُرِيدُ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَمْرُهُمْ جَمِيعٌ فَاقْتُلُوهُ كَأَنَّا مَنْ كَانَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْتَكِضُ)) . (٢)

وإن التعاون في الإسلام لا بد أن يكون عملاً وليس شعاراً يرفع ، لأن رسول الله ﷺ يريدنا أمة واحدة من غير تفرق ولا تشرذم، والتعاون الحق لا يثمر إلا جماعة واحدة قوية متعاونة متألّفة متوافقة، وهذا ما أمرنا به، ولم نؤمر بالشقاق والخلاف والفرقة وأن يكون المسلمون كاليد الواحدة، والجسد الواحد، يهتم بعضهم لهموم بعضهم، ويجزن لحزن غيره من إخوانه في الإسلام، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم و من لم يصبح ويمس ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم)) . (٣) وذلك لأن مراد الله منا أن نتعاون ونتألف كالجسد الواحد يصح جميعاً ويمرض ويتألم جميعاً، عن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى)) . (٤) كذلك نترأحم جميعاً ويسود بيننا التعاطف فيما بيننا والود والرحمة، ولن يكون هذا إلا بالتعاون .

وبالتعاون تستر عورات المسلمين مثل عورة الفقر والاحتياج، ويتم التكافل فيما بيننا، و يرضى عنا ربنا ﷻ، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه يقول : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ أَرْضٍ فَلْيُزْرِعْهَا أَوْ لِيُزْرِعْهَا أَخَاهُ وَلَا تَبِيعُوهَا)) . فَقُلْتُ لِسَعِيدٍ مَا قَوْلُهُ : ((وَلَا تَبِيعُوهَا)) . يَعْنِي الْكَرَاءَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . (٥) وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ : فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ)) . قَالَ : فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ . (٦)

١ - متفق عليه .

٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٠ / ٤٣٨) حديث (٤٥٧٧) .

٣ - أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٧ / ٢٧٠) حديث (٧٤٧٣) .

٤ - متفق عليه .

٥ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البيوع)) باب ((كراء الأرض)) حديث (١٥٣٥) .

٦ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((اللقطة)) باب ((استجاب المؤاساة بفُضُولِ الْمَالِ)) حديث (١٧٢٨) .

ولو أننا طبقنا هذه الوصايا الشريفة فيما بيننا، لما وجدنا فقيرا مسلما في الأرض، ولكننا أقوى أمة في الأرض، ولأسسنا أسمى وأرقى المجتمعات كما أسسه النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، حيث قرر مبادئ الأخوة الحقيقية فيما بين المهاجرين والأنصار ﷺ حتى بلغ الأمر في بدايته أن المهاجر يرث الأنصاري كورثته من القرابة، ثم نسخ هذا الحكم وصارت الوصية جائزة في حقهم، عن ابن عباس ﷺ: ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ ﴾ [سورة النساء آية: ٣٣] قال: وَرَثَةً ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدْتُ ﴾ قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري ذون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم فلما نزلت: ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ ﴾ نسخت. ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدْتُ أَيْمَنُكُمْ ﴾ إلا النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصي له. (١)

وعن أنس ﷺ قال: قدم عبد الرحمن بن عوف ﷺ المدينة فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ﷺ فعرض عليه أن ينصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلْنِي عَلَى السُّوقِ. فَرِيحَ شَيْءٍ مِنْ أَقْطِ وَسَمَنْ فَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضُرٌّ مِنْ صُفْرَةٍ. فقال النبي ﷺ: ((مَهِيْمٌ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ)) . قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ. قال: ((فَمَا سَقَتْ فِيهَا ؟)) . فقال: وَزَنْ نَوَاقٍ مِنْ ذَهَبٍ. فقال النبي ﷺ: ((أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ)) . (٢)

فغنموا ﷺ من التعاون فيما بينهم محبة الله ورضاه، والسعادة ومحو الضغائن والحقد والحسد من القلوب .

وقد بلغت عظمة الإسلام أنه أمر بالتعاون حتى مع الخدم والرقيق تكريما لآدميتهم، وتحقيقا لمعنى الأخوة في الإسلام، ليؤكد أنه يدعو إلى التطبيق لهذه الفضائل في الواقع وليست رفع شعارات جوفاء بدون تحقيق، عن المعرور قال: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبْدَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ؟. فقال: إِنْ سَأَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: ((يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعْيُوهُمْ)) . (٣)

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الكفالة)) باب ((قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدْتُ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾)) حديث (٢١٧٠) .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((فضائل الصحابة)) باب ((كَيْفَ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ)) رقم (٣٧٢٢) .

٣ - متفق عليه .

والمسلم إذا كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، هذه هي المبادئ التي أسس عليه الإسلام أخلاق الأمة والمجتمع .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت : يا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الْأَغْنِيَاءُ بِالْأَجْرِ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَحُجُّونَ . قال : ((وَأَنْتُمْ تُصَلُّونَ وَتَصُومُونَ وَتَحُجُّونَ)) . قلت : يَتَصَدَّقُونَ وَلَا تَتَصَدَّقُ . قال : ((وَأَنْتَ فِيكَ صَدَقَةٌ رَفَعَكَ الْعَظَمَ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَهَدَايَتِكَ الطَّرِيقَ صَدَقَةٌ، وَعَوْنُكَ الضَّعِيفَ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ صَدَقَةٌ)) . الحديث (١)

وتبدو أهمية التعاون في كونه من مبادئ الإسلام، وفضيلة من فضائله التي حثّ عليها ودعا إليها، وكذلك لأنه يشيع روح الألفة والمحبة بين المؤمنين، ويجعلهم كالجسد الواحد، وبه علاج لمشكلة الملكات المهذرة، والطاقات المعطلة التي حال حب الذات والانعزالية دون استثمارها في مصلحة الفرد والمجتمع .

ومن أكثر الميادين التي تحتاج إلى التعاون ميدان الدعوة، فما أحوج الدعوة اليوم إلى تعاون أبنائها لمواجهة تيارات الغزو الفكري والثقافي والعقائدي التي تحاول جاهدة ضرب الإسلام عن قوس واحدة، خاصة في مواجهة تيارات الإلحاد التي كشرت عن أنيابها في الفترة الأخيرة، و ساعدت على انتشارها وسائل الاتصالات الحديثة، كالشبكة العنكبوتية ((الإنترنت))، و القنوات الفضائية، وغيرها من وسائل الإعلام والاتصال .

والتعاون من أهم أسباب توفيق الله للعبد وإعانتته على حاجته، قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : أن يعين العبد إخوانه المسلمين ويسعى في حاجاتهم وتنفيس كربهم؛ لينال الإعانة من الله ﷻ التي وعدها إياه حين قال الرسول ﷺ : ((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ اللَّهُ)) . (٢)

والتعاون يشمر محبة الله ﷻ للمتعاونين فيه ابتغاء مرضاته وإخلاصاً لوجهه الكريم، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ يرفعه إلى ربه ﷻ : ((حُقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَحَابِّينَ فِيَّ،

١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٥ / ١٥٤) حديث (٢١٤٠١) .

٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) كتاب ((الذَّكْرِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ)) باب ((فَضْلِ الْجَمْعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذَّكْرِ)) حديث (٢٦٩٩) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَهُمْ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغِيْطُهُمُ النَّبِيُّ وَالصَّادِقُونَ بِمَكَانِهِمْ)) . (١)

وحري بنا كآتباع سيد الخلق ﷺ أن نقتدى به، فقد كان من عظيم أخلاقه التعاون، وكان هذا من شأنه ﷺ حتى قبل البعثة، بدليل قول أمانا خديجة رضي الله عنها له : ((كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، وَاللَّهُ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)) . الحديث . (٢)

وبالتعاون تنظهر القلوب وتذهب الضغائن، وتحلو الحياة ويسود السرور في قلوب المؤمنين إذا تعاونوا، لأنهم أتوا بأفضل الأعمال عند الله ﷻ : عن أبي هريرة ؓ قال: سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟ قال: ((أن تدخل على أخيك المسلم سرورا أو تقضي عنه ديناً أو تطعمه خبزاً)) . (٣)

وكذلك التعاون في كف الأذى عن المسلمين وإزالة ما يضرهم، حتى ولو كان من أتفه الأشياء، فهو من أفضل الأعمال عند الله تعالى عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخْرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ)) . وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ : ((مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنٍ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُنَحِّنَ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ)) . وعنه ؓ عن النبي ﷺ قال: ((لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ)) . (٤) وعن أبي هريرة ؓ قال: قلت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَنْتَفِعَ بِهِ. قال : ((اغْرِزْ الْأَذَى عَنِ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ)) . (٥)

وقد بلغت فضيلة التعاون في الإسلام أن اعتبره أفضل من نافلة الاعتكاف، وعظم أجره بأنواع عديدة من الأجر والثواب، ومما جاءت به البشارة للمتعاونين على قضاء حوائج إخوانهم، عن ابن عمر ؓ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله ؟ وأي الأعمال أحب إلى الله ﷻ ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً، أو

١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ٣٣٨) حديث (٥٧٧) .

٢ - متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

٣ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦ / ١٢٣) حديث (٧٦٧٨) .

٤ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البرِّ والصَّلةِ والآداب)) باب ((فَضْلُ إِزَالَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)) حديث (١٩١٤) .

٥ - المرجع السابق نفس الكتاب والباب حديث (٢٦١٨)

تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد يعني مسجد المدينة شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه أمناً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى أثبت لها أثبت الله قلبه قدمه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام)) . (١)

﴿ دور الأزهر الشريف وعلمائه في ترسيخ قيمة التعاون ﴾

التعاون قيمة سامية وخلق كريم، شأنه ككل القيم التي لم يقصر الأزهر الشريف بمناهجته وعلومه ودروسه في ترسيخها في المجتمعات الإسلامية والمجتمع المصري خاصة، وقد أعطى علماءه النموذج الذي يقتدى به من أفعالهم وأحوالهم ليكونوا قدوة حسنة لغيرهم من تلامذتهم ومن يحتك بهم من العامة والخاصة، ولا يخفي عليك مما هو معروف وكما سبق ذكره أن المشايخ كانوا سادة قادة في مجتمعاتهم، يفرع إليهم الناس في كثير من أحوالهم ويحتمون بهم، خاصة إذا وقع عليهم ظلم أو واجهوا استبداداً، فيفرون إليهم ليعينوهم على كشف هذه الغم ورفع هذا الظلم وقد حدث هذا كثيراً جداً .

ولم يتعاونوا مع الناس فقط في رفع الظلم عنهم، ولكن في كل وجوه التعاون وقضاء حاجاتهم المختلفة : لقد كان علماء الأزهر يمثلون فئة اجتماعية ذات مكانة بالمجتمع المصري، حيث كان لهم نفوذ بين أفراد المجتمع فهم موضع احترام وتقدير، لقيامهم برسالتهم العلمية وانشغالهم بأمور الدين، بالإضافة إلى قيامهم بالوساطة بين فئات المجتمع وسلطاته الحاكمة، كما أن دورهم كعلماء يحتم عليهم القيام بالإصلاحات السياسية والاجتماعية. وكان لرجال الأزهر مكانة ممتازة فيهم فهم يقدمون على من سواهم من الناس حتى الأمراء، ويزورهم الولاة وكبار الأمراء في بيوتهم، و يكرمهم بعض الولاة حتى يقبل بعضهم يد الواحد منهم وقدمه، ونجد العلماء سفراء وقادة، يسفرون بين الناس والممالك ليرفعوا عنهم الظلم، ويسفرون بين الممالك بعضهم وبعض ليزيلوا خصومة أو يرفعوا حرباً، ويسفرون بين نابليون وأهل مصر، أو الثائرين منهم . (٢)

ومن صور تعاونهم المالي بينهم وبين تلامذتهم من طلبة العلم الفقراء أو من عامة الناس، ما ضربه علماء الأزهر الشريف مثلاً عالياً في هذه التصرفات الرائعة في التعاون وقضاء حوائج الناس فعلى سبيل المثال: شيخ القراء في زمانه عبد الرحمن بن شحادة اليميني المتوفي في (١٠٥٠

^١ - أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٦ / ١٤٠ - ١٤١) حديث (٦٠٢٦) .

^٢ - (الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٢٨) .

هـ - ١٦٤٠ م) كان ممن لهم نشاط تجاري ملحوظ مما أدر عليه الأموال الكثيرة، فانعكس ذلك على علاقاته مع طلبة العلم والفقراء، حيث كان كثير الإحسان إليهم والبر بهم، ولا يمر عليه يوم إلا و يعطي من ماله الشيء الكثير لمن يحتاج له، كما كانت له معاملات تجارية مع غيره من التجار. (١)

وكان منهم الأغنياء الأثرياء الذين كانوا يكثرون من الكرم والصدقات، وكانوا ينفقون على عمارة الأزهر إذا استلزم الأمر، ومن أشهرهم يقول عنه الجبرتي : الشيخ العلامة شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد شنن المالكي، وكان مليئا متمولا أغنى أهل زمانه بين أقرانه، وجعل الشيخ محمد الجدائي وصيا على ولده سيدي موسى، فلما بلغ رشده سلمه ماله، فكان من صنف الذهب البندي أربعون ألفا خلاف الجنزلي والطرلي وأنواع الفضة والأملاك والضياع والوظائف والجماعي والرزق والأطيان وغير ذلك، بدده جمعية ولده موسى وبني له دارا عظيمة بشاطئ النيل ببولاق، أنفق عليها أموالا عظيمة ولم يزل حتى مات مديونا في سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف، وترك ولدا مات بعده بقليل، وكان للمترجم ممالك وعبيد وجوار ومن مملكه أحمد بك شنن. (٢)

﴿ دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة التعاون ﴾

إن الأمة الآن في أمس الحاجة إلى تطبيق قيمة التعاون فيما بينهم، لأن الأمة بدونه لن تنجح في تحقيق أهدافها من التكافل والتقدم والعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، ولن يتم هذا وغيره مما تأمل الشعوب في تحقيقه ولن يتم هذا إلا بالتعاون، وأن يشد بعضنا على يد بعض، ويأخذ كل منا بيد أخيه لبناء هذه الدولة مرة أخرى، خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير، وما نتج عنها من فرقة وتناحر، لذلك يجب على كل الطوائف والمذاهب والأحزاب أن تتعاون فيما بينها للمرور من هذه المحنة، و أن يستمعوا لعلماء الأزهر في نصحتهم لهم، وأن يشاركوا العلماء ويتعاونوا معهم لتحقيق مقاصد الشريعة عامة، ومقاصدها في التعاون خاصة، لأنه سر نجاح الأمم المتقدمة وبناء المجتمعات التي تقوم على العدالة والحرية، ولنؤسس لعقد اجتماعي يدفع بنا وبأوطاننا إلى الأمام .

١ - ((قبل أن يأتي الغرب)) ص (٥٣) .

٢ - ((عجائب الآثار)) (١ / ١٢٨ - ١٢٩) .

﴿ قيمة الإيثار ﴾

((الإيثار)) في اللغة : قال ابن منظور: وأَثَرَ يعني وزن فَعَلَ أَثَرَ أن يفعل كذا أَثَرًا وآثَرَ كله فضَّلَ وقَدَّمَ . إذا الإيثار فيه تفضيلٌ وتقديم، تقديم مصالح الناس على مصالح النفس على التفصيل الآتي ذكره . إذا آثَرَ بمعنى قَدَّمَ بمعنى فضَّل . إذا الإيثار يكون بمعنى التقديم وبمعنى التفضيل، و آثَرْتُ فلانًا على نفسي مأخوذٌ من الإيثار . قال الأصمعي : آثَرْتُك إيثارًا أي : فضَّلْتُكَ . وفلانٌ أَثِيرٌ عند فلانٍ وذو أَثَرَةٍ إذا كان خاصًّا . ويقال : قد أَخَذَهُ بلا أَثَرَةٍ وبلا إِثَرَةٍ، يعني بلا استئثارٍ، أي : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود .

وقال الخطيبُ يمدح عمر رضي الله عنه :

ما آثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الإثر . (١)

والإيثارُ الإعطاء مع الكف عن حاجته . (٢) وعرفا: ((الإيثار)) : تفضيل المرء غيره على نفسه . (٣) وقيل : الإيثار أن يقدم غيره على نفسه في النفع له، والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة . (٤) فيكون معناه ببساطة : هو أن يقدم الإنسان حاجة غيره من الناس على حاجته برغم احتياجه لما يبذله .

﴿ فضل الإيثار ﴾

الإيثار من أفضل مكارم الأخلاق، وهو قيمة وخلق يتعلق بأخلاق وقيم أخرى لا يتم إلا بها ولا ينتج إلا عنها، ومنها مثلا : سعة الصدر، والرأفة بالناس، والبعد عن الكبر، وطهارة القلب من أمراضه كالغل والحسد والضغينة، وكذلك لا يكون إلا من صفاء السريرة، وحب الخير للجميع كما يحبه المرؤ لنفسه .

وقد جاء الإسلام بمكارم الأخلاق وأسمائها وأعلامها، وأمر بها ودعا إليها، وربى الإسلام الأمة على قيمة الإيثار، لأنه يحقق معنى الأخوة في الدين، والمحبة في الله والله، وضرب لنا مثلا بأحوال السابقين من الجيل الأول لهذه الأمة لنقتدي بهم، ونتخلق بأخلاقهم، ونتحلى بأحوالهم، فقال الله

١ - ((لسان العرب)) (٧ / ٤) .

٢ - ((معجم مقاليد العلوم)) للسيوطي ص (٢٠٦) .

٣ - ((المعجم الوسيط)) (١ / ٦) .

٤ - ((التعريفات)) ص (٥٩) .

تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر آية: ٩] قال الإمام البغوي : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ وهم الأنصار تبوؤوا الدار توطنوا الدار أي المدينة اتخذوها دار الهجرة والإيمان ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين ونظم الآية : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من قبل قدوم المهاجرين عليهم، وقد آمنوا لأن الإيمان ليس بمكان تبوء : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ حزاة وغيظا وحسدا ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ أي : مما أعطى المهاجرين دونهم من الفيء وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منها الأنصار فطابت أنفس الأنصار بذلك ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : يؤثرون على إخوانهم من المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، وذلك أنهم قاسموهم ديارهم وأموالهم : عن أبي هريرة ؓ : أن رجلا أتى النبي ﷺ فاستضافه فبعث إلى نسائه : ((هل عندكن من شيء ؟)) . فقلن ما معناه : إلا الماء . فقال رسول الله ﷺ : ((من يضم)) أو : ((يضيف هذا ؟)) . فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله . فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ . فقالت : ما عندنا إلا قوت الصبيان . فقال : هبى طعامك وأصحبى سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء . فهيات طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأتها، فجعلوا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : ((ضحك الله الليلة)) . أو : ((عجب من فعالكما)) . فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(١)

وإنه لمن الأهمية التي يجب أن يلتفت إليها الآباء والأمهات، والقائمون على التربية من المدرسين والمدرسات وغيرهم أن يغرسوا قيمة وخلق الإيثار في نفوس الأطفال منذ الصغر، بتدريبات عملية، خلال مراحل حياتهم، منذ الطفولة في مرحلة التعليم التمهيدي، ثم الابتدائي، وهذا مراد الإسلام فيهم وفي تربيتهم ، فإشاعة الإيثار بين الأبناء واجب على الآباء وذلك بتقوية

^١ - ((تفسير البغوي)) (٤ / ٣١٥) .

روح التعاون بينهم، وتثبيت أواصر المحبة فيهم، وتعويدهم على السخاء والشعور بالآخرين، حتى لا ينشأ الواحد منهم فردياً وأنانياً لا هم له إلا نفسه. ثم إن تربيتهم على تلك الخصال تقضي على كثير من المشكلات التي تحدث داخل البيوت، وفي المجتمع في صغرهم وفي شبابهم، فيكون لدينا أمة قوية ذات أخلاق وقيم . فإذا بنينا أساس تعامل الأبناء على الإيثار، وإذا لاحظناهم يؤثرن بعضهم البعض فيجب الشاء عليهم ومكافأتهم، حتى ولو كان الأمر صغيراً، لأن هذا يرسخ هذه المعاني الكريمة في نفوسهم ولنؤصل فيهم أخلاق المؤمنين، وأن المؤمن ليس هو من يصلي ويصوم ويؤدي الشعائر التعبدية فقط، إنما المؤمن الحق هو من يتحلى بخلق النبي ﷺ وهو الذي تجده في تلك الأخلاق النبوية الطاهرة، ومنها الإيثار الذي هو حقيقة من حقائق ثبات الإيمان، ودليل هذا : عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)) . (١) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((لَنْ تَوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أَدْلَكُمْ عَلَى مَا تَحَابُّوا عَلَيْهِ ؟)) . قالوا: بلى يا رسول الله . قال: ((أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ تَحَابُّوا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاكُمْ)) . قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم . قال: ((إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدُكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَةِ رَحْمَةُ الْعَامَةِ)) . (٢)

﴿ أنواع الإيثار ﴾

قد قسم العلماء الإيثار إلى مراتب ودرجات هي : أفضل الإيثار، إيثار رضا الله ﷻ على هوى النفس، وإيثار طاعته على معصيته، وأن يؤثر المؤمن رضا الله تعالى على رضا غيره، خاصة إذا كان رضا غيره معصية له، أو فيها مخالفة لشرعه ﷻ، ويلحق بهذا المعنى أيضاً إيثار رضا رسول الله ﷺ على رضا نفسه، واتباع سنته يؤثر على اتباع الهوى والابتداع، وإيثار ما جاء عنه ﷺ على آراء الرجال، خاصة إذا اختلفوا مع ما جاء عنه ﷺ، وما أكثر ما يقع من هذا في زماننا من قوم ادعوا العلم، فتأتي آراؤهم متناقضة مع ما روي عن رسول الله ﷺ، وإذا عارضهم معترض قالوا : إنك لا تفهم مراد رسول الله ﷺ . . إلخ ما يقولون، ويا ليتهم قالوا: لا ندري . فيربحوا وينجحوا، لكن الكبر يهوي بهم إلى الهاوية والفتن في الدين، هداهم الله، فلذا يؤثر ما

^١ (- متفق عليه .

^٢ (- أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٤ / ١٨٥) حديث (٧٣١٠) .

جاء عن رسول الله ﷺ، وها هو إمام السنة أحمد بن حنبل رحمه الله يقول : الْحَدِيثُ الضَّعِيفُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ الرَّأْيِ . (١)

ويثار رضا الله تعالى من أخلاق الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، فهذا هو خليل إبراهيم عليه السلام يؤثر رضا الله تعالى على رضا نفسه، ويستجيب لأمره ليذبح ابنه الوحيد أحب الناس إليه استجابة لأمر الله تعالى، وإن كان في استجابته ما تكرهه نفسه، وما هو خلاف طبيعة البشر، قال سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (١١) فَأَمَّا بَلَّغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنِيْ إِيَّيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنُحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ (١٣) وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّزِرْهُمَا ﴿ ١٤ ﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَّاكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٥) إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنُ ﴿ ١٦ ﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿ ١٧ ﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (١٨) سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ١٩ ﴾ [سورة الصافات آية: ١٠١ - ١٠٩]

قال ابن القيم : ولما سأل ابراهيم عليه السلام الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فاخذ منه شعبة غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه، ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم . (٢)

وقد نبه الله تعالى عباده على عظم مخالفة هوى النفس، وعد هذا فلاحاً ونجاحاً، قال ﷺ : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر آية: ٩] وذلك لأن مجاهدة النفس والهوى هي أعظم الجهاد، بل هو الجهاد الأكبر لأن به تهون الدنيا والمصائب والابتلاء، فتزهد النفس، وينور القلب بالمعرفة والإيمان، ومن ثم يسهل الجهاد الأصغر وهو الجهاد ضد المشركين في ميدان القتال، لأن وقتها تكون النفس في أعلى مقامات سموها، في مقام التعلق بالله ﷻ وترك الدنيا وزخرفها، فيبذل نفسه في سبيل الله تعالى وهي هينة عليه سهلة في بذلها، لأنه مشتاق لرؤية مولاه، مبتغياً رضاه طامعاً في رحمته وثوابه، والجوار له في مستقر رحمته ودار كرامته .

قال عبد الله بن المبارك - عن الجهاد الأكبر - هو : مجاهدة النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر، وهو حق الجهاد، وقد روي أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك قال : ((رجعنا من

١ - ((الخلى)) لابن حزم (١ / ٦٨) .

٢ - ((الجواب الكافي)) لابن القيم ص (١٣٤ - ١٣٥) .

الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)) . وأراد بالجهاد الأصغر الجهاد مع الكفار، وبالجهاد الأكبر الجهاد مع النفس . (١)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)) . (٢) وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول : اللهم قني شح نفسي . لا يزيد على ذلك . فقلت له . فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل شيئاً . وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه . (٣)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : ((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)) . (٤)

فقد علم النبي ﷺ المسلم أنه من أسى العبادات والأخلاق، وكمال الإيمان وتحقيقه أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، وأن يزيد على هذا بأن يجعل خيره يتعداه إلى غيره، لأن الحياة قصيرة فيجب ألا نعيش لأنفسنا فقط، فتفكير الإنسان في نفسه فقط يجعله صغيراً، ولكي يعيش الإنسان كبيراً، وتمتد حياته بامتداد البشرية فلا بد أن يعيش لغيره كما يعيش لنفسه. ليجد سعادته في سعادة الآخرين، وفرصته في فرصهم، وبسمته في ابتسامتهم، والسعادة الكاملة عندما يجد من يدعو له برضا الله ﷻ .

٢ - إيثار الغير على النفس : وهو أن تُؤثّر الخلق على نفسك فيما لا يجرّم عليك ديناً، ولا يقطع عليك طريقاً، ولا يُفسد عليك وقتاً، يعني أن تُقدمهم على نفسك في مصالحهم، مثل: أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعري، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلافٍ لا يجوز في الدين، وكلُّ سببٍ يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تُؤثر به أحداً، فإن آثرت به، فإنما تُؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم .

فخلق الإيثار لو ساد بين أفراد الأمة والمجتمع لرأينا الحب يسود، والأمن يستقر، ويظهر التقدم، ويؤيدنا الله تعالى بالتوفيق والنجاح، كما أيد الله تعالى أوائل هذه الأمة ﷺ، ففتحوا العالم بأخلاقهم قبل سيوفهم . فهم الذين علموا العالم كيف تكون الأخلاق ؟ وكيف يكون الإيثار ؟ .

١ - ((تفسير البغوي)) (٣ / ٢٠٠) .

٢ - أخرجه أبو الحسن الطوسي في ((الأربعين)) ص (٥١) .

٣ - أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (٢٨ / ٤٤) .

٤ - أخرجه القضاعي في ((مسند الشهاب)) (١ / ٢٠٠) حديث (٤٩٩) .

وها هي صورة من أحوالهم ليعرف العالم عظمة أخلاقهم ﷺ : ما حكى عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعني شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته . فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له : أسقيك فأشار إلي: أن نعم . فإذا برجل يقول : آه . فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه واسقه . فإذا هو هشام بن العاص، فقلت : أسقيك ؟ . فأشار إلي: أن نعم . فسمع آخر يقول : آه . فأشار إلي أن انطلق إليه، فجثته فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات . (١)

ولما صدقوا في معاملتهم ربهم ﷺ أثروا فيمن بعدهم، وتركوا لنا منهاجا قويمًا وصراطا مستقيما من الأخلاق والقيم التي أثرت في الأمة، فسعد من اقتدى بهم وتحلى بأحوالهم .
ومما يروى من أحوال الصالحين : اجتمع عند أبي الحسن الأنطاكي أكثر من ثلاثين رجلا معهم أرغفة قليلة لا تكفيهم، فقطعوا الأرغفة قطعاً ليكثر عددها، وأطفأوا المصباح و جلسوا للأكل، فلما رفعت السفرة وجدوا الخبز كله كما هو . فقد أثر كل منهم أخاه على نفسه . (٢)

﴿ صور من إشار النبي ﷺ ﴾

كان ﷺ أعظم الخلق إيثار وحرصاً على إعانة غيره، وكبف لا ؟! . وهو الموصوف بالكمال وعظيم الصفات والأحوال، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [سورة القلم آية: ٤]
وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٢١]

وعن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ . قالت : كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله ﷻ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ قلت : فإني أريد أن أتبتل . قالت: لا تفعل أما تقرأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٢١] فقد تزوج رسول الله ﷺ وقد ولد له . (٣)

^١ - ((المستطرف في كل فن مستظرف)) للأبشيبي (٢ / ٣٤٣) .

^٢ - ((تفسير القرطبي)) (١٨ / ٢٩) .

^٣ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٦ / ٩١) برقم (٢٤٦٤٥) .

فقد كان ﷺ يأمر بالطاعة ويكون أول من يفعلها، فأعطى للأمة القدوة الحسنة من أقواله وأفعاله وأخلاقه، ومن خلقه في الإيثار : ما كان يعلمه لآل بيته ﷺ : عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يصب عند واحدة منهن شيئا، فأتى فاطمة فقال : ((يا بنية هل عندك شيء آكله فاني جائع)) . فقالت : لا والله . فلما خرج من عندها رسول الله ﷺ بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها وغطت عليها وقالت : والله لأؤثرن بهذا رسول الله على نفسي ومن عندي . وكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها . فقالت له : قد أتى الله بشيء فخبأته لك . قال : ((هلمي يا بنية)) . فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزا ولحما فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصلت على نبيه وقدمته إلى رسول الله ﷺ فلما رآه حمد الله وقال : ((من أين لك هذا يا بنية ؟)) . قالت : يا أبت ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة آل عمران آية: ٣٧] فحمد الله وقال : ((الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا فسئلت عنه قالت : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾)) [سورة آل عمران آية: ٣٧] فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ثم أكل رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين، وجميع أزواج رسول الله ﷺ وأهل بيته جميعا حتى شبعوا . قالت : وبقيت الجفنة كما هي . فأوسعت بقيتها على جميع جيرانها، وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا .^(١)

وعن سهل بن سعد ؓ قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببرة قال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها. فقالت: يا رسول الله جئتك أكسوك هذه . فأخذها رسول الله ﷺ وكان محتاجا إليها فلبسها فرآها عليه رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه أكسنيها . فقال: ((نعم)) . فلما قام رسول الله ﷺ لأمه أصحابه وقالوا: ما أحسنت حين رأيت رسول الله ﷺ أخذها محتاجا إليها ثم سألتها إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئا فيمنعه . قال : والله ما حملني على ذلك إلا رجوت بركتها حين لبسها رسول الله ﷺ لعلني أكفن فيها .^(٢)

^١ - ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٦ / ١١١) وعزاه لأبي يعلى .

^٢ - ذكره الهندي في ((كنز العمال)) (٧ / ٨٠) حديث (١٨٦٣٨) وعزاه لابن جرير .

﴿ دور الأزهر وعلمائه في ترسيخ قيمة الإيثار ﴾

كان أهل مصر والعالم الإسلامي ينظرون إلى منهج الأزهر نظرة الإجلال، لأنه قد رسخ في عقيدتهم أنه الجامع لهدي النبوة، المعرف بأخلاقه ﷺ السامية، وأحواله الزكية، ولم يروا في الأزهر هذا فقط في صورة المجالس العلمية للتعليم والتعلم أو الوعظ، بل رأوا هذا عمليا وقد تجلّى في أخلاق علمائه وسلوكهم، فتجلت قيمة الإيثار فيهم، لما كانوا يؤثرون مصلحة العامة من الناس على مصالحهم، فكانوا يعرضون أنفسهم لمخاطر بطش الحكام والولاة، ويذهبون للمطالبة بحقوق الناس ورفع الظلم عنهم وكف الاستبداد والظلم .

وقد سبق ذكر صور كثيرة من هذه المواقف، ولما صدقوا في نياتهم، وتحققوا بإقامة أخلاق سيد المرسلين ﷺ حفظهم الله تعالى ورفع قدرهم، وتحقق فيهم قوله ﷺ : ((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)) . (١) فهم التمسوا رضا الله تعالى بقضاء حوائج عباده ورفع الظلم عنهم، مع صدق نيتهم وإخلاصهم، لا يريدون بهذا شهرة ولا سمعة ولا رياء، ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، وأسخطوا الظلمة بأفعالهم ومطالبهم، ولم يخافوا بطشتهم ولم ترهبهم قوتهم، فما كان لهم من الله إلا التأييد والرضا عنهم، فأخضع لهم خصومهم، وأرضى عنهم قلوبهم، حتى أتوهم في خضوع وامتثال لأمرهم بما تدش له العقول، ومثال هذا من أخبارهم ﷺ ما جاء في ترجمة : الشيخ العالم إبراهيم اللقاني المالكي المتوفي (١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) : كان ﷺ شيخا كبيرا عظيم القدر مشهورا مسموع القول في طائفة من العلماء مهابة عند السلاطين والوزراء، يأتون إليه خاضعين له، مقبلين لأقدامه، وهو غير مكترث بهم، ولا ملتفت إليهم، وكانت ورقته إليهم لا تزيد على الكف سواء كانت لكبير أو صغير . (٢)

ومنهم الشيخ الإمام محمد بن علي بن منصور الشنواني الشافعي رحمه الله، قال الجبرتي : هو شيخ الإسلام وعمدة الأنام، الفقيه العلامة والنحرير الفهامة، الشيخ محمد الشنواني، الأزهري الفقيه النحوي المعقولي . كان مهذب النفس مع التواضع والانكسار، والبشاشة لكل أحد من الناس، وكان عند فراغه من الدروس يغير ثيابه ويكنس المسجد، ويغسل القناديل ويعمرها بالزيت والفتائل، حتى يكنس المراحيض، وكان قانعا بهذا لا يتطلع إلى أي مظهر من مظاهر

^١ - أخرجه القضاعي في ((مسند الشهاب)) (١ / ٢٠٠) حديث (٤٩٩) .

^٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٩) .

الدنيا، التي يتهاافت عليه الآخرون . (١) ولما توفي الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، لم يكن هناك أهل لهذه المكانة سوى الشيخ الشنواني فاتجهت إليه الأنظار، فلما علم ذلك ترك بيته وذهب إلى مكان غير معروف هرباً من هذه المسؤولية، وبعداً عن المظاهر الدنيوية . (٢)

ويتجلى في هذا الموقف من الشيخ رحمه الله قيمتا التواضع والإيثار في آن واحد، فقد فر من توليه مشيخة الأزهر تواضعاً منه، وإيثاراً لغيره على نفسه، فأبى الله تعالى إلا أن تكون له .

﴿ قيمة الاهتمام بالشباب ﴾

إن الشباب هم عماد أي أمة من الأمم، وسر نهضتها وبنائة حضارتها، وهم حماة الأوطان والمدافعون عن حياضها، ذلك لأن مرحلة الشباب هي مرحلة النشاط والطاقة والعطاء المتدفق، فهم بما يتمتعون به من قوة عقلية وبدنية ونفسية فائقة يحملون لواء الدفاع عن الوطن حال الحرب، ويسعون في البناء والتنمية في أثناء السلم، وذلك لقدرتهم على التكيف مع مستجدات الأمور ومستحدثات الخطوب في مختلف المجالات العلمية والسياسية والاجتماعية .

فالمرونة مع الإرادة القوية والعزيمة الصلبة والمثابرة من أبرز خصائص مرحلة الشباب، لذا وصف الله ﷻ هذه المرحلة المتوسطة بالقوة بعد الضعف وقبله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [سورة الروم آية: ٥٤]

﴿ عناية الإسلام بالشباب ودورهم في الحياة ﴾

لقد اعتنى الإسلام بالشباب عناية فائقة، ووجههم توجيهاً سديداً نحو البناء والنماء والخير، واهتم رسول الله ﷺ بالشباب اهتماماً كبيراً، فقد كانوا الفئة الأكثر التي وقفت بجانبه في بداية الدعوة فأيدوه ونصروه، ونشروا دعوة الإسلام وتحملوا في سبيل ذلك المشاق والأهوال .

فالرسول ﷺ بنظرته الفاحصة وحكمته البالغة وضع الشباب منذ اللحظة الأولى في موضعهم

١ - ((عجائب الآثار)) (٣ / ٣٨٢) .

٢ - ((شيوخ الأزهر)) للأستاذ أشرف فوزي صالح (٢ / ٢٢) .

اللائق بهم، ليكونوا العامل الرئيسي في بناء كيان الإسلام وتبليغ دعوته ونشر نوره في بقاع العالم، فعمل ﷺ علي تهذيب أخلاقهم، وشحذ هممهم ووجه طاقاتهم وعمل على إعدادهم لتحمل المسؤولية في قيادة الأمة، كما حفزهم علي العمل والعبادة، وعمل الإسلام على بناء الشباب بناء كاملا في الأخلاق والصفات، ليكون الشاب المسلم نفعاً لوطنه ومجتمعه وأمته، وعمل على ترسيخ القيم الذاتية والروحانية في الشباب، ليكون الشاب المسلم طرازاً فريداً يمثل دينه ويقتدي برسوله ﷺ، وقد حرص الإسلام على تحقيق بعض الأهداف التي تحقق هذا ومنها :

(١) - التربية الدينية السليمة، التي تقوم على الأخلاق والقيم الإسلامية، وعلى وسطية التفكير والمنهج، والاعتقاد الصحيح الذي ينم عن معرفة الله ﷻ، ومعرفة أصول الدين، مما يؤدي إلى أن ينشأ الشاب في طاعة الله تعالى ورضاه، وفي معرفته ﷺ واتباع سنة نبيه ﷺ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابُّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ . وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)) . (١)

(٢) - الاهتمام بالبناء العقلي، المتمثل في تعليم الشباب، واقتحامهم جميع ميادين العلوم الدينية منها والنظرية والتطبيقية والعملية، وبالجملة أن يتعلم الشباب كل العلوم التي تفيد الأمة في الدنيا والدين وفي كل مجالات الحياة، وكذلك تحصين عقولهم وقلوبهم بتعليم العقيدة الصحيحة، وذلك له أهميته في حياتهم لمواجهة حملات التشكيك والإلحاد، خاصة في عصرنا الحديث .

(٣) - الاهتمام بالبناء الجسدي والرعاية الصحية للشباب حتى يكونوا أقوياء في العقيدة، أقوياء في البنين، أقوياء في العمل، وهذه قيم يسعى الإسلام في تحقيقها ويأمر بها : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ . فَإِنْ لَوْ تَفَتَحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ)) . (٢)

وتأسيس الشباب بالبناء الجسماني دعامة عظيمة من دعائم النصر على الأعداء، ورفع راية الإسلام، وهذا من أعظم أسباب النصر: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : ((من قتل قتيلاً فله كذا وكذا)) . أما المشيخة فثبتوا تحت الرايات وأما الشباب فتسارعوا إلى

^١ - متفق عليه .

^٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((القدر)) باب ((في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله)) حديث (٢٦٦٤) .

القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا رداء لكم ولو كان فيكم شيء لجئتم إلينا . فأبوا فاختصموا إلى رسول الله ﷺ قال : فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ سورة الأنفال آية: ١ [فقسمت الغنائم بينهم بالسوية . (١)]

وكما حرص على تأسيس الشباب على قوة البناء الجسدي، علمهم حقيقة القوة وأنها ليست بالبطش أو الصرعة، إنما هي أن يملك الإنسان نفسه، وأن يتصف بال حلم وحسن الخلق، عن أبي هريرة ؓ أَن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)) . (٢)

وكتب عمر بن الخطاب ؓ إلى أمراء الأمصار : علموا أولادكم العوم والفروسية وما سار من المثل وما حسن من الشعر . وكان يقال من تمام ما يجب للأبناء على الآباء تعليم الكتابة والحساب والسباحة . (٣)

كما حرص على تحصين أخلاقهم، فاعتنى بتوجيههم وإرشادهم إلى محاسن ومكارم الأخلاق عن عبد الله ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ : ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ)) . (٤) وعن رجل عن سمرة ؓ قال : سمعته يخطب على منبر البصرة وهو يقول سمعت النبي ﷺ وهو يقول : ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ اتَّقُوا الشَّبَابَ فَإِنَّمَا الشَّبَابُ جُنُونٌ)) . (٥) وعن بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري : علموا أولادكم السباحة والرماية ونعم هو المؤمنة في بيتها الغزل وإذا دعاك أبوابك فأجب أملك . (٦) وعن واثلة بن الأسقع ؓ قال: إن رسول الله ﷺ قال : ((خير الشباب من تشبه بكهولكم وشر كهولكم من تشبه بشبابكم)) . (٧)

وبهذا عمل رسول الله ﷺ علي إعداد الشباب وبناء شخصيتهم القوية، ليكون الشباب مهياً لحمل الرسالة، وأقدر علي تحمل المسؤولية، وأكثر التزاماً بمبادئ الإسلام .

١ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٢ / ٢٤١) رقم (٢٨٧٦) .

٢ - متفق عليه .

٣ - ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح المقدسي (١ / ٤٨٠)

٤ - متفق عليه .

٥ - أخرجه الروياني في ((مسنده)) (٢ / ٧٦) حديث (٨٥٢) .

٦ - ذكره الهندي في ((كنز العمال)) (١٦ / ١٨٤) رقم (٤٥٣٤٣) .

٧ - ((المطالب العالية)) لابن حجر (١١ / ٨٩٤) برقم (٢٧٢٩) .

ومن ناحية التطبيق فإن التاريخ يشهد للشباب في صدر الإسلام، فإنهم قد ساندوا رسول الله ﷺ في بداية الدعوة، وانتشر الإسلام علي يد هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدي، حتى إن الرسول ﷺ كان دائما ما يستشيرهم في الأمور المهمة، وكان ينزل علي رأيهم كثيرا، و من ذلك أنه نزل علي رأي الشباب في الخروج لملاقاة المشركين في غزوة أحد، وكان رأي الشيوخ التحصن داخل المدينة .

ومن عظم دور الشباب في بناء كيان الدعوة، وصف المستشرق البريطاني مونتجمري وات في كتابه ((محمد في مكة)) الإسلام بأنه : ((كان في الأساس حركة شباب)) .

ففي البداية أقام الرسول ﷺ الدعوة في دار أحد الشباب، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ولأن الدعوة تعتمد علي النقل كان الشباب هم نقلتها إلي أهل مكة ومن حولها، ولا ننسي دور سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الهجرة، فكم كان دوره فيها وأداؤه المهمة التي كلف بها كبيرا وعظيما .

ومما يدل على اهتمام رسول الله ﷺ وتقديره لدور الشباب، أنه أمر أسامة بن زيد ؓ ليكون أميرا على جيش فيه كبار الصحابة ؓ، عن الحسن بن أبي الحسن قال : ضرب رسول الله ﷺ بعثا قبل وفاته على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب ؓ وأمر عليهم أسامة بن زيد ؓ فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله ﷺ فوقف أسامة ؓ بالناس، ثم قال لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن لي فأرجع الناس، فإن معي وجوه الناس وحدهم ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وثقل رسول الله ﷺ وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار : فإن أبي إلا أن غمضي وأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة . فخرج عمر ؓ بأمر أسامة فأتى أبا بكر ؓ فأخبره بما قال أسامة . فقال أبو بكر ؓ : لو اختطفني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضاه رسول الله ﷺ . قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة . فوثب أبو بكر ؓ وكان جالسا فأخذ بلحية عمر ؓ وقال : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمروني أن أنزعه ! . فخرج عمر ؓ إلى الناس فقالوا له : ما صنعت ؟ . فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سبكم اليوم من خليفة رسول الله ﷺ . ثم خرج أبو بكر ؓ حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماشي وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف ؓ يقود دابة أبي بكر ؓ فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله ﷺ لتركن أو لأنزلن . فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب، و ما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب

له، وسبعمائة درجة ترفع له، وتمحى عنه سبعمائة خطيئة . حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعيني بعمر بن الخطاب فافعل . فأذن له . (١)

ومن اعتماده علي الشباب أنه أمر أبا عبد الله الثقفي الطائفي عليه السلام : قدم في وفد ثقيف على النبي ﷺ في سنة تسع فأسلموا وأمره عليهم لما رأي من عقله وحرصه على الخير والدين وكان أصغر الوفد سناً، ثم أقره أبو بكر على الطائف، ثم عمر، ثم استعمله عمر على عمان والبحرين، ثم قدمه على جيش فافتتح توج ومصرها وسكن البصرة . (٢)

وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم علي منهج رسول الله ﷺ في الاهتمام بالشباب، فعندما أراد سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه جمع القرآن كلف زيد بن ثابت رضي الله عنه بهذه المهمة وهذا العمل الجليل .

وعن يوسف بن الماجشون قال: قال لنا ابن شهاب أنا وابن أخي وابن عم لي ونحن غلمان أحداث نسأله عن الحديث : لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يبتغي حدة عقولهم . (٣)

وإن تاريخ الأمة الإسلامية زاخر بهذه النماذج الرائعة التي لا تعد ولا تحصى من شباب الأمة في جميع مناحي الحياة، وعلي شباب اليوم أن يستلهموا القدوة من خلال هذه النماذج لإعادة بناء الأمة، وبناء حضارة قوية عريقة تستمد شرعيتها من نبراس ديننا الإسلامي الحنيف، وعلي الشباب أن يستثمروا ما وهبهم الله من قدرات كبيرة وطاقات هائلة في دفع عجلة التنمية و الارتقاء بالأمة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلي مصاف الدول الكبرى، ليعود لهذه الأمة مجدها التليد الذي شيده الشباب بسواعدهم وكفاحهم . (٤)

١ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (٢ / ٤٩ - ٥٠) .

٢ - ((سير أعلام النبلاء)) (٣٧٤ / ٢) .

٣ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (١٠ / ١١٣) برقم (٢٠١١٨) .

٤ - مقال : ((دور الشباب في بناء الأمة)) للدكتور علي جمعة الأهرام ١٦ / ١٠ / ٢٠١١ م

﴿ دور الأزهري الشريف في الاهتمام بالشباب ﴾

لما كان الشباب في كل أمة عماد نهضتها وشرائينها التي تقوم عليها، وهم رجال المستقبل المنتظر، فهم العاملون بما يجب عليهم من واجبات لله رب العالمين ثم لأمتهم وبلادهم والذود عنها وعن مقدساتها والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل رخائها وسعادتها وعزها وكرامتها . عمل الأزهري الشريف على الاهتمام بهم، وتسليحهم بسلاح العلم والمعرفة، وإرشادهم إلى ما أمرهم الله به ورسوله ﷺ والتحذير مما نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عنه، حتى نشأ في رحابه الشريف شباب قادوا الأمة في كل مجالات الحياة، وذلك لأنهم تربوا على مبادئ وقيم من أهمها :

١ - الإخلاص في الدين لله وحده لا شريك له في القول والاعتقاد والعمل والحب والبغض والفعل والتك .

٢ - العناية بالقرآن الكريم تلاوة وحفظاً وتدبراً وفهما وعملاً بقوله ﷺ : ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)) . (١)

٣ - العناية بالسنة المطهرة والسيرة النبوية .

٤ - المحافظة على أصول الدين وفروعه ومناهجه . والعمل بشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، القولية والاعتقادية والعملية . والتمسك بفعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات القولية والعملية .

ولقد نقل إلينا التاريخ كيف كان يعامل علماء السلف شباب الأمة، فقد كانوا على حرص عظيم عليهم وعلى تعليمهم ونقل العلوم إليهم وإفادتهم : عن سعيد بن جبير قال : كنا عنده فقال يا معشر الشباب سلوني فإني أوشكت أن أذهب من بين أظهركم . فأكثر الناس مسأله فقال له رجل : أصلحك الله أرأيت هذا المقام أهو كما نحدث ؟ قال : وما كنت تحدث ؟ قال : كنا نقول إن إبراهيم صلوات الله عليه حين جاء عرضت عليه امرأة إسماعيل النزول فأبى أن ينزل فجاءت بهذا الحجر فوضعت له . فقال : ليس كذلك . قال ابن عباس ؓ : أول ما اتخذ النساء المناطق من قبل أم إسماعيل ؓ اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل عليه السلام وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفي إبراهيم عليه السلام

^١ (- أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((فضائل القرآن)) باب ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)) حديث (٤٧٣٩) من حديث عثمان بن عفان ؓ .

منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟. قالت ذلك ثلاث مرات وجعل لا يلتفت، فقالت له : آله أمرك بهذا ؟ . قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا ... (١)

وعلى دربهم سار علماء الأزهر رحمهم الله فتقربوا من الشباب، وقربوا الشباب منهم بحسن معاملتهم، ولين جانبهم وتواضعهم واهتمامهم بهم ورعايتهم، وتضمن دورهم في طلب العلم والتعلم، ومناقشتهم والسماع منهم ... إلخ .

ومما يدل على هذا : حرص العلماء على تقوية صلتهم بطلابهم ورفع الكلفة السائدة بين الأساتذة كآباء والطلاب كأبناء، إذ حاول البعض الاقتراب من طلابه وتوسيع دائرة العلاقة القائمة على طلب العلم إلى رحاب أوسع، فتكون بينهم ما يمكن أن نسميه تجاوزا بـ ((الأخوة)) أو ((الصداقة))، فهذا هو ذا الشيخ العالم محمد أبو عبد الله بن علاء الدين البابلي الشافعي (١٠٧٧ هـ - ١٦٦٦ م) . كان متوددا لطلبته متفقدًا لهم بالإحسان، وإذا غاب عنه أحدهم سأل عنه، فإن كان مريضا عاده، وإن كان مشغولا أرسل إليه بالسلام، وكان أكثر حبه للطلبة الفقراء .

وأيضا الشيخ العالم شعبان الفيومي الأزهري الشافعي (١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ م) الذي كان كثير الدعاء لمن يقرأ عليه من الطلبة .

والشيخ علي الشبراملسي الشافعي (١٠٨٧ هـ - ١٦٧٦ م) كان حريصا على إشراك طلابه في مناقشة الدرس، ويتكدر إذا ما لمس عدم مشاركة طلابه له، ويقول لهم : ما لنا اليوم هكذا . ليس هذا فحسب بل نراه يعطي درسا تربويا آخر لطلبته، حيث إنه كان يحترم الشيوخ المتقدمين ويجلهم، حتى إنه لم يجرؤ على إعلان مخالفته للمخطئ منهم، ويقول للطلبة تواضعا منه : شاركونا في فهم هذه العبارة . ثم يبين ما فيها من خلل أو اعتراض بأسلوب لطيف خفي، حتى لا يحقر المخطئ، وكان يقول أيضا : قيراط من الأدب خير من أربعة وعشرين قيراطا من العلم .

وكان ينهج هذا النهج في تدريسه أيضا الشيخ العالم محمد أبو الذهب بن محمد البكري (١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م) الذي كان حسن المحاضرة مع تلاميذه، ولا يتكبر في أخذ الفائدة من أصغرهم . (٢)

١ - ((دلائل النبوة)) للبيهقي (٢ / ٤٦) .

٢ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣١ - ٣٢) .

﴿ دور الأزهر المأمول في الاهتمام بالشباب ﴾

كما أدى الأزهر دوره بالأمس في اهتمامه بالشباب ورعايتهم ، فمن الواجب على الأزهر وعلمائه اليوم أن يعتنوا بالشباب وأن يهتموا بهم، ويجب عليهم وضع منهجية للتعامل معهم بما يتوافق مع العصر الذي نعيش فيه، ووضع تصور لحصر مشاكلهم والتعرف عليها، والعمل على حل هذه المشاكل بأسلوب يوافق عصرنا الحديث .

وكذلك على العلماء واجب التوعية وتحسين عقول الشباب من التيارات الفكرية المعاصرة التي تتخذ من منهجية فكرها عداوة الإسلام والتشكيك فيه، وتبين مخاطر هذه التيارات الغربية الدخيلة على ثقافتنا ومجتمعاتنا بإظهار حقيقتها وبيان أهدافها، ومحاورة هذا الفكر حتى تتضح الحقائق .

ومن أكثر هذه التيارات الفكرية خطورة هي ظاهرة الإلحاد، والأزهر وعلماءه هم أهل للتصدي لهذه الظاهرة التي ليست بالحديثة، فإن مناهج الأزهر الشريف تجعل الدارس فيه قوي العقيدة قوي الحججة، لا تخيفه ولا ترهبه موجات الإلحاد ولا تشكيكه ! .

فلذا نأمل في الأزهر وعلمائه أن يعيد دوره في المجتمع وفي فئة الشباب خاصة، وفي تلك الفترة التي تمر بها مصر من منحنى خطير ومآزق بعد ثورة ٢٥ يناير، والغزو السياسي الفكري الذي دخل في عقول كثير من الشباب من مبادئ سياسية وفكرية لا تتفق مع ديننا ولا عاداتنا، كتلك الفتنة التي ضربت عقول الأمة وفرقت بين صفوفها، وسيل الاتهامات والشتائم والسباب الذي يتبادلها الناس فيما بينهم، وخاصة فيما بين فئة الشباب .

وكذلك على الأزهر الشريف وعلمائه مسئولية كبيرة في التوعية للشباب من الناحية الصحية عملاً على الحد من ظاهرة الإدمان وتعاطي الأقراص المخدرة وغيرها، وتعريفهم أن هذه الأشياء ما هي إلا نوع من أنواع الحروب التي يحاربنا بها أعداؤنا، فهم لا يريدون للأمة الإسلامية خاصة ولا للأمة العربية تقدماً ولا ازدهاراً، إنما يريدون الهلاك والدمار لها، ولن يتم لهم هذا إلا بتدمير شبابها، وليتعاون العلماء مع أهل الاختصاص في هذا الأمر كالأطباء، وخبراء علم النفس والأطباء النفسيين وعلماء التنمية البشرية والمهارات لتوعية الشباب والأخذ بأيديهم إلى سبيل النجاة والأمان .

وكذلك عليهم مسئولية كبرى أمام الله تعالى لا بد أن يقوموا بها، وهي التصدي للإعلام الفاسد من تلك الأغاني الهابطة المنحرفة، والأفلام التي تهدم القيم وتدعوا إلى الإباحية وتفشي الفواحش في المجتمع، وكذلك الأفلام التي تحث على نشر البلطجة في مجتمعاتنا وإعطاء القدوة من

البلطجي لشبابنا أو المنحلة الساقطة لفتياتنا، ولا بد لهم أن يتصدوا لهذه الأعمال بالموعظة الحسنة للقائمين عليها وتوجيههم إلى إنتاج أعمال تعمل على الرقي بالأخلاق والقيم، إن كان في قلبهم مثقال ذرة من تقوى الله تعالى أو حب لهذا الوطن ! . والمطالبة بتكوين لجنة مكونة من علماء الأزهر الشريف والإعلاميين الشرفاء والأطباء والخبراء النفسانيين لمراجعة مثل هذه الأعمال من مسلسلات وأفلام ومسرحيات وأغنيات، ورؤية هل تتفق مع القيم والأخلاق وتعمل على تنميتها أم لا ؟ . والموافقة على الصالح منها، ورفض غير الصالح، وليس في هذا تناقض مع حرية الإعلام ولا الإبداع، لأن الإعلام الحر الكريم هو الذي يخدم وطنه ومجتمعه ويزرع في نفوس الناس حب الوطن والرقي والتقدم به، وليس الذي يهدمه ويهدم الأخلاق في نفوس الناس .

فكم من أعمال تسمى زورا بالفن عملت على هدم القيم والقامات في نفوس الناس، وكان على رأسها هدم قامة العالم الأزهري في نفوس الناس، وهذا من مخططات الاستعمار الذي عانى من أثر الأزهرين في المجتمع، فاستغل وسائل الإعلام خاصة السينما والتلفزيون والأفلام لتشويه صورة الأزهري، ليسقطه من نفوس الناس ويسقط احترامه، فقد كان احترام الناس للعلماء وتقديرهم لهم لا يوصف، فمن صور هذا الاحترام والتقدير : كانوا يقومون لهم ويوسعون لهم الطرق عند مرورهم، ويقبلون أيديهم، بل ويصل الأمر إلى تسابق الناس لحمل أحذيتهم، و الجلوس عند أرجلهم في حلقات العلم والدرس .

واليوم نظرا لدور بعض وسائل الإعلام الهدامة، التي أظهرت الأزهري بصورة الماخن الذي لا هم له إلا السماع والأغاني وضرب العود والتمايل على أنغام الموسيقى، وكذلك بإظهاره بأنه الرجل الذي يوالي الظلمة، ويبيع دينه من أجل حفنة من الأموال، بل ووصل الأمر إلى إظهاره بأنه الذي يبيع دينه في فتواه بالطعام والشراب، وإظهاره بأنه الماخن المزاح الذي يسقط هيئته، و يذهب بكرامته، وتارة هو الذي يضرب ويستهزأ به ! .

كل هذا أثر تأثيرا سلبيا على صورة ومكانة ومقام العالم الأزهري في نفوس بعض الناس، مما أدى إلى استغلال بعض من يحقد على الأزهر مكانته، أن يستغل هذا وكذلك استغلال بُعد الأزهرين عن الناس وحياتهم، وانعزال علماء الأزهر عن الحياة السياسية والاجتماعية، فاستغلوا هذا كله للظهور بصورة الدعاة إلى الدين والمتكلمين باسمه، حتى اتخذوا سمتا ومظهرا آخر غير مظهر وسمت وزى علماء الأزهر الشريف مع ادعاء أن هذا هو زي السنة، مما جعل بعضهم يتجرأ على علماء الأزهر وزيه، فيصمه بالبدعة ويدعو لاحتقاره .

لذلك كله يجب على الأزهر الشريف وعلمائه تصحيح كل هذه الأخطاء الفادحة، والرجوع إلى المجتمع وحياة الناس مرة أخرى ليعيد صياغة عقولهم، وتأسيس احترام الأزهر وعلمائه، لأن هذا أمانة لا بد أن تؤدي، ورسالة يجب أن تبلغ للحفاظ على هوية المجتمع الإسلامي والمصري خاصة .



﴿ قيمة تطبيق الشريعة وتعريفها وتفهم الناس لحقيقتها ﴾

إن مما تدمع له العين ويحزن له القلب ما نراه اليوم من فهم بعض الناس لتطبيق الشريعة في مجتمعاتنا، فنرى الحذر والخوف والهلع عند ذكر هذه القضية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى جهل الناس بأمر دينها وحقيقته، وقد يكون السبب في هذا أمور أهمها :
(١) - بعد الناس عن العلم الشرعي ومجالسه، مما أدى إلى اتساع الفجوة بين علم الشريعة وبين عقولهم .

(٢) - تصدر بعض المتعالمين للخطاب الدعوي لفترة غير قليلة من الزمن، كان أكثر خطابهم الدعوي تكفير المخالفين، وحصرهم للشريعة في خطابهم في صورة إقامة الحدود فقط . ونسوا أن يعرفوا الناس أن الشريعة ليست إقامة الحدود فقط، بل هي منهاج حياة متكامل .

(٣) - الفهم المغلوط للالتزام الديني، وأنه عدم التوافق مع الحياة، مما أنتج تعاملات اتسم بالغلظة في الأقوال والتعاملات، مما عكس في أذهان كثير من الناس أن الشريعة لن تصلح لهذا العصر الذي نحيا فيه .

(٤) - تراجع دور الأزهر الشريف والخطاب الدعوي الوسطي، مما أدى إلى اختراق العقول من مناهج أخرى متشددة غير المنهج الأزهري المعتدل، مما شوه صورة الشريعة في أذهان الكثير من الناس .

لكن الأمر الذي يجب على كل مسلم معرفته أن تحكيم الشريعة الإسلامية ثابت بالقرآن والسنة والإجماع، والآيات الدالة على وجوب تحكيم شرع الله والتحاكم إليه كثيرة في كتاب الله تعالى وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة .

(١) - الأدلة من القرآن الكريم على تحكيم الشريعة : مثل قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُنزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا

أَخْتَلَفُوا فِيهِ^١ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ^٢ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ^٣ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾
[سورة البقرة آية: ٢١٣] وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ

النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ^٤ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ^٥ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢١٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ^٦ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^٧ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢١٥﴾ [سورة النساء آية: ٥٨ - ٥٩]

وقال ﷺ: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ^٨ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ^٩ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٢١٦﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ^{١٠} وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [سورة المائدة آية: ٤٩ - ٥٠] وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ^{١١} وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٢١٨﴾﴾ [سورة الأحزاب آية: ٣٦]

ومن السنة النبوية المطهرة: عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَعٌ فَمَاذَا نَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: ((أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبِشِيًّا مُجَدِّعًا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ فْتَمَسَّكُوا بِهَا وَعَصُوا عَلَيْهَا بِالتَّوَّاجِدِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)). (١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا)). فقال رجلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَوْ قُلْتَ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَكَمَا اسْتَطَعْتُمْ)). ثُمَّ قَالَ: ((ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَلْيَابِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ)). (٢)

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ١٧٩) حديث (٥) .

^٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الحج)) باب ((فرض الحج مرة في العمر)) حديث (١٣٣٧) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مِنْ أَبِي)) .
 قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَا أَبَى ؟! . قال : ((مِنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)) .
 (١)

﴿ أهمية تطبيق الشريعة في المجتمع ﴾

إن تطبيق الشريعة في المجتمعات الإسلامية أمر يكفل لها أن تعيش في سعادة وهناء و استقرار في كافة المجالات الحياتية، السياسية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، وعلى وجه الخصوص تطبيقها لنظام العقوبات في الإسلام، فإنه يساعد على تهذيب الشخصية والتزامها بكتاب ربها وتحليها بالأخلاق الحسنة، وتمثل أهمية تطبيق الشريعة الإسلامية في أنها تحقق هذه القيم التالية :

(١) - **تحقيق العدالة وحماية المجتمع من أذى المجرمين** : إن تطبيق العقوبات سبيل لتحقيق العدالة، وقد أوجبتها الشريعة الإسلامية لأنها تؤدي إلى مصلحة الجماعة والمنفعة العامة للبلاد والعباد . فالعقوبات في الإسلام تقوم على العدالة وأيضاً تهدف إلى حماية المجتمع والمصلحة العامة والفضيلة والأخلاق، والحفاظة على المصالح الضرورية لكيان المجتمع لذلك قررت الشريعة عقوبات رادعة لمن ينتهك حرمة المجتمع التي هي حرمة الله سبحانه .

(٢) - **تحقيق مقاصد الشريعة التي يقوم عليها أمن المجتمع** : إن المصالح التي يحميها الإسلام بتقرير نظام العقوبات حين الاعتداء عليها ترجع إلى أصول خمسة، وصيانتها تعتبر أساسية في المجتمع، وقد عملت الشرائع السماوية على حفظ هذه المصالح الخمسة وبفقدان أي منها تنهار الحياة الإنسانية في المجتمع، وهي تتمثل فيما يعرف بمقاصد الشريعة وهي ما يلي :

١- **حفظ الدين** : من حيث حرية العقيدة و صون المقدسات وتعظيم حرمة الله فإنها من تقوى القلوب .

٢ - **حفظ النفس البشرية** : من حيث حقها في الحياة و صون كرامتها و حرمتها الشخصية والفكرية، وأنه لا يجوز قتل النفس بغير حق، وأنه من قتلها فكأنما قتل الناس جميعاً .

٣ - **حفظ العرض** : وذلك بمنع وقوع جرائم الزنا والاغتصاب، والتحرشات والمعاكسات قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

^١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الاعتصام بالكتاب والسنة)) باب ((الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ)) حديث (٦٨٥١) .

٤ - **حفظ المال** : بمنع الاعتداء على المال الشخصي للأفراد والمال العام سواء بالسرقة أو النصب

أو الاستيلاء على ممتلكات الغير، أو أن يأكل الناس أموالهم بينهم بالباطل، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨] .

٥ - **حفظ العقل** : تعمل الشريعة الإسلامية على حفظ العقل من أن يصاب بسوء وعملت على وقايته بالابتعاد عن الخمر وكل ما يفسد العقل .

ومن يعتدي على هذه الأصول الخمسة التي قصد الشارع الحكيم حمايتها والحفاظ عليها حق عليه العقاب، وبتطبيق نظام العقوبات تصان الحياة الإنسانية ويحافظ على أمن وسلامة واستقرار المجتمع .

٣ - **حفظ الأخلاق والمساواة بين الناس** : إن القوانين الوضعية تكاد تهمل المسائل الأخلاقية إهمالاً تاماً إلا إذا أصاب ضررها المباشر الأفراد أو الأمن أو النظام العام . والعقوبات السماوية تختلف عن الوضعية من حيث إنها لا تميز بين البشر، بل تتوخى العدالة والفضيلة وتشمل السلطان والرعية، وتقيم العقوبة على أي كان مهما كان لونه وجنسه ومركزه الاعتباري في المجتمع .

٤ - **إصلاح الفرد ومنع الجريمة** : إن العقوبة شرّعت في الإسلام لإصلاح الأفراد ولتمنع كافة الجرائم، وبتطبيق نظام العقوبات زجر للآخرين، فلا يجزئ أحد على الإقدام على ارتكاب الجريمة حيث إن العقوبات في الإسلام تكون بالقدر الكافي لزجر الآخرين عن الإقدام عليها، والله أعلم بمن خلق وبالنفس وبما يهذبها . فالذي خلق هذا الإنسان هو الذي أنزل له ما يصلحه في هذه الدنيا وما يناسبه تماماً . فالغاية العظمى من التشريع الإسلامي هي إقامة المجتمع الصالح والأمة الصالحة التي هي الأمة القائمة بأمر الله سبحانه وتعالى المقيمة لحدوده العبادية له . التي قد جعلت الدنيا مزرعة ومعبرة إلى الآخرة، والتي يتراحم أفرادها ويتعاطفون، وتتآلف قلوبهم وتجتمع جهودهم على محبة الله ورضوانه، ويكون دين الله ظاهراً بها، الأمة التي تكون فيها وبها كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى .

فمن صفات هذه الأمة أنهم متراحمون فيما بينهم أشداء على أعدائهم، قائمون بأمر ربهم ركوعاً وسجوداً . وجوههم تشرق بالنور من أثر السجود خالقهم، وهم غيظ لأعدائهم، وبهجة ونور لأوليائهم .

ولا يعني وجود هذه الأمة أن تكون خالية من الجريمة ومن النفاق فمثل هذه الأمة الصالحة على طهارتها لم تكن خالية من المنافقين، فقد كان هناك عدد كبير منهم، وكذلك لم يخل مجتمعها

من الجريمة، فقد كان هناك من زنى فرجم، ومن سرق ففقطع، ومن غدر فجوزي بجنس عمله قطعاً ليديه ورجليه . فالشر موجود ما وجد البشر لكن مع تطبيق الشريعة يكون النظام في كل شيء ويكون الشر خفياً .

﴿ كيف نبدأ تعريف الناس بأهمية تطبيق الشريعة وحقيقتها ؟ ﴾

يجب علينا إقامة بناء الدين أولاً بالدعوة إلى الإصلاح وعمارة المساجد، وأداء الزكاة، وبذل الخير والمعروف، ومساعدة المحتاج، وإغاثة الملهوف، ونصر المظلوم، وتأمين الناس على دينهم ودنياهم . ويجب على أي حاكم يريد أن يطبق الإسلام أن يكون أول تشريع له في التربية. أن يعتني بالمدارس، ويضع المناهج الصالحة، ويرفع من شأن المدرس والمربي، وأن يغرس في الأجيال الجديدة الانتماء إلى أمة الإسلام، والاعتزاز بتراث المسلمين، والفخر بأنه مسلم .

هذا هو أول عمل يجب أن يقوم به أي حاكم يريد أن يطبق الإسلام، يجب فرض الزكاة، ونشر المحبة، والصلة بين الناس، ومنع امتيازات سلب أموال الناس بالباطل، والعدوان على المال العام للأمة والتصرف فيه بغير حق . هذه نقطة البدء في بناء الأمة، وذلك هو مراد الرب سبحانه وتعالى ومقصد الدين والتشريع لبناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح .

وكذلك التوعية والتعريف بفروع الشريعة، وأنها نظام وتنظيم لكل شيء في الحياة، فهي نظم إلهية تنظم حياة المسلمين بل وغيرهم ممن يعيشون في بلاد الإسلام من غير المسلمين، في معاملاتهم ومواريثهم ومعاهداتهم، وأحوالهم الشخصية والأسرية، ونظام حياتهم وتصرفاتهم وأخلاقياتهم، فضلاً عن تنظيم حياة المسلم في العبادات وعلاقته بالله ﷻ .

﴿ دور الأزهر الشريف وعلمائه في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ﴾

لقد ظل الأزهر الشريف منذ أن أسس مستودع علوم الشريعة الإسلامية وفقهها ومذاهبها، والحامي لها والمدافع عنها ضد شبهات الملحدين وتشكيكات المبطلين، ولن يزال بأمر الله تعالى وتوفيقه .

بل وإن أعظم سمة من سمات الأزهر الشريف الحفاظ على المذهبية الفقهية التي هي حصيلة علوم الشريعة الإسلامية، والمذهبية أساس من أسس منهجه . ووقف علماء الأزهر الشريف من الشريعة موقف الحامي لها، في أصعب المواقف التي أريد بها تبديلاً أو تحريفاً، خاصة بعد سقوط

الخلافة الإسلامية، وتكالب العلمانية الغربية المقيتة التي حاربت الشريعة وعلومها ووصفتها بالرجعية والتخلف، وعملت على غزو المجتمعات العربية والإسلامية بحجة التقدم والعلم، فحافظ الأزهر على ذلك التراث العلمي الضخم من علوم الشريعة الإسلامية، وحافظ على الهوية الإسلامية العربية، ضد ظلم واستبداد الاستعمار الغاشم وما زرعه في نفوس المصريين والمسلمين . ونجد في تاريخ الأزهرين ﷺ نماذج مشرفة من مواقفهم ضد من أراد تحريفاً للشريعة أو إبطالا لها أو تشكيكا فيها، ومن هذه المواقف والنماذج :

١ - الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون فقد وقف موقفاً يشهد له التاريخ حين أصر على إلغاء تصاريح بيوت الدعارة في مصر، فقد كانت عارا في جبين المسلمين في العالم الإسلامي عامة وفي مصر خاصة، وضعه الاستعمار ونص عليه بصفة رسمية، حتى ينتشر الفساد في المجتمع و الانحلال في الأمة بحجة واهية لا أساس لها من الصحة . (١)

٢ - الإمام المراغي وما حدث معه والملك فاروق في تطليق زوجته الأولى فريدة، وأراد أن يحرم عليها الزواج من غيره، وكان الشيخ يُعالج بالمستشفى فرفض الاستجابة؛ فضاقت الملك به، وذهب إليه بالمستشفى، فقال له الإمام عبارته الخالدة: أمّا الطلاق فلا أرضاه، وأمّا التحريم فلا أملكه . وطال الجدل، فصاح المراغي قائلاً: إنّ المراغي لا يستطيع أن يحرم ما أحلّ الله . (٢)

٣ - الشيخ الإمام عبد المجيد سليم كان له مواقف كثيرة منها : تلقى الشيخ وهو مفت سؤالا عن حكم الشرع في رجل يراقص النساء ويشرب الخمر! وذلك بعد حفلة صاخبة أقامتها إحدى الأميرات وحضرها الملك فاروق ونشرت بعض الجرائد صوراً لبعض ما كان وقد أدرك الشيخ عبد المجيد سليم من هو المقصود بالفتوى، فلم يؤثر السلامة وإنما جابه المخطئ بانحرافه واضطرب القصر لجرأة هذا الإنكار الصارخ، واتصل القصر بالإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر حينئذ منبهاً على خطورة الفتوى بالنسبة لأثرها الجريء، وكان الشيخ المراغي من الغيرة على الحق بحيث لم يخذل رأي المفتي بل دعا إلى تصحيح الخطأ عند المخطئ لا إلى تخطئة المصيب! وقد ظل الشيخ عبد المجيد سليم متولياً لمنصب الإفتاء لمدة .

ومن مواقفه : أن مدير الخاصة الملكية حاول بإيعاز من الملك أن يستبدل ببعض ممتلكاته العقارية الجديدة أرضاً خصيبة من أملاك الأوقاف، وتلمس الفتوى الميسرة من المفتي فأعلن المفتي

١ - ((شيوخ الأزهر)) سعيد عبد الرحمن (٨ / ٤) .

٢ - المصدر موقع مشيخة الأزهر :

لفوره أن الاستبدال باطل إذ لا يجوز شرعا لغير مصلحة الوقف، وهي هنا مفقودة بل إن الخسارة محققة فعلا ! .

وأهدت مصلحة التزام إلى فضيلته تصريحين للركوب بالجان هو وتابعه، فرفض الشيخ استعمال هذا التصريح وحمل تابعه على رفضه، وعلم أنه استعمله مرة فذهب الشيخ الإمام إلى إدارة المصلحة ودفع ثمن تذكرة تابعه . (١)

٤ - الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله : رفع الإمام صوته عاليا مدويا ينبه الأمة الإسلامية إلى تحرير نفسها من قيود القوانين الاستعمارية والرجوع إلى ما سنه الله للبشر من قوانين إلهية، ولقد ذكر الإمام في محاضرة ألقاها بنادي القضاء أن المشرعين من رجال الفكر يختلفون في تشريعاتهم اختلافا كبيرا بينا .

ولم يكتف الإمام الأكبر بهذه المحاضرة بل ألقى عدة محاضرات، وأذاع عدة أحاديث، ثم سلك سبيل الجهاد العملي، فكون لجنة بمجمع البحوث الإسلامية لتقنين الشريعة الإسلامية في صيغة مواد قانونية، وقد أتمت تقنين القانون المدني كله في كل مذهب من المذاهب الأربعة، وكذلك تقنين القانون الجنائي، ثم توج هذا كله بالاتجاه إلى السلطة التشريعية ممثلة في مجلس الشعب يطالبها في قوة وحزم وحسم تطبيق شريعة الله، وكتب الخطاب التالي إلى رئيس مجلس الشعب، وقد أرسلت صورة منه إلى رئيس الهيئة التنفيذية السيد ممدوح سالم رئيس مجلس الوزراء :

^١ - ((شيوخ الأزهر)) سعيد عبد الرحمن (٤ / ١٣ - ١٤) .

السيد المهندس سيد مرعى رئيس رئيس مجلس الشعب .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فإن الأزهر يذكر كل من مكن الله له الأرض أن الإسلام ليس من نوع القضايا المطروحة لتكون تحت رحمة المناقشات باسم الديمقراطية ، وليس الإسلام فى موقف الانتظار لما تسفر عنه هذه المناقشات من تأييد أو معارضة . إن عقيدة الإسلام لا تفرض ، لأنه لا إكراه فى الدين ، ولكن من قبلها مختاراً فآمن بها كان عليه أن يلتزم شريعته وليس له أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ دِمَارِهِمْ سَبْحًا وَأَطْعَمًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

والمواطنون من غير المسلمين كان لهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل ما يرجون من حرية العقيدة والعبادة والتدين ، والتاريخ شاهد صدق بذلك ومن الحقائق المقررة أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

ولقد ارتضى شعبنا المؤمن الإسلام ديناً ، ورفع رئيس الجمهورية شعار العلم والإيمان ، فكل تعطيل لشريعة الإسلام إنما هو مسئولية الهيئة التشريعية ومسئولية كل من يملك القدرة على تنفيذ أحكام الله جل علاه .

إنه لا اجتهاد لأحد من البشر مع النص الشرعى ولا يجوز لأهل الإيمان أن يقدموا بين يدى الله ورسوله ولا أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى ، وهذا هو الفيصل بين الشورى فى ديمقراطية الأرض والشورى فى الإسلام ، حيث لا نص ، بينما هى فى ديمقراطية الأرض قد تصادم المقدسات الشرعية ، وواقعنا حافل بالدلائل على هذا للأسف الشديد .

ولقد تابعنا مناقشات مجلس الشعب حول تحريم الخمر مثلاً ، فعجبنا لكل هذا الكلام الكثير فى أمر قضى الله عز وجل فيه ، ثم عجبنا لتشريع يجعل الأمر الواحد حالاً فى مكان حراماً فى آخر ، وعجبنا لاقتراح يجعل القمار حراماً بعمله معينة حالاً بأخرى .

إن هذا القانون الذى أقره المجلس فى موضوع الخمر يراه بعض الغيورين خطوة

على الطريق نحو التحريم النهائي ومع ذلك طالب البعض بإعادة النظر فى هذا التحريم الجزئى وصولاً إلى العدول عنه والله تعالى يقول : **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُخَرِّجُوا أَشْجَرَ بَنِيهِمْ ثُمَّ لَا يُجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّنْهَا قَضَيْتَ وَيُسَلُّوا سَلِيمًا** *

ونتابع ما ينشر فى صحافة البلد المسلم ، فنرى افتراء على الإسلام ممن يتوهمون أنه شريعة نزلت لبيئة محدودة قد تبدلت ولفترة زمانية قد انتهت ، ويقرر الأزهر أن الذين ينشدون العدالة والحرية والعزة والمساواة والعلم والحضارة ومكارم الأخلاق وما إلى ذلك من المثل العليا لن يكونوا جادين فى طلبها إن هم عارضوا أحكام الله ، إذ كيف يزعمون أهدافاً لهم وهم يعارضون الدين الذى جاء بها وقررها . ولقد زينوا للشباب ظلاماً وزوراً أن القرن العشرين لا ينبغي أن يحكم بشريعة نزلت منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

وإننا لنؤكد أن العالم لم يكن بحاجة إلى الإسلام كما هو بحاجة إليه اليوم لإنقاذه من الصراع والفرقة وإقرار السلام والعدل والضمان الحرية والمساواة ، أما الازدهار المادى فهو مطلبنا باسم الإسلام ولا بد له من الإسلام ، لأن القوة من غير هذا الدين تتجه إلى التخريب والتدمير ولا يضبطها « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

لقد آن الأوان لإرواء هذه الأشواق الطامئة فى القلوب المؤمنة إلى وضع شريعة الله بيننا فى موضعها الصحيح ليبدلنا الله بعسرنا يسرا ، ويخوفنا أمناً ، وليمكن لنا فى أرضنا أعزه كراماً (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٦ هـ

٣١ من مايو سنة ١٩٧٦ م

شيخ الأزهر

د. عبد الحليم محمود

(١)

٥ - الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق : قال رحمه الله عن تطبيق الشريعة : ((لا خوف من تطبيق الشريعة، إذ لا يخافه إلا المنحرف، إن مقارنة بسيطة بين حياتنا الإسلامية بما فيها من ارتباط الأسرة والصلوات الاجتماعية القوية وبين حياتهم ومجتمعاتهم تظهر ما يعوزهم من استقرار وأمن .

^١ - ((شيوخ الأزهر)) لسعيد عبد الرحمن (٥ / ١٩ - ٢١) .

إن الشريعة الإسلامية ليست كلها حدوداً، إن فيها حدوداً وتعزيراً.. والحدود حين شرعها الله تعالى وضع لها الضوابط، والمنوط بالتحقق من هذه الضوابط هو القضاء، ومن هنا فلا وجه للخوف من التطبيق ((. (١)

كما لا ننسى خوضه معركة حامية الوطيس أظهرت موقفه الشديد والمشرف من مؤتمر السكان الدولي المنعقد في القاهرة في شهر سبتمبر عام ١٩٩٤م وقد أعلن حينها حرباً شعواء على ما جاء من بنود المؤتمر والتي تناهض مبادئ الدين الإسلامي والتي تعد اعتداءً سافراً على كرامة الإنسان الذي خلقه الله وفضله على العالمين، حيث وجد شيخنا الراحل أن بنود المؤتمر الفاسدة تعتمد إلى إباحة العلاقات الجنسية الشاذة بين الرجل والرجل، وبين المرأة والمرأة، كذلك إباحة حمل العذارى الصغيرات والحفاظ على حملهن، وإباحة إجهاض الزوجات الشرعيات الحرائر، وقد استنكر الشيخ أن تناقش هذه البنود في بلد إسلامي كبير مثل مصر بدعوى الحرية ومثيلاتها من الكلمات الممجوجة .

وقد أصدر الشيخ في ذلك عدة بيانات شاملة عن مجمع البحوث الإسلامية، وفيه يتصدى لهذه البنود الفاسدة بطريقة عقلية مؤسسة على فكر منظم راسخ بدراسة عميقة لكل ما ورد بالوثيقة باللغتين العربية والإنجليزية، كان لها الأثر الأكبر في إجهاض تلك المؤامرة التي كانت تحاك للقضاء على تعاليم الإسلام، وحينما اتصل بالرئيس حينها موضحاً له أن ما تحويه البنود من كفر صريح، أعلنها الرئيس صريحة أنه لن يوافق إلا على ما يوافق عليه شيخ الأزهر، وكان ذلك انتصاراً للإسلام على يد رجل لم يخش في الله لومة لائم .

ومن الفتاوى غير المتوقعة التي تصدى لها الشيخ حاد الحق يرحمه الله لما نشر في جريدة الأهرام المصرية عن مسابقة اختيار ملكة جمال النيل من الفتيات في عمر المراهقة حيث يركن مركباً فرعونياً يسير في النيل بمصاحبة دبلوماسيين من معظم الهيئات الدبلوماسية، ومن ستفوز باللقب ستلقى في النيل ومن ثم ستقوم بالتقاطها فرق الإنقاذ فأى إهانة للمرأة هذه؟! وقد كتب مقالاً نشر بنفس الجريدة يستهجن فيه أن يحدث هذا في بلد العروبة والإسلام بعنوان : أوقفوا هذا العبث فوراً باسم وفاء النيل . مؤكداً أن هذا الاحتفال عودة مقنعة تحت ستار للرق والنخاسة وهذا ما يرفضه الإسلام وتعاليمه . (٢)

١ - ((شيوخ الأزهر) (٦ / ٣٥) .

٢ - - المصدر موقع ((قصة الإسلام)) :

ولهذا دور الأزهر ومناهجه كان مؤثرا في المجتمع المصري والإسلامي، وعرف وسطيته المسلم وغير المسلم، قال الأستاذ لويس فانوس - وهو رجل من كبار رجال السياسة والقانون المخضرمين - : ((إنني كمسيحي أؤمن بديني، أؤكد أن الدراسة في الأزهر خير دراسة يقوم عليها منهج قديم أو حديث؛ فإن الأزهر هو ذلك المعهد القديم، الذي صان القومية العربية واللغة العربية، والفقه الإسلامي، الذي لم يترك شيئا من حياة المجتمع إلا نظمه، كالجنايات، والحدود، وشئون التوثيق، وأحكام الأسرة)) . (١)

﴿ دور الأزهر المأمول في تطبيق الشريعة والتعريف بها ﴾

لقد أصبحنا في عصر الحداثة الذي تبدلت فيه المفاهيم وتجددت، وظهرت اصطلاحات حديثة فرضت على المجتمعات العربية والإسلامية من قبل وسائل الإعلام، أو من يطلقون على أنفسهم النخبة المثقفة، وهم في الحقيقة أكثرهم من أنصار العلمانية الغربية، فأصبحت هناك مصطلحات تفرض نفسها مثل : ((الدولة المدنية)) أو ((مدنية الدولة)) وبمعناها البسيط المختصر - فيما يقصد هؤلاء بفهمهم هم - ألا تكون الدولة عسكرية الحكم ولا دينية أيضا، وكأن الإسلام لا يصلح لحكم الدول وتأسيسها، كما وصفه أساتذتهم في الغرب أن شريعته شريعة البداوة التي تأخرت عن الزمان والتقدم !. زعما منهم بسوء فهم وخبث طوية .

ولذلك أصبح على علماء الأزهر الشريف مسئولية عظيمة وهي أن يعرفوا الناس خطورة هذه المفاهيم المغلوطة الآتية التي يروج لها الغرب وأذنانهم في بلادنا العربية والإسلامية، وأن يفهم الناس أن هذه النزعات في الفكر والقول ما هي إلا لسان الإلحاد الذي يريد أن يقضي على الإسلام .

ويجب عليهم في أول واجباتهم ومهماتهم أن يعرفوا العالم كله حقيقة الشريعة الإسلامية، وأنها ليست انتقامية، بل هي السماحة في كل شيء، وأنها نظم إلهية تترقى بها المجتمعات وتضمن لها التعايش السلمي والاستقرار والأمن .

يقول الشيخ الغزالي : لماذا أصبح الإسلام مرادفا للماضي لشيء اسمه التراث ؟ لماذا يحجم ويجعل سجيناً في أسرته الأولى وعهود نشأته الأولى ؟ . أي في أسرة بني أمية وبني العباس ؟.

[%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%82-%D8%B9%D9%84%D9%8A-%D8%AC%D8%A7%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%82](#)

(١) - ((الأزهر الشريف وأثره في صناعة ثقافة العالم)) . ص (١٤) .

طبعاً هنالك موقف العلماء على مر القرون، كان قد شجع هذا الفهم الخاطئ للإسلام، إذ أن ضمير العلماء عانى كالضمير التاريخي للأمة ككل من عقدة صفين، فدفع هذا إلى نوع من الانزواء وترك ساحات الحكم وإدارة المجتمع لسلطات لا تلتزم بالضرورة بأحكام الإسلام كما كان الأمر في العهد الراشدي، ولقد تم لقرون عديدة نوع من التحييد لقوة الرأي العام الإسلامي وتفاقم هذا الأمر في العصر الحديث بحيث عندما نرى قوة الرأي العام الإسلامي المعاصر تدفع مرة أخرى باتجاه إقامة دساتير وشرائع المجتمعات على أساس الإسلام، يبدو الأمر وكأنه مطالبة غريبة لا كعودة طبيعية إلى صراط مستقيم وحالة طبيعية تنسجم مع تكون الأمة ومصالحها . (١)

لكن السؤال الأهم هو : كيف يعيد الشرق كامل الإسلامية إلى دوله ومجتمعاته بعد التغييرات الكبرى التي أحلت الدول الوطنية والقطرية والقومية محل الدولة الإسلامية الجامعة التي كانت الجنسية عندها وعند شعوبها هي الإسلام ؟. وبعد أن حلت العلمانية وقوانينها الوضعية محل الشريعة الإسلامية ؟. كيف يعيد الشرق فتح هذه الصفحة، صفحة استكمال إسلامية الدولة والمجتمع من جديد ؟.

هنا وكي تصبح الشريعة الإسلامية شريعة الحاضر والمستقبل، كما كانت شريعة الماضي و التاريخ يبرز علم السياسة الشرعية الذي هو علم إسلامية الدولة والمجتمع دائماً وأبداً، رغم تغير الواقع، وتبدل الوقائع، وتوالي المستجدات، فالسياسة الشرعية هي علم أسلمة الحياة، فيظل تغير وقائع هذه الحياة .. هي العلم الذي يبدع أحكاماً إسلامية جديدة تستمد روحها ومعاييرها و قواعدها من شجرة الشريعة الإسلامية التي هي وضع إلهي ثابت، اكتملت باكتمال هذا الدين الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان . (٢)

لذلك كان من أوجب واجبات علماء الأزهر في هذه الآونة أن يهتموا بعلم السياسة الشرعية، وأن يبدعوا فيه بما يتوافق مع مستجدات العصر من أخلاقيات ومشكلات اقتصادية وسياسية وعلمية... إلخ . ليشبثوا للعالم مرونة الشريعة الإسلامية السمحاء، وعدم جهودها كما يظنون، وأنها صالحة لكل زمان ومكان لأنها الرسالة الخاتمة ! .

^١ - ((الاستعمار التشريعي في بلادنا)) مقال للشيخ محمد الغزالي في مجلة ((الأزهر)) عدد شهر جمادى الآخر ١٤٣٣ هـ مايو ٢٠١٢ م ص (١٢٩٦) .

^٢ - ((المدخل إلى السياسة الشرعية)) للأستاذ الدكتور عبد العال أحمد عطوة ص (٩ - ١٠) .

كذلك نأمل في الأزهر الشريف وعلمائه أن يهبوا لتوعية الناس وتصحيح مفاهيمهم، والرقي بأفكارهم، وخاصة فيما يتعلق بفهم الشريعة الإسلامية، لأن كثيرا من الناس قد أساء فهمها نظرا لما رأوا من تصرفات غير مسئولة، خرجت في الظلام لتفهم الناس أن الشريعة قتل واستبداد وعدم قبول الآخر ولا رأيه، وأنها قطع يد ورجم وجلد وسجن . ولم يعرف كثير من الناس حقيقتها كما يجب، وأنها المنهاج الأمثل للحياة المدنية المتقدمة في أرقى صورها، بل إنها جاءت لتنظيم الحياة في كل صغيرة وكبيرة، من العادات والعبادات والأخلاقيات والتعاملات الفردية والاجتماعية بل والدولية، وما يتعلق بها من معاهدات واتفاقيات دولية، وغيرها من القضايا السياسية، وجاءت بقوانين تنظم الحياة في كل مجالاتها ! . وأن الحدود ما هي إلا فرع من فروعها، وليست هي كل الشريعة، وأن الله تعالى شرعها ليضمن لعباده الحياة الكريمة بلا جريمة ولا اعتداء، ويضمن لهم صيانة أنفسهم وممتلكاتهم وأعراضهم، من أجل هذا وضع الحدود وشرعها، وهو أعلم بمن خلق سبحانه وتعالى .

ولابد أن يتعلموا أن الإسلام قد دعا إلى الستر، ومن قواعد إقامة الحدود استكمال شروطها، فإذا نقص شرط منها فلا إقامة لها، بل تدفع ولا تقام حفاظا على صورة الأمة وسترا لها ورحمة بمقتضى فيها لعلمهم يتوبون ويرجعون والله تواب رحيم، ولذلك يلفت النبي ﷺ نظر أمته إلى معنى عظيم حين يقول ﷺ : ((اذْفَعُوا الْحُدُودَ مَا وَجَدْتُمْ لَهُ مَدْفَعًا)) . (١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : ((ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة)) . (٢) يعني ادفَعُوا الحدود ما استطعتم قبل أن تصل إلي فإن الإمام إذا سلك سبيل الخطأ في العفو الذي صدر منه خير من أن يسلك سبيل الخطأ في الحدود . (٣)

والسؤال هنا : لماذا أوصى النبي ﷺ بهذا ؟ مع أنه ﷺ لم يفرض في حد من حدود الله ؟! والجواب عن فهم لفقه الحديث كما علمنا مشايخنا جزاهم الله خيرا أن النبي ﷺ حريص على تحسين صورة الأمة والستر لحاها، إذ أنها الأمة التي قال الله تعالى فيها : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١١٠]

فأين الخيرية إذا تساهلت الأمة في الحدود وأقامتها بدون تدقيق وتمحيص ، مما يجعل معدل الحدود في الأمة يرتفع، وهذا مما يطعن في خيريتها، ويشمت الأعداء فيها، وليس هذا معناه أن نفرط في

^١ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ٨٥٠) حديث (٢٥٤٥) .

^٢ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٨ / ٢٣٨) حديث (١٦٨٣٤) .

^٣ - ((تحفة الأحوذى)) (٤ / ٥٧٣) .

الحدود، بل أن نلتزم الدقة فيها وتوافر شروط إقامتها، فإذا اختل شرط منها يدفع الحد ولا يقام، سترًا للمسلمين وإمهالًا للعاصي لعله يتوب وقد ستره الله ودفع عنه العذاب في الدنيا . وهذا أمر لا بد أن يفهمه من ظن أن تطبيق الشريعة فقط هي إقامة الحدود، وقد حصروها في هذا ونسوا أنها منظومة إلهية متكاملة تشمل كل وجوه الحياة وتنظيمها، وليست فقط قطع يد السارق أو رجم أو جلد الزاني إلخ . فقد دعينا إلى الستر فيما بيننا، وها هو خليفة من أعظم خلفاء الإسلام، ومن أعدل حكام الزمان، عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات . (١) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومعاذ بن جبل رضي الله عنه وعقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قالوا : إذا اشتبه عليك الحد فادرأه ما استطعت . (٢) وعن القاسم بن عبد الرحمن قال : قال ابن مسعود رضي الله عنه : ادرؤوا الحدود والقتل عن عباد الله ما استطعتم . (٣)

وقد عمل كثير من علماء الأزهر على التوفيق بين الشريعة الإسلامية وأحكامها وبين القوانين الوضعية، بل وشاركوا في وضع قوانين الأحوال الشخصية التي أسست على الفقه الإسلامي، و من أشهرهم شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم .

فيجب على الأزهر أن يعمل على توفيق القوانين المعمول بها مع أحكام الشريعة الإسلامية، لضمان الأمن والاستقرار والتعايش السلمي بين الشعوب .

﴿ قيمة الاهتمام بحقوق المرأة ﴾

للمرأة في الإسلام أعظم شأن وأفخم قدر، فهي الدرة المصونة والجوهرة المكنونة التي يحافظ عليها الإسلام بإعطائها كامل حقوقها والاهتمام ببنائها عقليا وتعليميا ودينيا وصحيا ... إلخ ، و ذلك لأنه ينظر إليها على أنها الشريك للرجل في هذه الدنيا، بل إنها الأصل في عمارة الكون، فلولاها ما كان استمرار الجنس البشري ذكرا وأنثى، فهي الأرض العظيمة التي تنبت البشر، و المصنع الكريم الذي يصنع الرجال، لتستمر رسالتهم في عمارة الكون التي خلقوا من أجلها، فلذلك أول ما نريده من المرأة أن تفهم من هي في هذا الكون !.

^١ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٥ / ٥١١) رقم (٢٨٤٩٣) .

^٢ - أخرجه الدارقطني في ((سننه)) (٣ / ٨٠) حديث (١٠) .

^٣ - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (٧ / ٤٠٢) حديث (١٣٦٤٠) .

فالمرأة هي السكن الآمن والأم الحنون والبنت الحبيبة والأخت المخلصة للرجل، خلقها الله ﷻ من أجل هذه المعاني السامية والرسالة الكريمة، لتكون شريكة الرجل في إعمار هذه الحياة، و جعلها متساوية معه في هذه الرسالة قدما بقدم، وخطوة بخطوة، وإن أردت الدليل على هذا فهذا بيان الله لك إذ يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ [سورة النساء آية: ١] ولقد كفل الله للدرة المصونة (المرأة) في الإسلام حقوقها، ومن أهمها:

(١) - **حق الفهم** : الفهم لقيمتها وعظيم دورها في الحياة، ولم يغلق في وجهها باب المعرفة والفهم بل فتحه على مصراعيه لتعرف لماذا خلقت ؟. ولماذا جاءت إلى هذه الحياة ؟. ومن هذا بداية فهم التسمية باسم أول امرأة في البشر ((حواء))، ولقد سمى الله أول سيدة في الخلق وهي أمنا جميعا بـ((حواء)) وما لبث هذا الاسم إلا أن صارلقبا لكل امرأة من بعدها، وهذا على سبيل التكريم والتشريف والسؤال هنا: هل تفهم المرأة لماذا سمى الله حواء بهذا الاسم الذي صار من ألقاب النساء ؟!

لأن ((حواء)) إشارة إلى الحياة قال ابن عباس ؓ : إنما سميت حواء لأنها أم كل حي . وقال البغوي : وسميت ((حواء)) لأنها خلقت من حي خلقها الله ﷻ من غير أن يحس بها آدم ولا وجد لها ألما، ولو وجد لها ألما لما عطف رجل على امرأة قط، فلما هب من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله، فقال لها : من أنت ؟ . قالت : زوجتك خلقتني الله لك تسكن إلي وأسكن إليك . (١)

فالمرأة لقت بحواء لأنها من الحياة جاءت لتحبي هذا الكون، لأنها الأصل في استمرار الجنس البشري، ليحيا هذا الجنس للرسالة التي خلقه الله من أجلها، وهي التي خلقها الله لتحبي في نفوس الرجال الحياة بكل جمالها وإشراقها، فهي المعينة له والمفرحة له والتي تنفض عنه غبار الألم والشقاء لتحبي في نفسه الحياة مرة أخرى !

وكذلك لهذا اللقب معنى آخر، وهو : ((حواء)) : من ((الحوي)) فهي مأخوذة من ((حوى يحوي)) وهذا مشتق من ((الاحتواء))، إن الرجل إذا تألم كره من كان سببا في ألمه أما المرأة فقد حباها الله عطفًا ومحبة، فلا تزداد مع شدة الألم إلا حبا وعطفًا وتسامحا، وهذا يظهر جليا

^١ - ((تفسير البغوي)) (١ / ٦٣) .

في ولادة المرأة التي ترى بعينيها الموت وأشد أنواع الألم، ولكن بوضعها مولودها سرعان ما تنسى كل شيء وتحتوى مولودها بحبها وعطفها وحنانها، والاحتواء للبشرية حبا ورحمة وحنانا .

كذلك نرى من هذه الألقاب لقب ((امرأة)) الذي يمزح في ذكر معناها من يمزح فيقول : سميت بهذا لأنها تمرر على الرجل حياته . لكن الحق في معنى هذا اللقب غير هذا القول المازح البعيد عن الحق في معناه، فلقب : ((المرأة)) من ((المري)) وهو ما يقال فيه مثلا : طعام مريء : من ((مرؤ الطعام)) أي : صار مريئا . أي : لذيذا سهلا طيبا سائعا .

وعلى هذا يكون معنى لقب ((المرأة)) أنها لذة الحياة وطيبتها والتي تسهل الشدائد على شريك حياتها، وتجعل حياته كلها لذة وفرحة وسعادة. وهذه رسالتها التي خلقها الله من أجلها .

وكثيرات من النساء من تغضب حينما تسمع أن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام الأعوج الأيسر، وتظن أنها منقصة أو تحقيرا لقدرها ! لكن هل تحرص من تغضب على أن تفهم الحكمة من هذا ؟ . نقول: هذا قد ورد في الحديث : عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ فَإِنْ أَقْمَتَهَا كَسَرَتْهَا فَدَارَهَا تَعِشْ بِهَا)) . (١) قالوا : إنه الضلع الأيسر المعوج الذي يحيط بالقلب ليحميه، ولذا يقول أهل الطب : لولا هذا الضلع المجاور للقلب لهلك القلب بأقل وكزة له أو اصطدام بهذه المنطقة .

وقال علماء الشريعة : إن الاعوجاج في هذا الضلع في أعلاه إشارة إلى لسان المرأة حين تغضب قد تقول ما ليس في قلبها، كقولها حين تغضب لزوجها : إني لا أحبك . أو : لم أر منك خيرا . وهذا مما لا بد أن يفهمه الرجل أنه مخالف لما في قلبها حين تقوله في غضبها ! .

إذا فبعد كل هذا ستفهم الجوهرة المصونة أنها الحامية لقلب الرجل كما هذا الضلع الحارس الأمين للقلب من الخطر، وأنها خلقت من جوار القلب لتكون صاحبه والمسيطرة عليه . وهذا حقها عند الرجل، لكن إذا أخذته بذكاء وحب وحنان .

كذلك نسمع كثيرا قول النبي ﷺ : ((يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ)) . فَقُلْنَ : وَيَمَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قال : ((تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتُكْفِرْنَ الْعَشِيرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبِ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ)) . قُلْنَ : وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قال : ((أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ)) . قُلْنَ : بَلَى . قال :

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٩ / ٤٨٥) حديث (٤١٧٨) .

((فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا أَلَيْسَ إِذَا حَاصَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ ؟)) . قُلْنَ : بَلَى . قال : ((فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا)) . (١)

وليس هذا بمتفرقة بين الرجل والمرأة بتحقيقها، معاذ الله أن يقصد النبي ﷺ هذا لأن نص الحديث نفسه يحمل إنكار هذا، فكما أثبت نقصان العقل أثبت غلبتهن للرجل الحازم .
إذا فما المراد بنقصان العقل ؟. إن المراد به ما يكون عند أكثر النساء من ضعف الذاكرة، فلذا جعل شهادة المراتين مقابل شهادة رجل واحد، وقد يحمل هذا أيضا على غلبة العاطفة عند المرأة فمن أجل هذا جعلت شهادة المرأة مع المرأة تصديقا لها ودعما وتذكيرا لها إذا نسيت، و تشجيعا على ترك العاطفة وقول الحق الذي تحفظ به الحقوق . وليس المراد بنقصان العقل الذي هو آفة من آفات العقل كالجنون أو غيره، أو أنها ليست صاحبة رأي سليم، لا . وليس هذا بالمراد فالمرأة تملك عقلا عجيبا وشهد بذلك القرآن فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [سورة يوسف آية: ٢٨] والكيد هنا التدبير والحيلة . وما التدبير والحيلة إلا نتيجة العقل والتفكير ! .

وكذلك النبي ﷺ قد استشار زوجته رضي الله عنهن في أمور خطيرة، ولم يحتقر عقولهن، بل أخذ بمشورتهن واحترم عقولهن، ودليل هذا احترامه لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وعقلها، وأخذه بآرائها، وكان يحكي لها شأنه كله، وكذلك لما فرغ النبي ﷺ من عقد الصلح مع قريش بالحديبية، وعزم على الرجوع إلى مكة، وأمر صحابته قائلا لهم : ((قُومُوا فَأَنْحَرُوا ثُمَّ اخْلُقُوا)) قال الراوي : فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . فلما لم يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ . فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ ؟ أَخْرَجَ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ . فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا . (٢)

وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من هذا ؟! أن يقبل رسول الله ﷺ منهن مشورة ونصيحة، مما يدل على أن الإسلام يحترم عقل المرأة ويقبل مشورتها ما دامت مشورة حق وصدق .

^١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) غي كتاب ((الحيض)) باب ((ترك الحائض الصوم)) حديث (٢٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري .

^٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الشروط)) باب ((الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب)) حديث (٢٥٨١) .

ونقصان عبادة المرأة الذي ذكر في الحديث قد ذكر شرحه في الحديث وتعليل وصفها بهذا الوصف، وذكر لمن عذرهن وهو ما يمنعهن من اكتمال فعل العبادة منهن وهو طبيعة الخلقة، وهذا مما ليس لمن دخل فيه إنما هي خلقة الله تعالى لمن على هذه الطبيعة . فتظن الكثيرات من النساء أن الإسلام احتقرهن بهذا ! معاذ الله أن يكون هذا هو المراد، إنما أراد أن يخبر عن الحال، وليس تحقيرا ولا تنقيصا ! بل ومع ما يمنعهن من اكتمال العبادة منهن بالعدو الخلق من الحيض والنفاس، فهناك كثير من العابدات اللاتي تقدمن الرجال وصرن أفضل منهم، ولا يدلك على هذا إلا رفع الله لشأن كثيرات منهن كالسيدة مريم ابنة عمران، وآسية زوجة فرعون، وأم موسى عليه السلام ... وكثيرات منهن .

وفي الإسلام من النساء من تقدمن الرجال بعبادتهن وصلاحهن، وفي كثير منهن بالعلم، وقد أخذ عنهن الرجال، وكتب التزاجم شاهدة على هذا، مثل كتاب ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي وغيره، وما ذكر فيه من العابدات الصالحات القانتات اللاتي شهد لهن أكابر أهل العلم والفضل، ومنهن على سبيل الذكر لا الحصر أمهات المؤمنين، والصحابيات، ورابعة العدوية وغيرهن كثيرات من عظيمات وكريمات النساء .

وقد تكون العبادة من المرأة خير من عبادة الرجل، ذلك لأن المرأة عاطفة ومشاعر أكثر من الرجل بطبيعة خلقها التي خلقها الله عليها، فإذا صدقت وأخلصت كانت أكثر من الرجال صدقا وإخلاصا في عبادتها ! .

(٢) - حق الحياة : لقد منح الله سبحانه وتعالى كل مخلوق حقه في الحياة، وحرم العدوان عليه بالقتل، ولذلك انتقد ما كان من المشركين من قتل أولادهم حين زين لهم الشيطان قتلهم، فقال منتقداً فعلهم، ووصمهم بالسفه : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٤٠] قال البيضاوي : يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي والفقر . (١) وقال عكرمة : نزلت فيمن يند البنات من ربيعة ومضر كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتند أخرى، فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها: أنت علي كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تنديها. فتخذ لها في الأرض خدا وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها حتى إذا أبصرته راجعا دستها في حفرتها ثم سوت عليها التراب . (٢)

^١ - ((تفسير البيضاوي)) (٢ / ٤٥٨) .

^٢ - أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (٨ / ٥١) .

لقد كانوا يقتلون بناتهم خشية العار، حتى إن أحدهم ليشعر بقمة العار حين يُبشّرُ بأنثى :
﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ۖ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة النحل آية: ٥٨ - ٥٩]
و حين يضيق العيش، ويقل الطعام يبادرون إلى توفير الطعام بتقليص عدد أفراد الأسرة، فلم يزدوا الطعام ليشبع الآكلين، بل بادروا إلى قتل الآكلين ليكثر الطعام، فقتلوا بناتهم دون أنبائهم بدعوى خشية الفقر الفاقة ^(١) فنهاهم الله عن قتل بناتهم إذا نزل بهم الفقر فقال الله تعالى :
﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شُرُكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ رَبِّ إِمْلَيْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٥١]

(٣) - حق العفة : إن من حق البنت على والدها أن يعفها، ولا سبيل لإعفافها إلا بالزواج، قال تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْجِبْهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة النور آية: ٣٢] و ((الأيم)) : قال النضر بن شميل : كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها، بكرا أو ثيبا . ويقال : أم وآمت إذا لم يتزوجا بكريين كانا أو ثيبين . ^(٢)

وقد جعل الإسلام من حق المرأة على وليها ألا يحرمها حقها في الصداق، فيؤديه إليها لتصرف فيه كيف شاءت قال الله ﷻ : ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [سورة النساء آية: ٤] وقال سبحانه : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة النساء آية: ٢٤]
وغيرها من الآيات التي تعطي المرأة حق تملك مهرها .

١ - ((الدر المنثور)) (٣ / ١٠٤) .

٢ - ((روح المعاني)) (١٨ / ١٤٧) .

وكذلك كفل لها حقها في الجماع وحذر من عدم حصولها عليه، لأنه حق غريزي به تتحقق العفة للرجل والمرأة قال الله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٨٧] ونهى عن عدم إعفافها والإضرار بها بحرمانها حقها من الوطء، كمن يقسم ألا يقرب زوجته قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٦ - ٢٢٧] أو من يظهر من امرأته: ﴿ الَّذِينَ أَطْلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٦ - ٢٢٧] أو من يظهر من امرأته: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة المجادلة آية: ٢]

(٤) - حق الطلاق والرجعة إذا أرادت : وذلك حين تسوء العشرة بين الزوجين ويحصل الطلاق، فليس من حق الولي أن يمنعها من حقها إذا أرادت الطلاق، خاصة إذا لم تستطع الاستمرار مع الزوج، ومن أجل هذا شرع الله تعالى لها الخلع، وأن ترفع أمرها إلى القاضي ليطلقها، وكذلك أعطاه الإسلام حرية الإرادة إذا أرادت الرجعة إلى زوجها، وليس للولي أي حق في منعها، قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٣٢]

وكذلك ضمن الله لها حقوقها حتى بعد طلاقها، ومن ذلك عدم ظلم المطلقة والإساءة إليها: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [سورة الطلاق آية: ٢] وإذا حدث الطلاق أثناء الحمل فعدتها في هذه الحالة وضع حملها، وعلى الرجل أن ينفق على مطلقته الحامل حتى تضع حملها، فإن وضعت حملها فليست بملزمة أن ترضع له ولده وإنما هي بالخيار، فإن اختارت فلها أجر رضاعها شرعا قال الله ﷻ: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴾ [سورة الطلاق آية: ٦] ولما كان الطلاق كسرا لمشاعر الزوجة، كما أخبر

بذلك النبي ﷺ : ((وَكَسَرُهَا طَلَقُهَا)) . (١)، فالطلاق انكسار يصيب المرأة، وشرخ يؤثر في حياتها، ولذلك وجه القرآن الزوج إلى جبر ذلك الكسر وذلك بأن يراعي الزوج انكسار نفسية الزوجة بعد طلاقها فيجبر كسرهما بشيء من المال والعوض على قدر سعته قال الله تعالى:

﴿ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْخَسِينِ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٣٦]

(٥) - **حسن العشرة** : من حقوق المرأة التي حفظها الإسلام للمرأة وأوجبها على زوجها حسن معاشرتها ومعاشيتها، وعدم التقصير في حقها بالمعروف قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا سَخِلُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ط وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ع وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ

خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء آية: ١٩] وأوجب لها هذا الحق من حسن المعاشرة حتى في حالة وجود أكثر من زوجة لدى الرجل فأوجب عليه العدل بينهما : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعَ ط فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [سورة النساء آية: ٣]

(٦) - **العدل والإنصاف في التعامل** : ومن حقوق المرأة على زوجها الإنصاف والعدل فيما لها وما عليها من الحقوق: ﴿ وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٨] لها على زوجها من الحقوق مثل ما له عليها، فهي حقوق متبادلة بين الزوجين، فلا يحق لأحدهما المطالبة بكامل حقوقه مع تقصيره في حق الطرف الآخر . وأن يطعمها من الطيبات، ولا يحرم عليها شيئاً مما أحله الله تعالى لها .

(٧) - **تكريم أمومتها والبر بها** : وهذا من الحقوق التي أوجبها الله تعالى للمرأة حياة وميتة، قال الله تعالى : ﴿ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [سورة الإسراء آية: ٢٣ - ٢٤]

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٩ / ٤٨٦) حديث (٤١٧٩) من حديث أبي هريرة ؓ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صُحْبَتِي ؟ . قَالَ : ((أُمُّكَ)) . فَقَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ . قَالَ : ((أُمُّكَ)) . قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ . قَالَ : ((أَبُوكَ)) . (١)

٨ - حريتها في نفسها : وتتمثل في أمور منها :

١ - حريتها في إبداء رأيها : قال الله ﷻ : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِغْرَاجُهُ إِنْ خَيْرٌ مِنْ أَسْتَعِجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [سورة القصص آية: ٢٦]

٢ - حريتها الدفاع عن نفسها : قال الله تعالى : ﴿ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [سورة النور آية: ٨ - ٩]

٣ - حريتها في مالها بجميع أنواع التصرفات المشروعة : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا آكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا آكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء آية: ٣٢]

٤ - حقها في الميراث : قال الله ﷻ : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ [سورة النساء آية: ٧]

٥ - حريتها في اختيار زوجها وحفظ عرضها : والنهي عن إكراهها على البغاء قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة النور آية: ٣٣]

٦ - حريتها في الاعتقاد : قال الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ [سورة التحريم آية: ١٠ - ١١]

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ١٧٧) حديث (٤٣٤) .

٧ - **حريتها في حسن تدبيرها ومشورتها واتخاذ قرارها** : قال الله ﷻ : ﴿ قَالَتْ يَتَايَأُ آلْمُلُوكِ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاوُا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ قَالَتْ إِنَّ آلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَافَ أَهْلِهَا أُذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾

[سورة النمل آية: ٣٢ - ٣٥]

(٩) - **حقها في طلب العلم والتعليم** : قال رسول الله ﷺ : ((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)) . (١) ومن المقرر شرعاً أن كل فروع الشريعة يخاطب بها النساء والرجال معاً ما لم يرد تخصيص، والنساء شقائق الرجال وسوف يحاسبن وتعرض أعمالهن على الله، لذا لا بد للمرأة أن تطلب العلم لتعرف كيف تعبد الله تعالى على بصيرة، ولقد كانت النساء في عهد رسول الله ﷺ يتعلمن من أزواجهن وأبنائهن أمور دينهن، كما أن النبي ﷺ خصص لهن يوماً ليعلمهن فيه أمور الدين، وكن يسألنه ما يخفي عليهن، عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتْ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ ؟ . فقال: ((تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحَسِّنُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَذْلُكُهُ ذَلِكَ شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شَوْوْنَ رَأْسِهَا ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا)) . فقالت أَسْمَاءُ : وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا ؟ . فقال: ((سُبْحَانَ اللَّهِ تَطَهَّرِينَ بِهَا)) . فقالت عائشة: كَأَنَّهُا تُخْفِي ذَلِكَ : تَتَّبِعِينَ أَثَرَ الدَّمِ . وَسَأَلْتُهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ ؟ . فقال: ((تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ فَتُحَسِّنُ الطُّهُورَ أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَذْلُكُهُ حَتَّى تَبْلُغَ شَوْوْنَ رَأْسِهَا ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ)) . فقالت عائشة : نَعَمْ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ . (٢)

وللنساء الحق في الذهاب للمسجد والتفقه في الدين، عن ابن عمر قال : كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد فقيل لها: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عَمَرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ . قالت: وما يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي ؟ . قال : يَمْنَعُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ((لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ)) . (٣)

(١٠) - **حق المرأة في المحافظة على كرامتها وعرضها** : لقد جاء الإسلام بتحرير المرأة ليس بالمعنى الذي يستخدمه دعاة الفسق والهوى، وإنما بمعنى تحريرها من الذل والمهانة وصيانة عرضها

١ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (١ / ٨١) حديث (٢٢٤) من حديث أنس ؓ .

٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الحيض)) باب ((اسْتِحْبَابِ اسْتِعْمَالِ الْمُغْتَسِلَةِ مِنَ الْخِيْضِ فِرْصَةً مِنْ مِسْكِ فِي مَوْضِعِ الدَّمِ)) حديث (٣٣٢) .

٣ - متفق عليه .

وشرفها، وإحاطتها بالرعاية والمحبة والتكريم، وحمايتها من اعتداء الآخرين على حرمتها؛ فجعل لها نوراً تعيش به بين الناس وهو نور العفاف والشرف، وجعلها وردة محفوظة داخل بيتها الذهبي تتمني كل الأفئدة الوصول إليها بالحلل، إذ لا سبيل إليها إلا بالحلل، فجعلها غالية في أعين الشرفاء، ومطهرة مرفوعة على أهل الزيغ والضلال دعاة الزنا والهوى، الذين يريدون أن يلقوا بها في طريق الوحل منبوذة مسخوطة عليها، يفر منها الناس كما يفرون من المجزوم، وتنهش في لحمها الوحوش وتسلقها الألسنة، ثم بعد ذلك لا زواج ولا أمل حيث ضاع الغد المشرق وأحلام السعادة بعد أن سلبوها الحياء والعذرية .

(١١) - حقها في إشتراط عدم الزواج عليها في عقد النكاح : ومما يدل على عظمة الإسلام في معاملة المرأة وكفالة حقوقها، أنه جعل للمرأة الحق أن تشرط على الزوج في عقد النكاح ألا يتزوج عليها . عن عُقْبَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((أَحَقُّ مَا أُوفِيَتْهُمُ مِنَ الشُّرُوطِ أَنْ تُؤْفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ)) . (١) والمسألة فيها خلاف بين الفقهاء .

﴿ دور الأزهر الشريف في الاهتمام بالمرأة وتقرير حقوقها ﴾

لقد مضى عهد النبي ﷺ على نشر العلم بين المسلمين، وكفالة حق التعليم والتعلم لكل المسلمين، ولم يميز بين الرجال والنساء في هذه الحقوق بل كفله للجنسين، والأزهر الشريف امتداد لهذا الهدى النبوي الشريف، فعمل على نشر العلم بين جميع المسلمين، الرجال منهم والنساء على وجه سواء، حتى كان في العصور المتقدمة في تاريخ الأمة الإسلامية، شيخات من النساء، يؤخذ عنهن العلم والرواية والإجازة بالمرويات والأسانيد، وعلى سبيل المثال منهن :

١ - أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . ٢ - أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها .

٣ - الشيخة العالمة فخر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرّج الدينوري . (٢)

٤ - الشيخة البرة الصالحة فاطمة الخالدية الصوفية .

٥ - الشيخة الصالحة أم عيسى مريم بنت الشهاب أحمد بن محمد بن إبراهيم الأذري . (٣)

٦ - الشيخة الصالحة لؤلؤة بنت عبد الله . (٤)

١ - متفق عليه .

٢ - ((تفسير القرطبي)) (١٠ / ٥) .

٣ - ((العجالة في الأحاديث المسلسلة)) للفاداني ص (١٠٥ - ١٠٦) .

٤ - ((جزء لؤلؤ)) للؤلؤ بن أحمد بن عبد الله الضرير ص (٤١) .

- ٧ - الشيخة الصالحة مريم بنت الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن علي المقدسي .
(١)
- ٨ - الشيخة الصالحة أمة الله شرف النساء بنت أحمد بن الأبنوسي . (٢)
- ٩ - الشيخة الصالحة الأصيلة شمس الملوك بن الناصر محمد بن العماد إبراهيم بن أبي بكر بن الحجير يعقوب بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب .
- ١٠ - الشيخة الصالحة أم محمد بنت محمد بن إبراهيم . (٣)
- ١١ - الشيخة الصالحة المعروفة بحرة ناز زينب بنت الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن أحمد الشعري الصوفي . (٤)
- ١٢ - الشيخة الصالحة، أم أحمد سعيدة بنت عبد الملك بن يوسف بن محمد بن قدامة، المقدسية . (٥)
- ١٣ - الشيخة المسندة الصالحة أم عبد الله زينب بنت الشيخ كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي . (٦)
- ١٤ - الشيخة الصالحة فاطمة بنت محمد بن علي بن البرازة . (٧)
- ١٥ - الشيخة المسندة أم عبد الغني ست الكتبة نعمة بنت أبي الحسن علي بن أبي محمد يحيى بن علي بن محمد بن الطراح المدير البغدادية . (٨)
- ١٦ - الشيخة الحاجة أم الفضل زينب ابنة الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إسماعيل القيسي، زوج الخطيب أبي القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي . (٩)
- ١٧ - الشيخة أم عبد الحكم ست العباد، ابنة أبي الحسن بن سلامة بن سالم الداربية المصرية .
(١٠)

١ - ((مسند أمة الله مريم)) لمريم بنت عبد الرحمن ص (٢٠) .

٢ - ((أمالي الخاملي)) لأبي عبد الله الخاملي . ص (٤١٣)

٣ - ((مجلس في حديث جابر)) لأبي عبد الله القيسي . ص (٢٧) و ص (٤٨) .

٤ - ((الأربعين)) للطوسي ص (٤٣) .

٥ - ((مشيخة أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم)) لأبي محمد البرزالي ص (٩٨)

٦ - ((جزء حنبل التاسع من فوائد ابن السماك)) لابن السماك ص (١٣٤) .

٧ - ((مجموع فيه مصنفات أبي جعفر بن البخاري)) ص (٤٢٧) .

٨ - ((مشيخة ابن البخاري)) لجمال الدين الظاهري الحنفي (٣ / ١٨١٧)

٩ - المرجع السابق . (٣ / ١٨٦٣) .

١٠ - المرجع السابق . (٣ / ١٨٩١) .

- ١٨ - الشيخة الصالحة الزاهدة أم محمد رابعة بنت الشيخ أبي العباس أحمد بن قدامة بن مقدم بن نصر المقدسية . (١)
- ١٩ - ست الدار بنت عبد السلام ابن تيمية الشيخة الصالحة بنت الشيخ العلامة مجد الدين .
- ٢٠ - ست العرب بنت محمد بن الفخر على بن أحمد بن عبد الواحد بن البخاري الشيخة الصالحة المسندة المكثرة . (٢)
- ٢١ - الشيخة الصالحة أم الخير ست العرب بنت يحيى بن قايماز بن عبد الله التاجية الكندية .
- ٢٢ - الشيخة الجليلة الأصيلة أم العرب فاطمة بنت أبي القاسم على بن أبي محمد القاسم بن أبي القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر . (٣)
- ٢٣ - الشيخة الجليلة الأصيلة المسندة المعمرة أم عبد الله عائشة ابنة محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي الصالحي . (٤)
- ٢٤ - الشيخة أم المؤيد زينب ابنة أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسن الجرجاني . (٥)
- ٢٥ - الشيخة أم الصبح ضوء النساء بنت أبي الفتح عبد الرزاق بن محمد بن سهل الشرايبي . (٦)
- ٢٦ - الشيخة الصالحة فاطمة خاتون بنت محمد بن الحسن العميد . (٧)
- ٢٧ - الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة شيخة العالمات بدمشق تلقب بدهن اللوز بنت نورنجان . (٨)
- ٢٨ - الشيخة الصالحة العاملة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي . (٩)
- ٢٩ - الشيخة فاطمة بنت الشيخ إبراهيم زوجة النجم بن إسرائيل . (١٠)
- ٣٠ - الشيخة الصالحة ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا راوية صحيح البخاري وغيره . (١)

١ - المرجع السابق . (٣ / ١٩٠٥) .

٢ - ((المقصد الأرشد)) لابن مفلح (١ / ٤٣٣) .

٣ - ((علوم الحديث من مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨ / ١١٧) .

٤ - ((خصائص مسند أحمد)) لحمد بن عمر أبو موسى المديني ص (٩) .

٥ - ((صيانة صحيح مسلم)) لأبي عمرو الشهرزوري ص (٦٣) .

٦ - ((الرد على الجهمية)) لعثمان بن سعيد الدارمي ص (١٧) .

٧ - ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٣ / ٨) .

٨ - المرجع السابق . (١٣ / ٧٨) .

٩ - السابق . (١٣ / ١٧٠) .

١٠ - السابق . (١٣ / ٣١٤) .

٣١ - الشيخة العابدة الصالحة العالمة قارئة القرآن أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق زوجة الحافظ جمال الدين المزي . (٢)

٣٢ - الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر . (٣)

٣٣ - الشيخة الصالحة أم الخير خديجة ابنة الشيخ فخر الدين فخرأور بن محمد الكنجي . (٤)
٣٤ - الشيخة الصالحة أم محمد فاطمة ابنة أحمد بن محمد بن علي الجزري . (٥) وغيرهن كثيرات، من شيخات العلم، حتى إن عددهن يتجاوز المئات، إن لم يبلغ الآلاف منهن، ونقتصر على ذكر من سبق ذكرهن اختصاراً .

أما في مصر خاصة، وفي التعليم الأزهري فكثيرات ممن تعلمن وعلمن : لم يكن الأمر حكراً على الرجال بل كان للمرأة دورها، وإذا كان التاريخ يحدثنا عمن حمل عنها العلم وعمن صارت رئيساً لأكبر مستشفى في مصر، فلا شك أن الكثيرات من النسوة لم يذكرهن التاريخ، لأن المرأة في هذا العصر كانت تميل إلى التصون والستر، فملاحظة ذلك يجعلنا نميل إلى أن المئات من النسوة إن لم يكن الآلاف كن معلمات أو متعلمات، وقد أثر هذا في موقف المصري على وجه الخصوص من المرأة، فقد سبقت مصر غيرها من البلدان في المطالبة بحقوق المرأة التي كفلها لها الإسلام .

وقد كان للمرأة في هذه العصور دور في الحياة العلمية في الأزهر الشريف، ففي القرن السابع عشر الميلادي كان من النسوة اللاتي اشتغلن بالعلم، نفيسة بنت الشيخ أبو الحسن البكري الصديقي التي وصلت بعلمها إلى أن تكون في مصاف الأساتذة المعلمين، إذ نرى من أخذ منها الشيخ العالم أحمد شهاب الدين العجمي الشافعي (١٠٨٦ هـ - ١٦٧٥ م) .

كما كانت بنت العالم الطبيب أحمد بن سراج الدين الملقب بشهاب الدين المعروف بابن الصائغ الحنفي (١٠٣٦ هـ) رئيس الأطباء في زمانه، وكانت لفرط علمها بالطب صارت رئيساً لأكبر مستشفيات مصر، وهي البيمارستان المنصوري . (٦)

ومما يدل على حرصهم على ترسيخ قيمة الحرية في نفوس العامة والخاصة، وأنها حق من حقوق الإنسان، وحق من حقوق المرأة، خاصة إذا كانت جارية ملك يمين، ما أعطوه مثلاً من

١ - السابق . (١٤ / ٧٩) .

٢ - السابق . (١٤ / ١٨٩) .

٣ - (رحلة ابن بطوطة) (١ / ٢٤٤) .

٤ - (الوفيات) لابن الخطيب (١ / ٢٤٩) .

٥ - المرجع السابق . (٢ / ٢٩٦) .

٦ - (الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية) ص (٣٢ - ٣٣) .

أنفسهم وحياتهم : خلال العلاقات الأسرية فقد تجاوب العلماء مع فئات مجتمعاتهم المختلفة، ولم يستغلوا مكانتهم الاجتماعية في عقد زيجات لجلب أي عائد مادي - أو معنوي - بل على العكس من ذلك حرص بعض العلماء على الزواج من جاريته التي يملكها بعد عتقها لتوجيه أبناء مجتمعاتهم إلى تحرير جواريتهم حتى تكون ضمن الخطوات العملية إلى تقليص ظاهرة الرق . (١)

﴿ المأمول في دور الأزهر في الاهتمام بحقوق المرأة ﴾

- ١ - تعريف الناس بموقف الإسلام وشريعته الغراء من حقوق المرأة، وأنه كفّل لها جميع حقوقها خاصة وأنها نعيش عصر النعرات الكاذبة المدلّسة باتهام الإسلام بهضم حقوق المرأة وغيرها .
- ٢ - تعريف الناس بصيانة الإسلام للمرأة وأنه يضمن لها الكرامة والعزة، وليس حقها كما يراها شياطين الإنس في الانحلال والتعري والسفور والتبرج، والتحرر من قيود الفطرة الإنسانية والكرامة الأخلاقية الآدمية، والقيم الدينية .
- ٣ - التصدي لحمالات تشويه موقف الإسلام من المرأة وكشف القائمين عليها وعن أغراضهم .
- ٤ - فتح مجالس العلم عامة والشرعي خاصة للنساء لتوعيتهن وفهمهن لأمر الدين والشرية .
- ٥ - تأهيل داعيات من النساء للاختلاط بالنساء وتوعيتهن، والتأثير فيهن ببناء القيم والأخلاق الإسلامية الوسطية المعتدلة .



^١ - المرجع السابق ص (٣٦) .

﴿ قيمة الكفالة الصحية للفرد والمجتمع ﴾

للفرد حقوق واجبة على مجتمعه الذي يعيش فيه، كما أن المجتمع له حق عليه، ومن أهم هذه الحقوق المشتركة، قيمة من القيم الاجتماعية العظيمة، التي لا بد أن تتوفر في كل المجتمعات الإنسانية عامة، وفي المجتمعات الإسلامية خاصة، قيمة التكافل أو الكفالة الصحية للفرد والمجتمع .

وهي قيمة سعى الإسلام في تأسيسها في نفوس أتباعه وسلوكياتهم، ولقد تضمن القرآن الكريم كثيراً من التشريعات التي تعنى بتوجيه المسلم إلى أسس الحفاظ على الصحة والوقاية من المرض، ويلاحظ في هذه التشريعات أنها حقوق وواجبات في الوقت نفسه، كما أنها يمكن تصنيفها على أنها حقوق الإنسان على نفسه قبل أن تكون حقوقاً له على الآخرين، أو على مجتمعه؛ لأن الإنسان مطالب بأن يحافظ على نفسه، وعلى صحته البدنية والعقلية والنفسية، وإلى درجة عالية من الالتزامات المفروضة عليه لعيش حياة صحية هانئة .

وتتألق عظمة الشريعة الإسلامية في هذا في أنها عقدت رباطاً وثيقاً بين السلوك الصحي وغير الصحي وبين الحلال والحرام، فكل ما حرم على المسلم أكله وشربه أو ممارسته، لم تغب فيه الأسباب الصحية الوقائية عن علة التحريم له .

وتتمثل التعاليم الإسلامية في المحافظة على الصحة العامة بما يلي :

(١) - **النظافة الشخصية :** حث الإسلام على نظافة البدن لأن النظافة إحدى دعائم الإسلام، وحتى يكون المسلم نظيف البدن، فقد ألزمته الشريعة الإسلامية بضرورة الوضوء للصلاة والغسل من الجنابة والحيض . ويطلق الفقهاء على هذا النوع من النظافة اسم : الطهارة من الحدث، والخبث، والحدث نوعان : أكبر وأصغر، فالأكبر ما يوجب الغسل كالجنابة والحيض والنفاس . والحدث الأصغر ما يوجب الوضوء كالبول والغائط والريح و سائر نواقض الوضوء . عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ : ((لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَتَوَضَّأَ)) . قال رجلٌ من حَضْرَمَوْتٍ : مَا الْحَدَثُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ . قال : فُسَاءٌ أَوْ ضُرَاطٌ . (١)

^١ - متفق عليه .

أما الخبث فهو النجاسة العالقة بجسم الإنسان، أو في ثوبه أو في مصلاه، ولا بد من إزالتها بالطهور، وبقاء لونها أو رائحتها يدل على بقاء ذاتها .

وإزالة النجاسة عن جسم الإنسان شرط في صحة الصلاة عند جمهور العلماء، ومن وجهة النظر الطبية فإن الاستنجاء له دور كبير في النظافة، حيث إن التخلص من بقايا البراز مهم جداً من الناحية الصحية .

وقد أوجد الإسلام أنماطاً لسلوك النظافة، فغسل الجسم بأكمله هو أفضل شيء للطهارة، وهو أمر واجب بعد ممارسة الاتصال الجنسي، والاحتلام والحيض، ولصلاة الجمعة، وشمل الغسل جميع أعضاء الجسم من قمة الرأس إلى أخمص القدمين . عن عائشة زوج النبي ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ بَدَأَ فَعَسَلَ يَدَيْهِ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ كَمَا يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ يَدْخُلُ أَصَابِعَهُ فِي الْمَاءِ فَيَخْلُلُ بِهَا أَصُولَ شَعْرِهِ ثُمَّ يَصُبُّ عَلَى رَأْسِهِ ثَلَاثَ غُرْفٍ بِيَدَيْهِ ثُمَّ يُفِيضُ الْمَاءَ عَلَى جِلْدِهِ كُلِّهِ . (١)

وقد حث الإسلام على غسل الجمعة ليكون المسلم ذا رائحة طيبة في المسجد، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : ((لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ وَيَدْهِنُ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ثُمَّ يَنْصَبُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى)) . (٢) وما أجمل قول الرسول الكريم ﷺ : ((إِنَّ لِلَّهِ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ كُلَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا فَإِنْ كَانَ لَهُ طِيبٌ مَسَّهُ)) . (٣)

وقد أمر الإسلام المسلم أن يتخلص من فضلات وآثار الطعام من بين أسنانه عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((حَبَدَا الْمُتَخَلِّلُونَ)) . قالوا : وما الْمُتَخَلِّلُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قال : ((الْمُتَخَلِّلُونَ بِالْوُضُوءِ وَالْمُتَخَلِّلُونَ مِنَ الطَّعَامِ أَمَّا تَخْلِيلُ الْوُضُوءِ فَالْمُضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ وَبَيْنَ الْأَصَابِعِ وَأَمَّا تَخْلِيلُ الطَّعَامِ فَمِنْ الطَّعَامِ إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمَلَكَيْنِ مِنْ أَنْ يَرَيَا بَيْنَ أَسْنَانِ صَاحِبِهِمَا شَيْئًا وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي)) . (٤) والمعروف أن المضمضة

١ - متفق عليه .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الجمعة)) باب ((الدُّهْنُ لِلْجُمُعَةِ)) حديث (٨٤٣) .

٣ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣٣ / ٤) حديث (١٢٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

٤ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٧٧ / ٤) حديث (٤٠٦١) .

في الوضوء تحفظ الفم والبلعوم من الالتهاب، ومن تقيح لثة الأسنان، وتقي الأسنان من التسوس .

وقد سن الإسلام استخدام السواك، للحفاظ على رائحة الفم واللثة عن أبي أمامة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((تَسَوَّكُوا فَإِنَّ السَّوَّكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ مَا جَاءَنِي جَبْرِيلُ إِلَّا أَوْصَانِي بِالسَّوَّكِ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفَرِّضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي وَلَوْ أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَفَرَضْتُهُ لَهُمْ وَإِنِّي لَأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي)) . (١) وقد أوضح العلم الحديث أن المواد التي بالسواك تقتل الجراثيم ، فتشفي الأفواه من الأمراض .

واستكمالاً للنظافة الجسدية، فإن هناك ثمة تعليمات صحية مهمة جاءنا بها النبي ﷺ أطلق عليها ((سنن الفطرة)) وأمرنا بمراعاتها : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((الْفِطْرَةُ خَمْسٌ الْخِتَانُ وَالِاسْتِحْدَادُ وَتَنْفُ الْإِبْطِ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ)) . (٢) وقد كشفت لنا العلوم الطبية الحديثة النقاب عن أهمية هذه السنن، فترك الأظافر دون قص ستسبب تراكم الأوساخ والميكروبات تحتها، وهناك أمراض كثيرة تنقلها الأظافر غير النظيفة مثل : الإسهال، والمغص البطني، والتهابات العيون، والإصابات بالديدان المعوية، وغيرها. ويؤدي ختان الذكور إلى عدة فوائد صحية، فقطع القلفة يتسبب في التخلص المرء من المفرزات الدهنية، ويحول دون نمو العديد من الجراثيم التي تهبط القلفة لها الوسط الملائم للتكاثر. وقد تبين أن سرطان عنق الرحم يقل عند نساء المسلمين من غيرهن نتيجة ختان أزواجهن . أما الاستحداد وهو حلق شعر العانة، فله أهمية صحية كبرى؛ لأن هناك نوعاً من القمل لا يعيش إلا على شعر العانة، وتصاب به أعداد كبيرة سنوياً في الغرب من الذكور والإناث. ولما كان الإبط مكاناً كثير التعرق فإنه يعد مهبطاً مناسباً لنمو الفطريات والجراثيم، ناهيك عما يصدر عنه من رائحة مقززة، ولذلك فإن نتف الإبط يقلل فرصة وجود هذه الميكروبات بأعداد كبيرة، أما قص الشارب فإنه من سنن الفطرة؛ لأن الشارب إذا طال تلوث بكل ما يشربه الإنسان، ومن ثم ساعد على تلوث الفم .

٢- الابتعاد عن تناول وفعل كل ما يؤذي البدن : حرم الإسلام ألواناً من الأشربة والأطعمة،

وقد أظهر العلم حكمة الشرع في ذلك، ونحن نذكر هذه الألوان في إيجاز، ومن أراد مزيداً فعليه أن يرجع إلى كتب الطب في ذلك .

١ - أخرجه ابن ماجة في ((سننه)) (١ / ١٠٦) حديث (٢٨٩) .

٢ - متفق عليه .

١ - الخمير : يقول الله ﷻ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائدة آية: ٩٠] وذلك لأن المحافظة على العقل واحدة من الضروريات التي جاءت في كل الشرائع، فبالعقل ميز الإنسان على سائر المخلوقات على ظهر الأرض، ومن ثم كان مخاطباً بالشرائع، مكلفاً بتنفيذ كلياتها وجزئياتها، منوطاً به عمارة الأرض، فإذا فقد العقل سقط التكليف، وإذا غيب بلون من ألوان المغيبات المحرمة فقد انهار جزء من الحياة الخيرة، ولذا حرم الشارع كل مسكر وأول المحرمات الخمر، ثم يتلوها كل ألوان المسكرات مما يتعاطاه الإنسان بواسطة الفم أو الحقن أو الشم . عن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: نهى رسول الله ﷺ عن كل مُسْكِرٍ وَمُفْتَرٍ . (١)

٢ - الدم المسفوح : وهو الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه، إذ أنه عرضة للتحلل و التعفن، وحتى إذا أخذ طازجاً فقد يكون حاملاً للميكروب، وخاصة المسببة للأمراض المعدية .

٣ - الميتة .

٤ - الحيوان الذي فسد بعض أجزائه : وفي ذلك كله يقول المولى ﷻ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَيسرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة المائدة آية: ٣]

٥ - الخنزير : إنه ثبت أن الخنزير تنشأ عنه أمراض خطيرة يحذر منها الأطباء .

٣- التزام العفة : جعل الله العلاقة الجنسية سبباً في بقاء الأحياء على ظهر الأرض وأودع الشهوة الداعية إلى اتصال الذكر والأنثى في نفوسهم، فكان آية للمعتبرين، ونعمة ومنتعة للناس أجمعين . واتصال الرجل بالمرأة في حدود الشرع له منافع كبيرة الكثيرة، فهو إلى جانب المحافظة على النوع وصيانة الأعراض، وحماية الأنساب من الشبه، فيه تخفيف أثقال الشهوة التي تسيطر على الإنسان، فتولد فيه الكبت الذي يجر إلى الأسقام النفسية والجسدية، وقد وصفه اللطيف

١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ٣٢٩) حديث (٣٦٨٦) .

الخبر بالعنت، في قوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَتَ الْمُؤْمِنَتَ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَاذْكُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَتٌ غَيْرُ مُسْفَحَتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النساء آية: ٢٥] ومن ثم كان هذا الاتصال نعمة، فيها المتعة التي تنشر الحب بين الزوجين ، وتجعل من الحياة سكناً وطمأنينة . فلذا كان من أعظم أسباب المحافظة على النفس بما يعرف بالطب الوقائي ، هو البعد عن فعل الحرام كالزنا واللواط أو إتيان المرأة في الحيض، لأن هذه سبل لا تأتي إلا بالمرض والشر، زيادة على غضب الله تعالى ومقتته .

٤- الاعتدال في أخذ المباحات : حيث أباح القرآن الكريم للإنسان أن يستمتع بما شاء

من الطيبات التي خلقها الله، وأنكر على من حرم الله من هذه الطيبات على نفسه، أو على الناس تديناً أو شحاً قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ تُفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ٣٢] وقال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٧٢]

والقاعدة العامة في الإسلام هي تحريم الإسراف في كل شيء، وفي الطعام والشراب على وجه الخصوص، عَنِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِي كَرَبَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَا مِنْ وَعَاءٍ مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٍ يَقْمَنَ صَلْبُهُ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَتُلْتُ لَطْعَامِهِ وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ)) . (١) وتتجلى حكمة الشريعة الإسلامية وفلسفتها القائمة على الاعتدال وعدم الإسراف في كل شيء في أنها كرهت الإسراف، ولو كان في العبادة على نحو يضر بصحة البدن .

عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ رضي الله عنه فَجَاءَهُ فَقَالَ: ((يَا عُثْمَانُ أَرَعَيْتَ عَنْ سُنَّتِي ؟)) . قال : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَكِنْ سُنَّتِكَ أَطْلُبُ . قال: ((فَإِنِّي أَنَامُ

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ٤٤٩) حديث (٦٧٤) .

وَأَصْلِي وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَنْكِحُ النَّسَاءَ فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عَثْمَانُ فَإِنْ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنْ لَصَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنْ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَصُمْ وَأُفْطِرْ وَصَلِّ وَنَمْ)) . (١)

٥- المحافظة على الصحة النفسية : لا ينكر أحد أن سلوكيات الإنسان الخاطئة في الطعام والشراب والنظافة تجلب له عللاً وأمراضاً للبدن، فكذا اعتقاداته الباطنة وأفكاره المنحرفة، وطبيعته الانفعالية الثائرة، ونفسه المتوترة إذ تقتل النفس بهذه العلل، فيقتل بعلتها البدن، فيصبح مريضاً نفسياً.

وكما اتجه القرآن الكريم في حفاظه على صحة البدن والعقل إلى الأسلوب الوقائي فكذلك كانت وجهته في حفاظه على صحة النفس لاسيما ضد العلة الأساسية التي تتهددها مثل : القلق، والإحباط وغيرها، لذلك عمل الإسلام على تقوية صلة الإنسان بربه، لأنه إذا قويت هذه الصلة تغيرت نظرة الإنسان للكون والحياة ولنفسه وللناس، وأيضاً للمشكلات التي يشعر بالعجز عن مواجهتها، والتي كانت سبباً في قلقه وخوفه .

٦- حقوق المرضى في الإسلام : المرضى هم أكثر الناس احتياجاً إلى أن يتعامل الجميع معهم بالرحمة لا بالحزم، وبالفضل لا بالعدل . ولقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى هذا الحق من حقوق المرضى، وشرع لهم أحكاماً تخصهم يتسم بعضها بالتخفيف ورفع الحرج والمشقة عليهم، ويتسم البعض الآخر بالعناية بهم والإحسان في معاملتهم ، فمن ذلك :

(١) - **التخفيف عن المرضى :** قال تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة المائدة آية: ٦] قال ابن عباس: إذا كانت بالرجل الجراحة في سبيل الله أو القروح أو الجذري فيجنب فيخاف أن يموت إن اغتسل يتيمم . (٢) ولا يعلم خلاف بين الفقهاء في إباحة التيمم لمن خاف من استعمال الماء تلف نفسه أو عضو من أعضائه .

^١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٢ / ٤٨) حديث (١٣٦٩) .

^٢ - أخرجه الدارقطني في ((سننه)) (١ / ١٧٧) حديث (٧) .

(٢) - **عيادة المريض** : وجعل الإسلام عيادة المريض من أوجب حقوق المسلم على المسلم :
عن علي عليه السلام سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((من عادَ مريضاً بَكْرًا شِيعَةً سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يَمْسِيَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ عَادَهُ مَسَاءً شِيعَةً سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ)) . (١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((من عادَ مريضاً أو زارَ أَخاً لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طَبْتُ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّاتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا)) . (٢)

﴿ دور الأزهر الشريف في ترسيخ القيم الصحية ﴾

لقد قام الأزهر الشريف بدوره الكبير في توعية الناس بالقيم الصحية، وذلك من خلال تدريس كتاب الطهارة في كتب الفقه، وما فيه من أحكام تحافظ على صحة الإنسان، وتحميه من الأمراض، وكذلك ما يتعلق ببعض القضايا الفقهية من الأطعمة والأشربة، وما يحرم تناوله منها وما يباح، والذبائح وما يتعلق بها من أحكام فقهية.... إلخ . وكذلك بتعليم الناس سنن النبي ﷺ في عاداته في المأكل والمشرب والملبس والتطهر.... إلخ أحواله الشريفة ﷺ، مما يجعل المسلم إذا اقتدى به ﷺ يضمن حياة مستقرة آمنة .

وكذلك بتشجيعهم لعلوم الطب، وكثير منهم استهوتهم العلوم الطبية وغيرها بجانب العلوم الشرعية وبرعوا فيها وأبدعوا، ومن هؤلاء :

(١) - الشيخ الإمام أحمد الدمنهوري شيخ الأزهر : كان الإمام الدمنهوري فذاً بين علماء عصره بثقافته الواسعة الشاملة لألوان المعارف، فقد كانت ثقافته الدينية واللغوية عميقة، كما كان دارساً مُتَّصِلًا في العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والطبية والفلسفية، وهذا أمر عجيب في عصره الذي كان ينفّر من العلوم غير الدينية، والمعروف أنّ الإسلام يدعو للتأمل في ملكوت السماوات والأرض، ويهيب بالمسلمين جميعاً أن يدرسوا جميع آيات الله الكونية في مجالات العلوم والفنون والفلسفة والآداب؛ ولهذا كان الإمام الدمنهوري سابقاً لأوانه أو متأخراً عنه، فقد عرف الإسلام في أزهى عُصوره الفقيه الطبيب، والفقيه الفلكي، والفقيه الفيلسوف، والفقيه الرياضي، وفي العصر الحديث أنشأ الأزهر كليات الطب والهندسة والزراعة والإدارة والمعاملات والصيدلة واللغات... إلخ .

^١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (١ / ١٢٠) حديث (٩٧٥) .

^٢ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٦٥) حديث (٢٠٠٨) .

ولقد تحدّث الإمام الدمنهوري عن نفسه في مذكراته وعن طريق دراسته، فيقول في سنده: أخذتُ عن أستاذنا الشيخ علي الزعزري، خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج الجهولات، وما توقّف عليها؛ كالفرائض والميقات، وقد أخذت عنه ((وسيلة ابن الهائم))، و((معونته)) في الحساب، و((المنقح)) لابن الهائم أيضاً، و((منظومة الياسمين في الجبر والمقابلة والمنحرفات)) للسبط المارديني، في وضع المزاوِل - قياس الظل - ودرست كتاب ((لموجز في اللمحة العفيفة في أسباب الأمراض وعلاقتها))، وبعضاً من ((قانون ابن سينا))، وبعضاً من ((كامل الصناعة))، و بعضاً من ((منظومة ابن سينا الكبرى))، والجميع في الطب . . . إلخ . فقد درس وقرأ كثيراً من كتب الطب، والمقام لا يتسعُ لذكر كلِّ دراساته، فإنها كثيرة جداً . (١)

٢ - الشيخ الإمام حسن العطار رحمه الله : دفعه حب العلم إلى تطبيق ما تعلمه فاشتغل بصناعة المزاوِل، والرصد بالإسطرلاب، وأتقن التشريح والطب، وأصبح موسوعة علمية في جميع فروع العلم، وتعددت مواهبه في العديد من الفنون، وكثرت رحلاته بالداخل والخارج، وزاد ارتباطه بالعلماء والشيوخ، وجلس للتدريس بالأزهر الشريف وهو في سن مبكرة لنباهته وسعة علمه . (٢) وكان للإمام العطار هوامش كثيرة على كتب الطب غاية في الروعة، ودرس التشريح، وأتقن الرصد للنجوم .

﴿ دور الأزهر المأمول في الرقي بالصحة البشرية ﴾

إن للأزهر الشريف مسئولية إضافية في الحفاظ على صحة المسلم البدنية مع دوره المعروف في محافظته على صحته العقلية والاعتقادية، بل إنها مهمة منوطة به وبعلمائه ليس فقط بما يتعلق بالمسلمين فحسب، بل بالمجتمع المصري كله، وذلك للأضرار الفكرية والعقائدية والانحرافات السلوكية، ولعل أكبر ضرر في هذا الجانب يتمثل في فقدان الهوية الاجتماعية والثقافية حيث أن فكر الانحلال الخلقي وما يتبعه من تبريرات تتستر في الغالب وراء شعارات رنانة، وحضارية كالحرية الشخصية، وتحرير الفكر والتحضر وحرية المرأة ، وما إلى ذلك من الشعارات، يبدأ في أخذ حيز من المساحة الفكرية والثقافية للمجتمع، ليتحول مع مرور الزمن و مع تعاقب الأجيال إلى جزء أساسي من الثقافة التي يتبناها هذا المجتمع .

^١ - ((شيوخ الأزهر)) لأشرف فوزي صالح (١ / ٥٦) .

^٢ - السابق . (٢ / ٣٥ - ٣٦) .

ولعل ما نراه اليوم من ثقافة التحرر والإباحية الجنسية قد أصبحت جزءاً بارزاً من الثقافة الغربية لدرجة أن نشاهد على الملأ خروج عدد من العراة في الشارع للمطالبة بحق السير في حال التعري انطلاقاً من الحرية الشخصية ، ومظاهرة عارمة تطالب بالاعتراف بحقوق الشواذ جنسياً ، بل إنه وصل الحد لأن تكون الإباحية مكافأة على الحس الوطني .

وإن أمراض المعاشرة الجنسية ، والإدمان ، والانحلال الأخلاقي من أخطر الأمراض تأثيراً وتدميراً على الفرد والمجتمع صحياً واقتصادياً وخاصة مع انتشارها في الآونة الأخيرة حيث ساعد على ذلك سهولة الاتصالات وانحطاط الأخلاق واختلاف المفاهيم .

وكل هذه الصور بدأت تدب وتنتشر في المجتمعات الإسلامية والعربية ، ونظراً لغياب الوازع الديني ، وتأخر القيم والأخلاق ، وغياب التوعية الصحيحة ، والتربية القويمة .

فالواجب على علماء الأزهر ومؤسسته أن يفرغوا ويهبوا لمواجهة هذه الأمراض الاجتماعية التي تهلك المجتمعات ، وتنشر الأمراض الصحية التي تهلك زهرة الأمة من شبابها وأملها القادم . وأن يضعوا الحلول لمواجهة هذه العضلات والمناهج والتخطيط السليم الذي يؤتي ثماره عن قريب .

﴿ قيمة الاهتمام بحقوق الطفل ﴾

الأطفال هم نعمة كبرى من نعم الله ﷻ ، وهم دعامة المجتمع وأساسه ، فهم شباب ورجال المستقبل ، وتربية الأطفال تربية صحيحة على القيم من أهم أسباب النجاح الاجتماعي للمجتمعات والأمم ، فأنجح المراحل الزمنية لغرس القيم والأخلاق هي مرحلة الطفولة ، لذلك سبق الغرب مجتمعاتنا العربية والإسلامية بتأسيس الأطفال في هذه المرحلة بالتأسيس التربوي والعلمي بل إنهم يرصدون أكبر الميزانيات المالية لهذا الشأن ، وفي الوقت الذي يدرس فيه أساتذة الجامعة لشبابنا في الجامعة نجد أعلى مستويات الأساتذة من حملة رسالات الدكتوراة هناك يدرسون للأطفال في المستوى التعليمي التمهيدي مستوى ما قبل الالتحاق بالتعليم الابتدائي ، ويتم اختيارهم على أعلى مستوى تعليمي وتربوي .

في حين أن الدولة تشجعهم بكل إمكانياتها ، حتى وصل الأمر بالقضاة في ألمانيا في فترة من الفترات السابقة إلى أن يتظاهروا للمطالبة بمساواتهم بمعلمي ومدرسي المرحلة الابتدائية وما قبلها في الرواتب والمميزات الأخرى ! .

ونحن حين نتكلم عن الطفولة وحقوقها ، ونعرضها من منظور إسلامي ، لابد لنا أن نعرف أن الإسلام قد اهتم اهتماماً بالغاً بالطفولة وحقوقها ، وها هي بعض حقوقهم ومنها :

(١) - **حق حفظ النفس** : أول حق للطفل حقه في الحياة فالطفل صنعة الله وآية من مظاهر قدرته الإلهية قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ أَلْبَعَثْنَا خَلْقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا دَشَاءٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴾ [سورة الحج آية: ٥]

فلذلك حرم الله تعالى إسقاط الجنين، ووأد البنات أو الذكور خشية الفقر وضيق الرزق، وجعله من أعظم الذنوب وأكبرها قال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَلَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٥١]

ومن حق الحياة المشروع جاء تحريم الإجهاض؛ حسب التفصيل الفقهي الذي اتفق عليه بالتحريم المطلق بعد نفخ الروح، وبالكراهة قبل ذلك، مع الإشارة إلى قول فقهاء المالكية بتحريم الإجهاض منذ اليوم الأول للحمل، وجعل الإسلام للجنين المقتول خطأ دية معلومة في الشريعة ليقدم أعظم تشريع لقيمة الحياة الإنسانية وحق الحياة. وهذا التحريم يشمل إسقاط الجنين بالإجهاض وإن كان ابن زنا، إلا إذا كان في ذلك إنقاذ لحياة الأم التي هي أصل حياته وكان ذلك ضرورة لازمة شرعاً وعقلاً .

(٢) - **اختيار الأبوين الصالحين** : يدعو الإسلام الراغبين في الزواج إلى أن يختار كل منهم زوجه اختياراً واعياً، ولا يتم ذلك إلا بعد التأكد من إيمانه بقيم الدين، والتزام فرائضه والتمسك بحسن أخلاقه، وبعد الوقوف على أحواله الصحية وسلامة جسمه من الأمراض والعلل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجه إلا تفعلوا تكن فتنَةٌ في الأرض وفسادٌ عريضٌ)) . (١) ويحذر من المرأة الحسناء التي لا خلق لها ولا دين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((إياكم وخضراء الدمن)) . فقيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال : ((المرأة الحسناء في المنبت السوء)) . (٢)

^١ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (١ / ٦٣٢) حديث (١٩٦٧) .

^٢ - أخرجه القضاعي في ((مسند الشهاب)) (٢ / ٩٦) حديث (٩٥٧) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : ((تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ وَأَنْكِحُوا الْأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا الْيَتَامَى)) . (١)

وهذا من أجل أن يُهيأ للطفل المنتظر المحضن الصالح؛ الذي يُعدّه حياة عملية وفكرية وسلوكية راقية؛ فلا يكون نقطة سوداء في مجتمعه.

(٣) - **العناية بالجنين وتنظيم الحمل:** ومن الاهتمام بالطفل قبل ميلاده يدعو الإسلام إلى التزام الأبوين عملية التباعد بين الحمل والحمل الآخر، كي تشعر بفترات راحة تستعيد فيها قوتها وقوة احتمالها في سبيل تحقيق رفاهية الأسرة . حتى إن رسول الله ﷺ كاد يحرم حمل المرضعة التي ترضع وليدها ، حتى يتم رضاعه ، عن جَدَامَةَ بِنْتِ وَهْبِ الْأَسَدِيَّةِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : ((لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهِيَ عَنِ الْغَيْلَةِ حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ)) . (٢)

(٤) - **حق التربية :** إن غرض التربية في الإسلام تهتم بالغرض الديني، ويقصد به التنشئة للعمل للأخرة، حتى يلقي العبدُ ربّه وقد أدى ما عليه من حقوق. والغرض العلمي الديني، وهو ما يعرف بالإعداد للحياة . وإن التربية العقائدية الشرعية للمولود أهم بكثير من التربية الجسدية، فحياة الجسد تفنى بالموت، وحياة الإيمان تستمر إلى ما بعد الممات، ومن حق الطفل أن يُحافظ له على فطرته السليمة، وعقيدته الإيمانية؛ دون أن تُلوث بفعل أحد . ومن حقوق الأطفال في المجتمع وفي الأسرة والمدرسة أن تكون تربيتهم على الإيمان بالله وطاعته ﷻ وعبادته وتقواه ومحبته، وعلى العمل بمكارم الأخلاق وتقديرها والاعتزاز بها، وتشيت الحقائق العليا في نفوسهم . وقد أمرت الشريعة بتعليم الأطفال كل ما يعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة، وأول شيء يُلقّن لهم ويلقى في أسماعهم: أعذب الكلام وأطيبه، وهو ذكر الله سبحانه وتعالى بتعليمه وتلقينه شهادة التوحيد : لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ . وتفهيّمه معناها بالأسلوب الأنسب معه . ودليل هذا ما جاء عنه ﷺ من أذان في أذن المولود اليمنى، وإقامة الصلاة في اليسرى، وهذا من باب الفأل الحسن بأن يكون ذاكرًا لله تعالى عابداً له .

(٥) - **الرحمة والشفقة في التربية :** لم يقر الإسلام الشدة والعنف في معاملة الأولاد، واعتبر الغلظة والجفاء في معاملة الأولاد نوعاً من فقد الرحمة من القلب، عن أبي هريرة ؓ أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقْبَلُ الْحَسَنَ فَقَالَ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ وَاحِداً مِنْهُمْ .

^١ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (١ / ٦٣٣) حديث (١٩٦٨) .

^٢ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الرضاع)) باب ((جَوَازِ الْغَيْلَةِ وَهِيَ وَطْءُ الْمُرْضِعِ وَكَرَاهَةُ الْعَزْلِ)) حديث (١٤٤٢) .

فقال : رسول الله ﷺ : ((إنه من لا يرحم لآ يرحم)) . (١) ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الرفق بهم ومعاملتهم بالعطف والرحمة، وكان ﷺ يعمل على إدخال السرور في قلوب الأطفال، حيث كان يقبلهم ويداعبهم ويحملهم على ظهره في صلاته، ويقوم بتنظيفهم، والسنة المطهرة فائضة بكثير من الأحاديث النافلة لأحواله ﷺ ومنها : عن ابن أبي مليكة : قال ابن الزبير لابن جعفر ﷺ : أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس ؟ . قال : نعم فحملنا وتركك . (٢) فرجما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض : حملني رسول الله ﷺ بين يديه وحملك أنت وراءه . ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم .

وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فرجما بالصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول : ((لا ترموا الصبي بوله)) . فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأذى ببوله، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده . (٣)

وعن أبي قتادة الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ولأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها . (٤) وعن أنس ﷺ قال : كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير . قال : أحسبه فطيم . وكان إذا جاء قال : ((يا أبا عمير ما فعل الثغير ؟)) . نعر كان يلعب به فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح ثم يقوم وتقوم خلفه فيصلي بنا . (٥) وعن عبد الله بن شداد عن أبيه ﷺ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي الظهر أو العصر وهو حامل الحسن أو الحسين فتقدم النبي ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهري صلاة سجدة أطالها فقال : إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت في سجودي فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهري صلاة سجدة قد أطالها فظننا أنه قد حدث أمر أو أنه قد يوحى إليك . قال : ((فكل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله

١ - متفق عليه .

٢ - متفق عليه .

٣ - ((إحياء علوم الدين)) (٢ / ١٩٧) .

٤ - متفق عليه .

٥ - متفق عليه .

حتى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ)) . (١) وعن أُسَامَةَ بن زَيْدٍ رضي الله عنه حَدَّثَ عن النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالْحَسَنَ فيقول : ((اللَّهُمَّ أَحِبَّهُمَا فَإِنِّي أَحِبُّهُمَا)) . (٢)

ومن هذه النصوص تتضح مدى عناية رسول الله ﷺ بالأطفال وشفقته بهم، وحرصه على إدخال السرور عليهم، فالأطفال يمثلون بعض اليوم وكل الغد، فيحتاجون إلى بناء شخصيتهم وإشعارهم بالاهتمام بهم . ومن الواجب في تربية الطفل أن ننتبه بأن تكون تربيته متكاملة بدنياً، وخلقياً وروحياً؛ فكما تهتم الأسرة بغذاء أولادها، وتدقق في كميته ونوعه؛ فإن الاهتمام بتعامله مع الناس القريب والصديق والبعيد والغريب، من الأمور المهمة تربوياً .

(٦) - حق الطفل في التسمية الحسنة : من أهم حقوق الطفل نفسياً وفكرياً أن تكون له شخصيته وهويته، وبالتالي يحمل اسماً يعتز به، ولا يكون موضع استهزاء وسخرية، ولا موضع تهكم واحتقار، بل يكون اسماً ذا معنى محمود، أو صفة طيبة يرتاح لها القلب وتطمئن لها النفس، أو اسماً يبعث على الأمل والفأل الحسن، أو اسماً يدل على الشجاعة والنشاط والهمة .

والحكمة من تحسين الأسماء، وانتقائها من الكلمات التي تبعث البهجة والتفاؤل: ألا يشتمل الطفل من اسمه، ولا يشعر بنفور الناس منه، فيدعوه ذلك إلى كراهة المجتمع حوله واعتزاله إياه . إن الاسم معيار اجتماعي يحتاجه كل منا ليمارس شئون حياته، وفي هذا العصر تعتبر شهادة الولادة الرسمية هي الدليل المادي لاسم الطفل وحقه في الرعاية في مجتمعه أو الدولة التي ينتمي إليها، والمنهج الإسلامي لا يكتفي بمجرد التسمية للطفل ولكنه يدعو إلى تسميته بالاسم الحسن .

(٧) - الاهتمام والعناية برضاعه وتغذيته : الطفل يحتاج في الأشهر الأولى من حياته إلى الرضاع، وبالتالي تتعين الأم لرضاع ولدها، وتجبر على ذلك إذا لم يكن للولد ولا لأبيه مال يستأجر به مرضعة، ولم تُوجَد مرضعة متبرعة، حفاظاً على حياته وقياماً بحقوقه، قال الله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا

أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

^١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٣ / ٤٩٣) حديث (١٦٠٧٦) .

^٢ - أخرجه البخاري في كتاب ((فضائل الصحابة)) باب ((ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنه)) حديث (٣٥٢٨) .

بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ [سورة البقرة آية: ٢٣٣] ولبن الأم هو أفضل غذاء يقدم للطفل حسب رأي الأطباء المختصين لأنه الغذاء الفطري الملائم لصحة الطفل وهو رزق الله له .

كما ألزم المشرع الأب بنفقة معالجة أولاده عند حاجتهم إلى المعالجة. ولما كانت صحة الولد هي الأصل للمحافظة على عقله وفكره فإنه وفي حالة عدم قدرة الأب على ذلك نظراً لأنه معسر فإن على الأم الموسرة أن تقوم بمعالجة الطفل على نفقتها .

(٨) - حق الطفل في التعليم والتعلم: إن التعليم حق أساسي من حقوق الطفل على والديه و المجتمع الذي يعيش فيه ودولته التي يستظل بظلها، ومن حق الطفل في الإسلام أن يُعلم القرآن ويحفظ شيئاً من سوره وآياته لكي يؤدي بها الصلاة ويُنشأ على الإيمان بالله وحب القرآن وحب رسول الله ﷺ . والتبكير في طلب العلم له كبير الفائدة وعظيم الجدوى لنشاط الجسم وصفاء النفس، وراحة البال، وكما قيل قديماً : التعليم في الصغر كالنقش على الحجر .

وقد كان رسول الله ﷺ يعنى بترسيخ العلم وتعميق المعرفة، فكان يعمل على تأكيدها ويربى عليها الكبار والصغار. عن ابن عباس ؓ قال: كنت خلفَ رسول الله ﷺ يوماً فقال: ((يا غلامُ إني أعلمُكَ كلماتٍ احفظُ اللهَ يحفظُكَ اللهُ تحفظهُ اللهُ تُجاهَكَ إذا سألتَ فاسألِ اللهَ وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ واعلمُ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعتْ على أنْ ينفَعوكَ بشيءٍ لم ينفَعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك ولو اجتمعوا على أنْ يضُرُّوكَ بشيءٍ لم يضُرُّوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليكم رُفِعَتْ الأَقلامُ وَجِفَّتْ الصُّحُفُ)) . (١) وهذا التوجيه الكريم منه ﷺ ليس تربية على اعتزال الحياة، و لكنه تصحيح للقيم وتسامٍ بالنفس، وارتفاعٌ بها فوق مستوى الفتن والشهوات .

والإسلام لا يفرق بين الذكور والإناث في التربية والتعليم فلكل من الجنسين الحق في تربية حسنة، وفي أن يتعلم العلم النافع، ويدرس المعارف الصحيحة، عن أنس بن مالك ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ)) . (٢)

(٩) - حق حفظ النسب : وهو من ألزم وأوجب حقوق الطفل وأهمها أن يعرف أصله ونسبه، وأن ينسب إلى أبيه الذي هو من صلبه، وأن يوثق هذا النسب توثيقاً رسمياً في سجلات الدولة. وقد اهتم الإسلام بنسب الإنسان اهتماماً بالغاً لما يترتب عليه من سلامة العلاقات، ولما يستتبعه من حلال وحرام، ولما يقتضيه من حقوق وواجبات، وهو إلى جانب ذلك أمر منسجم مع

^١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٦٦٧) حديث (٢٥١٦) .

^٢ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (١ / ٨١) حديث (٢٢٤) .

الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها . وقد علمنا الله تعالى حفظ النسب وأنه من الحقوق الواجبة لصيانة كرامة الإنسان فقال سبحانه : ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٥]

وعلمنا هذا رسول الله ﷺ عن الأشعث بن قيس قال: أتيت النبي ﷺ في رهط من قومي لا يروني أفضلهم فقلت يا رسول الله: إنا نزعم أنك منا. فقال النبي ﷺ: ((لا . نحن بنو النضر بن كنانة لا نتفي من أبينا ولا نقفوا أمتنا)) . قال الأشعث: لا أسمع أحدا نفي قريشا من النضر بن كنانة إلا جلدته . (١)

وحرّم الإسلام التبني تحريماً قاطعاً قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٤]

وقد عدّ النبي ﷺ انتساب الولد إلى غير أبيه من أكبر الكبائر والمنكرات، عن عمرو بن خارجة قال: شهدت مع رسول الله ﷺ وهو يخطب وهو على راحلته بمنى وهو آخذ بخطامها وهي تقصع بجرتها وإن لعباها يسيل بين كتفي فقال نبي الله ﷺ: ((أيها الناس إن الله قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ألا إن الولد للفراس وللعاقر الحجر من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواله رغبة عنهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)) . (٢)

(١٠) - حق حفظ المال : إن النظام المالي في الإسلام واضح المعالم، فطرق الكسب المشروع العمل، والتبادل، والتوارث، والهبات، ونحوها، وحق التملك ليس حكراً على الكبار المكلفين، بل يمكن للصغير قبل البلوغ، بل حتى للجنين في بطن أمه أن يملك . فقد أثبتت الشريعة الإسلامية للجنين أهلية لاكتساب الحقوق؛ فله الحق في الإرث والوصية والوقف، وللحفاظ عليه كلف الإسلام من يقوم برعاية مال غير المكلف وحفظه، وصيانتَه واستثماره؛ سواء كان الطفل يتيماً أو حاضر الأبوين، ويسمى من يتولى ذلك بـ ((الولي الشرعي)) على الطفل، ومعلوم في أحكام الشريعة الإسلامية أن الأب مُقَدَّم في هذه الولاية على غيره باتفاق ما لم يكن الأب سفيهاً أو ضعيفاً أو غير عدل .

وقد أمرت الشريعة الإسلامية بحفظ الأموال وعدم أكلها بالباطل حتى بين الكبار والراشدين قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٨٨] وقال في حكم مال الطفل الصغير:

١ - أخرجه الضياء في ((المختارة)) (٤ / ٣٠٥) حديث (١٤٨٨) .

٢ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٧ / ٣٤) حديث (٦٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [سورة النساء آية: ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [سورة النساء آية: ٦]

والشريعة الإسلامية قد انفردت بهذه التفصيلات في الأحكام دون سائر القوانين والنظم الوضعية، وهي الحقوق الاقتصادية للطفل والإنسان في الإرث والتملك . وإن الشريعة الإسلامية فرضت الحماية لأموال الطفل اليتيم المنقولة، وفصلت الأحكام التي تكفل كامل الصون لكل حقوقه الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية . فليس لليتيم غير المميز وهو الذي لم يبلغ السابعة من عمره حق التصرف في أمواله، وتكون جميع تصرفاته باطلة، لأن الطفل في هذه السن قاصر المقدرة على ترشيد قراراته، أو اتخاذ القرارات المناسبة التي بها منفعة له. وأما تصرفات الصغير المميز فإنها صحيحة متى كانت نافعة له نفعاً محضاً، وباطلة متى كانت ضارة له ضرراً محضاً؛ أما التصرفات التي تدور بين النفع والضرر؛ فإن لولي هذا القاصر أن يجيزها في الحدود التي يجوز فيها له التصرف ابتداءً أو إجازة القاصر بعد بلوغه سن الرشد .

وحرمت أحكام الشريعة الإسلامية على الأوصياء والأولياء وغيرهم أن تمتد أيديهم إلى أموال اليتيم إلا بما ينميها ويحفظها ويرعاها، قال الله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [سورة النساء آية: ٦]

﴿ دور الأزهري الشريف في حماية حقوق الطفل ﴾

عمل الأزهري الشريف على حماية حقوق الطفل وصيانتها وحفظه مما يضره أديبا أو اجتماعيا، و وقف علماءه مواقف مشرفة في عدة مواقف في قضايا تتعلق بحقوق الطفولة، ومنها مواقف الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق رحمه الله ومنها :

من المسائل الاجتماعية الهامة التي دار حولها الجدل في الصحف واندفع بعض من يتزبون بأزياء العلماء إلى القول المشتط دون دليل ما، عرف بمسألة ((تنظيم النسل)) حيث كثر اللجاج في الصحف، وظهرت أسماء تدعي المعرفة بأصول علم الاجتماع وقواعد التربية، ومسائل الاقتصاد لتقرر وجوب إصدار قانون يفرض التنظيم، ولم يشأ الإمام الأكبر أن يسكت عن هذا اللغو كدأبه فيما يصدر من تحقيق، فقال : إن هنا الذي قرره الفقهاء من جواز تنظيم النسل بمنع الحمل فترة مؤقتة أخذاً من جواز العزل، إنما أباحوه بشرط موافقة الزوجين، فلا ينفرد أحدهما مستبداً بالرأي وإذا كان هذا هو الأساس فإن القانون لا يصلح أداة في هذا الموضوع، لأن الإرادة لا يتحكم فيها القانون، إذ أن لكل فرد ظروفه التي يقدرها، وعليه أن يحسن التقدير .

ثم انتقل إلى مسألة التعقيم لمنع الحمل فقال : يحرم التعقيم لأي واحد من الزوجين أو كليهما إذا كان يترتب عليه عدم الصلاحية للإنجاب مستقبلاً سواء كان التعقيم القاطع للإنجاب بدواء أو جراحة، إلا إذا كان الزوجان أو أحدهما مصاباً بمرض موروث أو ينتقل بالوراثة، مضراً بالأمة حيث ينتقل بالعدوى وتصبح ذريتهما مريضة لا يستفاد بها، بل تكون ثقلاً على المجتمع سيما بعد أن تقدم العلم، وثبت انتقال بعض الأمراض بالوراثة، فمتى تأكد ذلك جاز تعقيم المريض بل يجب دفعاً للضرر .^(١)

﴿ دور الأزهر المأمول في الاهتمام بحقوق الأطفال ﴾

- على الأزهر الشريف دور كبير لا بد أن يقوم به ومن أهم ملامحه :
- ١ (- الاهتمام بالتربية الدينية والأخلاقية للأطفال، ومشاركة الأزهر الشريف بعلمائه وخبرائه في وضع مناهج التعليم والنظم والمناهج التربوية .
 - ٢ (- عودة الكتابات مرة أخرى إلى المجتمع المصري، وتدريب القائمين عليها بما يتوافق مع العصر الحديث من وسائل التعليم التربوي .
 - ٣ (- إنشاء قنوات فضائية تهتم بتربية الأطفال تربية إسلامية أزهريّة وسطية معتدلة وفق منهج الأزهر الشريف .
 - ٤ (- بعث قوافل دعوية مدربة على المناهج التربوية المتخصصة في مخاطبة عقلية الطفل، مكونة من دعاة أزهريين من الجنسين، لتوعية الأطفال وتعريفهم بأمور دينهم .

^١ (- ((شيوخ الأزهر)) لسعيد عبد الرحمن (٦ / ٢٠ - ٢١) .

٥ - عقد دورات تدريبية في الأزهر الشريف للقائمين على تعليم رياض الأطفال، على مناهج دعوية وفكرية وعقائدية تتناسب مع عقلية الطفل .

٦ - التنسيق مع خبراء مجال التنمية البشرية، وتدريب الآباء والأمهات على كيفية التعامل مع الطفل، ويكون هذا العمل عام في ربوع مصر والعالم وتحت إشراف الأزهر وعلى منهجيته أيضا .

﴿ قيمة كفالة الأيتام وحقوقهم ﴾

((اليتيم)) هو : من مات أبواه، أو أحدهما؛ فانفرد عنهما أو عن واحد منهما . فاليتيم في اللغة : الانفراد ، يقال : درة يتيمة؛ أي : فريدة من نوعها، ودار يتيمة؛ أي : لا يجاورها بيت من أي جهة من جهاتها الأربع . و((اليتيم)) جمعه أيتام و يتامى، وقد يتم الصبي بالكسر ويتم يتما بضم الياء وفتحها مع سكون التاء فيهما . واليتيم في الناس من قبل الأب . وفي البهائم من قبل الأم . وكل شيء مفرد يعز نظيره فهو يتيم يقال : درة يتيمة . (١)

أما في الاصطلاح فهو : صغير مات أبوه، فإذا بلغ زال وصف اليتيم عنه، وأصبح رجلاً يلي أموره بنفسه ما دام رشيداً، وقد يُسمى بعد البلوغ يتيمًا؛ باعتبار ما كان لغرض من الأغراض البلاغية كالمبالغة في الحث على دفع ماله إليه عند بلوغه الرشد والتحذير من أكل شيء منه .

﴿ اهتمام القرآن بالأيتام ﴾

نجد في القرآن الكريم الرعاية الكاملة لحق اليتيم، قال تعالى: ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَسَعَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٠ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٢٠] وقال سبحانه: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ٢٢١ ﴾ [سورة النساء آية: ٢] وقال سبحانه: ﴿ وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۚ وَمَنْ

١ - ((مختار الصحاح)) ص (٣٠٩) .

كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾
 [سورة النساء آية: ٦] وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [سورة النساء آية: ٨] وحذر من أكل حقوقهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء آية: ١٠] وقال تعالى موصيا بهم: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿فَكَّ رَقَبَةً﴾ أَوْ اطَّعِمْتَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [سورة البلد آية: ١١ - ١٥]
 إلى آخر الآيات الكريمة التي جاءت تحض على الإحسان إليهم وإكرامهم ، والتحذير من أذيتهم .

﴿اهتمام السنة بالأيام وحقوقهم﴾

وقد أصلت السنة المباركة حق اليتيم وكفالتة في أحاديث كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ منها : عن سهل بن سعد ؓ قال : قال رسول الله ﷺ: ((أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا)) . (١) وعن ابن عباس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليلة وصام نهاره وغدا وراح شاهرا سيفه في سبيل الله وكنت أنا وهو في الجنة أخوين كهاتين أختان والصق إصبعيه السبابة والوسطى)) (٢) وعنه ؓ أيضا : أن نبي الله ﷺ قال: ((من قبض يتيما بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له)) . (٣) وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: ((ما قعد يтим مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم شيطان . (٤) وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يтим مكرم)) . (٥) وغيرها مما روي عن رسول الله ﷺ من أحاديث يعظم فيها فضل اليتيم وحق اليتيم على المسلمين .

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ٢٠٧) حديث (٤٦٠) .

^٢ - أخرجه : ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٢١٢) حديث (٣٦٨٠) .

^٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٢٠) حديث (١٩١٧) .

^٤ - أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٧ / ١٦٤) حديث (٧١٦٥) .

^٥ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢ / ٣٨٨) حديث (١٣٤٣٤) .

وبهذا يتضح لنا عناية الإسلام بالعناية البالغة باليتيم من ناحية تربيته ومعاملته، والحرص على أمواله وضمان معيشته؛ حتى ينشأ عضوا بارزا في المجتمع، ويقوم بمسئوليته على أحسن وجه .

واتخذت الدول الإسلامية وسائل كثيرة نحو كفالة حق هذا اليتيم، وتعويضه عن أبيه الذي فقده وهو صغير؛ فأنشأت دورا للأيتام، وجمعيات كفالات الأيتام، هذا إلى جانب العناية الخاصة للأيتام من قبل الحكومات والأغنياء .

وبالنظر في الغرب وأحواله، فإن إهدار حق اليتيم في ظل الرأسمالية التي تعيشها المجتمعات الغربية، والتي لا مجال عندها لكفالة هذا اليتيم الضعيف؛ فإنه أصبح خطراً على المجتمع؛ لأنه لم يجد له مأوى؛ لذا فقد أصبح قريباً جداً من الجريمة والانحراف إن لم يكن مجرماً .

﴿ دور الأزهـر الشريف في ترسيخ قيمة الاهتمام بالأيتام ﴾

مما رسخه الأزهـر الشريف بعلمومه في نفوس المسلمين قيمة الاهتمام بالأيتام وتعظيم حقوقهم في المجتمعات الإسلامية، لما جاء من اهتمام الشريعة بهم، فلم ينفكوا يعطون في حلقات درسهـم و مجالس وعظهم عن الأمر بالإحسان إليهم، والرحمة لهم والشفقة عليهم، ومساعدتهم بما أوجبه الله تعالى لهم من حقوق مالية ومعنوية .

ولقد شهد التاريخ لعلماء الأزهـر الشريف أنهم كانوا من الرحماء بالخلق، وخاصة الأيتام من عامة الناس، وخاصة من طلاب الأزهـر الشريف وتلامذتهم ومنهم : الشيخ أحمد بن موسى بن داود أبو الصلاح العروسي ، وقد كان يعطف على الطلبة لدرجة جعلت الجبرتي يقول : وكان رقيق الطباع مليح الأوضاع لطيفاً مهذباً إذا تحدث نفث الدر، وإذا لقيته لقيت من لطفه ما ينعش ويسر، ولم تزل كؤوس فضله على الطلبة مجلوة حتى ورد موارد الموت . (١)

﴿ دور الأزهـر المأمول في الاهتمام بحقوق الأيتام ﴾

يجب على الأزهـر أن يسع الأيتام رحمة وعطفا وبراً، حتى يصبحوا أفراداً تعتمد عليهم الأمة وليسعى الأزهـر كما كان دائماً في المطالبة بحقوقهم وزيادة اهتمام الدولة والمجتمع بهم، وبكفالة

^١ - ((عجائب الآثار)) للجبرتي (٢ / ١٦٢) .

التعليم لهم ورعايتهم الصحية، وغيرها من شئون الحياة من النفقة والطعام واللباس، وغيرها من لوازم الحياة، وأن يحيي في المجتمع قيم الإحسان والتراحم لهم ومع الفقراء من الأمة، ويجب عليه تشجيع دور الجمعيات الأهلية لتنهض بشأن الأيتام علميا وثقافيا ودينيا وأخلاقيا، ويناشد الدولة بإعانة هذه الجمعيات لتستطيع أن تؤدي دورها على أكمل وجه .

وبهذه المعاني إذا طبقت عمليا في واقع الأمة ضمنا للمجتمع الأمن والاستقرار، والتعايش السلمي لأن هذه الأفعال، تطهر قلوب الأيتام وغيرهم من الحقد الطبقي أو الاجتماعي، وتجعله محبا للمجتمع متسامحا معه، وهذه دعائم السلامة التي أوصى الله تعالى بها عباده فقال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ ﴾ [سورة الضحى آية: ٩ - ١١] وتضييع أمثال هؤلاء من الأيتام والفقراء جنائية يتحملها المجتمع في الدنيا والآخرة، لأن في ضياعهم التهديد للسلم الاجتماعي والأمن والاستقرار، لأنه سيخرج على المجتمع مطالبا بحقه، لكنه حتما سيخطئ الطريق . فلذا كان لزاما على العلماء والمجتمع أن يرفعى حقوق الأيتام و الفقراء كما رعاها النبي ﷺ، وأمر بها الله ﷻ، لأن في هذا سبيل الأمان لهم وللمجتمع كله .

﴿ قيمة رعاية حقوق المسنين ﴾

الشيخوخة مرحلة من مراحل العمر، وحلقة من حلقات التاريخ، وجزء لا يتجزأ من وجود كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية، فسنة الله في خلقه أن يأتي الجيل بعد الجيل، على امتداد عمر البشرية المديد، والشيخوخة طور من أطوار الحياة، وظاهرة من ظواهرها، إذا بدأت فسوف تستمر، وبطريقة غير ملحوظة وهي لا تنظر إلى الوراء، ولا تعود إلى شباب، قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقْرِئُكَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ [سورة الحج آية: ٥] وقال ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [سورة النحل آية: ٧٠]

والشيخوخة ليست مرضاً، وإنما هي فترة يتغير فيها الإنسان تغيراً فسيولوجياً إلى صورة أخرى ليست بأفضل من سابقتها؛ لأن الصور الجديدة يصاحبها ضمور في كثير من الأعضاء، و فقدان ملموس للقوة والحياة، تزول معه ظواهر الفتوة والعنفوان، ثم تنتهي كما ينتهي كل شيء .

﴿ حقوق المسنين على المسلمين والمجتمع ﴾

وتقوم رعاية كبار السن في الإسلام على عدة أسس هي بمثابة الحقوق لهم ومن أبرزها :

(١) - احترام كرامتهم : لأن الإنسان مخلوق مكرم، له مكانة مرموقة في الإسلام، بغض النظر عن أن يكون مسلماً أو غير مسلم، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [سورة الإسراء آية: ٧٠] وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه روي أنه رأى رجلاً من أهل الذمة يسأل على أبواب المسلمين فقال : ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً ثم ضيعناك بعدما كبرت وضعفت . فأمر بأن يجري عليه قوته من بيت المال . (١)

(٢) وجوب رحمتهم وودهم : وهذا من حق المسلم على المسلم، إذ أن أعظم سمة للمجتمع الإسلامي هي التراحم فيما بينه والتوادد والمحبة، قال الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُمْ فَفَارَزَهُمْ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِمْ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [سورة الفتح آية: ٢٩]

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى)) . (٢)

١ - ((تفسير السمرقندي)) (١ / ٢٠٥) .

٢ - متفق عليه .

(٣) - **تكريمهم بالاعتراف بفضلهم** : لأن الإسلام قد علمنا الإحسان في كل شيء قال الله

تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [سورة الرحمن آية: ٦٠]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه)) . (١) وإن توقير الكبير سمة من سمات المجتمع المسلم التي يتصف بها من صفات كريمة، منها : توقير الكبير، والرحمة بالصغير، وقد تواتر أحاديث رسول الله ﷺ على إكرام الكبير، وتوقيره ومن ذلك عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط)) . (٢) ولقد كفل الإسلام المسنين عن طريق رعاية الأسرة للأبوين، والجددين ورعاية الجيران للمسنين من الجيران، وهناك التكافل الاجتماعي في الدولة المسلمة، والاهتمام بالشيخوخة، صحياً، واجتماعياً، واقتصادياً .

ففي نظام النفقات الذي أرسى الإسلام دعائمه، لا يمكن أن يعيش المسن في ضيق وحرَج، ولا سيما إذا كان له أبناء يتكسبون، أو في رعاية نظام إسلامي يطبق الشريعة الغراء .

ولقد عاش المسنون في مجتمعات إسلامية، في وفرة من العيش؛ حيث تعدد مصادر الإنفاق في الشريعة الإسلامية، ابتداءً برعاية الأسرة، وانتهاءً برعاية الدولة المسلمة، ممثلة في الحاكم المسلم ومسئولية هذه الدولة عن تأمين العمل والحاجات الضرورية، مستفيدة من روافد الإنفاق المتعددة كالهبات والوصايا المالية ونظام الوقف وغيره حسبما كان شائعاً ومطبقاً في مجتمعاتنا المسلمة .

﴿ دور الأزهر الشريف في حماية حقوق المسنين ﴾

تظل الشريعة الإسلامية السمحة والمعتقد السليم لأبناء هذا البلد الكريم، والأزهر الشريف الباعث على توطين فعل الخير في القلوب، والحرك الدافع لبذل الخير الذي تحوطه الرحمة ولين الجانب، كل ذلك عبر منظومة متجانسة ومتكاملة من الأوامر والنواهي المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد سبقت الإشارة إلى أن من أهم الثوابت التي يقوم عليها أخلاق المجتمع توقير الكبير، ورحمة الصغير، وهذا من الأخلاق التي بثها وغرسها الأزهر في نفوس الناس .

^١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٧٢) حديث (٢٠٢٢) .

^٢ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢٦١) حديث (٤٨٤٣) .

﴿ قيمة بر الوالدين ﴾

مفهوم بر الوالدين لغة واصطلاحاً: البرُّ: الخير والفضل، يقال: برَّ الرجلُ، يبرُّ برّاً . فهو برٌّ، وبرّاً: أي صادق أو تقيٍّ، وهو خلاف الفاجر، وجمع البر: أبرار، وجمع البار: بررة، مثل: كافرٌ، وكفرةٌ. وبررتُ والدي، أبررته، برّاً: أحسنت الطاعة إليه، ورفقت به، وتحريت محابه، وتوقيت مكارهه . (١) واصطلاحاً: بر الوالدين: الإحسان إليهما .

﴿ أهمية بر الوالدين في الإسلام ﴾

إن حق الوالدين على الأبناء لا يستطيع أن يحصيه إنسان، فهما سبب وجود الأبناء والبنات بعد الله ﷻ، وطاعة الوالدين واجبة بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [سورة النساء: آية: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ إِنَّمَا يَبْتَلِيَنَّ عَنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَهَرَّبْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾ [سورة الإسراء: آية: ٢٣ - ٢٤] وقال: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۖ﴾ [سورة مريم: آية: ١٤] وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ﴾ [سورة العنكبوت: آية: ٨] وقال ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ وَفَصَّلَتْهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ۖ﴾ [سورة لقمان: آية: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمَلُهُ وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ﴾ [سورة الأحقاف: آية: ١٥]

(١) - ((المصباح المنير)) (١/٤٣).

وفي السنة النبوية جاءت الكثير من الأحاديث عن النبي ﷺ ومنها : عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ)) . (١) وعن عبد الله بن مسعود ؓ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ . قَالَ : ((الصَّلَاةُ لَوْ قُتِيهَا)) . قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ . قَالَ : ((بِرُّ الْوَالِدَيْنِ)) . الحديث . (٢) وعن عبد الله بن عمر ؓ قال : رضا الرب في رضا الوالد وسخط الرب في سخط الوالد . (٣)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله جئت أبايعك على الهجرة وترك أبي يكيان . قال : ((فارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما)) . (٤) وعن عبد الرحمن بن أبي بكر ؓ عن أبيه ؓ قال : قال النبي ﷺ : ((أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ)) . ثَلَاثًا . قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : ((الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)) . (٥) وعن عبد الله بن عمرو ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ)) . قَالَ : وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ ! . قَالَ : ((يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ)) . (٦) وعن عبد الله بن عمر ؓ أَنَّهُ قَالَ : ((ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَالْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ تَشَبَّهُ بِالرِّجَالِ وَالذَّيْثُ وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَالْعَاقُ بَوَالِدَيْهِ وَمُذْمِنُ الْخَمْرِ وَالْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ)) . (٧)

وعن أبي بكر ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله تعالى يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات)) . (٨)

١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٢ / ٢٣٠) حديث (٧١٤٣) .

٢ - متفق عليه .

٣ - أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) ص (١٤) حديث (٢) .

٤ - أخرجه الحميدي في ((مسنده)) (٢ / ٢٦٧) حديث (٥٨٤) .

٥ - متفق عليه .

٦ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢ / ١٤٤) حديث (٤١٢) .

٧ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (١٢ / ٣٠٢) حديث (١٣١٨٠) .

٨ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (٤ / ١٧٢) حديث (٧٢٦٣) .

﴿ من حقوق الوالدين في الإسلام ﴾

وقد أوجب الله تعالى حقوقاً للوالدين وأمر بها ومنها :

(١) - **الإحسان إليهما** : لقد أمر المولى جل شأنه في عدد من آيات القرآن الكريم بالإحسان إلى

الوالدين وعدم التأفف من ذلك، فقال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَنًا ۖ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا

قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴾ [سورة الإسراء آية: ٢٣ - ٢٤] ألزم الله وأمر وأوجب ألا يُعبد غيره، وأن يُحسن إلى الوالدين إحساناً

تاماً غير ناقص، إحساناً ملؤه الوفاء ورد الجميل، لأنهما سبب الوجود والتربية فلا إنعام بعد إنعام

الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين، فما يقومان به وما يقدمانه بغير عوض، فلا يطلبان جزاء ولا

شكوراً، وهما يريدان أن يكون الابن بأعلى المراتب والمناصب وذلك من غاية شفقتهم على

الولد، فهما لا يحسدان ولدهما إذا كان أفضل منهما، بل يتمنيان له ولاخوته مزيد الرفعة والعلو

في هذه الدنيا والآخرة، فكان من حقهما على أبنائهما الإحسان إليهما بكل ما يصل بيد الابن من

خير يستطيع تقديمه لهما، خصوصاً إذا كبر أحدهما أو كبر الاثنان، فيجب العناية بهما

ورعايتهما، فإذا وصلا إلى حال الضعف والكبر والعجز وصارا عندك في آخر العمر كما كنت

عندهما في أوله، وجب عليك أن تحنوا عليهما وتشفق عليهما وتلطف لهما، وتعاملهما معاملة

الشاكِر لمن أنعم عليه، على أن الفضل لهما أولاً وآخرأ بعد الله ﷻ .

ومن الإحسان إليهما عدم التأفف والضجر والملل قليلاً أو كثيراً، وعليك بالرفق واللين

معهما والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . ومن الإحسان إليهما أن لا تكدرهما بكلام أو فعل

لا يرضيانه، ولا تترجرهما ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، ولا تخالفهما على سبيل الرد عليهما

والتكذيب لهما، فإن فعلت ذلك فأبشر بالخير الجزيل من الكريم الجليل . ومن الإحسان إليهما

مخاطبتهما بلطف واختيار الكلام الحسن الطيب المقرون بالاحترام والتواضع لهما ولين الجانب .

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: ((أَحْيِ

وَالِدَاكَ ؟)) . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)) . (١)

(٢) - **طاعتهم** : وما أمر الله ﷻ به الأبناء طاعة الوالدين في كل ما أمرا به ودعيا إليه ما لم يكن

في ذلك معصية لله ﷻ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق سبحانه، وفي ذلك قال تعالى :

١ - متفق عليه .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة العنكبوت آية: ٨]

فطاعة الوالدين من أوجب الواجبات ولو كانا كافرين، أو فاسقين عاصيين، غير أنه لا طاعة لهما في معصية الله ﷻ، فإذا دعا الأبوان الأبناء إلى أي معصية لله ﷻ أو لرسوله ﷺ فلا طاعة لهما في ذلك، وإنما الطاعة في المعروف، ويجب لين الجانب لهما وتعريفهما أن في ذلك معصية توجب غضب الجبار سبحانه، وإخبارهما بما يدل على عدم طاعتهما في حال المعصية بما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وفي طاعتهما الخير العظيم، والأجر الجزيل من الله تعالى في الدنيا والآخرة، أما عصيانهما ففيه شر وفساد جسيم ووبال كبير في الدنيا والآخرة، وكما ذكرنا أن الطاعة في المعروف، فطاعة الوالدين واجبة في كل أمر إلا أمراً فيه معصية .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْوَالِدِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ)) . (١) فما أصاب جريج العابد كان بسبب دعوة أمه عليه، فدعوة الوالدين من الدعوات التي يستجاب لصاحبها .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ كَانَ يُصَلِّي جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَقَالَ : أَحْيِيهَا أَوْ أَصَلِّي . فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تَمِثْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وَجْهَ الْمُؤْمِسَاتِ . وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمَكَّتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ : مَنْ جُرَيْجٍ . فَأَتَتْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّهُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ : مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ ؟ . قَالَ : الرَّاعِي . قَالُوا : بُنِيَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ : لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ ...)) الحديث . (٢)

(٣) - **الدعاء لهما** : لقد دعا الله ﷻ وحث عباده على الدعاء للوالدين لأنهما أصل الأبناء، فلذلك وجب الدعاء لهما في حياتهما وبعد موتهما، قال تعالى : ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء آية: ٢٣ - ٢٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ)) . (٣)

^١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٢ / ٨٩) حديث (١٥٣٦) .

^٢ - متفق عليه .

^٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٣ / ٦٦٠) حديث (١٣٦٧) .

وذكر أهل العلم أن أفضل ما يقدم للوالدين من البر بعد موتهما هو الدعاء لهما، وعلى الابن أن يتخير مواضع إجابة الدعاء، والمواطن التي يستجاب فيها الدعاء، حتى يقدم ذلك لوالديه براً بهما، حتى يصل ذلك لهما وينفعهما عند ربهما بعد موتهما، ويدعو لهما بالرحمة والمغفرة، وأن يعفو عنهما ويتجاوز، ويغفر لهما ما قدما وما أخرا وما أسررا وما أعلننا، وأن يجعل الجنة مآلهما، وأن ينجيهما من النار، إلى غير ذلك من الدعاء لهما .

ومن البر بهما بعد موتهما زيارة قبرهما والدعاء لهما . وكذلك زيارة أصدقاء الأب بعد موته والتحرز من صداقة عدوهما بعد موتهما لما في ذلك من العقوق لهما .

(٤) - استئذانهما : من بر الوالدين ومن طاعتهما، احترام رأيهما حتى وصل الأمر إلى أنه لا يجاهد الابن إلا بإذنهما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ : ((هَلْ لَكَ أَحَدٌ بِالْيَمَنِ ؟)) . قَالَ : أَبَوَايَ . قَالَ : ((أَذْنَا لَكَ ؟)) . قَالَ : لَا . قَالَ : ((ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاسْتَأْذِنْهُمَا فَإِنْ أَذْنَا لَكَ فَجَاهِدْ وَإِلَّا فِيرْهُمَا)) . (١) فبر الوالدين أفضل من الجهاد في سبيل الله، وهو أوجب الواجبات، ومقدم على فروض الكفاية والتطوع . وهذا الاستئذان إذا لم يكن الجهاد فرض عين فحينئذ لا يجب استئذان الأبوين للجهاد . وإذا كان خروج الابن لغير الجهاد فيستحب له أن يستأذنها لذلك الغرض رجاء بركة دعوتهما وحصول المقصود من ذلك .

(٥) - مساعدتهما وإكramهما : من أجل أعمال بر الوالدين تفقد أحوالهما ورعايتهما ومعرفة ما يحتاجان إليه من متطلبات الحياة وضرورياتها، ولا أفضل ولا أجمل عند الوالدين من أن يدخل ابنهما عليهما بهدية تدخل السرور والبهجة عليهما وتزيد صلة الرحم وتقويها، خصوصاً بعد زواج الأبناء، فإن الأب والأم يحسان بفراغ كبير في المنزل ويشعران بشيء من الوحدة . وما أجمل أن يقوم الأبناء بمساعدة الوالدين في جميع أعمالهما، فالوالدان أكثر ما يحتاجان إلى أبنائهما عند كبرهما وطعنهما في السن، فهما في هذه الحالة يريدان أن يقدم الأبناء لهما مزيد المساعدة والعون، فواجب الأبناء مد يد العون والمساعدة في كل شيء يحتاجه الوالدان حتى يردوا لوالديهم ولو شيئاً يسيراً من الواجب الذي عليهم تجاه آبائهم وأمهاتهم .

(٦) - المحافظة على سمعتهم : وهذا من الحقوق التي للوالدين على الأبناء، وذلك بامتناع أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتقبل آرائهما، واختيار الجليس الصالح، والبعد عن مجالسة الأشرار والفساق من الناس، حتى لا تضيع سمعة الأبناء ومن ثم لا يُساء إلى سمعة الوالدين . والحذر من كل ما من شأنه أن يكون سبباً في القدح في الوالدين أو الإساءة إليهما .

^١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ١٧) حديث (٢٥٣٠) .

(٧) - **احترامهما عند الجلوس وعند المشي** : فلا ينبغي للابن أن يجلس في مكان أعلى من والديه ولا يوازيهما في ذلك، ولا يترفع عليهما ويرى في نفسه فضيلة عليهما، ولا يمشي أمامهما بل يمشي خلفهما، وإذا صعدا مكانا مرتفعا أو درجا أو سلما كان الابن خلفهما، وأن يحترمهما في الخطاب خاصة أما الناس ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : من حق الوالد على ولده أن لا يمشي أمامه ولا يجلس قبله ولا يسميه باسمه ولا يستسب له . (١)

(٨) - **عدم التكبر عليهما** : يحرم على الابن أن يتكبر على والديه لأنهما أصله فلولاً الله ﷻ ثم الوالدين لما وجد على هذه الأرض، ثم لو عرف ذلك الابن من أي شيء خلق ؟ وماذا يحمل ؟ وماذا سيكون مصيره بعد الموت ؟ لما تكبر على والديه ولا على أحد من الناس . وليس من برهما أن يتكبر الابن عليهما، بل إن ذلك من العقوق المحرم بل من أشد العقوق . فيحرم على الابن أن ينتسب إلى غير والديه من أجل منصب أو مكانة أو عرض من أعراض الدنيا يحصل عليه ليشعر في نفسه بأنه أفضل من والديه بل يرفع رأسه شامخاً وبكل فخر وعزة يقول: هذا أبي وهذه أمي. فإن فعل ذلك فليشعر بالخير من الله ﷻ .

﴿ دور الأزهر الشريف في ترسيخ قيمة بر الوالدين ﴾

لقد رسخ الأزهر الشريف قيمة بر الوالدين في نفوس الناس بالأقوال التي تمثلت في مواعظ علمائه وخطبهم، وفي حلق درسهام، وبأفعالهم في إعطاء القدوة لهم من أنفسهم، فقد كانوا بررة بوالديهم، وقد نالوا بركة هذا في رفع الله لقدرهم، وتوفيقهم لرضاه، ونشر علمه بين خلقه، وقد أثروا في الشخصية الإسلامية والمصرية أكبر التأثير، فكان العقوق للوالدين شيئاً غريباً على المجتمعات الإسلامية والمصرية، بل كان يسود البر والرحمة بالوالدين، وفي العلاقات الأسرية بين كل أفراد الأسرة .

﴿ المأمول في دور الأزهر الشريف وحفظ حقوق الوالدين ﴾

مع تأخر الأخلاق في المجتمع، وغياب القيم الأخلاقية والاجتماعية يتعاضد دور الأزهر الشريف وعلمائه، لينهض لترسيخ هذه الأخلاق في المجتمع، لأن هذه رسالته التي حفظه الله لها ومن أكثر القيم التي غابت عن مجتمعاتنا اليوم قيمة بر الوالدين، وما نراه اليوم تدمع له العين دما من سب الوالدين، والاعتداء عليهما بالضرب وغيره، حتى وصل الأمر من الفساد إلى من يقتل

^١ - أخرجه ابن السري في ((الزهد)) (٢ / ٤٧٨) .

والديه، ومنهم من يغتصب أمه والعياذ بالله، وما نراه من سب الشباب بعضهم لبعض بأقذر السباب والشتائم لوالديهم، على سبيل المزاح واللهو، وغيرها من تلك المظاهر الخطيرة التي ضربت أخلاقنا وقيمنا . وعلى الأزهر بعلمائه ومنهجه ودعوته أن يعمل على الإصلاح لما فسد، وأن يقاوم مخططات أعداء الإصلاح في الداخل والخارج، الذين خططوا قديما وعلى رأسهم الاستعمار حين رأوا سماحة المجتمعات المصرية ورقيتها بالأخلاق والقيم، وانتشار بر الوالدين في المجتمع، والعلاقة الحميمة بين أفراد الأسرة الواحدة، وخاصة بين زوجة الابن وأم زوجها، فأزعجهم هذا وأقلقهم، فخططوا لضرب أساس المجتمع وهو الأسرة، فعملوا على إفساد العلاقات الداخلية في الأسرة الواحدة، وبذلوا من أجل ذلك الأموال في صنع الأفلام السينمائية التي تشوه صورة أم الزوج، مما غرس في نفوس الناس العدوانية من أم الزوج وخاصة في نفس زوجة الابن، حتى أصبحت الفتاة تعادي أم زوجها قبل أن تعاشرها وتختلط بها وتتعرف على طباعها، مما نتج عنه المشاكل الاجتماعية التي لا نهاية لها إلا بتخريب بيت الزوجية وتدمير الأسرة، وقد يخرج من بين هذا أجيال محطمة تكون من أسباب تفكيك المجتمع وتهديده، وقد نتج عن هذا كثير من العقوق للوالدين، إذ أن كثيرا من الناس يؤثر رضا زوجته على رضا والده، فيتحقق العقوق لوالديه، مما سبب فشلا اجتماعيا لا بد من إصلاحه بالتوعية والدعوة، وتفهم الناس ما لها وما عليها، وردهم إلى الحق، وإصلاح منظومة الأخلاق والقيم، حتى يتحقق السلم الاجتماعي والتعايش الآمن في المجتمع، ويخلو المجتمع من المشكلات والخلافات، ونعمل على الحفاظ على نواة المجتمع ألا وهي الأسرة، وهذا من أهم واجبات العلماء، ومسئوليات الأزهر الشريف الذي تتشوق القلوب والنفوس إلى تحقيقه، كما كان حال الأزهر قديما، حين شكل الشخصية الإسلامية والمصرية خاصة على مكارم الأخلاق وأسمى وأرقى القيم الإنسانية والدينية .

﴿ قيمة حقوق الجار ﴾

إن حق الجوار أمر عظمت فطرته الإنسان، وكملت محاسنه الشرائع السماوية، ولقد كان العرب في الجاهلية يعظمون حق الجار، ويحترمون الجوار، ويعتزون ببناء الجار عليهم، ويفخرون بذلك، وكان منهم من يحفظ عورات جاره ولا ينتهكها، وقد قال عنزة بن شداد في ذلك شعراً:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي *** حتى يوارى جارتي مثواها

ولما جاء الإسلام أكد حق الجوار، وحث عليه وجعله كالقربة، وجعل الإحسان في جوار الجار عبادة من أكبر العبادات التي قرننها في الذكر مع التوحيد وعبادته ﷻ . قال الله تعالى:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦]

وعرفنا النبي ﷺ أنه مما يكمل به الإيمان، ويتم به الإسلام، وهو شرط في تحقق هذا، عن أبي
شريح العدوي رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ أَدْنَايَ وَأَبْصَرْتَ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: ((مَنْ كَانَ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ)) . (١) بل أقسم النبي ﷺ على أن من يؤذي جاره بأنه
منتف عنه وصف الإيمان: عن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: ((وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا
يُؤْمِنُ)) . قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ . قال: ((الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ)) . (٢)

﴿ أنواع الجار ﴾

قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦] وعنه رضي الله عنه: ((الجيران
ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام وجار له حقان حق الجوار وحق
الإسلام وجار له حق واحد حق الجوار وهو المشترك من أهل الكتاب)) . (٣)
قال ابن حجر في ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)): واسم الجار يشمل المسلم والكافر
والعابد والفاسق والصديق والعدو والبلدي والغريب والنافع والضار والقريب والأجنبي والأقرب
دارا والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأولى كلها
ثم أكثرها ثم أقلها . (٤) واختلف الناس في حد الجيرة فكان الأوزاعي يقول: أربعون دارا من
كل ناحية، وقاله ابن شهاب، وروي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني نزلت محلة قوم وإن
أقربهم إلي جوارا أشدهم لي أذى، فبعث النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً يصيحون على أبواب
المساجد، ألا إن أربعين داراً جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه . (٥) وقال علي بن

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الإيمان)) باب ((الحث على إكرام الجار)) حديث (٤٧) .

٢ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الإيمان)) باب ((تحريم إيذاء الجار)) حديث (٤٦) .

٣ - ((تفسير البيضاوي)) (٥ / ١٨٠) .

٤ - ((فتح الباري)) (٩ / ٢٨١) .

٥ - بوائقه: أي غوائله وشروعه، وأحدها بائقة وهي الداهية.

أبي طالب: من سمع النداء فهو جار، وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد. وقالت فرقة: من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة فهو جار. قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠] فجعل تعالى اجتماعهم في المدينة جواراً، و الجيرة مراتب بعضها ألصق من بعض، أدناها الزوجة . (١)

﴿ حقوق الجار على جاره في الإسلام ﴾

من حق الجار على جاره أن يكون له عوناً في وقت شدته في حال فقره ومرضه وحاجته، و من حقه عليه أن يفرح له عندما تحصل منحة تفرحه، ويحزن عندما تنزل به مصيبة تحزنه، فيفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، ويحفظه في أهله، ويقوم بالواجب في حال غيبته، وينصحه إذا زل، ويذكره إذا غفل، ويعلمه إذا جهل؛ وأن يعمل بما جاء عن رسول الله ﷺ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ: ((إذا استعانك أعتته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيتته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبناء تحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشترت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده)) . (٢) ومن حق الجار على جاره الهدية والعون ولو باليسير، عن أبي هريرة ؓ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يقول: ((يا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِحَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ (٣) شاةٍ)) . (٤) وقال لأبي ذر ؓ: ((يا أبا ذرُّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ)) . وعن عائشة رضي الله عنها تقول: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: ((ما زال جبريلُ يوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه ليورثنَّه)) . (٥)

قال العلماء: الأحاديث في إكرام الجار جاءت مطلقة غير مقيدة حتى الكافر، يدخل في هذا المعنى، عن جامع بن أبي حامد المقرئ قال: كنا نأتي عبد الله بن عمرو ؓ فيسقيننا لبنا حاراً فأتيناه يوماً فسقانا لبنا بارداً قال: قلنا له: تسقيننا لبنا حاراً فما لك سقيتنا لبنا بارداً؟ قال إن

^١ - ((تفسير القرطبي)) (٥ / ١٨٥) .

^٢ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧ / ٨٣) .

^٣ - الفرسن : الظلف .

^٤ - متفق عليه .

^٥ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((البر والصلة والآداب)) باب ((الوصية بالجار والإحسان إليه)) حديث

(٢٦٢٤) و (٢٦٢٥) .

في الغنم كلبا ففتحيت عنها . قال : و غلام له يسليخ شاة فقال : إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي .
ثم حدث قليلا أو هنيهة ثم قال : إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي . قال : قلنا : كم تذكر
اليهودي ؟ . قال : كان رسول الله ﷺ يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه . (١)
ويستدل من هذه الأحاديث على عظم حق الجار ونفي كمال الإيمان عمن يسيء إلى جاره .

﴿ دور الأزهر الشريف في ترسيخ حقوق الجار ﴾

حق الإحسان إلى الجار أحد القيم الدينية التي رسخها الأزهر الشريف وعلماءؤه في نفوس
المسلمين، وقام عليها المجتمع الإسلامي بوجه عام، والمجتمع المصري خاصة، ويدل ذلك على هذا
روح الانسجام والتوافق التي كانت تسود المجتمع المصري فيما بينهم، حتى كان الشعب كالأُسرة
الواحدة، كنا نسمع كثيرا من آبائنا وأجدادنا أن المجتمع المصري كانت تسود فيه روح المحبة بين
الناس بعضهم مع بعض، وكان الجيران كالأهل والأقارب من ذوي الرحم، وكان هناك الأمان
الاجتماعي في التعامل، فكان الجار ينظر إلى جاره نظرتة لأخيه، وإلى أهله كأنهم أهله، وإلى زوجه
نظرة الأخت لها كل الاحترام والتقدير، وكانوا يصونون أعراض جيرانهم، ولا ينظرون إليهم
نظرة تطلع عورات أو انتهاك لحرمتهم، وكانوا يطبقون فيما بينهم سنة إهداء الطعام، كل على
قدر ما يستطيع وحسب حاله، وكان لهذا العمل فائدته الكبيرة للفقراء والأغنياء على حد سواء،
فيجتمع لدى الجميع صنوف متعددة من الأطعمة على المائدة الواحدة وهذا من أعظم وسائل
التواصل الاجتماعي الناجح في ترسيخ المحبة والألفة والسلم الاجتماعي والتعايش بمحبة وود .
وكان للأزهر دوره الكبير في تشكيل الشخصية الإسلامية والمصرية وتطبيعها بهذه الأخلاق، وقد
كان المشايخ رحمهم الله من أعظم الناس إحسانا لجيرانهم وحفاظا على حقوقهم، بل إنهم لم يتعاملوا بهذه
الأخلاق فقط مع المسلمين بل ومع غيرهم، بل إنهم وقفوا أمام من أراد أن يفرق المجتمع المصري
على أساس ديني بكل قوتهم ورفضوا هذا الموقف رفضا باتا حفاظا على حقوق الآخرين من
الجيران في الديار والوطن وإن كانوا غير مسلمين، ودرءا للفتنة ووجهها القبيح، ومن أبرز هذه
المواقف موقف الشيخ الباجوري : فقد سجل التاريخ أن حاكم مصر الوالي عباس الأول كان
شديد النقرة على النصارى، وأخرج معظمهم من خدمة الحكومة، وأصابهم بألوان من الأذى
والاضطهاد، وقد خطر له أن يخرجهم من مصر ويعددهم إلى السودان، وعندما أراد استصدار
فتوى من الأزهر بجواز ذلك استدعى الشيخ الباجوري شيخ الجامع الأزهر يومئذ وسأله في ذلك،

^١ - أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧ / ٨٥) رقم (٩٥٦٣) .

وكان رد الشيخ الباجوري هو رفض رغبة الوالي قائلا : إنه إذا كان - يعني الذميين - الذين هم من أهل البلاد، فالحمد لله لم يطرأ على ملة الإسلام طارئ ولم يستول عليها خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر. (١)

﴿ دور الأزهر المأمول في ترسيخ حق الجار ﴾

لما كان المجتمع المصري نسيجاً واحداً قائماً على الألفة والمحبة، وعلى معرفة قيمة الحوار واحترام الجار والإحسان إليه، كان هذا من أعظم الأسباب التي أثارت حفيظة أعداء السلام والإسلام من الاستعماريين، فخططوا لضرب أخلاقنا كمجتمع إسلامي عربي قوي، لا يفرق بين مسلم وغير مسلم، فعملوا على إفساد الأخلاق، وهدم القيم في مجتمعاتنا، وكان أنجح سلاح حاربوا به هو جهاز السينما والإعلام، مرئياً أو مسموعاً أو مقروءاً، فاعتنوا بتدمير علاقة الجار بجاره، فظهرت الأعمال الأدبية المختلفة، التي تظهر علاقة ابن الجيران بينت الجيران، لكن على طراز آخر من العلاقات التي كانت سائدة في هذا الزمان، والتي كانت تقوم على الاحترام ونظرة كل منهما للآخر بعين الأخوة، فظهر الحب والعشق بين الطرفين، وتدرجوا في هذه الأعمال إلى تمثيل خيانة الجار لجاره في عرضه، وإعطاء هذا النموذج على أنه من الأشياء التي لا حرج فيها، حتى تدرجوا ووصلوا بنا في أعمالهم التي يسمونها زوراً فناً، إلى الإباحية والانحلالية الأخلاقية في تلك الأفلام والأعمال الدرامية، ونشر البلطجة الأخلاقية في المجتمع . مما مهد لظهور سلوكيات قبيحة ومجرمة حتى أصبحنا في هذا الزمن وقد تباعد الجيران بعضهم عن بعض، فأصبحت تمر الشهور بل السنوات ولا يعرف الواحد منا جاره وأحواله، بينما في بعض الأحياء كثرت شكاوى بعض الجيران ممن جاورهم لأمر متعده كاطلاع على العورات، أو روائح مؤذية، أو مشاكل الأولاد أو رمي القمامة، أمام منزل الجار، أو إغلاق مدخل سيارته أو غير ذلك من صور الإيذاء، التي يأبها الإسلام ويحاربها .

ولقد حارب الإسلام تلك السلوكيات المجرمة، وعدها من أعظم صور الإيذاء، وخاصة إيذاء الجار في أهله أو ماله عن المِقْدَادِ بنِ الْأَسْوَدِ رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ لأَصْحَابِهِ : ((مَا تَقُولُونَ فِي الزَّانِ ؟)) . قالوا : حَرَمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قال : فقال رسول الله ﷺ لأَصْحَابِهِ : ((لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بَعْشَرَ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِأَمْرَأَةٍ جَارِهِ)) . قال : فقال : ((مَا تَقُولُونَ فِي السَّرَقَةِ ؟)) . قالوا : حَرَمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ . قال : ((لَأَنْ

^١ - مقال : ((موقف أزهرى كيف قام الأزهر بتأمين أهل الكتاب بمصر)) بقلم الأستاذ / محمد السيد الصياد الأزهرى .

يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ آيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ)) . (١) ومن لوازم ذلك غض
البصر وعدم الاطلاع على عورات الجيران من نوافذ وغيرها .

فلذا أصبح على الأزهر الشريف ورجاله مسئولية عظمى تتعدد بعدد القيم والأخلاق والعمل
على إرجاعها إلى المجتمع لضمان مجتمع راق وقوي .

﴿ قيمة الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة ﴾

اهتم الإسلام بذوي الاحتياجات الخاصة اهتماما كبيرا، وورد هذا الاهتمام بذكرهم، فقد
تناول القرآن الكريم هذا الموضوع في بعض آياته، وتناوله رسول الله ﷺ في أحاديثه .

من صور الإعاقة المذكورة في القرآن الكريم : قد ورد في القرآن الكريم ذكر صور من صور
الإعاقة الشائعة في الناس، سواء كانت إعاقة عضوية أم عقلية أم نفسية، فقد ذكر : الصمم،
البكم، العمى، العرج، السفه، أو الإعاقات العقلية، أنواع الأمراض (كالبرص) وغيرها . ومن
هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر قال تعالى : ﴿ صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرَجِعُونَ ﴾ [سورة
البقرة آية: ١٨] وقال الله ﷻ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةً طَيِّبَةً

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة النور آية: ٦١]

وقال تعالى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِعَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ
الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ٤٩]

^١ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٦ / ٨) حديث (٢٣٩٠٥) .

﴿ الحكمة من خلق العاهات في بني آدم ﴾

عرفنا رسول الله ﷺ الحكمة من خلق بعض العاهات في بني آدم، وأنها إرادة من الله تعالى، والله يفعل ما يشاء، وأنه من إرادته تفاوت الخلق في الخلقة، حتى يبتلي عباده في الرضا بقضائه وقدره ﷻ عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : ((لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة تكون إلى يوم القيامة، فعرضهم على آدم فرأى في وجه كل رجل منهم ويصا من نور فرأى رجلا منهم له وبيص أعجبه فقال : من هذا يا رب ؟ . قال : هذا من ولدك اسمه داود . قال : وكم عمره يا رب ؟ . قال : ستون سنة . قال : زده من عمري أربعين سنة . قال : إذا يكتب ويختتم ولا يبدل . قال : فلما نفذ عمر آدم إلا الأربعين التي وهبها لداود أتاه ملك الموت فقال آدم : إنه قد بقي من عمري أربعون سنة . قال : ألم تعطها ابنك داود)) . قال : ((فجحد فجحدت ذريته، وخطى آدم فخطت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، فرأى فيهم القوي والضعيف والغني والفقير والمبتلى، قال : يا رب ألا سويت بينهم . قال : أردت أن أشكر)) . (١)

وعن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ قال : ((إن الله تبارك وتعالى لما أن خلق آدم مسح ظهره فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ونزع ضلعا من أضلاعه فخلق منه حواء، ثم أخذ عليهم العهد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [سورة الأعراف آية : ١٧٢] ثم اختلس كل نسمة من بني آدم بنوره في وجهه، وجعل فيه البلوي الذي كتب أنه يبتلي بها في الدنيا من الأسقام، ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك . وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام . فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ . قال : كي تشكر نعمتي يا آدم)) . (٢)

فقد اقتضت حكمة رب العالمين أن يكون في أبناء آدم معاقون، والغاية أن يبصر الأصحاء نعمة الكمال فيهم من خلال رؤية الإعاقة في إخوانهم؛ فيدركون سعة رحمة الله بهم، ويشكرونه على نعمته، ويرضى أهل البلاء عن الله تعالى في قضائه وقدره فيعظم الله أجورهم ويجزل ثوابهم . ومن أجل ذلك كان هدي رسول الله ﷺ عند رؤية أهل الابتلاء أن نقول كما علمنا ﷺ عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((من رأى مُبْتَلَىً فقال :

١ - أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (١١ / ٢٦٤) حديث (٦٣٧٧) .

٢ - أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥ / ١٦١٤) .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ)) . (١)

﴿ اهتمام النبي ﷺ بذوي الاحتياجات الخاصة ﴾

من عظمة الإسلام أنه دين الرحمة، ونبه هو نبي الرحمة، الذي جاء رحمة للعالمين قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء آية: ١٠٧] فكان رحمة للضعفاء والمحتاجين كما كان رحمة للأقوياء الأسوياء الأصحاء، ورحمة لذوي الاحتياجات الخاصة والضعفاء بل جعلهم سببا من أسباب النصر للمسلمين: عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ الْحَضْرَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((ابْغُؤْنِي الضَّعْفَاءَ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضَعْفَائِكُمْ)) . (٢) وقد كانت سياسة النبي ﷺ في التعامل معهم على أسس حري بنا أن نتبعه فيها ومنها:

(١) - **إقرار الرضا في نفوسهم وقلوبهم**: وذلك بتعريفهم ثواب الله لهم، وأنهم من أعظم الناس ثوابا وقدرا عنده إذا رضوا بقضائه وقدره ﷺ ومن أمثلة هذا: عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((يَقُولُ اللَّهُ ﷻ مَنْ أَذْهَبَتْ حَبِيبَتِي فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ)) . (٣) وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((عِظُمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) . (٤) وعن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يود أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء)) . (٥) وعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((يُؤْتَى بِالشَّهِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْصَبُ لِلْحِسَابِ وَيُؤْتَى بِالْمُتَصَدِّقِ فَيَنْصَبُ لِلْحِسَابِ ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ وَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ فَيَنْصَبُ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا حَتَّى إِذَا أَهْلُ الْعَافِيَةِ لَيْتَمَنُّونَ فِي الْمَوْقِفِ أَنَّ أَجْسَادَهُمْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِيطِ مِنْ حُسْنِ ثَوَابِ اللَّهِ لَهُمْ)) . (٦) وعن عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ . قلت: بلى . قال: هَذِهِ الْمَرْأَةُ

١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٤٩٣) حديث (٣٤٣٢) .

٢ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ٣٢) حديث (٢٥٩٤) .

٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٦٠٣) حديث (٢٤٠١) .

٤ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٣٣٨) حديث (٤٠٣١) .

٥ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (٣ / ٣٧٥) حديث (٦٣٤٥) .

٦ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢ / ١٨٢) حديث (١٢٨٢٩) .

السَّودَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ : إِنِّي أَصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي . قَالَ : ((إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ وَلَكَ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِكَ)) . فَقَالَتْ : أَصْبِرُ . فَقَالَتْ : إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ . فَدَعَا لَهَا . (١)

فهذه رأت في الإعاقة الصرع أحد أشكائها ، وإن لم يكن دائماً ملازماً في كل الأوقات كالإعاقة الدائمة ؛ منحة تأخذ بيدها إلى الجنة، فصبرت على الإعاقة رغم شدة وطأتها على نفسها وإن كانت مسلمة ملتزمة بالعفاف والستر، قد طلبت من الرسول ﷺ أن يدعو لها ألا تتعري، حتى ولو كان الحرج والإثم مرفوعين عنها إذا تعرت حال صرعها .

(٢) - **احترامهم وتلبية رغباتهم** : ها هو سيدنا رسول الله ﷺ يجيب دعوة عتبان بن مالك وكان ضريراً : عن محمود بن الربيع الأنصاري أن عتبان بن مالك ؓ وهو من أصحاب النبي ﷺ ممن شهد بدرًا أخبره أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قد أنكرت بصري، وأنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم ولم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي لهم، وددت يا رسول الله إنك تأتي فتصلي في بيتي فأأخذني مصلي . قال : فقال له رسول الله ﷺ : ((سأفعل إن شاء الله)) . قال عتبان : فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر ؓ حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له فلم يجلس حتى دخل البيت . فقال لي : ((أين تحب أن أصلي من بيتك ؟)) . قال : فأشرت إلى ناحية من البيت . فقام رسول الله ﷺ فكبر فقمنا فصففنا فصلينا ركعتين ثم سلم . (٢)

(٣) - **إعانتهم وقضاء حوائجهم** : وصورة أخرى لعناية نبي الإسلام ﷺ بذوي الاحتياجات الخاصة تزيد المشهد جمالا تدل على عظمة هذا الدين ورحمته بالناس، عن أنس ؓ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً . فَقَالَ : ((يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السَّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ حَتَّى فَرَّغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا)) . (٣)

وهذا من حلمه وتواضعه ﷺ وصبره على قضاء حوائج ذوي الاحتياجات الخاصة .

(٤) - **تعظيمهم وجبر خواطرهم** : ويبدو هذا واضحا جليا في قصة عبد الله بن أم مكتوم ؓ مع

رسول الله ﷺ عن الضحاك في قوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ [سورة عبس آية: ١]

١ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((المرضى)) باب ((من يصرع من الريح)) حديث (٥٣٢٨) .

٢ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (١٠ / ١٢٤) حديث (٢٠١٧٩) .

٣ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الفضائل)) باب ((قرب النبي عليه السلام وتبركهم به)) حديث (٢٣٢٦) .

قال : هو رسول الله ﷺ لقي رجلا من أشراف قريش فدعاه إلى الإسلام فأتاه عبد الله بن أم مكتوم فجعل يسأله عن أشياء من أمر الإسلام فعبس في وجهه، فعاتبه الله في ذلك فلما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم فأكرمه واستخلفه على المدينة مرتين .

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها وعندها رجل مكفوف تقطع له الأترج وتطعمه إياه بالعسل، فقلت : من هذا يا أم المؤمنين ؟. فقالت: هذا ابن أم مكتوم الذي عاتب الله فيه نبيه . (١) وفي هذه القصة دلالة شرعية على تقديم حاجات ذوي الاحتياجات الخاصة على حاجات من سواهم .

(٥) - الأمر بالتأدب معهم : ومن عناية الإسلام بهم أمره بالتأدب معهم : ﴿ يَتَأَدَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا

يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الحجرات آية: ١١] ولقد حذر النبي ﷺ أشد التحذير، من تضليل الكفيف عن طريقه أو إيذائه عبثا وسخرية، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ قال : ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّه أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ)) . (٢)

﴿ سبل الوقاية من الإعاقة في الإسلام ﴾

للإعاقة أسباب تختلف باختلاف الأفراد، فلها أسباب وراثية وأسباب تتعلق بصحة الجنين أثناء الحمل، أو بسبب الإدمان للخمر والمخدرات، أو لأسباب تحدث أثناء الولادة أو التعرض للأشعة، أو التعرض للحوادث التي تقع في البيت أو في العمل أو حوادث الطرق والسيارات أو بسبب الحروب . ولقد وقف الإسلام من أسباب الإعاقة مواقف تقوم على الوقاية والابتعاد عن مسبباتها ومن أهم القواعد والأسس التي وضعها لتحقيق هذا الهدف :

(١) - الوقاية من الأسباب الوراثية : بالمحافظة على النسل والتي تعتبر أحد الضرورات الخمس

التي جاء الإسلام للمحافظة عليها، وقد عمل الإسلام على تحري أسباب السلامة للنسل من العيوب المعنوية، والعاهات التي يمكن أن تنتقل بالوراثة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو يوصي رجلا : ((يا فلان أقل من الدين تكن حرا، وأقل من الذنوب يهن عليك

^١ - ذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٨ / ٤١٧) .

^٢ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (١ / ٣١٧) حديث (٢٩١٥) .

الموت، وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس)). (١) وبعض العلماء قد كرهوا زواج الأقارب، ومنهم الإمام الشافعي وخاصة إذا انغلقت الأسرة أو القبيلة على نفسها لا تزوج أحد إلا من أفرادها فذلك أدعى لظهور الأمراض الوراثية .

(٢) - **الوقاية من الأمراض برعاية الأمر الحامل:** وذلك برعاية صحية دقيقة أثناء الحمل، فإن هذا يمنع كثيرا من المضاعفات والإصابات والتشوهات والأمراض التي قد تصيب الجنين بالإعاقة.

(٣) - **النظافة:** لأن كثيرا من أسباب الإعاقة التي تصيب الإنسان تكون نتيجة إهمال نظافة البدن أو المأكل أو المشرب أو الملبس أو البيئة وقد اهتم الإسلام بالنظافة اهتماما عظيما، والأدلة على اهتمام الإسلام بالنظافة كثيرة ولا تحصى . واهتمام الإسلام بالنظافة الشخصية ونظافة البيئة تزخر به كتب الفقه كأبواب الطهارة والغسل والوضوء .

(٤) - **اجتناب العلاقات غير المشروعة:** كالزنا واللواط، وقد حرمهما الله تعالى وجعلهما من الكبائر التي تدمر الصحة والمجتمع ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء آية: ٣٢] وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [سورة الأنعام آية: ١٥١] وإن من أخطر الأمراض التي تنتج عن هذه الفواحش وباء ((الإيدز)) وهو طاعون العصر كما يسميه الأطباء في العصر الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشًا فِيهِمُ الطَّاغُوتُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ...)) الحديث . (٢)

(٥) - **اجتناب الخمر والمخدرات:** قد حرم الدين الإسلامي الخمر لما فيها من أضرار جسيمة على الإنسان ، قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائدة آية: ٩٠] وعن أمِّ سلمة قالت : نهى رسول الله ﷺ عن كل مُسْكِرٍ وَمُفْتَرٍ . (٣) والمخدرات بجميع أنواعها وسائر أسماؤها من أخطر الأمراض التي تضر الفرد والمجتمع، وإدمان الخمر والعقاقير المخدرة من أهم أسباب الإعاقة سواء للشخص الذي يتعاطاها أو لما تبين من آثارها على الذرية، وموقف الإسلام واضح في تحريمها.

^١ - أخرجه القضاعي في ((مسند الشهاب)) (١ / ٣٧٠) حديث (٦٣٨) .

^٢ - أخرجه ابن ماجة في ((سننه)) (٢ / ١٣٣٢) حديث (٤٠١٩) .

^٣ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ٣٢٩) حديث (٣٦٨٦) .

(٦) - **الوقاية من الحوادث المختلفة:** لقد اعتنى الإسلام باتخاذ الحذر للسلامة من الحوادث التي تسبب الإعاقة للإنسان عموماً وللأطفال خاصة، عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبلٌ فليُمسكْ على نصالها)) . أو قال: ((فليقبضْ بكفه)) أن يُصيبَ أحداً من المسلمينَ منها شيء)) . (١) وإصابات الحوادث بأنواعها من أسباب الإعاقة، وقد وضع الإسلام القواعد الأساسية للوقاية من الحوادث في المجتمع، والإسلام لا يكتفي بأن لا يكون المسلم مصدر ضرر للآخرين بل يطالبه بأن يتخذ موقفاً في إزالة الأسباب التي قد ينتج عنها الضرر، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((الإيمان بضغْ وسِتُون شُعْبَةٌ أو بضغْ وسبعون شُعْبَةٌ فأرفعها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شُعْبَةٌ من الإيمان)) . (٢) وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرَ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلُوكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)) . (٣)

﴿ دور الأزهر المأمول في العناية بحقوق ذوي الاحتياجات الخاصة ﴾

لقد رسخ الأزهر الشريف بدوره في نشر رسالة الإسلام قيمة احترام ذوي الإعاقات والاحتياجات الخاصة، بنشر هدى النبي صلى الله عليه وسلم في معاملتهم وتكريمهم، وقد كان كثير من علماء الأزهر منهم، فقد كان منهم المكفوف والأعرج والمريض، ومع هذا كانوا آيات في العلم والدعوة والإبداع، فالإعاقة الحقيقية هي إعاقة المعاصي، وليست إعاقة الأبدان .

ومن المأمول في الأزهر أن يعمل على العناية برعاية أصحاب العاهات عناية كبيرة والنظر إليهم كأفراد أسوياء لهم ما لغيرهم من الحقوق، وعليهم ما على غيرهم من واجبات، وتقديم الخدمات الكثيرة لهم، والتيسيرات الكبيرة، ودعوة الدولة لبناء مؤسسات خاصة لرعايتهم، وتقديم الخدمات في المجالات الصحية والتعليمية والحياتية .

^١ - متفق عليه .

^٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ٣٨٤) حديث (١٦٦) .

^٣ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٣٩) حديث (١٩٥٦) .

ويجب أن تتضافر جهود المجتمع والدولة في تحقيق التكافل والعيش الأفضل لمثل هؤلاء المحتاجين، حتى يشعروا بالرحمة والتعاون والعطف، وأنهم محل العناية والاهتمام الكامل في نظر الدولة والمجتمع على السواء .

فمثلا العناية بالعميان والصم والبكم، فيجب أن تتركز بفتح مدارس ومعاهد خاصة بهم؛ لتعليمهم وتدريبهم على الحرف اليدوية، وجعل كل الوسائل الإيضاحية، والسمعية والبصرية، واللمسية تحت تصرفهم؛ ليشعروا بشخصيتهم وكيانهم . وأما العناية بالمعتوهين، فتتركز بتهيئة الجو المناسب لتعليمهم وتربيتهم . والعناية بضعاف البنية، وذوي العيوب الكلامية وأصحاب الأمراض المزمنة، فتتركز في إزالة ضعفهم، وعاهاتهم وعيوبهم؛ بالعلاج الناجح، والغذاء الصالح، والوسائل الطبية، والصحية اللازمة .

﴿ قيمة المحافظة على البيئة ﴾

يعود المعنى اللغوي لكلمة ((البيئة)) في اللغة العربية إلى ((بؤ)) الذي أخذ منه الفعل الماضي ((باء)) . و((البيئة)) هي المنزل والحال، ويقال بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية. (١) وما سبق يمكن استخلاص أن البيئة هي النزول والحلول في المكان ويمكن أن تطلق على المكان الذي يعيش فيه الإنسان ويستقر فيه .

﴿ محافظة الإسلام على البيئة ﴾

لقد حافظ الإسلام على البيئة بالنهي عن الإضرار بها، والأمر بالمحافظة عليها، فقد نهى الله ﷻ عن الإفساد في الأرض عموماً، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ٥٦] ونهى عن إهلاك الحرث والنسل بدم من فعل ذلك، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥ - ٢٦] وقد وضع النبي ﷺ قواعد في بِلَالٍ ثَمَرٍ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥ - ٢٦] وقد وضع النبي ﷺ قواعد في

^١ - ((المعجم الوسيط)) (١ / ٧٥) .

التعامل مع البيئة ومع الناس تحفظ السلامة للبيئة ومن فيها، ومن أشهرها قوله ﷺ : ((لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)) . (١)

﴿ سلوكيات إسلامية للحفاظ على البيئة ﴾

ومما أمر الله به لحفظ البيئة سلوكيات منها :

(١) - **الدعوة إلى زرع الأرض والترغيب في أجره العظيم** : عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)) . (٢) وعن أم مبشر قالت : قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ غَرَسَ أَوْ زَرَعَ زَرْعاً فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ سَبُعٌ أَوْ دَابَّةٌ أَوْ طَيْرٌ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ)) . (٣) وأمر الإسلام كذلك بإحياء الموات من الأرض، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ وَمَا أَكَلَتِ الْعَافِيَةُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ)) . (٤)

(٢) - **الحفاظ على الثروة الحيوانية** : سواء كان هذا الحيوان مأكولاً أو غير مأكول ، عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : ((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ)) . (٥) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا)) . (٦)

(٣) - **صيانة الطريق** : وأمر الإسلام بنظافة الطرق والحفاظ عليها من كل ما يؤذي، وجعل ذلك من شعب الإيمان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً أَوْ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً فَأَرْفَعُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)) . (٧) وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ)) .

^١ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ٧٨٤) رقم (٢٣٤٠) من حديث ابن عباس ﷺ .

^٢ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٣ / ١٩١) حديث (١٣٠٠٤) .

^٣ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٦ / ٣٦٢) حديث (٢٧٠٨٨) .

^٤ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١١ / ٦١٣) حديث (٥٢٠٢) .

^٥ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٤٢١) حديث (٤٢٥٦) .

^٦ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٢ / ٤٢٢) حديث (٥٦٠٨) .

^٧ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ٣٨٤) حديث (١٦٦) .

وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيِّ الْبَصِيرِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلُوكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)) . (١)

(٤) - الحفاظ على جمال الطبيعة : وأمر الإسلام بالحفاظ على الطرق والمنتزهات، وجعل لمن أفسدها أشد العقاب، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((اتقوا الملاعن الثلاث البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل للخرأة)) . (٢) وعن عبد الرحمن بن جبير : أن أبا بكر لما وجه الجيش إلى الشام قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم أمرهم : بالمسير إلى الشام وبشرهم بفتح الله إياها حتى تبثوا فيها المساجد فلا نعلم أنكم إنما تأتونها تلهايا والشام أرض شبيعة يكثر لكم فيها من الطعام فإياكم والأشر، أما ورب الكعبة لتأشرون ولتبطرن وإنني موصيكم بعشر كلمات فاحفظوهن لا تقتلوا شيخا فانيا ولا صبيا صغيرا ولا امرأة ولا تهدموا بيتا ولا تقطعوا شجرا مثمرا ولا تعقروا بهيمة إلا لأكل ولا تحرقوا نخلا ولا تعزقوه ... (٣)

(٥) - الحفاظ على الثروة المائية : كما أمر الإسلام بالحفاظ على المياه بأنواعها، وعلى طهارتها وعدم تلوثها، أو إلقاء أشياء فيها تفسدها، عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه)) . (٤)

(٦) - النظافة والتطهير : اهتم الإسلام بالنظافة اهتماما خاصا، وحث على الطهارة فموقفه هذا لا نظير له في أي دين من الأديان، فالنظافة فيه عبادة بل فريضة من فرائضه . وبهذا تكون النظافة والطهارة اندرجت تحت أحكام العقيدة . وجعل النظافة في كل شيء من الإيمان، وعرف بفضلها فقال : ((إن الله طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا بيوتكم ولا تشبهوا باليهود التي تجمع الأكناف في دورها)) . (٥) إلى غيرها من الأسس والقواعد السلوكية التي يأمر بها الإسلام للحفاظ على البيئة .

^١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٣٣٩) حديث (١٩٥٦) .

^٢ - أخرجه الحاكم في ((المستدرک)) (١ / ٢٧٣) حديث (٥٩٤) .

^٣ - أخرجه ابن عساکر في ((تاريخه)) (٢ / ٧٥) .

^٤ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٨ / ٧٢) .

^٥ - أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (٢ / ١٢١) حديث (٧٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

﴿ دور الأزهر الشريف في المحافظة على البيئة وجمالها ﴾

لقد كان علماء الأزهر الشريف أصحاب اهتمام بالبيئة وجمالها والحفاظ عليها، ولا يدلك على هذا أكثر من اعتنائهم بتدريس كتاب الطهارة وما فيه من أبواب، كالوضوء والغسل، و سنن الفطرة، وباب إحياء الموات، والمزارعة والمساقاة، إلى غيرها من القيم الجمالية الأخرى، التي تدرس في الأزهر الشريف في علم الفقه، أو غيره .

وكذلك استحباب سكنهم على ضفاف النيل، فاتخذ كثير منهم داره على ضفافه، وعملوا على المحافظة على موارد البيئة واستمرار نفعها، وما يؤدي إلى تحقيق هذه الأهداف، كالوقف الخيري الذي يوقف على شق الترع وحفر الآبار وبناء دور العبادة، ودور لضيافة أهل السبيل، و وجوه الخيرات الأخرى التي ترتبط بالبيئة جمالا وخلقا، ومن مواقفهم في هذا :

أرسل السلطان التركي سنة ١١٤٨ هـ أمراً خاصاً بإلغاء بعض الأوقاف الخيرية مطالباً بوجوب نقلها إلى دائرة الوالي ليضيفها بالتالي إلى ما يرسل إلى الأستانة من الأموال وانعقد مجلس الديوان فقرأ القاضي العثماني منشور الخلافة ثم عقب بقوله : أمر السلطان لا يخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف . ولكن الشيخ سليمان المنصوري أحد أعضاء المجلس من علماء الأزهر يقف في صراحة : يا شيخ الإسلام هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان، وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات، ومساجد وأسبلة، فلا يجوز إبطال ذلك وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله ﷺ أن يبطله، وإن أمر ولى الأمر بإبطاله لا يسلم له، ويخالف أمره لأن ذلك مخالفة للشرع، ولا يسلم للإمام في فعل يخالف الشرع الكريم . وقد كانت وقفه الشيخ الجليل سببا في عدول الحكومة عما كانت عازمة عليه .^(١)

وكانوا على اهتمام كبير بمظاهر البيئة وجمالها، ومشاركة الناس في البهجة بها، خاصة في الاحتفالات والأعياد، فكانوا يشاركون المصريين في الاحتفال بوفاء النيل، حيث يجتمع الوالي وشيخ البلد وكبير الممالك وقاضي القضاة، وكبار العلماء والأعيان، ويكسر الوالي أو نائبه سد الجسر، فإذا جرى الماء في الخليج يشق القاهرة، وتفيض منه بركة الأزبكية وغيرها من منازل القاهرة ورياضها، خرج أهلها في مباحجهم إلى المقياس والروضة وغيرها يتزهون، وتطلق المدافع

^١ - مقال : ((مواقف خالدة لعلماء الأزهر)) أد/ محمد رجب البيومي .

وتقام الزينات على البيوت، وتضاء القناديل فيها . كما كانوا يشاركون أيضا في الاحتفال بخروج الحمل في النصف الأخير من شوال من كل سنة ، ويوم رؤية هلال رمضان، وغير ذلك . (١)



^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٥) .

القيم العلمية

﴿ قيمة معرفة فضل العلم والتعلم ﴾

العلم قيمة من القيم العليا، التي جاء بها الإسلام وأقام عليها حياة الإنسان المعنوية والمادية، الآخروية والدنيوية، وجعله طريقاً للإيمان وداعياً للعمل، وبه فضل آدم أبو البشر على الملائكة، والإسلام دين العلم، والقرآن كتابه، وبات الحقيقة الأولى التي ظهرت في الأرض عند نزول جبريل عليه السلام لأول مرة على رسول الله ﷺ أن الإسلام دين يقوم على العلم ويرفض الضلالات و الأوهام جهلة وتفصيلاً؛ حيث نزل الوحي بأول ما نزل بخمس آيات تتحدث عن قضية العلم، قال ﷺ : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ^(١) الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ^(٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ^(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ^(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ^(٥) ﴾ [سورة العلق آية: ١ - ٥]

وكان من أعظم الحقائق التي لا تنكر، أن ظهور الإسلام كان بمنزلة ثورة علمية حقيقية في بيئة ما ألفت روح العلم وما تعودت عليه، بدليل أن المرحلة السابقة لنزول القرآن صارت تُعرف باسم ((الجاهلية)) ! فصفا الجهل ترتبط بما هو قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولتُثار الدنيا بنور الهداية الربانية .

﴿ اهتمام القرآن بالعلم ﴾

عند إحصاء عدد المرات التي جاءت فيها كلمة ((العلم)) بمشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم تجد ذكرها قد بلغ (٧٧٩) مرة، وهذا عن كلمة ((العلم)) بمادتها الثلاثية (ع ل م)، وهناك كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم ولكن لم تذكر بلفظه؛ وذلك مثل : ((اليقين، والهدى، والعقل، والفكر، والنظر، والحكمة، والفقه، والبرهان، والدليل، والحجة، والآية، والبيئة)) وغير ذلك من معانٍ تدرج تحت معنى العلم ومفهومه، و السنة النبوية إحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون صعباً. والقرآن يجعل العلم أساس التفاضل بين الناس وأكبر ميزة يتميز بها عباد الله قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ^(١) إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ^(٢) ﴾ [سورة الزمر آية: ٩] وأهل العلم هم الشهداء لله تعالى بالتوحيد مع الملائكة، ولا يدل على سمو قدرهم و عظيم فضلهم أكثر من ذكر الله تعالى لهم بعد نفسه في مقام الشهادة له ﷻ، لأنها لا تتم حقيقة إلا بالعلم به ومعرفته ﷻ قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ^(٣) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(٤) ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٨]

وإذا تمت معرفته تعالى كملت عندهم الخشية منه، تعظيما له ﷺ لمعرفتهم بآثار قدرته ورحمته في خلقه قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر آية: ٢٨]

ولم يحصر الإسلام العلم في العلم الشرعي فقط، إنما أمر باقتحام كل ميادين العلوم الدينية و الدنيوية . وفي ظل تعاليم الإسلام السمحة وحضارته الراقية وترغيبه في طلب العلم وتكريمه للعلماء، نبغ المسلمون في العلوم كلها والتمسوا المعرفة من الشرق والغرب، فترجموا كتب العلوم الفارسية واليونانية وغيرها، وشجع الخلفاء على هذه الحركة العلمية، حتى كان الخليفة المتوكل يعطي حنين بن إسحاق أشهر المترجمين وزن ما يترجمه ذهباً. ولم يقتصر المسلمون على الترجمة، بل تابعوا البحث والدراسة، والتعديل والتطوير، حتى ابتكروا وطوروا وسبقوا غيرهم .

فبرز على سبيل الذكر : أبو بكر الرازي في طب العيون وهو أول من عمل عملية إزالة الماء من العين، وظهر ابن سينا الذي كان كتابه الطبي ((القانون)) يدرس في أكبر جامعات العالم، و برع جابر بن حيان في علم الجبر، واكتشف كثيرا من أسرار الكيمياء. وفي علم الفلك، كانوا أول بناء للمرصد الفلكية في العالم، وأول صانعي المناظير [التليسكوبات] فضلا عن تقدمهم في فنون الهندسة المختلفة، ومحاولة الطيران في السماء التي كان أول من فكر فيها عباس بن فرناس.

والقرآن الكريم هو أعظم كتاب سماوي يبني ويؤسس للعلوم العقلية، ويأمر بالنظر والتفكر في آيات الكون ليعرف العبد ربه ﷻ، وأول كتاب سماوي وقف بالمرصاد للخرافات والأهواء في مقام البحث عن الحقائق والعقائد اليقينية، ودعا إلى إقامة البراهين والدلائل في مناهج البحث و المنطق السليم في العقليات، واعتبر القرآن النظر فريضة والتفكير عبادة، ومما يدل على هذا الكثير من آياته البينات ومنها قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١٦٤] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفُرَدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سورة سبا آية: ١٤٦] وقال ﷺ : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَيْتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [سورة يونس آية: ١١] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة آل عمران آية: ١٨٩ - ١٩١] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ﴿٣٤﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأعراف آية: ١٨٥] وقال ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴿٣٦﴾ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴿٣٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة النحل آية: ١٢] وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الروم آية: ٢٤] وحذر من القول بلا علم أو التقليد بغير فهم ودليل فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٤١﴾﴾ [سورة الإسراء آية: ٣٦]

وعلم المسلمين ألا يقلدوا إلا على أساس البرهان والدليل، وألا يكونوا أعمياء عن طلب الحق بالتقليد الأعمى وعلمهم كيف تكون مناظرة المخالفين كالملاحدة والمشركين، وأن السبيل الأقوم في مناظرتهم يكون بالعقل والبراهين العقلية ثم النقلية لتقوم عليهم الحجة فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٢﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا ﴿٤٣﴾ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴿٤٤﴾ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ ﴿٤٦﴾ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنعام آية: ١٤٨ - ١٤٩] وقال ﷻ: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴿٥٠﴾ أَتُتَوَنَّى بِكُتُسٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَّرَةٍ ﴿٥١﴾ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الأحقاف آية: ٣ - ٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

﴿ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١١١] وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ قُلْ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة يونس آية: ٣٤ - ٣٦]

وقد قرر علماء الإسلام أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ومنه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية. ففرض العين ما لا بد للمسلم منه في فهم دينه عقيدة وعبادة و سلوكاً، وفي عمل دنياه حتى يكفي نفسه وأسرته وأمته .

وفرض الكفاية كل ما به قوام الدين والدنيا للجماعة المسلمة، من علوم الدين وعلوم الدنيا . كعلوم الطب والهندسة وغيرهما من فروع العلم وتعلم الصناعات التي لا تقوم حياة الناس إلا بها. وإذا قصرت الأمة في جانب من هذه الجوانب الدنيوية، وغدت عالة على غيرها كلياً أو جزئياً، فالأمة كلها آثمة، وبخاصة أولو الأمر فيها .

وعلى هذه الأسس قامت حضارة إسلامية رفيعة البنيان، متينة الأركان، جامعة بين العلم والإيمان. ولم يعرف في هذه الحضارة ما عرف في أمم أخرى من الصراع بين العلم والدين، أو بين الحكمة والشرعية، أو بين العقل والنقل. بل كان كثير من علماء الشرع أطباء ورياضيين وكيميائيين وفلكيين وغيرهم، ولقد ضرب علماء الأزهر المثل الواقعي في الإمام بهذه العلوم، وقد كان الأزهر يهتم ببناء العالم الموسوعي المتميز .

ومن المقتضيات الحتمية للعلم والعمل الذي هو ثمرة العلم والإيمان الحق، إذ لا يتصور إيمان بلا عمل . حتى يتم تحقيق مقاصد الشارع من الإنسان فوق هذه الأرض . ومنها :

(١) - **الخلافة** : وهي أعظم خصائص البشر وموروثهم من أبيهم آدم عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ٣٠] أي : آدم وذريته .

(٢) - **العبادة** : وهي مراد الله ﷻ من العباد كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات آية: ٥٦ - ٥٨]

(٣) - **العمارة** : كما قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [سورة هود آية: ٦١]

فكما أنعم الله ﷻ على الإنسانية بنقلها من ظلمة العدم إلى نور الوجود كذلك أنعم عليها بنعمة العلم الذي يُخرج الناس به من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة .

ومن شرف العلم أن الله ﷻ حثنا على الاستزادة منه وأمر بذلك نبيه ﷺ فقال تعالى : ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طه آية: ١١٤] وفي هذا ما يدل على شرف العلم وفضيلة الاستزادة منه قال قتادة : لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال للخضر عليه السلام : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [سورة الكهف آية: ٦٦] .

﴿ اهتمام السنة بالعلم ﴾

وفي السنة أحاديث كثيرة في فضل العلم ومكانة العلماء نذكر منها :

(١) - عن معاوية بن أبي سفيان ؓ عن النبي ﷺ قال : ((من يُردِ الله به خيراً يُفقهه في الدين ولا تزال عصاة من المسلمين يُقاتلون على الحق ظاهرين على من نأواهم إلى يوم القيامة)) . (١)

(٢) - عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : ((من نفَسَ عن مؤمنٍ كُرْبَةً من كُربِ الدُّنيا نفَسَ الله عنه كُرْبَةً من كُربِ يومِ القيامةِ ومن يسرَّ على مُعسرٍ يسرَّ الله عليه في الدُّنيا والآخرةِ)) .

^١ - متفق عليه .

وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)) . (١)

٣ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من خَرَجَ في طَلَبِ الْعِلْمِ كان في سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ)) . (٢) وغيرها مما ورد في فضائل العلم والعلماء .

٤ - عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ وهو الأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والصلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، ومنار سبيل أهل الجنة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة و أئمة يقتص آثارهم، ويحتذى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في ظلهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيثان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصاييح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار و الدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومداومته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، هو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . (٣)

﴿ أنواع العلم ﴾

ذكر في الأدبيات بأن مخارج العلوم أربعة :

- ١ - علم رافع: وهو العلم الشريف من التفسير والحديث والفقه.
- ٢ - علم ساطع : وهو علم الأدب والأخبار الرفيعة .
- ٣ - علم نافع : وهو علم الطب والهندسة والحساب .
- ٥ - علم واضع : وهو علم الكهانة من السحر وما أشبه .

١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في ((كتاب الذكر والدعاء)) باب ((فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)) . حديث (٢٦٩٩)

٢ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٢٩) حديث (٢٦٤٧) .

٣ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١ / ٢٣٩) .

﴿ دور الأزهري الشريف في نشر العلوم ﴾

لقد قام الأزهري الشريف بدور محوري هام في تاريخ نشر العلوم والحفاظ عليها، وهذا من الحقائق الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد نهج الأزهري الشريف منهج التقدم في العلوم، فلم يكتف بتعليم العلم الشرعي فحسب، بل اهتم بجميع العلوم الدينية والدنيوية، النظرية منها والتطبيقية، مما أهل علماء الأزهري للعلم الموسوعي، والإبداع في العلوم والفنون المختلفة من العلم، فكان الأزهري المتخرج منه على علم عظيم، وقد شهد التاريخ للأزهري بهذا، وأنه تخرج منه علماء كانوا موسوعات علمية أبهرت العالم والتاريخ، ونذكر مثالين منهم وهما :

(١) - الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام والأزهري: الشيخ أبو المعارف، وأبو العباس، شهاب الدين أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري الأزهري المذهبي .

ولد سنة (١١٠١ هـ - ١٦٨٩ م) بمدينة دمنهور، وإليها يرجع لقبه الدمنهوري. درس في كتاب القرية. فحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم رحل إلى القاهرة، والتحق بالأزهري صغيراً، وتلقى فيه العلوم الشرعية واللغوية على يد عدد من مشايخه بالأزهري كالشيخ عبد الوهاب الشنواني، وعبد الرؤوف البشبيشي، وعبد الجواد المرحومي، وعبد الدائم الأجهوري، وغيرهم. درس به الفقه على المذاهب الأربعة، حتى أطلق عليه المذهبي، وأجازوه فيها. ودرس كتب التفسير والحديث والمواريث والفقه والعلوم الحكمية وعلم الأصول . وعلوم القراءات و التصوف والنحو والبلاغة، والهندسة والفلك والفلسفة والمنطق والطب. وكان عالماً بمذاهب أئمة الفقه الأربعة. وقد وصفه معاصروه بأنه كان عالماً فذاً، ومؤلفاً عظيماً وارتقى في مناصبه بالأزهري إلى أن أصبح شيخ الجامع الأزهري لمدة عشر سنوات ليكون أول طبيب يتولى المشيخة . وقد كانت دراساته الطبية قد أخذها عن أحمد القرافي الحكيم بدار الشفاء فقرأ عليه كتاب ((الموجز)) و ((اللوحة الخفيفة في أسباب الأمراض وعلاجاتها)) وبعضاً من ((قانون ابن سينا)) وبعضاً من ((كامل الصناعة)) وبعضاً من منظومة ((ابن سينا الكبرى)) .

وقرأ على الشيخ سلامة الفيومي ((أشكال التأسيس)) في الهندسة، وبعضاً في علم البيئة، و ((رفع الإشكال عن مساحة الأشكال)) في علم المساحة. وقرأ على الشيخ محمد الشحيمي ((منظومة الحكيم))، ورسالة في ((علم المواليد))، و ((الممالك الطبيعية))، وهي الحيوانات والنباتات والمعادن . وكان فقيهاً حنفياً، عالماً باللغة، وتصدر للإمامة والإفتاء وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، وظل يتعلم ويدرس، حتى استقام له الأمر، وتمكن في علوم الهندسة والكيمياء والفلك، وصنع الآلات، ولجأ إليه مهرة الصناع يستفيدون من علمه .

وقد خلف مؤلفات طبية متعددة يذكر المؤرخون منها كتابه المسمى ((القول الصريح في علم التشريح)) وكتابه المسمى ((القول الأقرب في علاج لسع العقرب)) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية. وغيرها من الكتب النافعة . ولبي نداء ربه في يوم الأحد الموافق العاشر من شهر رجب (١١٩٢ هـ - ١٧٧٨ م . (١))

(٢) - الإمام شيخ الإسلام العلامة شيخ الأزهر الشيخ : حسن بن محمد بن محمود العطار المغربي . أديب وفقيه ومشارك في علوم الطب والفلك والهندسة والمنطق والنحو والمعاني والبيان .

ولد في القاهرة وكان أبوه عطاراً فقيراً من أصل مغربي، وقد تبين له رغبة ولده حسن في التعليم فأعانه على تحصيله، فأتقن علم الفلك والعمل بالأسطرلاب والمنطق، وعلوم النحو والبيان واكتملت له ذخيرة علمية وأدبية استثمرها بنجاح في حياته العملية بعد ذلك .

تتلمذ على يدي الشيخ محمد عرفة الدسوقي الذي كانت له مشاركات في علم الهندسة و الهيئة والتوقيت، وكذلك تتلمذ على يد الشيخ حسن الجبرتي والد صديقه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، وكان الجبرتي الوالد عالماً بالرياضيات والفلك وبكيفية صنع المزاول، ومن شيوخه أيضاً الشيخ محمد مرتضي الزبيدي صاحب ((تاج العروس في شرح القاموس))، والشيخ عبد الله الشرقاوي وغيرهم كثيرون .

وعندما احتل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨م كان حسن العطار في الثانية والثلاثين من عمره ومثل كثير من العلماء في ذلك الحين فر إلى الصعيد خوفاً على نفسه من أذاهم، ومكث في الصعيد نحو ثمانية عشر شهراً تقريباً ، لكنه عاد بعدها إلى القاهرة بعد استتباب الأمن وعندما عاد إلى القاهرة تعرف ببعض علماء الحملة، واطلع على كتبهم وتجاربهم وما معهم من آلات علمية فلكية وهندسية، كما اشتغل بتعليم بعضهم اللغة العربية، فأفاد منهم واطلع على مبادئ العلوم العملية كالطب والهندسة وعلمهم بالمقابل اللغة العربية، كما اشتغل أثناء الحملة الفرنسية بالتدريس في الأزهر. وبعد خروج الفرنسيين هرب من مصر خوفاً على نفسه لما كان له من علاقات جيدة معهم أثارت عليه سخط رجال الدين . وقد زار القسطنطينية وأقام في ألبانيا مدة طويلة وسكن في مدينة أشكودره من بلاد الأرناؤوط حيث تزوج ثم دخل بلاد الشام سنة ١٨١٠م وعمل هناك في التدريس وأقام بها خمس سنين ليعود بعدها إلى مصر سنة ١٨١٥ عندما استقرت الأمور وصارت ولاية البلاد لمحمد علي باشا، فعاد إلى التدريس بالأزهر. وكان له

^١ - تنظر ترجمته وافية في ((رسالة الأزهر)) عدد شهر ذي القعدة ١٤٣٢ هـ ص (٩ - ١٩) .

اتصال خاص بسامي باشا وأخويه باقي بك وخير الله بك ضابط مصر، وبواسطتهم تقرب من محمد علي باشا الذي أكرمه وعرف فضله . وكان حريصاً على مساعدة محمد علي في تطوير مصر، فكانت له يد في إنشاء المدارس الفنية العالية مثل الألسن والطب والهندسة والصيدلة. ومن أهم من أعدهم لذلك أنجب تلاميذه ومنهم رفاة الطهطاوي ومحمد عياد الطنطاوي .

ولم يكتف الشيخ العطار بذلك بل إنه استغل قربه من محمد علي باشا والي مصر وثقة الوالي به فأوعز إليه بضرورة إرسال البعثات إلى أوروبا لتحصيل علمها، وأوصى بتعيين تلميذه رفاة الطهطاوي إماماً لأعضاء البعثة العلمية الأولى التي أوفدها والي مصر إلى باريس عام (١٨٢٦م)، وأوصاه أن يفتح عينيه وعقله وأن يدون يوميات عن رحلته، وهذه اليوميات هي التي نشرها الطهطاوي بعد ذلك في كتاب ((تلخيص الإبريز في تلخيص باريز)) .

وقد اختير العطار كأول محرر لأول جريدة عربية مصرية وهي ((الوقائع الرسمية)) التي أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٨م وجعلها لسان حال الحكومة والجريدة الرسمية للدولة، ولعل سر اختياره كأول محرر للوقائع المصرية يكمن وراء جمال أسلوبه في الكتابة .

وكان الشيخ العطار أحد الموجهين الأساسيين لنهضة مصر الحديثة، فهو أول صوت طالب بإصلاح الأزهر الشريف في وقت كان فيه علماء الأزهر قد انغلقوا على أنفسهم يلوكون بعض المعارف الفقهية، يعيدون ترديدها وعمل ملخصات لها وحواشٍ للملخصات وشرح للحواشي وشرح على الشرح دون إضافة ذات قيمة أو أصالة فكرية؛ وقد أصبح العطار شيخاً للأزهر وهو في الخامسة والستين من عمره، وذلك سنة ١٨٣٠م وظل شيخاً للأزهر حتى وفاته يوم ٢٢ مارس سنة (١٢٥٠هـ - ١٨٣٥ م) .^(١)

﴿ الدور المأمول للأزهر الشريف في النهوض بالعلوم ﴾

من الغريب أنه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترقد في ظلام دامس وتغط في سبات عميق، كان المسلمون قد سبقوا عصرهم في شتى العلوم، وها نحن في هذا الزمان وقد تبدل حالنا وصرنا في مؤخرة الركب بعد أن كنا في مقدمته، صرنا تابعين بعد أن كنا متبوعين لأننا فصلنا بين العلم والدين، بحجة مواكبة الغرب ونسينا أن ديننا يرغب في العلم ويدعو إليه ويمهد طريقه

^١ - تنظر ترجمته في ((شيوخ الأزهر)) لأشرف فوزي صالح (٢ / ٣٥ - ٤٠) .

ويدعو إلى رعاية طلابه وأساتذته ماديا ومعنويا . ومن هنا فلا عودة لنا إلى سابق عزنا ومجدنا إلا إذا أقبلنا على العلم من منطلق إيماني خالص، عندئذ نعود إلى سالف مجدنا وسابق عزنا .

لذلك على الأزهر الشريف وعلمائه مسؤولية عظمى، وأمانة عليهم في تحقيق هذه الأهداف من رجوع العزة والتقدم للأمة بالعلوم والاهتمام بها، وعليهم أن يحققوا آمال الأمة في هذا العصر ووضع منهجية علمية للارتقاء بالعلوم وتعظيم شأنها وأهلها، فمثلا :

إذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته، ويتحرر من رق غيره، وإذا كان يطمح إلى القيادة فلا بد من الاستقلال التعليمي، بل لا بد من الزعامة العلمية وما هي بالأمر الهين، إنها تحتاج إلى تفكير عميق، وحركة التدوين والتأليف الواسعة، وخبرة إلى درجة التحقيق، والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه، إنها مهمة تنوء بالعصبة أولى القوة، و هي من شأن الحكومات الإسلامية، تنظم لذلك جمعيات، وتختار لها أساتذة بارعين في كل فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وبروح الإسلام وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كياناتهم ويستغنون به عن الغرب، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم، وينظمون مالية البلاد الإسلامية، ويديرون حكوماتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد، وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوربية، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوروبا عن حلها .

وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده، فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجدد، فنتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أيما استعداد . (١)

ولتحقيق هذا ينبغي رعاية العلماء للأجيال القادمة، ولا نتركهم فريسة للعولمة والحدثة بمناهجها المشوهة القبيحة، فلا بد من توعية الأسرة للقيام بدورها، وواجب الأسرة أن تدفع أبناءها إلى طلب العلم وترغبهم فيه وتحفزهم على التفوق والنبوغ حتى يرتقوا بأنفسهم ومجتمعاتهم وينهضوا بأمته، وتتخذ الوسائل المساعدة على تحقيق هذا الهدف، ومنها : أن يُعلم الطفل آداب طلب العلم حتى يتحلى بها، ومن أهمها الإخلاص والتقوى والصدق والصبر

(١) - ((ماذا خسر العالم الإسلامي بالخطأ المسلمين)) ص (٣٩١ - ٣٩٢) .

وتوقير المعلم وتنظيم الأوقات والاعتدال في المأكل والمشرب والنوم، وأن يشجع على القراءة والمطالعة والتدبر والتفكر وأن تراعى المواهب الناشئة والعقريات المبكرة ويهيأ لها الجو المناسب للتفوق والابتكار. وأن يرغب الطفل في الذهاب إلى المكتبات الثقافية، وحضور الندوات والمؤتمرات في المساجد والمنتديات وسائر المؤسسات . وقراءة الصحف والمجلات الدينية والعلمية والثقافية، و مشاهدة البرامج الهادفة البناءة في التليفزيون والفيديو، والتدريب على الحاسب الآلي و الاشتراك في شبكات الإنترنت والمشاركة في الرحلات والمسابقات العلمية والثقافية، ومتابعة الأولاد في المدارس، وتذكيرهم بماضي الأمة حتى يعرفوا مآثر أسلافهم وحضارتهم التي أضاعت الكون، و التي اقتبس الغرب من أنوارها وبدؤا من حيث توقفت، وأن دور هذا النشء أن يعيد أمجاد أسلافه من خلال اجتهاده في طلب العلم فهو دعامة أساسية للنهوض الحضاري .

﴿ قيمة احترام العلماء ﴾

إن أكثر العلامات التي تدل على نجاح الأمم، و رقيها وتقدمها هي قيمة احترام العلماء، و الاهتمام بهم وبالعلوم التي ترقى بالاجتمع وتسمو بالقيم، لذلك تأخرت الأمة من وقت ترك اهتمامها بالعلماء والعلم، وانصرفت إلى الاهتمام إلى فئات أخرى لا داعي لذكرها الآن لأن الكل يعرفهم، فتأخر ركب الأمة عن الحضارة، وأصبحت الدول العربية للأسف طرادة لأبنائها من العلماء في المجالات المختلفة، جلابة لكل أمر شكلي لا ينفع في تقدمها ولا رقيها، فأصبحنا من الدول المستهلكة، وليس من الدول المنتجة، وهذا مؤشر خطير يعكس مدى سوء الحال الفكري والعلمي والإنتاجي الذي وصلنا إليه .

ولقد جاء الإسلام من أول لحظات عمره ليقرر أهمية العلم والعلماء، وليعرفنا أهمية العلماء في بناء وتقدم الأمة و رقيها .

﴿ اهتمام الإسلام بالعلماء وذكرهم في الكتاب والسنة ﴾

لقد فضل الله تعالى العلماء وخصهم بالذكر تنويها بعظم شأنهم عنده ﷻ ومن هذا قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٨] وعظم قدرهم فقال : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ

وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ [سورة الأنعام آية: ٥٠]

(۱) - متفق علیہ .

۲ (- متفق علیہ .

٣ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ٢٨٩ - ٢٩٠) حديث (٨٨) .

الأنبياء ((وَالْأَنْبِيَاءُ لَمْ يُورَثُوا إِلَّا الْعِلْمَ وَعَلِمَ نَبِيِّنَا ﷺ سُنَّتُهُ فَمَنْ تَعَرَّى عَنْ مَعْرِفَتِهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ . (١)

والعلماء هم أرقى الناس منزلة في الدنيا قبل الآخرة، وهم العدول من البشر، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)) . (٢) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قَتَلَ أَحَدًا فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ : ((أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ ؟)) . فإذا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ وَقَالَ : ((أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ وَلَمْ يُعَسَّلُوا وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ . (٣) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)) . (٤)

ووجوب احترامهم وتقديرهم، مما أوجبه الإسلام علم المسلم والمجتمع كله: عن سمره بن جندب : لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا فكنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنْ هَا هُنَا رَجَالًا هُمْ أَسَنُّ مِنِّي . (٥)

﴿ آداب العالم ﴾

(١) - **آداب العالم في نفسه** : دوام مراقبة الله تعالى في أقواله وأفعاله . بتطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة، وأن يتخلق بمحاسن الأخلاق، وأن يعرف ما للعلم من العزة والشرف والتحلي بالأمانة العلمية .

(٢) - **آداب العالم في مجلسه** : أن يوقر طلابه من حيث السن والعلم والصلاح، وأن يتلطف مع طلابه .

(٣) - **آداب العالم مع طلابه** : أن يقصد في تعليمه وجه الله تعالى ونشر العلم النافع، وأن يحب طلابه ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، وأن يعاملهم بما يعامل أبنائه .

^١ - ((صحيح ابن حبان)) (١ / ٢٩٠) .

^٢ - أخرجه الطبراني في ((مسند الشاميين)) (١ / ٣٤٤) حديث (٥٩٩) .

^٣ - أخرجه البخاري في ((صحيحه)) في كتاب ((الجنائز)) باب ((الصلاة على الشهيد)) حديث (١٢٧٨) .

^٤ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٤ / ٢٦١) حديث (٤٨٤٣) .

^٥ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الجنائز)) باب ((أين يقوم الإمام من الميت للصلاة عليه)) رقم (٩٦٤) .

﴿ آداب المتعلم ﴾

إن حلية طالب العلم ورأس ماله الحقيقي : الأدب والأخلاق؛ فهي المكسب الحقيقي لطالب العلم وكان السلف يقدمون الأدب قبل العلم .

عن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول: إِنَّ حَقًّا عَلَى مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِأَثَرٍ مِنْ مَضَى قَبْلِهِ. وقال سفيان الثوري رحمه الله: كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدّب، وتعبّد قبل ذلك بعشرين سنة . (١)

بل كانوا يفتشون في أخلاق وأحوال من يتعلّمون منه قبل التلقّي عنه، قال إبراهيم النخعي رحمه الله: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه، نظروا إلى سمته وإلى صلاته وإلى حاله، ثم يأخذون عنه . (٢) وقال مطرف قال مالك: قلت لأبي أذهب فأكتب العلم. فقالت: تعال فالبس ثياب العلم فألبستني ثيابا مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ثم قالت : اذهب فأكتب الآن وكانت تقول : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه . (٣)

وكذلك لا بد أن يتحلّى بالإخلاص في طلب العلم، وإرادة وجه الله تعالى في تحصيله، وامتنال أمر رسوله ﷺ، والحذر من أن يكون حظه من العلم طلب عرض من الدنيا. عن ابن عمر رضي الله عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لِيُغَيِّرَ اللَّهَ أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)) . (٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . (٥)

﴿ دور الأزهري الشريف في ترسيخ قيمة احترام العلماء ﴾

العلاقة بين العلماء كانت في الجملة قائمة على التفاهم والحب والترابط، فقد وجد من قوة العلاقة والاحترام بين العلماء آنذاك أن كان العالم يترك درسه وطلبته إذا رأي شيخه أو من تربطه

١ - أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦ / ٣٢٤) وص (٣٦١) .

٢ - ((تدريب الراوي)) للسيوطي (١ / ٣٠١) .

٣ - ((الديباج المذهب)) لابن فرحون (١ / ٢٠) .

٤ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٥ / ٣٣) حديث (٢٦٥٥) .

٥ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ٢٧٩) حديث (٧٨) .

به صداقة حميمة، ليحمل عنه نعله، ويهني له مكان درسه، وليس في هذا الصنع عجبا، فهو ما نراه بعينه بين كل من الشيخ العالم علي الحلبي الشافعي (١٠٤٤ هـ - ١٦٤٣ م) . والشيخ العالم سلطان المزاحي الشافعي (١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ م) فعلى الرغم من المكانة العلمية التي كان يحظى بها الشيخ سلطان بين علماء الأزهر آنذاك إلا أنه كان عندما يرى الشيخ علي الحلبي مارا في المسجد يقوم تاركا درسه وطلبته ليقبل يدي الشيخ علي، ويحمل عنه نعليه، ويضعهما في خزانة الشيخ علي، ويفرش له سجاده التي يجلس عليها لإلقاء درسه، وبعدها يعود الشيخ سلطان إلى درسه لإتمامه . (١)

إن هذا الموقف وأمثاله من العلماء قد أثر في شخصية المسلمين بوجه عام، والمصريين بوجه خاص، مما أثر أثرا بالغا في نفوسهم، حيث أورثتهم تلك المواقف تأسيس قيم الاحترام والتواضع في نفوسهم وتعاملاتهم في واقع حياتهم، مما جعل عامة الناس يحترمونها الاحترام العظيم، فقد كان احترام الناس للعلماء وتقديرهم لهم لا يوصف، ومن صورته قيامهم لهم وتوسيع الطريق عند مرورهم وتقيل أيديهم وحمل أحذيتهم والجلوس عند أرجلهم في مجالس العلم والوعظ والتعليم، وانصياعهم لأمرهم، مما كان يضمن للمجتمعات واقعا سلميا وتعايشا آمنا، ومجتمعاً متماسكا مستمسكا بالقيم والأخلاق .

وكذلك في معاملة المشايخ لطلابهم فقد حرص العلماء على تقوية صلتهم بطلابهم ورفع الكلفة السائدة بين الأساتذة كآباء والطلاب كأبناء، إذ حاول البعض الاقتراب من طلابه وتوسيع دائرة العلاقة القائمة على طلب العلم إلى رحاب أوسع، فتكون بينهم ما يمكن أن نسميه تجاوزا بـ ((الأخوة)) أو ((الصداقة)) . وقد سبق ذكر الأمثلة الدالة على هذا من أحوال علماء الأزهر الشريف في احترام تلامذتهم، الذين يصبحون فيما بعد علماء المستقبل، وذكرنا من مواقفهم مواقف الشيخ العالم محمد أبو عبد الله بن علاء الدين البابلي الشافعي (١٠٧٧ هـ - ١٦٦٦ م) . والشيخ العالم شعبان الفيومي الأزهري الشافعي (١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ م) والشيخ علي الشبرايملي الشافعي (١٠٨٧ هـ - ١٦٧٦ م) والشيخ العالم محمد أبو الذهب بن محمد البكري (١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م) وغيرهم . (٢)

^١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٠) .

^٢ - انظر : ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣١ - ٣٢) .

﴿ قيمة تحصين العقول ﴾

وهذه من أعظم القيم العلمية التي نحتاجها في هذا العصر الذي استجدت فيه نظم فكرية و سياسية حديثة وغريبة في فهمها وفكرها ومنهجها، وهي ضد كل شيء ديني، بل إن شئت فقل : ضد كل القيم الراسخة في المجتمعات الفاضلة، ونظرا لتعدد وسائل الاتصال الحديثة، وعصر الفضائيات، أصبح انتشار أفكار هذه التيارات من السهولة بمكان كبير، فلذلك نحتاج إلى تحصين العقول لتفهم حقيقة هذه الشعارات البراقة، والأفكار الهدامة المزينة ببريق ادعاء العلم والفكر.

ولقد مجد الإسلام العقل واهتم به بشكل ملحوظ، فهو مناط التكليف، وبه تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات وبه يدرك آيات الله ويفهمها قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الروم آية: ٢١] وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الروم آية: ٢٤] وقد أسهمت الحضارة العربية والإسلامية خاصة في النهوض بالحضارات الغربية الأوروبية في العصور الوسطى والتاريخ يشهد بهذا وخير مثال ودليل على هذا الحضارة الإسلامية في الأندلس التي أفادت منها إيطاليا وإنجلترا وفرنسا وغيرها في بناء دولهم الحديثة .

ولجأ أعداء الإسلام إلى طرق عدة لهدم الإسلام، وإعاقة انتشاره وإخراج أبنائه من هديه، و كان من أقوى وسائلهم تأثيراً وأشدّها إثماراً ما يسمى بحركة ((التغريب)) . والتغريب تيار كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية. ومن الجدير بالذكر أن نسمي هذا الاتجاه الذي سلكه الغرب خاصة بعد الاستعمار مع دول الحضارة العربية والإسلامية باتجاه ((الإغراء)) لبعض الأقليات في هذه المجتمعات وبدأ هذا الإغراء بالاحتلال الفرنسي لمصر ولبنان والشام فعمل نابليون بونابرت على دعم الأقليات في هذه البلاد لجعلهم جيشاً له وجندا في هذه البلاد كما فعل مع اليهود في فلسطين والنصارى في الشام ومصر، واستعملهم فيما يريد فعله في هذه البلاد وحتى بعد جلاء الحملة الفرنسية ظلوا بعدها على اتصال بهم وكان من أبرز من قادوا هذه الأقليات: ((يعقوب حنا)) (١٧٤٥ - ١٨٠٠) م وكان من أبرز هذه البلاد التي تعتبر أول من أراد استبدال النظم والثقافة العربية بتلك النظم والثقافات الغربية هي لبنان فقد أصبح لبنان وقتها كما يقول أستاذنا الدكتور / محمد عمارة في رسالته الماتعة ((مخاطر العولمة على الهوية الثقافية)) ص (١٨) : وفي مرحلة ((غواية التغريب والترهيب)) هذه نجح الفرنسيون في جعل

((لبنان الماروني)) وكأنه ((مدرسة إرساليات)) تضخ التغريب في محيطه العربي والإسلامي وتحدثت عن هذه الرسالة مراسلات قناصلهم في بيروت فقالت : ((إن حكومة فرنسا ستخلق بين هذه العائلات المارونية من خلال نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين نقاط اتصال جديدة معها ومع البلد ورموزا جديدة وقيمة للاعتراف بفضلها، وإن خدمة المصالح الدينية يعنى خدمة الحضارة التي هي في الوقت نفسه مصالح السياسة الفرنسية في جعل سوريا حليفا أكثر أهمية من مستعمرة و تأمين هيمنة بلدنا على منطقة خصبة ومنتجة وتقويم جيش متفاني لفرنسا في كل وقت وذلك حتى تنحني البربرية العربية لا إراديا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا)) .

وكان من أبرز هؤلاء المبشرين من ذكرناهم من رجال الطابور الخامس ومن رجال الجيش الماروني اللبناني الذين تربوا على أيدي الغربيين وكذلك من المصريين، من أمثال هؤلاء : ((أديب إسحاق)) و ((شلي شميل)) و ((سلامة موسى)) و ((جرجي زيدان))، وأضرابهم من الغربيين مثل : ((زويمر)) و ((دنلوب)) . وسعوا بكل إمكانياتهم في تحقيق أهدافهم ومنها :
(١) - تشكيك المسلمين في دينهم لأنه أكبر عقبة في طريق سيطرتهم على البلاد، فقاموا بحملة كبرى لغسل العقل الإسلامي وكسب المريدين والأتباع من أهل هذه البلاد .

(٢) - إيهام المسلمين أن الحضارة الغربية حضارة عالمية وأنها ثمرة تجارب الإنسانية، وأنها الحل الوحيد لمن أراد التقدم .

أساليبهم : استخدمت حركة التغريب وسائل كثيرة وطرقاً متعددة في التأثير منها المباشر ومنها غير المباشر، ومنها المادي ومنها المعنوي، ومنها الأجنبي ومنها المحلي، وجعلتها أساليب منظمة يراعي فيها طول زمن التنفيذ والتخفي والتستر للوصول إلى الهدف .
ومن أكثر الأساليب المتخذة وأشدّها خطراً استخدام أبواق من أبناء الأمة الإسلامية تنفخ فيها ما تريد، هذا ولا ريب أسلوب شديد التأثير قوى الفاعلية .

ومن الأساليب الخبيثة التي استخدمت للتغريب، أسلوب الإقناع القائم على التشكيك، إذ يقومون بتشكيك أبناء هذه الأمة في تعاليم ومبادئ دينها حتى إذا تم ذلك استعملوا أسلوب الإقناع بأخذ الدليل من الحضارة الغربية .

وقد رأي قادة حركة التغريب أن التغريب لن يكون ذا ثمرة، إلا إذا تناول مجالات معينة تتسم بال حساسية الشديدة والأهمية العظمى والقرب من الفكر والميدان العام، لهذا كانت المجالات التي تناولها التغريب مجالات حيوية مثل التعليم وتمثل في القضاء على الفصاحة العربية التي

أوجدتها منابع البلاغة العربية المتمثلة في القرآن الكريم ولغته الفصحى . والقضاء على الإحساس بعظمة العطاء الذي مدت به الأمة المسلمة البشرية . والدور التاريخي الذي قام به الإسلام .

وكذلك أثروا على الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم أخلاقية وآداب سلوكية وما يحيط بها من عادات وأعراف وتقاليد بتدميرها وضربها بمختلف الموجات المسمومة وطرح المجتمع المسلم في المفاصل التي تحطم أفرادها . وكان تغريب المرأة له الأولوية والأهمية الكبرى، لأن فساد المرأة إسراع بإفساد المجتمع كله . وقد حاول الاحتلال عندما وضع أقدامه على أراضي العالم الإسلامي أن تصبح الأنظمة والقوانين التي تحكم بين الناس قوانين وأنظمة غريبة مستوردة وتوضع بدلا من الشريعة الإسلامية .

وغزوا أيضا الإعلام ومن أبرز وسائله الصحافة التي كتب كثير منها بتلك الأيدي الحاقدة فنشرت كل ما يسيئ للإسلام ويخدم أغراضهم، وحققوا هدفهم وهو إشاعة التفاهة وتزيف الحقائق، وحبس الناس في سجن البلاء ومعتقل الغباء .

﴿ أهداف حركات التغريب في المجتمعات الإسلامية ﴾

- ١ - أن تظل الشعوب الإسلامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها تلك القوى التي تتمثل في عدد محدود من الدول الكبرى .
- ٢ - أن تظل بلدان العالم الإسلامي خصوصاً والعالم النامي عموماً تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة .
- ٣ - زرع أفكارهم في عقول الأمة الإسلامية مما يؤدي إلى ضياع حاضر الأمة الإسلامية في أي قطر من أقطارها .
- ٤ - أن تتخذ الأمة الإسلامية مناهج التربية والتعليم لدولة من هذه الدول الكبيرة فتطبقها على أبنائها وأجيالها فتشوه بذلك فكرهم وتمسخ عقولهم .
- ٥ - أن يحول العدو بين الأمة وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها ويحل محل ذلك تاريخ تلك الدول الكبيرة الغازية وسير أعلامها وقادتها .
- ٦ - أن تسود أخلاق الأمة الغاربة وعاداتها وتقاليدها في بلاد الدول المغزوة .
- ٧ - تصوير تراث الأمة الإسلامية بصورة التخلف وعدم قدرته على إمداد الحضارة بشيء مفيد وأنه لم يكن له الفضل على الحضارات التي جاءت بعده .
- ٨ - إحياء الجوانب الضعيفة في التراث الإسلامي خاصة فيما يتعلق بالخلافات السياسية التي وقعت بين المسلمين أنفسهم للتفريق بين طوائف الأمة ومذاهبها .

٩ - إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من الجانب الآخر، وإظهار أي دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر.

١٠ - إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارها عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم .

١١ - اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين وصرفهم عن التمسك بالإسلام نظاما وسلوكا.

١٢ - تفرغ العقل والقلب من القيم الأساسية من الإيمان بالله وجعل القلوب عارية أمام عاصفة هوجاء، تحمل معها السموم عن طريق الصحافة والمسرح والفيلم والأزياء والملابس.

﴿ دور الأزهر الشريف في مواجهة التغريب وتحصين العقول ﴾

لقد حافظ الأزهر الشريف على الهوية العربية والهوية الإسلامية عبر القرون الماضية، وفي العصر الحديث خاصة بعد الغزو الاستعماري لمصر والدول العربية، وتجلى دور الأزهر واضحا في الحفاظ على الهوية العربية متمثلا في الحفاظ على اللغة العربية، فلم يتأثر المجتمع المصري بلغات الغزاة الذين غزوا مصر، منذ دخول العثمانيين، ثم الحملة الفرنسية، ومن بعدها الحملة الإنجليزية . ومع الغزو الفكري المتمثل في دخول تيارات فكرية غربية في عقلية المجتمعات العربية وقف لها الأزهر الشريف بالمرصاد، كاشفا القناع عن حقيقتها، موضحا أهدافها وأساسياتها والقواعد التي تقوم عليها، وقاموا بتوعية الناس بحقيقة هذه المذاهب الفكرية والسياسية الغربية الدخيلة على مجتمعاتنا، مثل العلمانية والليبرالية والاشتراكية، والوجودية والحداثة وانتهاء بالعولمة، ولا تزال الكتابات الصحفية والمقالات تتوالى من علماء الأزهر في هذا الشأن، وقد كانوا يتعرضون لبعض هذه التيارات في مقالاتهم ومن هذه المقالات على سبيل المثال ما كتبه الشيخ عطية صقر رحمه الله :

أما عن العلمانية فقد صدرت فتوي الشيخ عطيه صقر (رئيس لجنه الفتوي بالازهر الشريف) ردا علي السؤال الآتي :

س : يتحدث الناس كثيرا عن العلمانية فما هو أصلها وما هو موقف الاسلام فيها ؟

ج : مما هو مقرر ان الحكم علي الشيء فرع عن تصوره ، فلا بد من تحديد المفاهيم حتي يمكن الحكم عليها صحيحا، والعلمانية لفظ وجد في كتبنا العربية حديثا عند ترجمة ما يقابلها في اللغات الأجنبية عن طريق الإدارة العامة للتشريع والفتوي بمجلس الأمة المصري - آنذاك - كما هو ثابت في الموسوعة العربية للدساتير

العالمية التي أصدرها المجلس المذكور سنة ١٩٦٦ م.

وبعيدا عن صحة النطق بهذه الكلمة، الذي ذهب فيه الكثيرون مذاهب شتى،
ركان فرصة استغلت للدعوة الي وجه نظر معينة كما هو شأن المتشابه من النصوص
الذي جاء فيه قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ
ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ. ﴾

[سورة آل عمران : ٧] .

بعيدا عن ذلك، فإن نسبة العلمانية الي العلم أو العالم ليست علي قياس لقوي،
وهي ترجمة للكلمة الافرنجية « لايبك » أو « سيكولا ريسم » وتعني « لا دينية » علي
أي وجه تكون ، وفي أي ميدان تطبق ، وعلي أي شيء تطلق . وهي نزعة أو اتجاه أو
مذهب اعتنقه جماعة في أوروبا في مقابل ما كان سائدا فيها في العصور المظلمة ، التي
تسلط فيها رجال الدين علي كل نشاط في أي ميدان، مما تسبب عنه ركود وتخلف
حضاري في كل المجالات .

وكان معتقو هذا المذهب في أول الأمر في القرنين السابع عشر والثامن عشر قد
وقفوا من الدين موقف عدم المبالاة به، وتركوا سلطانة يعيش في دائره خاصة ،
واكتفوا بفصله عن الدولة . ومن أشهر هؤلاء « توماس هوبز » الانجليزي المتوفي سنة
١٦٧٩ م ، « جون لوك » ١٧١٦ م ، « جان جاك روسو » المتوفي سنة ١٧٧٨ م .

وفي القرن التاسع عشر كانت المواجهه العنيفة بين العلمانية والدين ، وذلك
لتغلغل المادية في نفوس كثير من فتوا بالعلم التجريبي، الي حد أنكروا فيه الأديان وما
جاءت به أفكار ، واتهموها بتهم كثيرة كرد فعل للمعاملة التي عانوها من رجال الدين
وسلطانهم في زمن التخلف الذي نسبوه الي الدين ، ذلك الدين الذي كان من وضع

من تولوا أمره، والدين الحق المنزل من عند الله بريء منه .

ومن أشهر هؤلاء المهاجمين « كارل ماركس » الألماني المتوفي سنة ١٨٨٣ م، و
« فريدريك أنجلز » الألماني المتوفي ١٨٩٥ م، و « فلاديمير أوليانوف لينين » الروسي
المتوفي ١٩٢٤ م. هؤلاء لم يقبلوا أن تكون هناك سلطة ثانية أبداً ، حتى لو لم تتدخل

في شعور الدولة ، وإن كانت هذه العداوة للدين بدأت تخف ، وتعاونت السلطات السياسية والاستعمارية على تحقيق أغراضها.

لقد تأثر بهذا المذهب كثيرون من الدول الغربية ، وقلدها في ذلك بعض الدول الشرقية ، ووضعت دساتير على أساس الفصل بين السياسة والدين عن النشاط السياسي والاجتماعي.

إن العلمانية بهذا المفهوم ، وهو عدم المبالاة بالدين ، بأنها الإسلام ، الذي هو من صنع الله وليس من صنع البشر ، فهو منزّه عن كل العيوب والمآخذ التي وجدت في الأديان الأخرى التي لعبت فيها الأصابع وحرفتها عن حقيقتها. وذلك لأنه دين الإصلاح الشامل ، الذي ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه ، ويوفر له السعادة في الدنيا والآخرة على السواء ، فهو كما يقال ، دين ودنيا ، أو دين ودولة ، أو عبادة وقيادة ...

ومن مظاهر ذلك ما يأتي :

١- عقائد الإسلام ليست فيها خرافات ولا أباطيل ، فهو يقدر العقل ويأسر بتحكيمة الي حد كبير.

٢- الإسلام ليس مغلقاً على معلومات معينة يتلقاها يتصها من الوحي ، بل هو كما يقال ، دين منفتح على كل المعارف والعلوم ما دامت تقوم على الحقائق وتستهدف الخير.

٣- الإسلام يمقت الرهينة التي تعطل مصالح الدنيا ، ويجعل النشاط الذي يبذل لتحقيق هذه المصالح في منزلة عالية ، لأنه جهاد في سبيل الله ، والتاجر الصدوق الأمين يحشر مع النسيين والصدّيقين فهو دين يعمل للدنيا والآخرة معا .

٤- الإسلام يقرر أنّ السلوك الاجتماعي مقياس لقبول العبادة ، فمن لم تثمر عبادته ، بمفهومها الخاص من العلاقة بين العبد وربّه ، استقامة في السلوك فهي عبادة مرفوضة لا يقبلها الله ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يرامون ويمنعون الماعون ﴾

[سورة الماعون : ٤-٧] .

٥- الإسلام ليس فيه كهنوت يتحكم فيه بعض من الناس في مصائر الناس بإدخالهم الجنة أو حرمانهم منها، بناء على اعتبارات خاصة، فمدار ذلك على العقيدة الخالصة والعمل الصالح، وليس المشتغلون بعلوم الدين إلا معلمين ومرشدين، والأمر متروك بعد ذلك لمن شاء أن يستفيد أو لا يستفيد بالتطبيق. وقد يكون المتعلم أقرب إلى الله من معلمه، بالتزام الطريق المستقيم الذي رسمه الله لهم جميعاً، فما دامت العبادة لله وحده فهو وحده الذي يقبل منها ما يشاء.

٦- الإسلام ليس فيه سلطة مقدسة مستمدة من سلطان الله، وليس في البشر من هو معصوم من الخطأ، إلا من اصطفاه الله لرسالاته، والحكم من ذوي السلطان ليس لذرائعهم، بل الحكم للدين أولاً وآخر، فكل شيء فيه اختلاف رأى يرد إلى الله وإلى الرسول، أي الكتاب والسنة.

٧- مبادئ الشريعة تستهدف تحقيق المصلحة، فإذا لم يوجد نص واضح في أمر تعددت فيه وجهات النظر من أهل النظر وكان يحقق المصلحة العامة كان مشروعاً، وبخاصة في أمور الدنيا، فالتناس أعلم بشؤونها.

٨- الإسلام دين تقدم وتطور وحضارة، ليس جامداً ولا متمسكاً بالقديم على علاقته فهو ينهي عن التبعية المطلقة في الفكر أو السلوك الذي يظهر بطلانه، بل يقرر أن الله يبعث مجددين على رأس كل قرن، يوضحون للناس ما أبهم، ويصححون لهم ما أخطأوا فيه ويوائمون بين الدين والحياة فيما تسمح به المواءمة، لأنه دين صالح لكل زمان ومكان، ومن مبادئ التدرية المأثورة عن السلف: لا تحملوا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم. والمراد بالأخلاق العادات التي تقبل التغيير، أما أصول الأخلاق فثابتة.

بهذا وبغيره نرى الإسلام يرفض العلمانية، وأن المسلمين ليسوا في حاجة إليها، وإنما هم في حاجة إلى فهم دينهم فهماً صحيحاً، وتطبيقه سليماً كاملاً، كما فهمه الأولون وطبقوه، فكانوا أساتذة العالم في كل فنون الحضارة والمدنية الصحيحة، وضعف المسلمين وتأخرهم ناتجاً عن الجهل، بحقائق الدين، وبالتالى، عدم العمل بما جاء به

من هدى، والجهل قلدوا غيرهم في مظاهر حضارتهم، وآمنوا بالمبادئ التي انطلقوا منها دون عرضها على مبادئ الإسلام، لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل. ولئن رأينا بعض دول المسلمين الآن قد نقلوا معارف غيرهم ممن يدينون بالعلمانية، فليس ذلك دليلاً على أنهم آمنوا به، وإنما هو للاطلاع على ما عندهم حتى يعاملوهم على أساسه، وإذا كانوا قد قبضوا من مظاهر حضارتهم فذلك للاستفادة من نتائج علمهم وخبرتهم فيما يقوي شوكة المسلمين ويدفع السوء عنهم، والتعاون في المصالح أمر تفرضه طبيعة الوجود، وهو مشاهد في كل العصور على الرغم من اختلاف العقائد والأديان. والمهم ألا يكون في ذلك مساس بالمعقيدة أو الأصول المقررة وأن يستهدف الخير والمصلحة. هذا، والأدلة على ما قلناه مما جاء به الإسلام كثيرة تركناه للاختصار، والمقصود هو إلقاء بعض الضوء على هذا المصطلح وموقف الدين منه^١، وكذلك كان لهم مواقف إعلامية أخرى كالندوات والمؤتمرات، لم يتساهلوا في نشر مثل هذه التيارات بل وقفوا تجاهها بالمرصاد وبينوا حقيقتها، ومن هذه المواقف موقف :

٢ - الشيخ محمد أبو زهرة :

دعي الشيخ أبو زهرة إلى ندوة إسلامية كبرى بإحدى العواصم العربية التي اشتهرت بالثورية، وكان ضيوف الندوة من كبار العلماء في العالم الإسلامي . أراد حاكم هذه الدولة أن يجعلهم يؤيدون ما يذهب إليه، ويوم افتتاح الندوة حضر رئيس الدولة ليلقي كلمة الافتتاح، و يقول: إنه دعا إلى هذه الندوة ليقرر العلماء أن الاشتراكية هي المذهب الإسلامي، وأن يدافعوا عن هذا الرأي .

وبعد كلمة الرئيس عبست الوجوه، وتكدرت النفوس، ولم يتقدم أحد ليلق على ما قاله هذا الرئيس، ولكن الشيخ أبا زهرة طلب الكلمة، واتجه إلى المنبر، وقال بشجاعة منقطعة النظير: ((نحن علماء الإسلام وفقهاؤه، وقد جئنا إلى هذه الندوة، لنقول كلمة الإسلام كما نراها نحن لا كما يراها السياسيون، ومن واجب رجال السياسة أن يستمعوا للعلماء، وأن يعرفوا أنهم متخصصون فاهمون، لا تخدعهم البوارق المضربة، وقد درسوا ما يسمى بالاشتراكية، فرأوا الإسلام أعلى قدراً، وأسمى اتجاهًا من أن ينحصر في نطاقها، وسيصدر المجتمعون رأيهم كما يعتقدون، لا كما يريد رجال السياسة، فهم أولو الأمر في هذا المجال)) .

^١ - ((أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام)) . للشيخ عطية صقر (٤٥٤ - ٤٥٧) .

ثم توجه الشيخ إلى زملائه قائلاً : ((هل فيكم من يخالف ؟)) . فرأى الإجماع منعقداً على تأييده، فقال : ((الحمد لله أن وفق علماء المسلمين إلى ما يرضي الله ورسوله ﷺ)) .

وبعد موقف الشيخ محمد أبو زهرة، لم تستمر الندوة في انعقادها أسبوعاً كما كان من المقرر لها من قبل، بل كان حفل الاستقبال هو حفل الختام، كما يقول الدكتور محمد رجب البيومي .

وهذا موقف آخر للشيخ العلامة أبي زهرة، عندما عُرض فيلم ((ظهور الإسلام)) المأخوذ عن كتاب ((الوعد الحق)) لطله حسين، دعا بعض الكتاب إلى تمثيل العصر النبوي على الشاشة باعتبارها عامل تأثير في النفوس، وأقيمت ندوة أدبية لتدعيم هذا الاتجاه، ولم يجروا المنظمون لها على دعوة الشيخ أبي زهرة خوفاً من معارضته. ولكنه سعى إلى الندوة مستمعاً، وبعد أن تبارى المشاركون في الحديث عن أهمية هذه الدعوة وأن للفن دوره المؤثر في ذلك طلب أبو زهرة الحديث، واضطر مُنظم الندوة أن يدعو الشيخ للكلام، فقال : ((إن الذين يتحدثون عن أثر السينما في الدعاية للإسلام بدليل انكباب الجمهور على مشاهدة فيلم ((ظهور الإسلام)) لم يوفقوا فيما يدعون، لأننا نعلم أن هذا الفيلم لم يزد المؤمن إيماناً فوق إيمانه، ولم يردع فاسقاً عن غيه، ولم يدخل أحداً من ذوى الأديان الأخرى إلى حظيرة الإسلام، فهل نفدت كل وجوه الدعايات للإسلام، ولم يبق إلا تمثيل أحداث العصر النبوي بأعلام من صحابة رسول الله ﷺ ؟ . وهل يعقل أن يقوم ممثل اليوم بتمثيل دور بلال ؓ حين عُذِبَ في ذات الله، ثم يجده المشاهد في رواية أخرى يمثل دور ماجن خليع ؟ . وهل يُعقل أن تضع ممثلة لبعض الصحابات الماكياج في وجهها، ثم تزعم أنها تمثل صحابية شهيدة ذهبت روحها فداء لدينها الحبيب ؟ ! . وماذا نصنع إذا وجدنا هذه الشهيدة في فيلم آخر تأتي بما ينكره الإسلام في بعض المشاهد المخلة بالآداب أليست هذه إساءة واضحة للصحابات ؟ ! .

وهكذا بحجة قوية وبأسلوب سهل بسيط واضح من الشيخ أبي زهرة غير رأي المؤيدين لموضوع الندوة، وكان لكلمة أبي زهرة أثرها في عقول وقلوب المشاركين، فخرجوا غير مؤيدين ورافضين للهدف الذي من أجله أُقيمت الندوة. (١)

^١ (- المصدر ((موقع اسلام ويب))) :

﴿ دور الأزهر المأمول في تحصين العقول من مخاطر التغريب ﴾

على الأزهر الشريف دور مهم يجب أن يؤديه، وعلماءؤه يجب عليهم أن يعملوا على إيقاظ الشعوب الإسلامية عما يراد بهم من حملات التغريب في مجتمعاتنا، بتوعية الناس بمخاطر هذا الفكر الغربي الذي لا يتناسب مع قيمنا وعاداتنا وأخلاقنا، وأنه يمكن أن نأخذ ما يتوافق مع فكرنا وديننا وعاداتنا، ونترك ما سواه . وكذلك لابد من اتخاذ خطوات تنفيذية لمواجهة التغريب في مجتمعاتنا و تحصين العقول من غزوها، وتتمثل في أمور منها على سبيل المثال :

١ (- الاهتمام بالتعليم بجميع أنواعه الديني منه والعلمي، وتدعيمه بفلسفة تربوية شاملة تنطلق من قاعدة تراثية صلبة وتفتح من العالم لأخذ كل حسن .

٢ (- تطوير الإعلام بكل أنواعه المقروء والمسموع والمرئي، والاستفادة من المخترعات كالحاسوب والشبكة المعلوماتية .

٣ (- تشجيع المراكز البحثية والجامعات بإقامة الملتقيات والندوات بصورة دورية وتبادل الأفكار سعيًا نحو بناء قاعد ثقافية صلبة .

٤ (- تحصين الشباب وتنويرهم للأخطار المحيطة بهم وأمتهم وفضح الحركات الهدامة التي تتخذ من المصلحة الوطنية ودعوى التطور وسيلة للتغلغل في المجتمع .

٥ (- المحافظة على التراث ودعم العادات والتقاليد للشعوب العربية الأصيلة .

٦ (- العمل على إحياء التراث العربي والإسلامي للتعريف بعظمة تراث هذه الأمة ومدى فضلها على العالم .

٧ (- الاعتناء بنشر أبحاث المنصفين من المستشرقين عن فضل الإسلام والنبى ﷺ والحضارة العربية والإسلامية، وهي أبحاث ومقالات كثيرة، تحتاج إلى جهد لجمعها وتكاتف مخلص .

٨ (- عمل ندوات إعلامية علمية مرئية أو حوارية لمناقشة قضايا الإلحاد، والتيارات الفكرية الغريبة والسياسية أيضا .

٩ (- العمل على نشر أبحاث تكون من إعداد أبناء الأمة وشبابها عن الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارات الأوربية والغربية في الماضي والحاضر، وتتركز في ترسيخ القيم والعلوم بين هذه وتلك .

١٠ (- عقد ندوات دعوية علمية في المدارس والمعاهد والجامعات لمواجهة التغريب وظواهره و مقاومته، ووضع منهجية لأداء هذا العمل تقوم على تخطيط صحيح يؤتي ثماره في وقت قريب، و إعداد كتيبات ومطويات تعريفية ودعوية لتأصيل قيمنا وعاداتنا وأخلاقنا الحضارية الأصيلة .

القيم السياسية

﴿ قيمة المواطنة ﴾

مفهوم المواطنة : ((المواطنة)): هي الدور الإيجابي للفرد بصفته مواطناً، وأكد الفيلسوف روسو على مفهوم المواطنة معلناً أنه يعتمد على دعامتين أساسيتين : المشاركة الإيجابية من جانب الفرد في عملية الحكم والمساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد كلهم . (١)

((المواطنة)) : هي صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه إلى الوطن، فالمواطنة هي الشعور بالانتماء والولاء للوطن . ومن أخطر التحديات التي تواجه بناء المجتمع الداخلي وتؤثر في وحدته الوطنية الطائفية والقبلية والمذهبية ويجب على المواطن أياً كان انتماءه الطائفي أن يكون ولاؤه للوطن لا للقبلية أو الحزب أو الطائفية أو التكتل الذي ينتمي له، لأنهم زائلون لا محالة والوطن باق على مدى الدهر. و((المواطنة)) تعني : الروابط القانونية والسياسية التي تجمع المواطن بوطنه . (٢)

وانعكس سياق التطور التاريخي لهذا المفهوم على تعريفاته المختلفة، فانتقل من الإشارة إلى نسبة الانتماء التاريخي والثقافي والحضاري إلى بلد معين والشعور بالتعلق به أكثر من غيره؛ إلى تضمن أبعاد جديدة تتضمن الحقوق والواجبات والمبادرات والمسؤوليات تجاه النفس وتجاه الجماعة التي ينتمي إليها، وهذه الحقوق والواجبات لا تمارس إلا في مجتمع عادل وديمقراطي يحرص على المساواة وتكافؤ الفرص، وتحمل أعباء التضحية من أجل ترسيخ هذه المبادئ وحمايتها وفتح آفاق ممارستها برؤية تتطلع إلى المستقبل بفعالية . (٣)

وعرفت المواطنة بأنها: علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق، والمواطنة تدل ضمناً على مرتبة من الحرية مع ما يصاحبها من مسؤوليات، وهي على وجه العموم تسبغ على المواطنة حقوقاً سياسية. (٤)

^١ - ((الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية)) للدكتور إسماعيل عبد الفتاح كافي ص (٤٣٧) .

^٢ - المصدر ((موقع الجمعية الكويتية للعمل الوطني)) :

<http://kwsfna.com/%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%A7%D8%B7%D9%86%D8%A9/>
9/

^٣ - مقال ((المواطنة في الكويت: مكوناتها وتحدياتها)) . لفارس الوقيان، وأيضاً مقال ((المواطنة إستراتيجية للوقاية من الفساد

المالي والإداري)) لخضري حمزة، مجلة ((علوم انسانية)) ، السنة السابعة، العدد 45، ربيع 2010. ص (4) .

^{٢٨} - ((المقاربات القانونية لمبدأ المواطنة في المنظومة التشريعية الأردنية ودلالات الممارسات السياسية)) للأستاذ عيد الحسينان .

وتعرف بأنها الارتباط الاجتماعي والقانوني بين الأفراد، الذي يلتزم بموجبه الفرد اجتماعيا وقانونيا بالجمع بين الفردية والديمقراطية، ويكون الفرد مواطناً إذا ما التزم باحترام القانون واتباع القواعد ودفع الضرائب والحفاظة على أموال الدولة وأداء الخدمة العسكرية والإسهام في نهضة المجتمع المحلي وتحسين نوعية الحياة السياسية والمدنية للدولة . (١)

﴿ أهمية الولاء للوطن ﴾

يتفق معظم علماء الاجتماع السياسي والتربية على أن هدف التربية هو تحقيق المواطنة. (٢) ولذلك يقصد بالتربية على المواطنة : عملية التنشئة الاجتماعية التي تستهدف بناء الفرد المتكامل والمتوازن في جوانب شخصيته فكريا وروحيا واجتماعيا وإنسانيا، والوعي لحقوقه والملتزم بواجباته، والمؤمن بحقوق الإنسان ومبادئ العدالة والمساواة للناس كافة، والقادر على الإنتاج والتنمية والمبادرة المبدعة، والمعتز بانتمائه إلى وطنه، والمتحلي بالروح العلمية والموضوعية والسلوك الديمقراطي، والمتسم بالوسطية والتسامح والاعتدال.

أي أن التربية على المواطنة هي تربية على ثقافة أداء الواجبات قبل أخذ الحقوق، وتربية على حقوق الإنسان والديمقراطية عبر منهجية شاملة تربط بين المعرفة والوجدان والأداء. بالإضافة إلى أنها تربية على ثقافة التسامح والحوار والسلام والمبادرة، كما أنها تربية على الأسلوب العلمي، و التفكير النقدي في المناقشة والبحث عن الوقائع والأدلة وتحمل المسؤولية تجاه حقوق الأفراد و الجماعات بما يؤدي إلى تماسك المجتمع ووحدته. علماً بأن التربية على المواطنة تتمثل في ثلاثة أبعاد هي: البعد المعرفي والبعد الوجداني والبعد الأدائي أو السلوكي. (٣)

وفي هذا الإطار يرى علماء الاجتماع والتربية أن للتعليم في المدرسة عدة وظائف أساسية من أهمها: نقل الثقافة والمعرفة والمعلومات في المجتمع، واكتساب القيم والميول والاتجاهات، ومن ثم تنمية قيم المواطنة وسلوكياتها. وهنا تؤدي المناهج المدرسية دوراً هاماً في بناء المواطنة لدى الطلبة بشكل خاص، وهذا يتطلب أن تقدم المناهج تصوراً واضحاً لمفهوم المواطنة وتساعد الطلبة على القيام بأدوارهم المستقبلية.

٢٩ - Patrick John, The Concept of Citizenship in Education for Democracy (٢٠٠٩)، (ERIC Digest- ED432532-www.eric.ed.gov).- 1999,p.2-3.

٢ - ((دور كليات التربية في تنمية قيم المواطنة لدى الطلبة المعلمين بمحافظات غزة)) للأستاذ بسام محمد أبو حشيش ، مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية) المجلد الرابع عشر، العدد الأول، يناير ٢٠١٠، ص (258-260) .

٣ - محمود السيد، ((من قضايا التربية على المواطنة)) للأستاذ محمود السيد مؤسسة الفكر العربي - 2010، نقلاً عن الرابط الإلكتروني: <http://www.arabthought.org/content/> من-قضايا-التربية-على-المواطنة-محمود-السيد

﴿ المواطنة في الإسلام ﴾

منذ عقود عديدة والعالم كله يسعى بدوله ومؤسساته ومنظماته إلى تحديد الأسس والقواعد التي تنظم حقوق الأفراد وواجباتهم، وترسم حدود العلاقات البينية بين الأفراد من جهة، وبينهم وبين الدولة ومؤسساتها وهيئاتها من جهة أخرى، وهو ما يمكن تسميته بالحق في المواطنة، وهو مفهوم حديث ارتبط بوجود الدولة الحديثة، وكان مصدر فخر للعالم الحديث منذ اكتشافه وتحديدده، كأحد أهم إنجازات الحضارة الحديثة، وطبقاً لهذه الحضارة فمفهوم: ((حق المواطنة))، يقوم علي أساس المساواة في الحقوق والواجبات، دون النظر إلى الانتماء الديني أو العرقي أو المذهبي أو أي اعتبارات أخرى، فالاعتبار الوحيد هنا هو الإنسانية والمواطنة .

ولقد عرف الإسلام هذا الحق ورسخه منذ أربعة عشر قرناً، وسبق به كل الأمم في العصر الحديث، ودليل هذا عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وجد فيها عقائد مختلفة وقبائل شتى، تشكلت بعد استقراره إلى فئات ثلاث في ذلك المجتمع الجديد، هم: المسلمون، واليهود، و العرب المشركون .

ويتألف المسلمون من المهاجرين والأنصار الذين يتألفون بدورهم من قبيلتي الأوس والخزرج، وهو ما يمثل نسيجاً غريباً ومخالفاً لتقاليد العرب وأعراقهم في ذلك الوقت في الجزيرة العربية . وفي ظل ذلك التنوع أراد رسول الله ﷺ أن يؤسس دولة قوية يسودها السلام والتعاون و المشاركة بين جميع أطرافها علي مختلف مشاربهم، ومن هنا جاءت وثيقة المدينة كأول دستور للدولة المدنية في العالم، يحدد ملامح دولة الإسلام الجديدة، ولا يفرق بين مواطنيها من حيث الدين أو العرق أو الجنس، فأكد : أن أطراف الوثيقة عليهم النصر والعون والنصح والتناصح والبر من دون الإثم . وحرصت الوثيقة علي أن يكون الدفاع عن حدود هذه الدولة مسؤولية الجميع، مؤكدة روح المساواة والعدل والتعاون والتعايش السلمي بين أطرافها .

وها هو نص الوثيقة الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون

معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مؤلى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط (٣) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (٤) إلا نفسه وأهل بيته، وإن لليهود بني النجار

١ - مديونا .

٢ - عطية .

٣ - قتله بدون جناية .

٤ - يهلك .

مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بن عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وإن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على نار جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قریش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يشرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم في جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليتهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جبار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ . (١)

ومن أبرز أسس هذه الوثيقة: العدالة، وتمثلت في توافق الحقوق والواجبات وتناسقها، إذ تضمنت حقوق الأفراد جميعاً في ممارسة الشعائر الدينية الخاصة، وحقوقهم في الأمن والحرية وصون أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودور عبادتهم .

وقد قامت وثيقة النبي ﷺ بين أهل المدينة علي أربعة محاور:

الأول : الأمن الجماعي والتعايش السلمي بين جميع مواطني دولة المدينة، حيث قال ﷺ أنه : ((من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جبار لمن بر واتقى)) .
كما حفظ حق الجار في الأمن والحفاظ عليه كالحفاظة علي النفس، حيث قال: ((وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم)) .

^١ - ((السيرة النبوية)) لابن هشام (٣ / ٣١ - ٣٥) .

والمحور الثاني : ضمان حرية الاعتقاد والتعبد، فقرر: ((لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَاتَّمَّ فَإِنَّهُ لَا يُوتَغُ-أي يهلك- إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ)) .

المحور الثالث : ضمان المساواة التامة لمواطني دولة المدينة في المشاركة الفاعلة في مجالات الحياة المختلفة، تحقيقاً لمبدأ المواطنة الكاملة، والذي لم يكن جلياً حينئذٍ، إلا أن دستور المدينة الذي وضعه المصطفى ﷺ ضمن هذا الحق لكل ساكنيها، في وقت لم يكن العالم يعي معنى كلمة الوطن بالتزاماته وواجباته .

المحور الرابع : إقرار مبدأ المسؤولية الفردية، وأصل هذه المسؤولية الإعلان عن النظام، وأخذ الموافقة عليه، وهو ما أكدته الوثيقة: ((أنه لا يكسب كاسب إلا علي نفسه، وأن الله علي أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يَأْتُم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم .

وتعتبر صحيفة المدينة أول دستور ينظم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، حيث اعتمد رسول الله ﷺ في الوثيقة مبدأ المواطنة، فوضعت فيها الحقوق والواجبات علي أساس المواطنة الكاملة التي يتساوي فيها المسلمون مع غيرهم من ساكني المدينة المنورة ومن حولها.

وكان اليهود من هذه الفئات التي تسكن المدينة؛ ولذا فقد ذكرهم الرسول ﷺ في أكثر من بند من هذه الوثيقة، حيث أكد في الوثيقة أن اليهود من مواطني الدولة الإسلامية، وعنصراً من عناصرها؛ فقال في الصحيفة: ((وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم)) . وكذلك قال: ((وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين)) .

وفي هذا الدستور الحقوقي الأول من نوعه في التاريخ نري أن الإسلام قد عد الآخرين من أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة .

وإن هذه الوثيقة أول دستور مكتوب في التاريخ يعترف بحقوق المواطنة لجميع سكان الدولة باعتبارهم جميعاً شركاء في نظام سياسي واحد يضمن لهم حقوقاً متساوية، ويستظلون بحماية الدولة، مقابل أدائهم واجباتهم في الدفاع عنها، لذا فقد وقع علي هذه الوثيقة سكان المدينة كلهم، ورضوا بها دستوراً حاكماً بينهم، لما وجدوه بها من عدل ومساواة .

ولقد شكلت وثيقة المدينة، أو دستور المدينة بمصطلحاتنا الحالية، ثورة في علاقة الأفراد بالمجتمع، وما تفرضه تلك العلاقة من التزامات وواجبات، فسبقت المدينة غيرها من مناطق العالم ومدنه في تحقيق دولة مدنية قوية، تضمن حقوق المواطنة، وتنمي شعور الهوية والانتماء لدي أفرادها، وتنير العالم بنظامها المدني الحديث، ودعوتها الدينية السامية، فكانت بحق أنموذجاً لدولة القيم والأخلاق والدستور والمواطنة. وإذا كانت تلك الوثيقة تدعو لهذه القيم الرفيعة مع أهل الكتاب من اليهود،

الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَلْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [سورة المائدة آية: ٨٢] فكيف الظن بمن أوصانا الله تعالى بهم في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرَهْبَانًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة المائدة آية: ٨٢] (١)

﴿ حب الوطن من الإيمان ﴾

لقد جبل الإنسان بفطرته على حب الوطن والشعور بالانتماء إليه، ويشترك في هذا جميع الناس على تنوع أعراقهم واختلاف مشاربهم، وعندما جاء الإسلام دين الفطرة والإنسانية لم يقف في وجه هذا الميل الطبيعي بل أقر ذلك ودعا إليه، وجعله سبيلا للعمل الصالح وفعل الخيرات وزيادة التماسك بين أبناء الوطن الواحد، وضرب لنا رسول الله ﷺ أعظم الأمثلة في بيان ذلك حين خرج من مكة مهاجرا فالتفت إليها وأعرب عن شعوره الجياش نحوها، فقال: ((مَا أَطْيَبَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّ إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ)) . (٢)

لقد كانت تلك الكلمات المفعمة بالانتماء تعبيرا صادقا عن حبه ﷺ لوطنه الذي نشأ فيه، و ترعرع في أكنافه، وعرف كل جنباته وأمضى فيه سنوات شبابه وكهولته.

والمثل الآخر له ﷺ خاص بالمدينة المنورة حين عاد من إحدى غزواته، فعن أبي حميد قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وساق الحديث وفيه: فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال: ((هَذِهِ طَابَةٌ فَلَمَّا رَأَى أَحَدًا قَالَ هَذَا جَبِيلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)) . (٣)

إن هذه النماذج العملية المعبرة تبين كيف راعى الإسلام العاطفة الإنسانية، ومنها تعلق المرء بوطنه وحب له. شريطة ألا يكون ذلك الشعور مجرد عاطفة غامرة أو مشاعر جياشة فحسب، بل لابد أن يصاحبه إحساس بالمسؤولية وقيام بالواجبات، انطلاقا من المثل المحسوس الذي ضربه رسول الله ﷺ حين قال: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)) . (٤)

^١ - مقال : ((وثيقة المدينة. ودستور المواطنة)) بأخبار اليوم للدكتور على جمعة ١٨ / ٨ / ٢٠١٣ .

^٢ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٧٢٣ / ٥) حديث (٣٩٢٦) من حديث ابن عباس ؓ .

^٣ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((الزكاة)) باب ((خرص التمر)) حديث (١٤١١) .

^٤ - متفق عليه .

إن الوعي بالمعنى الصحيح لمفهوم المواطنة يستدعى وقوف الجميع على قدم المساواة في الحقوق والواجبات، فالنبي ﷺ قرر في وثيقة المدينة أن جميع أبناء الدولة يد واحدة على من سواهم، يدفعون التهديد والعدوان عن أرضهم، ويتعاونون فيما بينهم لتحقيق مصالحهم، وحفظ دمائهم و حقوقهم وكرامتهم، فإذا فعلوا وحرصوا عليه بكل غال ونفيس أصبح الوطن حصنا يحمي أبنائه، وغدت المواطنة حصانة للجميع .

ولو نظرنا في تاريخ الحضارة الإسلامية على مر العصور لوجدنا الأمثلة الصادقة على تحقق معنى المساواة في المواطنة بين أبناء الوطن الواحد، ولذلك كانت المساواة مطلباً إسلامياً، فيها يقوى الوطن ويتماسك المجتمع وتصان كرامة الفرد.

إن الوطن الذي نعم أبنأؤه بالأمن والطمأنينة في أكنافه، وتقبلوا بين حناياه وجوانبه، وغمت أعوادهم من خيراته وثمراته، ليحتم على كل فرد أن ينهض بواجباته تجاه وطنه، ومن أهم تلك الواجبات : الأمن والبناء، فأما الأمن في الأوطان فهو من النعم الكبرى التي منحها الله عباده وامتن عليهم بها، ومن مقررات ذلك وأمثلته ما حكاه الله تعالى عن أهم ما تميز به أهل مصر، فقال سبحانه فيما حكاه عن يوسف عليه السلام في مقام الامتنان : ﴿ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة يوسف آية: ٩٩] وعلى لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ [سورة إبراهيم آية: ٣٥] وقد حشنا رسولنا محمد ﷺ على أن نكون مصدر أمن وأمان، وسبيل طمأنينة وسلام، في كل زمان ومكان فقال : ((أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ)) . (١) بل أمر أن يكف المسلم الأذى عن الناس وأن يسلم الناس من إساءته وأذاه، فقال ﷺ : ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ آمَنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ)) . (٢) وإن تحققنا بصفات المؤمن الصادق يستوجب منا أن ندرأ الفتنة ونمنع قيامها، وأن نصد الإشاعات الكاذبة والإرجافات المغرضة، وأن نبتعد عن ترويع الآمنين وتخويف أبناء الوطن بل وغيرهم من المسلمين .

والواجب الثاني الذي يتحتم على الجميع القيام به تجاه الوطن هو واجب البناء، فبناء الوطن من مقتضيات الاستخلاف في الأرض وإعمارها، قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [سورة هود آية: ٦١] فكل منا في موقعه مستخلف ومطالب بالبناء على قدر ما حباه الله من سعة وقدرة وعلم، ويمكن القيام بذلك

^١ - أخرجه الترمذي في ((سننه)) (٤ / ٢٨٦) حديث (١٨٥٤) من حديث أبي هريرة ؓ .

^٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١ / ٤٠٦) حديث (١٨٠) .

الواجب في مجالات شتي، منها الحفاظ على الممتلكات والمرافق العامة، والحرص على خيرات الوطن وثرواته ومكتسباته، ومنها أيضا الحفاظ على البيئة بكل صورها كإمالة الأذى عن الطريق، والكف عن الإسراف أو إهدار الموارد مهما قلت أو كثرت، بل يتحقق بناء الوطن في أبسط صورته في إتقان العمل النافع المفيد . إن حب الوطن لا ينبغي أن يقف عند المشاعر والعواطف، بل لابد أن يترجم إلى سلوك صالح نافع للفرد والمجتمع . (١)

ومما يدل على تعظيم الأوطان وحبها في الإسلام، وأنها من الإيمان ما روي عن تعلق قلب النبي ﷺ وأصحابه بوطنهم، وتذكرهم له بالحنين إليه ولأيامه وذكرياتهم فيه، ومن هذا مثلا أن الأزرقى يفرد بابا في كتابه ((أخبار مكة)) تحت عنوان : ((تذكر النبي وأصحابه مكة)) ثم يورد أحاديث تدل على حب النبي ﷺ وأصحابه لوطنهم وتعلق قلوبهم به، نوردها لكن بحذف ذكر أسانيدها اختصارا :

(١) - عن ابن أبي نجيح قال: قالت عائشة رضي الله عنها : لولا الهجرة لسكنت مكة إني لم أر السماء بمكان قط أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة .

(٢) _ عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي ﷺ قال : ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة وأشدّ وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماها فاجعلها بالجنة)) . حين رأي شكوى أصحابه من وباء المدينة .

(٣) - عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما قدم النبي المدينة وعك أبو بكر ﷺ وبلال ﷺ فكان أبو بكر ﷺ إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله
وكان بلال إذا أفلح عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمّية بن خلف كما أخرجونا من مكة .

(٤) - وعن طلحة بن عمرو يقول: قال ابن أم مكتوم ﷺ وهو آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ وهو يطوف :

حبذا مكة من وادي بها أرضي وعوادي

^١ (- مقال : ((مسئولية المسلم نحو وطنه)) . للدكتور على جمعة الأهرام ١٨ / ٩ / ٢٠١١)

بها ترسخ أوتادي بها أمشي بلا هادي

قال داود : ولا أدري يطوف بالبيت أو بين الصفا والمروة .

(٥) - عن ابن عمر بن عدي بن أبي الحمراء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو في الحزورة : ((والله إنك خير أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)) .

(٦) - عن عبد الرحمن بن سابط رضي الله عنه قال: لما أراد النبي ﷺ أن ينطلق إلى المدينة واستلم الحجر وقام وسط المسجد التفت إلى البيت فقال : ((إني لأعلم ما وضع الله ﷻ في الأرض بيتا أحب إلينا منك، وما في الأرض بلد أحب إلي منك وما خرجت عنك رغبة ولكن الذين كفروا هم أخرجوني)) . ثم نادى: ((يا بني عبد مناف لا يحل لعبد منع عبد صلى في هذا المسجد أية ساعة شاء من ليلة أو نهار)) .

(٧) - عن ابن شهاب قال: قدم أصيل الغفاري رضي الله عنه قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبي ﷺ فدخل على عائشة رضي الله عنها فقالت له: يا أصيل كيف عهديت مكة ؟ قال: عهديت قد أخصب جنابها وابيضت بطحاؤها . قالت : أقم حتى يأتيك النبي ﷺ . فلم يلبث أن دخل النبي ﷺ فقال له : ((يا أصيل كيف عهديت مكة ؟)) . قال: والله عهديت قد أخصب جنابها وابيضت بطحاؤها وأعدق إذخرها وأسلت ثمامها وأمش سلمها . فقال : ((حسبك يا أصيل لا تخزنا)) .

(٨) - عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : لما أخرج من مكة : ((أما والله إنني لأخرج منك وإنني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله وأكرمها على الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت يا بني عبد مناف إن كنتم ولاية هذا الأمر بعدي فلا تمنعن طائفا يطوف ببيت الله ﷻ أي ساعة شاء من ليل أو نهار ولولا أن تطغي قريش لأخبرتها بما لها عند الله ﷻ اللهم أذقت أولها وبالا فأذق آخرها نوالا)) .

(٩) - عن أبي سلمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف عام الفتح على الحجون ثم قال: ((والله إنك لخير أرض الله وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولو لم أخرج منك ما خرجت إنها لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد كائن بعدي وما أحلت لي إلا ساعة من نهار ثم هي من ساعتها هذه حرام لا يعصده شجرها ولا يحتش خلاها ولا تلتقط ضالتها إلا لمنشد)) . فقال رجل يقال له أبو شاة: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقبورنا وليبوتنا . فقال رسول الله ﷺ : ((إلا الإذخر)) . (١)

^١ - ((أخبار مكة)) للأزرقي (٢ / ١٥٥ - ١٥٦) .

ومن صور حب الوطن في الإسلام وتعلق القلب به، ما نراه من أحوال العلماء الأكابر عليهم السلام فكثير منهم يكتب كتباً ويسميها باسم وطنه، مما يدل على ولائهم لأوطانهم وتعظيمهم وحبهم لها ومن هؤلاء على سبيل الذكر :

- ١ - الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي له كتاب : ((تاريخ بغداد)) .
- ٢ - أبو القاسم حمزة بن يوسف ، له كتاب : ((تاريخ جرجان)) .
- ٣ - الحافظ ابن عساكر له كتاب : ((تاريخ مدينة دمشق)) .
- ٤ - الواسطي أسلم بن سهل الرزاز له كتاب : ((تاريخ واسط)) .
- ٥ - الأزرق أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد له كتاب : ((أخبار مكة)) .
- ٦ - أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن مهران الأصبهاني، له كتاب : ((تاريخ أصفهان)) .
- ٧ - الفاكهي أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس، له كتاب : ((أخبار مكة)) .
- ٨ - ابن طيفور أبو الفضل أحمد بن طاهر ، له كتاب : ((كتاب بغداد)) .
- ٩ - الرافعي له كتاب : ((التدوين في أخبار قروين)) .

وحب الوطن يعني: الحفاظ على الحق العام، وقد بين النبي ﷺ أن الناس شركاء في أمورٍ، لا يجوز لأحد الاستئثار بها، أو الاعتداء عليها، ومنها على سبيل الذكر :

عن أبي خديشٍ عن رجلٍ من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ قال: غزوتُ مع النبي ﷺ ثَلَاثًا أَسْمَعُهُ يَقُولُ : ((الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ فِي الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ)) . (١) وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : ((عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمِّي بِأَعْمَالِهَا حَسَنَةً وَسَيِّئَةً فَرَأَيْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا إِمَاطَةَ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَرَأَيْتُ فِي سَيِّئِ أَعْمَالِهَا النَّخَاعَةَ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ)) . (٢)

وحب الوطن في الإسلام هو محبة الفرد لوطنه وبلده، وتقوية الرابطة بين أبناء الوطن الواحد، وقيامه بحقوق وطنه المشروعة في الإسلام ووفائه بها. وحب الوطن في الإسلام لا يعني العصبية، التي يُراد بها تقسيم الأمة إلى طوائف متناحرة متباغضة متنافرة، يكيّد بعضها لبعض، ويتهم بعضها بعضاً، ويحذرنا النبي ﷺ من التقليد الأعمى والعصبية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي

^١ - أخرجه أبو داود في ((سننه)) (٣ / ٢٧٨) حديث (٣٤٧٧)

^٢ - أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (٥ / ١٧٨) حديث (٢١٥٩٠) .

يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي بِذِي عَهْدِهَا فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يُقَاتِلُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ فَقَتْلُهُ قِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)) . (١)

وحب الوطن في الإسلام: لا يعني اتباع القوم أنى ساروا، ونصرهم على كل حال؛ بل يعني العدل والإنصاف، بما يحقق صالح الوطن واستقراره وأمنه وسلمه . عن عباد بن كثير الشامي عن امرأة منهم يُقال لها: فُسَيْلَةُ قالت : سمعت أبي يقول: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ ؟ . قال : ((لَا وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُعِينَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ)) . (٢)

وحب الوطن في الإسلام لا يعني الانفصال عن جسد الأمة الإسلامية، أو نسيان مبدأ الإنسانية، فلا ننصر مظلوماً، ولا نغيث ملهوفاً، ولا نعين مكروباً، ما دام أنه ليس في حدود الوطن، والنبي ﷺ يقول: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)) . (٣)

وإن حدود الوطن في الإسلام التي تلزم التضحية في سبيل حريته وخيره، لا تقتصر على حدود قطعة الأرض التي يولد عليها المرء؛ بل إن الوطن يشمل القطر الخاص أولاً، ثم يمتد إلى الأقطار الإسلامية الأخرى .

﴿ دور الأزهر في ترسيخ قيمة المواطنة ﴾

لقد رسخ الأزهر الشريف قيمة المواطنة في المجتمعات والشعوب العربية والإسلامية عامة، وفي المجتمع المصري خاصة، وذلك بما علمه ودعا إليه من أن المواطنة حق لجميع من يعيش بمصر، وأنها وطن للجميع، المسلم وغير المسلم، تحقيقاً لمبادئ الإسلام السمحة، وقيمه السامية الكريمة، واتباعاً لسنة النبي ﷺ في معاملته مع غير المسلمين، ووضعه لأول دستور عرفه العالم والتاريخ البشري، وهي وثيقة المدينة التي سبق ذكرها، وما كفلته من حقوق المواطنة للجميع والحرية و العدالة للجميع، وقد ضرب علماء الأزهر المثل الراقي في تطبيق هذه المبادئ في الواقع العملي، و الذي تمثل في عدة نماذج منها :

^١ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٠ / ٤٤١) حديث (٤٥٨٠) .

^٢ - أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢ / ١٣٠٢) حديث (٣٩٤٩) .

^٣ - متفق عليه .

(١) - **حبهم لوطنهم** : الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر رحمه الله : كان الشيخ مولعا بحب مصر لدرجة جعلته يتغنى باسمها، ولا يترك مجالا إلا وذكر فيه شيئا عن مصر، وكان لا يتحمل الغياب عنها، فإذا اضطرت الظروف إلى البعد ظل الحنين يجذبه إلى أن يعود، وكتب ذلك قائلا :

أعد ذكر مصر إن قلبي مولع بمصر ومن لي أن ترى مقلتي مصرا
وكرر على سمعي أحاديث نيلها فقد ردت الأمواج سائلها نهرا
بلاد بها مد السماح جناحه وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
لقد كان لي فيها معاهد لذة تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى . (١)

(٢) - **مشاركتهم لغير المسلمين فيما يخص المجتمع** : وذلك بنظرتهم لهم أنهم شركاء لهم في هذا الوطن، وليسوا بأقليات أو غرباء عنه، ويتجلى هذا في الموقف الذي سبق ذكره والذي نقله إلينا الجبرتي في أحداث سنة ١٢٢٣ هـ : من نقصان النيل وانتظار الناس وفاءه فلم يف، فانزعجوا انزعاجا شديدا، وأمر علماء الأزهر الناس بصلاة الاستسقاء، وأقيمت صلاة الاستسقاء، وزاد النيل زيادة قليلة ثم نقص، فاتفق العلماء على التوجه مع الناس إلى جامع عمرو بن العاص ﷺ لصلاة الاستسقاء مرة أخرى، وأشاروا بخروج النصارى من أهل مصر معهم، فاشتركوا وجاء المعلم غالي كبيرهم ومعه كثير منهم فجلسوا في ناحية المسجد، حتى أتم المصلون صلاتهم ودعاهم ولم تمض ليلة واحدة حتى أوفي النيل وزاد ماؤه حتى غطى على المقياس، وبعد ذلك بيوم واحد نودي في الناس بوفاء النيل، وأطلقت المدافع وأقيم الاحتفال المعتاد، ويقول الجبرتي : إن بعض الأقباط فرح فرحا شديدا بذلك، وكان يقول : إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجهم للصلاة . (٢)

(٣) - **دفاعهم عن حقوق غير مسلمين** : من دافع ما تربوا عليه من سماحة الإسلام وعدله وإنصافه، لقد أقام علماء الأزهر الشريف أروع الأمثلة في التعامل مع نصارى مصر حيث تعايشوا معهم بالبر والرحمة والإنصاف، وأنهم أهل بلد وشركاء في الوطن، فتربى المصري على التعامل مع أخيه المصري دون تفرقة بسبب الدين، وكان هذا معلما بارزا من معالم الشخصية المصرية أوجده وكونه وشكله الأزهر الشريف بعلمائه ورجاله وفكره وفقهه للدين .

ومن الأدلة على هذا : قد حدث أن بطريرك الأقباط بطرس السادس، كان شديدا على شعبه في مراعاة الأمور الدينية، صلبا في منعهم مما ينهى عنه الدين، وخاصة في الزواج والطلاق، ووقع بين البطريرك وبين كبير الأمراء في ذلك الوقت ابن إيواظ نزاع شديد على أمر من أمور

^١ - ((شيوخ الأزهر)) لأشرف فوزي صالح (١ / ٣٦ - ٣٧) .

^٢ - تنظر روايته بالتفصيل في ((عجائب الآثار)) (٣ / ٢٣٩ - ٢٤٠) .

المسيحيين في مصر بسبب تشدد البطريك وصلابته، وناصر ابن إيواظ كثير من أهل الرأي والمكانة، وعرض النزاع على العلماء فأفتوا بحق بطرس السادس فيما يطلب، ونصروه على ابن إيواظ . (١)

(٤) - دفاعهم عن حق المواطنة لهم : وأنهم أصحاب حقوق في وطنهم، ولهم الحرية في التملك وجميع أنواع التصرفات ما لم تخالف قانونا أو عادة أو أخلاقا وتضر بالمجتمع، فكفلوا لهم حق المواطنة والشراكة فيه، والعدل والمساواة، وكل ما يجب للمسلم من حقوق اجتماعية وسياسية، يجب لهم، ووقفوا أما استبداد الحكام ممن أراد أذيتهم، ودليل هذا موقف الشيخ الباجوري رحمه الله الذي تكرر ذكره سابقا : فقد سجل التاريخ أن حاكم مصر الوالي عباس الأول كان شديد النقمة على النصارى، وأخرج معظمهم من خدمة الحكومة، وأصابهم بألوان من الأذى والاضطهاد، وقد خطر له أن يخرجهم من مصر ويبعدهم إلى السودان، وعندما أراد استصدار فتوى من الأزهر بجواز ذلك استدعى الشيخ الباجوري شيخ الجامع الأزهر يومئذ وسأله في ذلك، وكان رد الشيخ الباجوري هو رفض رغبة الوالي قائلا : إنه إذا كان الذميون هم من أهل البلاد، فالحمد لله لم يطرأ على ملة الإسلام طارئ ولم يستول عليها خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر . (٢)

(٥) - مشاركتهم في مناسباتهم وإظهار سماحة الإسلام في التعامل معهم : قد انتهز الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ حسن مأمون فرصة عيد ميلاد المسيح ﷺ فوجه رسالة إلى المسيحيين في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٦٨ م قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله سبحانه وأصلي وأسلم على رسوله المصطفى وعلى من سبقه من الأنبياء والمرسلين .

وفي ذكرى ميلاد المسيح ﷺ أحيي إخواننا المسيحيين متمنيا في هذه المناسبة الطيبة التي يحتفل فيها العالم كله بميلاد رسول السلام عيسى ﷺ، أن تتجه كلها إلى تلك الأرض المقدسة التي ولد فيها المسيح، ليروا كيف اعتدى فيها على السلام، وكيف شردت الفئة الباغية المعتدية من اليهود الصهيونيين، أهل بلد المسيح ﷺ وانتزعت أرضهم، وما زالت تمارس أساليب الغدر والعدوان بمعاونة دول تعتنق دين المسيح، وتشجع على الظلم، والمسيح من الظلم براء، أيها

١ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) ص (٣٧) .

٢ - مقال : ((موقف أزهرى كيف قام الأزهر بتأمين أهل الكتاب بمصر)) بقلم الأستاذ / محمد السيد الصياد الأزهرى .

الإخوة المسيحيون يا من قال الله تعالى في أسلافكم : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيِّينَ ۚ وَرَهَبَانًا ۚ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة المائدة آية: ٨٢ - ٨٦]

تعالوا إلى كلمة سواء ... أيديكم في أيدي إخوانكم المسلمين لمحقيق الظلم، ودفع العدوان حتى يظهر الله أرضنا وأرض المسيح، من رجس الصهيونية أعداء الله وأعداء الحياة، ويومئذ نفرح وتفرحون وتعم المسلمين والمسيحيين على السواء أعياد الظفر والنصر المين، وكل عام وأنتم بخير . (١)

﴿ دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة المواطنة ﴾

لابد للأزهر الشريف أن يقوم بدوره في ترسيخ قيمة المواطنة، والتصالح الاجتماعي والسياسي ببدء الفتنة الطائفية التي يحاول المغرضون والعملاء أن يثيروها ما بين الحين والآخر، وكذلك الصلح السياسي بين الطوائف السياسية والأحزاب والفتنات، ويقرر عند الجميع قيمة المواطنة وأن الوطن لجميع من يعيش فيه، وأنه لابد من محاسبة كل من يهدد استقراره وأمانه، ولابد من موقف موحد يجمع عليه الأزهر وعلماءه ويجمعون عليه كل الأطياف السياسية والاجتماعية على ما يقدم لهذا الوطن الأمن والاستقرار .

كما نأمل في الأزهر أن يكتف نشاطه العلمي من وضع المناهج التي تهتم بترسيخ قيمة حب الوطن، بما يتناسب مع جميع مراحل التعليم، وكذلك في الأنشطة الدعوية، لتعريف الناس أن حب الوطن إيمان، وأن الدفاع عنه وحمانيته مقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية، وذكر الأدلة من حياة رسول الله ﷺ والسلف الصالح ، لدحض شبه الجهلة والمغرضين . واتخاذ كل السبل و

^١ - ((شيوخ الأزهر)) (٤ / ٨٤) .

الوسائل لتحقيق هذا الهدف السامي، والمشاركة في الحياة السياسية لئلا يرسخ فيها حب الوطن و الإخلاص له والعمل على التعايش السلمي والاستقرار والأمن الاجتماعي .

﴿ قيمة الشورى ﴾

مفهوم الشورى: تعريفها اللغوي : المشورة الشورى وكذا المشورة بضم الشين تقول : شاوره في الأمر واستشاره. (١) و((الشورى)) : اسم من المشاورة، وتشاور : أي استخرج ما عنده من رأي .

وتعريفها الاصطلاحي : تعريفات السلف للشورى، تكاد تكون متوافقة وإن اختلفت تعبيراتهم فقد عرفها الأصفهاني بأنها : استخراج الرأي لمراجعة البعض للبعض . (٢) وعرفها ابن العربي بأنها هي : الاجتماع على الرأي؛ ليستشير كل واحد صاحبه ويستخرج ما عنده . (٣) فعلى هذا يكون مفهومها : النظر في الأمور من أرباب الاختصاص والتخصص ؛ لاستجلاء المصلحة وإقرارها . وهذا التعريف يدخل في كل أمر تجري بشأنه مشاورة سواء على مستوى الفرد أو المجتمع كله، وما يختص بهم من شئون داخلية أو خارجية .

والشريعة الإسلامية تقرر نظام الشورى؛ بحيث تكون ممثلة لإرادة الشعب لأن الشعوب هي مصدر سلطة الحكومة، مع عدم نسيان أن مصدر السلطة المُشرَّعة هو الله ﷻ فالشورى نظام اجتماعي قبل أن يكون نظاماً للحكم، والشورى سنة من سنن الله في أرضه ارتضاه الخالق لخلقه، وهي صفة فطريةٌ يميل لها الأخيار من بنى البشر، ويرفضها المستبدون والدكتاتوريون من الحكام، وذوي السلطة والنفوذ الذين يريدون التسلط على رقاب الشعوب ومصادرة حقوقهم .

١ - (((مختار الصحاح)) ص (١٤٧) .

٢ - (((المفردات في غريب القرآن)) ص (٢٧٠) .

٣ - (((أحكام القرآن)) لابن العربي (١ / ٣٨٩) .

والشورى التي أراد الله من عباده أن يمارسونها ويتحلّوا بها، وأن تكون الأساس بين الحاكم والمحكوم في كل ما يمس دينهم ودنياهم، وهي مبدأ جوهرى وقاعدة أساسية في الحكم الإسلامى، يكون للأمة حق من خلالها في اختيار حاكمها، ومن ثم مراقبته ومحاسبته، وإذا لزم الأمر عزله.

وهي فوق ذلك كله أصل من أصول الدين، ذكره الله تعالى كنظام من نظم دينه، وقد سمى الله تعالى بها سورة من سور كتابه الكريم، ألا وهي سورة ((الشورى)) . وسميت بسورة الشورى تنويها بمكانة الشورى في الإسلام، وتعلّما للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل، منهج الشورى، لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع، كما قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة الشورى آية: ٣٨] (١) مدح لكل من آمن بالله وقبل شرعه، ومدح الله تعالى القوم الذين أمرهم شورى بينهم، لأن في ذلك اجتماع الكلمة والتحاب واتصال الأيدي والتعاقد على الخير، وفي الحديث ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأحسن ما بحضرتهم . (٢)

وقد جاء النصُّ على الشورى بصيغة الأمر للنبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٥٩] قال النسفي : أي في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحى تطيبا لنفوسهم وترويحاً لقلوبهم و رفعا لأقذارهم، أو لتقتدي بك أمتك فيها، وفي الحديث : ((ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم)) . (٣)

وتحدث القرآن عن مملكة سبأ، ونظام الحكم فيها، الذي على الرغم من كونه ملكياً، متوجاً عليه امرأة، إلا أنه كان قائماً على الشورى؛ والتقدير لقيمة الرأي والرأي الآخر، قال الله تعالى

^١ - (صفوة التفاسير)) (٣ / ١٣٢) .

^٢ - (تفسير النعالي)) (٤ / ١١٤) .

^٣ - (تفسير النسفي)) (١ / ١٨٨) .

حاكيا عما حدث بينها وبين قومها : ﴿ قَالَتْ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [٢٩ - ٣٥] إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ۖ وَإِنَّهُ لَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ قَالَتْ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ قَالُوا ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَّبَتْكَ بِفَعْلَوْنَ ﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [سورة النمل آية: ٢٩ - ٣٥]

بل وإننا نجد في القرآن الشورى بين الجبابرة المتكبرين، لكن شورا هم عن كبر وهوى وعناد الله ورسله، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه فقال تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٠٩ - ١١٢]

﴿ الشورى في الإسلام ﴾

لقد قررَ الإسلام مبدأ الشورى كي يعطي كل فرد عاقل رشيد الحق في أن يشترك في إدارة الدولة وشئون الأمة، ويلاحظ أعمال السلطة التنفيذية عن طريق الاستفتاء العام، فالإسلام قد عرف هذا المفهوم تطبيقاً وعملاً منذ وجد .

وقد كانت الشورى بين النبي ﷺ وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب وكذا بين الصحابة بعده عليه الصلاة والسلام وكانت بينهم أيضاً في الأحكام، كقتال أهل الردة وميراث الجد و عدد حد الخمر وغير ذلك، والمراد بالأحكام ما لم يكن لهم فيه نص شرعي وإلا فالشورى لا معنى لها، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله ﷻ إلى آراء الرجال والله سبحانه هو الحكيم الخبير ويؤيد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء ؟ قال: ((أجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد)) . وينبغي أن يكون المستشار عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً، فقد أخرج الخطيب أيضاً عن أبي هريرة ؓ مرفوعاً : ((استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا)) . والشورى على الوجه الذي ذكرناه من جملة أسباب صلاح الأرض، ففي

الحديث : ((إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها)) . وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان إفساد للدين والدنيا أكثر من صلاحها . (١)

وتأكيداً لهذا المبدأ أمر الله ﷺ رسول الله ﷺ بأن يشاور المسلمين في أمورهم، وألا يبرم أمورا دونهم ، فقال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٥٩] وجعله أصلا عظيما تؤسس عليه الأمة فقال ﷺ :

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة الشورى آية: ٣٨] وجاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ حول قيمة الشورى كثيرة، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر :

- (١) - عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ)) . قالوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قال : ((لِلَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَامَّتِهِمْ وَأَنْمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)) . (٢)
- (٢) - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ . (٣)

ولم يكتفِ ﷺ بالتنبيه على فضل الشورى بل طبقها عمليا في حياته ﷺ ومما ورد في هذا :

- ١ - عن أنس رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخَيِّضَهَا الْبَحْرَ لَأَخْضَنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْعِمَادِ لَفَعَلْنَا . قَالَ: فَتَدَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَأَنْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا ... الحديث . (٤)
- ٢ - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: إن رسول الله ﷺ كان يقوم إلى جذع نخلة منصوب في المسجد حتى إذا بدا له أن يتخذ المنبر، شاور ذوي الرأي من المسلمين، فرأوا أن يتخذه فاتخذه

^١ - (تفسير الألوسي) (٤٦ / ٢٥) .

^٢ - أخرجه أبو داود في (سننه) (٤ / ٢٨٦) حديث (٤٩٤٤) .

^٣ - أخرجه الإمام أحمد في (مسنده) (٤ / ٣٢٨) حديث (١٨٩٤٨) .

^٤ - أخرجه مسلم في (صحيحه) في كتاب (الجهاد والسير) باب (غزوة بدر) حديث (١٧٧٩) .

رسول الله ﷺ فلما كان يوم الجمعة أقبل رسول الله ﷺ حتى جلس على المنبر، فلما فقدته الجذع حن حنينا أفرغ الناس فقام رسول الله ﷺ من مجلسه حتى انتهى إليه، فقام إليه ومسه فهدأ ثم لم يسمع له حنين بعد ذلك اليوم . (١)

٣ - وعن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنِ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ يَصْدُقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَهُ حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْيَةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَشْعَرْتُمْ أَحْرَمَ بِالْعُمَرَةِ، وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَيْنًا لَهُ رَجُلًا مِنْ خَزَاةٍ يَحِثُّهُ بِخَبَرِ قُرَيْشٍ، وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ قَرِيبًا مِنْ عُسْفَانَ أَتَاهُ عَيْنُهُ الْخُزَاعِيُّ فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَجَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا كَثِيرَةً وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((أَشِيرُوا عَلَيَّ أَتَرُونَ أَنَّ نَمِيلَ إِلَى دَرَارِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ فَنُصِيبُهُمْ فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَحْزُونِينَ وَإِنْ نَجَوْا يَكُونُوا عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ ؟ أَمْ تَرُونَ أَنَّ نَوْمَ الْبَيْتِ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلْنَاهُ ؟)) . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَلَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنْ مِنْ حَالٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتِلْنَاهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((فَرُوحُوا إِذَا)) . (٢)

وكذلك كانت الشورى في حياة الصديق أبي بكر ﷺ تطبيقا عمليا :

١ - عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاوَرَ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ فَعَلَيْكَ بِهِ . (٣)

٢ - وعن عبد الرحمن بن أذهر: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ شَاوَرَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ سَأَلَهُمْ : كَمْ بَلَغَ ضَرْبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِشَارِبِ الْخَمْرِ فَقَدَرُوهُ بِأَرْبَعِينَ جَلْدَةً . (٤)

٣ - وعن عروة عن أبيه قال: دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا : لما ارتد من ارتد من العرب وامتنعوا من الصدقة شاور أبو بكر الصديق ﷺ في غزوهم وقتالهم ، فأجمع البعثة إليهم وخرج هو نفسه إلى قناة فعسكر بها، وأظهر أنه يريد غزوهم بنفسه ليلغهم ذلك فيكون أهيب لهم، ثم سار من قناة في مائة من المهاجرين وخالد بن الوليد ﷺ يحمل لواءه، حتى نزل نقعا وهو

^١ - أخرجه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (١ / ٢٥١) .

^٢ - أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (١١ / ٢١٧) حديث (٤٨٧٢) .

^٣ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١ / ٦٣) برقم (٤٦) .

^٤ - أخرجه ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٨ / ١٠) .

ذو القصة وأراد أن يتلاحق به الناس ويكون أسرع لخروجهم، فلما تلاحقوا به استعمل خالد بن الوليد ﷺ عليهم وأمره أن يسير إلى أهل الردة فيقاتلهم . (١)

وكذلك كانت الشورى في حياة الفاروق عمر ﷺ :

١ - عن عبد الملك أن: عمر ﷺ كتب إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ : أن شاور طليحة و عمرو بن معد يكرب ﷺ في أمر حربك ولا تولهما من الأمر شيئا فإن كل صانع هو أعلم بصناعته . (٢)

٢ - وعن عكرمة أن عمر بن الخطاب ﷺ شاور الناس في جلد الخمر، وقال: إن الناس قد شربوها واجتزؤوا عليها. فقال له علي ﷺ : إن السكران إذا سكر هذى وإذا هذى افتزى فاجعله حد الفرية فجعله عمر حد الفرية ثمانين . (٣)

٣ - وعن عبد العزيز بن عمر أن في كتاب لعمر بن عبد العزيز أن عمر بن الخطاب ﷺ شاور السلف حين جند الأجناد فكتب : أن على أهل الإبل مائة من الإبل، وعلى أهل البقر مائتا بقرة، وعلى أهل الشاة ألفا شاة، وعلى من نسج البز من أهل اليمن بقيمة خمسمائة حلة، أو قيمة ذلك مما سوى الحلل، فإن كان الذي أصابه من الأعراب فديته من الإبل لا يكلف الأعرابي الذهب ولا الورق، وإذا أصابه الأعرابي وداه بمائة من الإبل، فإن لم يجد إبلا فعدلها من الغنم ألفا شاة . (٤)

٤ - وعن ابن أبي الزيات عن أبيه أن عمر ﷺ شاور في التاريخ فقائل يقول: من النبوة . وقائل يقول: من الهجرة . وقائل يقول: من الوفاة . فأجمعوا على الهجرة . (٥)

٥ - وعن محمد بن الضحاك بن عثمان عن أبيه : أن عمر بن الخطاب ﷺ لما هم بفرض العطاء شاور المهاجرين فيه، فما رأي ما رأوه من ذلك صوابا، ثم شاور الأنصار فرأي ما رأوا وإخوانهم من المهاجرين في ذلك، ثم ما ورد مسلمة الفتح فلم يخالفوا رأي المهاجرين والأنصار إلا حكيم بن حزام، فإنه قال لعمر بن الخطاب ﷺ : إن قريشا أهل تجارة ومتى فرضت لهم العطاء حيث أن ما عليه فيدعوا التجارة فيأتي بعدك من يجبس عنهم العطاء وقد خرجت منهم التجارة . فكان ذلك كما قال . (٦)

^١ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (١٦ / ٢٥٨) .

^٢ - أخرجه البيهقي في ((سننه الكبرى)) (١٠ / ١١٣) برقم (٢٠١١٦) .

^٣ - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (٧ / ٣٧٨) برقم (١٣٥٤٢) .

^٤ - أخرجه عبد الرزاق في ((مصنفه)) (٩ / ٢٩٦) برقم (١٧٢٧٢) .

^٥ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (١ / ٤٤) .

^٦ - أخرجه ابن عساكر في ((تاريخه)) (١٥ / ١٢٦) .

﴿ الفرق بين الشورى الإسلامية والديموقراطية الغربية ﴾

فلسفة الاجتماع الإسلامي في الأسرة والمجتمع والدولة، وإطارها وميدانها كل ما لم يقض الله فيه قضاء حتم وإلزام للإنسان، مما ترك له كخليفة عن الله في عمران هذا الوجود. والأمة فيها وبها هي مصدر السلطة والسلطان في سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران .

وهذه الأمة تختار ممثليها العارفين بالواقع وبالشرعية معا، وهم أهل الاختيار الذين يختارون رأس الدولة الإسلامية، وكذلك أهل الحل والعقد أي أهل الشوكة والرأي الذين يحفظون اتساق الواقع مع الشريعة بتطوير القانون مع فقه الفروع ليوكب الواقع الجديد. وتطويع الواقع كي لا يخرج عن الحلال والحرام اللذين هما حاكمية الله، أما الديمقراطية ((Democracy)) فهي نظام سياسي اجتماعي غربي النشأة، عرفته الحضارة الغربية في حقبتها اليونانية، وطورته نهضتها الحديثة والمعاصرة، وهو يقيم العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبدأ المساواة بين المواطنين و مشاركتهم الحرة في صنع التشريعات التي تنظم الحياة العامة، وذلك استنادا إلى المبدأ القائل: بأن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر الشرعية، فالسلطة في النظام الديمقراطي هي للشعب بواسطة الشعب، لتحقيق سيادة الشعب ومقاصده ومصالحه . (١)

أما النظام النيابي الذي ينوب فيه نواب منتخبون عن الأمة للقيام بمهام سلطات التشريع والرقابة والمحاسبة لسلطات التنفيذ، فهو من آليات الديمقراطية التي توسلت بها تجاربها عندما تعذرت الديمقراطية المباشرة التي تمارس فيها الأمة كلها وبشكل مباشر هذه المهام والسلطات، توسلت بها إلى تحقيق مقاصد الديمقراطية، وفي التساؤل حول موقف الإسلام من الديمقراطية ؟ وهل هو قابل لها بإطلاق ؟. أم رافض لها بإطلاق ؟. أم أنه قابل لها مع بعض التحفظات ؟. يحسن أن نبه على أن الإسلام في الأمور الحياتية والنظم والآليات التي تحقق مقاصده وفلسفاته ليس مغلقا ضد كل ما هو وافد وأجنبي، كما أنه ليس بالذي يقبل أي وافد دونما نظر واجتهاد، وإذا

^١ - انظر ((موسوعة السياسة)) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١ .

كان الاجتهاد فريضة دينية في الفكر الإسلامي، فمن باب أولى أن يكون هذا الاجتهاد واردا في الفكر الديمقراطي ! .

وإذا كان البعض يضع الشورى الإسلامية بديلا للديمقراطية، فإن النظرة الإسلامية الموضوعية والفاحصة للعلاقة بين الشورى والديمقراطية تنفي تناقضهما بإطلاق، أو تطابقهما بإطلاق .

وتزكي التمييز بينهما على النحو الذي يكشف مساحة الاتفاق ومساحة الاختلاف بينهما . فمن حيث الآليات والسبل والنظم التي تحقق المقاصد والغايات من كل من الديمقراطية و الشورى، فإنها تجارب وخبرات إنسانية ليس فيها ثوابت مقدسة، عرفت التطور في التجارب الديمقراطية، وتطورها وارد في تجارب الشورى الإسلامية، وفق الزمان والمكان والملابسات، و الخبرة التي حققتها تجارب الديمقراطية في تطور الحضارة الغربية، والتي أفرزت النظام النيابي، و التمثيل عبر الانتخابات هي خبرة غنية وثروة إنسانية، لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إنها تطوير لما عرفته حضارتنا الإسلامية ومبكرا من آليات البيعة وتجاربها.

أما الجزئية التي تفترق فيها الشورى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية فإنها لا تكاد تعدو الخلاف حول : لمن السيادة في التشريع ابتداء ؟ .

الديمقراطية تجعل السيادة في التشريع ابتداء للشعب والأمة، إما صراحة وإما في صورة ما سماه بعض مفكرها : بـ ((القانون الطبيعي))، الذي يمثل بنظرهم أصول الفطرة الإنسانية . فالسيادة وكذلك السلطة في الديمقراطية هي للإنسان الأمة والشعب . أما في الشورى الإسلامية فإن السيادة في التشريع ابتداء هي لله سبحانه وتعالى، تجسدت في الشريعة التي هي وضع إلهي و ليست إفرازا بشريا ولا طبيعيا . وما للإنسان في التشريع هي سلطة البناء على هذه الشريعة الإلهية، والتفصيل لها والتقنين لأصولها، والتفريع لكلياتها، وكذلك لهذا الإنسان سلطة الاجتهاد فيما لم ينزل به شرع سماوي، شريطة أن تظل السلطة البشرية محكومة بإطار الحلال والحرام الشرعي، أي محكومة بإطار فلسفة الإسلام في التشريع .

ولذلك كان الله سبحانه وتعالى في الرؤية الإسلامية هو الشارع لا الإنسان، وكان الإنسان هو الفقيه لا الله، فأصول الشريعة ومبادئها وثوابتها وفلسفتها إلهية، تتمثل فيها حاكمية الله، و البناء عليها تفصيلاً وتنمية وتطويراً وتفريعاً واجتهاداً للمستجدات، هو فقه وتقنين تتمثل فيهما سلطات الإنسان، المحكومة بحاكمية الله.

ذلك ملمح متميز للشورى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية، ولهذا التميز صلة وثيقة بنظرة كلا الحضارتين الغربية والإسلامية لحدود تدبير الذات الإلهية، وحدود تدبير الإنسان، وللعلاقة بين الإنسان والله.

ففي النظرة اليونانية القديمة خاصة عند أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) نجد أن الله قد خلق العالم ثم تركه يعمل وفق طباعه وقوانينه، دون تدخل أو رعاية إلهية دائمة. وهذه النظرة لحدود التدبير الإلهي وجدناها في النهضة العلمانية الغربية تعتمد على المبدأ الإنجيلي الذي يجعل ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فيفصل بين إطار التدبير الإلهي الذي وقف عند الخلق وإطار التدبير الإنساني الذي أعطاه السيادة في تدبير العمران الدنيوي، دونما قيود من الحاكمية الإلهية على هذه السيادة والسلطة البشرية. ذلك أن الإنسان في هذه النظرة الغربية هو سيد الكون، ومن هنا كانت له السيادة في التشريع مع السلطة في التنفيذ .

أما في النظرة الإسلامية، فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر، فتدبيره لم يقف فقط عند الخلق، وإنما له أيضاً الأمر المتمثل في الشريعة التي أنزلها لتكون إطاراً ودعا الإنسان إلى الالتزام بإطارها في هذه الحياة . ولأن النظرة الإسلامية لمكانة الإنسان في الكون لا تجعل هذا الإنسان سيداً للكون، وإنما تراه خليفة عن سيد الكون، فلقد رأت هذا الخليفة محكوماً في أدائه لأمانة الاستخلاف وعمارة الأرض، ببنود عقد وعهد الاستخلاف التي هي الشريعة الإلهية، فهو بعبارة الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) عبد الله وحده وسيد لكل شيء، بعده . إنه الإنسان في النظرة الإسلامية حر، قادر، مريد، مستطيع، في حدود أنه خليفة عن الله القادر بلا حدود . فالسيادة في التشريع ابتداء هي للحاكمية الإلهية المتمثلة في الشريعة

السماوية، وللإنسان في التشريع سلطة الفقه والتقنين، شريطة أن لا يخرج عن حدود الشريعة أو روحها وفلسفتها.

تلك هي على وجه الحصر والتحديد، الجزئية التي تتمايز فيها الشورى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية . أما ماعدا ذلك من تأسيس الحكم والسلطة على رضا الأمة ورأي الجمهور و اتجاه الرأي العام، وجعل السلطة في اختيار الحكام، وفي مراقبتهم ومحاسبتهم، وفي عزلهم هي للأمة، وكذلك اختيار الآليات والسبل النيابية لتكوين المؤسسات الممثلة لسلطات التقنين، و التنفيذ والرقابة والقضاء، فإنها على وجه الإجمال مساحة اتفاق بين الديمقراطية الغربية والشورى الإسلامية .

وكذلك الحال مع مبدأ الفصل بين السلطات، سلطات التشريع والتنفيذ والقضاء، وهو المبدأ الذي تعارفت عليه الديمقراطية الغربية، فإنه مما تقبله الشورى الإسلامية، بل ربما ذهبت فيه تجربة الحضارة الإسلامية أبعد مما ذهبت التجارب الغربية، فمن الممكن في الرؤية الإسلامية تمييز سلطة الاجتهاد والتقنين عن سلطة أهل الحل والعقد، الذين يختارون السلطة التنفيذية ويراقبونها و يحاسبونها، وفي ذلك ما يجعل سيادة القانون فوق سلطة الدولة حقيقة وفعلا، لا كما هو الحال في التجربة الديمقراطية، التي آلت فيها سلطة التشريع للبرلمان المكون من أغلبية الحزب الحاكم، و الذى هو خاضع للسلطة التنفيذية، فاهيئة البرلمانية لحزب الأغلبية منحازة للسلطة التنفيذية إلى الحد الذى جعل سيادتها عليها اسمية إلى حد كبير، أما استقلال سلطة خاصة بالاجتهاد والتقنين، مع التزامها بحاكمية الشريعة الإلهية، فهو الأقرب إلى مبدأ الفصل الحقيقي بين السلطات، والأكثر تحقيقا لسيادة القانون على بقية السلطات .

وهكذا رأينا انتفاء القضاء، وانتفاء التطابق بين كل من الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية، ورأينا كيف يتفقدان في مساحات واسعة، خاصة في الآليات والسبل والمؤسسات، مع التمايز في قضية السيادة في التشريع الابتدائي التي جعلتها الديمقراطية الغربية للإنسان صراحة، أو تحت اسم ((القانون الطبيعي)) على حين جعلتها الشورى الإسلامية لله سبحانه وتعالى، مع عدم حرمان الإنسان من حق التشريع والتقنين في إطار حدود الشريعة الإلهية وروحها وكيانها .

إن الشورى في حقيقتها هي اسم من ((المشاورة)) والمشاورة : هي استخراج الرأي ، فهي في حد ذاتها أدخل في الآليات، آليات استخراج الرأي، وهى بهذا الاعتبار لا يمكن أن تكون نقيضا للآليات الديمقراطية. أما التمايز بينهما فإنه يأتي في الموضوع الذى يعمل فيه هذه الآليات، وفي نطاق عمل هذه الآليات، فعلى حين لا تعرف الديمقراطية حدودا إلهية لسلطات عمل وإعمال آلياتها، تميزت الشورى الإسلامية بين نطاقين من الأمر، أمر هو الله أي تدبيره الذى اختص به سبحانه . ألا له الخلق والأمر، وأمر أي تدبير هو في مقدور الإنسان، وفيه تكون شورى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى/ ٣٨)، وقال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران/ ١٥٩) وبحكم خلافة الإنسان عن الله سبحانه وتعالى، فإن أمره وتدبيره حاكميته الإنسانية محكوم بإطار أمر الله وتدبيره التي هى حاكمية الله وحدود شريعته الإلهية.

ففي المرجعية وفي الفلسفة وفي الحدود، يرد التمايز بين الشورى والديمقراطية، وليس في الآليات كما يرد التمايز في بعض المقاصد والغايات، فالديمقراطية كفكر وضعي وفلسفة دنيوية لا تمد بصرها إلى ما هو أبعد من صلاح دنيا الإنسان بالمقاييس الدنيوية لهذا الصلاح على حين نجد الشورى كفريضة إلهية تربط بين صلاح الدنيا وسعادة الآخرة، فتعطى الصلاح الدنيوي بعداد ديني يتمثل في المعيار الديني لهذا الصلاح .

تلك هي أبرز وجوه الأشباه والنظائر، وأهم الفروق بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية.^(١)

﴿ الصورة الأولى لمجلس الشورى في الإسلام ﴾

ومن الاجتهادات المشروعة في أعمال أحكام الشورى تكوين مجلس الشورى وصلاحياته، و وظائفه، ونظام عمله، وقد سبق به الإسلام الحضارة الغربية والنظم السياسية الحديث، ودليل

^١ (- مقال : ((الشورى الإسلامية .. والديمقراطية الغربية)) لأستاذنا الدكتور محمد عمارة المصدر : موقع ((مجلة الأهرام الديمقراطية)) بتاريخ ٢٠ / ١٢ / ٢٠١٢ م .

هذا : عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ((أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا)) .
فَأَخْرَجُوهُمْ، وَكَانَ نَقِيبَ بَنِي النَّجَّارِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَكَانَ نَقِيبُ بَنِي سَلَمَةَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، وَكَانَ نَقِيبُ بَنِي سَاعِدَةَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ وَالْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو، وَكَانَ نَقِيبُ بَنِي زُرَيْقٍ رَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ، وَكَانَ نَقِيبُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَكَانَ نَقِيبُ بَنِي عَوْفٍ بْنِ الْخَزْرَجِ عَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَنَقِيبُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَأَبُو الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ، وَكَانَ نَقِيبُ بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ سَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ، فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَرَبَ عَلَيْهَا فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ فَتَتَابَعَ النَّاسُ فَبَايَعُوا . (١)

﴿ حقوق غير المسلمين في الشورى ﴾

إن غير المسلمين الذين يعيشون في الدول والأقطار الإسلامية لهم ما لنا وعليهم ما علينا من حقوق المواطنة التي أرسى قواعدها صحيفة المدينة المنورة، وهي أول دستور لتنظيم مجتمع تعددي في التاريخ، على قواعد العدل والإحسان. وعليه فإن قيمة الشورى تتسع لسائر المواطنين، في كل شأن عام يمس المصلحة العامة، فلا يتدخل المواطنون المسلمون فيما يجريه المواطنون غير المسلمين من شورى في شئون عقيدتهم، ولا يتدخل المواطنون غير المسلمين فيما يمارسه المسلمون من شورى في شئون عقيدتهم، اللهم إلا ما كان أدخل في القواعد المشتركة بينهما من قيم إنسانية، وقواعد أخلاقية، وشؤون فنية وإدارية.

لهذا يحق لغير المسلم أن يبدي رأيه في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليه، وفيما يلحق به من ظلم الحكام . وهذا ما ذهب إليه بعض الفقهاء المعاصرين، حيث يقول د. عبد الكريم زيدان : ((أما انتخاب ممثليهم في مجلس الأمة وترشيح أنفسهم لعضويته فنرى جواز ذلك أيضاً، لأن العضوية في مجلس الأمة تفيد إبداء الرأي، وتقديم النصح للحكومة، وعرض مشاكل الناهيين ونحو ذلك، وهذه الأمور لا مانع من قيام الذميين بها ومساهمتهم فيها)) . (٢)

^١ - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٩ / ٩٠) برقم (١٧٤) .

^٢ - ((أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام)) للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٨٤) .

﴿ دور الأزهري الشريف في ترسيخ قيمة الشورى ﴾

لما كانت قيمة الشورى هي الرأي الناصح، وهي رأي الحكماء والعلماء العقلاء، ولما كانت الشورى تبذل لمن خالفها فنهج سبيل الاستبداد والديكتاتورية، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول : إن الأزهري الشريف لم يكتف بعظة الناس بقيمة الشورى، أو تبين حقيقتها وتفهمها الناس بل إنه أعطى القدوة من رجاله وعلمائه، فكانوا يبذلون الشورى حتى لمن لا يرضاها ولا يقبلها من الولاة والحكام الطغاة والمستبدين، وتاريخ الأزهري وعلمائه زاخر بمثل هذه المواقف، منها ما سبق ذكره، ومنها على سبيل الذكر :

(١) - الشيخ أحمد الدردير رحمه الله: فقد واجه الطغيان في مواقف كثيرة منها أنه ثارت مسألة في خلاف على وقف ولم يكن للمسألة في ذاتها خطر خاص بل كان القصد منها نضالاً على مبدأ قانوني، وهو هل يجوز للأمر القوي أن يثور بقوته على القانون ؟. أم لابد للخضوع للقانون ولو كان خصمه ضعيفاً لا سند له من سلطان الدولة ؟ .

وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب وأمير من كبار الأمراء من عصابة الطغيان، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة فلجأ إلى القضاء، ولوح الأمير القوي بالقوة والبطش، وحكم الشرع للرجل الضعيف فأبى الأمير الإذعان للحق، فأدرك العلماء أن واجبه يناديهم وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه بالمحافظة على الحق والقانون ولم يترددوا لحظة وذهبوا لنداء الواجب وتصدر فيهم الشيخ الدردير رحمه الله، فأرعد الأمير وأبرق ووقف العلماء وثبتوا، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم، وكانت مظاهرة كبيرة فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة، وأوشك الأمر أن يؤدي إلى فوضى شاملة لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب، فاجتمعوا وتشاوروا وأرسلوا إلى الأمير فلاموه وأمروه بالنزول على ما أراد القانون، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة، ولم يرض العلماء أن يفلت الأمير بغير حق مسجل، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب، وكتب لهم صلحاً رسمياً به شروط على الأمراء، وتعهد الحكام بالتزام ما يقضى به القانون . (١)

ومن مواقفه أيضاً ما جاء في تاريخ الجبرتي : أن الأمير يوسف الكبير منع الأوقاف الخيرية عن طلبه العلم من المغاربة، فرفعوا الشكوى إلى القاضي فحكم لهم بما يستحقون، وكبر على

^١ () - ((علماء في وجه الطغيان)) للدكتور محمد رجب البيومي . نقلاً عن موقع ((إسلام ويب)) نقلاً عن هذا الرابط : <http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=51973>

الأمير أن يدعن فكتب الشيخ الدردير يطالبه بالإذعان، فطغى وبغى ورفض الطلب محتقرا من حمله، فكان ما تحدث به الجبرتي حين قال : ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع، فاجتمعوا في صحنه وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات، وأقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء. وكانت وقفة عصية رجع فيها الحق إلى أصحابه على أيدي علماء الدين وفي مقدمتهم الشيخ الدردير . (١)

﴿ الدور المأمول للأزهر الشريف في ترسيخ قيمة الشورى ﴾

من أخطر الكوارث التي حلت على مجتمعاتنا غياب النصح والشورى بين أطراف المجتمع الإسلامي فسادت الفرقة، واختلفت القلوب، وعلت كفة الأهواء على مصالح الأمة، واستبد كل بهواه وأعجب برأيه، مما أدى إلى غياب الثقة في التحوار والتفاهم، فضلا عن جهل الكثير من الناس بمفاهيم النظم الإسلامية، وإعجابهم ببريق الحضارة الغربية ونظمها واتجاهاتها الفكرية في النظم السياسية والاجتماعية... إلخ .

لذلك يجب على الأزهر ورجاله أن يقوموا بدورهم بتعليم الناس وتفهمهم المصطلحات الإسلامية وواقعيتها وأثرها العظيم في المجتمع إن طبقت تطبيقا واقعيا في المجتمع، وأن يكون للأزهر الشريف تمثيل في كل مواقع صنع القرار وإصدار القوانين في الدولة لينصح ويسدي الشورى في كل ما يتعلق بمصالح الأمة أفرادا وجماعات . بما يوجه عليهم دينهم وعلمهم وثقافتهم، ويحاول التوفيق بين طوائف المجتمع المتخالفة والمختلفة في وجهات النظر، من أحزاب، وفئات، وحكومات، وقادة، ووقتها ستتغير الأمور إلى الأفضل .

^١ - أنظر ((عجائب الآثار)) (١ / ٤٩٧) .

القيم الإعلامية

﴿ القيم الإعلامية ﴾

الإعلام بكل مجالاته من الإعلام المرئي أو المسموع أو المقروء من أخطر وسائل التأثير على المجتمع، وهو أشد عوامل صياغة العقول وتكوين الشخصية في العصر الحديث، لذلك يجب على كل من يعمل في مجالات الإعلام أن يكون مخلصا لدينه وقيمه وعاداتنا الكريمة والأخلاق الحميدة لبناء المجتمع والتقدم بالوطن، وهذه صفة المخلصين منهم، والتي ينبغي أن تتوافر فيهم وفيما يقدمون، وذلك لأن الإعلام بجميع مجالاته رسالة وأمانة، والمخلصين لله ولبلدكم يؤدونها على أكمل وجه، وأما من ليس في اهتمامه كل هذه المعاني، وإنما يهتم بتحصيل الشهرة وجمع الأموال، فهو للأسف في غفلة شديدة، فقد يستهين بالكلمة التي تخرج من فمه أو يخطئ بيده أو يجسدها في موقف أو مشهد، ولا يعلم أنها عند الله تعالى كبيرة، وأنها قد تؤدي إلى مفسد وشر عظيم، ووقتها فعليه وزرها ووزر من قلده إلى يوم القيامة، وينطبق عليه قول النبي ﷺ : ((وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) . (١)

وقد يتعظم الخطر حين يقدم الإعلام مبادئ الهدم والأخلاق والقيم، مثل الأفلام الخليعة التي انتشرت بشكل كبير في المجتمع في الحقبة الأخيرة، وكذلك الفيديو كليب للأغاني الهابطة المتبدلة التي لا تؤدي معنى ولا تحت على قيمة، فمثل هذه الأعمال التي لا يهتم القائمون عليها إلا بالأموال وبريق الأضواء والشهرة، منهم من يعلم ومنهم من لا يعلم أنها من أعظم وأخطر النكبات التي أصابت المجتمع بالأمراض في أخلاقه وقيمه وعلاقاته وسلوكيات أفرادها، بل وإنها تدفع إلى زيادة معدل الجريمة والانهيار الأخلاقي، مما يؤدي بدوره إلى الانحلال والفساد وعدم الاستقرار في المجتمع، وهذا واقع لا يمكن إنكاره، وكذلك ما نعاينه من انتشار ظاهرة البلطجة، و كثرة المشاكل، والتحرش والاغتصاب وغيرها من المفسد، سبب فيه ذلك الإعلام الفاسد الغير مسئول الذي لا يقوم بدوره الصحيح، وذلك لتأثيره على المجتمع وخاصة فئة الشباب الذي لم يفهم الفهم الكامل ولم يدرك مسئوليته تجاه نفسه أولا وتجاه وطنه وأسرته ومجتمعه ثانيا، فهؤلاء على خطر عظيم، لأن كل مفسدة تقع ممن يقلدهم سيحملون وزرها، بل والأخطر إذا فشت الفواحش، وانتشر الفساد بسبب ما يقدمون، فهم ممن يقول الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

^١ - أخرجه مسلم في ((صحيحه)) في كتاب ((العلم)) باب ((من سن سنة حسنة أو سيئة)) حديث (١١٧) .

سُحِبُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [سورة النور آية: ١٩] فيا ليتهم يدركون أو يفهمون خطر ما هام عليه .

مما يجب فهمه أن الإسلام لا يحارب الإعلام ولا الفن ولا الإبداع، بل إنه يحارب الوجه القبيح الفاسد في هذه المجالات، يشجع منها ما يفيد البشرية ويبني الأوطان والشعوب، ويحارب الهدام منها، لماذا لا نقدم فنا أو إعلاما يرقى بالقيم، والنتيجة واحدة الشهرة هي الشهرة، والمال هو المال، لكن منهم من يفهم القضية أنها قضية كثرة الجمهور، فيعمل على الجذب لذاته وما يعمل ليحقق الجماهيرية التي ترضي رغبته، وإن كان على حساب تدمير الأخلاق والقيم، ونسي هؤلاء أنهم إذا ماتوا لن ينفعهم جمهورهم ولا شهرتهم، بل إن من قدم فنا رخيصا مات رخيصا وذهب رخيصا، وكان جزاؤه النسيان، وبقيت عليه آثامه وأوزاره تتجدد كلما تجددت أعمال و أقواله وأفكاره التي لا ترضي الله تعالى .

فما أخرجنا إلى إعلام صادق شريف يعمل على بناء الفرد والمجتمع من جديد، خاصة في عصر الحداثة التي غزت مجتمعاتنا وعقول شبابنا، فأصبح التمرد على كل شيء في كل مجالات الحياة، وهناك كثير يتمرد لا لهدف أو قضية بل لجرد التمرد فقط والتقليد لا لشيء آخر، ويا ليت الإعلام بكل مجالاته يشعر بمسئوليته في عصر العولمة، فيواجه موجات الأفكار الغربية الوافدة إلينا من العالم من الغرب تارة ومن الشرق تارة أخرى .

إن الإعلام الذي نأمل في وجوده نتمنى أن يتصف بقيم سامية شريفة، تساعد على تبليغ رسالته وبناء مجتمعه، ومنها :

(١) - ﴿ الصدق في الأداء ﴾

وهذه صفة وسمة بالغة الأهمية للإعلام الناجح، ولأي إعلام يريد الاستمرار في الدفاع عن مبادئه وكسب الجمهور في صفه، فإن حاد الإعلام عن صفة الصدق فسوف يسقط سقوطا مدويا كما يحدث وحدث مع كل شيء مكذوب وكاذب في تاريخ البشر. وهذه قيمة أخلاقية إسلامية أمر الله تعالى بها عباده، وما أمر الله تعالى بشيء إلا وفيه مصلحتهم وسعادتهم، وما نهى عن شيء إلا وكان فيه الضرر والشروع، حتى وإن بدا غير ذلك في ظاهر الأمر . قال الله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [سورة التوبة آية: ١١٩] وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [سورة يونس آية: ٦٩] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [سورة النحل آية: ١٥]

ومن افتراء الكذب العناد وتعمد مخالفة الثابت من الحقائق، كمخالفة من يقدم إعلاما يحض على الفتن بين الناس ويعمل على نشر القلاقل وزعزعة استقرار المجتمع، ويزعم أنها حرية رأي وتعبير، وهو أعرف الناس بأنه على غير هذا، أو من يقدم أعمالا تحت على الانحلال الأخلاقي وانتشار الفواحش ويزعم أنه يقدم فنا راقيا وأنه لا حرج في ذلك، هؤلاء على خطر عظيم، فليحذروا أن يتشبهوا بمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنِّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٧٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ٢٨ - ٣٠]

ومما يجب أن يتحلى به المخلصون في مجال الإعلام السداد في القول، حتى يكون مقامهم شفاء لمن يسمعهم أو يتأثر بأقوالهم، قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٧٠ - ٧١]

بل وسياق الآية التي بعدها يشعرك بعظمة الكلمة والرأي عند الله تعالى، وأنه نوع من أنواع الأمانات التي أمر بحفظها وأدائها كما يحب ويرضى، فقال بعد ذكر الأمر بإسداء الرأي السليم، والقول الصحيح : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٧٢]

ومن الصدق في الإعلام تحري الحقيقة وعدم نشر الشائعات، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [سورة الإسراء آية: ٣٦]

فقد ألزم الإسلام الإعلام بشرط الصدق، ومنه اشتراط عدالة الناقل وأمانته، يجب أن يكون ضابطا متقنا في نقله للأخبار، عن الأصمعي عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال : أَدْرَكَتْ بِالْمَدِينَةِ

مِائَةً كُلُّهُمْ مَأْمُونٌ مَا يُؤْخَذُ عَنْهُمْ الْحَدِيثُ . يُقَالُ : لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ . (١) وعن مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ . (٢)

وعن مالك بن أنس رضي الله عنه يقول: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، لقد أدر كنا في هذا المسجد سبعين . وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ ممن يقول: قال فلان : قال رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان به أمينا، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ويقدم علينا محمد بن مسلم بن شهاب الزهري وهو شاب فنزدحم على بابه . (٣)

(٢) - ﴿ التحلي بالأخلاق الكريمة في الأداء الإعلامي ﴾

يجب على من يعمل في مجال الإعلام في كل مجالاته أن يتحلى بأخلاق كثيرة مثل أخلاق العفة، والحشمة، والأمانة في النقل، والجدية، والبعد عن الغيبة والنميمة وانتهاك الحرمات، وسوء الظن، وهي من أعظم الأخلاق التي تميز الإعلام الناجح المؤثر، وتبعث على احترام المتأثر به للمؤدي له، حتى يخرجوا من جملة من توعدهم الله تعالى فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النور آية: ١٩] وكذلك الصدق والجدية والأمانة في الأداء الإعلامي يجعل الأثر الطيب مستقرا في القلوب والنفوس، ودليل هذا وصف الله تعالى للقول الصادق وأثره فقال ﷺ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [سورة إبراهيم آية: ٢٤] ويجب على الإعلام أن يسمو في أدائه المكتوب والمسموع والمرئي، فيقدم إبداعا راقيا بعيدا عن السخرية وانتهاك حرمت المخالفين، أو سوء الظن بهم والتشكيك فيهم، وليعمل الإعلام على أداء رسالة التصالح الاجتماعي والتوافق فيما بين الناس، وإذا تحقق هذا في الإعلام فقد ضمنا مجتمعنا راقيا تسوده الأخلاق والقيم الكريمة في التعامل والسلوك، ولذلك نبه الله تعالى على أهمية هذا فقال ﷺ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يُنَاقِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَبِ بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ

^١ - (صحیح مسلم)) (١ / ١٥) .

^٢ - أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٥ / ٣٣٤) .

^٣ - (تهذيب الكمال)) (٢٦ / ٤٣٩) .

الْإِيمَنِ وَمَنْ لَّمْ يَشَبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ يَتَأْتِيهِمُ ﴿١٢﴾ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [سورة

الحجرات آية: ١٠ - ١٣]

٣- ﴿العمومية والشمول﴾

ومن قيم الإعلام في الأداء أن يكون على منهجية متكاملة في الأداء، وهي منهجية العمومية والشمول في الخطاب لكافة طبقات وفئات المجتمع، الفرد والأسرة والرجل والمرأة، الطفل والمراهق، وأن يتسم هذا الخطاب بالبساطة، والمنطق، وحسن التربية النفسية والعقلية . ليتحقق الإعلام ومن يقوم عليه بحقائق أخلاق المفلحين، قال الله ﷻ : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت آية: ٣٣]

٤- ﴿تحقيق الأهداف السامية﴾

- ويجب على الإعلام الهادف أن يحقق أهدافا كريمة تحقق السلم والتعايش الاجتماعي، وترقى بالمجتمع في كل مجالات الحياة، ومن أهم هذه الأهداف :
- ١ - الدفاع عن الحقوق العامة بدون تفريق بين دين وآخر، ولا بين المسلمين وغيرهم، بما يضمن للناس عامة الحرية والكرامة .
 - ٢ - بناء الشخصية الكريمة في أخلاقها المتوازنة في تفكيرها، المبنية على القيم والأخلاق .
 - ٣ - تقوية روح التوافق والتصالح المجتمعي للعمل على تماسك الأمة والمجتمع .
 - ٤ - نشر القيم الراقية والأخلاق السامية، وتقوية روح العقيدة، وبناء التدين الصحيح الوسطي المعتدل .
 - ٥ - تبني القضايا العامة للمجتمع وتقديم أنجح الحلول لها .

- ٦ - تنقية الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية من التشوهات ومن التطرف والتشدد، و التعريف بسماحة الإسلام ووسطيته، وبناء الشخصية المسلمة المتدنية على أصول الدين .
- ٧ - الدفاع عن الإسلام ضد تزيف الحضارات المعادية للإسلام من حيث المفاهيم والمبادئ والمناهج .
- ٨ - بث روح الألفة والمودة والتعارف بين المسلمين أنفسهم وبين غيرهم .
- ٩ - التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة .
- ١٠ - تكوين رأي عام محلي وإقليمي وعالمي، من خلال تنمية الوعي الفكري بقضايا الإسلام و تهيئة الأذهان لتقبل مبادئه .
- ١١ - التربية من خلال الإعلام وتقديم التزكية النفسية لبناء الشخصية وقيم المجتمع .
- ١٢ - بلورة تصورات فكرية صحيحة في مختلف المجالات مستنده إلى روح الدين و الشرع .
- ١٣ - تأصيل المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في الإعلام الإسلامي وتوحيدها حتى تجتمع عليها الأمة .
- ١٤ - تصحيح التطورات والمفاهيم الخاطئة التي راجت بين المسلمين مثل التزمت، والتكفير... إلخ ، وإعادتها إلى وسطية الإسلام .
- ١٥ - التعرف على الواقع الإسلامي والدولي المعاصر كما هو ونقله للجماهير دون مبالغه أو تعميم، أو كذب .
- ١٦ - التثبت من نقل الأخبار والتمحيص في مصادر المعلومات .
- ١٧ - اتباع منهج التوازن والتكامل في الاهتمام بالقضايا والمشكلات وفي عرضها ومعالجتها .
- ١٨ - العمل على تأكيد القيم الدينية للمجتمع وحماية التقاليد الصالحة الموروثة .
- ١٩ - عمل البرامج الإعلامية على اعتبار أن مكارم الأخلاق والعمل المخلص والالتزام بمبادئ الدستور الخلاقية والاجتماعية هي معيار التفاضل بين أفراد المجتمع .
- ٢٠ - يجب أن تحرص البرامج الإعلامية المتنوعة على تقديم الفن الرفيع والفكر الجاد والترفيه البعيد عن الإسراف والابتذال والسوقية .
- ٢١ - يجب أن تعمل البرامج في إبراز دور الحضارة الإسلامية في إثراء الإنسانية وإبراز قدرتها على تجديد نفسها والعطاء في المستقبل والحاضر .
- ٢٢ - يجب أن تعنى البرامج ببرامج الأطفال وتؤكد من خلالها قيم الأسرة والمجتمع والأعراف و الأخلاق والسلوك مع عنايتها بالتنمية المتوازنة لشخصية الطفل علميا وتربويا وأخلاقيا وثقافيا .

﴿مواجهة الإعلام التغريبي﴾

لقد عمل الإعلام الغربي على غزو عقول ومجتمعات الشرق وخاصة الشرق العربي الإسلامي، لأنهم يستشعرون الخطر في الإسلام على حضاراتهم التي تقوم على الإلحاد وغيره من النظم الفكرية والسياسية التي لا يتفق كثير منها مع الإسلام، وذلك لتبنيهم منهج الإلحاد أو فصل الدين عن الحياة في السياسة والتدين الأخلاقي، وبعد عصر النهضة الأوروبية بدأت حملات الغزو الفكري والإعلامي في بلاد المسلمين عن طريق الاحتلال لها، وبعد احتكاك الحضارات بدأت هذه الأفكار تنتشر بشكل خطير، حتى أصبحنا في عصر العولمة، وقد صار العالم كالعقبة الصغيرة، نتيجة تقدم وسائل الاتصالات والمعلومات، وأصبحت هناك وسائل إعلامية تهتم بنشر هذه الاتجاهات علانية أو عن طريق التلميح، فأصبح المجتمع كما نراه في صراع بين الأفكار والتيارات والمذاهب الفكرية الغربية التي غزت عقولنا، وبين موروثه الحضاري القديم .

لذلك من أوجب واجبات الإعلام المخلص والقائمين عليه أن يواجهوا ظاهرة التغريب التي تغزو بلادنا ومجتمعاتنا وثقافتنا، ومواجهة أهم هذه المخاطر ومنها :

- ١ - مواجهة التغريب الذي يتم عن طريق الإعلام والتعليم معا. وكذلك التغريب الذي ييثر في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة .
- ٢ - مواجهة تيارات التغريب الفكرية الداعية للإلحاد، التي تهدد الديانات السماوية جميعها، مثل الدارونية والوجودية وغيرها .
- ٣ - مواجهة الدعوة لتقليد المرأة الغربية في كل شيء، لأن في هذا محاربة الدعوة إلى الإباحية التي تضرب المجتمعات الغربية بزعم أنها الحرية الشخصية .

والإعلام العربي والإسلامي حين يسعى إلى تحقيق هذه الأهداف السامية فإنه في جهاد عظيم في سبيل الله ﷻ، لأنهم يواجهون الإعلام الصهيوني في الحقيقة، فاليهود يفاخرون بأنهم أوجدوا علماء ليفسدوا بهم أمم الأرض مثل ((ماركس، وداروين، ونيتشه، و دوركيم، وفرويد)) وغيرهم . فـ((ماركس)) : هو صاحب التفسير المادي والتاريخي ومن ثم الشيوعية، و ((نيتشه)) : صاحب نظرية التطور الإلحادية، و ((فرويد)) صاحب الانطلاق الجنسي، و ((دوركيم)) من علماء علم الاجتماع والذي قرر الاستخفاف بدور الدين في تكوين وحياة المجتمع .

واليهود يسيطرون في الغرب على نشر الكتب وشركات توزيعها، ومؤسسات إنتاج السينما ((هوليوود)) ووكالات الأنباء العالمية منها ((انترناس)) و ((رويترز)) و ((أسوشيتد برس)) وغيرها . وكان لليهود دور كبير في نشر الأحزاب الشيوعية في العالم العربي والإسلامي .

﴿ محظورات يجب تجنبها إعلاميا ﴾

ويجب أن يترفع الإعلام الإسلامي والعربي عن هفوات ومحظورات في أداء رسالته الإعلامية للمجتمع ومنها :

- ١ - عدم بث أو نشر ما يتضمن المساس بالأديان والعقائد، حفاظا على وحدة المجتمع .
- ٢ - لا يجوز بث أو نشر ما من شأنه تهديد الأسرة أو يهز القيم التي تقوم عليها الأسرة .
- ٣ - لا يجوز بث أو نشر ألفاظ أو تعبيرات أو صور سوقية مبتذلة، تغرس في النفوس الخلاعة و الانحلال الأخلاقي بما يمس الآداب العامة أو يחדش الحياء سواء بالقول أو الأداء أو الصورة .
- ٣ - عدم بث أو نشر ما من شأنه التفرقة بين الناس بسبب لون أو جنس أو عقيدة أو طبقة .

﴿ دور الأزهر الشريف والمأمول في الارتقاء بالإعلام ﴾

وإذا نظرنا إلى حال الإعلام العربي اليوم فإننا سنجد وجهة التطرف هي المهيمنة عليه، في الأخلاق والسياسة والفن والثقافة وغير ذلك، ففي الأخلاق حدث ولا حرج عن موجة الابتذال والإسفاف التي تهيمن الآن في ساحة الفضائيات وخاصة القنوات الجديدة التي تبث مواد أقرب إلى الإباحية منها إلى الفن، وهي رسالة تحض بوضوح على الانفلات والعري والرقص الخليع و المعاكسات الشبابة والإغواء الجنسي بكل صوره، وبدرجة لا سابق لها في الإعلام العربي منذ نشأته، وهي موجة كان من عنفوانها أن اضطرت بعض القنوات الرسمية العربية إلى مجاراتها نسبيا حتى لا تخسر السوق الإعلامي الجذاب لدى المراهقين، أي أن الرسالة الفنية الآن تنحو بوضوح جهة التطرف الشديد، والمشكلة ليس فقط في هذا الجنوح الأخلاقي المستهتر وحده، وإنما في رد الفعل المقابل، لأن هناك قطاعاً آخر من المراهقين سوف يستنفر سلبيا تجاه هذه الإباحية، ويترك خياله الفكري والديني العنان لكي يوصف ذلك كله بأوصاف ليس أقلها الكفر والإلحاد، صحيح أن القاعدة الأوسع بين الشباب المسلم هي قاعدة وسطية تجرم الانفلات الأخلاقي وتدينه

وتواجهه، ولكنها تملك حصانات علمية وتربوية تحول دون التطرف المضاد، ولكن هناك بكل تأكيد فريق آخر لا يستهان به سوف يولد ذلك لديه تطرفا مضادا يمكن أن تتصاعد أفكاره و سلوكياته إلى آماذ خطيرة في المجتمع، وإذا ذهبنا تبحت عن أسباب هذا التطرف ذي الوجه الديني فسوف نجدها بكل تأكيد في ذلك التطرف الأخلاقي الذي أسسته دوائر إعلامية باعت كل شيء من أجل المكسب السريع .

وأیضا على المستوى السياسي، فإن تطرف الخطاب السياسي أحيانا يولد خطابا سياسيا مقابلا أشد تطرفا، وخاصة عندما يتم احتكار الخطاب السياسي في أوساط فكرية وعقائدية معينة دون غيرها، وحرمان الآخرين من المشاركة والحضور، فإن هذا يولد توترات نرى صخبها كثيرا في منابر الفضائيات المهتمة بالشأن السياسي، وليس من شك في أن مسألة غياب الحريات بشكل عام والتضييق عليها تعتبر بابا سحريا للغلو السياسي والإعلامي .

لذلك كان على الأزهر الشريف واجب كان يؤديه قديما في إعلامه، وإعلام الأزهر كان قبل ظهور الفضائيات الكثيرة، من أعظم وسائل الإعلام تأثيرا، لأن من وسائل الإعلام الخطب المنبرية والدروس العلمية، ومجالس الوعظ في المساجد والمآتم والمناسبات الدينية والاجتماعية، فكان بهذه الوسائل للأزهر الشريف أثره الكبير في تأسيس قيمة الوسطية الدعوية والوسطية الأخلاقية، و الوسطية الإعلامية، والوسطية السياسية، في أخلاق الفرد والمجتمع .

ولذا أصبح على الأزهر واجب وهو أن يعيد هذه المعاني إلى المجتمع مرة أخرى، وهذا ما نأمل في دوره القريب إن شاء الله، حتى يعود للمجتمع ما سلب منه من القيم والأخلاق و الاعتدال في السلوك والتفكير، والاعتزاز بحضارتنا الإسلامية والعربية .

وعلى الأزهر أن يواكب العصر الذي نعيش فيه، ويواجه موجات الغزو الثقافي والفكري و العقائدي بسلاحه، وهو إنشاء العديد من القنوات الفضائية المتخصصة في مجالات الإعلام، كقنوات تهتم بنشر منهج الأزهر الديني والعلمي للحد من ظواهر الغلو والتشدد الفكري و المذهبي ممن تصدوا للدعوة، ولم تكتمل عندهم أدواتها العلمية فضلا عن ضيق أفقهم وفكرهم، و كذلك قنوات تهتم بتنمية مهارات الشباب وتربيتهم النفسية والدينية، وقنوات للأسرة والطفل تعمل على حل المشاكل الأسرية وتربية الأطفال، بأسلوب ديني تربوي رفيع إلخ .

وعلى الأزهر أن ينشر جهوده العلمية بالتأليف والتصنيف، والمقالات، والكتيبات لمواجهة الظواهر الفكرية الغريبة، مثل الوجودية والإلحاد، وغيرها، وعلماء الأزهر هم أكثر الناس صلاحية لهذا، ومن باكورات هذا العمل الجميل الذي بعث الأمل في النفوس، وأن الأزهر بدأ في

الرجوع لدوره بقوة، هو إنشاء : ((مكتب رسالة الأزهر)) والأروقة الأزهرية، لكن نأمل في الأزهر ورجاله أن يوسعوا دائرة نشاطهم، بالقوافل الدعوية في المساجد، والندوات في المؤسسات كالمستشفيات، والمدارس، والجامعات، ودور الأيتام والجمعيات الخيرية وقصور الثقافة وغيرها، و ليتم هذا بنجاح فلا بد من تدريب صفوة الدعاة من أبناء الأزهر والأوقاف على أعلى تدريب في مجالات العلوم الحديثة، والتعرف على النظم والتيارات السياسية الحديثة، ومناهج التغريب، و تزويدهم بالمعلومات الكافية لمواجهة كل هذا، وخاصة ظاهرة الإلحاد، حتى يكون لديهم ثقافة عالية يتشنى لهم بها القيام بدورهم في الحياة والمجتمع . ولتحقيق رسالة الوسطية في المجال الإعلامي والاجتماعي . فلا بد للأزهر وعلمائه أن يعملوا على إيجاد ميثاق أخلاقي للعمل الإعلامي خاصة في هذه الأوقات التي تتسارع فيها الأحداث والتحولت في بلادنا.



وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والله ولي التوفيق

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسل تسليماً كثيراً



الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم
ياحسان إلى يوم الدين .

أما بعد .

لقد رحلنا من خلال هذا البحث في عالم القيم والأخلاق التي هي من أسس الإسلام وأصوله،
فالأخلاق أصل عظيم من أصول الرسالة التي جاء النبي ﷺ ليتمم مكارمها قال ﷺ : ((إنما بعثت
لأتمم مكارم الأخلاق))، وعرفنا من خلاله مدى الحاجة الماسة إلى هذه القيم والأخلاق التي
نستطيع بها أن نعيد للإسلام مجده وللأمة عزتها، فبالقيم السامية الكريمة غير النبي ﷺ وجه الحياة،
حتى تخرج من مدرسته أعظم الناس أخلاقاً وأكرمهم طباعاً وأرقاهم تعاملًا وسلوكاً، بعد أن
كانوا جفاة الطباع قساة القلوب غلاظ المعاملة، ولما تربوا على هذه القيم والأخلاق أصبحت
لديهم عقيدة راسخة في قلوبهم أنهم أصحاب رسالة في هذه الحياة، ألا وهي تأسيس الحياة
الكريمة التي تؤسس على التقوى والإيمان، وتحققوا بخلافة الله في الأرض، فقاموا فيها بالقسط
وأسسوها على القسط، فسمت أخلاقهم، وانتصروا بعقيدتهم الخالصة لله تعالى، وفتحوا
بأخلاقهم القلوب وملكوا بها البلاد قبل فتحها بالسيوف، ورفع الله رايتهم ونصرهم على
عدوهم .

وعلمت من خلال رحلتنا مع هذا البحث أن الإسلام هو الدين المناسب لكل زمان ومكان،
لا خلل فيه ولا نقص، لأنه الرسالة الخاتمة الكاملة، التي كتب الله تعالى لها الخلود بالرغم من الحن
والفتن التي تطرأ من حين لآخر على الإسلام والمسلمين، إلا أن الله تعالى قد كتب لدينه النصر و
الخلود، فلا تضره الفتن ولا تعصف به الحن .

وقد عرفت من خلال هذا البحث أيضاً أن الأزهر الشريف هو الامتداد التاريخي للعلم
والهدى النبوي، والورث الأعظم لهذا الهدى والعلم الشريف، وأنه كان عبر عمره المديد المبارك
يعمل على نشر رسالة الإسلام وعلومه في شتى بقاع الأرض، وذلك بما رسخه من قيم الإيمان و
أخلاقه في نفوس المسلمين، مما جعله على مرور الأزمنة الحصن الحصين للإسلام، والحارس الأمين
لذلك التراث النبوي العظيم . فالأزهر هو عرين الإسلام ودرعه، وسيفه الذي يقطع به رؤوس

الضلالة والجهل، فكان أثر الأزهر بمناهجه وعلمائه وأحوالهم في الناس وفي أخلاقهم وسلوكهم، وعقيدتهم أثرا عظيما، من نشر التسامح والتصالح في المجتمع، والوسطية في الاعتقاد، وكفالة وضمان الحريات والحقوق والعدالة الاجتماعية، وتحصين العقول من الأفكار الواهية والمناهج الخبيثة التي هي العدو خطير للفطرة الإنسانية، وعلمت مدى أثر الأزهر وعلمائه في ترسيخ التعايش السلمي في المجتمع لا فرق فيه بين مسلم وغيره في الحقوق والواجبات، مما ضمن للمجتمعات الأمن والاستقرار والطمأنينة والسلم الاجتماعي .

وذلك لأن الأزهر ورجاله هم حملة رسالة الإسلام وأمانته طوال ما يزيد على الألف عام، فهم سدنة قلعته، وحماة حصنه، هم الصوت الذي ينبعث بالصيحة الحقيقية المؤمنة التي تظهر الإسلام على حقيقته، وتعرضه عرضا ذاتيا وتكشف عن جوهره الأصيل، مما يجعلنا نقول بكل ثقة ومصداقية أن مصر والعالم الإسلامي كله مدين للأزهر الشريف فكريا وعقائديا وسياسيا، فلقد تعرضت بلاد المسلمين لثورات جامحة وغزو عسكري وفكري، فتصدى الأزهر لكل هذا وحافظ على الهوية الإسلامية والعربية، وكان الأزهر منارة الأمل التي تشع نورا في ظلام العهود السوداء التي مرت بالأمة الإسلامية، وكان حاملا للواء الحرية والحق، بل ودفع الثمن غالبا في سبيل هذا من أبنائه الذين دفعوا دماءهم ثمنا للحرية والعدل في مقاومة المستعمرين والمستبدين، وكانت هذه الدماء الطاهرة وقودا أشعل الثورات للقضاء على المحتلين والمستبدين من الطغاة والجبابرة .

وكان الأزهر ولن يزال هو نور العلم الذي انقشعت به ظلمات الجهل، ودوره في التعليم وتقدم الأمة في كل العلوم والمناهج لا ينكر ولا يخفي فكم للأزهر من أيد على العالم ؟!

وتدرك بعد كل هذا أنه قد أصبح على الأزهر واجب حتمي الأداء، وهو رجوعه بأثره وتأثيره إلى المجتمعات الإسلامية على المستوى المحلي والمستوى العالمي، ليعيد صياغة الشخصية المصرية والإسلامية من جديد، وليعيد صياغة العقول، والمهمة صعبة لكن القلوب تهفو إلى هذا الدور منه، خاصة بعد ما مر على مصر والعالم الإسلامي من إحن ومحن وفتن، أظهرت الغث من السمين، وميزت الخبيث من الطيب، وإنني لأرى الآن أرضا خصبة إن زرع فيها الأزهر زرعه الفكري والعلمي، فسيحصد عما قريب جدا ثمارا طيبة، لأن الألسنة قد انطلقت بعد طول صمت، والقلوب والعقول قد استيقظت من رقدتها، ولسان الحال والمقال : أين الأزهر وأين علماء الأزهر ؟ .

فالفُرصة مواتية لتحقيق أهداف الأزهر الشريف في ترسيخ القيم السامية الكريمة والأخلاق القويمة والنهوض بالأمة لتكون في مقدمة الأمم كما كانت .
فيا علماء الأزهر انهضوا يرحمكم الله لأداء تلكم الأمانة، وتبليغ هذه الرسالة، نصركم الله، وأيدكم الله . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد رجب محمد مصطفى على
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية

وكان الانتهاء منه بفضل العلي الوهاب في يوم الجمعة الموافق ٢٣ من ربيع الأول الأنور سنة
١٤٣٥ هـ - الموافق ٢٤ / ١ / ٢٠١٤ م .
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الفهارس

فهرس

المراجع والمصادر

(١) - كتب التفسير وعلوم القرآن

- ١ - القرآن الكريم جل من أنزله .
- ٢ - ((تفسير البضاوي)) للإمام البضاوي . ط / دار الفكر - بيروت .
- ٣ - ((جامع البيان عن تأويل آبي القرآن)) للإمام محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، ط/ دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥ .
- ٤ - ((روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)) للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادى، ط / دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٥ - ((تفسير البغوي)) للإمام البغوي، ط / دار المعرفة - بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك .
- ٦ - ((مدارك التنزيل وحقائق التأويل)) للإمام النسفي . ط / دار النفائس - بيروت - ٢٠٠٥م تحقيق الشيخ / مروان محمد الشعار .
- ٧ - ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للإمام عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، ط / دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣م .
- ٨ - ((تفسير القرآن العظيم)) للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، ط / دار الفكر - بيروت - ١٤٠١ هـ .
- ٩ - ((التفسير الكبير)) أو ((مفاتيح الغيب)) للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط / دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى .
- ١٠ - ((تفسير القرآن)) للإمام ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، ط / المكتبة العصرية - صيدا، تحقيق: أسعد محمد الطيب .
- ١١ - ((تفسير بحر العلوم)) للإمام نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، دار النشر: دار الفكر - بيروت، تحقيق: د.محمود مطرجي .

- ١٢ - ((الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) للإمام علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، دار النشر: دار القلم ، الدار الشامية - دمشق ، بيروت - ١٤١٥ ، الطبعة: الأولى، تحقيق: صفوان عدنان داوودي .
- ١٣ - ((تفسير البحر المحيط)) للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان بيروت - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق د / زكريا عبد المجيد النوقي و د/ أحمد النجولي الجمل .
- ١٤ - ((الجواهر الحسان في تفسير القرآن)) للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، دار النشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .
- ١٥ - ((الجامع لأحكام القرآن)) للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب - القاهرة .
- ١٦ - ((تفسير الجلالين)) للإمامين الجلال المحلي والجلال السيوطي، دار النشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الأولى .
- ١٧ - ((تنوير المقياس من تفسير ابن عباس)) تأليف: الفيروز آبادي، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان .
- ١٨ - ((زاد المسير في علم التفسير)) للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٤ ، الطبعة: الثالثة .
- ١٩ - ((تفسير القرآن)) للإمام أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، دار النشر: دار الوطن - الرياض - السعودية - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم .
- ٢٠ - ((تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)) تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: ابن عثيمين .
- ٢١ - ((التحرير والتنوير)) للإمام الطاهر بن عاشور - ط / دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م .
- ٢٢ - ((القواعد الأساسية في علوم القرآن)) للدكتور / محمد علوي المالكي - مطبعة الملك فهد .
- ٢٣ - ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) تأليف: الإمام محمد عبد العظيم الزرقاني، دار النشر: دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى .

- ٢٤ - ((البرهان في علوم القرآن)) تأليف: الإمام محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، دار النشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٢٥ - ((الإتيان في علوم القرآن)) تأليف: الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار النشر: دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سعيد المندوب .
- ٢٦ - ((التفسير والمفسرون)) للدكتور / محمد حسين الذهبي - ط/ مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) - كتب معاجم اللغة وغريب الكلمات :

- ٢٧ - ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي .
- ٢٨ - ((مختار الصحاح)) تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار النشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥م، الطبعة: طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر .
- ٢٩ - ((لسان العرب)) تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار النشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى .
- ٣٠ - ((القاموس المحيط)) تأليف: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت .
- ٣١ - ((التوقيف على مهمات التعاريف)) تأليف: الإمام محمد عبد الرؤوف المناوي، دار النشر: دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق - ١٤١٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رضوان الداية .
- ٣٢ - ((تاج العروس من جواهر القاموس)) للإمام محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين .
- ٣٣ - ((تاج اللغة وصحاح العربية)) للإمام الجوهري . دار النشر : دار المعرفة بيروت - طبعة ثانية ٢٠٠٧م .
- ٣٤ - ((المعجم الوسيط)) تأليف: إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية .
- ٣٥ - ((تهذيب اللغة)) تأليف: الإمام أبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، دار النشر: دار إحياء التراث العربى - بيروت - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى ، تحقيق: محمد عوض مرعب .

- ٣٦ - ((المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)) تأليف / محمد فؤاد عبد الباقي - دار المعرفة - بيروت .
- ٣٧ - ((معجم مقاييس اللغة)) تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، دار النشر: دار الجليل - بيروت - لبنان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون .
- ٣٨ - ((دستور العلماء)) أو ((جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)) تأليف: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص .
- ٣٩ - ((التعريفات)) تأليف: علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم الإياري .
- ٤٠ - ((كتاب العين)) تأليف: الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار النشر: دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د مهدي المخزومي / د إبراهيم السامرائي .
- ٤١ - ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) تأليف: القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي، دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث .
- ٤٢ - ((المغرب في ترتيب المعرب)) لأبي الفتح المطرزي - ط / مكتبة أسامة بن زيد - حلب - الطبعة الأولى ١٩٧٩م - تحقيق : محمود فاخوري وعبد الحميد مختار .
- ٤٣ - ((المحكم والمحيط الأعظم)) تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الحميد هندواوي .
- ٤٤ - ((غريب الحديث)) تأليف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، دار النشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٢، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي .
- ٤٥ - ((معجم مقاليد العلوم)) تأليف: الإمام أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار النشر: مكتبة الآداب - القاهرة - مصر - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: أ.د محمد إبراهيم عبادة .

(٣) - كتب التاريخ والتراجم :

- ٤٦ - ((الأزهر في ألف عام)) للدكتور / أحمد محمد عوف - ط / مجمع البحوث الإسلامية - ١٩٧٠م .
- ٤٧ - ((الأزهر في ألف عام)) للدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي - ط / عالم الكتب - بيروت / مكتبة الكليات الأزهرية .

- ٤٨ - ((حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)) للإمام جلال الدين السيوطي - ط / دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- ٤٩ - ((الأزهر تاريخه وتطوره)) للدكتور / محمد البهي - ط / وزارة الأوقاف وشيئون الأزهر .
- ٥٠ - ((الدولة الفاطمية)) للدكتور / علي محمد الصلابي - ط / مؤسسة اقرأ للنشر - القاهرة .
- ٥١ - ((الشيعة والتشيع فرق وتاريخ)) للأستاذ / إحسان إلهي ظهير - ط / إدارة ترجمان السنة - باكستان .
- ٥٢ - ((تاريخ المدارس في مصر الإسلامية)) للأستاذ / سعيد عبد الفتاح عاشور - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الأولى - ٢٠٠٠ م .
- ٥٣ - ((دور الأزهر في مصر إبان الحكم العثماني)) للدكتور / عبد الجواد صابر إسماعيل - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .
- ٥٤ - ((فضائل مصر المحروسة)) لابن الكندي - تحقيق / علي محمد عمر - ط / مكتبة الخانجي / والهيئة العامة للكتاب .
- ٥٥ - ((عصر محمد علي)) لعبد الرحمن الرافعي - ط / دار المعارف - ١٤٠٩ - ١٩٨٩ م .
- ٥٦ - ((فضائل مصر وأخبارها وخواصها)) لابن زولاق - تحقيق / علي محمد عمر - ط / الهيئة العامة للكتاب .
- ٥٧ - ((الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)) تأليف: الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، دار النشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد / الهند - ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان .
- ٥٨ - ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) تأليف: الإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، دار النشر: دار الجليل - بيروت - ١٤١٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي .
- ٥٩ - ((تاريخ الرسل والملوك)) للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٦٠ - ((الإصابة في تمييز الصحابة)) تأليف: الإمام أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الجليل - بيروت - ١٤١٢ - ١٩٩٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي .

- ٦١ - ((الخصائص الكبرى)) تأليف: الإمام أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٦٢ - ((الطبقات الكبرى)) تأليف: الإمام محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، دار النشر: دار صادر - بيروت .
- ٦٣ - ((صفة الصفوة)) للإمام ابن الجوزي - ط / دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٩ - ١٩٧٩ م - الطبعة الثانية - تحقيق / محمود فاخوري - ود / محمد رواس قلعة جي .
- ٦٤ - ((المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)) تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار النشر: دار صادر - بيروت - ١٣٥٨، الطبعة: الأولى .
- ٦٥ - ((مقدمة ابن خلدون)) ط / دار القلم - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨٤ م .
- ٦٦ - ((شيوخ الأزهر)) للأستاذ / سعيد عبد الرحمن - ط / الشركة العربية للنشر والتوزيع .
- ٦٧ - ((الثقات)) تأليف: الإمام محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار النشر: دار الفكر - ١٣٩٥ - ١٩٧٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد .
- ٦٨ - ((مصر في القرن الثامن عشر دراسات في تاريخ الجبرتي)) للأستاذ / محمود الشرقاوي - الطبعة الأولى - ط / دار الرسالة ١٩٥٧ م .
- ٦٩ - ((قبل أن يأتي الغرب)) (للأستاذ / ناصر عبد الله عثمان - دار الكتب والوثائق القومية - الطبعة الثانية .
- ٧٠ - ((أسد الغابة في معرفة الصحابة)) تأليف: عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي .
- ٧١ - ((تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار)) تأليف: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار النشر: دار الجيل - بيروت .
- ٧٢ - ((الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى)) تأليف: أبي العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، دار النشر: دار الكتاب - الدار البيضاء - ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م، تحقيق: جعفر الناصري / محمد الناصري .
- ٧٣ - ((رسل الملوك))، تأليف: ابن الفراء، دار النشر: دار الكتاب الجديد - بيروت، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد .

- ٧٤ - ((فتوح مصر وأخبارها)) تأليف: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد الحجيري .
- ٧٥ - ((سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه)) تأليف: أبي محمد عبد الله بن عبد الحكم، دار النشر: عالم الكتب - بيروت - لبنان - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة: السادسة، تحقيق: أحمد عبيد .
- ٧٦ - ((السيرة النبوية)) لابن هشام - دار النشر: دار الجليل - بيروت - ١٤١١، الطبعة: الأولى، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد .
- ٧٧ - ((الأعلام)) للزركلي - ط / دار العلم للملايين - بيروت - ٢٠٠٢ م .
- ٧٨ - ((زعماء الإصلاح في العصر الحديث)) للأستاذ الدكتور / أحمد أمين - دار الكتاب العربي - بيروت .
- ٧٩ - ((البداية والنهاية)) تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، دار النشر: مكتبة المعارف - بيروت .
- ٨٠ - ((سير أعلام النبلاء)) تأليف: الإمام محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي .
- ٨١ - ((المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد)) تأليف: الإمام برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح، دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض - السعودية - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين .
- ٨٢ - ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)) تأليف: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي أبو عبد الله ابن بطوطة، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د. علي المنتصر الكتاني .
- ٨٣ - ((كتاب الوفيات)) تأليف: أبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، دار النشر: دار الإقامة الجديدة - بيروت - ١٩٧٨م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عادل نويهض .
- ٨٤ - ((الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)) تأليف: إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمرى المالكي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت .

٤- كتب الحديث والشروح والتخريج :

٨٥ - ((الجامع الصحيح المختصر)) تأليف: الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار النشر: دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧ ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا .

٨٦ - ((صحيح مسلم)) تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .

٨٧ - ((صحيح ابن خزيمة)) للإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٠ - ١٩٧٠ ، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي .

٨٨ - ((صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان)) للإمام محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ - ١٩٩٣ ، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط .

٨٩ - ((المتقى من السنن المسندة)) للإمام عبد الله بن علي بن الجارود أبو محمد النيسابوري، دار النشر: مؤسسة الكتاب الثقافية - بيروت - ١٤٠٨ - ١٩٨٨ ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله عمر البارودي .

٩٠ - ((المستدرک علی الصحيحین)) للإمام محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا .

٩١ - ((المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم)) للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الهرازي الأصبهاني ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي .

٩٢ - ((الأحاديث المختارة)) للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة - ١٤١٠ ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش .

٩٣ - ((موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان)) للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة .

- ٩٤ - ((السنن)) للإمام محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، ابن ماجة ، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٩٥ - ((السنن)) لأبي داود سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار النشر: دار الفكر ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد .
- ٩٦ - ((السنن)) للإمام الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي .
- ٩٧ - ((الجامع الصحيح سنن الترمذي)) للإمام محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون .
- ٩٨ - ((السنن الكبرى)) للإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١ - ١٩٩١، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن .
- ٩٩ - ((سنن البيهقي الكبرى))، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، دار النشر: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ - ١٩٩٤، تحقيق: محمد عبد القادر عطا .
- ١٠٠ - ((السنن)) للإمام الدارقطني علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٦ - ١٩٦٦، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني .
- ١٠١ - ((المسند)) للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة - مصر .
- ١٠٢ - ((مسند أبي يعلى)) تأليف: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، دار النشر: دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى، تحقيق: حسين سليم أسد .
- ١٠٣ - ((مسند عبد الله بن عمر)) تأليف: محمد بن إبراهيم الطرسوسي أبو أمية، دار النشر: دار النفائس - بيروت - ١٣٩٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: أحمد راتب عرموش .
- ١٠٤ - ((مسند الشاميين)) تأليف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٥ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي .
- ١٠٥ - ((مسند الشهاب)) تأليف: محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي .

- ١٠٦ - ((مسند الروياني)) تأليف: محمد بن هارون الروياني أبو بكر، دار النشر: مؤسسة قرطبة - القاهرة - ١٤١٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: أيمن علي أبو يمانى .
- ١٠٧ - ((المسند)) تأليف: عبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي، دار النشر: دار الكتب العلمية ، مكتبة المتنبي - بيروت ، القاهرة، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي .
- ١٠٨ - ((مسند أمة الله مريم بنت عبد الرحمن الحنبلية)) تأليف: مريم بنت عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن، دار النشر: مكتبة القرآن - القاهرة، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم .
- ١٠٩ - ((مسند أبي داود الطيالسي)) تأليف: سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت .
- ١١٠ - ((البحر الزخار)) تأليف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، دار النشر: مؤسسة علوم القرآن ، مكتبة العلوم والحكم - بيروت ، المدينة - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله .
- ١١١ - ((المعجم الأوسط)) ، تأليف: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار النشر: دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني .
- ١١٢ - ((الروض الداني (المعجم الصغير)) لأبي القاسم الطبراني، دار النشر: المكتب الإسلامي ، دار عمار - بيروت ، عمان - ١٤٠٥ - ١٩٨٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمير .
- ١١٣ - ((المعجم الكبير)) لأبي القاسم الطبراني، دار النشر: مكتبة الزهراء - الموصل - ١٤٠٤ - ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي .
- ١١٤ - ((مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه)) تأليف: أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكنانى، دار النشر: دار العربية - بيروت - ١٤٠٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي .
- ١١٥ - ((مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)) تأليف: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار النشر: دار الريان للتراث / دار الكتاب العربي - القاهرة ، بيروت - ١٤٠٧ .
- ١١٦ - ((المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة)) ، تأليف: أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عثمان الخشت .

- ١١٧ - ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) تأليف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، دار النشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - ١٣٨٧، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري .
- ١١٨ - ((صحيح مسلم بشرح النووي)) تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية .
- ١١٩ - ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب .
- ١٢٠ - ((إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين)) للمرتضى الزبيدي - ط / مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - ١٩٩٤ - ١٤١٤ هـ .
- ١٢١ - ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) تأليف: الإمام علي بن سلطان محمد القاري، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني .
- ١٢٢ - ((شعب الإيمان)) تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول .
- ١٢٣ - ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) ، تأليف: الإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة .
- ١٢٤ - ((دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة)) للإمام البيهقي - تحقيق الدكتور / عبد المعطي قلعجي - دار الكتب العلمية ودار الريان - الطبعة الأولى - ١٩٨٨ م .
- ١٢٥ - ((الترغيب والترهيب من الحديث الشريف)) تأليف: الإمام عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم شمس الدين .
- ١٢٦ - ((الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة خلفاء)) تأليف: أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، دار النشر: عالم الكتب - بيروت - ١٤١٧ هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د . محمد كمال الدين عز الدين علي .
- ١٢٧ - ((الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار)) تأليف: الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت .

١٢٨ - ((فضائل الصحابة)) تأليف: الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٣ - ١٩٨٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس .

١٢٩ - ((أصول السرخسي)) تأليف: للإمام محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر، دار النشر: دار المعرفة - بيروت .

١٣٠ - ((الرياض النضرة في مناقب العشرة)) تأليف: أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري أبو جعفر، دار النشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٩٩٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: عيسى عبد الله محمد مانع الحميري .

١٣١ - ((الإيمان)) لابن منده تأليف: محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي .

١٣٢ - ((تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين)) تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار القلم - بيروت - لبنان - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى .

١٣٣ - ((الفردوس بمأثور الخطاب)) تأليف: أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي اهمذاني الملقب إلكيا، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول .

١٣٤ - ((ثمرات النظر في علم الأثر)) تأليف: محمد بن إسماعيل الأمير الحسيني الصنعاني، دار النشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة .

١٣٥ - ((الفوائد)) تأليف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن عيسى ابن منده، دار النشر: مكتبة القرآن - القاهرة، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم .

١٣٦ - ((بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار)) تأليف: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد المزيدي .

١٣٧ - ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت .

١٣٨ - ((عون المعبود شرح سنن أبي داود)) تأليف: محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥ م، الطبعة: الثانية .

- ١٣٩ - ((كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال)) تأليف: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود عمر الدمياطي .
- ١٤٠ - ((تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي)) تأليف: محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٤١ - ((الزهد)) تأليف: هناد بن السري الكوفي، دار النشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت - ١٤٠٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي .
- ١٤٢ - ((الزهد)) تأليف: عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي .
- ١٤٣ - ((الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى)) تأليف: نور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملا علي القاري، دار النشر: دار الأمانة / مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، تحقيق: محمد الصباغ .
- ١٤٤ - ((فيض القدير شرح الجامع الصغير)) تأليف: عبد الرؤوف المناوي، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر - ١٣٥٦ هـ، الطبعة: الأولى .
- ١٤٥ - ((قضاء الحوائج)) تأليف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار النشر: مكتبة القرآن - القاهرة، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم .
- ١٤٦ - ((شرح مشكل الآثار)) تأليف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - لبنان/ بيروت - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: شعيب الأرنؤوط .
- ١٤٧ - ((طرح الشريب في شرح التقريب)) ، تأليف: زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسيني العراقي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد القادر محمد علي .
- ١٤٨ - ((الآداب الشرعية والمنح المرعية)) تأليف: الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط / عمر القيام .
- ١٤٩ - ((مكارم الأخلاق)) تأليف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار النشر: مكتبة القرآن - القاهرة - ١٤١١ - ١٩٩٠، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم .

- ١٥٠ - ((الشكر)) تأليف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار النشر: المكتب الإسلامي - الكويت - ١٤٠٠ - ١٩٨٠، الطبعة: الثالثة، تحقيق: بدر البدر .
- ١٥١ - ((التدوين في أخبار قزوين)) تأليف: عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٧م، تحقيق: عزيز الله العطاري .
- ١٥٢ - ((فضيلة الشكر لله على نعمته)) تأليف: محمد بن جعفر بن محمد بن سهل السامري أبو بكر، دار النشر: دار الفكر - دمشق - ١٤٠٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد مطيع الحافظ ، د. عبد الكريم اليافي .
- ١٥٣ - ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف .
- ١٥٤ - ((تاريخ المدينة المنورة)) تأليف: أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان .
- ١٥٥ - ((كتاب الأربعين)) تأليف: أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي، دار النشر: دار ابن حزم - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: مشعل بن باني الجبرين المطيري .
- ١٥٦ - ((المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية)) تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار النشر: دار العاصمة / دار الغيث - السعودية - ١٤١٩هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري .
- ١٥٧ - ((العجالة في الأحاديث المسلسلة)) تأليف: أبي الفيض محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي، دار النشر: دار البصائر - دمشق - ١٩٨٥، الطبعة: الثانية .
- ١٥٨ - ((جزء لؤلؤ)) تأليف: لؤلؤ بن أحمد بن عبد الله الضرير، دار النشر: دار الصحابة للتراث - مصر - طنطا - ١٩٨٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: مجدي فتحي السيد .
- ١٥٩ - ((مجلس في حديث جابر الذي رحل فيه مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس)) تأليف: محمد بن عبد الله بن محمد بن علي القيسي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الريان - بيروت - ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: مشعل بن باني الجبرين المطيري .
- ١٦٠ - ((مشيخة أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي الحنبلي)) تأليف: أبو محمد بن محمد البرزالي، دار النشر: دار البشائر - دمشق - سوريا - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم صالح .

١٦١ - ((جزء حنبل التاسع من فوائد ابن السماك))، تأليف: ابن السماك ، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية / الرياض - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، الطبعة: الأولى / يرجى مراجعة اسم المؤلف ومراجعة الكتاب ثانية ، تحقيق: هشام بن محمد .

١٦٢ - ((مجموع فيه مصنفات أبي جعفر ابن البخاري)) تأليف: محمد بن عمرو بن البخاري بن مدرك بن سليمان البغدادي الرزاز، دار النشر: دار البشائر الإسلامية - لبنان / بيروت - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، الطبعة: الأولى ، تحقيق: نبيل سعد الدين جرار .

١٦٣ - ((مشيخة ابن البخاري)) تأليف: جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري الحنفي، دار النشر: دار عالم الفوائد - مكة / السعودية - ١٤١٩هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عوض عتقي سعد الحازمي .

١٦٤ - ((خصائص مسند الإمام أحمد)) تأليف: محمد بن عمر بن أحمد المديني أبو موسى، دار النشر: مكتبة التوبة - الرياض - ١٤١٠هـ .

١٦٥ - ((صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمائته من الإسقاط والسقط)) تأليف: عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الكردي الشهرزوري أبو عمرو، دار النشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٨هـ ، الطبعة: الثانية، تحقيق: موفق عبدالله القادر .

١٦٦ - ((الأدب المفرد)) تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار النشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .

١٦٧ - ((تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي)) تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار النشر: مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف .

(٥) - كتب العقيدة والأخلاق والرقائق ؛

١٦٨ - ((إحياء علوم الدين)) تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار النشر: دار المعرفة - بيروت .

١٦٩ - ((تحفة المريد على جوهرة التوحيد)) بتعليق / محمد بن صالح الغرسي .

١٧٠ - ((أهل السنة الأشاعرة شهادة علماء الأمة وأدلتهم)) حمد السنان وفوزي العنجري . ط / دار الضياء .

- ١٧١ - ((رسالة إلى أهل الثغر)) تأليف: علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري، دار النشر: مكتبة العلوم والحكم - السعودية - لبنان - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله شاكِر المصري .
- ١٧٢ - ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة))، تأليف: هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، دار النشر: دار طيبة - الرياض - ١٤٠٢، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان .
- ١٧٣ - ((أساس التقديس في علم الكلام)) تأليف: الإمام فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، الطبعة: الأولى .
- ١٧٤ - ((دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه)) تأليف: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، دار النشر: دار الإمام النووي - الأردن - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: حسن السقاف .
- ١٧٥ - ((تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري)) تأليف: علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٤، الطبعة: الثالثة .
- ١٧٦ - ((مباحث في علم التوحيد)) للدكتور / محمد سيد طنطاوي .
- ١٧٧ - ((الإيمان وشعبه)) للشيخ / فتحي منصور على منصور .
- ١٧٨ - ((حاشية العلامة الدسوقي على أم البراهين)) ط / دار البصائر - القاهرة .
- ١٧٩ - ((التعرف لمذهب أهل التصوف))، تأليف: محمد الكلاباذي أبو بكر، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٠ هـ .
- ١٨٠ - ((شرح المقاصد في علم الكلام)) تأليف: سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، دار النشر: دار المعارف النعمانية - باكستان - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، الطبعة: الأولى .
- ١٨١ - ((الإيمان بالكتب)) للشيخ / محمد بن إبراهيم الحمد .
- ١٨٢ - ((إفحام اليهود وقصة إسلام السمؤال ورؤياه النبي ﷺ)) تأليف: الإمام المهدي السمؤال بن يحيى المغربي، دار النشر: دار الجليل - بيروت - ١٤١٠ - ١٩٩٠، الطبعة: الثالثة، تحقيق: الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي .
- ١٨٣ - ((بشارات العهد القديم بمحمد ﷺ)) للدكتور محمد عبد الله السحيم .

- ١٨٤ - ((البارقليط)) للباحث زهدي جمال الدين (كتاب إلكتروني) .
- ١٨٥ - ((دلالة الإيمان بالرسول والكتب المنزلة على صدق القرآن وقوة الإيمان)) للدكتور / عبد الرافع حمد الأمين - بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - العدد الخامس - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- ١٨٦ - ((الحكمة من إرسال الرسل)) للشيخ / عبد الرازق عفيفي .
- ١٨٧ - ((كتاب المواقف)) تأليف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، دار النشر: دار الجليل - لبنان - بيروت - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الرحمن عميرة .
- ١٨٨ - ((الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية)) تأليف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى أبو منصور، دار النشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٧٧، الطبعة: الثانية.
- ١٨٩ - ((الغنية في أصول الدين)) تأليف: أبو سعيد عبد الرحمن النيسابوري المتولي، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٧ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر .
- ١٩٠ - ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) للقاضي عياض - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .
- ١٩١ - ((العين والأثر في عقائد أهل الأثر)) تأليف: عبد الباقي المواهبي الحنبلي، دار النشر: دار المأمون للتراث - لبنان - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عصام رواس قلعجي .
- ١٩٢ - ((كتاب أصول الدين)) تأليف: جمال الدين أحمد بن محمد الغزنوي الحنفي، دار النشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان - ١٤١٩ - ١٩٩٨، الطبعة: الأولى، تحقيق: الدكتور عمر وفيق الداعوق .
- ١٩٣ - ((فوائد الإيمان بالقضاء والقدر)) للدكتور / محمد ربيع جوهري .
- ١٩٤ - ((الرسالة)) للإمام أبي القاسم القشيري - تحقيق الدكتور / عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف - دار المعارف القاهرة .
- ١٩٥ - ((من أخلاق القرآن الكريم الإخلاص والصدق)) للدكتور / محمد بن عبد الله بن محمد العيدي - مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٩ .
- ١٩٦ - ((منازل السائرين)) تأليف: عبد الله الأنصاري الهروي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م.

- ١٩٧ - ((مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)) لابن القيم - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣ - ١٩٧٣ ، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي .
- ١٩٨ - ((جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم)) لابن رجب زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، الطبعة: السابعة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط / إبراهيم باجس .
- ١٩٩ - ((الوسطية مطلباً شرعياً)) للدكتور وهبة الزحيلي .
- ٢٠٠ - ((مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة)) لابن القيم - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢٠١ - ((إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)) لابن القيم - دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٥ - ١٩٧٥ ، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي .
- ٢٠٢ - ((ذم الهوى)) تأليف: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي - ١٩٦٢ ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد .
- ٢٠٣ - ((إيقاظ المهمم شرح الحكم)) لابن عجيبة - دار جوامع الكلم - القاهرة .
- ٢٠٤ - ((تسلية أهل المصائب)) تأليف: أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٦ ، الطبعة: الأولى .
- ٢٠٥ - ((الرسول)) للأستاذ / سعيد حوى - مكتبة وهبة - القاهرة .
- ٢٠٦ - ((أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب)) تأليف: يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أبو يوسف، دار النشر: دار الصحابة للتراث - طنطا - ١٤٠٩ - ١٩٨٩ ، الطبعة: الأولى، تحقيق: سمير حلي .
- ٢٠٧ - ((فضائح الباطنية)) تأليف: محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار النشر: مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت، تحقيق: عبد الرحمن بدوي .
- ٢٠٨ - ((حق الحرية في العالم)) للدكتور وهبة الزحيلي - دار الفكر العربي - دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .
- ٢٠٩ - ((دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي)) للدكتور / يوسف القرضاوي - مكتبة وهبة القاهرة - طبعة أولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- ٢١٠ - ((الإنسان بين المادية والإسلام)) للأستاذ / محمد قطب - دار الشروق بيروت - ١٩٩٥ م .

- ٢١١ - ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) تأليف: ابن حجر الهيتمي، دار النشر: المكتبة العصرية - لبنان / صيدا - بيروت - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز.
- ٢١٢ - ((الرد على الجهمية)) تأليف: عثمان بن سعيد الدارمي أبو سعيد، دار النشر: دار ابن الأثير - الكويت - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر .

(٦) - كتب الفقه والقضايا الفقهية :

- ٢١٣ - ((المجموع)) تأليف: النووي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٩٩٧ م .
- ٢١٤ - ((الفتاوى)) للعز بن عبد السلام - تحقيق / عبد الرحمن بن عبد الفتاح - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ٢١٥ - ((حاشية رد المحتار على الدر المختار)) لابن عابدين - دار الفكر - بيروت - لبنان - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ٢١٦ - ((المدخل)) تأليف: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، دار النشر: دار الفكر - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ٢١٧ - ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) .
- ٢١٨ - ((فلسفة مقاصد التشريع في الفقه الإسلامي)) للأستاذ / خليفة بابكر الحسن - دار الفكر - الخرطوم .
- ٢١٩ - ((الزبدة الفقهية في شرح الروضة البهية)) للأستاذ / محمد حسن ترحيني - مؤسسة العروة الوثقى / دار الهادي - بيروت - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .
- ٢٢٠ - ((الموافقات)) للإمام الشاطبي - تحقيق الأستاذ / إبراهيم رمضان - دار المعرفة - بيروت ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م - الطبعة الثالثة .
- ٢٢١ - ((المحلى)) تأليف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، دار النشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي .
- ٢٢٢ - ((المدخل إلى السياسة الشرعية)) للأستاذ الدكتور / عبد العال أحمد عطوة - طبعة مجلة الأزهر .
- ٢٢٣ - ((أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام)) للشيخ / عطية صقر - دار الغد العربي .

٢٢٤ - ((أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام)) للدكتور / عبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة ١٤٠٨ م .

(٧) - كتب ومراجع متنوعة :

٢٢٥ - ((الأزهر الشريف وأثره في تكوين الشخصية المصرية)) للدكتور / رشوان أبو زيد - ط/ مكتب رسالة الأزهر .

٢٢٦ - ((أليس الصبح بقريب)) للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس / دار السلام القاهرة .

٢٢٧ - ((الأزهر أثر وثقافة)) للأستاذة / سعاد ماهر - ط / المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية .

٢٢٨ - ((مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)) للإمام أبي الحسن الأشعري - ط / الهيئة العامة لقصور الثقافة .

٢٢٩ - ((التجربة المصرية)) للدكتور / علي جمعة - ط / نهضة مصر ٢٠٠٨ م - الطبعة الأولى .

٢٣٠ - ((شخصية مصر وتعدد الأبعاد والجوانب)) للأستاذ / جمال حمدان - مكتبة مدبولي - القاهرة .

٢٣١ - ((الأزهر الشريف وأثره في صناعة ثقافة العالم)) للدكتور / أسامة السيد الأزهرى - طبعة مكتب رسالة الأزهر .

٢٣٢ - ((دور الأزهر في أفريقيا)) للدكتور / شوقي عطا الله الجمل - ط / مركز وثائق وتاريخ مصر .

٢٣٣ - ((سمات الشخصية الأزهرية)) للأستاذ / عماد الدين صلاح الأزهرى - ط/ مكتب رسالة الأزهر .

٢٣٤ - ((القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي)) للدكتور / فهمي محمد علوان - ط / الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٩ م .

٢٣٥ - ((دور المعلم في تعزيز القيم الإيمانية لدى طلبة المرحلة الثانوية)) للباحث / أحمد موسى أحمد برهوم - ط/ منشورات الجامعة الإسلامية بغزة .

٢٣٦ - ((التدين والصحة النفسية)) للدكتور صالح بن إبراهيم بن عبد اللطيف الصنيع - ط / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

- ٢٣٧ - ((الدين والتدين)) للدكتور / محمد حسين الذهبي - مجلة البحوث الإسلامية - العدد الأول - إصدار رجب إلى رمضان ١٣٩٥ هـ .
- ٢٣٨ - ((الوحي المحمدي)) للشيخ / محمد رشيد رضا - دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٥ - ١٤٢٦ هـ .
- ٢٣٩ - ((فصول من الأخلاق الإسلامية)) للأستاذ / عبد الله بن سيف الأزدي - دار الأندلس ٢٠٠٠ م .
- ٢٤٠ - ((تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)) لابن مسكويه - الطبعة الثانية - تقديم / حسن تميم - مكتبة الحياة للطبع والنشر - بيروت .
- ٢٤١ - ((أصول الدعوة)) للدكتور / عبد الكريم زيدان - الطبعة الثالثة - دار العرفان ١٤٠٨ هـ .
- ٢٤٢ - ((علم الأخلاق الإسلامية)) لمقداد بالجن محمد علي - دار عالم الكتب للطباعة والنشر - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
- ٢٤٣ - ((الأخلاق والقيم في الحضارة الإسلامية)) للدكتور / راغب السرجاني .
- ٢٤٤ - ((تهذيب الأخلاق)) لابن عدي - طبعة ١٩١٣ م .
- ٢٤٥ - ((دور الأسرة المسلمة في تفعيل قيمة الوسطية كمنهج حياتي للشباب)) للدكتورة / حنان محمد درويش .
- ٢٤٦ - ((رسالة الأزهر)) عدد شهر رمضان ١٤٣٢ هـ .
- ٢٤٧ - ((رسالة الأزهر)) عدد شهر ذي القعدة ١٤٣٢ هـ .
- ٢٤٨ - ((العقد الفريد)) تأليف: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت / لبنان - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، الطبعة: الثالثة .
- ٢٤٩ - ((الدعوة للإسلام)) للسير توماس أرنولد - ترجمة أ / حسن إبراهيم حسن و أ / عبد المجيد عابدين ، وأ / إسماعيل النحراوي .
- ٢٥٠ - ((مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني)) أ / علي إبراهيم حسن .
- ٢٥١ - ((رسالة الأزهر)) عدد شهر رمضان ١٤٣٢ هـ .
- ٢٥٢ - ((العدالة الاجتماعية في الاقتصاد الإسلامي)) ورقة عمل قدمت للمؤتمر العالمي التاسع للاقتصاد والتمويل الإسلامي - إسطنبول - تركيا - ٩ / ١١ / ٢٠١٣ م .

- ٢٥٣ - ((التكافل الاجتماعي في الإسلام)) للأستاذ / عبد الله علوان - ط / دار السلام - القاهرة ٢٠٠١ م .
- ٢٥٤ - ((التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية)) أ / محمد الصالح - دار العبيكان - الرياض ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م - الطبعة الثانية .
- ٢٥٥ - ((قالوا عن الإسلام)) للدكتور عماد خليل - ط / دار ابن كثير .
- ٢٥٦ - ((الحريات العامة في الفكر الإسلامي)) أ / عبد الحكيم حسن العيلي - دار الفكر العربي ١٩٨٣ م .
- ٢٥٧ - ((آثار الحرب في الفقه الإسلامي)) للدكتور وهبة الزحيلي - دار الفكر - دمشق - الطبعة الخامسة - ٢٠١٢ م .
- ٢٥٨ - ((حقوق الإنسان)) للشيخ / محمد الغزالي - المكتبة التجارية - مصر - ١٩٦٣ م .
- ٢٥٩ - ((النظام السياسي الإسلامي مقارنا بالدولة)) أ / منير حميد البياتي - دار النفائس - الطبعة الثانية - ٢٠١١ م .
- ٢٦٠ - ((نظام الجريمة والعقاب في الإسلام)) أ / علي منصور .
- ٢٦١ - ((ودخلت الخيل الأزهر)) أ / جلال كشك - الطبعة الثالثة - الزهراء للإعلام العربي .
- ٢٦٢ - ((مجلة الأمة)) عدد (٤٠) سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ٢٦٣ - ((مسلمون ثوار)) للدكتور محمد عمارة - دار الشروق ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٨ م .
- ٢٦٤ - ((الأعمال الكاملة)) للإمام محمد عبده - تحقيق الدكتور / محمد عمارة - دار الشروق القاهرة - الأولى ١٩٩٣ م .
- ٢٦٥ - ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) تأليف: محمد بن حبان البستي أبو حاتم، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٧ - ١٩٧٧، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد .
- ٢٦٦ - ((المستطرف في كل فن مستظرف)) تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، الطبعة: الثانية ، تحقيق: مفيد محمد قميحة .
- ٢٦٧ - ((الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية)) .
- ٢٦٨ - ((المقارنات القانونية لمبدأ المواطنة في المنظومة التشريعية الأردنية ودلالات الممارسات السياسية)) ط / الركن الوطني لحقوق الإنسان .

- ٢٦٩ - ((دور كليات التربية في تنمية قيم المواطنة لدى الطلبة المعلمين بمحافظة غزة)) لبسام محمد أبو حشيش - بمجلة جامعة الأقصى - العدد الأول يناير ٢٠١٠ م.
- ٢٧٠ - ((الموسوعة السياسية)) ط / المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت .

٨ - المقالات والمواقع الالكترونية :

- ٢٧١ - مقال : ((تجديد الإسلام رسالة الأزهر في القرن العشرين)) - رابط الكتروني .
- ٢٧١ - مقال : ((الأزهر هو الملاذ الآمن)) للأستاذ الدكتور / مرزوق أولاد عبد الله .
- ٢٧٢ - مقال : ((الأزهر ووسطية الإسلام)) للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل القوصي .
- ٢٧٣ - مقال : ((الأزهر وعالمية الإسلام)) للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل القوصي .
- ٢٧٤ - مقال : ((إياكم والأزهر هبة الإسلام)) للأستاذ الدكتور / أحمد محمود كريمة .
- ٢٧٥ - مقال : ((الأزهر الشريف والشخصية المصرية)) للأستاذ / حمد الله حافظ الصفتي .
- ٢٧٦ - مقال : ((الشخصية الأزهرية ومنهج الإصلاح)) للأستاذ / حمد الله حافظ الصفتي .
- ٢٧٧ - مقال : ((مفهوم التدين أبعاده وأنماطه وضوابطه)) بقلم د / صبري محمد خليل . (رابط الكتروني) .
- ٢٧٨ - مقال : ((موقف أزهرى كيف قام الأزهر بتأمين أهل الكتاب بمصر)) بقلم أ / محمد السيد الصياد الأزهرى - ط / مكتب رسالة الأزهر .
- ٢٧٩ - مقال : ((دور الشباب في بناء الأمة)) للدكتور على جمعة - الأهرام - ١٦ / ١٠ / ٢٠١١ .
- ٢٨٠ - مقال : ((الاستعمار التشريعي في بلادنا)) للشيخ محمد الغزالي - مجلة الأزهر عدد شهر جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ - مايو ٢٠١٢ م .
- ٢٨١ - مقال : ((مواقف خالدة لعلماء الأزهر)) للدكتور / محمد رجب البيومي . (رابط إلكتروني) .
- ٢٨٢ - مقال : ((المواطنة في الكويت مكونات وتحديات)) مجلة العلوم الإنسانية السنة السابعة عدد ٤٥ ربيع أول ٢٠١٠ م .
- ٢٨٣ - مقال : ((المواطنة استراتيجية للوقاية من الفساد المالي والإداري)) أ / خضري حمزة - مجلة العلوم الإنسانية - السنة السابعة - عدد ٤٥ .

- ٢٨٤ - مقال : ((وثيقة المدينة ودستور المواطنة)) للدكتور / علي جمعة - ١٨ / ٨ / ٢٠١٣ م - الأهرام .
- ٢٨٥ - مقال : ((مسئولية المسلم نحو وطنه)) للدكتور / علي جمعة - الأهرام - ١٨ / ٩ / ٢٠١١ م .
- ٢٨٦ - موقع : ((مشيخة الأزهر)) .
- ٢٨٧ - مقال : ((الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية)) للدكتور / محمد عمارة - الأهرام الديمقراطية - ٢٠ / ١٢ / ٢٠١٢ م .
- ٢٨٨ - موقع : ((قصة الإسلام)) .
- ٢٨٩ - موقع : ((الجمعية الكويتية للعمل الوطني)) .

مَشَتْ



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- الأزهر الشريف عظمة الاسم بين الدلالة والواقع .	٧
- الأزهر الوريث الأعظم للهدي النبوي .	٨
- الأزهر الشريف المبلغ العظيم لعلوم النبوة .	١٠
- الأزهر الشريف وريث دار الأرقم .	١١
- الأزهر والفاطميين .	١٣
- كرامة الأزهر الأولى .	١٦
- الأزهر والدولة الأيوبية .	٢٠
- الكرامة الثانية للأزهر الشريف .	٢٢
- الأزهر في عصر المماليك .	٢٣
- الكرامة الثالثة للأزهر الشريف .	٢٥
- دور الأزهر في الحفاظ على تراث الأمة .	٢٧
- الأزهر الشريف في ظلال العثمانيين .	
- الكرامة الرابعة للأزهر الشريف .	٣١
- الأزهر في عهد محمد علي .	
- مكانة الأزهر العالمية .	٣٣
- دور الأزهر في الحفاظ على العلوم الإسلامية والعربية .	٣٨
- الأزهر ودوره في حياة الأمة الإسلامية والعربية .	٤١
- معاهد الأزهر خارج مصر .	٤٤
- دور الأزهر في آسيا ودول الغرب .	٤٥
- دور الأزهر في بناء الشخصية الأزهرية كما يجب أن تكون .	٥١
- تمهيد في مفهوم ((القيم)) .	٥٩
	٦٣

القيم الدينية والروحية

٦٣	- قيمة التدين .
	- مفهوم الدين .
٦٤	- الفرق بين الدين والتدين .
٦٥	- دور الأزهر في ترسيخ مفهوم التدين ودرجاته .
٦٦	- المأمول في دور الأزهر .
٦٧	- قيمة ترسيخ العقيدة في القلوب .
٦٩	- قيمة الإيمان بالله ﷻ .
٧٢	- دور علماء الأزهر في ترسيخ قيمة الإيمان بالله ومعرفته .
٧٣	- قضيتا التفويض والتأويل للصفات الخيرية .
٧٥	- التأويل حق وفيه الخلاص من فتني التجسيم والتعطيل .
٧٦	- شهادات العلماء لمنهجي التفويض والتأويل .
٧٩	- أقوال العلماء في منهج التأويل في بعض الآيات .
٨١	- شهادات علماء الأمة لصحة تأويل الأشاعرة .
٨٣	- أمثلة من التأويل عند السلف .
٨٦	- منهج الأزهر الشريف يضمن استقرار العقيدة ودفع الوسوس .
٨٨	- علماء الأمة وسوادها الأعظم على عقيدة الأزهر .
٩٣	- قيمة إقامة البراهين العقلية والنقلية على وجود الله ﷻ .
٩٥	- إحياء هذه القيمة في عصرنا .
٩٨	- قيمة الإيمان بالملائكة .
	- عالم الملائكة .
٩٩	- خلق الملائكة ومسكنها .
١٠٠	- قدر البشر عند الله تعالى وقدر الملائكة .
	- ذكر بعضهم في القرآن .
١٠١	- أعمالهم عليهم السلام .
	- رحلة الملائكة مع ابن آدم من المهد إلى اللحد .

١٠٩	- قيمة الإيمان بالكتب السماوية .
١١١	- مزايا القرآن الكريم عن غيره من الكتب السماوية
١١٣	- ذكر الكتب السماوية الأخرى .
١١٦	- حكم الكتب السماوية قبل وبعد التحريف .
١١٨	- صور من البشارات بالنبي ﷺ في الكتب السابقة .
١٢٢	- هل نؤمن بهذه الكتب المحرفة ؟ .
١٢٤	- ما هو واجب المسلم تجاه هذه الكتب .
١٢٥	- دور علماء الأزهر في ترسيخ قيمة احترام المخالفين في الدين .
١٢٧	- قيمة الإيمان بالرسول .
١٢٨	- الفرق بين النبي والرسول .
١٢٩	- إرسال الرسول من نعم الله العظمى .
١٣٠	- الحكمة من إرسال الرسول .
١٣١	- وظيفة الرسول .
١٣٤	- صفات الرسول .
١٣٨	- دور الأزهر في إحياء قيمة الأمانة .
١٤٣	- عدد الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام .
١٤٤	- أولوا العزم من الرسل .
	- وجوب الإيمان بهم .
	- وجوب الإيمان بمعجزاتهم .
١٤٧	- تنوع معجزاتهم مع بيان الحكمة من هذا .
١٤٩	- الفرق بين المعجزات والكرامة والسحر .
١٥١	- لا نفرق بين أحد منهم .
١٥٢	- حقوق الرسول على المسلمين .
١٥٣	- حكم الإسلام فيمن ينتقصهم أو يسبهم .
١٥٤	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة الإيمان بالرسول والتأدب معهم .
١٦٠	- قيمة الإيمان بالقضاء والقدر .
١٦١	- معاني كلمة القضاء في القرآن .
١٦٢	- تعريف القدر .

١٦٣	- معاني القدر في القرآن .
١٦٤	- أدلة الإيمان بالقضاء والقدر .
١٦٥	- القدر قدرا .
١٦٧	- حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر .
١٦٩	- ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر .
١٧٢	- أثر الإيمان بالقضاء والقدر .
١٧٣	- هل القضاء والقدر هو الجبر .
	- هل وجود القضاء والقضاء والقدر يسلب الإنسان اختياره .
١٧٤	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة الإيمان بالقضاء والقدر .
١٧٧	- دور الأزهر المأمول في إقرار التعايش السلمي بهذه القيم .
١٨٠	القيم الأخلاقية
١٨١	- القيم الأخلاقية والروحية .
١٨٤	- تعريف الأخلاق لغة واصطلاحا .
١٨٥	- أهمية الأخلاق .
١٨٦	- الحضارات السابقة والأخلاق .
١٨٨	- قيمة التدين .
١٩٠	- قيمة إخلاص العبودية لله .
	- أهمية الأخلاق .
١٩١	- حقيقة الإخلاص .
١٩٣	- درجات الإخلاص .
١٩٤	- من ثمرات الإخلاص .
	- تلازم الإخلاص والصدق .
١٩٥	- الفرق بين الإخلاص والصدق .
	- قيمة الصدق .
١٩٦	- أهمية الصدق .

١٩٧	- الصدق مفتاح لكل خير .
١٩٨	- قيمة الاستقامة .
٢٠١	- أهمية الاستقامة .
	- أسباب تعين على الاستقامة .
٢٠٢	- ثمار الاستقامة ونتائجها .
٢٠٣	- قيمة الاعتصام بالكتاب والسنة .
	- حاجة المسلمين للاعتصام بالكتاب والسنة .
٢٠٤	- فوائد الاعتصام بالكتاب والسنة .
٢٠٦	- قيمة الوسطية في الدين .
٢٠٩	- ميزات وخصائص الوسطية .
	- أهمية الوسطية والاعتدال .
٢١٠	- دور الأزهر الشريف في نشر الوسطية .
٢١٢	- دور الأزهر المأمول في تأسيس الوسطية .
٢١٣	- محبة النبي ﷺ .
٢١٥	- إثثار حبه وحب ما يرضيه على كل محبوب للنفس .
٢١٦	- توقيره ﷺ واحترامه والأدب معه .
٢١٧	- أدبهم عند ذكر اسمه الشريف ﷺ .
٢١٩	- لزوم القلب واللسان للصلاة عليه .
٢٢٠	- حب آل بيته ﷺ لحبه .
٢٢١	- اعتقاد حرمة دماء المسلمين .
٢٢٣	- الخوف على المسلم والحرص على حياته .
	- تأمين المسلم وحرمة ترويعه .
٢٢٤	- احترام المسلمين وتوقيرهم ومراعاة رحم الإسلام بينهم .
٢٢٥	- تعظيم حرمة عقيدة المسلم وعدم الحكم عليه بشيء .
٢٢٦	- حرمة شتم المسلم وسبه .
٢٢٧	- تحريم غيبة المسلم .
٢٢٩	- تحريم تجسس عورات المسلمين وزلاتهم .
٢٣٠	- وجوب ستر المسلم .

٢٣٣	- العفو والصفح عن المسلمين .
٢٣٥	- حسن الظن بالمسلمين وتأويل أفعالهم .
٢٣٦	- وجوب بغض المعصية لا العاصي .
٢٣٧	- سلامة الصدر من الغش والحسد للمسلمين .
٢٣٨	- الفرح بحسن حال المسلمين .
٢٣٩	- قضاء حوائج المسلمين .
٢٤١	- إكرام العلماء والصالحين وتوقيرهم .
٢٤٣	- إكرام المسلمين حتى مع الاختلاف .
٢٤٥	- إكرام ضعفاء وفقراء المسلمين واحترامهم .
٢٤٦	- دور الأزهر في ترسيخ هذه القيم .
٢٤٧	- المأمول في دور الأزهر في إقرار التعايش السلمي بهذه القيم .
القيم السلوكية	
٢٤٩	- قيمة التواضع .
٢٥٢	- التواضع في القرآن والسنة .
٢٥٥	- التواضع في مفهوم الصالحين .
	- أنواع التواضع .
٢٥٦	- للمتواضع والمتكبر علامات لا تخفي .
	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة التواضع .
٢٥٩	- دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة التواضع .
٢٦٢	- قيمة خلق ((الحلم)) .
	- فضل الحلم .
٢٦٣	- الحلم من أخلاق الأنبياء والرسل .
٢٦٦	- دور الأزهر في إحياء قيمة الحلم .
٢٦٩	- قيمة الحياء .
٢٧٠	- أهمية الحياء .
	- مفهوم الحياء عند الصالحين .

٢٧١	- الحياء من أعظم أخلاق الإسلام .
٢٧٢	- أنواع الحياء ودرجاته .
٢٧٤	- الحياء من صفات النبيين والصالحين .
	- دور الأزهر المأمول في إحياء قيمة الحياء .
٢٧٥	- قيمة خلق ((الرحمة)) .
	- الرحمة من صفات الله ﷻ .
٢٧٦	- الرحمة خلق النبي ﷺ العظيم .
٢٧٩	- الرحمة من أعظم أخلاق المسلمين .
٢٨٠	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة الرحمة .
٢٨١	- قيمة خلق ((الصبر)) .
٢٨١	- مفهوم الصبر عند الصالحين .
٢٨٢	- من فضائل الصبر .
٢٨٣	- الفرق بين الصبر والقسوة .
	- الصبر من أخلاق الأنبياء .
٢٨٥	- من أنواع الصبر .
٢٩٣	- الأسباب المعينة على الصبر .
٢٩٤	- دور علماء الأزهر في ترسيخ قيمة الصبر .
٢٩٦	- دور الأزهر المأمول في تعايش المجتمع بقيمة الصبر .
٢٩٧	- قيمة الشكر .
٢٩٨	- الفرق بين الحمد والشكر .
	- قالوا عن الشكر .
٢٩٩	- الشكر في القرآن .
	- الشكر في السنة .
٣٠٢	- كيف يكون الشكر ؟ .
٣٠٤	- خطورة الغفلة عن شكر الله ﷻ .
٣٠٥	- حوار نافع .
٣٠٦	- فهم لا يد منه .
	- الأزهر الشريف وقيمة الشكر لله .

٣٠٨	- قيمة العفو .
	- العفو في القرآن .
٣١٠	- العفو من أخلاق النبي الكريم ﷺ .
٣١١	- أهمية العفو في الإسلام .
	- العفو في حياة الأنبياء .
٣١٤	- العفو من أخلاق الصالحين .
٣١٥	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة العفو .
٣١٧	- دور الأزهر المأمول في إحياء قيمة العفو .
٣١٩	القيم الاجتماعية
٣٢٠	- قيمة العدالة .
	- العدل في القرآن .
٣٢٢	- العدل في السنة .
٣٢٥	- أقسام العدل .
٣٢٦	- العدالة الاجتماعية .
٣٢٧	- التكافل الاجتماعي صورة من العدالة الاجتماعية .
٣٢٨	- من حقوق المرأة في عدل الإسلام .
٣٢٩	- ثمرات العدل .
	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة العدل وتحقيق العدالة .
٣٣٢	- دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة العدل .
٣٣٣	- قيمة الحرية .
	- مفهوم مصطلح الحرية .
٣٣٤	- مفهوم الحرية في الإسلام .
٣٣٦	- الحرية من أعظم حقوق الإنسان .
٣٣٧	- الحرية في مفهوم الصالحين .

	- الحرية بين الادعاء والواقعية .
٣٣٩	- قالوا عن الحرية في الإسلام .
٣٤٢	- الحرية في الإسلام والاتجاهات السياسية الأخرى .
٣٤٣	- الإسلام أعظم دين كفّل الحرية للبشر .
٣٤٥	- هل الحرية تعني الإطلاق من كل قيد .
٣٤٦	- أنواع الحرية .
٣٤٨	- ضمان الإسلام لأنواع الحريات .
٣٥٢	- شبهة حول تكفل الإسلام بالحريات .
٣٥٥	- دور علماء الأزهر في ترسيخ قيم الحريات .
٣٦١	- قيمة المصالحة الاجتماعية .
٣٦٢	- الصلح في القرآن .
٣٦٤	- الصلح والإصلاح في السنة .
٣٦٧	- أهمية المصالحة وإصلاح ذات البين .
٣٦٨	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة الصلح .
٣٧٠	- دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة المصالحة الاجتماعية .
	- قيمة التناصح .
٣٧١	- ذكر النصيحة في القرآن .
	- النصيحة في السنة .
٣٧٢	- أهمية التناصح والنصح الاجتماعي .
٣٧٤	- أسباب نجاح التناصح الاجتماعي .
	- النصيحة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٣٧٥	- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٣٧٦	- من الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ .
٣٧٨	- واجب الدولة تجاه إحياء قيمة النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة النصح .
٣٨٠	- دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة النصح .
	- قيمة التعاون .
	- ذكر التعاون في القرآن .

٣٨١	- فضل التعاون .
	- أنواع التعاون .
	- أهمية التعاون في الإسلام .
٣٨٦	- دور الأزهر الشريف في ترسيخ قيمة التعاون .
٣٨٧	- دور الأزهر المأمول في ترسيخ قيمة التعاون .
٣٨٨	- قيمة الإيثار .
	- فضل الإيثار .
٣٩٠	- أنواع الإيثار .
٣٩٣	- صور من إيثار النبي ﷺ .
٣٩٤	- دور الأزهر وعلمائه في ترسيخ قيمة الإيثار .
٣٩٦	- قيمة الاهتمام بالشباب .
	- عناية الإسلام بالشباب ودورهم في الحياة .
٤٠٠	- دور الأزهر الشريف في الاهتمام بالشباب .
٤٠٢	- دور الأزهر المأمول في الاهتمام بالشباب .
٤٠٥	- قيمة تطبيق الشريعة وتعريفها وتفهم الناس لحقيقتها .
٤٠٧	- أهمية تطبيق الشريعة في المجتمع .
٤٠٩	- كيف نبدأ تعريف الناس بأهمية تطبيق الشريعة .
٤٠٩	- دور الأزهر في تطبيق الشريعة الإسلامية .
٤١٥	- دور الأزهر المأمول في تطبيق الشريعة .
٤١٨	- قيمة الاهتمام بحقوق المرأة .
٤٢٨	- دور الأزهر في الاهتمام بالمرأة وتقرير حقوقها .
٤٢٢	- المأمول في دور الأزهر في الاهتمام بحقوق المرأة .
٤٣٣	- قيمة الكفالة الصحية للفرد والمجتمع .
٤٣٩	- دور الأزهر الشريف في ترسيخ القيم الصحية .
٤٤٠	- دور الأزهر المأمول في الرقي بالصحة البشرية .
٤٤١	- قيمة الاهتمام بحقوق الطفل .
٤٤٨	- دور الأزهر الشريف في حماية حقوق الطفل .
٤٤٩	- دور الأزهر المأمول في الاهتمام بحقوق الطفل .

٤٥٠	- قيمة كفالة الأيتام وحقوقهم .
	- اهتمام القرآن بالأيتام .
٤٥١	- اهتمام السنة بالأيتام وحقوقهم .
٤٥٢	- دور الأزهر الشريف في ترسيخ قيمة الاهتمام بالأيتام .
	- دور الأزهر المأمول في الاهتمام بحقوق الأيتام .
٤٥٣	- قيمة رعاية حقوق المسنين .
٤٥٤	- حقوق المسنين على المسلمين والمجتمع .
٤٥٥	- دور الأزهر الشريف في حماية حقوق المسنين .
٤٥٦	- قيمة بر الوالدين .
	- أهمية بر الوالدين في الإسلام .
٤٥٨	- من حقوق الوالدين في الإسلام .
٤٦١	- دور الأزهر الشريف في ترسيخ قيمة بر الوالدين .
	- المأمول في دور الأزهر الشريف وحفظ حقوق الوالدين .
٤٦٢	- قيمة حقوق الجار .
٤٦٤	- حقوق الجار على جاره في الإسلام .
٤٦٥	- دور الأزهر الشريف في ترسيخ حقوق الجار .
٤٦٦	- دور الأزهر المأمول في ترسيخ حق الجار .
٤٦٧	- قيمة الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة .
٤٦٨	- الحكمة من خلق العاهات في بني آدم .
٤٦٩	- اهتمام النبي ﷺ بذوي الاحتياجات الخاصة .
٤٧١	- سبل الوقاية من الإعاقة في الإسلام .
٤٧٣	- دور الأزهر المأمول في العناية بحقوق ذوي الاحتياجات الخاصة .
٤٧٤	- قيمة المحافظة على البيئة .
	- محافظة الإسلام على البيئة .
٤٧٥	- سلوكيات إسلامية للحفاظ على البيئة .
٤٧٦	- دور الأزهر الشريف في المحافظة على البيئة وجمالها .

القيم العلمية

- ٤٧٩ - قيمة معرفة فضل العلم والتعليم .
- اهتمام القرآن بالعلم .
- ٤٨٣ - اهتمام السنة بالعلم .
- ٤٨٤ - أنواع العلم .
- دور الأزهر الشريف في نشر العلوم .
- ٤٨٧ - الدور المأمول للأزهر الشريف في النهوض بالعلوم .
- ٤٨٩ - قيمة احترام العلماء .
- اهتمام الإسلام بالعلماء وذكرهم في الكتاب والسنة .
- ٤٩١ - آداب العالم .
- آداب المتعلم .
- ٤٩٢ - دور الأزهر في ترسيخ قيمة احترام العلماء .
- ٤٩٣ - قيمة تحصين العقول .
- ٤٩٦ - أهداف حركات التغريب في المجتمعات الإسلامية .
- ٤٩٧ - دور الأزهر الشريف في مواجهة التغريب و تحصين العقول .
- ٥٠٢ - دور الأزهر المأمول في تحصين العقول من مخاطر التغريب .

القيم السياسية

- ٥٠٥ - قيمة المواطنة .
- ٥٠٦ - أهمية الولاء للوطن .
- ٥٠٧ - المواطنة في الإسلام .

٥١١	- حب الوطن من الإيمان .
٥١٦	- دور الأزهر في ترسيخ قيمة المواطنة .
٥١٩	- دور الأزهر المأمول في ترسيخ المواطنة .
٥٢٠	- قيمة الشورى .
٥٢٢	- الشورى في الإسلام .
٥٢٦	- الفرق بين الشورى الإسلامية والديموقراطية الغربية .
٥٣١	- الصورة الأولى لمجلس الشورى في الإسلام .
	- حقوق غير المسلمين في الشورى .
٥٣٢	- دور الأزهر الشريف في ترسيخ قيمة الشورى .
٥٣٣	- الدور المأمول للأزهر الشريف في ترسيخ قيمة الشورى .
٥٣٤	القيمة الإعلامية
٥٣٦	- الصدق في الأداء .
٥٣٨	- التحلي بالأخلاق الكريمة في الأداء الإعلامي .
٥٣٩	- العمومية والشمول .
٥٣٩	- تحقيق الأهداف السامية .
٥٤٠	- مواجهة الإعلام التغريبي .
٥٤٢	- محظورات يجب تجنبها إعلاميا .
	- دور الأزهر الشريف المأمول في الارتقاء بالإعلام .
٥٤٥	- الخاتمة .
٥٤٨	- الفهارس .
٥٤٩	- فهرس المراجع والمصادر .
٥٧٣	- فهرس الموضوعات .
	

